

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الثامن

الإسراء والكهف ومريم وطه


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ الإِسْرَاءِ (١٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الإسراء) هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف، والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة القصص، وقبل سورة يونس.

وهي سورة مكية كما جاء في صحيح البخاري وغيره، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بنو إسرائيل والكهف، ومريم، إنهن من العتاق الأول، وهنَّ من تِلادي[1].

وجاء عن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ كان يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر[2].

وعدد آياتها إحدى عشرة ومئة آية في المصحف الكوفي، ومئة وعشر آيات في بقية المصاحف.

وهي ألف وخمس مئة وثلاث وثلاثون كلمة، وستة آلاف وأربع مئة وستون حرفًا.

وهذه السور الثلاث: الإسراء، والكهف، ومريم من السور العتيقة، أي: من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ بمكة، ومن أول ما تعلَّم ابن مسعود من القرآن، وأن لهن فضلًا؛ لما فيهن من القصص، وأخبار الأنبياء والأمم.

فالعتاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو أنه الذي بلغ الغاية في الجودة، ومعنى **تِلَادي**: أي مما حُفظ قديمًا.

---

(١) البخاري في التفسير برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٨٩) برقم (٢٤٣٨٨، ٢٤٩٠٨، ٢٥٥٥٦) قال محققوه: حديث صحيح، دون قوله (وكان يقرأ...) الخ، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١١٦٣) من طريق أبي لبابة، وقد وثقه ابن معين، وتوقف ابن خزيمة في تصحيحه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٧١١) و«صحيح الجامع الصغير» (٤/ ٢٥٠) وقال الترمذي: حديث حسن غريب كما في «السنن» برقم (٢٩٢٠)ولفظه عنده (كان النبي ﷺ لا ينام على فراشه حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر) وسكت عنه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٤٣٤) وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٧١٢) وفي «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (٦٤١).

شهرتها: تسمى: سورة الإسراء، لذكر حادثة الإسراء في الآية الأولى منها.

وتسمى: سورة بني إسرائيل، للحديث السابق ذكره، وللحديث عنهم في سبع آيات بعد الآية الأولى.

وتسمى أيضًا: سورة سبحان، لافتتاحها بالتسبيح، ولا يكون هذا إلا لأمر جلل عظيم يأتي ذكره بعد التسبيح، وهو هنا إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في لحظة من الليل، وهذا كمن يذكُرُ أمرًا غريبًا، فيقول المستمع متعجبًا (سبحان الله).

وفي القرآن الكريم ست سور أخرى افتتُحت بمادة التسبيح:

١- منها ما جاء بفعل الأمر ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ والأمر الجلل بعده هو الخلق والتقدير لهذا الكون.

٢- ومنها ما جاء بالفعل الماضي وهو سور: الحديد والحشر والصف، أما سورة الحديد، فَلِذِكْرِ اثنين وعشرين اسمًا وصفة لله تعالى في مطلع السورة.

وأما سورة الحشر، فلإخراج بني النضير من ديارهم لأول الأرض التي حُشروا إليها.

أما سورة الصف، فلأن الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا.

٣- ومنها ما جاء بالفعل المضارع، وهو سورة الجمعة، والأمر الجلل في أولها هو بعثة محمد ﷺ إلى هذه الأمة، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم.

وفي سورة التغابن، كان التسبيح لخلق الإنسان وتصويره في أحسن صورة، وخلْق العالم العلوي والسفلي.

والآية الأولى من سورة الإسراء هي الآية الوحيدة المختومة بحرف الراء، وبقية آيات السورة مختومة بالألف.

موضوعات السورة:

وقد تحدثت الآية الأولى عن الإسراء، وأما الحديث عن المعراج فقد جاء في أول سورة النجم ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم]

وتحدثت السورة في أوائلها عن إفساد بني إسرائيل في الأرض، كما تحدثت عن القرآن

الكريم في أحد عشر موضعًا منها.

وتحدثت عن أحكام وآداب إسلامية كثيرة، ذُكر في الربع الثاني منها بضعة وعشرون تكليفًا شرعيًّا في ثماني عشرة آية، بدأت بالأمر بتوحيد الله تعالى، وانتهت بخُلُق التواضع وعدم الكبر، وهي الوصايا التي ذكرتْها ألواح موسى عليه السلام.

وتحدثت السورة أيضًا عن موقف المشركين من رسالة محمد ﷺ، وطلبهم منه خوارق العادات، كما تناولت بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، كالليل والنهار، وتحدثت عن البعث والنشور، والحساب والجزاء.

وذُكر فيها قصة آدم وإبليس وإغوائه بني آدم، وقعوده لهم بالمرصاد، وساقت السورة ألوانًا من نعم الله تعالى على خلقه في البَرِّ والبحر، وبيَّنت سنن الله تعالى التي لا تتخلف في شأن الهُدَى والضلال بالنسبة للعباد، وخُتِمت السورة بالحمد، كما افْتُتِحت بالتسبيح.

وبذلك فإن السورة تناولت شؤون العقيدة، والرسالة، والمعاد، وهذه الثلاثة هي عناصر القرآن المكي.

وباستعراض مجمل آيات السورة نجدها تشير -بعد الافتتاح بالحديث عن الإسراء- إلى التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام؛ لتكون هداية لبني إسرائيل، ولكنهم حرَّفوها وبدَّلوها، وأفسدوا في الأرض إفسادتين كبيرتين، بتحريفهم للتوراة، وقتلهم لأنبياء الله: شعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام، وكفرهم بمحمد ﷺ بعد اعترافهم به ووعدهم بالإيمان به حين يُبعث، ولا يزال إفسادهم متجددًا متواصلًا بأهل فلسطين وغيرهم، وبمحاولاتهم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم، وهذا الإفساد مصحوب بخُذلان الله تعالى لهم، وانتقامه منهم.

وبعد الحديث عن كتاب موسى عليه السلام أشارت السورة إلى كتاب محمد ﷺ الذي أنزله الله عليهم هداية للبشر إلى التي هي أقوم، وليبشر المؤمنين بالأجر الكريم، ويبيِّن لهم أن كل إنسان محاسب يوم القيامة، ومجزيٌّ بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وأن كل نفس لا تتحمل إثم نفسٍ أخرى.

ثم أشارت السورة إلى أن سُنَّة الله تعالى في خلقه، أن تكون عاقبة أهل البطر والفسق

هي الدمار والهلاك، ومن يَسْعَ للدنيا تكن نهايته جهنم، ومن يسْعَ للآخرة تكن نهايته الجنة، وهذا مجمل ما جاء في الربع الأول من السورة.

الأوامر والنواهي في الربع الثاني من السورة:

ثم ذكرت السورة **أربعة عشر** من الأوامر والنواهي الإلهية، جاء ذكرها في ثماني عشرة آية من الآية ٢٢-٣٩، وهي:

١- النهي عن الشرك بالله تعالى في قوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [٢٢]

٢- الأمر بالتوحيد: وقُدِّم النهي عن الشرك على الأمر بتوحيد العبادة لله في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [٢٣]؛ لأن التخلية تكون قبل التحلية.

٣- ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ٱلدُّنْيَآ﴾ [٢٣] وخفض الجناح لهما، ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ونهتْ عن أدنى ما يؤذيهما، سِيَّمَا عندما يتقدم بهما العمر، وتشتد الحاجة إلى الأبناء ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾.

٤- وتلا ذلك الأمر بصلة الرحم، ومدِّ يد العون إلى المسكين، وابن السبيل، وحُسْن القول عند فقْد المادة. ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

٥- ونهت آيات الله تعالى في السورة عن الإسراف والتبذير، وصوَّرت المبذرين في أقبح صورة؛ حيث جعلتْهم إخوانًا للشياطين، والشيطان كافر بربه:

﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾.

٦- كما نهت عن التقتير والبخل، وأمرت بالتوسط والاعتدال في الإنفاق.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.

٧- ونهت أيضًا عن جريمة الإجهاض، وتحديد النسل، ونحوهما، خوفًا من الفقر؛ فإن الرزق بيد الله تعالى، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾

٨- ونهت عن جريمة الزنى وسائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

٩- كما نهت عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وبيَّنت أن المقتول ظلمًا منصور ولا بُدَّ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

١٠- ونهتْ عن أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

١١- وأمرتْ الآيات بالوفاء بالعهد والوعد، وبينت مسؤولية ذلك عند الله تعالى.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

١٢- كما أمرت الآيات بوفاء الكيل والميزان في البيع والشراء، وسائر الأمور المادية والمعنوية. ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

١٣- ثم نهت عن القول بغير علم؛ فقد جاء ذلك قرين الشرك في كتاب الله تعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

١٤- وأشارت إلى أن الإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، فلا يستعملهم إلا في طاعة الله سبحانه. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

١٥- وخُتِمت هذه الوصايا بالنهي عن الكبر، والغرور، والخيلاء، سواء أَمَشَى الإنسان على الأرض بقدميه، أم بدابته، أم بسيارته، أم بطائرته، أم بغير ذلك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

وكما بدأت هذه الأحكام بالنهي عن الشرك بالله تعالى ختمت كذلك بالنهي عن الشرك به جل شأنه ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [٣٩].

ذِكْرُ لفظ القرآن في السورة أحد عشر مرة:

وقد جاء ذكر لفظ القرآن في السورة في إحدى عشرة آية بما لم يقع في سورة أخرى:

١- فقد أشارت في الآية التاسعة من السورة إلى أن هذا القرآن يهدي إلى أقوم الطرق وأعدلها. ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

٢- وأشارت الآية الحادية والأربعون إلى أن الله تعالى قد صرَّف وجوه الهدايات في هذا القرآن ونوَّعها؛ ليتذكر الناس ويعتبروا، ولكنَّ الكافرين لا يزدادون إلا نفورًا:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

٣- وذكرت الآية الخامسة والأربعون أن غير الموحِّد تشمئز نفسه إذا سمع كلام الله لأن الله قد جل بينه وبين قارئ القرآن حجابًا ساترًا فينصرف مُدْبرًا نافرًا.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

٤- وبيَّنت الآية السادسة والأربعون أن قلوب غير المسلمين عليها أغطية، وحجاب ساتر، يحجب عقولهم عن الانتفاع بما في القرآن، والاهتداء بهديه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

٥- وفي الآية الستين ذِكْرُ شجرة الزقوم، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، وجاء ذكرها ابتلاءً للناس وتخويفًا لهم؛ كي يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

٦، ٧- وذُكر لفظ القرآن مرتين في الآية الثامنة والسبعين؛ للإشارة إلى إطالة القراءة في صلاة الفجر؛ لأن الملائكة تحضر هذه الصلاة:

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

٨- وأشارت الآية الثانية والثمانون إلى أن القرآن علاج لأمراض القلوب، والأبدان، والأرواح، وهذا العلاج لا يستفيد منه غير المسلم؛ لأنه قد حَرَم نفسه الهداية، ففسق عن أمر ربه، وضل الطريق الموصِّل إلى رضوان الله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

٩- وأشارت الآية الثامنة والثمانون إلى أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يتسنَّى لهم ذلك، ولو تعاونوا وتضافروا بجميع ما يملكون من قدُرات، وأموال، ومهارات. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

١٠- وأشارت الآية التاسعة والثمانون إلى أن الله تعالى قد ضرب الأمثال، ونوَّع الأساليب في هذا القرآن فأبى أكثر الناس إلا جحودًا للحق، ونكرانًا لحجج الله على خلقه. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

١١- وبيَّنت الآية السادسة بعد المئة أن هذا القرآن يُقرأ بتُؤدة، وتمهُّل، وتدبُّر، كما أنه نزل مفرَّقًا، وموزَّعًا وفق الحوادث، ومقتضى الأحوال:

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

وقد ذُكر القرآن في هذه السورة بألفاظ أخرى كثيرة؛ كلفظ الوحي، والروح، وأسماء الإشارة، والموصول، وعوْد الضمير عليه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [٨٦].

وفي أعقاب ذلك تأتي اقتراحات المكذبين بالقرآن، الذين يطلبون من النبي ﷺ أن يأتي لهم ببدائل أخرى غير القرآن، بأن يفجِّر لهم الأرض، أو تكون له حدائق وبساتين، أو ينزِّل السماء عليهم قطعًا، أو يأتي لهم بالله والملائكة عيانًا، أو يكون له قصر من ذهب، أو يصعد إلى السماء ويأتي لهم منها بكتاب منشور يقرؤون فيه أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم على كل ذلك قائلًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [٩٣]. وهذه الآيات من [٩٠-٩٦]،

ويتبع ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [٥٩].

ومن حديث السورة عن القرآن يتبيَّن أن من أهل الكتاب مَنْ عرفوا الحق، ولم ينكروه وأنهم إذا تُليَ عليهم هذا القرآن خروا سجدًا وبكيًّا، وسبحوا بحمد ربهم، وزادهم ذلك خشوعًا وإيمانًا من [١٠٧-١٠٩].

أما حديث السورة عن يوم القيامة فمنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

ومن ذلك إنكار الكفار والملحدين لليوم الآخر قائلين: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾.

ومن حديث السورة عن الشرك والمشركين، ما جاء في قوله تعالى:

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾.

ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى في السورة قوله: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [٦٦]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ [٦٧] ويأتي بعد هاتين الآيتين وعيد لكل من عصى الله تعالى أن يخسف الله بهم الأرض، أو يرسل عليهم قاصفًا من الريح يهلكهم ويبيدهم.

وجاء ختام السورة مشيرًا إلى إنكار الكفار أن يدعو المسلم ربه بقوله: يا ألله، يا رحمن، فبيَّن سبحانه أن له الأسماء الحسنى، وأن للمسلم أن يدعو ربه بما شاء منها، وأن له تعالى الثناء الحسن، والذكر الجميل، وأنه جلَّ شأنه ليس له شريك في ملكه، وهو الغني عن خلقه، والخلق كلهم محتاجون إليه، فكبِّره تكبيرًا.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الإِسْرَاءُ وَالْمِعْرَاجُ

١ - ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ[1] بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾

بدأت السورة بلفظ: ﴿سُبْحَٰنَ﴾ وفي القرآن الكريم سبع سور افتتحت بالتسبيح أولها هذه السورة، فُتِحت بالمصدر سبحان، وآخرها سورة الأعلى، افتتحت بفعل الأمر:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

أما سور: (الحديد، والحشر، والصف) فقد افتتحت هذه الثلاث بالفعل الماضي ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأما سورتا (الجمعة، والتغابن) فافتتحتا بالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

والتسبيح يؤتى به عند الأمر العجيب، فعندما يتعجب العبد من شيء يقول: سبحان الله، وافتتاح السورة بالتسبيح يشير إلى الخبر العجيب الذي يستقبله السامعون في الآية بما يدل على عظيم قدرة الله تعالى، ورفع منزلة المتحدَّث عنه، وهذا التعجب بالنسبة لخبر الإسراء، وشأن المُسْرَىٰ به ﷺ.

ومعنى التسبيح: تنزيه الله ﷻ عن كل نقص، وعن كل ما لا يليق بجلاله.

وجميع الكائنات تسبح بحمد الله تعالى، وتنزهه عن كل نقص: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [٤٤] السماوات ومن فيها، والأرض ومن فيها وما فيها، وما من شيء عاقل أو غير عاقل، جماد، أو حيوان، أو نبات، أو طير، وغير ذلك إلا سبح الله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

متى كان الإسراء: ابتدأت سورة (الإسراء) بالحديث عن الإسراء، وليس هناك نص صريح صحيح يثبت متى كان تاريخ الإسراء بالليلة، وبالشهر، وبالسنة، على وجه

---

(١) أمال (أسرى) أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وابن ذكوان بخلْف عنه، وقللها ورش.

التحديد، لا يوجد دليل قطعي على ذلك، ولكن الإسراء نفسه حدث قطعًا، وهو حادثة عظيمة لرسول الله ﷺ ثابتة بالكتاب، وبما تواتر عن رسول الله ﷺ، وقد رواه أكثر من عشرين من صحابة النبي ﷺ، ولكن الزمن أو الوقت الذي وقع فيه الإسراء غير معروف على وجه القطع.

١- فقيل: إنه كان في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، أي: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، وهذا أرجح الأقوال.

٢- وقيل: كان في السابع عشر من الشهر نفسه، أو في السابع والعشرين منه.

٣- وقيل: إنه كان في شهر ربيع الآخر، وقيل: كان في شهر رمضان.

٤- وقيل: كان في شهر رجب، والقائل بأنه كان ليلة السابع والعشرين منه هو الحافظ المقدسي[١].

هذه أقوال كثيرة، ولا يوجد منها دليل قطعي على أنه كان في ليلة معينة، أو في شهر معين منها، ويرجح أنه كان قبل الهجرة بسنة، بعد وفاة خديجة ﷺ ووفاة أبي طالب في عام الحزن.

وكانت هذه الرحلة تسلية للنبي ﷺ بعد أن صدَّه أهل الطائف، وأدمَوْا عقبيه، فأرسل الله له الجن -وهو في عودته إلى مكة- حيث استمعوا إلى القرآن، وآمنوا به، ثم كان الإسراء، كأنَّ الله تعالى يقول له: إن لم يؤمن بك الإنس فقد آمن بك الجن، وإن لم تتَّسع لك الأرض فإن مكانك فوق السماء.

وبناءً عليه: فإن تخصيص ليلة معينة بليلة الإسراء هو تخصيص بلا مخصص، وليس عليه دليل.

على أن الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، وليلة الهجرة، وليلة ميلاد النبي ﷺ وغيرها، هذه الاحتفالات ليس لها أصل من كتاب أو سنة، ولم تحدث في عهد رسول الله ﷺ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، ولم يقم عليها دليل، ولم يفعلها صحابة النبي ﷺ، ولا التابعون، ولو كان ذلك خيرًا لسبقونا إليه، وصيام النبي ﷺ ليوم الاثنين الذي ولد فيه هو شُكْر منه لربه الذي خلقه، ولا أرى فيه دليلًا على الاحتفاء بهذا اليوم، كما أن ثناء حسان بن ثابت على رسول الله ﷺ لا يدل على ذلك، وإذا وُجد من يحتفلون بهذه

---

(١) تفسير القاسمي (١٠/ ٢٨٨٨).

المناسبات في المساجد فإن عامة المسلمين يرتكبون الموبقات في هذه الاحتفالات، التي تقام في السرادقات ونحوها، فَسَدُّ الباب أولى.

١- أُسرِي برسول الله ﷺ من مكة ليلًا إلى المسجد الأقصى.

٢- وهناك أحاديث تشير إلى أن الإسراء كان من بيت أم هانئ، أخت عليٍّ بن أبي طالب، ابنة عم رسول الله ﷺ.

٣- وهناك أحاديث تقول: إن الإسراء كان من المسجد الحرام، من الحطيم أوالحِجْر.

والجمع بينها: أن النبي ﷺ كان في هذه الليلة في بيت أم هانئ، ثم انتقل من فراشه الذي كان ينام فيه إلى المسجد الحرام، فلما كان في الحَطيم، أو الحِجْر، بين النائم واليقظان، أُسري به إلى بيت المقدس، ثم عُرِج به إلى السماوات العلا، ثم عاد إلى فراشه قبل أن يبرد مكانه كما في بعض الروايات.

وكانت قريش في الجاهلية قد بنت بيوتها حول المسجد الحرام، وبنى قُصيٌّ دار الندوة بالقرب منه، فكانوا يجلسون فيها حول الكعبة، وكانت دار الندوة تنفذ إلى المسجد الحرام مباشرة؛ إذ لم يكن للمسجد جدار يُحفظ به، وكانت الطرق المؤدية إلى المسجد من هذه البيوت تسمى أبوابًا، مثل: باب بني شيبة، وباب بني هاشم، وباب بني مخزوم، وهو باب الصفا، وباب بني سهم، وباب بني تميم، وهي العشائر المحيطة بالمسجد الحرام، ومجموع البيوت كانت تسمى شِعْبًا، وأول من جعل للمسجد الحرام جدارًا يحفظ به هو عمر بن الخطاب ﷺ سنة سبع عشرة من الهجرة.

وجاء **وصْفه بالحرام**؛ لأنه لا يحل انتهاكه بقتال فيه، ولا بصيد يصاد فيه، ولا بقطع شجره، فمعنى المسجد الحرام، أي المحرم.

وبينما كان رسول الله ﷺ بين الحِجْر والحطيم، كما جاء في رواية أنه ﷺ كان في الحِجْر في المسجد الحرام، وفي رواية أخرى أنه كان في الحطيم جاءته الملائكة فشقَّت صدره وغسلته بماء زمزم، وملأته علمًا، وحِكمة، وإيمانًا.

وشق الصدر هذا كان مرة ثانية سبقها شق صدر رسول الله ﷺ وهو مسترضَع عند حليمة السعدية، صبي صغير، قبل أن يعود إلى أحضان أمه في مكة المكرمة.

وقيل: إن هناك شَقًّا ثالثًا لصدر رسول الله ﷺ كان عند البعثة.

وكان هذا الشق بطريقة حسية لا تبعد على رب العالمين، ولا نعلم كيفيتها، وقيل: إنه كان بطريقة معنوية، ويرجّح الأول.

وشق الصدر، في حادثة الإسراء، كان إعدادًا وتهيئة للنبي ﷺ إلى هذه الرحلة المباركة في صحبة جبريل عليه السلام؛ ليجوب الآفاق، وليطوف به فوق سبع سموات، وهذا يحتاج إلى إعداد خاص، ونحن نعلم كيف يُجَهَّزُ رُوَّاد الفضاء لغزو الفضاء، ولله المثل الأعلى ولرسوله.

وفي صحيح مسلم وغيره: من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة قال: قال نبي الله ﷺ: **«بينا أنا عند البيت، بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلًا يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأُتيتُ فانطُلِق بي، فأُتِي بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري من كذا إلى كذا»** قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه **«فاستخرج قلبي فغُسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيمانًا وحكمة، ثم أُتيتُ بدابة أبيض، يقال له: البراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خَطْوُهُ عند أقصى طرفه، ثم حُملتُ عليه، ثم انطلقنا عليه، حتى أتينا السماء الدنيا...»**[(١)].

وعند أحمد وغيره: أن النبي ﷺ كان في الحطيم، أو في الحجر بين النائم واليقظان، **«إذ أتاني آت فشق ما بين هذه إلى هذه»**[(٢)].

أتى جبريل بالبراق، وركبه النبي ﷺ حتى وصل إلى المسجد الأقصى[(٣)].

بناء المسجد الأقصى:

وسُمِّي بالمسجد الأقصى؛ لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، وقيل: لأنه لم يكن

---

(١) الحديث بطوله في صحيح مسلم برقم (١٦٤) وصحيح البخاري برقم (٣٢٠٧) و (٣٣٩٣) و (٣٤٣٠) و (٣٨٨٧).

(٢) يُنظَر: الحديث في «المسند» (٤/ ٢٠٨) برقم (١٧٨٣٣-١٧٨٣٧) والترمذي (٣٣٤٦) والنسائي (٤٤٧) وفي «الكبرى» (٣١٣).

(٣) ذكره ابن كثير في آخر الحديث عن الإسراء، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٢٤) عن أبي نعيم في «دلائل النبوة» وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢) وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٠٢).

هناك مسجد بعده، فقيل: المسجد الأقصى، وهو الذي بُني بعد المسجد الحرام بأربعين عامًا، كما جاء ذلك في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو ذر ﵁ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ مسجد وُضع في الأرض أوَّلًا؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قال: قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»[1].

فالمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم ﵇، وكانت المدة بين المسجدَيْن أربعين عامًا، وهذه المدة كانت في حياة إبراهيم ﵇، الذي قُرن ذِكْره بذكر المسجد الحرام.

وجاء في سِفْر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: أن إبراهيم ﷺ لما دخل أرض كنعان نصب خيمته في الجبل شرق بيت إيل، وَغربي بلاد عاي، وبنى هناك مذبحًا للرب.

وأرض كنعان هي أرض فلسطين، وبيت إيل، مدينة على بُعد أحد عشر ميلًا من أورشليم إلى الشمال، وكان اسمه عند الفلسطينيين (لوزا) فسماه يعقوب (إيل) وبلاد عاي تعرف الآن (الطَّيِّبة) والمذبح، هو المسجد؛ فقد كانوا يذبحون القرابين في مساجدهم، ويطلقون اسم المذبح على المسجد[2].

وعلى هذا فإن إبراهيم ﵇ هو الذي بنى المسجد الأقصى بعد بنائه للكعبة بأربعين عامًا، وهو الموضع الذي وضع عليه داود خيْمته، وبنى عليه محرابه، كما أوحى الله إليه، وأوصى ابنه سليمان أن يبني عليه الهيكل، وقد جاء ذلك في سِفْر الملوك من أسفار التوراة.

تخريب المسجد الأقصى: وقد تخرَّب المسجد الأقصى ثلاث مرات:

المرة الأولى: على يد بخْتنصَّر ملك بابل سنة ٥٧٨ قبل الميلاد، ثم جدده اليهود تحت حكم الفرس.

والمرة الثانية: على يد الرومان في عهد ملكهم (طيطس) بعد حروب طويلة بينه وبين اليهود، وأُعيد بناؤه، فأكمل تخريبه أدريانوس سنة ١٣٥ قبل الميلاد، ولم يبق منه إلا أطلال.

والمرة الثالثة على يد الملكة (هيلانة أم قسطنطين) ملك الروم حين زارت أورشليم،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٠) و«صحيح البخاري» برقم (٤٣٢٥، ٣٣٦٦).

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١٥/١٦).

فأمرت بأن يُجعَل موضع المسجد الأقصى مرمى للزبالة والقمامة.

ولما فتح المسلمون أرض الشام في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، جاء بنفسه ليشهد فتح مدينة فلسطين بما فيها القدس الشريف، وكانت تسمى أورشليم، وعرفها العرب باسم إيلياء وهو اسم من أنبياء بني إسرائيل كان في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد، وتم الصلح بين عمر وأهل فلسطين، وكانوا نصارى يمثلهم البَطْريق صفرونيوس[١].

وإيلياء اسم بيت المقدس قبل الإسلام، وبعد الإسلام سميت بيت المقدس، كما أن تسمية إيلياء بالمسجد الأقصى من مبتكرات القرآن؛ إذ لم يكن معروفًا بهذا الاسم قبل الإسلام.

والبنيان القائم للمسجد الأقصى الموجود الآن، أي: حوائطه وبنيانه، هو الذي حدث في الدولة الأموية، بناه عبد الملك بن مروان، وأكمل البناء بعده الوليد ابنه، وكان جبريل عليه السلام قد ربط البراق في الحلقة التي في حائط البراق، ويزعم اليهود أن اسمه: حائط المبكى، وهو الحائط الذي رُبط فيه براق النبي ﷺ ليلة أن أُسرِي به إليه، ودخل ﷺ المسجد الأقصى، وصلى ركعتين تحية المسجد.

أثر مربط البراق في زاوية المسجد الأقصى:

وهنا وقفة: فإن أبا سفيان لما كان بين يدي هرقل قيصر الروم، حين استدعى مَنْ بالشام من التجَّار، فجيء بأبي سفيان، وأخذ يسأله عن سيرة محمد ﷺ، وأبو سفيان يريد أن يطعن في النبي ﷺ، ولكنه يقول: أخاف أن أسقط من عيني هرقل، إني لا أريد أن أكذب كذبة، فيأخذها عليَّ، ثم لا يصدقني بعد ذلك.

قال أبو سفيان لهرقل: سأذكر لك خبرًا تعرف منه كذب محمد ﷺ قال: ما هو؟ قال: إنه يزعم أنه خرج من أرضنا، أي: أرض الحرم إلى المسجد الأقصى، فصلى فيه ثم رجع من ليلته قبل الصباح إلى المسجد الحرام، وكان يقف عند رأس القيصر، بَطْرِيقُ إيلياء، وهذا البَطْرِيقُ من بطارقة النصارى هو الخاص ببيت المقدس، وكانت الديانة النصرانية هي المنتشرة في هذا المكان قبل الإسلام.

وكان هذا البَطْرِيقُ موكَّلًا بأن يقفل أبواب المسجد الأقصى عند الليل.

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/ ١٧).

قال البَطْرِيقُ لَمَّا سمع كلام أبي سفيان: لقد عرفتُ هذه الليلة، أي: التي جاء فيها محمد ﷺ إلى المسجد الأقصى، فنظر إليه قيصر وقال: وما عِلْمُك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة حتى أُغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أَغلقْتُ الأبواب كلها غير باب واحد غلبني، فاستعنتُ عليه بعمَّالي ومن يحضرني كلهم، فعالَجْتُه فغلبَني، فلم نستطع أن نحرِّكه، كأنما نزاول به جبلًا، فدعوتُ إليه النجارين، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان، ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى؟!

قال: فرجعتُ وتركتُ البابين مفتوحين، فلما أصبحتُ غدوتُ عليهما فإذا المجرُّ الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة.

قال: فقلت لأصحابي: ما حُبس هذا الباب الليلة، إلا على نبي، وقد صلى هذا النبي الليلة في مسجدنا[١].

١- في حديث أنس بن مالك ﷺ في صحيح مسلم، وغيره ،أن النبي ﷺ قال: **«أُتيت بالبراق، وهو دابة، أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبتُه حتى أَتيْتُ بيت المقدس، قال: فربطتُه في الحلقة التي يَرْبِطُ بها الأنبياء، قال: ثم دخلتُ المسجد، فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريل ﵇ بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن»**، فقال جبريل ﵇: اخترتَ الفطرة، ثم عَرَج بنا إلى السماء. . . . الحديث[٢].

٢- وفي جامع الترمذي: عن بريدة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما انتهينا إلى بيت المقدس، قال جبريل كذا بأصبعه، فخرق به الحجر، وشدَّ به البراق»**[٣] ومعنى قال: كذا، أي: ضرب الجدار بأصبعه.

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٢٢٤) وفي الطبعة المحققة (٩/ ٢٢٦) وقد أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» عن محمد بن كعب القرظي.

(٢) بطوله في «صحيح مسلم» برقم (١٦٢) و«صحيح البخاري» (٧٥١٧) والطبري (١٤/ ٤١٦) و«المسند» (٣/ ١٤٨) برقم (١٢٥٠٥) وعن حذيفة برقم (٢٣٣٣٢، ٢٣٣٣٣).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٣١٣٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب. وصحح إسناده الألباني في صحيح الترمذي (٢٥٠٤).

٣- وفي رواية البزار: «**أن جبريل أتى صخرة بيت المقدس، فوضع إصبعه فيها، فخرقها، فشدَّ به البراق**».

٤- وأخرج عبد الرزاق عن قتادة عن أنس قال: أُتي النبي ﷺ بالبراق ليلة أُسري به مُسْرجًا مُلجمًا ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبك أحد قط أكرم على الله منه، فارْفَضَّ عرقًا[(١)]، أي: تصبب، وسال عرقًا وسكن.

وقد كان الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، وكان المعراج ليلتها من بيت المقدس إلى السماوات العلا.

من مشاهد ليلة العُروج: ثم نُصِبت الصخرة لرسول الله ﷺ، وعُرِج به إلى السماوات، ورأى المقربين والأنبياء في كل سماء حيث أحياهم الله له.

رأى آدم في السماء الأولى ينظر على يمينه فيُسَرُّ حين يرى أبناءه في الجنة، وينظر عن يساره فيستاء حين يرى أبناءه في النار.

ووجد يحيى وعيسى -ابني الخالة- في السماء الثانية، ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم] وهارون في السماء الخامسة، ووجد موسى في السماء السادسة.

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، فرضها الله هكذا أوَّلًا؛ حتى لا تستكثر أمته الخمس صلوات إذا عرفت أنها كانت خمسين في أول الأمر، ثم خففها الله علينا رحمة بنا، وجعلها خمسة في الفعل وخمسين في الأجر والثواب.

وفي السماء السابعة وجد النبي ﷺ إبراهيم عليه السلام وقد أسند ظهره إلى البيت المعمور، ثم تجاوز السماء السابعة، حتى سمع صريف الأقلام في الألواح، وزجَّ به جبريل في النور، وتأخر عنه قائلًا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤﴾ [الصافات].

---

(١) تفسير عبد الرزاق برقم (٣١٣١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٠٣) وهو في «المسند» (٣/ ١٦٤) برقم (١٢٦٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٢٨) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٢٦).

وتقدم النبي ﷺ وحده، ورأى من آيات ربه الكبرى، رأى سدرة المنتهى التي ينتهي إليها ما يصعد من أسفل، وما يهبط من أعلى.

ورأى جبريل على صورته الحقيقية وله ست مئة جناح ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم] ورأى رفرفًا أخضر قد سدَّ الأفق.

ورأى البيت المعمور في السماء السابعة يطوف حوله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثانية.

ورأى الجنة والنار، وقد صوَّر الله له نعيم أهل الجنة، وصوَّر له عذاب أهل النار بصور حسية، ومن ذلك تجسيد الثواب والعقاب كثواب المجاهدين في سبيل الله، وتمثيل ذلك بمن يزرع في يوم ويحصد في يوم، كلما حصد عاد الزرع كما كان.

وكما في عقاب من تثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة بقوم تُرضَخ رؤوسهم بالصخر والحجارة، وكذا تصوير عقاب الزناة بقوم أمامهم لحم طيب وآخر خبيث، فيتركون الطيب ويذهبون إلى الخبيث.

وهكذا الذين يأكلون الربا، وصوَّر الذين يغتابون الناس بأن لهم أظفارًا من نحاس يخمشون بها وجوههم ... إلخ. ثم نزل ﷺ إلى بيت المقدس، وأنزل الله معه الأنبياء الذين رحبوا به في السماوات، وصلى بهم إمامًا.

الرسول محمد يؤم الرسل في المسجد الأقصى:

جاء في بعض الروايات أن هذه الصلاة كانت قبل العروج، والأرجح أنها كانت بعد العروج، أي: بعد أن رجع النبي ﷺ، والتقى بالأنبياء والمرسلين، ثم نزل ونزلوا معه وصلى بهم إمامًا، وهذه الصلاة يُرجَّح أنها صلاة الصبح؛ لأن النبي ﷺ عاد إلى مكة بعدها، وهذه الإمامة تشير إلى أن المصطفى ﷺ هو النبي الخاتم.

وقد كان اليهود يقولون لرسول الله ﷺ: ما من نبي بُعث قبلك إلا بُعث في بيت المقدس، أو هاجر إلى بيت المقدس، أو وُلد في بيت المقدس، وأنت جئت من مكان آخر، ومن ذرية أخرى، ولست من بني إسرائيل، فأخذ الله رسوله إليه في رحلة إلى بيت

المقدس؛ ليؤم الأنبياء والمرسلين؛ كي يبيِّن الله سبحانه لهم ولغيرهم في درس عملي أن الراية والقيادة، وعموم الرسالة، إنما هي لهذا النبي الخاتم، فها هو قد جاء بيت المقدس، وها هو يؤم جميع الرسل.

وهذه الصلاة تجسيد للميثاق المأخوذ على الأنبياء جميعًا وهم في عالم الغيب ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

وفي هذا حث للخلق جميعًا -وفي مقدمتهم اليهود والنصارى- على اتباع صاحب هذه الرسالة التي نَسختْ ما قبلها من الرسالات.

وكل ما حدث في الإسراء والمعراج لا يخضع لمنطق العقل، ولا تتحكم فيه الماديات، فكله أمر خارق، ومن ذلك أن الإسراء والمعراج كانا بجسد النبي ﷺ وروحه، في هذا الوقت القصير، وقد قال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أي: جسدًا وروحًا، يقظة لا منامًا.

شرف مقام العبودية لله: والنبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله، وأرفعهم عنده منزلة؛ لكماله في مقام العبودية، حيث ذكَره اللهَ بها في أشرف مقاماته:

ففي الإسراء (أسرى بعبده)، وفي المعراج ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم].

وفي مقام الدعوة إليه سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن].

وفي مقام التحدي بإعجاز القرآن ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي مقام الوحي والرسالة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

وقال ﷺ -فيما يرويه ابن عباس ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»**[١].

---

(١) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٥) وانظر: (٢٤٦٢) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٩١).

فأكمل الخلق عند الله أكملهم عبودية له، ولهذا كان النبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله، وأرفعهم عنده منزلة؛ لكماله في مقام العبودية لله.

الإسراء والعروج كانا يقظة بالجسد والروح:

والتسبيح في أول السورة؛ لذكر أمر عظيم بعده، وللتعجب من شأن هذا الأمر الخارق، ولو كان الإسراء منامًا ما استحق العجب، وثبت أن النبي ﷺ ركب البراق، وركوب البراق يكون يقظة بالجسد، ووَصْفُ رسول الله ﷺ للمسجد الأقصى حين سأله المشركون عنه، وكذا وَصْفُ قوافل قريش التي كانت في الطريق، في كل هذا دليل على أن الإسراء كان يقظة بالجسد والروح.

ولو كان الإسراء والمعراج منامًا، ما كذَّبتْ قريش، ولا تعجبتْ، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم].

وما توصل إليه الإنسان من تقدم علمي في مجال اختراق الفضاء، يجعل الذهن مهيئًا لقبول حادثة الإسراء والمعراج عقلًا عن ذي قبل، أما صلاة الرسل والأنبياء خلف النبي ﷺ بأجسادهم وأرواحهم، ورؤيته لهم في السماوات فإن ذلك بقدرة الله تعالى.

وقد خصَّ الله تعالى الأنبياء صلوات الله عليهم بخصائص في الآخرة، كما خصهم في الدنيا بخصائص، ومنها الإسراء والمعراج في جزء من الليل، وإذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فالأنبياء أفضل منهم.

موقف المكذبين بالمعراج:

ولما رجع النبي ﷺ - في طريق عودته وهو عند ذي طوى- قال لجبريل: «**إن قومي سيكذبونني**»، فقال له جبريل: إن أبا بكر سيصدقك، فلما أصبح النبي ﷺ بمكة، وأخبر قومه بما حدث، واستمع إليه أبو جهل، جمَع الناس، وقال لهم: استمعوا إلى ما يقول، فذكر لهم الرسول ﷺ ما كان من أمره، فكان منهم المصفِّق، ومنهم الواضع يده على رأسه تعجُّبًا، ومنهم المكذب، ومنهم من ارتد عن إسلامه.

وصدَّقه أبو بكر ﷺ وأرضاه، فقال: إني أصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء،

أي: الوحي ينزل عليه صباحًا أو مساءً، فكيف لا أصدقه في رحلة الإسراء والمعراج؟![١].

وكان من القوم من ذهب إلى المسجد الأقصى، ويعرف أوصافه، فقالوا له: إن كنت قد ذهبت إلى المسجد الأقصى فصِفْهُ لنا، فأخذ عليه الصلاة والسلام يصف لهم المسجد، قال: «**حتى الْتَبَس عليَّ**».

قلت: هذا أمر عجيب! أنا أصلي في هذا المسجد -الذي شُرِح هذا التفسير على منبره[٢] منذ أكثر من ربع قرن من الزمان، ولو سألني أحد خارج المسجد، كم فيه من عمود، أو من باب أو من شباك؟ ما استطعت أن أعرف ذلك ولا أجيبه، والنبي ﷺ دخل المسجد الأقصى لمدة لحظات، أو دقائق، ومع هذا فقد أخذ ﷺ يصفه لهم، حتى التبس عليه الوصف.

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «**لما كذبتني قريش حين أُسرِي بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر، فجلَّى الله لي بيت المقدس، فطفقتُ أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**»[٣] أي: رأيته أمامي كالشاشة، عند دار عقيل بن أبي طالب، ابن عمه ﷺ، وداره قريبة من المسجد، يقول: رأيت المسجد الأقصى عند دار عقيل: «**فطفقت أخبرهم عن آياته**» أوصافه، وشكله «**وأنا أنظر إليه**» وعندئذ قالوا: أما النعت فوالله لقد أصاب[٤].

لكنهم أيضًا يريدون تعجيز النبي ﷺ وتكذيبه، فقالوا: يا محمد، لنا عير في الطريق -قافلة تجارية- قادمة من الشام صِفْها لنا، وأين هي الآن؟ قال: «**رأيت عير بني فلان في الروْحاء**»، فحدد لهم المكان، «**ورأيتهم وقد ضلَّ منهم بعير، وأخذوا يبحثون عنه،**

---

(١) يُنظَر هذا المعنى في: «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٦٠) و«المستدرك» (٣/ ٦٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) جامع مستشفى القوات المسلحة بالرياض.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٧١٠) وبنحوه (٣٨٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٠) والترمذي (٣١٣٣) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٨٢) والطبري (١٤/ ٤٢١) و«المسند» (٣/ ٣٧٧) برقم (٥٠٣٤) والبيهقي برقم (١٥٠٣٤) حديث صحيح، في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٥٩) من حديث جابر بن عبد الله.

(٤) جاء هذا عند أحمد في «المسند» (١/ ٣٠٩) عن ابن عباس برقم (٢٨١٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين والبزار في «الكشف» (٥٦) والطبراني في «الكبير» (١٢٢٨٢) وفي «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٢٨٥) و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٦٣) وإسناده صحيح.

ووجدت في رحالهم إناء فيه ماء، وكنت عطشانًا، فرفعتُ الغطاء، وشربتُ من هذا الماء، ثم غطَّيتُه، ووضعتُه كما كان، وذهبت، فاسألوهم: هل وجدوا الماء في القدَح كما كان؟

قال: ومررت بِعِيرِ بني فلان، وفلان وفلان راكبان، فنفر البعير فرمى بفلان، فانكسرتْ يده، فاسألوهم عن ذلك.

قالوا: أخبرنا عن عيرنا؟ قال: رأيتها بالتنعيم، وكنت في شغل عن عدتها، فأوحى الله إليه بأن جعلها ماثلة أمامه، فذكر عددهم كذا، ووصَفهم كذا، يتقدمهم جمل أَوْرَقُ، وعلى هذا الجمل غرارتان مَخيطتان سوْداوان، وأن هذه العير ستصل عند طلوع الشمس»، فخرج القوم نحو التثنية في الوقت المحدد إلى (كداء) وهم ينتظرون متى تطلع الشمس حتى يكذبوه، فقال أحدهم، وهو ينظر جهة المشرق: ها هي الشمس قد طلعت، أي: والعير لم تحضر، فقال الآخر: وهذه العير قد أقبلت، يتقدمها بعير أورق، وفيها فلان وفلان، كما قال ﷺ[1].

ولكن القوم بعد ذلك لم يؤمنوا، وقالوا: ساحر كذَّاب، وتلك طبيعة أهل الكفر والفجور، إنهم لا يكتفون بالحجة والبرهان والبيان، ولا بالمنطق والحوار، ولا بالدليل العقلي، ولا بالروحانية الإيمانية، كما قال سبحانه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

أخرج الإمام أحمد، وغيره، عن عبد الصمد، وحسن، عن ابن عباس ﷺ قال: أُسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدَّثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبِعيرهم، فقال ناس: قال حسن: نحن لا نصدق محمدًا بما يقول: فارتدوا كفارًا، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرًا وزُبدًا، فتزقَّموا.

ورأى الدجالَ في صورته رؤية عين ليس رؤيا منام، ورأى عيسى، وموسى، وإبراهيم

(١) جاء هذا في حديث شداد بن أوس في «سنن الترمذي» وابن أبي حاتم في تفسيره، وحديث أنس بن مالك في «سنن النسائي» وفي المعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٤٣٢) برقم (٧١٤٢) وفي «دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٣٥٥) وقال: هذا إسناد صحيح وأخرجه البزار (٥٣) كشف.

صلوات الله عليهم، فسُئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «أَقْمَر هِجَانًا» أي: أبيض كريم، قال: حسن: قال: رأيته فيلمانيًّا أقمر هِجَانًا، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأن شعر رَأسه أغصان شجرة.

ورأيت عيسى شابًّا أبيض جعْد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق.

ورأيت موسى أسحم -أسمر- آدم، كثير الشعر، شديد الخلق.

ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب من آرابه، إلا نظرتُ إليه مني، كأنه صاحبكم، فقال جبريل عليه السلام: سلم على أبيك، فسلمت عليه»[1].

مع آية الإسراء:

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى بالثمار، والزروع، والأشجار، والأنهار ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ وباركنا فيه أيضًا، كما قال تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٧١] ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى الحرمين، وأنه يُطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله تعالى اختصه مكانًا لكثير من أنبيائه ورسله وأصفيائه، فهو مهبط الأنبياء، ومهبط الملائكة، وهو مكان إرسال الرسل، ومسرى خاتم النبيين، والصلاة فيه مُفَضَّلة بخمس مئة صلاة في غيره بعد المسجد الحرام، والمسجد النبوي، وهو أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، وإليه تشد الرحال بعد المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ، وقد وصف الله المسجد الحرام بقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: هو مبارك في حدِّ ذاته، ووصف المسجد الأقصى بقوله ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

ووصْف مسجد بيت المقدس بالأقصى يتضمن الإشارة إلى أنه سيكون بين المسجدين، مسجد عظيم هو المسجد النبوي، وهو قصي عن المسجد الحرام، فيكون مسجد بيت المقدس أقصى منه، فتكون الآية مشيرة إلى المساجد الثلاثة المفضلة في الإسلام على

---

(١) «المسند» (١/ ٤٧٣) صحيح إسناده عند أحمد شاكر ومحققو المسند برقم (٣٥٤٦) وأخرجه النسائي في التفسير بإسناد صحيح من حديث أبي زيد، ثابت بن يزيد، عن هلال، وهو ابن خباب، وفي «السنن الكبرى» برقم (١١٤٨٤) وأبي يعلى (٢٧٢٠) والطبري في تهذيب الآثار ص(٤٠٨) قال ابن كثير (٥/ ٢٨): وهو إسناد صحيح.

جميع المساجد، والتي لا تشد الرحال إلا إليها.

وقد ذَكرت الآية مبدأ الإسراء ونهايته، للتنصيص على قطع هذه المسافة في جزء من الليل، وللإشارة إلى أن حدث الإسراء يرمز إلى أن الإسلام قد جاء بشرائع التوحيد والحنيفية التي جاء بها خليل الرحمن الصادرة من المسجد الحرام إلى ما تفرَّع عنه من الشرائع في بيت المقدس[١].

وبيَّن الله سبحانه العلة في هذه الرحلة في قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أي: ليشاهد عجائب قدرة الله تعالى، وأدلة وحدانيته، ومن ذلك أنه رآى الجنة والنار، ورآى الأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات، وقد ذكرنا طرفًا منها ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ سميع لأقوال العباد، بصير بأعمالهم، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام]؛ لأن إدراك المحسوسات أثبت من إدراك المدلولات، وفي ليلة المعراج انتقل النبي ﷺ من عالم الغيب إلى عالم المشاهدة.

تَكْرِيمُ اللهِ تَعَالَى لِمُوسَى بِالتَّوْرَاةِ كَمَا كَرَّمَ مُحَمَّدًا بِالإِسْرَاءِ

٢- ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[٢] أَلَّا[٣] تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾

قرن الله سبحانه بيْن نبوة موسى ونبوة محمد، وقرَن بيْن كتابيْهما وشريعتيْهما، لأن نبوتهما أعلى النبوات، وكتابيْهما أفضل الكتب، وشريعتيْهما أكمل الشرائع.

وكانت حادثة الإسراء ليلًا، كما كانت نبوة موسى ليلًا، حين سار بأهله من أرض مدين؛ إذ آنس من جانب الطور نارًا فقال لأهله: امكثوا إني آنست نارًا، وهناك نودي: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/ ١٥).

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (إسرائيل) مع المد والقصر ومثله حمزة عند الوقف، والباقون بالتحقيق.

(٣) قرأ أبو عمرو بياء الغيب في (ألا تتخذوا)؛ لمناسبة (وجعلناه) و (أن) مصدرية مجرورة بحرف جر محذوف، و (لا) نافية، أي: لئلًا يتخذوا، والباقون بتاء الخطاب على الالتفات، و (أن) مفسرة بمعنى: أي، و (لا) ناهية، أي: لا تتخذوا.

وبعد أن ذكر الله سبحانه هذه الكرامة لرسوله محمد ﷺ أعقبها بإكرام الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام بإعطائه التوراة؛ لمناسبة ذكر المسجد الأقصى، فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أنزلنا عليه التوراة، وجعلناها كتاب هداية، ونور لبني إسرائيل، يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان، وأمرناهم أن لا يعبدوا غير الله، وأن لا يشركوا معه غيره، وألا يعتمدوا على سواه، وألا يتخذوا وكيلًا أو حفيظًا -يتوكلون عليه، ويفوِّضون إليه أمورهم- غير الله سبحانه؛ فالوكيل هو الذي تُفَوَّض إليه الأمور، وقد أنزل الله التوراة على موسى؛ لئلَّا يتخذ بنو إسرائيل معبودًا غير الله سبحانه.

وقد جاء وصف التوراة بأنها بيان للحق، وإرشاد لبني إسرائيل في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١].

وقال سبحانه بعد وصف القرآن والثناء عليه: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾ [السجدة].

وبعد أن وصف الله التوراة هنا بأنها ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وصف القرآن بعدها بأنه أقوم طريقة من غيره في الهداية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

دَعْوَةُ الأُمَّةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى

٣- ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

ثم نادى الله سبحانه البشر جميعًا: أمة محمد ﷺ، وأمة بني إسرائيل وغيرهم؛ فهم جميعًا مخاطبون بالدعوة الإسلامية، فقال: يا ذرية نوح أبي البشرية الثاني، الذي نجاه الله وأبناءه في سفينة النجاة، غير ابنه الكافر، الذي أُغرق مع الكافرين، يا ذرية من حملنا مع نوح في السفينة، اعبدوا الله، واشكروه، ووحِّدوه، كما كان أبوكم نوح يشكر الله تعالى ويعبده، إنه كان عبدًا شكورًا، وفي هذا ثناء على نوح عليه السلام لقيامه بشكر الله تعالى، واتصافه بالعبودية والشكر، وفيه حث لذريته أن يقتدوا به في شكره، وأنْ يتذكروا نعمة الله

عليهم، حيث أبقاهم واستخلفهم في الأرض، وأغرق غيرهم.

قال سلمان: كان نوح إذا أكل أُكْلَةً حمد الله عليها، وإذا شرب شَربة حمد الله عليها، وإذا لبس ثيابًا حمد الله عليها فسُمِّيَ عبدًا شكورًا[١].

والله سبحانه يقول لنا: يا أمة محمد، تأسَّوْا بأبيكم نوح، واقتدوا به في هدايتكم، وشكركم لله سبحانه.

وفي الآية تعريض بالذم لبني إسرائيل؛ لأنهم لم يهتدوا بهدْي التوراة، ولم يشكروا نعم الله تعالى عليهم، وهم من ذرية سام بن نوح الذي نجا في السفينة مع من نجا؛ فإن ذرية نوح عليه السلام نجا منهم فريق، وغرق منهم.

ولأن بني إسرائيل لم يعملوا بما في التوراة، ولم يقوموا بواجب شكر نجاتهم وعدم إهلاكهم، فإنه يوشك أن ينزل بهم عذاب استئصال كامل، ولذا جاء ذِكْرُهم في الآية التالية باستئصال معظمهم مرتين؛ نتيجة الإفساد في الأرض.

فالآية تَصِلُ ما قبلها بما بعدها عن بني إسرائيل، وفيها تبكيت لهم على إشراكهم بالله تعالى وتحريفهم للتوراة، وهي تمهيد لبيان سبب إهلاكهم مرتين، وقد بيَّن تعالى في آية أخرى أن من ذرية نوح من يعذبهم الله تعالى، ويمسهم عذاب أليم بعد أن يُمتَّعوا ويُنعَّموا في الدنيا، ومنهم من تحل عليهم بركات الله تعالى، فينعَّمون في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود] فنوح عليه السلام أب للأبرار المطيعين، وأب للكفار المتكبرين، وقد ذكَّر الله تعالى بني إسرائيل بأن نوحًا عليه السلام، كان عبدًا بارًّا مطيعًا لربه، فإن اقتدوا به فقد فازُوا ونجَوْا، وإن خالفوا طريقه فهم من الفريق الهالك.

وقد جاء وصف نوح عليه السلام في هذا الحديث الشريف بما جاء في الآية التي معنا:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في حديث الشفاعة: «... **فيأتون نوحًا، فيقولون:**

---

(١) أخرجه الحاكم بسند صحيح في «المستدرك» (٢/ ٦٣٠) عن سلمان التيمي عن سفيان الثوري وأبي عثمان النهدي، وكذا الطبري، وأخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتادة وأخرجه أحمد في «الزهد» ص: (٥٠) عن محمد بن كعب القرظي، وابن أبي الدنيا (٢٠٧).

يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سَمَّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك. . .» الحديث[١].

فيا ذرية نوح، ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آباءكم من الغرق، وهذا الإنجاء قد أدى إلى وجودكم في الحياة، فاشكروا الله على نعمه، ولا تشركوا بالله أحدًا في عبادته، واقتدوا بنوح ﷺ، فقد كان شاكرًا لله بقلبه ولسانه وجوارحه.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ﴾ [مريم: ٥٨] والذين حملهم نوح معه في السفينة هم أهله، ومن آمن معه من قومه الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ [هود: ٤٠].

والذين سبق عليهم القول من أهله بالشقاء: امرأته، وابنه الكافر؛ فقد قيل لامرأة نوح وامرأة لوط: ادخلا النار مع الداخلين، أما ابنه فقد حال بينهما الموج فكان من المغرقين.

إِفْسَادُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الأَرْضِ

٤- ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ۝٤﴾

أخبَرنا الله سبحانه أن اليهود، أنه سيقع منهم إفساد في الأرض مرتين، وأن الله تعالى سيسلط عليهم أعداءهم في كل مرة لينتقموا منهم فيقتلوهم ويأسروهم، وقد تحقق إعلام الله لهم، وفي هذا الإعلام تحذير وإنذار لهم لعلهم يرجعون عن الإفساد في الأرض.

والآية الرابعة من سورة الإسراء، هي بداية آيات خمس تتحدث عن إفساد بني إسرائيل في أرض فلسطين وما حولها، وكذا في كل أرض يَحِلُّون بها، وتبيِّن الآية أن بني إسرائيل يفسدون في فلسطين إفسادتين عظيمتين كبيرتين، ثم يقع منهم إفساد كثير متجدد بين الحين والآخر، وأن الله ﷻ ينتقم منهم في كل مرة على أيدي عباد له أولي بطش وبأس شديد، وكلما عادوا إلى الإفساد في أرض فلسطين، وغيرها عاد الله سبحانه إلى الانتقام منهم على أيدي عباد له أقوياء أشداء؛ تحقيقًا لقوله جل شأنه: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ

(١) في «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٠، ٤٧١٢) و«صحيح مسلم» (١٩٤).

﴿يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف] فالوعد قائم إلى يوم الساعة: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

الإفسادتان وأولوا البأس الشديد:

وتتعدد أقوال المفسرين والمؤرخين في تحديد الإفسادتين، وفي تحديد القوم أو العباد الذين بعثهم الله سبحانه على بني إسرائيل فعذَّبوهم وانتقموا منهم؛ إذ ليس في ذلك خبر عن المعصوم ﷺ.

ويرجَّح من أقوال المفسرين والمؤرخين أن الإفسادة الأولى: كانت بتحريفهم التوراة، وتبديلهم كلام الله تعالى، ومخالفتهم لأحكام الله التي نزلت في التوراة، وقَتْلهم نبي الله (شعيا) عليه السلام، وهو الذي بشَّر بعيسى ومحمد عليهما السلام، وحبسهم لنبيهم (أرميا).

وأما الإفسادة الثانية فهي قتلهم لنبي الله زكريا، وابنه يحيى عليهما السلام.

وأما العباد الذين بعثهم الله إليهم للانتقام منهم في المرة الأولى فيرجح أنه بختنصر وجنوده، في سلسلة الأسْر البابلي.

والعباد الذين بعثوا للانتقام منهم في المرة الثانية هم قيصر الروم وابنه وجنودهما؛ حيث خرَّبوا أورشليم، وأحرقوا الهيكل.

وهؤلاء العباد الذين سُلِّطوا عليهم في المرتين، وصفهم ربنا بأنهم أصحاب قوة وبأس في الحروب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام].

الأسر البابلي لليهود لهم ثلاث مرات: (البعث الأول)

وقد كان بنو إسرائيل قبل عهد بختنصر مقهورين مهزومين من جالوت وجنوده؛ حيث سلطهم الله عليهم فقتلوا وأسروا منهم الأعداد المهولة، وضربوا الجزية عليهم، وعذَّبوهم وساموهم سوء العذاب.

ثم إن بني إسرائيل طلبوا من نبيهم (صموئيل) أن يدعو الله تعالى أن يرسل إليهم ملَكًا يقاتل معهم جالوت وجنوده، فأرسل الله لهم طالوت مَلِكًا وزاده بسطة في العلم

والجسد، كما جاءت قصته في سورة البقرة[1]؛ حيث أرسل الله إليهم طالوت يقاتل معهم جالوت وجنوده، فكان ضمن جند طالوت، داود ﷺ، وكان فتى صغيرًا قبل أن يُبعث نبيًّا، فقتل داود جالوت، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ولما قتل داود جالوت عاد مُلك بني إسرائيل إليهم، وانتصروا على أعدائهم، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: نصرناكم على جالوت وجنوده، وأظهرناكم عليهم، وازدهر ملككم في هذه الفترة ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ وكان هذا في عهد داود، وعهد ابنه سليمان عليهما السلام، ودام مُلكهم نحو ثمانين سنة، وبعد ذلك انقسمت دولتهم إلى مملكة إسرائيل في الشمال وقد غزاها الآشوريون سنة ٧٢١ ق.م، ودولة يهوذا في الجنوب وقد انتهت على يد بُخْتَنصَّر سنة ٥٨٨ ق.م.

فالمراد بالبعث الأول في الآية: ما يسمى في التاريخ بالأسْر البابلي، وهو سلسلة غزوات مَلِك بابل، وآشور، لأورشليم، وقد حدث ذلك **ثلاث مرات**، انتصر فيها بختنصر على اليهود فأسرَهم وقتلَهم.

الأسر الأول: كان في حدود سنة ٦٠٦ قبل الميلاد؛ حيث تم فيه أسْر جماعات كثيرة من اليهود من أورشليم إلى بابل بالعراق.

الأسر الثاني: كان سنة ٥٨٨ قبل الميلاد أيضًا؛ حيث أكثر بُخْتَنَصَّر القتل في اليهود، وسَبَى كل من بقى منهم حيًّا، وأحرق هيكل سليمان، وبقيت أورشليم خرابًا.

الأسر الثالث: كان سنة ٥٠٨ قبل ميلاد المسيح؛ حيث تم فيه أسْر مَلِك يهوذا، وجمع غفير من الإسرائيليين، وكان هذا الأسر أعظم من الأسر الأول.

وقد قضى بنو إسرائيل في الأسْر البابلي نيِّفًا وأربعين سنة إلى أن حارب (قورش) ملك فارس، البابليين وهزمهم، وفتحت بابل سنة ٥٣٨ قبل الميلاد، ثم أذن لليهود أن يرجعوا إلى أورشليم؛ لأنهم كانوا أعوانًا للفرس على غزو بابل.

---

(١) في الآيات من (٢٤٦) إلى (٢٥٢) في سورة البقرة.

ولما عاد اليهود إلى أورشليم جدَّدوا مُلكهم وهيكلهم، وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس، ومكثوا على ذلك مئتي سنة من سنة ٥٣٠ إلى سنة ٣٣٠ قبل الميلاد.

ثم أخذ ملكهم يضمحلُّ؛ بسبب غزو ملوك مصر البطالمة لهم، فصاروا تحت سلطانهم إلى سنة ١٦٦ قبل الميلاد، ثم انتصر لليهود أحد اللَّاويِّين، واسمه (ميشيا) فتولى الأمر عليهم، وصار المُلْكُ في أبنائه إلى سنة أربعين قبل الميلاد.

ثم دخلت مملكتهم تحت نفوذ الرومان، وأقاموا عليها أمراء من اليهود، كان أشهرهم (هيرودس)، ثم تمردوا على الرومان، وخرجوا عليهم.

ثم كان البعث الثاني على يد قيصر الروم: حين أرسل قيصر الروم قائده وابنه لخراب أورشليم وإحراق الهيكل، فأسر من اليهود نيِّفًا وتسعين ألفًا، وقتل منهم نحو المليون، وكان ذلك في حدود سنة أربعين ميلادية.

ثم جاء إمبراطور الروم (أدريانوس) فرمى قناطير الملح على أرض أورشليم؛ كي لا تصلح للزراعة، وكان ذلك سنة ١٣٥ ميلادية.

وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرض، وتفرقوا في الأرض، ولم تخرج أورشليم من حكم الرومان إلى أن فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ سنة ١٦ هجرية[١].

فالمسلَّط عليهم في المرة الأخيرة هم الرومان حين كانت الإفسادة الثانية وهي قتلهم لزكريا، ويحيى عليهما السلام.

سبب قتل اليهود لنبي الله زكريا وابنه يحيى:

وقيل في سبب قتل زكريا ﷺ: أنهم اتهموه في مريم، وأرادوا أن يقتلوه، فهرب منهم، ولما هرب، فتح الله له شجرة فدخل فيها، وبقي شيء من أهداب ملابسه خارج الشجرة، فدلَّهم الشيطان على الشجرة فنشروها بالمنشار وزكريا داخلها.

وقيل في سبب قتلهم لنبي اللهِ يحيى بن زكريا: إن يحيى ﷺ أرسل إليهم اثني عشر حواريًّا من حوارييهم يعلمونهم أحكام الحلال والحرام، وكان من بين ذلك أن يُحَرِّموا

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/٣٨).

عليهم نكاح المحارم، مثل: بنت الزوجة، وابنة الأخ، وكان مَلِكُهم، له ابنة أخ يريد أن يتزوجها، فسأل يحيى: هل يجوز له الزواج منها؟ فقال: إنها لا تحل لك، فاغتاظت أم البنت، وطلبت من بنتها أن تتصنع للملك، وأن تلبس وتتجمل له؛ حتى تُوقعه في حبائلها، وتمتلك عليه مشاعره، وتسقيه خمرًا، ثم تمتنع منه إلى أن يأتي لها برأس يحيى، وكان لها في كل يوم حاجة تطلبها منه ويقضيها لها، ففعلت البنت، وقتل الملكُ يحيى ﷺ، ووُضِعت رأسه في طست، قالوا: ووقع شيء من دمه على الأرض فأخذ يغلي هذا الدم، ولم يَسْكُن حتى سلط الله عليهم الرومان، فساموهم سوء العذاب؛ وذلك لأن زكريا ويحيى كانا على عهد الرومان؛ إذ إن يحيى كان معاصرًا لعهد عيسى ﷺ، وأن الفترة الزمنية بين بختنصر، وبين زكريا ويحيى نحو خمسة قرون، فالمسلَّط عليهم في المرة الثانية هم الرومان وكان ذلك سنة ٧٠ ميلادية؛ لأن التاريخ يقول: إن بختنصر كان قبل رفع عيسى، ووفاة يحيى، وزكريا، بسنين متطاولة، والملك الذي انتقم من اليهود بسبب هؤلاء هو ملك من الرومان(١).

وما أوقعه الرومان بهم كان أشد، وأنكى، مما أوقعه بهم بختنصر؛ إذ إنهم لقوا على أيدي الرومان بقيادة (تيطس) الأهوال، والسلب، والقتل، فمزَّق شملهم، ودمَّر أورشليم، وقتل من اليهود نحو المليون، وسالت الدماء كالأنهار، وما أوقعه بهم بختنصر كان أهون من هذا، فيما يُسَمَّى بالسبي البابلي(٢).

فوائد من الآية:

١- وفي ذكر القضاء إلى بني إسرائيل، إخبار من الله تعالى بأنه لا يظلم الناس شيئًا، فيعاقبهم على ما يقع منهم من عصيان، ويرحمهم إذا تابوا، وأصلحوا، ورجعوا إليه.

٢- وفيه تحذير من الوقوع في المعاصي، وتبصير بسوء العقاب لمن سلك طريق الغي والضلال.

٣- وفيه تنبيه لليهود المعاصرين، ومن على شاكلتهم من مجاوزة الحدود والطغيان.

٤- وفيه دعوة لليهود وغيرهم إلى الدخول في الإسلام الناسخ لجميع الديانات السابقة.

---

(١) يُنظَر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٤/ ٢٠٥).

(٢) يُنظَرْ: «تاريخ الإسرائيليين» لشاهين مكاريوس ص (٧٦).

٥- وفيه إشارة إلى أن الأمم المغلوبة تستطيع أن تسترد مجدها، وعزها متى أصلحت من شأنها، واستقامت على منهج الله تعالى.

٦- وفي القصة تذكير لبني إسرائيل ببعض نعم الله عليهم، ومنها أن الله تعالى يجعل لهم الغلبة على عدوهم، ويمدهم بالأموال والبنين، ويجعلهم أكثر عددًا وأعزَّ قوة.

ونَرْجِع إلى الآيات: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: أخبرنا بني إسرائيل وعهدنا إليهم، وأعلمناهم، وأوحينا إليهم في التوراة التي أنزلت على نبيهم موسى عليه السلام أنه سيقع منهم إفساد كثير في الأرض المقدسة وهي الأرض التي يعيشون عليها ويتسلطون عليها بالظلم والقهر.

ويجوز أن يراد بالكتاب: كتب أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم؛ فقد ذُكِر الإفساد مرتين في كتاب أشعياء، وكتاب أرمياء، كما ذُكِر في الإصحاح السادس والعشرين، والثامن والعشرين، والثلاثين من التوراة، فهي كتب متعددة.

وليس معنى الآية أن الله تعالى ألزمهم وأجبرهم، أو قضى عليهم قضاء مبرمًا، إنما المعنى: إعلام من الله تعالى وإخبار بما سيقع منهم، فقد كتب الله ذلك في أم الكتاب، ثم أعلمهم بنفاذه في التوراة على لسان موسى عليه السلام، فأعلمهم أنه سيقع منهم عصيان وكفر وطغيان، وسيرسل الله عليهم من يقهرهم ويذلهم، ثم يردهم إلى الطغيان فيبعث الله عليهم أمة أخرى تقتلهم، وتخرب ديارهم.

وقد حدث الذي أخبر به القرآن ووقع، ولو لم يقع لكذَّب اليهود رسول الله ﷺ فيما أخبر به، ولكذَّبوا القرآن فيما جاء به، وهذا من آيات النبوة، ومن علامات صدق محمد ﷺ؛ إذ أخبر بأشياء لم تكن موجودة في عهده ﷺ، وذكر أنها ستقع منهم، ويحدث كذا وكذا، وكان صدق ما أخبر به النبي ﷺ في الواقع، وفي كتاب الله سبحانه.

وكان مقتضى ذلك أن يؤمنوا، ويصدقوا برسالة محمد ﷺ، ولكنهم لم يفعلوا.

والمراد بالأرض: أرض بيت المقدس والشام وما حولها، وكل أرض يحلُّون بها، يفسدون فيها إفسادتين كبيرتين عظيمتين، بالظلم، وقتل الأنبياء، والتكبر، والعدوان وهذا معنى ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تتكبرون على طاعة الله تعالى، وتتجبرون على خلق الله، وتظلمونهم، وتتجاوزون الحد والطغيان في تجاوز حدود الله تعالى، وانتهاك شرعه بالمعاصي والذنوب، وتستكبرون، وتتجبرون على خلق الله، وتترفعون عليهم.

قال تعالى في بيان الإفسادة الأولى والبعث الأول:

٥- ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا[١] بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ[٢] شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ[٣] وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥﴾

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي إذا جاء وقت الإفسادة الأولى ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ أي سلطنا عليكم عبادًا لنا وصفهم ربنا بأنهم ﴿أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ يغلبونكم، ويقتلونكم، ويشردونكم ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ فتّشوا ونقّبوا فيها، وأخذوا يتخللونها، ويبحثون عن بني إسرائيل في كل مكان؛ ليقتلوهم، ويتعقبوهم هنا وهناك، قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي: أن هذا القضاء، وهذا الوعد بالتسليط عليهم والانتقام منهم أمر ختمي، كما أخبرالله به، وكان أمرًا واقعًا لا محالة، ليس فيه نقيض ولا تبديل وكان هذا الفساد قبل معركة طالوت وجالوت.

٦- ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ﴾ يا بني إسرائيل ﴿ٱلْكَرَّةَ﴾ أي الغلبة، والنصر، والظهور ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على أعدائكم الذين سُلِّطوا عليكم لما قتل داود جالوت، ولما انتصر ملك الفرس على ملك بابل، فانتصرتم عليهم، وظفرتم بهم، وأكثرنا أرزاقكم وأولادكم، وذلك بعد أن تبتم وأنبتم ﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ في عهد داود وسليمان؛ إذ كانت لهم مملكة استمرت ثمانين عامًا ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ أي: قويناكم، وجعلناكم أكثر عددًا.

وفي الآية نعم ثلاث، أنعم الله بها على بني إسرائيل، يذكرهم بها، بعدما أصابهم من عدوهم ما أصابهم، وهذه النعم هي:

١ - إعادة الظفر بالعدو. ٢ - كثرة الأموال والأولاد. ٣ - زيادة قوتهم.

ولكنهم لم يشكروا هذه النعم فكانت عاقبتهم الخسران.

---

(١) أمال (أولاهما) حمزة والكسائي وخلف، وبالتقليل لأبي عمرو، وورش بخلف عنه.

(٢) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (بأس) ألفًا، ووافقهما حمزة عند الوقف.

(٣) أمال (الديار) أبو عمرو، ودوري الكسائي وأبي ذكوان بخلفٍ عنه، وقللها ورش.

الْبَعْثُ الآخَرُ

٧- ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا[1] وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝﴾

يقول الله سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ يا بني إسرائيل في أقوالكم وأفعالكم ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد عليكم، كما حدث في انتصاركم على عدوكم، وهذا مقتضى قانون العقوبة والجزاء؛ فإن سُنَّة الله تعالى لا تتخلف، فمنفعة الإحسان وثوابه يعود عليكم، وإن أسأتم فالعاقبة ترجع لكم أيضًا، كما أراكم الله من تسليط الأعداء عليكم، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال جل شأنه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۝﴾ [الروم].

والله تعالى غني عن عباده، لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية.

ثم قال تعالى عن الإفسادة الثانية: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: موعد عقاب الإفسادة الثانية ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ مرة أخرى ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وقد بعثناهم هذه المرة؛ ليذلّوكم ويقْهَروكم، وهذا معنى ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فتظهر آثار المذلة، والمهانة عليكم وليسومونكم سوء العذاب، ويبدو ذلك على وجوهكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقد كان التدمير والخراب لبيت المقدس وما فيه على أيدي بختنصر ثلاث مرات فأهلكهم وأبادهم في البعث الأول.

ثم كان البعث الثاني على يد قيصر الروم، حيث انتهى أمرهم على يديه، وأتوْا على بنيانهم من القواعد وهذا معنى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ أي: ليدمروا، ويهلكوا ما شيّده بنو إسرائيل.

وسلط الله عليهم مجوس الفرس، فشردوهم في الأرض، وقتلوهم، ودمروا مملكتهم تدميرًا.

---

(١) قرأ الكسائي بنون العظمة وفتح الهمزة من (ليسوءوا) على أنه فعل مضارع مسند إلى ضمير المتكلم، وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة وخلف العاشر بالياء وفتح الهمزة أيضًا على أن الفعل مسند إلى ضمير الوعد وهو العذاب، أو على الالتفات من التكلم إلى الغيبة، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب بالياء وضم الهمزة بعد واو مدية، والفعل مسند إلى واو الجماعة.

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا:

٨- ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

والله سبحانه يفتح لبني إسرائيل باب التوبة، ويقول لهم: هذا عقاب من الله، وإن رجعتم عن الإفساد في الارض يا بني إسرائيل، وأنبتم إليه، وأخلصتم له العبادة، فربكم يرحمكم بعد انتقامه منكم ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى ربهم، أن يجعل لهم الكرة عليهم و﴿عَسَىٰ﴾ من الله واجبة ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الظلم، والإفساد في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى الانتقام منكم، وإلى مذلتكم، وهذا وعد قائم متجدد إلى يوم الساعة، وقد عادوا مرات ومرات، فسلط الله عليهم محمدا ﷺ فانتقم الله به منهم، هذا في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب جهنم يصلونها ولا يخرجون منها:

ففي وقت النبي ﷺ كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج في المدينة، فهؤلاء وثنيون، واليهود أهل كتاب، فكان اليهود يقولون لهم: جاء الوقت الذي يُبعث فيه نبي آخر الزمن، محمد ﷺ فهو سيبعث في هذه الآونة، ونحن أول من سيؤمن به ويفتح عليه، فلما جاء محمد ﷺ كانوا أول من كفر به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ هو القرآن، يأتي به محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل مجيئه ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الوثنيين، يقولون لهم: نحن سنسبقكم إلى الإيمان بمحمد ﷺ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا﴾ من صحة رسالة خاتم النبوة ﴿كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] فكان انتقام الله منهم على يد محمد ﷺ، فأجلى بني النضير، وبني قينقاع، من المدينة، وأخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، كما جاء في أول سورة الحشر، وقتّل بني قريظة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب].

وعادوا إلى الإفساد بعد ذلك فسلط الله عليهم هتلر، وسلط عليهم ملوك أوروبا.

وقد عادوا إلىْ الإفساد -في وقتنا- في صورة الكيان الصهيوني، فأحرقوا، وخربوا، وانتهكوا حُرمة المسجد الأقصى، وبيت المقدس، وحائط البراق، وهم يحفرون الأنفاق المفتعلة، تحت المسجد الأقصى وحوله، بقصد إسقاط المسجد.

آلية يهودية لبناء الهيكل:

وتوجد منظمة أو جماعة من اليهود، يقال لهم: أمناء البيت، أو (أمناء الهيكل) أعدوا حجارة الهيكل، وأعدوا له الرخام، ونقشوا على الحجارة الكتابة والرسومات المطلوبة، وقد أتوا بحجر رمزي للهيكل، وأخذوا يطوفون به في شوارع البلاد، تحت سمع وسائل الإعلام وبصرها، إنهم يجسُّون نبضَ المسلمين حينًا بعد حين ومن ذلك انتقال عاصمتهم إلى القدس، والمسلمون لم يحركوا ساكنًا.

والمرحلة التي تلي ذلك في مخططهم هي العمل على هدم المسجد الأقصى، وإقامة الهيكل مكانه، وهم يفعلون ذلك منذ حرب عام ١٩٦٧م إلى وقتنا، ويكررون هذا الأمر، وهم على استعداد تام لإقامة معبد سليمان،أو الهيكل المزعوم موضع المسجد الأقصى(١).

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: جعلنا جهنم للكافرين سجنًا، ومحبسًا مؤبدًا، ينامون فيه، ولا يخرجون منها إلى يوم الساعة، فهم يُحصَرون فيها، **والحصير** أيضًا: هو الفراش، والمهاد، والبساط، كما قال تعالى ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

أما المعنى الأول فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان] **فالمكان الضيق**: هو الحبس والسجن.

وفي الآية تحذير لأهل المعاصي؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل؛ فسنن الله تعالى لا تتبدل، ولا تتغير.

عروبة فلسطين:

والواقع أن فلسطين عربية، يسكنها العرب اليوبوسيون من ستة آلاف عام، أي: من قبل أن يأتي إبراهيم ﷺ من العراق مهاجرًا إلى مصر، ومارًّا بفلسطين بألفين وست مئة عام.

وفلسطين أرض عربية يسكنها العرب قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، فقد هاجر الفينيقيون من شبه الجزيرة العربية بسبب القحط، وأقاموا على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الشمال.

وبعد خمس مئة عام، أي: قبل الميلاد بألفين وخمس مئة سنة، هاجر إلى جنوب

(١) وقت كتابة هذه السطور سنة١٤٢٨هـ.

الفينيقيين قبائل الكنعانيين، واستقروا على ضفَّة نهر الأردن الغربية، نحو البحر المتوسط، وسميت هذه الأرض بأرض الكنعانيين.

وقبل الميلاد بمئات السنين، نزل بالساحل المطل على البحر المتوسط في يافا، وغزة، قبائل (فلستين)، وتم الاختلاط بينهم وبين الكنعانيين، وتمازجوا في الدم العربي، وعاشوا في هذه المنطقة التي سُمِّيت بفلسطين.

وفي الشمال الشرقي لنهر الأردن كانت تعيش قبائل الآراميين، وهم السوريون الوافدون من حوض نهر الفرات بعد ازدحامه بالوافدين من جزيرة العرب، وكانت عاصمتهم دمشق، وإلى جنوب البحر الميت كانت تسكن مجموعة أخرى من الآراميين[1]، وتتوالى على فلسطين الهجمات من الذين يريدون الغزو، والاحتلال في كل الأزمنة، وفي جميع الغارات، وأهل المكان من العرب الفلسطينيين هم الذين يدافعون عنها، ويُخْرِجون أهل الاحتلال منها.

وعلى مدى التاريخ لم تقم دولة لبني إسرائيل في أرض الإسراء إلا في عهد داود عليه السلام في زمن مليكهم (شاول) فبعد أن قتل داود جالوت تأسست مملكة برئاسة طالوت، واستمر حكمه سنتين فحسب، ثم تُوُفِّيَ سنة ١٠٥٥ ق.م، وبعد وفاة طالوت دام ملك داود زهاء أربعين عامًا، وملَك سليمان ابنه بعده نحو هذه المدة، وبعد وفاة سليمان انقسم مُلْك بني إسرائيل قسمين:

أحدهما: في الشمال، ويسمى مملكة إسرائيل، وعاصمتها السامرة.

والآخر: في الجنوب في منطقة القدس، ويسمى مملكة يهوذا، وعاصمتها أورشليم.

وقائع نهاية إسرائيل على مدى التاريخ القديم:

وكانت نهاية مملكة إسرائيل على يد (سرجون) ملك آشور سنة ٧٢١ ق.م، وكانت نهاية مملكة يهوذا على يد بختنصر سنة ٥٨٦ ق.م، فجعل عاليها سافلها، وهدم الهيكل، وفي سنة ٥٣٨ ق.م، نشبت حرب بين قورش ملك الفرس وبختنصر ملك بابل، وانتهت بانتصار الفرس، فأصدر الملك أمرًا سنة ٣٥٦ ق.م يأذن فيه لليهود بالعودة إلى أورشليم،

(١) يُنظَر: كتاب «نذير ونفير» لعبد العزيز مصطفى كامل ص ٧٩ .

فلم يرجع منهم إلا القليل.

وفي سنة ٣٣٠ ق.م انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس، وطردهم ومات الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م، فكانت أورشليم تحت حكم البطالمة إلى أن استولى السلوقيون عليها سنة ١٩٨ ق.م.

وفي سنة ٦٣ ق.م استولت الدولة الرومانية على أورشليم.

وفي سنة ٧٠ ق.م أرسلت الدولة الرومانية جيشًا بقيادة (تيطس) فهزم اليهود، وفرق شملهم، ودخل أورشليم فدمرها تدميرًا، وسام اليهود أقسى ألوان العذاب، وظلت أورشليم في حوزة الرومان حتى استولى عليها الفرس بقيادة كسرى الثاني[1].

وكان آخر ذلك فتح عمر ﷺ لبيت المقدس سنة ٦٠٧م وهو حلقة في سلسلة من حلقات تحرير الأرض المقدسة من الذين غزوها، واحتلوها.

أسباب الهزيمة أمام اليهود:

هذا: والصراع الدائر بين اليهود وبين سكان المنطقة من المسلمين العرب، صراع غريب، فاليهود في حربهم يرفعون راية التوراة، ويعظِّمون يوم السبت، يعملون لدينهم ويحترمونه، وهو دين قد حُرِّف، ونُسخ، وبُدِّل، فهم على باطل، ولكنهم يتمسكون بباطلهم، ويحاربوننا تديُّنًا عن عقيدة، والمسلمون الذين يقاومون الاحتلال، منهم الذين يرفعون راية العلمانية في الحكم، والتعليم، والإعلام، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم.

والنتيجة طبيعية؛ فالسبب في عدم نصر المسلمين واضح، والله ﷻ بيَّن في كتابه مَنْ هُم جديرون بنصر الله جلَّ شأنه، فقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ أي: من ينصر دينه، فيمتثل أمره، ويجتنب نهيه، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فهو يوالي في الله، ويعادي في الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

وقد وصف الله سبحانه الذين يستحقون هذا النصر بصفات ينبغي علينا أن نبحث عنها

(١) يُنظَر: «سورة الإسراء والأهداف التي ترمي إليها» رسالة دكتوراه للدكتور سيد محمد النمر ص ٣٣٧، وما بعدها، ويُنظَر: «بنو إسرائيل في القرآن والسنة» (٢/ ٣٥٩) رسالة دكتوراه، للدكتور محمد سيد طنطاوي، وكتاب «تاريخ الإسرائيليين» ص ٧٦ لشاهين مكاريوس.

في أنفسنا، وأن نطبق هذه الصفات على الوضع القائم، فهم ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

فهذه ثلاثة أمور؛ لتحقيق النصر على العدو، لا بُدَّ منها على مستوى الأفراد والأمم وهي:

١- إقامة الصلاة في المساجد، والدوائر الحكومية أثناء العمل، وتعطيل الأعمال لها، فضلًا عن إقامتها جماعة في سائر الأوقات.

٢- إخراج الزكاة طواعية، وقسرًا، بواسطة الدولة، ممن لا يخرجها، وصرفها في مصارفها الشرعية.

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تجد منكرات في الشوارع والأسواق في بلاد الإسلام، بل يكون المظهر العام مظهرًا إسلاميًا، فلا مجاهرة بالإفطار في نهار رمضان، ولا بيع للخمر أو تعاطيها علنًا، ولا بيع أو شراء أثناء صلاة الجمعة.. .إلخ.

وهذه قاعدة عظيمة جليلة في الإسلام، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بإقامة نظام الحسبة في كل بلد مسلم.

وفي آية أخرى يبيِّن الله سبحانه أوصاف مَنْ هُم أهل للتمكين في الأرض، فيصفهم سبحانه بالإيمان والعمل الصالح، في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

وحينما زوَّد عمر ﷺ جيوشه بالنصيحة، قال لهم: إن استويتم أنتم وأعداؤكم في المعصية غلبوكم بقوة السلاح، والله سبحانه لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والأمر يحتاج إلى أهلية وجدارة لنصر الله سبحانه، وللتمكين لعباده في الأرض إذا صدقت النية.

ولو أن الذين يحاربون اليهود يقاتلون في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وأخذوا بأسباب النصر المادية معتمدين فيها على أنفسهم، لو أنهم فعلوا ذلك لهيَّأ الله تعالى لهم أسباب النصر على أكبر القوى العالمية من حيث لا يدرون.

والله سبحانه قد نصر رسوله محمدًا ﷺ بالريح في غزوة الأحزاب فقُلبتْ قدُور العدو، واقتُلِعتْ خيام قوة مهولة، وأعداد كبيرة من اليهود والمشركين الذين تحزَّبوا لقتال النبي ﷺ وصحبه، وهم قلة، فنصرهم الله بالريح.

وهيَّأ الله تعالى لرسوله ﷺ وهو في الغار خيوطًا من العنكبوت نسجت على فم الغار، كيْ تُعَمِّي على الكفار الطلب كما جاء ذلك بسند ضعيف، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح].

وفي إحدى المعارك الإسلامية رأى الأعداء في يد كل جندي من جنود المسلمين سواكًا، فدبَّ الرعب في قلوبهم، وقالوا: هؤلاء قوم يأكلون الخشب، أفلا يأكلوننا؟ وهزمهم الله بهذا السبب.

ومن أسباب نصر الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يلقي الرعب في قلب العدو على مسافة سفر شهر، قبل اللقاء، مع بُعد المسافة بينهما.

وقال تعالى لرسوله في غزوة بدر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال: ١٧] فنصر الله المسلمين على قلة عددهم وعدتهم.

وأنا أنظر إلى أطفال الحجارة يرمون بها العدو، والجندي اليهودي المدجج بالسلاح يختبئ وراء جدار، أو وراء باب السيارة أو الدبابة، وأتذكر قول الله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾ [الحشر: ١٤] فالقوم جبناء ضعفاء، والخلاف بين طوائفهم شديد، ولسنا في حاجة لمقاومتهم إلا بالمصالحة مع الله تعالى والرجوع إليه، ثم الأخذ بأسباب النصر المادية.

وفي سورة الأنفال ستة عوامل للنصر على العدو، جاءت في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

ومع ذلك كله لابد من إعداد القوة المضارعة لقوة العدو ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] ومن الغباء أن نشتري سلاحنا من عدونا الأكبر، الملتزم بحماية أمن

الكيان الصهيوني، فهو لن يسمح لنا بالانتصار عليها مهما كنا أصدقاء له!!

هِدَايَةُ الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

٩، ١٠ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ[(١)] يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ[(٢)] ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يخبر سبحانه أن هذا القرآن يهدي لأعدل الطرق في العقائد والعبادات والأخلاق، فمن اهتدى به كان أكمل الناس وأقومهم، وقد أعد الله لمن يتمسكون به نزلًا في دار كرامته، ومَنْ أعرض عنه فله عذاب مؤلم.

وبعد هذا الكلام المهول عن بني إسرائيل، وبيان ما حلَّ بهم من البلاء مما يثير في نفوس المسلمين الخوف من أن يصيبهم ما أصاب اليهود، نفَّس الله عن المؤمنين، فأخبرهم بأن في هذا القرآن ما يعصمهم من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل؛ إذ هو يهدي للطريق التي هي أقوم مما سلكه بنو إسرائيل.

فبعد أن تحدث القرآن عن إفساد بني إسرائيل، وعلوهم في الأرض، كأنَّ الله ﷻ يقول لبني إسرائيل وغيرهم ممن هم على شاكلتهم: وما لكم لا تؤمنون بمحمد نبيًّا ورسولًا؟! وما لكم لا تؤمنون بهذا القرآن، وقد عرفتم أنه أعظم الكتب وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين، وعرفتم أن هذا القرآن يهدي لأعدل الطرق وأصوبها وأقومها؟!

فما لكم يا بني إسرائيل المعاصرين لعهد التنزيل، وعلى مر الأزمنة، وفي جميع الأمكنة، ما لكم لا تؤمنون بهذا القرآن؟! ولو أنكم اتبعتموه وعملتم بمقتضاه، لنهاكم هذا عن الإفساد في الأرض، ولنهاكم عن العلو والطغيان، ولَمَا كانت العقوبات التي تنزل بكم من نتائج المفاسد التي تفعلونها.

إن هذه الآيَةَ آيةٌ جامعة لجميع ما في القرآن الكريم من طرق الهداية.

---

(١) نقل حركة الهمزة إلى الراء قبلها من (القرآن) ابن كثير في الحالين، وحمزة وقفًا.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين من (يَبْشُر) بالتخفيف، والباقون بضم الياء وفتح الباء وكسر الشين المشددة من (بشَّر) المضعف.

وقد تحدثت سورة الإسراء عن أكثر من خمسين طريقًا من طرق الهداية التي تتناولها هذه الآية[1]، وعلى رأسها توحيد الله تعالى في ربوبيته، وفي عبادته، وفي أسمائه وصفاته، بتنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم، وفي إقامة حدوده تعالى، وتحكيم شرعه.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ فهو يرشد الناس إلى أحسن الطرق في مجال العقيدة، وفي مجال العبادة، وفي مجال المعاملات، وفي مجال الأخلاق والآداب، وفي مجال الأحكام، والحدود، والقصاص، وفي نظام الحكم، ونظام المال، ونظام التعامل، ونظام الاجتماع، وفي علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا، وحكومات، وشعوبًا ودولًا وأجناسًا، وفي الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والعرض، والمال، وفي قضايا الجهاد، ونشر الدعوة، وقضايا الأسرة، وغير ذلك من جوانب الحياة، وشؤون الدين والدنيا مما تناولته سورة الإسراء.

وهذا القرآن الكريم فيه البشرى للمؤمنين بالجنة ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ﴾ بمقتضاه، فيؤدون الواجبات والسنن ويتزودون بالأعمال الصالحة، فيعملون بما أمرهم به، وينتهون عما نهاهم عنه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ عند الله سبحانه ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: ثوابًا عظيمًا، ودرجات كبيرة في جنات نعيم؛ فالأجر العظيم هو الجنة، وقُيِّد العمل الصالح بالإيمان؛ إذْ لا حظَّ لغير المؤمن في عمله الصالح.

ويبشر أعداءه الذين لا يصدقون به، ولا يعملون بمقتضاه، ولا يصدقون بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء العادل بأن لهم عذابًا أليمًا في دار الجحيم، وفي الآيتين جمع بين الثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

الدُّعَاءُ المَمْنُوعُ

١١- ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

أي ومن جهل الإنسان وعجلته أن يدعوْ على نفسه أو على أهله وأولاده بالشر عند

(١) يُنظَر: تفسير الشيخ الشنقيطي للآية.

الغضب، ويبادر إليه كما يبادر بالدعاء في الخير، ومن لطف الله تعالى ورحمته بخلقه أنه يستجيب لهم في الخير ولا يستجيب لهم في الشر، فلا يدع الإنسان على نفسه أو ولده بالشر كما يدعو لهما بالخير، وذلك لأن الإنسان لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها، فقد يفعل الشر، أو يدعو به على نفسه، أو يتعجل وقوعه، وذلك حين لا يقوى على كبح جماح نفسه، وضبط زمامها.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أحيانًا على نفسه، أو على ولده، أو ماله ﴿بِٱلشَّرِّ﴾ عند الغضب، والضجر ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: مثل ما يدعو بالخير، فقد يجدُّ الإنسان ويجتهد، ويسعى في طلب الوسائط من الناس في أمر مَّا، وهذا الأمر يكون فيه ضرره في الحقيقة، وهو يعتقد أنه يسعى في جلب خير أو مصلحة له، ولكنه في الواقع يسعى في شر يجلبه لنفسه من جهله وعجلته.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه يستجيب الدعاء منهم بالخير دون الشر، وذلك عندما يدعو الإنسان على نفسه بالشر، ويجتهد في ذلك كما يجتهد في دعائه لنفسه بالخير.

قال الله سبحانه في نهاية الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي: أن من طبعه أنه يتعجل الإجابة، ويتعجل الأحوال، ولا يصبر على السراء أو الضراء.

ومن ذلك ما ورد عن سلمان، وابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم: أن الله ﷻ لما خلق آدم، ونفخ فيه الروح همَّ بالنهوض قائمًا قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك حين جاءته النفخة من قِبَلِ رأسه، فلما وصلت الروح إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال الله تبارك وتعالى له: يرحمك الله يا آدم، فلما وصلت الروح إلى عينيه فتح عينيه وأبصر، فلما سرت إلى أعضائه وجسده أخذ ينظر بإعجاب إلى بقية جسده، والروح تدب فيه، فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل الروح إلى رجليه فلم يستطع، فلما جاء العصر قال: يارب، عجِّل قبل أن يأتي الليل[١] وهذا نوع من عجلة الإنسان.

وقد عذر الله تعالى الناس بعض العذر فبيَّن أن العجلة في الإنسان شيء فطري، قال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقال في ختام الآية: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٤١) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٩) وابن أبي شيبة (١٤/ ١١٠) والطبري (١٤/ ٥١٤) وابن عساكر (٧/ ٣٨٤).

في الدعاء وأحكامه:

١- ومن هدايات القرآن: أن المسلم ينبغي عليه أن يتريث في الدعاء؛ فالدعاء من أجلِّ أنواع العبادة، كما قال ﷺ في حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الدعاء هو العبادة**»[١] وكما جاء في الأثر: «**الدعاء مخ العبادة**».

٢- ومن ذلك أن المسلم لا ينبغي له أن يدعو إلا بالخير، ولا يجوز له أن يدعو على نفسه، أو على غيره بشرٍّ، ففي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«**لا يزال يُستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم**»[٢].

وكما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً، فيستجيب فيها**»[٣].

ومن أمثلة ذلك أن أم سُلَيْم ﷺ قالت: يا رسول الله، أنس خادمك، ادع الله له، قال: «**اللهم أكثر ماله، وولده، وبارك له فيما أعطيته**»[٤].

وقد يغضب الإنسان، وفي حالة الغضب قد يدعو على نفسه، أو يدعو على أهله أو ولده، وهو في واقع الأمر لا يحب أن يجاب دعاؤه، ولو أجاب الله دعاءه وهو في هذه العجلة من أمره،أو في هذه الحالة من الغضب لهلك العبد، أو لهلك أهله، أو ولده، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أي: ولو يعجل الله لهم الشر، كما يعجل لهم الخير ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي: لهلكوا، وماتوا ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

ودعاء الإنسان على نفسه، أو على ولده، أو أهله بالشر عند الغضب، أو الضجر، فيه إثم كبير كأن يقول: اللهم اهلكني،أو أهلك ولدي، ولو أجاب الله دعاءه في وقت

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٩٠، ٢٦٨٥) وصحيح أبي داود (١٣١٢) والمشكاة (٢٣٣) وسنن ابن ماجه (٣٨٢٨). وصحيح سننه (٣٠٨٦).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٣٥).

(٣) من حديث جابر في «صحيح مسلم» برقم (٣٠٠٩) وانظر: «سنن أبي داود» برقم (١٥٣٢).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٧٨، ٦٣٧٩) وانظر: (١٩٨٢) و«صحيح مسلم» (٢٤٨٠).

الغضب والضجر، لهلك، ولكنه تعالى يعفو، ويصفح، فلا يجيب دعاء الضجر والغضب؛ لجهل الإنسان وعجلته.

٣- ومن هدايات القرآن أن لا يتعجل المسلم إجابة الدعاء، بل عليه أن يأخذ بالأسباب، وأن يلح، ويدعو ربه بالخير في كل حال.

ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي**»[١].

وإجابة الدعاء قد تكون في صورة لا يعلمها العبد:

أ- فقد يجيب الله تعالى دعاءه بما يسأله، ويطلبه في الدنيا، إن كان في ذلك خيره ومصلحته.

ب- وقد يؤجل الله له الإجابة، ويدخرها له في الآخرة، إن كان ﷻ يعلم أن في هذا خيرًا له.

ج - وقد يبدل الله سبحانه بهذا الشيء الذي يطلبه الإنسان شيئًا آخر فيه نفعه.

د - وقد يدفع الله عنه من الضرر، أو الشر والأذى مما كان سينزل به، ولا يعلمه، فرفعه رب العالمين عنه دون علمه؛ فالدعاء يستجاب في إحدى هذه الحالات الأربع، ونحوها.

والقرآن الكريم يبيِّن أن من الكفار من دعا على نفسه مثل: النضر بن الحارث، وهو يقول عن القرآن، وعن صاحب الرسالة ﷺ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقد أجاب الله سبحانه عن هذا المطلب بأن عذاب الاستئصال في الدنيا مرفوع عن هذه الأمة؛ بسبب وجود محمد ﷺ فيهم، وبسبب كثرة استغفارهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٣٥).

مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

١٢- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

وعجلة الإنسان ودعاؤه بالشر، لا يقدم عجلة الزمن، ولا يؤخرها؛ فإن من آيات الله سبحانه في هذا الكون أن هذا الزمن يسير فيه الليل والنهار متعاقبين، كل منهما يخلف الآخر ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس]

والآية: هي العلامة المنصوبة للنظر والعبرة، ومع سير الزمن فالله سبحانه يغير الأحوال، ويبدل الأمور ويقلبها، ويداول الأيام بين الناس، فما لكم يا بني إسرائيل لا تعتذرون، ولا تفيئون إلى رشدكم ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فبعد علوكم وإفسادكم في الأرض يغيِّر الله الأحوال من جيل إلى جيل، ومن حال إلى حال، وتكونون كما وصفكم ربنا في قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أي: آيتين عظيمتين دالتين على كما قدرة الله سبحانه، وسعة رحمته وعلى تدبيره للأمور في هذا الكون العظيم؛ فكل منهما آية، أو أن آية الليل: هي القمر، وآية النهار: هي الشمس.

قال ابن عباس ﷺ: والقمر آية الليل، والشمس آية النهار.

﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهي السواد الذي في القمر، وذلك في أصل الخلقة؛ أي جعلناه مظلمًا للسكون فيه والراحة، فالقمر هو الممحوُّ، والشمس هي المبصرة.

وقال ابن عباس: جعل الله نور الشمس جزءًا، ونور القمر كذلك، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءًا، فجعلها مع نور الشمس.

والمحوُ: هو طمس النور، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: السواد الذي في القمر، هو أثر المحو والطمس[1].

---

(١) انظر ما أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر عن عكرمة في هذا المعنى في: «الدر المنثور» (٩/ ٢٦٩).

فقد نقل الطبري عن أهل الكوفة أن علي بن أبي طالب ﷺ قال: سلوا عما شئتم، فقال ابن الكوَّا: ما السواد الذي في القمر؟ فقال له علي: قاتلك الله، هلَّا سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ ذلك محو الليل(١).

فائدتان لمحو آية الليل وإبصار آية النهار: فالله تعالى يمتن على خلقه بأن جعل كلًّا من الليل والنهار، والتعاقب بينهما آيتين عظيمتين دالتين على وحدانية الله تعالى؛ فنفس الليل آية، ونفس النهار آية، والليل يتضمن آية ثالثة ملازمة له، هي نور القمر، والنهار يتضمن آية رابعة ملازمة له، هي ضوء الشمس، فالقمر يلازم الليل، والشمس تلازم النهار، فهذه أربع آيات على وجه التفصيل تتجلى فيها فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: لقد محا الله آية الليل التي هي القمر، فلم يخلق له شعاعًا كشعاع الشمس، وجعل للشمس شعاعًا يُبصَرُ في ضوئه كل شيء، ومحا الله آية الليل؛ لتسكنوا فيه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ].

وذلك أن الليل ليس للصخب، ولا للضجيج، ولا للسهر، إنما الليل يكون للراحة، وللنوم بعد العشاء، وغير ذلك انعكاس وقلب لآيات الله سبحانه في هذا الكون.

وجعل سبحانه النهار؛ لتبتغوا فيه من فضله، ولتسعَوْا على تحصيل أرزاقكم وأعمالكم، وهذا من فضل الله عليكم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص]

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: ٩٦]

والله سبحانه يقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: كل منهما يخلف الآخر، وذلك ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

والفائدة الثانية: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فمن مجموع الليل والنهار تعرفون الأهلة، وتعرفون الأشهر، ومواسم الطاعة والعبادات، وتعرفون شهر الصيام، وأيام الحج، وأيام العدة، وأيام المتعة، وأيام الحيض، وغير ذلك من الأمور

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٥١٥) وفي تاريخه (١/ ٧٦).

التعبدية، وأحوال الدنيا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكل شيء أنتم بحاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم فصَّله ربنا، ووضَّحه، وبيَّنه ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي بيّنا الآيات وصرّفناها لتتميّز الأمور، ويَتَبَيَّنَ الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وللخير والشر أجل موعود ينتهيان إليه، لا يقرّبُه استعجال، ولا يؤخّره استبطاء؛ لأن الله تعالى قد جعل لكل شيء قدرًا، لا إبهام فيه، ولا شك، كما قال تعالى:

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال جل شأنه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وهذا التفصيل يكون عن طريق الرسل بالتبليغ، وعن طريق العقول بما أودع الله فيها من إدراك، ومن جملة ما فصَّله الله للناس: الثواب، والعقاب على الأقوال والأفعال.

مُلَازَمَةُ الْإِنْسَانِ لِسِجِلِّ أَعْمَالِهِ

١٣ - ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ[(١)] لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ[(٢)] مَنشُورًا﴾

---

(١) قرأ أبو جعفر بياء مضمومة و راء مفتوحة من (ونخرج) على أنه مضارع أخرج مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الطائر، و (كتابًا) منصوب على الحال، وقرأ يعقوب بياء مفتوحة و راء مضمومة، على أنه مضارع خرج، والفاعل ضمير يعود على الطائر، و (كتابًا) حال، وقرأ الباقون بنون مضمومة وراء مكسورة، على أنه مضارع أخرج المتعدي بالهمزة، و (كتابًا) مفعول به.

(٢) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف من (يُلَقَّاه) مضارع لَقَّى بالتشديد مبني للمجهول، ونائب الفاعل ضمير يعود على الإنسان، وهو المفعول الأول، والهاء مفعوله الثاني وهو عائد على الكتاب، والباقون بفتح الياء وتخفيف القاف، مضارع لَقِيَ، والفاعل ضمير يعود على الإنسان، والهاء مفعول به، وهو عائد على الكتاب.

ثم إن هذا الليل والنهار يسيران إلى أن تقوم الساعة؛ فالقرآن ينتقل بنا في هذه الآية من الدنيا إلى القبر، ومن القبر إلى الآخرة، وهكذا يطوي القرآن الزمن، ويتحدث عن يوم القيامة، فيقول: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

وفي يوم القيامة يلزم كل إنسان ما عمله في الدنيا من خير أو شر، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله، فيخرج له كتابه ويقال له: حاسب نفسك.

الطائر: هو عمل الإنسان، الذي فيه سعادته وشقاؤه، فعمل الإنسان من خير أو شر معلق في عنقه، وملازم له كلزوم القلادة للعنق، وكل إنسان يعمل وَفْق ما قُدِّر له في علم الله لا محالة.

وهذا الطائر فيه شؤم، وفيه فأل؛ لأن العمل فيه خير، وفيه شر، ففيه التفاؤل والتشاؤم، وكل إنسان يتفاءل ويتشاءم؛ فالطائر على هذا هو ما سبق في علم الله تعالى من سعادة أو شقاء.

والأصل في هذا أن الله ﷻ قبل خلْق آدم ﵇ عَلِمَ جلَّ شأنه مَنْ سيكون عاصيًا من ذريته إلى يوم الساعة، ومن سيكون مُطيعًا، من سيكون مصيره الجنة، ومن سيكون مصيره النار، وعَلِمَ سبحانه أطوار حياته: متى يكتسب الطاعة؟ ومتى يقترف المعصية؟ وعِلْمُ الله تعالى لا يتخلف، ثم قدَّر الله تعالى، وجرى القلم بما هو كائن وما يكون، وَفْقَ علم الله سبحانه لما سيقع من العباد، من أقوال وأعمال.

وهذا العمل هو طائر الإنسان وهو ملازم له، ولا يمكن له أن يحيد عنه وفق ما علم الله سبحانه أنه من أهل النعيم، أو من أهل الشقاء، نسأل الله السلامة.

وقد عبَّر سبحانه عن عمل الإنسان بطائره؛ لأن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإذا سافروا ومرَّ بهم الطير زجروه، فإن مرَّ بهم سانحًا -أي: من جهة الشمال إلى اليمين- تيمَّنُوا وتفاءلوا، وإن مرَّ بارحًا- أي: من جهة اليمين إلى الشمال - تشاءموا.

وقد نهى الإسلام عن ذلك فقال ﷺ كما في حديث أبي هريرة ﵁: **«لا عدوى، ولا**

طيرة، ولا هامة، ولا صفر، وفرَّ من المجذوم فرارك من الأسد»[١].

وكان العرب أيضًا يطلقون الطائر على السهم الذي يقع على الشيء، فيكون من حظ من رُمي به، فأُطلق الطائر في الآية على العمل؛ لما يحمله من خير أو شر، فهو حظه من العمل، كما أنّ ما يقع عليه السهم هو حظ الإنسان فيه.

فالشق الأول من الآية، يتعلق بالعمل الذي يعمله الإنسان، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وقد خاطب الله العرب في الآية بما تعرف، فقد كان من عادتهم التيمُّن والتشاؤم بالطير، في كونها سانحة وبارحة، وكانت تعتقد أن فعل الطير قاضٍ بما يلقاه الإنسان من خير أو شر، فأخبرهم الله في هذه الآية بأن كل ما يلقاه الإنسان قد سبق به القضاء.

ففي حديث حذيفة بن أُسيد الغفاري يبلغ به النبي ﷺ قال: **«يدخل الملَك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يارب، أشقيٌّ أو سعيد؟ فيُكتَبان، فيقول: أي رب! أذكر أو أنثى؟ فيُكتَبان، ويُكتب عمله، وأثره، وأجله، ورزقه، ثم تُطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا يُنقص»**[٢].

زاد في رواية أحمد: **«ثم يقول الملَك: يارب، ما أصنع بهذا الكتاب؟ فيقول: علِّقْهُ في عنقه إلى قضائي عليه»**، فذلك قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾.

ولما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استُعِير استعارة تصريحية؛ لما يشبههما من قدرة الله تعالى، وعمل العبد؛ لأنه سبب للخير والشر[٣].

---

(١) «المسند» (٤/ ٦٤١) برقم (١٧٣١٦) حديث صحيح بإسناد حسن قال ابن كثير (٤/ ٥٢): إسناده جيد قوي ولم يخرجوه، قلت: وفيه ابن لهيعة وقد صرح بالتحديث، وقد رواه عنه عبد الله بن المبارك قبل احتراق كتبه، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٢٥٧) والكبير ١٧(٧٨٢) والبغوي في شرح السنة (١٤٢٨) والحاكم (٤/ ٢٦٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٤). ومسند أحمد (١٦١٤٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين وأخرجه الحميدي (٨٢٦) والطبراني في الكبير (٣٠٣٩) وابن أبي عاصم في السنة (١٨٠).

(٣) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (١٥/ ٣١).

أما الشق الآخر في الآية، فهو يتناول كتابة هذه الأعمال، وتسجيلها في ديوان يُنشر لصاحبه يوم القيامة، فيراه مفتوحًا ومكشوفًا، ولا يمكنه المغالطة أو التجاهل، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

وكل إنسان له صحيفتان في الدنيا، وعليه مَلَكان موكّلان به يحفظان حسناته وسيئاته، ويدوّنانهما في صحيفتي الحسنات والسيئات، صحيفتان منشورتان لكل إنسان وهو حي، فإذا مات طويت الصحيفتان، وعُلِّقتا في عنقه وهو في قبره، فإذا كان يوم القيامة كان منهم الآخذ كتابه بيمينه، ومنهم الآخذ كتابه بشماله.

والذي يأخذ كتابه بيمينه يفرح، ويقول لذويه وأهله: اقرؤوا شهادة النجاح ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩] هذه شهادتي وهذا تقديري ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾﴾ [الحاقة] و﴿يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق].

ومن هو عكس ذلك -والعياذ بالله - يدعو على نفسه بالويل، والثبور، والهلاك، ويتمنى أنه لم يُبعث، ولم يخرج من قبره مرة ثانية، ويقاد إلى جهنم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا؛ لأنه كان لا يؤمن بالله العظيم، هذا معنى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ فيه أعماله التي قدمها في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ﴿١٧﴾ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴿١٨﴾﴾ [ق].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار].

وقال سبحانه: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف].

وقال ﷻ: ﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة].

فكل عمل ابن آدم محفوظ في كتابه، قليله وكثيره، صغيره وكبيره، يكتب عليه قوله، وعمله في ليله ونهاره، وصباحه ومسائه، ويُجزى به يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

فهذا العمل الذي ألزم الإنسان به نفسه، يخرج له يوم القيامة مكتوبًا في كتاب يلقاه مفتوحًا ليقرأ ما فيه؛ بعدما خُتم عليه في الدنيا عندما انقطع العمل بموته.

كما في حديث عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ليس من عمل يوم ،إلا هو يُخْتَم عليه، فإذا مرض المؤمن، قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته، فيقول الرب ﷻ: اختما له على مثل عمله حتى يبرأ، أو يموت»**[١].

فإذا كان يوم القيامة وَجَدَ العبد في صحيفته كل جليل ودقيق، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: ٤٩].

فإذا حاول العبد أن ينكر شيئًا مما يجده أمامه في كتابه، ختم الله ﷻ على فمه، وتنطق جوارحه بما قال وفعل، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

ومعنى الآية: وكل إنسان يجعل الله ما عمله من خير، أو شر، ملازمًا له، صادرًا عنه بِكسْبه واختياره، لا يزاد عليه ولا ينتقص منه، وكان العرب يتفاءلون بالطير في أسفارهم إن مرَّ بهم من الشمال إلى اليمين، ويتشاءمون به إذا مرَّ بهم من اليمين إلى الشمال.

مَا يُخَاطَبُ بِهِ الإِنْسَانُ بَعْدَ فَتْحِ كِتَابِهِ أَمَامَهُ

١٤-﴿ٱقْرَأْ[٢] كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾

والإنسان يومئذ هو الحسيب على نفسه؛ فالله سبحانه يترك حسابه له، ويقول له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ اقرأه وحدك؛ إذ ليس هناك حسيب آخر، اقرأ الصحيفة بنفسك، وهكذا يقرأها من كان أميًّا في الدنيا، ومن كان فيها قارئًا، يقرأها بأي لسان، وبأي لغة؟ تكفيك نفسك اليوم مُحْصِية عليك عملك، فتعرف ما عليها من جزاء، وهذا أعظم العدل والإنصاف، وهل هذه الصحيفة ستكون بلغة القرآن، لغة الرسالة الخاتمة، اللغة العربية، أم غيرها؟

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٥٧٠٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢٠).

(٢) قرأ أبو جعفر بإبدال الهمزة ألفًا من (اقرأ) وحمزة وهشام وقفًا، وحققها الباقون.

الله أعلم، والله تعالى قادر على أن يقرأها جميع الخلق على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم، وقد تكون هذه الصحيفة لكل قوم بلغتهم، وحقيقة الأمر عند رب العالمين، ولكن كل إنسان يقرأ صحيفته بنفسه، العالم والجاهل، القارئ وغير القارئ، وتكفي شهادته على نفسه، ومن أعظم العدل والإنصاف أن يقال للعبد: حاسب نفسك، كفى بها حسيبًا عليك.

أخرج الطبري عن الحسن أنه قال: يابن آدم، بسطتُ لك صحيفتك، ووُكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل، أو أكثر، حتى إذا مت طُويتْ صحيفتك، فجُعلتْ في عنقك، معك، في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتابًا تلقاه منشورًا، قد عَدَلَ والله فيك من جعلك حسيب نفسك[1] قال ابن كثير: هذا من حُسن كلام الحسن رحمه الله.

مَسْؤُولِيَّةُ الإِنْسَانِ عَنْ نَفْسِهِ

١٥- ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

ومن اهتدى و سلك طريق الحق، والطاعة وقام بالغاية التي خلقنا الله من أجلها فهو المهتدي، وهدايته لنفسه، وثوابه يعود عليه، ومن لم يسلك طريق الهدى، وحاد عن الحق إلى الباطل، فعقابه يعود عليه، والغاية التي خُلِقْنا من أجلها جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وليس هناك أحد يحمل وزر أحد؛ فالمسؤولية فردية، والتبعة تقع على الإنسان وحده، وكل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره، الوالد لا يحمل شيئًا عن ولده، والولد لا يحمل شيئًا عن والده، والزوج لا يحمل شيئًا عن زوجه، والصاحب لا يحمل شيئًا عن صاحبه، والعكس صحيح قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ﴾ [لقمان: ٣٣]

---

(١) الطبري (١٤/ ٥٢٣)، وتفسير ابن كثير للآية.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس] وقال سبحانه ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

فلا تحمل نفس مذنبة إثم نفس أخرى مذنبة.

وفي الآية إبطال لما يتوهمه بعض الناس أنَّ غيرهم يحمل أوزارهم.

وقد رُوِي أن الوليد بن المغيرة لما رأى قومًا يترددون في الدخول في الإسلام قال لقريش: اكفروا بمحمد وعليَّ أوزاركم[١].

أي: عليَّ تبعاتكم، ومسؤولية تكذيبكم، إن كان هناك تبعة!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ﴾ [فاطر: ١٨].

أما إذا تسبب الإنسان في ارتكاب غيره للأوزار، بأن كان قدوة له في الشر بقوله، أو عمله؛ كدعاة الكفر، والفسوق، والبدع، والمجاهرة بالمعاصي، فإنه يتحمل أوزار من أضلهم؛ لأنه المتسبب، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ﴾ [العنكبوت: ١٣]

وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ [النحل: ٢٥].

كما أن من يَسُنُّ في الناس سنة سيئة فإنه يتحمل من آثام من ارتكبوها، كما جاء في الصحيح: عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نفس تُقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه كان أول مَنْ سن القتل»**[٢].

---

(١) من «تفسير ابن عطية» والبغوي والخازن و«زاد المسير» للآية.

(٢) من حديث ابن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (١٦٧٧) و«صحيح البخاري» (٣٣٣٥، ٦٨٦٧، ٧٣٢١).

بكاء أهل الميت عليه:

أما حديث عمر وابن عمر ﷺ في الصحيح: «**إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**»[(١)] فهو محمول على أنه إذا أوصى الميت بذلك قبل موته، أو إذا كان يعلم واثقًا أنهم يَلْطُمون الخدود، ويشقون الجيوب، بأن كان هذا شأنهم وديدنهم ولم ينههم عن ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

قال ابن عباس ﷺ: فلما مات عمر، ذكرتُ ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا والله ما حدَّث رسول الله ﷺ: إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: «**إن الله يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**»، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[(٢)].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: ذُكِر عند عائشة قول ابن عمر: «**الميت يعذب ببكاء أهله عليه**» فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن سمع شيئًا لم يحفظه، إنما مرَّت على رسول الله ﷺ جنازة يهودي وهم يبكون عليه، فقال: «**أنتم تبكون وإنه ليعذب**»[(٣)].

ومعلوم أن الإنسان ينتفع بصالح عمله، فينال ثواب المهتدى بسببه، وينفعه بعد موته: «**صدقة جارية، أو علم يُنتفَع به، أو ولد صالح يدعو له**».

بلوغ الدعوة شرط في العذاب:

وما كان الله سبحانه ليعذب أحدًا في الدنيا، ولا في الآخرة، حتى يقيم عليهم الحجة، فيرسل لهم الرسل، وينزل عليهم الكتب، ولذلك فإن أهل العلم تحدثوا على ضوء الأحاديث الواردة في أطفال الكفار، وفي أهل الفترة الذين لم تبلغهم الرسالة، وفي المجنون الذي لا عقل له، والأصم والأبكم الذي لا تصل إليه الدعوة، ونحو ذلك، ما مصير هؤلاء؟ هل هم إلى الجنة، أم إلى النار؟ والصحيح أنهم لا يعذبون أَخْذًا من هذه

---

(١) من حديث عمرو ابن عمر وابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٩٢٧، ٩٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (١٢٨٦، ١٢٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٩٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (٩٣١، ٩٣٢) بزيادة.

الآية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1]

أي: أن الله تعالى لا يهلك أفرادًا، أو أمة بعذاب إلا بعد بلوغ الرسالة إليهم وإنذارهم، وهذا إعلام من الله تعالى إلى خلقه أنه لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، ومما يدخل في ذلك والد النبي ﷺ وأمه.

وقد يُفَسَّرُ الرسول في الآية بمعنى العقل، فقد بعث الله آدم بالتوحيد، وبثه آدم في ذريته وأبنائهم، وتجدد ذلك في عهد نوح ﷺ بعد غرق الكفار، ولأن بعض العقول قد تضل، وتنحرف عن الفطرة فقد أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

ومن نظائر هذه الآية في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: ١٩].

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الملك].

وقوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤٧].

أطفال غير المسلمين:

هذا: وقد أورد ابن كثير مجموعة من الأحاديث، وأقوال الأئمة الواردة في أطفال المشركين، وأن منهم من قال: إنهم في الجنة، ومنهم من قال: إنهم في النار، ومنهم من

(١) انظر الآثار الواردة في ذلك بأسانيد حسنة في: «المسند» (١٦٣٠١، ١٦٣٠٢) وابن حبان (٧٣٥٧) والطبراني (٨٤١) والبزار في «الكشف» (٢١٧٧) وعبد الرزاق (١/ ٣٧٤) والطبري (١٤/ ٥٢٦).

توقف، ثم قال: ومنهم من ذهب إلى أنهم يُمتحَنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخرًا، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة، وذكر لكل فريق أدلته ثم قال: وهذا القول، أي الأخير، يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. . .»[١].

وقال الشيخ الشنقيطي: الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة و هي: هل يُعذَر المشركون بالفترة، أولا؟ والجواب: أنهم معذورن بالفترة في الدنيا، وأن الله تعالى يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها، فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يُصَدِّق الرسل حين جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعُذِّب فيها، وهو الذي كان يُكَذِّب الرسل حين جاءته في الدنيا؛ لأن الله تعالى يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل[٢].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل عن أطفال المشركين من يموت منهم صغيرًا، فقال: «**الله أعلم بما كانوا عاملين**»[٣].

عِلَّةُ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ: مُخَالَفَةُ الرُّسُلِ وَالتَّمَادِي فِي الْفَسَادِ

١٦-﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا[٤] مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾

أي إذا أراد الله أن يهلك قرية من القرى الظالمة، أمر مُتْرَفيها بما جاءت به الرسل، فخالفوهم، واشتد طغيانهم، فحق عليهم كلمة العذاب، واستأصلهم الله تعالى، وذلك كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح، وغيرهم ممن عاقبهم الله بغيهم.

وهكذا بيَّن سبحانه أن علة إهلاك الأمم، هو مخالفة الرسل، والتمادي في الفساد، فإنه تعالى يأمر كبار القوم من المترفين والرؤساء بما جاءت به الرسل، فيعرِضون عنه، ويَخرُجون عن أمر الله، فيحق عليهم الوعيد فيهلكهم الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٥) وما بعدها.

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٤٨١) بتصرف.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٦٥٩) و«صحيح البخاري» (١٣٨٤، ٦٥٩٨، ٦٦٠٠).

(٤) قرأ يعقوب بمد همزة (أمرنا) بمعنى: كثرنا، وقرأ الباقون بالقصر، من الأمر.

جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأنعام].

وقد خص الله المترفين بالذكر مع الأمر بالطاعة للجميع؛ لأن المترفين هم القادة فإذا استجابوا للطاعة استجاب غيرهم تبعًا لهم، ولأنهم الأسرع في الانغماس في الشهوات وارتكاب المحرمات، والله ﷻ إذا عاقب قومًا، أو أمة من الأمم، فإن الفتنة تعم والرحمة تخص ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقد يَعْصِي اللهَ تعالى في أمة من الأمم عددٌ من الناس، والعدد الآخر لا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهوهم عن المنكر، ولم يتمعَّر وجه أحدهم غضبًا لله تعالى، فالنقمة في هذه الحالة تعم الجميع.

كما في حديث زينب بنت جحش أم المؤمنين ﵂ حين دخل عليها النبي ﷺ فزعًا وهو يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**» وحلَّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[1] أي: أنه إذا كان أهل الشر أكثر فإن الهلاك يعم، إذا لم يقم الآخرون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي كل زمان ومكان يكون أهل النعمة والترف غالبًا هم أهل الطغيان والفساد.

والله جلَّ شأنه إذا أراد بأمة خيرًا، وكانوا أهلًا له، فإن الله سبحانه يولِّي عليهم رجلًا صالحًا، وإذا كانوا لا يستأهلون ذلك، فإنه جلَّ شأنه يولِّي عليهم من هو مثلهم، ولذا قيل: كما تكونون يولَّ عليكم، هذا معنى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي: لظلمهم وبغيهم وطغيانهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أمرناهم بالطاعة، والتوحيد، واتباع الرسل، فلم يمتثلوا، ولم يستجيبوا، وخرجوا عن الطاعة ففسقوا، وعصوا.

والحكمة في هذا الأمر، هو الإعذار، والإنذار، والتخويف، والوعيد.

والقرية في القرآن هي الأمة العظيمة، والمدينة الكبرى كالعاصمة.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» برقم (٣٥٤٦، ٣٣٩٨، ٧١٣٥، ٧٠٥٩).

فالمعنى: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا فيها، فتكون النتيجة أنهم استحقوا العقوبة وهذا معنى ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم عذاب الله سبحانه، ونزلت بهم جميعًا العقوبة، فاستأصلهم الله بالهلاك التام؛ لأنهم أخذوا بأسبابه، وهذه سُنَّة الله في خلقه، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء.

وفي لغة العرب: آمرنا - بمد الهمزة - مترفيها، أي: كثَّرناهم، وجعلناهم كثرة، وفي قراءةٍ أمَّرنا . بتشديد الميم[1]. مترفيها، أي: جعلنا حكامهم، وقادتهم أمراء من الطغاة المترفين الجبابرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب] فكان غير المترفين تبعًا لهم؛ لأنهم لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، والناس على دين ملوكهم، وهذه أمثلة لمن أهلكم الله تعالى بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الرسل، قال تعالى:

١٧- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

ثم ضرب الله مثالًا لإهلاك القرى التي فسق مترفوها، من الأمم الطاغية، المكذبة لرسل الله؛ كقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

فلا تكذبوا محمدًا - أيها الناس - فلستم أكرم على الله منهم، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان] فهؤلاء ممن استحبوا الضلال على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان، والغي على الرشد، فكانوا أهلًا لغضب الله تعالى وسخطه، ونزول العذاب بهم، ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

والله سبحانه يقول لنا: خذوا العبرة من الأمم التي سبقت قبل نوح، فقد كان الناس

---

(١) وهي لأبي عثمان النهدي وأبي العالية وابن عباس وعلي، يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٤٤) وليست من القراءات المتواترة.

على الإسلام عشرة قرون، وهم على التوحيد من لدن آدم إلى نوح، ثم كان هلاك الأمم من عهد نوح لما عُبِدت الأصنام من دون الله، فكان هلاك قوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وكثير من الأمم المكذبة الجاحدة، من بعد نوح، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلق، فعقوبتكم أولى وأحرى، وقد أهلك الله كثيرًا من الأمم السابقة التي استحبت العمى على الهدى، وآثروا الكفر على الإيمان.

وكان زعماء الكفر من قوم نوح هم المترفون الذين قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

وقد خُصَّ قوم نوح بالذكر؛ لأن عبادة الأوثان ظهرت في عصره، فهو أول رسول، والعذاب الذي حل بقومه عذاب مهول، وزمن نوح عليه السلام هو مبدأ قصص الأمم والرسل.

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم**»[1].

والقرن: هو الجيل من الأمة، وهو في الغالب مئة عام، كما رُوِي أن النبي ﷺ وضع يده على رأس عبد الله بن بشر المازني، وقال: «**سيعيش هذا الغلام قرنًا**»، قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعدُّ له حتى تَمَّت له مئة سنة، ثم مات[2].

وقد يزيد: الجيل الواحد عن مئة عام كجيل الصحابة، فإنه تم عشرون ومئة سنة، فقد كان آخره يزيد بن معاوية، وقيل: أنس بن مالك، ونقص عمر التابعين عن ذلك فكان ثمانون عامًا، والمتوسط مئة عام.

ثم طمأن الله رسوله بأنه مطَّلِع على ذنوب القوم، وهو سبحانه مجازيهم بذنوبهم، فبيَّن تعالى أنه عالم بجميع أعمال عباده، لا تخفى عليه خافية ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ وهو سبحانه مجازيهم على ما قدمت أيديهم، كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٢، ٥١٣٦، ٦٤٢٩) و«صحيح مسلم» (٢٥٣٣).

(٢) «تفسير الخازن» (٣/ ١٥٩).

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] فاحذروا أن تكونوا مثلهم.

مَصِيرُ مَنْ يَعْمَلُ لِلدُّنْيَا وَمَنْ يَعْمَلُ لِلْآخِرَةِ

١٨- ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾

ثم إن الناس على قسمين: منهم من يعمل لشهواته مدة حياته، كأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء على كل ما اقترفت يداه في هذه الحياة.

ومنهم من يعمل لآخرته، فيسدد ويقارب.

وبعض الناس أكبر همه الدنيا، يعمل لها، ويسعى من أجلها.

والله سبحانه يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكنه سبحانه لا يعطي الدين إلا لمن أحب ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا، ويعمل لها وحدها، ولا يؤمن بالآخرة، ولا يعمل لها ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا﴾ أي: في الدنيا ﴿مَا نَشَآءُ﴾ تعجيله، هذا شرط، والشرط الثاني: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ أي: وفق مشيئة الله تعالى، لا وَفْق ما يريده العبد، ولمن يريد الله سبحانه من عباده، وليس لما يريده العبد، ثم يوفَّى نصيبه في الدنيا، وقد قيَّد الله العطاء في الدنيا لمن يريد، بمشيئته وإرادته.

والكافر يأخذ حقه في الدنيا على الأعمال الصالحة، فإنْ كان يصل رحمه، ويبر والديه، ويتصدق على الضعفاء، ويواسي أهل المصائب، ويكرم الضيف، ونحو ذلك، فإنه سيأخذ ثوابه وجزاءه في الدنيا على هذا، وليس له في الآخرة من نصيب.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة يُعطَى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُعطَى بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يُجزى بها»**[(١)].

وفي لفظ له: **«إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمة في الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويعقبه رزقًا في الدنيا على طاعته»**[(٢)].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٠٨).

فمن كان يطلب الدنيا، ويسعى لها وحدها، ولم يصدِّق بالدار الآخرة، ولم يعمل لها عجَّل الله له في الدنيا ما يشاؤه مما كتبه الله له في اللوح المحفوظ، فيُوَفَّى نصيبه في الدنيا كاملًا ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: أن مصيره في الآخرة هو عذاب جهنم يدخلها وهو ملوم مطرود من رحمة الله تعالى؛ بسبب توجهه للدنيا وحدها، وعدم إيمانه بالآخرة.

عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»**[1].

ولفظ الإرادة مرادف للفظ المشيئة، فإن أعطى الله من يعمل للدنيا بعض ما يريد، فإنه يكون مقيدًا بإرادة الله تعالى ومشيئته.

وكثير من الناس يتمنى الكثير ولا يعطاه، فيجتمع له فقر الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود].

١٩- ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ[2] مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

أما من يعمل للآخرة فهو لا يُبالي إن أُعطي حظًّا في الدنيا أم لا؛ لأنه في الآخرة مكافأ على كل حال ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذه ثلاثة شروط وهي:

١- أن يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة.

٢- أن يسعى سعيًا حثيثًا للآخرة لا رياءَ فيه، ولا سمعة.

٣- وهو مؤمن، هذا هو الشرط الأساس ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾

أي: أن عملهم مقبول، مدَّخر لهم عند ربهم، وسيثابون عليه، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٧١) برقم (٢٤٤١٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٨٨): رجاله رجال الصحيح غير دُوَيْد وهو ثقة وقال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٤٩٤): رجاله ثقات، وضعف إسناده محققو «المسند» فقالوا: إن دُوَيْد غير منسوب.

(٢) سكَّن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر.

قال بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

وجاء في الحديث عن أنس بن مالك ﷺ: «**من كانت الآخرة همه ،جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»[١].

قال قتادة: من كانت الدنيا همَّه، ورغبتَه، وطِلْبتَه، ونيَّتَهُ؛ عجل الله له فيها ما يشاء، ثم اضطره إلى جهنم[٢].

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى]. قال تعالى:

٢٠-﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا[٣] ﴿٢٠﴾﴾

أي وجميع الخلق سواء منهم من يريد الدنيا، ومن يريد الآخرة، كلهم يمدهم ربنا من فضله ورزقه ﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ من عطاء الله ورزقه، كلا الفريقين: الكافر والمؤمن، والطائع والعاصي ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ جميعهم يأخذون ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ الواسع، تفضُّلًا منه، وإحسانًا ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: لم يكن هذا العطاء خاصًا، ولا محبوسًا، ولا منقوصًا، ولا ممنوعًا من أحد، بحيث يخص المؤمنين وحدهم، بل كل من العاملين للدنيا الفانية، والعاملين للآخرة الباقية نزيده من رزقنا، فنرزق الجميع: البرَّ والفاجر، والتقي والعاصي، وهذا الرزق عطاء من الله تعالى، وتفضُّل منه على جميع خلقه، وليس ممنوعًا على أحد.

قال قتادة: إن الله قسم الدنيا بين البر والفاجر، والآخرة خصوصًا عند ربك

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٥) وانظر تخريجه في: سورة هود الآية [١٥].

(٢) الطبري (١٤/ ٥٣٦).

(٣) كسر التنوين من (محظورًا) حال وصلها بـ (انظر) بعدها حمزة وأبو عمرو وابن ذكوان وعاصم ويعقوب، وقرأ الباقون بالضم.

للمتقين[١]. قال تعالى:

٢١-﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

وعطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال، بل قد يزيد عطاء الكافر على عطاء المؤمن في الرزق، وفي العمل، وفي الصحة، وفي المال، وفي العقل والجاه، وغير ذلك، فتأمل في كيفية تفضيل الله لبعض الناس على بعض في الدنيا، واعتبر، واتعظ ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والفضل في الآخرة هو فضل المؤمن وحده، فهو أكبر درجة وأعظم أجرًا، فلا نسبة ولا مقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة بوجه من الوجوه، ولا يستوي من هو في الغرف العاليات، بمن ينقلب في الجحيم، وقد حلّ عليه سخط الله تعالى.

وقف على باب عمر بن الخطاب جمع من الناس فيهم الضعفاء والفقراء، وفيهم أشراف قريش وملوك العرب، أبو سفيان، وغيره، فأذن عمر بالدخول أولًا، لبلال، وصهيب، وعلى الباب أبو سفيان، وغيره من أشراف العرب، وملوكهم، فقال سهيل بن عمرو -وكان قد أسلم مؤخرًا- قال: إنما أوتينا من قِبَلِنا، دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، أي: أن هؤلاء الضعفاء أسرعوا إلى الدخول في الإسلام قَبْلنا، ونحن تأخرنا عنهم.

فإذا كان الأمر هكذا بباب عمر، فكيف بأبواب الجنة؟ وما ينتظر أمثال هؤلاء الضعفاء والمساكين، من أهل الصلاح، من الثواب الجزيل، إنهم أعظم فضلًا، وأعلى درجات عند رب العالمين، فأهل الدرجات يتفاوتون، والجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وأهل الجنة يُرَوْن فيها كما يرى الكوكب في السماء.

وَصَايَا سُورَةُ الْإِسْرَاءِ الْأَرْبَعَ عَشْرَةَ

في نحو صفحتين من صفحات المصحف، من سورة بني إسرائيل، تناولت السورة أربع عشرة وصية، جاء أكثرها في الربع الأخير من سورة الأنعام، وهي موجودة في الشرائع الإلهية على ألسنة الرسل جميعًا، لم ينسخ منها شيء من شريعة إلى أخرى، وهي جماع الأوامر والنواهي، وجماع الأخلاق والفضائل، ومجمل هذه الوصايا:

---

(١) الطبري (١٤/ ٥٣٦).

١- تنهى عن الشرك. ٢- تأمر بالتوحيد. ٣- تأمر ببر الوالدين.
٤- تأمر بالإحسان إلى الأقارب. ٥- تنهى عن التبذير والإسراف.
٦- تنهى عن البخل والتقتير. ٧- تنهى عن قتل الأولاد خشية الفقر.
٨- تنهى عن الزنى. ٩- تنهى عن قتل النفس إلا بالحق.
١٠- تنهى عن أكل مال اليتيم. ١١- تنهى عن تطفيف الكيل والميزان.
١٢- تنهى عن نقض العهد، وخلف الوعد.
١٣- تنهى عن سوء الظن والتقوُّل بغير علم. ١٤- تنهى عن الكبر والخيلاء.
وتنهى مرة ثانية عن الشرك بالله في نهاية هذه الوصايا، كما نهت عنه في بدايتها.

وهذه الوصايا الجامعة لأمهات الفضائل، أتى بها محمد ﷺ الذي نشأ في بيئة جاهلية، هذه البيئة كانت لا تعرف إلا الثأر، والقتل، والغارات، ووأد البنات، والزنى، وشرب الخمر، وقطع الرحم، وغير ذلك من الأخلاق الدنيئة، فمن الذي علَّم محمدًا ﷺ أمهات الفضائل في وسط هذه البيئة الجاهلية، إنه الوحي الإلهي الذي علّم محمدًا ﷺ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام.

والله ﷻ يسمي هذه الوصايا (آيات الحكمة) فيقول جلَّ شأنه في نهايتها: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ وكأنّ القرآن الكريم يقول لبني إسرائيل الذين أفسدوا في الأرض، وعاقَبهم الله سبحانه على الإفسادتين الكبيرتين التي جاء ذكرهما في أول السورة، كأنّ الله سبحانه يقول لهم ولغيرهم: لقد عرفتم أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، ومن هداية القرآن للتي هي أقوم، هذه الوصايا، وهذه الأوامر والنواهي التي جاء ذكرها في هذه السورة، وهي موجودة عندكم في التوراة، وموجودة في الإنجيل، وفي سائر الكتب السماوية، فلماذا لم تهتدوا؟ ولماذا لا تتبعون هذا القرآن، وتقتفون أثره، وتؤمنون بالنبي الخاتم، الذي جاء وصْفُه عندكم في التوراة والإنجيل.

وتبدأ هذه الوصايا الجامعة بالنهي عن الشرك بالله ﷻ، وتنتهي كذلك بالنهي عن الشرك بالله تعالى ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ هذه هي الوصية الأولى، أما الوصية الأخيرة فهي ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾.

الْوَصِيَّةُ الأُولَى: النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ .

٢٢-﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾

تبدأ الآيات بالنهي عن الشرك، وتُختم به؛ لأنه الذنب الأعظم الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، والعياذ بالله؛ ولأن عدم الإشراك بالله تعالى هو خلاصة أسباب الفوز بالجنة، وهو بداية الطريق للعمل الصالح، وهو أول خطوات السعي للدار الآخرة، ولأن الشرك يعني: اختلال التفكير، وتضليل العقول، وأي خلل، وأي ضلال أعظم من أن يعبد المرء حجرًا أو صنمًا يصنعه بيده، ولذا فإن إبراهيم عليه السلام قال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] وهو وثن من جماد، أو صنم من حيوان لا يعقل، ولا ينفع، ولا يضر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

سأل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**الشرك بالله**»، قال ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزاني حليلة جارك**»[١].

أي: زوجة جارك؛ وذلك لأن الزنى محرم، ولكنه بالنسبة للجار أعظم وأشد، ففيه اقتراف لجريمة، وانتهاك لحرمة الجوار.

فالشرك بالله تعالى أعظم الذنوب، فلا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين يستحق العبادة مع الله سبحانه، لا من أهل السماوات ولا من أهل الأرض، لا من الأحياء ولا من الأموات، فإنك إن فعلت ذلك وكلك الله إلى من أشركته به كما في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[٢] أي: وكلتُه إلى هذا الذي أشركه معي،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٦١، ٦٨١١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٥).

وهو لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا، بل إنه إلى ضره أقرب من نفعه، وهو في هذه الحالة مخذول، فالله وحده هو الناصر، وهو الولي، وهو المعين، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ أي: إن لم ينصركم ربكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ من الجن، أو من الملائكة، أو من الناس، ولا تشرك بالله أحدا منهم، فإن الشرك بالله من دواعي الذم والخذلان، لأن من تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكله الله إلى من تعلق به، وهذا معنى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ لا ناصر لك؛ لأن رب العالمين تخلى عنك.

والمذموم: هو المذكور بالعيب والسوء.

والمخذول: هو الذي تخلى عنه وليه وناصره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

وقد ابتدأت هذه الوصايا بالنهي عن عبادة غير الله تعالى؛ لأن ذلك هو أصل الإصلاح؛ فإصلاح الفكر مقدم على إصلاح العمل، وهذا كما في الحديث عن النعمان بن بشير: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»**[1]، وإصلاح الأعمال مرتب على نبذ الشرك.

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةُ: الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ

٢٣- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ[2] عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ[3] وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

---

(١) من حديث النعمان بن بشير في البخاري (٥٢) ومسلم (١٠٧، ١٥٩٩).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (يبلغن) بإثبات ألف بعد الغين مع المد وكسر النون مشددة، على أن الفعل مسند إلى ألف الاثنين، وهي الفاعل، وكسرت نون التوكيد بعدها تشبيهًا لها بنون المثنى، والباقون بحذف الألف وفتح النون مشددة، على أنه فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، وأحدهما فاعل، وكلاهما معطوف عليه.

(٣) قرأ نافع وحفص وأبو جعفر بكسر الفاء منونة من (أف) لغة أهل الحجاز واليمن، والتنوين للتنكير، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بفتح الفاء بلا تنوين لغة قيس، وقرأ الباقون بكسر النون بلا تنوين.

وبعد النهي عن الشرك بالله تعالى، يأمر سبحانه عباده بالتوحيد، بطريقتي: السلب، والإيجاب؛ فترك الشرك أمر سلبي، وتوحيد الله تعالى عمل إيجابي ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ قضاء محكمًا حتميًّا مبرمًا واجبًا في حصر العبادة لله وحده بعد النهي عن الإشراك به، فلا تدعُ إلا الله، ولا تسأل إلا الله، ولا تستغث إلا بالله، ولا تَنْذِر إلا لله، ولا تذبح إلا لله ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

فهو وحده الواحد الأحد، الفرد الصمد، وهو المنعم على خلقه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهو المتفرد بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة..

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: الْإِحْسَانُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ

وشأن القرآن دائمًا بعد الأمر بتوحيد الله تعالى، أن يثنِّي بالإحسان إلى الوالدين، ووجوب برهما ويأتي ذلك في الدرجة الثانية؛ لأن الوالديْن لهما الفضل الثاني بعد الله سبحانه في إيجاد العبد؛ فهما السبب المباشر في وجود الإنسان في هذه الحياة، ومن ثَمَّ كان لهما الفضل الثاني بعد الله سبحانه.

وجاء الأمر بعبادة الله تعالى مقرونًا ببر الوالدين في كثير من آيات القرآن الكريم.

قال ابن عباس ﷺ: ثلاث آيات قُرِنت بثلاث ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وهكذا فإن طاعة الله تعالى قرنت بطاعة الرسول، والصلاة قُرِنت بالزكاة، وشكر الله تعالى قُرِن بشكر الوالدين.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذه هي المرتبة الأولى، والمرتبة الثانية ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذه هي المرتبة الأولى، والمرتبة الثانية: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذه هي المرتبة

الأولى، والمرتبة الثانية ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣] وهكذا.

والإسلام يوجب الإحسان إلى الوالدين وإن كانا غير مسلمين يجاهدانه، ويطلبان منه الكفر، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ أي: لا تقاطعهما؛ فلهما حق الصحبة، وحق الأبوة ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ﴾ [لقمان: ١٥] فالقرآن لم ينه عن صُحبتهما، حتى في حالة شركهما، ومجاهدة الابن في خروجه عن طريق الإسلام، بل يأمر أيضًا ببرهما وإن ظلما.

فإن كان أبوك قد منعك من الميراث، أو أساء تربيتك، أو تركك بدون تربية، أو بدون تعليم، فحسابه على الله، وأنت عليك البر، أنت مطالب بالبر والإحسان إلى الوالدين وإن ظلماك، وحساب الظالم على الله، إن كان قد قصَّر في التربية، أو في غيرها.

وبر الوالدين مقدم على أعظم مراتب الإسلام؛ فهو بعد التوحيد وقبل ذروة سنام الإسلام، وهو الجهاد في سبيل الله، وهذه **بعض الأحاديث** الواردة في هذا المقام:

١- في صحيح مسلم، وغيره: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «**سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة لوقتها»** قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1].

أي: أن بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله.

٢- ومن هنا فقد جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال ﷺ: «**أحيٌّ والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**»[2].

وفي لفظ آخر: «**ارجع إليهما فأحسن صحبتهما**»[3].

فإن برَّهما والإحسان إليهما جهاد في سبيل الله.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٥) و«صحيح البخاري» برقم (٥٢٧) وانظر: (٢٧٨٢، ٥٩٧٠، ٧٥٣٤) و«المسند» (٣٨٩٠، ٤١٨٦) والترمذي (١٧٣) والنسائي (٦٠٩).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٩) و«صحيح البخاري» برقم (٣٠٠٤، ٥٩٧٢) وعبد الرزاق في «المصنف» (٩٢٨٤) وابن أبي شيبة (١٢/ ٤٧٣).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٩).

٣- وعن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلًا كان في الطواف حاملًا أمه يطوف بها، فسأل النبي ﷺ: هل أديتها حقها؟ قال: **«ولا بزفرة واحدة»**[١] أي: من زفرات طلق الولادة.

٤- وقد بيَّن النبي ﷺ أن الجنة لايدخلها عاقٌّ، كما في صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«رغم أنفه، ثم رغم أنفه»**، قيل: من يا رسول الله؟ قال: **«من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»**، وفي لفظ آخر: **«أبعده الله»**[٢]، أي: أبعده من رحمته، وأصبح أهلًا لدخول النار.

٥- وفي الحديث المشهور: أن جبريل ﷺ طلب من النبي ﷺ أن يؤمِّن على من ذُكِرَ عنده اسم الرسول ﷺ ولم يُصَلِّ عليه، وعلى من دخل عليه شهر رمضان وخرج منه ولم يُغفر له، وعلى من أدرك أحد أبويه أو كليهما فأغضبهما، ولم يكونا سببًا لدخوله الجنة، فإن هؤلاء جميعًا يكونون مبعدين مطرودين من رحمة الله سبحانه، يقول جبريل ﷺ للنبي ﷺ: قل آمين بعد كل واحدة من هذه الثلاث فقال ﷺ: **«آمين»**[٣].

٦- وذلك لأن عقوق الوالدين من أكبر الكبائر كما في الحديث عن عبدالرحمن بن ابي بكرة عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»** قلنا: بلى يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»**، وكان متكئًا فجلس، فقال: **«ألا وقول الزور وشهادة الزور»** فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت[٤].

٧- وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فضيِّع هذا الباب، أو احفظه»**[٥].

---

(١) أخرجه البزار في «كشف الأستار» برقم (١٨٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٥١) و«المسند» (٢/ ٣٦٤) برقم (٧٤٥١، ٨٥٥٧) وانظر: البخاري في «الأدب المفرد» (٢١) والبيهقي (٧٨٨٤).

(٣) يُنظَر نص الحديث عن أبي هريرة في الأدب المفرد (٦٤٦) وابن خزيمة (١٨٨٨) وفي: «كشف الأستار» للبزار برقم (٣١٦٨) عن أنس، ومن حديث عمار بن ياسر وجابر بن سمرة وابن مسعود في «مسند البزار» برقم (٣١٦٤) و (٣١٦٧).

(٤) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه في «صحيح البخاري» برقم (٢٦٥٤، ٥٩٧٦) و«صحيح مسلم» برقم (٨٧).

(٥) أخرجه الترمذي وقال: حديث صحيح ورقمه: (١٩٠٠) و«صحيح الجامع» (٢١٢٠) و«السلسلة الصحيحة» (٩١٤).

٨- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يجزي ولدٌ والده إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه»**(١).

ويَعْظُم حق الأم؛ لقيامها بالحمل، والولادة، والرضاعة.

٩- عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: **«يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي، قال: «أمك، ثم أمك، ثم أباك، ثم أدناك فأدناك»**.

وفي لفظ آخر: **«قال: أمك»**، قال: ثم من؟ قال: **«أمك»**، قال: ثم من؟ قال: **«أمك»**، قال: ثم من؟ قال: **«أبوك»**(٢).

١٠- وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئت أستشيرك؟ فقال: **«هل لك من أم؟»** قال: نعم، فقال: **«الزمها؛ فإن الجنة عند رجليها»**(٣).

١١- وفي الصحيحين: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قدمتْ أمي وهي مشركة، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: **«نعم، صلي أمك»**(٤).

ومعنى: وهي راغبة، أي: في بري وصلتي، أو وهي راغبة عن الإسلام كارهة له.

وسأل رجل الإمام مالك فقال: إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليَّ أن أُقْدِمَ عليه، وأمي تمنعني من ذلك؟ فقال: (أطع أباك، ولا تعص أمك)(٥).

١٢- قالت عائشة ﷺ: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ ومعه شيخ فقال: **«من معك؟»** قال:

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥١٠) والبخاري في «الأدب المفرد» (٨) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٥١) والترمذي (١٩٠٦) والنسائي في «الكبرى» (٤٨٩٦) وابن ماجه (٣٦٥٩) والبيهقي (٧٨٤٦).

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٥٩٧١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٤٨).

(٣) رواه أحمد في «المسند» عن معاوية بن جاهمة السلمي (٣/ ٤٢٩) برقم (١٥٥٣٨) بإسناد حسن و«سنن النسائي» (٦/ ١١) برقم (٣١٠٤) وابن سعد (٤/ ٢٧٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٢٤١) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧٨١) والبيهقي (٧٨٣٢)، والبيهقي في الشعب (٧٨٣٣) وفي السنن ٩/ ٢٦.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١٠٠٣) و«صحيح البخاري» برقم (٢٦٢٠، ٣١٨٣، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩).

(٥) ذكره القرافي في «الفرق» (٢١) عن «مختصر الجامع».

أبي، قال: (لا تَمْشِيَنَّ أمامه، ولا تقعُدنَّ قبله، ولا تَدْعُهُ باسمه، ولا تستَسِبَّ له)[1].

أي: لا تتسبب في سبه، كأن تسب أباه فيسب أباك.

١٣- وقال عروة: إن أغضبك والداك فلا تنظر إليهما شذرًا، فإنَّ أول ما يُعرف غضب المرء، بشدة نظره إلى من غضب عليه[2].

١٤- وقد أخبر النبي ﷺ عن رجل كان بارًّا بأمه، أنه رآه في الجنة، يقرأ القرآن، فقد صح عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: (نمتُ فرأيْتُني في الجنة، فسمعت صوت قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟ قالوا: حارثةُ بنُ النعمان، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك البر، كذلك البر**» قال: (وكان أبر الناس بأمه)[3].

١٥- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة منَّان ولا عاق، ولا مدمن خمر**»[4].

١٦- وفي حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال «**ثلاث دعوات مستجابات: دعاء الوالد على ولده، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر**»[5].

من أهداف بر الوالدين:

ويهدف الإسلام من الأمر ببر الوالدين وصلة الأرحام إلى أمرين:

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٤١٥٩) ومن رُواته: علي بن سعيد بن بشير وهو ليِّن، ونقل ابن دقيق العيد أنه وُثِّق، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٣٧): وبقية رجاله رجال الصحيح، وقد جاء هذا عن أبي هريرة بإسناد صحيح في «صحيح الأدب المفرد» (٣٢) وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠١٣٤) والبيهقي في الشعب (٧٨٩٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٩/ ٢٩١).

(٣) «المسند» (٢٥١٨٢) والحاكم (٤/ ١٥١) والبيهقي (٧٨٥١) واللفظ له، قال محققو «المسند»: إسناده صحيح، رجاله ثقات، ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (٩١٣).

(٤) «صحيح سنن النسائي» (٥٢٤١) و«السلسلة الصحيحة» (٦٧٠).

(٥) أخرجه البيهقي (٧٨٩٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٩٧). وهو في مسند أحمد (٧٥١٠، ٨٥٨١) قال محققوه: حسن لغيره، وأخرجه الطيالسي (٢٥١٧) وابن ماجه (٣٨٦٢) وأبوداود (١٥٣٦) والترمذي (١٩٠٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٢٩).

أحدهما: تربية نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصانعه، فكما أمر سبحانه بشكر الله تعالى على نعمة الخلق والرزق، أمر أيضًا بشكر الوالدين على إجراء نعمة الوجود في هذه الحياة على أيديهما، وعلى التربية والرعاية.

وثانيهما: توثيق أواصر العلاقة العائلية بما يُقَوِّي الروابط بينها، بحسن المعاشرة، والتحابب، والتواد، في مقابلة عاطفة الأمومة الغريزية، وعاطفة الأبوة الطبيعية العقلية، ليقابل ذلك بما يناسبه في حال الكفر.

وقد وزّع الإسلام هذه المعاني على بقية مراتب القرابة، حسب الدنوّ النسَبي في درجة القربى بما شرعه من صلة الرحم.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فهو لك**»[1].

بر الوالدين بعد موتهما:

وبر الوالدين لا ينقطع بموت الوالدين، وإنما يتصل بعد موتهما، سأل رجل رسول الله ﷺ: هل بقي عليَّ من بر أبويَّ شيء، أبرهما به بعد موتهما؟ قال: «**نعم**»، وذكر له خمسة أشياء:

أولًا: الصلاة عليهما، بمعنى: الدعاء لهما؛ فهذا هو الشيء الوحيد الذي يعود على الأب، أو الأم من ولده بعد موته، دعوة صالحة من الابن للأب، أو الأم بعد موتهما، إن كان ولدًا صالحًا، ودعاؤه مقبول.

ولذا: فإن الآباء يجب عليهم أن يحرصوا على تربية أبنائهم تربية صالحة، عن طريق ارتباطهم بالمسجد، وارتباطهم بكتاب الله، ومعرفة الحلال والحرام؛ فإن هذا أكبر وأعظم من الشهادة الدراسية، وأعظم من المنصب أو المركز الذي يكون فيه الابن بعد ذلك، ولا تنافي بينهما؛ فالإنسان بعد موته لا يعود عليه شيء من ذلك، مهما بلغ ابنه قمة المجد الدنيوي، وإنما يعود عليه منه دعوة صالحة إن كان عبدًا صالحًا.

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٥٩٨٧) وانظر: (٤٨٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٥٤).

ثانيًا: والاستغفار لهما، أي: طلب المغفرة، والرحمة لهما من الله سبحانه.

ثالثًا: وإنفاذ عهدهما إن كان الأب قد أخذ على نفسه عهدًا أن يصل فلانًا، أو ينفق على فلان، أو على حلقات تحفيظ القرآن، أو على المسجد، ونحو ذلك؛ فإن الابن ينبغي عليه أن يكون مددًا لنفاذ هذا العهد واستمراره.

رابعًا: وإكرام صديقهما؛ فإن من البر بالأب، والأم أن يبر الإنسان، القريب، أو الصديق، الذي كان يحبه أحد أبويه في الله، ولله، وعلى طاعة الله.

خامسًا: وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما[1]؛ كالأعمام، والأخوال؛ فإن صلتهم صلة للآباء والأمهات.

ومن تمام البر أن يصل الإنسان أقاربه، وأصدقاء والديه، سِيَّمَا بعد وفاة والديه؛ فإن في هذا بِرًّا لهما.

كما في الصحيح وغيره: عن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر أن يصل الرجل أهل وُدِّ أبيه بعد أن يُولِّي**»[2].

وكان ﷺ يهدي لصديقات خديجة ﷺ بعد موتها بِرًّا بها، ووفاء لها، وهي زوجته، فما ظنك ببر الوالدين.

إن المتأمل في المجتمعات الغربية، وما يحدث فيها من قطيعة وتفكك أُسَري بين الآباء والأبناء، بدءًا من سن البلوغ؛ حيث يترك الأب ولده، والابن بعد ذلك يسدد نفقات التربية لأبيه، في دور رعاية المسنين، ولا تعارف بينهما إلا في المناسبات وأعياد الميلاد، إن الذي ينظر إلى هذا يدرك قيمة الصلة، والرابطة الأسرية التي يحرص عليها الإسلام.

---

(١) يُنظَر: نصّ الحديث في «المسند» (٣/ ٤٩٧) برقم (١٦٠٥٩) عن أبي أُسَيد الساعديّ، وعند أبي داود برقم (٥١٤٢) وابن ماجه برقم (٣٦٦٤) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥) والحاكم (٤/ ١٥٤) وابن حبان (٤١٨)، والبيهقي (٧٨٩٦) وقد ضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١١٠١)، وضعفه أيضًا محققوا المسند، لجهالة حال عليّ بن عُبيد.

(٢) البخاري في «الأدب المفرد» (٤١) ومسلم (٢٥٥٢) وأبو داود (٥١٤٣) والترمذي (١٩٠٣) وابن حبان (٤٣١) والبيهقي (٧٨٧٩).

إن هذه المجتمعات الغربية مليئة بالملاجئ، وبيوت العجزة والمسنين، لهؤلاء الآباء والأمهات، إذا تقدم بهما السن، فإنهم ينتظرون الموت في هذه الملاجئ وهذه المساكن، وكأنَّ دُورَهم التي أقاموها، وقضَوْا فيها شبابهم، وتربية أبنائهم ضاقت عنهم، وكأن أبناءهم تنكَّروا لهم، ولم يعودوا يتحملون أن يعكِّروا عليهم حياتهم. أين هذا من الوصايا الخمس التي جاءت في هذه الآيات ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾؟ ليس المراد حالة الكبَر فقط، بل إن هذه الحالة هي الأكثر حاجة إلى عطف الأبناء، وبرِّهما، والإحسان إليهما، ولكن البر مطلوب في كل حال، سواء أكان الأبوان كبيرين أم شابين، كأنّ القرآن يقول للابن: ينبغي أن يكون الوالد والوالدة في حضنك معك في بيتك، وتحت عينك، ورعايتك ﴿أَحَدُهُمَآ﴾ عند وفاة الآخر إلى رحمة الله ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عند بقائهما على قيد الحياة.

وهذه الأمور الخمسة المتعلقة ببر الوالدين، منها اثنان بأسلوب النهي وثلاثة بأسلوب الأمر، فهي: **نهيان وثلاثة أوامر تخص الوالدين:**

النَّهْيُ الْأَوَّلُ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾

نهى سبحانه عن الأذى للوالدين باللسان، بأوجز كلمة، وأدنى أذى، للتنبيه على ما فوقه، و﴿أُفٍّ﴾ هي في الأصل النفخة التي ينفخها الإنسان على شيء وقع عليه غبار، أو رماد، ونحو ذلك، ثم استُعْمِلت للتعبير عن أدنى مكروه، أو أي أذى يمس الإنسان بالقول أو بالفعل، ويعبِّر هذا اللفظ عن الضجر والتأفف، ولو أن هناك كلمة أدنى من هذا التعبير لذكرها القرآن الكريم.

وعند الكبر يحتاج الوالدين إلى قضاء حوائجهما، ورعايتهما، وتمريضهما، وتفقد أحوالهما كل يوم، وهذا أهم من رعايتك لزوجك وأولادك.

لقد كان الأبوان وأنت طفل صغير، يُطَهِّران بَوْلَك، ويَغْسِلان نجاستك بنفس راضية، ويريدان لك الأجل الطويل، وأن تَكْبُرَ كل يوم شبرًا.

والوفاء: هو رد هذا الجميل للأبوين عند الكبر، فقد يحدث منهما مثل ذلك، قد يقعد أحد الأبوين، ويحتاج إلى من يحمله، ومن يغسل نجاسته، ومن يُطهِّر بوله، فلا تتضجر منهما، ولا تُهمل خِدمتهما، وقد كانا يَودَّان حياتك، ولذلك يختم القرآن هذه الوصايا

بقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أعلم بصدق النية، وأعلم بطيب الخاطر، وأعلم بالرضى والسخط، إن كنت تفعل هذا وأنت راضٍ، أو فيك شيء من السخط، والتأفف، والضجر.

وربك أعلم بمضايقة زوجتك لهما أو القيام على شؤونهما بنفس طيبة راضية.

النَّهْيُ الثَّاني: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾

أي: لا تزجرهما، ولا تتكلم لهما بكلام خشن أو تسيء لهما عن طريق رفع الصوت ومخالفة الأمر، فقد نهى القرآن عن التأفف منهما، وهو الدرجة الدنيا في العقوق، أما الدرجة العالية فهي رفع الصوت أمام الوالدين.

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾

أي: قل لهما قولًا حسنًا ليِّنًا لطيفًا، بحسن أدب واحترام، ولين وتلطّف، ووقار يشعرهما بالكرامة، وتطمئن له نفْساهما، ولما فرغ القرآن من القول تحدث عن الفعل:

الْأَمْرُ الثَّانِي: التَّذَلُّلُ وَالْخُضُوعُ لَهُمَا

٢٤-﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

أي تذلل لوالديك وتواضع لهما، احتسابًا للأجر، لا خوفًا منهما، بل رحمة وإحسانًا إليهما، وقد شبَّه خفض الجناح للوالدين بحال الطائر حين ينزل من أعلى، يضم جناحيه، وحين يرتفع إلى أعلى، ينشر جناحيه إذا أراد العلو والارتفاع.

والقرآن الكريم يعبر بخفض الجناح عن لين الجانب، والتواضع، وعدم الكبرياء ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: كن كالعبد الذليل بين يدي والديك، كما يخضع العبد الذليل لسيده الفظ الغليظ.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾

ادع الله لهما أن يرحمهما وهما على قيد الحياة، أو بعد موتهما، جزاءً لهما على تربيتهما لك صغيرًا، والدعاء للوالدين خاص بهما إذا كانا مسلمين، أو خاص بالأب إن كان مسلمًا دون الأم، أو العكس، ولا يجوز الدعاء لهما إن كانا غير مسلمين، كما في

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] ويجوز الدعاء لهما بأن يهديهما الله للإسلام، ومن تولّى تربية الإنسان تربية صالحة غير الوالدين، له حق التربية، وحق البر، من الدعاء ورد الجميل وحسن الصلة.

فالآيات بدأت بالأمر والإلزام الحتمي بإفراد الله تعالى بالعبادة، ثم شفعت ذلك بالإحسان إلى الوالدين، وبخاصة في سن الشيخوخة، فلا يتضجر الابن، ولا يستثقل شيئًا يراه من أحدهما أو منهما، ولا يُسمعهما قولًا سيئًا، حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، ولا يصدر منه لهما فعل قبيح، فلم يرض الإسلام الإساءة لهما بأدنى كلمة أو فعل سيئ، بل يَرْفقُ بهما ويخضع ويتذلل لهما، ويتلطف معهما في القول، ويدعو لهما، ويترحم عليهما، أحياءً أو أمواتًا، كما صبرا على تربيته طفلًا ضعيف الحول والقوة.

ولما كان الوالدان يندفعان بالفطرة إلى حب الأبناء ورعايتهم، والتضحية من أجلهم، فإنهم ليسوا بحاجة إلى التوصية بهم، وإنما يوصي الإسلام الأبناء بالإحسان إلى الآباء، ويستجيش وُجدانهم، ويحثهم على بِرِّهم وإكرامهم والتواضع لهم؛ لأنهم سرعان ما ينسَوْن تربية آبائهم لهم، وربما سموه واجبًا اجتماعيًا تُمليه عليهم البيئة، ويفرضه عليهم الواقع، وربما قالوا: إنه لا فضل لآبائهم في مجيئهم إلى هذه الحياة، فقد جاؤوا إليها في ساعة حظ بين الأبوين، وهو غير مقصود فيها.

أقول: قد يصل العقوق، وانحراف الفكر إلى هذه الدرجة، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالوالدين وبرهما؛ حتى لا تطغى الحياة بما فيها من مشاغل، ولا يطغى حب الزوجة، ولاحب الأولاد على حق الوالدين، وقد بذل كل منهما رحيقه حتى أدركه الجفاف، وتقدما نحو الشيخوخة بعد أن امتص الأبناء كل جهد وعافية منهما، كما يمتص الفرخ كل غذاء في البيضة، فإذا هي قشر، وكما امتصت النابتة الخضراء كل غذاء في الحبة فإذا هي فُتات!! ومن هنا كان أمر الله تعالى ببر الوالدين، والإحسان إليهما قضاء مبرمًا، وأمرًا مؤكَّدًا، وكان مخالفتهما في الأمور الجائزة من العقوق، وموافقتهما فيها برٌّ بهما قال تعالى:

٢٥- ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

ربكم مطلع على ما تكنه صدوركم من الخير والشر، وهو لا ينظر إلى صوركم وأبدانكم

وإنما ينظر إلى قلوبكم، فإن كانت نياتكم وأعمالكم وأقوالكم في مرضاة الله، فإن الله الذي اطلع على قلب العبد، وعلم أنه ليس فيه إلا الإنابة، ومحبة ما يقرِّبه إليه، فإن الله تعالى، يعفو عنه ويغفر له الأمور العارضة.

والله سبحانه يختم الأمر بتوحيده تعالى، والأمر ببر الوالدين، بهذه الآية ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: أعلم بما تكنه صدوركم، وضمائركم من ضجر أو أريحية، ومن خير أو شر ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ في طلبكم مرضاة الله تعالى، وما يقربكم إليه، أو كنتم مرائين بأعمالكم غير صادقين في توحيدكم لله، وبركم لأبويكم، فيجازيكم بما تستحقون، فإن حدث منكم عجز وتقصير، أو إساءة طارئة، وكنتم صادقين وصالحين مع الله تعالى، أو مع والديكم، فإن الله سبحانه يغفر ذنب من تاب، وهذا معنى ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ أي: الرجَّاعين إلى الله سبحانه المطيعين له في جميع الأوقات ﴿غَفُورًا﴾ لهم، فمن عَلِمَ الله منه أنه ليس في قلبه إلا الإنابة إليه تعالى ومحبته، فإنه جلَّ شأنه يعفو عنه، ويغفر له ما أصاب من اللمم، وصغائر الذنوب، التي هي مقتضى الطبيعة البشرية.

وفي الآية وعيد لكل من تهاون في حقوق الله تعالى وحقوق أبويه، وفي كل حق أوجبه الله عليه، ووعد لمن رجع إليه سبحانه بالتوبة الصادقة.

قال الفخر الرازي: والمقصود من هذه الآية: أنها تدل على وجوب تعظيم الوالدين، ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخل بتعظيمهما، فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق، بل ظهرت بمقتضى الجبلَّة البشرية كانت في محل الغفران[1].

الأواب:

قال سعيد بن المسيب: الأوَّاب: الذي يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، وهو الرجَّاع إلى الخير، كثير العودة إلى الله تعالى، كلما ألمَّ بذنب، فهو التائب من الذنب، الراجع من المعصية إلى الطاعة، والراجع مما يكرهه ربه إلى ما يحبه.

والأوَّاب يقابل صاحب النفس اللوَّامة، فهو كثير اللوم لنفسه، كثير العودة إلى الله

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٠/ ١٩٥).

سبحانه؛ لما يعتريه من التقصير والتفريط.

وقد وصف النبي ﷺ من يؤدون صلاة الضحى بالأوَّابين، كما جاء في حديث زيد بن أرقم ﷺ عند مسلم قال: خرج رسول الله ﷺ على أهل قباء وهم يصلون الضحى، فقال: «**صلاة الأوَّابين إذا رمضت الفصال**»(١).

ومعناه: إذا ارتفعت الشمس، وصار وقت الرمضاء، أي: شدة الحر.

وعن ابن عباس ﷺ قال: إن الملائكة لتحفُّ بالذين يصلون بين المغرب والعشاء، وهي صلاة الأوَّابين.

وفي الحديث الصحيح: عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا رجع من سفره قال: «**آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون**»(٢).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [الغاشية].

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: أَدَاءُ حُقُوقِ الْأَقَارِبِ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنَاءِ السَّبِيلِ

٢٦-﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

جمعت هذه الآية ثلاث وصايا: هي الوصية بالأقارب، والمسكين، وابن السبيل.

والمراد بالقرابة في الآية: صلة النسب، الذي يكون بين الناس، وليس لها تعلق بحقوق قرابة النبي ﷺ:

١- وفي حرص الإسلام على الروابط الأُسَرية، وحُسْن العلاقات بين الناس، يَذْكُر الله سبحانه بعد الأمر بالوالدين حق الأقارب، والمساكين، كما هو شأن القرآن الكريم بعد أن يأمر ببر الوالدين، يأمر بصلة الرحم، والإحسان إلى الأقارب، سواء أكانوا قريبين أم بعيدين، وَيَعُدّ الإسلام ذلك حقًّا، ويوصي الناس كلهم بصلة أقاربهم سِيَّمَا الأرحام منهم، وذلك بزيارتهم، والسؤال عنهم، وتهنئتهم، وتعزيتهم، وسد حاجة الفقير منهم.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٤٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٧٩٧) وانظر: (٢٩٩٥، ٣٠٨٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٤٤).

حكم النفقة على الأقارب:

وسورة النساء تذكر حق الأقارب إذا حضروا القسمة ممن ليس لهم حق في الميراث، وتُبيِّن أنه ينبغي أن يُطَيِّبَ خاطرهم بشيء مَّا، من تركة الْمُتَوَفَّى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء]

أعطوهم شيئًا من هذه التركة، شيئًا غير مفروض، نصيبًا غير معلوم، طيِّبوا خاطرهم، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم.

وقد أخذ الإمام أبو حنيفة من هذه الآية أن القريب ذو الرحم غير الوارث، إذا كان معسرًا محتاجًا فإنه يجب على قريبه أن ينفق عليه.

وقال الإمامان مالك، والشافعي: إن النفقة الواجبة لا تكون إلا للأصول والفروع، **والأصول**: الآباء، **والفروع**: الأبناء.

وقال الإمام أحمد: إن النفقة الواجبة تكون على القريب الوارث، وهذه تتعدى إلى الأخوين، وإلى أبناء العمومة، وأبناء الأخوة، في حالة عدم وجود أصل، أو فرع وارث، فإنه يجب النفقة عليهم.

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ من الصدقة، ومن الزكاة، ومن حق المواساة، والمودة، والزيارة، وحُسْن العشرة، ومن الهدية، والمراسلة، والمهاتفة، والمجاملة في السراء والضراء، والمناصرة في الحق للمحتاج منهم.

قيل: إن معاوية جاء إليه رجل قال له: أنشدك بصلة الرحم التي بيننا أن تعطيني شيئًا، نظر معاوية، فلم يعرف الرجل، ولم يقابله قبل ذلك، وليس بينهما رحم، فقال له: أي رحم تنشدني به؟ قال: صلة الرحم التي بيني وبينك هي آدم وحواء، قال معاوية: نعم، والله هي رحم، ثم كتب له كتابًا يأمر خازن بيت المال، أن يعطيه درهمًا، فلما وصل إليه ليتسلم الجائزة أعطاه درهمًا، فاستقلَّه، ورجع إلى معاوية قال: إنه درهم، قال: يا أخي لو أني وَصلْتُ أرحامي، من لدن آدم إلى الآن لم يأخذ كل منهم درهمًا.

٢- أما **الحق الثاني** في الآية فهو حق المسكين، وهو المحتاج الذي لا يجد ما يغنيه في الإنفاق بالمعروف، على مستوى الفقراء والمساكين بما يسد رمقهم، ويستر عوراتهم،

ويؤويهم، ويكفل لهم حق الصحة والتعليم.

وقد عرَّف النبي ﷺ المسكين في حديث أبي هريرة ﷺ عند الشيخين في قوله ﷺ: **«ليس المسكين الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»**، قالوا: فما المسكين؟ قال: **«الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطن له فيُتصدَّق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا»**[(١)].

وفي حديث سلمان بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: **«الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة، وصلة»**[(٢)]، فللقرابة حق الصلة، وحق المواساة.

وحق المسكين: هو الصدقة عليه، وحث الناس على الإحسان إليه، وإكرامه وعدم إهانته، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾ [الفجر].

وقال: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد].

والحض على طعام المسكين، يحتل منزلة عالية في الإسلام، فهو قرين التكذيب باليوم الآخر قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ [الماعون].

بل هو قرين للكفر بالله سبحانه، قال تعالى في وصف صاحب الشمال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾ [الحاقة].

وهو أيضًا قرين ترك الصلاة، فيوم القيامة يُسألُ المجرمون عن سبب دخولهم النار، فيقولون: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر] وحق المسكين أحد مصارف الزكاة الثمانية الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠].

عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بني تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٣٩) و«صحيح البخاري» برقم (١٤٧٦، ١٤٧٩).

(٢) أخرجه أحمد برقم (١٦٢٢٧، ١٦٢٣٣، ١٧٨٨٣) وغيرهما، قال محققوه: وهو حديث صحيح لغيره، لجهالة الرباب بنت صويلح وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي في صحيح سننه برقم (٥٣١) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (١٨٤٤) وابن أبي شيبة (٣/ ١٩٢) والطبراني في الكبير (٦٢١٢) والنسائي في المجتبى (٥/ ٩٢) وابن خزيمة (٢٣٨٥).

الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أُنفق؟ وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: **«تُخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل، والجار، والمسكين. . .»**[1].

وسأل رجل الحسن قال: أُعطي قرابتي زكاة مالي؟ فقال: إن لهم في ذلك لحقًّا سوى الزكاة، ثم تلا الآية.

٣- أما **الحق الثالث** في الآية فهو حق ابن السبيل، وهو المسافر الغريب المنقطع عن أهله وماله، وهو أحد مصارف الزكاة الثمانية، ويأخذ ابن السبيل من الصدقة ما يسد حاجته، ويعيده إلى بلده، وإن كان في الأصل غنيًّا، وضيافة ابن السبيل من سنن نبينا إبراهيم ﷺ، فكان لا يأكل إلا مع ضيف، وقد جاء حق الضيافة في قوله ﷺ: من حديث أبي شريح الخزاعي **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**[2].

والإسلام يهدف من كل ذلك إلى تقوية أواصر الأسرة والمجتمع، وتحقيق التكافل الاجتماعي فيه.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ التَّبْذِيرِ

ثم ختم الله الآية ببيان أن المال لا بد أن يُنفَق منه في طاعة الله تعالى، وتحريم الإسراف والتبذير فيه، بل تكون النفقة بالمعروف من غير تقتير ولا تبذير، ولا إنفاق للمال في وجه من وجوه المعاصي ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

التبذير: إنفاق للمال ولو قرشًا واحدًا في غير طاعة الله تعالى، أو فيما يضر ولا ينفع.

ومن هنا استدلوا على تحريم التدخين؛ لأنه إنفاق للمال فيما يضر ولا ينفع.

وإنفاق المال في وجوه الخير مهما بلغ، لا يعدُّ تبذيرًا، وقد وصف الله عباد الرحمن بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]

قال مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذرًا، ولو أنفق مُدًّا في غير حق كان مبذرًا.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» بإسناد حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققوه) (٣/١٣٦) برقم (١٢٣٩٤) وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٣٦٠).

(٢) من حديث أبي شريح الخزاعي في «صحيح مسلم» برقم (٤٧) و«صحيح البخاري» برقم (٦٠١٩).

وقال قتادة: **التبذير**: النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد.

وقد نهانا الإسلام عن تجاوز الحد في الطعام والشراب، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١] كما نهانا عن الإسراف في استعمال الماء في الوضوء بالزيادة على ثلاث مرات، وإن كان المسلم يغترف من نهر جارٍ.

المُبَذِّرُ قَرِينُ الشَّيطَانِ

٢٧-﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾

ويكفي أن الله سبحانه شبَّه المبذر بالشيطان، وجعله أخًا مماثلًا له؛ لأنه تجاوز الحد في الإنفاق، وأسرف فيه، والمسرفون الذين ينفقون أموالهم في المعاصي هم أشباه الشياطين في الشر، والفساد، والمعصية، وهم أولياؤهم وأتباعهم؛ لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من إنفاق المال، قليلًا أو كثيرًا، في غير وجوه الحق والمنفعة، وكذا إنفاقه في المباح إذا بلغ حدَّ الإسراف.

والشيطان يدعو الإنسان إلى الشح والبخل، فإذا عصاه دعاه إلى الإسراف والتبذير، ومن صفات عباد الرحمن، أنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، وكانوا وسطًا بين ذلك، وأمر الله الإنسان ألا يبسط يده بالإنفاق كل البسط ولا يجلعها شحيحة بخيلة مغلولة إلى عنقه، فيُلام على بسط يده، ويتحسّر على فراغها.

والمقصد الشرعي من ذلك: أن يكون المال عُدة وقوة لبناء الأمة؛ حتى تكون مرهوبة الجانب، غير محتاجة إلى غيرها، فلا يبتز العدو منافعها، ولا يدخلها تحت سلطانه، ولهذا أضاف الله الأموال إلى ضمير المخاطبين في قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥] ولم يقل: أموالهم، مع أنها مملوكة لهم، ومع ذلك فقد منعهم من التصرف فيها.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ﴾ [النساء: ٦] وما منع الإسلام السفهاء والصبيان من التصرف في أموالهم إلا خشية إنفاقها في غير وجوهها المشروعة، وإذا اعتاد المرء التبذير أدمنه، وصار خُلُقًا ذميمًا، كما قال ﷺ في حديث عبدالله بن

مسعود ﷺ: «ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرَّى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذَّابًا»[١].

فليحذر المرء من عمل هو من شأن إخوان الشياطين.

وكما حذرالقرآن من التبذير حذر أيضًا من أن يُفضي الشيطان بصاحبه إلى الكفرتدريجيًّا؛ حتى يأخذه إلى مهاوي الضلال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]

والتبذير خُلُق أهل النار وهو يأخذ بأيديهم إلى نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

والشيطان شديد الجحود لنعمة الله تعالى، لا يشكره عليها، فليحذر المرء أن يكون قرينه؛ وقد نُهينا عن التشبه به في صفاته القبيحة، إشعارًا بأن صفة التبذير أقبح الصفات التي يجب على العاقل أن يبتعد عنها؛ حتى لايكون مماثلًا للشيطان الجاحد لنعم ربه.

والتبذير: صرف للمال في غير ما أمر الله به، فهو كفر لنعمة الله بالمال، وهذا يؤدي إلى كفر النعمة.

الْقَوْلُ الْمَيْسُورِ

٢٨-﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾

يقول سبحانه: وإما تعرضن عن الأقارب، بأن جاؤوك يسألونك، أو جاءك مسكين، أو ابن السبيل، وليس عندك شيء تعطيه، فعِدْهم وعدًا حسنًا، وقل لهم قولًا جميلًا لطيفًا لينًا واعتذر لهم بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، وتلطف في الرد عليهم، كما قال تعالى: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣] كأن تقوله لهم: إن أعطاني الله سأعطيكم، أو في الوقت الفلاني سوف أعطيكم إن شاء الله، أو تقول: يرزقنا الله وإياكم من فضله، فتؤانسه بالقول الميسور، والدعاء بالتوسعة عليه في الرزق، والوعد الحسن بالعطاء في وقت آخر.

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري برقم (٦٠٩٤) ومسلم برقم (٢٦٠٧).

قيل: إن بعض الفقراء من الصحابة مثل: بلال، وعمار، وصهيب، وخباب، وسالم، ومهجع، أتوا رسول الله ﷺ يسألونه، ولم يكن عنده شيء يعطيهم، فسكت، وأعرض عنهم حياء، فأنزل الله الآية: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ أي: انتظارًا لرزق يأتيك من عند الله.

وقد عبر الله سبحانه عن الرزق بأنه ﴿رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: رزقًا حسنًا يمنحك الله إياه ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: قل لهم قولًا ليِّنًا، وعِدْهم وعدًا حسنًا، وادع الله لهم بسعة الرزق، وطيب العيش، ولا تعرض عنهم إعراض المستهزئ، أو إعراض البخيل الممسك، وإنما إعراض العاجز الذي لا يجد ما يتصدق به، فيتلطف بهم، ويتأدب معهم بآداب القرآن، وقد كان النبي ﷺ إذا سأله أحد، وليس عنده ما يعطيه أعرض عنه حياء، فنبهه ربه إلى أدب أكمل.

وقد شرطت الآية، الإعراض عن عطاء مَنْ أُمِر المرء بإعطائهم **بشرطين**:

أحدهما: أن يكون الإعراض انتظارًا لتيسير أسباب الرزق، وليس شحًّا ولا بخلًا.

وثانيهما: أن يصحب هذا الإعراض قول معروف، وكلام طيب، يدخل السرور عليهم، ويطيب خاطرهم.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: النَّهْيُ عَنِ الْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ

٢٩- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾

ثم نهى سبحانه عن طرفي النقيض في النفقة، وهما: الإسراف، والتقتير؛ فقد نهى القرآن عن البخل الشديد، وشبَّهه بمن يده مغلولة أو مربوطة لا تصل إلى عنقه من شدة البخل، وشبَّه المسرف بأن يده مبسوطة لا تمسك شيئًا؛ فهو ينفق كل ما في يده، وأمر سبحانه بالتوسط في النفقة.

ومن وصف عباد الرحمن أنهم ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تمسك يدك عن الإنفاق في سبيل الخير، مضيِّقًا على نفسك، وأهلك، والمحتاجين، وهذا كناية عن البخل الشديد ﴿وَلَا

﴿تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فتتوسع في النفقة والكماليات، وتعطي فوق قدرتك وطاقتك ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ مذمومًا من الناس، ومتحسرًا على أنه لم يبق في يدك شيء.

فالآية تأمر بالتوسط والاعتدال في النفقة، وتنهى عن البخل والإسراف؛ فإن الإسراف، والبخل، يؤديان إلى الحسرة والملامة، ففي الأثر: ما عال من اقتصد[(١)].

ومن الحِكَم قولهم: ما رأيت قط سرفًا إلا معه حق مضيَّع؛ فالمحمود في العطاء، هو الوسط الواقع بين طرفي: الإفراط، والتفريط.

فكل حقيقة لها طرفان، وكل خُلُق له طرفان، **والمحمود**: هو الوسط والعدل، والشح والإسراف فيهما مفاسد، فالشح مفسدته تعود على الفقير المحتاج، والإسراف مفسدته تعود على صاحب المال إذا أنفق بالباطل.

وليس في إنفاق المال في وجوه الخير والبر والصلاح إسرافٌ وتبذير.

قال بعضهم لمن رآه يكثر من النفقة في وجوه الخير: لا خير في السرف، فأجابه المنفق: لا سرف في الخير، **وبهذا نطقت الأحاديث:**

١- فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهمَّ أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهمَّ أعطِ ممسكًا تلفًا»**[(٢)].

٢- وعن أبي هريرة مرفوعًا: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عِزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[(٣)].

٣- وعن المنهال بن عمرو قال: بَعثَت امرأة مسلمة، تناظر ضَرَّتها اليهودية، أن النبي ﷺ أكرم الخلْق، فأرسلت ابنها إلى النبي ﷺ فقالت: قل له اكسني ثوبًا، فقال: «ما

---

(١) رواه أحمد عن عبد الله بن مسعود بإسناد فيه ضعف، يُنظَر: «المسند» (١/ ٤٤٧) برقم (٤٢٦٩) والبيهقي (٦٥٦٩) وابن أبي شيبة (٩/ ٩٦). والطبراني في الكبير (١٠١١٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٤٤٢) ومسلم برقم (١٠١٠).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٨).

عندي شيء»، فقالت: ارجع إليه فقل له: اكسني قميصك، فرجع إليه، فنزع قميصه فأعطاه إياه، فنزلت الآية(١).

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«قال الله تبارك وتعالى: يابن آدم، أَنفق أُنفق عليك»**(٢).

٥- وفي الصحيحين: أن أبا هريرة سمع النبي ﷺ يقول: **«مثل البخيل، والمنفق كمثل رجلين عليهما جُبَّتان من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبَغَتْ، أو وَفَرَتْ على جلده حتى بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسِّعها ولا تتسع»**(٣).

والمعنى: أن الصدقة تستر الخطايا، كما يغطي الثوب الذي يُجرُّ على الأرض، أَثَرَ صاحبه إذا مشى، وذلك بمرور الذيل عليه، والبخيل إذا حدّث نفسه بالصدقة شحّت نفسه فضاق صدره وانقبضت يداه(٤).

التَّفَاوُتُ فِي الْأَرْزَاقِ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلٰهِيَّةِ

٣٠-﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

ثم عقَّب سبحانه بأن القصد والاعتدال في النفقة على النفس، وعلى من يعول، وعلى من يتصدق، هو واجب الناس تجاه أموالهم، والشُّحُّ لا يُبقي المال في اليد، والتبذير لا يفني المال ممن وُضِع في يده؛ فإن الله تعالى قد قدَّر لكل نفس رزقها، إن ربك يوسع الرزق على بعض الناس، ويضيقه على بعضهم وَفْق علمه وحكمته سبحانه، إنه هو المطلع على خفايا خلقه، لا يغيب عليه شيء من أحوالهم، والتفاوت في أرزاق العباد له حكمة يعلمها الله، لأجل مصالح العباد.

---

(١) «الدر المنثور» (١٧٨/٤) وقد أخرجه ابن أبي حاتم، ومثله ابن مردويه عن ابن مسعود.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩٩٣) و«صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٤، ٥٣٥٢، ٧٤١١، ٧٤٩٦).

(٣) هذا لفظ البخاري برقم (١٤٤٣) وانظر: (١٤٤٤، ٢٩١٧، ٥٧٩٧) وهو في «مسلم» برقم (١٠٢١).

(٤) «فتح الباري» (٢١٨/٥).

جاء في الأثر: (إن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه)[1].

والله سبحانه هو الرازق، القابض، الباسط، يُغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، وهو سبحانه خبير بمن يستحق الفقر أو الغنى ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: النَّهْيُ عَنْ تَرْكِ الْإِنْجَابِ مَخَافَةَ الْفَقْرِ

٣١-﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا[2] كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾

وإذا علمتم - أيها الناس - أن الرزق بيد الله، فلا تقتلوا أولادكم خوفًا من الفقر؛ فإنه سبحانه هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء. . .، والتذرع بحسن التربية، للعدد القليل دون الكثير، أو أن موارد الدولة لا تكفي، أو لأن الرقعة الزراعية لا تزيد، أو لكثرة عدد السكان، وإثقال كاهل المجتمع، ونحو ذلك، تذرع غير مقبول، وهو من الأسباب المدَّعاة التي يكذبها الواقع، وتكذبها الإحصاءات، وهي أسباب يتذرع بها دعاة تحديد النسل الذي اختير له اسم تنظيم النسل؛ ليكون أخف وقْعًا على النفوس يتقبله الناس، وهو نوع من الوأد الخفي بالحيلولة دون الإنجاب لهذا القصد.

وقد جاءت هذه الوصية عطفًا للنهي عن فعل ينشأ عن اليأس من رزق الله تعالى، وهو خُلُق مذموم من أخلاق الجاهلية، بقتل الأولاد خوفًا من الفقر.

ولم تعرف البشرية تشريعًا، ولا نظامًا، ولا قانونًا، يصون الإنسان، ويحفظ عليه دمه، وماله، وعرضه، ويصون حريته وكرامته كالإسلام.

فالإسلام قد صان الإنسان وحفظه قبل أن يوجد أحد فوق وجه هذه الأرض، حفظه

---

(١) ضعفه الألباني عن عمر ﷺ في السلسلة الضعيفة برقم (١٧٧٤).

(٢) قرأ ابن كثير، بكسر الخاء وفتح الطاء بعدها ألف ممدودة في (خطأ) هكذا (خِطَاءً) مصدر خاطأ يخاطئ خطاء، وقرأ ابن ذكوان وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بفتح الخاء والطاء من غير ألف ولا مد، هكذا (خَطَأً) مصدر خطئ خطأً، بمعنى: أثم ولم يصب، وقرأ الباقون بكسر الخاء وسكون الطاء وهو الوجه الثاني لهشام هكذا (خِطْئًا) مصدر خطئ خطأ كأثم إثمًا، بمعنى: مجانبة الصواب.

بأن جعله يأتي من طريق مشروع، يأتي من نكاح، ولا يأتي من سفاح، وأوصى باختيار الأم، وحُسْن اختيار الاسم، وحَفِظَ الإسلام للإنسان وهو طفل رضيع، وحفظه في شبابه وكهولته، وأوصى به وهو شيخ هرم، ولم تعرف البشرية جريمة أعظم من أن يَقْتُل الإنسان ولده وهو جنينن مخافة أن يَطْعَم معه.

وفي نهي الآباء عن قتل أبنائهم مخافة الفقر بيان أن الله تعالى أرحم بالأبناء من الآباء، وأنه سبحانه قد تكفل برزق الجميع، وأن قتلهم من كبائر الذنوب لزوال الرحمة من القلب.

تنظيم النسل:

وفي الآية التي معنا يبيِّن الله ﷻ أنه لا علاقة بين الرزق وكثرة النسل؛ فالله ﷻ متكفل بأرزاق العباد، ضامن لها، فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، ولذلك فإن الآية التي في سورة (الأنعام) موجهة إلى الآباء الفقراء الذين يعانون من فقر حاصل.

آيتا الأنعام والإسراء: وقد بيَّنت الآية التي (في سورة الأنعام) ١٥١ أن الله سبحانه يرزق الآباء بالأصالة، ويرزق الأبناء تبعًا لهم، وسيجعل الله بعد عسر يسرًا ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ﴾ أي: خوفًا من فقر واقع وحاصل بالفعل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ﴾ فخاطب القرآن الآباء الفقراء، بأن الرزق حاصل لهم بالأصالة، والأبناء تبع لهم.

وفي آية الإسراء التي معنا، وُجِّه الخطاب فيها إلى الآباء الموسرين، الذين يتخوفون من الفقر في المستقبل؛ حيث يبيِّن الله سبحانه أنه إذا كان قَتْلُ الذرية خوفًا من فقر متوقع في المستقبل، ومن أجله يمنع الإنسان الذرية، ويحول بينه وبينها، فيحددها، أو يقتلها، أو ينظمها مخافة كثرة الأعباء بالعيال، ومخافة أن لا يحسن تعليمهم أو تربيتهم، إن كان الأمر كذلك- فالله سبحانه يخاطب الآباء الأغنياء قائلًا لهم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم إِمْلَٰقٍۖ﴾ أي: إن كان القتل خوفًا من فقر يحدث في المستقبل فإن رزق الأبناء مقدم على رزق الآباء، فكأن الرزق يأتي للأبناء بالأصالة، ويأتي للآباء تبعًا لهم

. ولذا قدم الأبناء على الآباء في الآية للاهتمام بهم، وبيان أن رزق الآباء تابع لرزق الأبناء، وذكر الأبناء بضمير الغيبة، والآباء بضمير الخطاب، وقد جاءت آية سورة الأنعام (١٥١) على العكس من ذلك، لاستيفاء ضمان الرزق في الحالتين، قال تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وكما نهى الإسلام عن قتل الأبناء مخافة الفقر، فقد نهى عن وأد البنات مخافة الفقر، أو السبي، أو العار قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير].

وتقليل النسل لا علاقة له بالفقر، ولا علاقة له بالرزق، وعلى العباد أن يسلكوا أسبابه بأن يضربوا في الأرض، ويبتغوا من فضل الله، ويستخرجوا كنوز الخيرات التي أودعها الله ﷻ في الأرض؛ فإن بلدًا واحدًا من البلاد العربية كالسودان مثلًا، تتسع أرضها لجميع العرب من حيث: الزراعة، والسكن، ومن حيث استخراج كنوزها والاكتفاء بزراعتها، وكذا كثير من بلاد الإسلام في قارات الدنيا، ولكن الأمم البليدة هي التي تعيش لنفسها فحسب، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط، بحيث لا يعمل للأجيال، ولا يسعى لزراعة الأرض، وإخراج المياه منها، وتوسعة الرقعة الزراعية والصناعية.

وقد بيَّن عمر بن الخطاب ﷺ أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وما على العباد إلا أن يأخذوا بالأسباب، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: ذلَّلها، ويسرها لكم ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ثم بيَّن سبحانه أن قتل الذرية خطأ كبير، فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

وفي قراءة: (كان خَطَأً كبيرًا) أي: كان إثمًا عظيمًا، وذنبًا كبيرًا عند رب العالمين.

التنظيم المؤقت والعزل:

وتقليل النسل له أسبابه وملابساته عندما تدعو الضرورة القصوى إليه؛ فالمرأة التي تحمل تباعًا، وليس هناك من وقت يكفي لإرضاع الجنين السابق، فالقرآن قد ذكر أن مدة الرضاعة حولان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وفي هذا نوع تنظيم مؤقت.

والعزل قد ذُكِر في الأحاديث، فعن جابر ﷺ قال: كنا نعزل والقرآن ينزل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فلم ينهنا عنه[1].

---

(١) مسلم (١٤٤٠) والترمذي (١١٣٧) وابن ماجه (١٩٢٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٠٩٣) وعبد الرزاق (١٢٥٦٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٩) والبيهقي (٧/ ٢٢٨).

وفيه دليل على جواز الحيلولة بين البويضة، والحيوان المنوي لإتمام مدة رضاع الطفل السابق، أو لتلافي تدهور صحة المرأة، ونحو ذلك؛ فإن هذا العزل لن يمنع أمرًا قدره الله تعالى، ولا يُعزل عن الحرة إلا بإذنها، والاتفاق بينها وبين زوجها، وهذا العزل يشبه حالة كمال مدة الإرضاع، كما في حالة تعارض حياة الأم مع الجنين؛ فالإسلام يرتكب أخف الضررين في مثل هذه الأحوال.

أما منع النسل خوفًا من فقر حاصل بالفعل، أو من فقر متوقع في المستقبل، فإن هذا يتصادم مع عقيدة المسلم؛ فإن الحياة من حق هذه الأجنة، كما هي حق لآبائهم، ومن الظلم البيِّن الاعتداء على حقوقهم، والتخلص منهم لسبب من الأسباب؛ فإن الله تعالى قد تكفل بأرزاق خلقه قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]

وقال سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات]

وقال أيضًا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»** قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني حليلة جارك»**[1].

فاعلموا أن الرزق بيد الله، ولا تقتلوا أولادكم، أو تمنعوا النسل خوفًا من الفقر؛ فإن الله هو الرازق لعباده، يرزق الأبناء كما يرزق الآباء.

وإن من المشاهَد كثرة أرزاق الناس عن ذي قبل؛ فقد كان الناس قديمًا يَشْكُون الجوع، أما اليوم فهم يَشْكُون التُّخمة والسمنة، مع زيادة الكماليات ومتطلبات الحياة، وقد ورد أن المال يكثر في آخر الزمن، ولا يجد من يأخذه، فمحاربة النسل جهل بسنن الله تعالى في الكون، ومصادمة للواقع المحسوس، فإن الإنسان عندما يتزوج تكون حالته المادية ضعيفة، وبعد ما يكون عنده عدد من الأولاد، تجده في سعة من الرزق، وتجد بيته مليئًا

---

(١) البخاري برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٧٥٣٢) ومسلم برقم (٨٦).

بالكماليَّات التي لم يكن يملكها من قبل.

الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: النَّهْيُ عَنِ الزِّنَى

٣٢-﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ(١) إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً(٢) وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

النهي عن الاقتراب من الزنى أبلغ من النهي عن فعل الزنى، لأن الأول يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه،فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، وقد وصف الله الزنى بأنه مستفحش في الشرع والعقل والفطرة، لأن فيه تعدٍّ على حق الله، وعلى حق المرأة، وحق أهلها و زوجها، وفيه تدنيس للفراش، واختلاط للأنساب، وجلب للأمراض، وإثارة للفتن وتقطيع الأواصر بين الناس.

ولأن الإسلام يحفظ على المرء دمه، وعرضه، وماله،فقد جاء النهي عن الزنى حفظ للنسل في هذه الآيات التي نحن بصددها من سورة الإسراء، وهي ثماني عشرة آية أكثرها في الوصاياالعشرالتي جاء ذكرها في سورة الأنعام،ويقول عنها ابن عباس ﷺ: إن هذه الآيات جاءت في ألواح موسى عليه السلام ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] فهي أحكام لم تنسخ، والحدود والقصاص شُرِعا في المدينة، وجاءت الإشارة إلى القتل، والزنى، وغيرها من أحكام التشريع في هذه الآيات المكية.

وقد جاء النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر، والنهي عن قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق؛ لأن الزنى قتْل في حقيقته، فالزاني يضع مادة الحياة في غير الطريق المشروع، وهذا وأد وقتل لها من البداية؛ لأنه لم يضعها في الموضع الذي جعله الله لها، وهو موضع الحرث والنسل، إنما وضعها في طريق آخر محرَّم، وهذا قتل لها، ثم إن الزاني والزانية يريدان قتل هذا الجنين، وإسقاطه بشتى الوسائل.

وإحصائيات الإجهاض في العالم الغربي كثيرة، وهي شاهدة وناطقة بذلك.

إن الزنى في المجتمعات الغربية عملية حضارية متجددة، وهم يرون أن الزنى في مجال

---

(١) أمال ألف (الزنى) حمزة والكسائي وخلف، وبالتقليل ورش بخلف عنه.

(٢) أدغم التنوين في الواو بدون غنة من (فاحشة وساء) خلف عن حمزة.

التربية للشباب أفضل من دراسة الكتب ومعرفة القانون، وأنه من الثقافة الضرورية، وهو أمر مستورد في بعض بلاد المسلمين، فلا يعاقب القانون الوضعي على الزنى ما دام بالتراضي بين الزاني والزانية، وإن خدشا الحياء فزنيا في الطريق العام، فعليهما غرامة مالية قليلة جدًّا.

وليس أعظم من هذه التربية التي يربيها النبي ﷺ لأصحابه ولسائر المسلمين بعدهم، وتتمثل في هذا الشاب الذي دخل في الإسلام حديثًا، ثم أقبل على رسول الله ﷺ يقول له: ائذن لي يا رسول الله في الزنى، فأقبل عليه القوم فزجروه، فقال ﷺ **«دعوه، ادن مني»** فدنا منه قال له: **«اجلس»** فجلس بين يدي المصطفى ﷺ، ثم قال له: **«أتحب الزنى لأمك؟»** قال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: **«وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟»** قال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: **«وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأختك؟»** قال: لا يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: **«وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم»** وذكر العمة والخالة، ثم وضع النبي ﷺ يده على صدر هذا الشاب المولَع بالزنى، وقال: **«اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه»** قال الشاب: دخلتُ على رسول الله ﷺ والزنى أحب شيء إلى نفسي، وخرجتُ من عنده والزنى أبغض شيء إلى نفسي[١].

ولو أن ولد الزنى نزل من بطن أمه، فإنه يعيش حياة مهينة ذليلة في المجتمع، وهذا قتل للنفس في صورة أخرى، وإذا وَجَد الإنسان أنه سيقضي شهوته بهذه الوسيلة السهلة فإنه سيكتفي بها عن الزواج الذي فيه مسؤولية، وتتبعه زوجة، وأبناء، وأسرة، وبيت، وفي هذا قتل للمجتمع كله.

إن الزنى يخلط الدماء، ويخلط الأنساب، ويدنس الأعراض، وفي هذا قتل للإنسانية.

وكما نهى الإسلام عن وأد البنات خشية العار، ونهى عن قتل الذكور خوف الفقر، نهى كذلك عن الزنى؛ لأن فيه إضاعة للنسب، بحيث لا يُعرَف للمولود أصل يرجع إليه، ونهى

---

(١) يُنظَر: نص الحديث في «المسند» عن أبي أمامة (٥/ ٣٥٦) برقم (٢٢٢١١) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وإسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٧٦٧٩) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٩): ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٧).

عن كافة الأسباب المفضية إليه، وفي هذه الآية نهي عن مجرد الاقتراب من الزنى، وهو يعني شدة النهي عن أقل ملابسة للزنى.

والزنى: مجامعة الرجل امرأة غير زوجته، وغير مملوكة له.

وعلل الإسلام تحريم الزنى بأنه فاحشة بالغة القبح،وهو عار ملازم للفاعل والمفعول؛ لِمَا يترتب عليه من آثار سيئة، فلا تقربوا مقدماته، ولا دواعيه؛ كي لا تقعوا فيه، فهو فعل بالغ القبح، وطريق يُعصى به الخالق سبحانه، **ومن مفاسد الزنى**:

١- اختلاط الأنساب واشتباهها، فلا يعرف المولود هو ابنُ مَنْ، على وجه التحديد؟!

٢- الزنى يسبب التقاتل، ويسبب اغتصاب المرأة أحيانًا، وتُقطَّع به أواصر المجتمع.

٣- وجوب إقامة الحد على الزاني والزانية، وفضيحتهما بين الناس والمجتمع.

٤- فَقْدُ حُسْن المعاشرة، والسكن، والمودة بين الرجل والمرأة.

٥- عدم اختصاص المرأة بالرجل، كما يحدث بين البهائم، وبالتالي عدم قيام الأسرة في المجتمع.

٦- المرأة الزانية مستقذرة بين الناس، ناقلة للأمراض؛ كالإيدز، ونحوه.

٧- الزنى يؤدي إلى قطع النسل، وخراب العالم، ومجرد قضاء الشهوة البهيمية.

الزنى والإيمان لا يجتمعان في قلب العبد:

١- فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهبُ نُهبة ذات شرف، يرفع المؤمنون إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**»[(١)].

٢- وسئل أبو هريرة ﷺ عن قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» فأين يكون الإيمان منه؟ قال أبو هريرة: يكون هكذا عليه، وقال بكفَّيْه فوق رأسه، فإن تاب ونزع رجع إليه[(٢)].

---

(١) البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) وابن أبي شيبة (٤/ ٤٠٥).

(٢) البيهقي (٥٣٦٧) وانظر الحديث في البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧) والمسند (١٠٢١٦، ٨٨٩٥) والحميدي (١١٢٨) وأبو يعلى (٦٢٩٩).

٣- وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا زنى الرجل خرج منه الإيمان، فكان عليه كالظلة، فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمان»**[١].

من التدابير الوقائية لجريمة الزنى: وحين أراد الإسلام أن ينهى عن الزنى لم يقل: لا تزنوا، وإنما قال: لا تقربوا الزنى، أي: لا تقربوا دواعي الزنى ومقدماته ومسبباته؛ فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

لقد أحاط الإسلام هذه الجريمة بسياج منيع، فحرَّم النظرة، ومنع الاختلاط، وحرَّم الخلوة، وحرَّم التبرج، وحرَّم أن تتعطر المرأة وتخرج إلى الشارع تفوح رائحتها، وحرَّم الإسلام أن تضرب المرأة الأرض برجليها؛ لِتُلفت الأنظار إليها، وليُعلَم ما تُخفي من زينتها، وشُرع الزواج، وشُرع لمن لم يستطع الزواج أن يصوم كبحًا لشهوته، وغير ذلك من الوسائل التي تحول دون الزنى، والله سبحانه يقول: لا تقربوا الوسائل، والأسباب المؤدية أو المفضية إلى الزنى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ ولا مقدماته ودواعيه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ ذنبًا عظيمًا، بالغ القبح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس الطريق طريقًا موصلًا إلى جهنم.

وفي سد منافذ الزنى، وعدم ارتكاب الفاحشة، شرع الإسلام ما يلي:

١ - عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية، والاختلاط بين الرجال والنساء من غير ضوابط شرعية، وقد جاء في الصحيحين: أن النبي ﷺ قال: **«لا يخلُونَّ رجل بامرأة، إلا مع ذي محرم»**[٢] وفي الحديث أيضًا عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يخلونّ رجل بامرأة، إلا كان الشيطان ثالثهما»**.[٣]

٢- وأخبر الشيخان عن عقبة بن عامر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم والدخول**

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (٣٩٢٤) والحاكم (١/ ٢٢) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٦٤).

(٢) من حديث ابن عباس في «صحيح البخاري» برقم (١٨٦٢، ٣٠٠٦، ٣٠٦١، ٥٢٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٤١).

(٣) جامع الترمذي برقم (١١٧١) من حديث عقبة بن عامر، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٩٣٤) وأوله (إياكم والدخول على النساء).

على النساء، فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحمو، فقال ﷺ الحمو: الموت»[١].

والحمو: هو قريب الزوج كأخيه وابن عمه، وتفسيره بالموت، أي: أن خَلْوَتَه بالمرأة، ودخوله على زوجة أخيه، أو ابن عمه، ونحوهما، يؤدي إلى الهلاك، ووقوع الفتن.

٣ - وقد أوجب الإسلام غض البصر، وحرم النظر إلى المرأة الأجنبية، فأمر الرجل أن يغض بصره، ويحفظ فرجه، كما أمر المرأة أن تغض بصرها، وتحفظ فرجها.

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه»**[٢].

٤- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذَّاب، وعائل مستكبر»**[٣].

٥- وفي حديث أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما تركت بعدي على أمتي فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»**[٤].

٦ - كما أوجب الإسلام التستر والاحتشام، وحرَّم السفور والتبرج؛ لأنه يحرك الغريزة الجنسية، ويُغْري الرجال بالنساء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

٧ - وحضَّ الإسلام على الزواج، ويسَّر وسائله، وخفف مؤونته وتكاليفه، فإن لم يستطع الشاب الزواج فليتحصن بالصوم؛ فإنه له وقاية، وكل هذا من باب التدابير الوقائية من الزنى.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٣٢) و«صحيح مسلم» (٢١٧٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٧) والرقم نفسه من حديث ابن عباس وهو في البخاري (٦٢٤٣، ٦٦١٢)، وهو في مسند أحمد (٨٢١٥ و ٨٥٩٨).

(٣) «المسند» (١٠٢٢٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ومسلم (١٠٧) والنسائي في «الكبرى» (٧١٣٨).

(٤) البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠) وابن أبي شيبة (٤/ ٤٠٥).

والأمة التي يفشو فيها الزنى أمة منحلّة، لا تقاوِم عدوًّا، ولا تحمي وطنًا، ولا تقيم حدود الله في أرضه، ولا تحمي عرضها ولا شرفها

الْوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ إِلَّا بِحَقٍّ

٣٣- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف[1] فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾

نهى الإسلام عن قتل كل نفس، صغيرة أو كبيرة، أنثى أو ذكر، حرة أو أمة، كافرة أو مسلمة، إلا أن يكون هذا القتل بحق، كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والمرتد، والباغي، والكافر المحارب، ومن قتل بغير حق، فإن لورثته وأقرب عصبته حق القصاص من القاتل، إذا كان القتل عمدا عدوانا، والذي يتولى التنفيذ هو ولي الأمر ومن ينيبه، على ألا يسرف، فيتجاوز الحد، بأن يُمثّل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل، فإن عفا ولى الدم سقط القصاص، وعلى وليّ المقتول أن يعين المعنيّين بالأمر على تنفيذ حدود الله تبارك وتعالى.

هذا: وحِفْظُ النفس من القواعد الكلية، ومن الضرورات الخمس التي جاءت بها جميع الشرائع، وحُرمة الدماء يصونها الإسلام إلا بالحق الشرعي الذي حرَّم الله قتلها إلا به، فما هو هذا الحق؟ لقد فسَّره النبي ﷺ في الحديث الذي في الصحيحين، وغيرهما.

عن ابن مسعود ﷺ بقوله ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[2] أي: أن الذي تستحق به النفس القتل شرعًا أحد حقوق ثلاثة:

الحق الأول: القصاص، فالقاتل عمدًا عُدوانًا يُقتَل، وهذا معنى: **«النفس بالنفس»**.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بتاء الخطاب في (فلا تسرف) على الالتفات، والمخاطب هو ولي الدم، والباقون بياء الغيبة جريًا على نسق الآية، وضمير الغائب يعود على ولي الدم والإسراف المنهي عنه هو التعدي في القصاص، كأن يقتل بالواحد جماعة، أو يقتل غير القاتل.

(٢) رواه البخاري عن ابن مسعود برقم (٦٨٧٨) وهذا لفظه، ومسلم برقم (١٦٧٦).

وفي الحديث: عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق»**(١).

والذِّمِّي المعاهد حكمه حكم المسلم؛ ففي الحديث عن عبد الله بن عمرو ﷺ.

أن رسول الله ﷺ قال: **«من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا»**(٢).

فالنفس البشرية مسلمة أو غير مسلمة لها هذه المنزلة عند رب العالمين، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]. والذي يتولى القصاص هو ولي أمر المسلمين، ومن ينيبه في ذلك.

والحق الثاني: هو الثيب الزاني: وهو الشخص الذي سبق له الزواج، رجلًا كان أو امرأة، فهو الذي يقال له: مُحصَن، أو ثيِّب، ثم زنى بعد أن حُصِّن بالزواج، فإنه يُرجم حتى الموت.

والحق الثالث: المرتد، وهو: التارك لدينه المفارق للجماعة، وهو الذي خلع ربقة الإسلام من عنقه، وكَفر بعد إيمان، فإنه يُستحل دمه؛ لأنه صار فتنة لغيره، والفتنة أكبر وأشد من القتل، وفي اللفظ الآخر للحديث: **«الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**(٣).

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ قال: وإنا والله ما نعلم بحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: إلا رجلًا قتل متعمدًا، فعليه القوَد (القصاص)، أو زنى بعد إحصانه فعليه الرجم، أو كفر بعد إسلامه فعليه القتل.

---

(١) من حديث البراء بن عازب في «سنن ابن ماجه» برقم (٢٦١٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٢١٢١) و«غاية المرام» (٤٣٩) وله شواهد عند النسائي من حديث بريدة في «السنن».

(٢) من حديث عبد الله بن عمرو في «صحيح البخاري» برقم (٣١٦٦، ٦٩١٤) ومسند أحمد (٦٧٤٥)

(٣) هذا لفظ مسلم (١٦٧٦).

ومن قُتل له قتيل ظلمًا، بدون سبب يوجب قتله، فإن دمه لم يذهب هدرًا؛ فقد شرعنا لوليه سلطانًا على القاتل إن شاء طالب بالقصاص منه، وإن شاء أخذ الدِّيَة، وإن شاء عفا عنه، فولي الدم هو صاحب الكلمة، وهو صاحب التصرف في القاتل.

وقد نهى الله المسلم أن يقابل الظلم بالظلم، بل يتبع طريق العدل والإنصاف، وولي الدم هو أقرب العصَبة إليه من الورثة، والحاكم ولي من لا وَليَّ له، وقد جعل الله الوليَّ ﴿سُلْطَـٰنًا﴾ أي: حجة على القاتل، وهذا السلطان يتمثل في **ثلاثة أشياء**:

إما القصاص «**النفس بالنفس**» أي: أن القاتل يُقتل، وإذا أبى وليُّ الدم إلا القصاص فإنه يقتص منه.

والشيء الثاني: أن يأخذ قريب القتيل الدية، ويعفو عن قتله.

والشيء الثالث: أن يتنازل وليُّ الدم عن القصاص، ويتنازل عن الدية، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

هذا هو السلطان الذي جعله الله لولي الدم على القاتل، ولا يستطيع أحد أن ينازعه هذا الحق، أو يجبره على التنازل.

وتنفيذ هذا يحتاج إلى حكم قضائي شرعي من الجهة التشريعية القضائية، ويحتاج إلى تنفيذ من الجهة التنفيذية التي يخوِّل لها ولي الأمر بقتل القاتل.

والإنسان لا يأخذ ثأره بنفسه، ولا يقتص بنفسه، إنما السلطة التنفيذية في كل بلد هي التي تتولى هذا الأمر.

أما الإسراف في القتل فمعناه أن يتجاوز وليُّ الدم، القاتل إلى غيره، فيقتل اثنين أمام واحد، أو يقتل غير القاتل، أو يمثِّل به، فلا يسرف في القتل؛ فإن الله قد نصره عن طريق ما شرعه بالقصاص أو الدية.

وهذا هو المهلهل بن أبي ربيعة قُتل أخوه في الجاهلية، وكان قاتله يسمى جسّاسًا من آل مُرّة، قال: إن جَسَّاسًا لا يساوي نعل أخي، وإني سأقتل آل مُرَّة جميعًا، يعني: الأسرة بأكملها.

وقد كان الثأر في الجاهلية على هذا النحو، فلا يكتفي الإنسان بأن يقتل القاتل إنما يتعداه إلى غيره، أو إلى من هو أكبر، أو أشرف، أو أكثر منه، والإسلام قد نهى عن هذا السرف بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾ سواء أكان المقتول شريفًا، أو وضيعًا، فالإسراف في القتل يكون بأحد هذه الأشياء الثلاثة:

١- بالتمثيل بجثة القاتل، فقد نهى رسول الله ﷺ عن المثلة كما جاء في حديث:

هيّاج بن عمران أتى عمران بن حصين قال: إن أبي قد نذر لئن قدرَ على غلامه ليقطعنّ يده، فقال: قل لأبيك يكفرّ عن يمينه ولا يقطع منه طابقًا فإن رسول الله ﷺ كان يحب في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة..[1].

٢- أن يقتل ولي الدم غير من قُتل.

٣- أن يزيد في القتل عن شخص واحد.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ أي: أن المقتول وولي الدم منصور بتشريع الله له؛ فالله تعالى قد نصره وأعانه، وجعل له حُكْمًا بحيث يأخذ الثأر مِنْ قاتِله بواسطة ولي الأمر، فلا داعي لهذا الإسراف، ولا داعي لهذا الثأر الجاهلي الذي كان يحدث، ولا يزال يحدث مثله في بعض بلدان العالم.

فالضمير في ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ يعود على ولي الدم، وهو بالضرورة عائد على المقتول، والله تعالى قد نصرهما بتشريع القصاص.

والقتل عمدًا من أعظم الذنوب وأكبرها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

وقد جاء ذكر القتل بعد الشرك بالله تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي الصحيحين: عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أول ما يُقضَى بين الناس يوم**

---

(١) كما في حديث عمران بن حصين في «صحيح سنن أبي داود» (٢٣٢٢) والبزار في مسنده (٣٦٠٥) وابن أبي شيبة (٩/ ٤٢٣) و«المسند» (١٩٨٤٤، ١٩٨٤٦) بإسناد حسن.

القيامة في الدماء»[١].

وفي الأثر أيضًا: (لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امْرِيءٍ مسلم لأكبهم الله في النار)[٢].

وفي حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصِب دمًا حرامًا**»[٣].

ولا علاج لجريمة القتل إلا بما شرعه الله تعالى من القصاص، ففيه الرحمة والعدل، وحياة الأنفس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

قال الضحاك: هذه الآية هي أول آية نزلت في شأن القتل، وقد عالجت جريمة القتل علاجًا حكيمًا.

الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: النَّهْيُ عَنْ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ

٣٤-﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾

الأموال لها حرمة، ومال اليتيم أعظمها، فلا تستحلوا أموال اليتامى؛ لضعفهم، وعدم التفطن لمن يأكلها إلا بحفظها، وتنميتها حتى يبلغ اليتيم سن الرشد، ويحسن التصرف في أمواله، ولهذه الآية نظير في سورة الأنعام؛ حيث يأمر الإسلام فيهما بحسن رعاية مال اليتيم، والمحافظة عليه حتى تسلم إليه بأمانة، واستعفاف، وترفع عن التطلع إلى شيء منه.

ولذا: يوصي النبي ﷺ أبا ذر فيقول: «**يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تَأَمَّرَنَّ على اثنين، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم**»[٤].

أي: لا تكن أميرًا على اثنين من الناس؛ لأن الإمارة فيها مسؤولية.

ويوصيه ﷺ أن لا يتولى أمر يتيم؛ لأن في هذا مسؤولية إلا إذا كان يأنس في نفسه

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٦٤) وانظر: (٦٥٣٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٧٨).

(٢) ورد هذا الأثر عن ابن عباس وقد ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (١٤٥١) ج٢.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٨٦٢) وانظر: (٦٨٦٣).

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٨٢٦).

العدل، والإنصاف، والعفة، والأمانة.

وقد رهَّب الإسلام من ظلم اليتامى، وتوعَّد من يأكل أموالهم بالعذاب في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فمصيرهم جهنم ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]

قال تعالى ناهيًا عن أكل أموالهم: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا﴾ أي: كان ظلمًا ﴿كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

وأمر الإسلام الوصي، أو الولي القائم على أموال اليتامى، وهو يديرها أن ينميها، ويستثمرها لهم، فإن كان غنيًّا فلا يأخذ شيئًا على إدارته، أو على توليه هذا الأمر، وإن كان فقيرا فليأخذ بالمعروف كغيره ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

فإذا بلغ اليتيم سن الرشد، فإنه يمكَّن من ماله، وهل سن الرشد هو سن البلوغ، أو هو كمال القوة وتمام العقل؟ أي: حتى يصل إلى سنّ العشرين، أو الحادية والعشرين وهو سن الرشد، أو يصل إلى السادسة عشرة، وهو سن البلوغ، هذا خلاف بين الفقهاء، قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ [النساء: ٦] وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**»[١].

فلا تتصرفوا في أموال الأطفال الذين مات آباؤهم، وصاروا في كفالتكم إلا بالطريقة التي هي أحسن لهم بالتنمية والاستثمار، وهذه الوصية من أهم الوصايا؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يستحلون أموال اليتامى؛ لضعفهم، وقلة نصيرهم، فحذر الله المسلمين من ذلك؛ لإزالة ما يتبقَّىٰ في نفوس الناس من آثار الجاهلية.

وقد أتى القرآن بضمير المخاطب، ونهى عن مجرد الاقتراب من مال اليتيم؛ للمبالغة في النهي، والزجر عن التصرف في مال اليتيم بغير حق.

ولما نزلت هذه الآية شقَّت على المسلمين، وتجنَّبوا الأكل معهم على مائدة واحدة،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٦٤) و«سنن أبي داود» (٤٨٨٢).

وكانوا لا يخالطونهم في مال، ولا مأكل، ولا مركب، فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقد رغَّب الإسلام في كفالة اليتيم، ورفع منزلة من يكفله، كما في الحديث عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما[١].

وأخرج الشيخان، وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»[٢].

الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أي: أدوا العهد الذي بينكم وبين ربكم، والعهد الذي بينكم وبين غيركم من الناس، ويدخل في ذلك عقود العمل، وعقود البيع والشراء، وعقود النكاح، والوصية، واليمين، وغير ذلك من العقود والمعاهدات، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ﴾ [المائدة: ١].

ونقض العهد، وخلف الوعد آية من آيات المنافقين، كما في الحديث: «**وإذا عاهد غدر**».

والوفاء بالعهد من صفات الأبرار، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والوفاء بالعهد من صفات أصحاب العقول، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد].

والوفاء بالعهد من صفات المتقين، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) البخاري (٥٣٠٤، ٦٠٠٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٩، ١٢٨٢) و«صحيح البخاري» برقم (٢٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤/ ٣٢٥).

ووصف الله به المؤمنين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون].

وأمر سبحانه بالوفاء بالعهد في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١] وقوله ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقد رغب الإسلام في الوفاء بالعهد في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وحذر الإسلام من مغبة نقض العهد في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد].

ووبَّخ الله سبحانه اليهود على كثرة نقضهم للعهود في قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة].

فأتِمُّوا الوفاء بكل عهد التزمتم به - أيها المسلمون - فإن الله تعالى يسأل عنه صاحبه يوم القيامة، فيثيبه إذا أتمه ووفَّاه، ويعاقبه إذا خان فيه، ونقض عهده ووعده.

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الْوَفَاءُ بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ

٣٥-﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ[١] ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

هذا أمر بالعدل، وإيفاء المكاييل والموازين بالقسط من غير نقص ولا بخس، ونظرًا لحاجة الناس إلى المعاوضة، والبيع والشراء في حياتهم، فقد بالغ الإسلام في النهي عن تطفيف الكيل، ونقص الميزان، وتوعَّد من يفعل ذلك بالعذاب الشديد، حرصًا منه على أموال الناس، وحفظ الحقوق، وسرَيان الأمانة في التعامل بين الناس، في مجال البيع والشراء، ولو أن البائع طفَّف الكيل وبخَسه، ونقص الميزان ولم يتمه لكان في هذا خيانة للأمانة، وفقد للثقة في التعامل بين الناس، وكان فيه مَحْقٌ للبركة بين البائع والمشتري، ولهذا فإن تطفيف الكيل والميزان من كبائر الذنوب.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف العاشر بكسر القاف من (بالقسطاس)، والباقون بضمها، وهما لغتان، الضم لغة الحجازيين، والكسر لغة غيرهم.

وقد أرسل الله سبحانه شعيبًا عليه السلام لأهل مدين، ولأصحاب الأيكة؛ لمحاربة هذه الجريمة البشعة.

قال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود].

وقد بيَّن سبحانه أن الوفاء بالكيل والميزان خير لكم في الدنيا في معاشكم وأحوالكم، وخير لكم في الآخرة عند رب العالمين.

وفي الأثر: أنَّ من يَقْدِرُ على شيء من الحرام، ثم يتركه خوفًا من الله تعالى، فإن الله تعالى يُعجِّل له به في الحلال وهو في دنياه قبل آخرته:

«من عف عن الحرام رزقه الله إياه في الحلال».

وعن أبي قتادة، وأبي الدهماء عن رجل من أهل البادية أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: **«إنك لن تدع شيئًا اتقاء لله، إلا أعطاك الله خيرًا منه»**[١].

فأتِمُّوا - أيها المؤمنون - الكيل، ووفوه لغيركم عندما تكيلون لهم، وزنوا لهم بالميزان السويِّ العادل عندما تبيعون لغيركم، ولا تكونوا ممن قال الله فيهم: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين].

فإن العدل في الكيل والميزان أحسن عاقبة ومآلًا، فجزاؤه في الآخرة عظيم، وهو يُرَغِّب الناس في التعامل معكم في الدنيا.

وتطفيف الكيل والميزان سرقة خفيّة، وجشع وطمع نفسي، وغش وخيانة تذهب بالبركة، وتُفْقِد الثقة بين الناس، وتؤدي إلى الكساد وضعف الحركة التجارية، وفيه جلْب كراهية الناس وذمهم، وفيه كسب للسحت، واحتقار الإنسان لنفسه في داخله.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٨٧) برقم (٢٠٧٣٩) والبيهقي في «السنن» (٥/ ٣٣٥) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

الفرق بين آية الأنعام وهذه الآية:

ولما كان الخطاب بالوفاء بالكيل والميزان في هذه السورة موجَّهًا للمؤمنين، فقد زادت هذه الآية لفظ ﴿إِذَا﴾ الظرفية الشرطية؛ لتعطي معنى عدم التسامح في شيء من نقص الكيل والميزان، في كل مرة يباشر فيها المسلم البيع والشراء، أي: بصفة مستمرة متجددة، وهذا بخلاف التي في سورة (الأنعام)؛ فإن الخطاب فيها موجه للمشركين.

كما جاء فيها لفظ: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو العدل، تذكيرًا للمشركين بما هم عليه من الظلم، وعدم العدل.

وجاء هنا لفظ: ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ وهو آلة الوزن مع الإيماء إلى العدل؛ لأنها خطاب للمسلمين.

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ:

الْمَنْهَجُ الْعَمَلِيُّ لِاسْتِقَامَةِ الْقَلْبِ وَالْعَقْلِ وَالْجَوَارِحِ

٣٦-﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾

كل إنسان مسؤول عما يقوله بلسانه أو قلمه، وما يفعله بجوارحه، ومؤاخذ عليه، فلا تتحدث بما ليس لك به علم، بل تثبَّت في كل ما تقول وما تفعل.

وفي هذه الوصية أدب خُلُقي، فيه إصلاح للعقل؛ حتى لا يختلط عنده المعلوم، والمظنون، والموهوم، في الخواطر العقلية.

وفيه إصلاح اجتماعي يُجنِّب الأمة الوقوع في المهالك؛ بسبب الاستناد إلى أدلة وهمية.

وفيه مسؤولية الإنسان عما يصدر من سمعه وبصره وفؤاده، وسائر جوارحه من أعمال ناشئة من إشارة العقل، وهو مؤاخذ على كل ما اقترفت جوارحه.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا تتبع -أيها الإنسان - ما لا تعلم من قول، أو فعل، ولا تكن كمن يتبع مسلكًا لا يدري أين يوصِّله، فلا تقل ما لا تعلم، ولا تعمل بما لا تعلم، بل تأكد وتثبت قبل القول أو الفعل، فلا مجال للشك، أو الظن، أو الوهم في حياة المسلم، بل يقوم شأنه كله على استقامة العقل، والقلب، والجوارح على منهج الله،

وذلك كأن يقول الإنسان أو يفعل ما لا علم له به، كمن يفتي بغير علم، أو يسلك طرق أهل الضلال، أو يُقلِّد أهل البدع والفساد.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

أحاديث في معنى الآية:

وقد نهى سبحانه عن القول بغير علم، في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

١- وفي الحديث: عن أبي مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**بئس مطية الرجل زعموا**»[(١)] ومثلها: قالوا، وسمعت.

٢- وفي الحديث أيضًا عن عبد الله بن عمر ﷺ: «**إن من أفرى الفرى أن يُرِيَ الرجل عينيه ما لم تريا**»[(٢)].

٣- وقال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ: «**من تحلَّم بحلم لم يره، كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**»[(٣)].

ومعنى: تحلَّم، أي: قال: إنه رأى كذا في منامه، وهو لم ير شيئًا، وهكذا نهى الإسلام عن الظن، والقول، أو الفعل بدون علم، ويندرج تحت هذه القاعدة أمورًا كثيرة:

---

(١) سنن أبي داود برقم (٤٩٧٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٥٨) وفي السلسلة الصحيحة (٨٦٦).

(٢) من حديث ابن عمر في «البخاري» برقم (٧٠٤٣).

(٣) من حديث أبي هريرة في «البخاري» برقم (٧٠٤٢) معلقًا ووصله النسائي في «السنن» (٨/ ٢١٥)، وانظر مسند أحمد (١٠٥٤٩) بإسناد صحيح على شرط البخاري.

(أ) عدم الطعن في أنساب الناس بسبب سوء ظن، أو بُعد في الشَّبَهِ بين المولود وأبيه؛ فإن النسل ينزع في الشبه إلى سلسلة الآباء، والأمهات الأقربين، أو الأبعدين، وقد ينشأ الشبه من الوحم.

جاء أعرابي إلى النبي ﷺ قال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، وإني أنكرته، فقال له النبي ﷺ: **«هل لك من إبل؟»** قال: نعم، قال: **«ما ألوانها؟»** قال: حُمْر، قال: **«هل فيها من أوْرق؟»** قال: نعم، قال: **«فأنى ذلك؟»** قال: لعله نزعه عرق، فقال ﷺ: **«فلعل ابنك هذا نزعه عرق»**[١] وكان الرجل يريد نفي الولد عنه؛ لاختلاف لونه عنه.

وقد نظر (مجزز المدلجي) إلى أقدام زيد وأسامة فقال: **«إن هذه الأقدام لمن بعض»** والجمهور على القول بالقافة[٢].

(ب) ومن ذلك قذف الناس واتهامهم بالزنى، بدون مشاهدة شخصية، بل نقلًا عن الآخرين، أو لأن زوج المرأة غائب، أو لأن فلانًا خرج من عندها، ونحو ذلك.

(ج) ومن ذلك الكذب، وشهادة الزور، وسوء الظن.

والعبد مسؤول عما استعمل فيه سمعه وبصره وفؤاده، فإن استعملها في الخير نال ثواب ذلك، وإن استعملها في الشر نال عقاب ذلك:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس].

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: لا ينبغي أن يكون التعامل بين الناس مبنيًّا على الظن، أو الوهم، أو الشك، لا تذم غيرك بناءً على إشارة الظن، ولا بناءً على كلام

(١) يُنظَر الحديث في: «البخاري» عن أبي هريرة (٥٣٠٥، ٦٨٤٧، ٧٣١٤) ومسلم (١٥٠٠).

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/ ١٠٠).

الآخرين، لا تقل رأيت وأنت لم تر ببصرك، لا تقل سمعت وأنت لم تسمع بأذنيك، لا تقل علمت وأنت لم تعلم حقيقة؛ إن هذه الحواس وهذه الجوارح من: السمع، والبصر، والفؤاد، سائلها رب العالمين يوم القيامة عن كل ما يحدث منها، فلا تتحدث بما لا تعلم، ولا تتحدث بناءً على الظن، أو الشك، أو الوهم، بل تثبَّت وتيقن، واعلم علم اليقين قبل القول أو الفعل.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث**»[1] وهذا معنى ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

أي: أن الله تعالى سائل كل إنسان عما حواه سمعه، وبصره، وفؤاده ومحاسِبُه عليه يوم لقائه، وسؤال السمع والبصر والفؤاد له **معنيان**:

المعنى الأول: أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عما فعلت جوارحه، فيقال له: لِمَ سمعت ما لا يحل لك؟ ولِمَ نظرت إلى ما لا يحل لك؟ ولِمَ عزمت على ما لا يحل لك؟ وهكذا كما قال تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

المعنى الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال أصحابها، فتشهد عليه جوارحه بما فعل، وهكذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت].

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: النَّهْيُ عَنِ الْكِبْرِ وَالْخُيَلَاءِ

٣٧- ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾

ينهى القرآن الكريم عن الكبر في شتى صوره، ومنه المشي باختيال وتفاخر وإعجاب بالنفس؛ فإنها مِشْية تدل على تكبر فاعلها، وإهانته للناس بإظهار التعالي عليهم، وإرهابهم بقوته.

فقد رأى عمر بن الخطاب ﷺ غلامًا يتبختر في مشيته، فقال له: إن البخترة مشية تُكره، إلا في سبيل الله؛ لإرهاب العدو، وإظهار القوة له.

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٦٦) وانظر: (٥١٤٣) ومسلم برقم (٢٥٦٣) من حديث أبي هريرة.

وكان النبي ﷺ يمشي كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ، أي: كأنه ينحدر من موضع عال، وكأنَّ الأرض تُطوى له ﷺ من غير أن يُجهِد نفسه، ومن غير تكبر، ولا تبختر.

وقد وصف الله عباد الرحمن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ في سورة الفرقان، وفي الآية التي معنا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أصل خلْق الإنسان، وتذكير له بعودته إليها، فهي تذكير بالمبدأ والمعاد، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه] ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان].

وكيف يتعالى الإنسان، ويُعجب بنفسه، وهو يحمل العذرة بين جنباته حين يختال، وقد خُلق من نطفة قذرة، وعندما يموت يكون جيفة منتنة، كما قال عليٌّ ﷺ: ما لابن آدم والكبر، أوَّلُهُ نطفة قذرة، وآخره جيفة مذرة، وبين الاثنين حامل العذرة.

١- وفي الحديث عن عِيَاض بن حمار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»**[(١)].

٢- وفي الحديث: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا»**[(٢)].

٣- وفي حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الله إلى من جرَّ ثوبه خيلاء»**[(٣)].

وفي هذا نهي عن التعالي والتطاول على الناس، وأمر بالتواضع وخفض الجناح للمؤمنين.

ففي الأثر: **«لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين»**[(٤)].

---

(١) أخرجه أبو داود عن عياض بن حمار برقم (٤٨٩٥) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٠٩٣) وابن ماجه (٤٢١٤) والبيهقي في «الشعب» (٦٦٧٢، ٨١٣٣) وانظر: «صحيح مسلم» (٢٨٦٥)، وهو في صحيح الجامع (١٧٢٥) والسلسلة الصحيحة (٥٧٠).

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، البخاري برقم (٥٧٨٨) ومسلم برقم (٢٠٨٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٨٥) و«صحيح البخاري» برقم (٧٥٨٣).

(٤) عن سلمة بن الأكوع في ضعيف الترغيب والترهيب ج ٢ برقم (١٧٤٤).

وقال ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**[١].

وقد بيَّن النبي ﷺ الكبر بأنه يَصْدُق على **أمرين اثنين**:

الأمر الأول: ازدراء الناس، أي: احتقارهم وتنقيصهم: احتقار فقير لفقره، أو احتقار ضعيف لمهنته، أو احتقار ذي نسب لنسبه أو قبيلته، أو لوضعه الاجتماعي، ونحو ذلك من الأحوال، كأن يعْمد الإنسان إلى شخص مرموق، أو شخصية معروفة فينقِّص من شأنها؛ لِيُنْزِلَها من أعين الناس، أو أن يغتر الإنسان بنفسه وجماعته، فيعتقد أنه وجماعته علَى صواب، أو أنه هو وحده المقبول عند الله، وينسب غيره إلى البدع بغير وجه حق، أو ينتقص من الآخرين ويرميهم بالسوء.

الأمر الثاني: من الكبر هو عدم الاعتراف بالحق، وعدم الخضوع له مع وضوح الحق وظهوره أمامه، فينكره أثناء الحديث أو المناقشة، أو الخصام والجدال، ولا يقبل الحق، ولا يخضع له، وقد جاء هذا في قوله ﷺ من حديث ابن مسعود السابق: **«الكبر بطر الحق، وغمط الناس»**[٢].

٥- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في حُلَّة تعجبُه نفسه، مُرَجِّل جُمَّته إذ خسف الله به، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة»**[٣].

كما قال ﷻ عن قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

٦- ورأى النبي ﷺ رجلًا يأكل بشماله، فقال له: **«كُلْ بيمينك»** فتكبَّر الرجل أن يستمع إلى النصيحة، وقال: لا أستطيع -كذبًا- فقال ﷺ: **«لا استطعت»** دعا عليه النبي ﷺ، ثم قال ﷺ: **«ما منعه إلا الكبر»** قالوا: فما رفع الرجل يده إلى فمه بعد ذلك، أي: أن يده قد شُلَّت[٤].

---

(١) من حديث عبد الله بن مسعود في «صحيح مسلم» برقم (٩١).

(٢) من حديث ابن مسعود السابق في «مسلم» (٩١) وأبي داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٨) وابن ماجه (٥٩).

(٣) يُنظَر: الحديث في «البخاري» برقم (٥٧٨٩) وانظر: (٥٧٩٠) و«مسلم» برقم (٢٠٨٨) عن أبي هريرة.

(٤) هذا المعنى رواه الترمذي عن سلمة بن الأكوع وأخرجه أحمد في «المسند» بإسناد صحيح على شرط مسلم (١٦٤٩٣، ١٦٤٩٩) وهو في صحيح مسلم برقم (٢٠٢١).

٧- وفي حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا مشتْ أمتي المطيطاء -أي: التبختر- وخدمتْهُم فارس والروم سُلِّط بعضهم على بعض»**[١].

وكل هذا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرِحًا، متبخترًا، معجَبًا بنفسك، وليس المراد المشي بالقدمين فحسب، بل كل مشي، سواء أكان على الدابة، أم في السيارة، أم في الطائرة، أم على الدراجة، أم في السفينة، ونحو ذلك، فهذا الذي يخترق الشارع بسيارته كالحيَّة التي تتلَوَّى يَمْنة ويسرة، كلما رأى نافذة أو فَجوة دخل منها، وضايق الناس هنا وهناك، يتلوَّى في الشارع وهو يظن أن هذه مهارة وذكاء، وهو في الواقع عدم خلُق، إن الأخلاق تتجلى في المشي بأدب، ووقار، وثبات، وتفادي أخطاء الآخرين، سواء أكان ذلك بالقدمين، أم بالسيارة، أم بالدابة، وغير ذلك.

ومهما ضرب المتكبر الأرض بقدميه، أو أسرع فيها بسيارته، فإن الأرض أقوى منه ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ ومهما أسرع في مشيته فإن الجبال أطول منه ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾، بل تكون محتقرًا عند الله، ومحتقرًا عند الناس، مبغوضًا ممقوتًا.

والمعنى: إنك -أيها الإنسان- ضئيل هزيل، لا يليق بك التكبر؛ إذ كيف تتكبر على الأرض وأنت لن تجعل فيها خرقًا ولا شقًّا مهما ضربْتها برجليك، أو تطاولْت بعنقك إلى السماء، وكيف تتطاول على الجبال وأنت لن تبلغها طولًا، ومهما تطاولْت وتعاليْت، فأنت أحقر وأضعف من الأرض ومن الجبال، وفي هذا تهكم، وتقريع للمتكبرين.

التَّعْقِيبُ عَلَى مَجْمُوعِ الْوَصَايَا

٣٨-﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ[٢] عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۝٣٨﴾

---

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٦) وهو في «الترمذي» (٢٢٦١) وابن أبي الدنيا في كتاب «التواضع» (٢٤٩).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر، بضم همزة (سيئه) بعدها هاء مضمومة ممدودة، وهي اسم كان و (مكروهًا) خبرها، وقرأ الباقون بفتح الهمزة، بعدها تاء تأنيث منصوبة منونة هكذا (سَيِّئَةً)، على الإفراد، خبر كان، واسمها ضمير يعود على (كل) و (مكروهًا) خبر بعد خبر، وتأنيث (سيئة) حملًا على المعنى، والمعنى: كل ما سبق من النواهي المتقدمة كان سيئة مكروهًا عند ربك.

أشار ﷻ إلى جميع التكاليف السابقة، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ إلى قوله ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ باعتبار ما اشتملت عليه من التحذيرات والنواهي والأوامر؛ فكل أمرٍ منها، يقتضي النهي عن ضده، وكل نهي منها يقتضي الأمر بضده، فهي تبلغ بهذا ثلاثين تكليفًا، وأكثرها من كبائر الذنوب التي يبغضها رب العالمين، وهي مذمومة عند الله تعالى.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إنّ جميع ما تقدم من النواهي والأوامر، يكره الله سيئها، ولا يرضاه لعباده ويحب حَسَنها، ويرضاه لعباده.

وهكذا فالله تعالى يأمر بالإحسان إلى الوالدين في الآية الثانية من هذا السياق، وهذا المأمور به ليس سيئًا ولكنه حَسَن، فيكون المعنى: أن الله تعالى يكره ضد ذلك، وهو عقوق الوالدين، فهو سيئة مذمومة، والله تعالى نهى عن قتل النفس بغير حق، فهذا سيئة مكروهة، وضد ذلك: هو سلامة النفس الإنسانية وصيانتها، وهو أمر محمود، وهكذا، فكلها أوامر ونواهٍ تضبط قواعد السلوك والآداب، والتكاليف الفردية والاجتماعية؛ فالضمير في ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ يعود على ما نهى الله عنه؛ كالشرك، وعقوق الوالدين، والزنا، ونقض العهد، وأكل مال اليتيم، وقتل النفس، وغير ذلك. قال تعالى:

٣٩-﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾

ثم أشار جلَّ شأنه إلى أن الآيات الثماني عشرة السابقة، وما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي، هي مما أوحى الله تعالى به إلى رسوله محمد ﷺ.

وقد سمى الله تعالى ذلك حكمة؛ لأنها حقائق ثابتة ليس فيها خطأ، ولا اشتباه.

وفي هذا تنبيه على أن هذه الأحكام ثابتة في جميع الديانات والملل، وهي آيات محكمة، لا تقبل النسخ ولا الإبطال، ولولا الوحي الإلهي ما وصلت هذه الأحكام إلى النبي ﷺ ولا عرفته الأمة الأمية.

قال ابن عباس ﷺ: إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل، ثم تلا الآية[1].

---

(١) الطبري (١٥/ ١٣٨).

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ أي: إنّ ذلك الذي بيَّناه، ووضحناه من الأحكام الجليلة، وفيها الأمر بمحاسن الأعمال، والنهي عن رذائل الأخلاق، مما أوحيناه إليك - يا محمد- من علم الشرائع، ومعرفة الحق.

وكما بدأت هذه الوصايا بالنهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ خُتِمت بالنهي عن الشرك أيضًا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تجعل -أيها الإنسان- شريكًا مع الله في عبادته.

وفي هذا إشارة إلى أن التوحيد هو المقصود الأول والأخير، وهو القاعدة والأساس الذي تُبنَى عليه جميع الأعمال، وبدونه لا ينفع الإنسان عمل ولا قول.

وقد خُتمت الآية الأولى رقم [٢٢] ببيان أن المشرك يكون بين الناس، وأمام الله تعالى ﴿مَذۡمُومًا مَّخۡذُولًا﴾ فهو مذموم؛ لأنه أتى فعلًا قبيحًا منكرًا يُذَم عليه عند الله تعالى، وهو مخذول بين الناس، ضعيف لا وليَّ له، ولا ناصر، ولا معين.

وخُتمت هذه الآية بقوله تعالى خطابًا للمشرك: ﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾ أي: أنك - أيها المشرك- تُقذف في نار جهنم، وتكون مُلَامًا من نفسك ومن الناس، كما تكون مطرودًا مبعدًا من كل خير إذا أشركت مع الله غيره في عقيدتك، وعبادتك.

التَّعْقِيبُ عَلَى وُجُوبِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ عَنِ الشِّرْكِ

٤٠ -﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

هذا إنكار شديد على من زعم أن الملائكة بنات الله، ونسبها إلى الله سبحانه، ففي هذا أعظم الجرأة عليه، حيث خصوا أنفسهم بالذكور، ونسبوا الإناث إلى الله، مع كراهيتهم لهن، فتعالى الله عما يقوله الظالمون علوا كبيرا.

هذا: ولما نهت الآية السابقة عن الشرك بالله تعالى أتبعت ذلك بذكر الأدلة على استحالة أن يكون لله تعالى شريك أو ولد، بل كل من في السماوات والأرض خاضع لسلطانه، مُسبِّح بحمده.

فقد نزلت سورة (الإسراء) على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة.

وعناصرِ القرآن الذي نزل بمكة يتكون من **ثلاثة عناصر**:

العنصر الأول: اقتلاع جذور الشرك، وغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر.

والعنصر الثاني: الإقرار بالوحي المنزل على محمد ﷺ، والإيمان به.

والعنصر الثالث: غرس عقيدة البعث والنشور، والحساب والجزاء، في نفوس البشر.

والآية الأربعون من هذه الآيات، وخمس آيات بعدها تتحدث عن العنصر الأول من عناصر القرآن المكي، وهو عقيدة التوحيد.

والآيات الأربع بعدها تتحدث عن الوحي والرسالة.

والآيات الأربع التي تليها تتحدث عن البعث والنشور.

وما من فرية أعظم على الله سبحانه من نسبة الشريك والولد إليه جلَّ شأنه، وهذه فرية موجودة قديمًا، وموجودة في وقتنا؛ فالنصارى يعتقدون أن المسيح ابن الله، أو أنه هو الله، أو أن الله ثالث ثلاثة، وبعض اليهود يعتقدون أن عزيرًا ابن الله، وأهل الجاهلية قبل الإسلام جعلوا الملائكة إناثًا، وعبدوهم، كالأصنام، وقالوا: إنهم بنات الله.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء].

والله سبحانه يعرفنا ماهية الملائكة وحقيقتهم، فهم عباد عند الله مكرمون ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء].

ويبيِّن ﷻ في سور: النحل، والزخرف، و الصافات، وغيرها حقيقة هذه الفرية، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ وهم المشركون الذين جعلوا الملائكة بنات الله، يقول سبحانه: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ﴾؟ هل رأوْهم إناثًا؟!

قال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]

وفي القراءة الأخرى: ﴿سَنَكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾. بالنون بدل التاء.

وفي قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩﴾؟ [الصافات]

فقد نسبوا البنات إلى الله سبحانه ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]

وهم يكرهون البنات ويئدونهن، ومع ذلك فقد نسبوهن إلى الله تعالى، واختاروا لأنفسهم الذكور؛ لأنهم يحبونهم.

قال تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ۝١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ كذبهم وافتراءهم ﴿لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣﴾؟ [الصافات]

فهل اختار الله تعالى لنفسه البنات، وخصكم بالبنين؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤﴾؟ [الصافات: ١٥٤] فتفضِّلوا أنفسكم عليه سبحانه.

وهذه الآية التي معنا من سورة الإسراء توضح هذا المعنى، وتنكر عليهم قولهم: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟

أفخصَّكم ربكم، واختار لكم من البنين الذكور، واختار لنفسه الإناث، وأنتم تكرهونهن؟! ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ إن قولكم هذا قول بشع شنيع، بالغ القبح، لا يليق بجلال الله تعالى، بل تأباه العقول، وتخرُّ له الجبال هدًّا.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩﴾ عظيم الفرية على الله سبحانه﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: من هذه المقولة، وهي نسبة الوالد إلى الله سبحانه ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم].

والآيات تشير إلى أن فريقًا من العرب، عبدوا الملائكة كما عبدوا الأصنام، ولما نهاهم الله تعالى، وحذرهم من عبادتهم، علَّلوا عبادتهم لهم بأنهم بنات الله، فنسبوا لله الولد، وجعلوهم إناثًا، وعبدوهم.

ولذا: فإن الله تعالى خص عبادتهم للملائكة بالذكر؛ لئلَّا يتوهموا أن الله تعالى يرضى بعبادتهم، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وقد جاء ذِكْر ذلك في آيات كثيرة بالإضافة إلى ما ذكرناه، منها قوله تعالى:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم]

وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور]

وقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٤].

وقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ **الاتخاذ** معناه: الخلق، وهو ينافي التوالد، ولا يتوافق مع قولهم: (الملائكة بنات الله) من سروات الجن، فكيف يخلق الله الشيء، ثم يكون ابنًا له؟ وفي الآية تسفيه لأقوالهم الباطلة، وعقولهم السقيمة.

تَنَوُّعُ أَسَالِيبِ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي الْقُرْآنِ

٤١ -﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟(١) وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه نوَّع في هذا القرآن، ووضَّح الأحكام، والأمثال، والمواعظ بألوان من: الوعد، والوعيد، والقصص، والحجج، والأخبار؛ وأكثر من الأدلة والبراهين، سيما في مجال التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأَمَرَ وَنَهَي، ووَعَظ وذكّر، وأقام الحُجج والبراهين العقلية والنقلية، ليتعظ الناس، ويتدبروا ما ينفعهم فيأخذوه، وما يضرهم فيتركوه، ولكن هذا التوضيح والبيان لا يزيد الظالمين إلا تباعدًا عن الحق، وغفلة عن النظر والاعتبار، وذلك لبغضهم للحق، وحبهم للباطل وتعصُّبهم له.

وقد بيَّن الله سبحانه أدلة التوحيد في القرآن بأساليب متعددة ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: بيَّنا أدلة التوحيد، وكررناها بأساليب مختلفة، وأنواع بلاغية متعددة؛ - يأتي ذكر بعضها في الآية التالية - ليتذكروا فيعتبروا وينتفعوا؛ وذلك لأن التوحيد كامن في النفوس بالفطرة، لا يحتاج إلا إلى مجرد التذكير، ولكن الكفار يأبون ذلك، فلا يعتبرون،

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بسكون الذال وضم الكاف مخففة من (ليذْكُروا) مضارع ذكر، من الذكر ضد النسيان، والباقون بتشديد الذال والكاف مع فتحهما، مضارع تذكَّر من التذكر والتيقظ والمبالغة في الانتباه.

ولا ينتفعون ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ما تزيدهم هذه التذكرة إلا إعراضًا عن توحيد الله سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢] وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر]

فالكفار لا يزدادون بأدلة التوحيد إلا تباعدًا عن الحق، وغفلة عن النظر.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف].

أَرْبَعَةٌ مِنَ الْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٢- ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ(١) إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أي لو كان مع الله آلهة أخرى - كما يزعم المشركون - لطلبت تلك الآلهة طريقًا إلى مغالبة ذي العرش فيهم، وهو صاحب الملك، وحاولت محاربته والاستيلاء على بعض ملكه، ولكنه سبحانه واحد أحد لا شريك له في ربوبيته ولا في ألوهيته، فهو ذو العرش الوحيد.

ومن الأدلة والبراهين العقلية، والنقلية على توحيد الله سبحانه التي جاءت في القرآن الكريم **أربعة أدلة**:

أولها: دليل الخلق والإيجاد:

وذلك لأن الخلق من خصائص الإله الحق، وما دام الله سبحانه هو الخالق لهذا الكون، فلا يعقل أن يستوي مع أحد من المخلوقين، وإذ انتفى ذلك تعين إفراده تعالى بالعبادة، وتوحيد الألوهية لله وحده قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾؟ [النحل]. وقال سبحانه ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص بياء الغيب في (كما يقولون)؛ لمناسبة (وما يزيدهم) وقرأ الباقون بتاء الخطاب حكاية لقول الرسول لهم.

ثانيها: دليل الإحكام والإبداع:

فهو من براهين التوحيد وأدلته، التي صرَّفها الله تعالى في القرآن، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والضمير من ﴿فِيهِمَآ﴾ يعود على السماوات والأرض في الآيات قبلها، أي: لو كان هناك إله لهذا الكون غير الله تعالى، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن، ولكن هذا الكون المُحْكَم البديع، صنع الواحد الأحد، لا إله غيره، ولا رب سواه، وهو يسير بنظام دقيق بدون خلل ولا تفاوت ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك]

ثالثها: دليل التنازع والتخاصم:

قال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] وذلك لأن كل إله يريد أن يستأثر بالذي خلقه، ويريد أن تكون له مساحة أكبر من الكون، ويستقطع زيادة عن الآخر بطريق التنازع والخصام ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كل منهم يريد أن يترفع على الآخر، ويتعالى عليهن، فالشركاء يتنازعون ويختلفون ويتقاسمون

رابعها: دليل القهر والغلبة:

وهو الدليل الذي معنا في هذه السورة ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢﴾ أي: لو كان مع الله إله آخر لحدث على الملك والسلطة، نزاع ومغالبة؛ فكل إله يريد أن يستأثر بالكون، كما يحدث بين ملوك الدنيا، وتحدث الانقلابات والثوْرات، وغير ذلك من سُبل القهر والغلبة؛ للظفر والانفراد بالملك، وهذا المعنى هو الراجح.

أو يكون **المعنى**: لو كان هناك إله غير الله معه لتقربت الآلهة المزعومة إلى هذا الإله، وطلبوا الوصول إليه، واعترفوا بفضله، وابتغوا طريقًا يسلكونه، ويتقربون به إلى صاحب العرش العظيم؛ ليُخْلِصوا له العبادة، وهذا كقوله تعالى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] وقوله عن المشركين ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨] فاعبدوا الله وحده، ولا حاجة لكم إلى معبود آخر، يكون واسطة بينكم وبينه، قال تعالى منزهًا نفسه عن الشريك والولد:

٤٣-﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ[١] عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول سبحانه مُنزِّهًا نفسه، ومعلمًا لنا كيف ننزه الله سبحانه، ونقدسه عن الشريك والولد: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ أي: تنزه، وتقدَّس سبحانه عما يقوله المشركون، وتعالى وتعاظم عن زعمهم، علوًّا كبيرًا.

وفي القراءة الأخرى: (عما تقولون) بالتاء، خطابًا من النبي ﷺ للمشركين.

لقد تضاءلت لعظمته المخلوقات، وصغرت لكبريائه الأرض والسموات، وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي افتقارًا ذاتيًا، لا ينفك عنهم بوجه من الوجوه، وهم يفزعون إليه في السراء والضراء، فهو إلٰههم ومعبودهم بحق، لا رب غير ولا معبود سواه.

جَمِيعُ الْكَائِنَاتِ تُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٤-﴿تُسَبِّحُ[٢] لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾

ثم بيَّن جلَّ شأنه أن كل شيء في هذا الكون ينطق بوحدانية الله تعالى، ويشهد بربوبيته له: السماوات في زُرْقَتِها، والشمس في شُروقها وغروبها، والسُّحُب في أمطارها، والمياه في خَرِيرها، والطيور في تغْريدها، والحدائق في خُضرتها، والبساتين في نُضرتها، وغير ذلك من الْمُلْك والملكوت كله يسبح بحمد الله، كله يشهد أن لا إله إلا الله.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ من الملائكة والإنس والجن، ثم عمَّم سبحانه الأشياء كلها فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: من جميع المخلوقات، فكل شيء في هذا الوجود ينزه الله تعالى تنزيهًا مقرونًا بالثناء والحمد له سبحانه: كل حصاة، وكل حجر، وكل نبْتة، وكل زهرة، وكل ثَمَرة، وكل شجرة، وكل حيوان، وكل دابة تدب على الأرض، أو تَسْبح في الماء، أو تسير في

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر ورويس بخلف عنه بتاء الخطاب في (عما يقولون) حكاية لقول الرسول ﷺ لهم، والباقون بياء الغيب ومعهم رويس في وجهه الثاني؛ لمناسبة ما قبلها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ورويس بخلفه بياء التذكير في (يسبح)، والباقون بتاء التأنيث.

الهواء، ومعهم سكان السماء، كلها تسبح بحمد الله، وتتوجه إليه في علاه.

وبهذا أمرت الرسلُ الأمم، وبه أوصى نوح ابنيْه وهو في مرض الموت.

كما في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن نوحًا لما حضرتْه الوفاة، دعا ابنيْه، فأوصاهما بأمرين، ونهاهما عن أمرين: نهاهما عن الشرك بالله، وعن الكبر، وأمرهما بلا إله إلا الله؛ فإن السماوات والأرض وما بينهما لو وُضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لرجحت لا إله إلا الله، ولو أن السماوات والأرض كانتا حلقة فوُضِع عليهما لا إله إلا الله لقصمتْهُما، وأمرهما بسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق(١).

ونصوص الكتاب والسنة، ناطقة بتسبيح جميع الكائنات لله تعالى، وهذا التسبيح تسبيح حقيقي بلسان الحال والمقال، ولكنه بلغة لا يفهمها الناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لكنكم -أيها الناس- لا تدركون ذلك، وكما قال تعالى مبينًا أن جميع الكائنات تسجد لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

فجميع الكائنات من: ملَك، وإنسان، ونبات، وحيوان، وشجر، وحجر، ومدر، ومَن له عقل، ومن لا عقل له، كلها تسبح بحمد الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما من كائن في هذا الكون ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ على اختلاف الألسنة، واختلاف اللغات، ونحن -بني البشر- لا نعرف لغة بعضنا البعضُ، لا نعرف هذه اللغة من تلك اللغة، لا نعرف العربية من الفرنسية من الألمانية من الإنجليزية من غيرها، فما بالكم بلغات المخلوقات الأخرى مثل: الطيور، والحيوانات، والنباتات، والأشجار، والأسماك، وعالم النمل والنحل، وما إلى ذلك؟! لا يَفْهَم هذه الألسنة إلا مَنْ خلقها، وقد جاء في القرآن الكريم ما يقطع بأن الجماد يسبح بحمد الله، يشهد وينطق بالتوحيد.

قال سبحانه مبينًا تسبيح الجبال والطير في الآيات التي تتحدث عن داود ﷺ:

---

(١) يُنظر نص الحديث في «المسند» برقم (٦٥٨٣). وإسناده صحيح (محققوه) وهو في «المستدرك» (١/٤٨) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٨) والبزار (٢٩٩٨،٣٠٦٩) والهيثمي في المجمع (٤/٢١٩) وقال: رواه كله أحمد، ورواه الطبراني بنحوه... ورجال أحمد ثقات.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص] فأثبت سبحانه أن الجبال تسبح مع داود.

وقال جل شأنه: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص] أي: أن الطير رجّاع مسبح بحمد الله تعالى.

وفي الآية الأخرى يجمع الله تعالى الجبال والطير معًا، فيقول تعالى:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٧٩] الجبال، والطير يسبحْن بحمد الله، وينطقن بالتوحيد، ويعترفن بربوبية الله سبحانه، وألوهيته.

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]

فبيَّنت هذه الآية أن الجبال، والطير ترجِّع التسبيح مع داود عليه السلام.

وجاء عن الحجارة أنها تخشع وتخشى الله تعالى فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال أيضًا: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فالجبال وهي جماد تخشع، وتهبط، تسبح بحمد الله سبحانه، وبهذا **نطقت الأحاديث**:

الماء ينبع من بين أصابع النبي ﷺ

١- قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء، فقال: «**اطلبوا فضلة من ماء**»، فجاؤونا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده ﷺ في الإناء، ثم قال: «**حي على الطَّهور المبارك، والبركة من الله**» فلقد رأيتُ الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل[1].

الطعام والحصا يسبحان بين يديه ﷺ:

٢- وفي الصحيح: عن أنس رضي الله عنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام بين يدي رسول الله ﷺ، وكنا نسمع تسبيح الحصى في كف المصطفى ﷺ.

٣- وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسُمِع لهن تسبيح

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٥٧٩).

كحنين النحل، وكذا يد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ أجمعين[١].

الحجر يسلم على النبي ﷺ:

٤- جاء في صحيح مسلم: عن جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ وهو في مكة أول البعثة، كان يمر بحجر، فيسلم عليه كلما مر به، قال ﷺ: **«وإني لأعرفه الآن»**.[٢]

صوت الضفدع تسبيح لله سبحانه:

٥- وعن عبد الرحمن بن عثمان ﷺ أن النبي ﷺ نهى عن قتل الضفدع[٣].

وقال: **«نقيقها تسبيح» والنقيق**: هو صوت الضفدع.

الضفدع يعبد الله تعالى:

٦- وورد أيضًا أن داود ﷺ ظل ليلة يصلي، فلما أصبح سُرَّ في نفسه من أنه قام هذه الليلة مصليًا مسبِّحًا بحمد الله، فقالت له ضفدعة: يا داود، إني كنت أدأب منك على عبادة الله هذه الليلة -أي: كنت أكثر عبادة منك، وأكثر تواصلًا مع الله تعالى في هذه الليلة منك- لقد أغفيتَ إغفاءة، أي: حدث منك أنْ غفلَتْ عيناك لحظة، فهي تخبره أنها كانت أدأب منه على عبادة الله تعالى في هذه الليلة، مع أنه أُعجب بنفسه، وسرَّه أن قام هذه الليلة.

جِذْع النخل يحنُّ للنبي ﷺ ويُسمَع له صوت وأنين:

٧- في البخاري: عن ابن عمر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوَّل إليه، فحنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه[٤].

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٥).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٧).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤١٥) برقم (١٥٧٥٧، ١٦٠٦٩) بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٩٢) والطيالسي (١١٨٣) وأبو داود (٣٨٧١) والنسائي في المجتبى (٧/ ٢١٠) والحاكم (٤/ ٤١٠).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٨٣).

وفي رواية: فاحتضنه وسارَّه بشيء.

٨- وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: كان المسجد مسقوفًا على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجِذْع صوتًا كصوت العِشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت[1].

جريد النخل يسبِّح بحمد الله:

٩- في حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ بقبرين، فقال: **«إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»**، ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: **«لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا»**[2].

قال العلماء: **«ما لم ييبسا»**؛ لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما.

النمل يسبح بحمد الله:

١٠- وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة ﷺ: **«أن نبيًّا من الأنبياء قرصتْه نملة، فأمر بإحراق قرية النمل، فأوحى الله تعالى إليه: من أجل نملة واحدة، أحرقْت أمة تسبح بحمد الله؟»**[3].

الدود يكثر من ذكر الله:

١١- وفيما يروى عن داود ﷺ أنه رأى في محرابه دودة صغيرة تمشي، ففكر فيها، وقال: ما يعبأ الله بخلق هذه الدودة؟! يعني: ما فائدتها؟ أو نحو ذلك، فأنطق الله الدودة، وقالت يا داود: أتُعجبُك نفسُك على قدْرِ ما أنا فيه من صِغَر حَجْم، إني لأكثرُ ذِكْرًا وشُكرًا لله تعالى منك، على ما أنت فيه.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٨٥) وانظر: (٤٤٩).

(٢) البخاري برقم (٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٥) ومسلم برقم (٢٩٢).

(٣) البخاري في الجهاد برقم (٣٠١٩) ومسلم في السلام (٢٢٤١) وأبو داود في الأدب برقم (٥٢٦٦) والنسائي (٧/ ١٢٠) برقم (٤٣٦٩، ٤٣٧١) وابن ماجه في الصيد برقم (٣٢٢٥) وأبو الشيخ (١٢٠٣، ١٢٠٤).

الغراب يستنكر عدم التسبيح لله تعالى:

١٢-أُتى أبو بكر ﷺ بغراب وافر الجناحين، فجعل ينشر جناحيه، ويقول: ما صِيد من صيْد، ولا عضد من شجرة، إلا بما ضيَّع من التسبيح(١).

هذه أدلة وبراهين ثابتة في كتاب الله تعالى، وفي صحيح سُنَّة رسول الله ﷺ تبيِّن أن الكائنات جميعًا: ما له عقل منها، وما لا عقل له من: جماد، وحيوان، ونبات، وطير، وغيره، كلها يسبح بحمد الله ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ لأن تسبيحهم بغير لغتكم، وفوق مستوى فهمكم، والذي يعلم تسبيحهم هو خالقهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] فهو تسبيح حقيقي بلسان المقال.

والسور المسبحات في القرآن الكريم تنطق بأن العالم العلوي والسفلي يسبح بحمد الله.

ومنها: ما هو مفتتح بالفعل الماضي ﴿سَبَّحَ﴾.

ومنها ما هو مفتتح بالفعل المضارع ﴿يُسَبِّحُ﴾.

ومنها ما بُدئ بالمصدر ﴿سُبْحَٰنَ﴾.

ومنها ما بدأ بفعل الأمر ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾.

وكلها ناطقة بأن جميع الكائنات من يعقل منها، ومن لا يعقل، كلها تسبح بحمد الله.

ثم يختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ وفي هذا تعريض بالمشركين في قولهم: الملائكة بنات الله، وفي عبادتهم غير الله، وأنه سبحانه لو شاء لعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، ولكنه جلَّ شأنه عاملَهم بالحلم والإمهال، وفي هذا حث لهم على الإقلاع عما هم فيه؛ ليغفر الله لهم، فإن استمر العبد على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾(٢) [هود].

---

(١) أخرجه ابن راهويه في «مسنده» من طريق الزهري كما في «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٢٣٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٦٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٣).

وقال سبحانه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله تعالى تاب الله عليه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسُدُّ مَنَافِذَ الْهِدَايَةِ فِي وُجُوهِ أَهْلِ الضَّلَالِ

٤٥- ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ[١] ٱلْقُرْءَانَ[٢] جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾

ولما ذكر الله تعالى في صدر السورة أن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأتبع ذلك بجملة من هدايات القرآن في أصول العقيدة، وجوامع الأعمال، أشار هنا إلى عدم انتفاع الكفار بهذي القرآن؛ تنبيهًا لهم على وجوب إقلاعهم عن شركهم وعنادهم، فبيَّن ﷻ أن قلوبهم محجوبة عن إدراك معاني القرآن، وأنهم ينفرون منه عند سماعه.

وبيَّنت الآية أن الله تعالى يحجب رسوله ﷺ، ويستره عن أعين الكفار وهو يقرأ القرآن، فلا يرونه بأعينهم؛ حتى لا يصيبوه بأذى، وهذا الحجاب المستور له **معنيان**:

المعنى الأول: حجاب حسي، وهذا بالنسبة لمن كان يهمُّ بالإضرار بالنبي ﷺ بحيث لا تراه الأعين، وهذا هو ما تشير إليه هذه الآية، فتخبر أن الله تعالى يحمي نبيه من الكفرة الذين كانوا يؤذونه في وقت قراءته للقرآن، وفي صلاته في المسجد الحرام فيمدون أيديهم إليه بالأذى، فيحجبه الله عنهم، فلا يرونه وهو أمامهم.

والمعنى الآخر: حجاب معنوي، معناه: صَرْفُ قلوب الكفار عن تدبر القرآن، فلا يفهمون معانيه، وهذا ما تشير إليه الآية التي بعد هذه؛ فقد أخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه سبحانه يجعل بين الكفرة وبين فهمهم للقرآن حجابًا مستورًا عن أعين الخلق لا يدركه أحد برؤية، كسائر الحجب.

---

(١) أبدل همزة (قرأت) ألفًا أبو عمرو بخلف عنه، وأبو جعفر وصلا ووقفا وحمزة عند الوقف.

(٢) نقل حركة الهمزة إلى الراء قبلها من (القرآن) ابن كثير وصلًا ووقفًا وحمزة وقفًا.

وبالنسبة للمعنى الأول، فقد ثبتت أخبار كثيرة أن نفرًا همُّوا بقتل النبي ﷺ أو ضرْبه، وقد كفى الله نبيه شرهم، فقد نزلت هذه الآية بعد نزول سورة تَبَّتْ، وفي سورة (تَبَّتْ) حديث عن أبي لهب، وعن امرأته حمالة الحطب، وكانت العوراء أم جميل لما نزلت سورة (تَبَّتْ) أخذت في يدها فهرًا، يعني: حجرًا ضخمًا، وأقبلت على رسول الله ﷺ وهو يجلس إلى جوار أبي بكر في المسجد الحرام، ولما رآها أبو بكر ﷺ قال: إني أخاف عليك يا رسول الله، فقال ﷺ: **«إنها لن تراني»**[١].

وقرأ النبي ﷺ قُرآنًا اعتصم منها، ثم وقفتْ على رأسه، وقالت تذم النبي ﷺ وتعيبه:

مذمَّمًا عصيْنا... وأمْره أبينا... ودينه قلَيْنا.

وهي توجه الكلام إلى أبي بكر ﷺ، وهي لا ترى رسول الله ﷺ وهو أمامها يجلس إلى جوار أبي بكر، لقد أعمى الله بصرها عنه.

وفي رواية: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: **«جعل الله بيني وبينها ملَكًا»**، قالت: يا أبا بكر، إن صاحبك يهجوني، تعني: حين نزل ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ قال لها: إنه لا يهجوك، قالت: والله إني أريد أن أرضخ رأسه بهذا الحجر، والله إن قريشًا لتعلم أني بنت سيدها[٢]، وخرجت دون أن ترى النبي ﷺ.

ومن ذلك ما حدث ليلة الهجرة حيث قرأ النبي ﷺ ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس]

فأعمى الله أبصار المشركين عن رسول الله ﷺ.

والحجاب المستور: حجاب بالغ الغاية، في ستر ما يحجبه، كأنه مستور بستار آخر

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٥١١) عن ابن عباس، وأخرجه الحاكم (٢/ ٣٦١) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١/ ٥٣) برقم (٥٣) عن أسماء بنت أبي بكر، وحسنه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٧٣٨) عن ابن عباس، وصححه الحاكم (٢/ ٣٦١) ووافقه الذهبي والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٥) وأخرجه أبو نعيم (١٤١) والبزار والحميدي وابن أبي حاتم ويُنظَر: رواية سعيد بن جبر في «تفسير القرطبي» والبغوي وغيرهما للآية.

يحجبه، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

وفي آية أخرى قال المشركون للنبي ﷺ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

وخَصَّت الآية الذين لا يؤمنون بالآخرة بالذكر كامرأة أبي لهب، وغيرها؛ لأنهم هم الذين استبعدوا إعادة الخلق بعد الموت، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾؟

قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

حَجْبُ عُقُولِ الْكُفَّارِ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ

٤٦- ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ[1] وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ۝﴾

ثم بيَّن ﷻ النوع الآخر من الحجاب، وهو حَجْبُ عقول الكفار عن فهم القرآن؛ عقابًا لهم على كفرهم وعنادهم، فقد جعل الله تعالى بينهم وبين الرسول ﷺ حجابًا خفيًّا، وجعل على قلوبهم كالأغلفة، فلا تفقه القرآن، وجعل في آذانهم كالصمم فلا تعي ما فيه من توجيه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أغطية وأغشية تستر عقولهم؛ كي لا يفقهوا القرآن، وفي آذانهم وقر وثقل يمنع من السمع الذي تقوم به الحجة؛ فقد جعل الله على قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة أغطية، فهم يستمعون إلى القرآن فلا ينتفعون به، ولا يعملون بمقتضاه، بل يستخفُّون به ويستهزئون، وجُعِل في آذانهم صمم وثقل كأنهم لا يسمعون.

ورد أن النبي ﷺ طلب من علي ؓ أن يصنع وليمة، ويدعو إليها كبار المشركين، فدعاهم، ثم دخل عليهم النبي ﷺ، ودعاهم إلى توحيد الله سبحانه، وقرأ عليهم القرآن، فتحدث بعضهم إلى بعض سرًّا، وتناجَوْا قائلين: ما هذا إلا ساحر.

لقد كانوا ينفرون من القرآن؛ لأنه يهدد وضْعهم الاجتماعي الذي يقوم على أوهام الوثنية وتقليد الجاهلية، ودخل ملأ من قريش على أبي طالب يزورونه، فدخل عليهم

---

(١) وصل هاء (يفقهوه) بحرف مد، ابن كثير، وقصرها غيره.

رسول الله ﷺ، فقرأ عليهم القرآن، ومرَّ بآيات التوحيد، ثم قال: «**يا معشر قريش، قولوا: لا إله إلا الله، تملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم**»، فولَّوْا ونفروا، فنزلت هذه الآية[١] تصف حال من يفرون من التوحيد إلى الشرك، ونظير هذا ما جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط**»[٢].

إن إبليس وجنوده هم الذين يَضيقون بكلمة التوحيد، وينفرون منها، وإنما يعرفها أهل الإسلام، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون الذين إذا سمعوا ما يبطل آلهتهم ازدادوا ضلالًا ونفورًا، ذلكم قول تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ أي: إذا جاءت مواضع التوحيد وأنت تقرأ القرآن فرَّ المشركون هربًا من التوحيد، ومحبةً في الشرك، فهم يغضبون لعدم ذكر آلهتهم، فإذا ذكرت ربك -يا محمد- داعيًا إلى توحيده، وناهيًا عن الشرك، دون أن تَذْكُر معه آلهتهم المزعومة، كاللَّات والعُزَّى، وهُبل ومَناة انفضوا من حولك؛ لأنك ترفض آلهتهم وتنكرها، ورجعوا على أعقابهم نافرين من قولك استكبارًا واستعظامًا من أن يوحِّدوا الله تعالى في عبادته ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر]

فإذا ذُكِر الله وحده اشمأزت قلوبهم، ونفروا، وإذا ذكر معه غيره فرحوا، واستبشروا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر: ١٢]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٦٠).

(٢) صحيح البخاري (٦٠٨، ١٢٣١) وصحيح مسلم (٣٨٩) وسنن أبي داود برقم (٥١٦) وصحيح أبي داود (٤٨٥).

فَضْحُ أَسْرَارِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقُرْآنِ

٤٧- ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ[1] إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا[2]﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية السبب المانع من انتفاع المكذبين باليوم الآخر بسماع القرآن، وهو أن الله تعالى يعلم سوء مقاصدهم وأنهم يريدون أن يتصيّدوا ما يقدحون به في الإسلام ورسول الإسلام، وليس استماعهم للانتفاع وقبول الحق.

لقد كان المشركون يلتفون حول النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن في المسجد الحرام؛ ليتلقّفوا منه ما ينكرون؛ كتوحيد الله تعالى، وإثبات البعث بعد الموت، وكان تجمُّعهم؛ لاستماع قراءة النبي ﷺ، يثير تساؤلًا وتعجُّبًا، فكشف الله سبحانه عن سرائرهم، وأخبر بأنهم لا ينتفعون بهذي القرآن إذا تُلِي عليهم، وبيَّن جلَّ شأنه، السبب الذي من أجله يستمعون إلى القرآن، ففضحهم، وكشف عن مكنون صدورهم، فقال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ نحن نعلم الغاية التي يجلسون من أجلها حولك، وهي الاستهزاء، والسخرية، والاستخفاف ونعلم ما يسر به بعضهم إلى بعض ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ فليس استماعهم لأجل الاسترشاد، وقبول الحق، وإنما ليتناجَوْا سرًّا بينهم حيث يقولون ما تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أصابه السحر فاختلط عقله.

ومن ذلك أنه كان يقوم عن يمين النبي ﷺ رجلان من بني عبد الدار، وعن يساره رجلان منهم، فيصفِّقون، ويصفِّرون، ويخْلطون عليه بالأشعار إذا قرأ القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

فالمعنى: نحن على علم تام بأحوال المشركين عند استماعهم للقرآن حين تتلوه عليهم، ونعلم الطريقة التي يستمعون بها، ونعلم الغرض الذي يستمعون من أجله، ونحن على علم تام بهم حين يستمعون إليك وهم فرادى، وحين يتناجون بينهم بالإثم والعدوان، والتواصي بالمعصية، ويقولون: إنك مسحور ومجنون، هذا من جانب.

---

(١) أمال الألف من (نجوى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلفه.

(٢) كسر التنوين من (مسحورًا) حال وصلها بما بعدها حمزة وعاصم وأبو عمرو ويعقوب وابن ذكوان وضمه الباقون.

متى ندرك ذلك؟

ومن جانب آخر: فإن كبار قريش كانوا حين يستمعون إلى القرآن يجاهدون قلوبهم؛ حتى لا ترقَّ له، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به، فكانوا يتآمرون على عدم الاستماع إليه، فيغلبهم التأثر به، فيعاودون الاستماع إليه مرة بعد مرة، وكان بعضهم يفعل ذلك من وراء بعض، بما تمليه عليه فطرته، فإذا التقوا مصادفة عاتب بعضهم بعضًا على ذلك، وتعاهدوا على عدم العودة؛ ليحجزوا أنفسهم عن القرآن الذي يجذب القلوب والألباب، ولكن كِبْرِياءهم ينفِّرهم منه.

وهذه صورة ناطقة بهذا المعنى: **كبار المشركين**: أبو سفيان، وأبو جهل، والأخنس بن شريق يتسلل كل منهم ليلًا، خفية عن الآخر؛ ليستمع إلى القرآن، والنبي يصلي في الليل في بيته.

وكانوا يقاومون أنفسهم، ويجاهدون فطرتهم لئلَّا تميل إلى النبي ﷺ؛ حتى لا تتأثر بالقرآن وحلاوته.

وفي ليلة جلس كل منهم يستمع إلى القرآن في مكان لا يعلم به الآخر حتى طلع الفجر، ثم انصرفوا، والتقوا في الطريق، فلام بعضهم بعضًا؛ حتى لا يراهم الناس، فيتأثرون بهم، ويأتون محمدًا ﷺ، ويستمعون إليه، فأوصى بعضهم بعضًا بعدم العودة، وكرروا ذلك في الليلة الثانية، والليلة الثالثة، حتى أخذ كل منهم على الآخر عهدًا أن لا يأتي بعد ذلك، فأخذ الأخنس في الصباح عصاه، وذهب إلى أبي سفيان، وقال له: يا أبا حنظلة، ما رأيك فيما سمعت من محمد، قال: سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء لا أعرفها ولا أعرف ما يراد بها، فتركه وذهب إلى أبي جهل، وقال: يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف على الشرف وتنافسنا، أعطوا فأعطينا، وحَمَلُوا فحَملْنا، وأطْعموا فأطعمنا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكَب وكُنَّا كفَرسيْ رهان، يعني: متساويين، فقال بنو عبد مناف: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، قال أبو جهل: فمتى ندرك هذه؟ أي: متى يكون منا نبي أيضًا يوحَى إليه من السماء؛ حتى نكون مثلهم؟ والله لا نُصدِّق به أبدًا، فقام عنه الأخنس وتركه[1].

---

(١) تنظر القصة في «سيرة ابن هشام» (١/ ٣١٥) والبيهقي في «دلائل النبوة» عن الزهري (٢/ ٢٠٦).

فالمسألة إذًا ليست مسألة تكذيب لرسول الله ﷺ إنما هي عناد ومكابرة، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] وهذه الآية تدل على أن الله تعالى سيجازي الكفار بما يستحقون من عقاب، وهي تشمل كل شقي مكذب بالقرآن، وبخاتم الأنبياء إلى قيام الساعة. قال تعالى:

٤٨- ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

تأمل وانظر كيف كانوا يتظاهرون بالاستماع إلى القرآن من رسول الله ﷺ، ويتناجون فيما بينهم؟! فقد بلغ بهم الجحود أن ذكروه بعدة أوصاف، فضربوا له الأوصاف والأمثال، وقالوا: إنه ساحر، وإنه كاهن، وإنه شاعر، وغير ذلك، يقول سبحانه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ مرة شاعر، ومرة كاهن، ومرة مجنون، وقد حكم الله عليهم بالضلال، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة الذي قال: إنه ساحر ﴿فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يستطيعون سبيلًا لإفساد دعوتك، وإطفاء نورك، وليس لديهم فهمٌ صحيح يؤدي إلى الإيمان بك، وبدعوتك.

رَدُّ شُبُهَاتِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٤٩- ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا[1] كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا[2] لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن التوحيد، وعن الوحي، وعن الرسالة، أتبعت ذلك بالحديث عن البعث، والحساب، والجزاء، وردَّت على شبهات المشركين والمكذبين في ذلك، وهذه الثلاثة (التوحيد، والرسالة، والبعث) هي عناصر القرآن المكي.

والإيمان بالبعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار، جزء من عقيدة المسلم، وركن من أركان إيمانه، ومنكر ذلك كافر بالله تعالى كفرًا يخرج من الملة، وقد جاءت بذلك الشرائع السماوية جميعًا، والكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يستبعدون أن يبعث الله سبحانه الخلائق بعد موتهم، ويحشرهم، ويحاسبهم.

---

(١) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر بهمزتين في (أئذا) على الاستفهام، وهمزة واحدة في (إنا) على الخبر، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر بعكس هذه القراءة، أي: بالإخبار في الأول، والاستفهام في الثاني، وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما، وكل على أصله فيما بين الهمزتين من التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

وفي عهد النبي ﷺ جاء العاص بن وائل -وهو نموذج لأهل الشرك والكفر والضلال، والملحدين المنكرين للبعث والنشور- جاء وفي يده عظم قد بُلِي ورُمَّ يفتّته بين أصابعه، ويقول: يا محمد، أترى أن الله يبعث هذا بعدما بلي ورُمَّ؟ قال ﷺ: **«نعم، ويبعثك، ويدخلك النار»**.

وأنزل الله في ذلك قرآنًا يُتلَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[يس].

والآية التي معنا من سورة الإسراء تتحدث عن هذا المعنى، وتبيِّن مقولة الكفار والمشركين في التعجب من البعث بعد الموت وإنكاره واستبعاده ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا﴾ أي: إذا كنا ترابًا وحطامًا، وعظمًا باليًا، وتحللت أجسامنا، واختلطت بالتراب ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟ أنُبعَث مرة ثانية؟ أي: قال المشركون المنكرون لوحدانية الله تعالى، ولنبوة محمد ﷺ، وللبعث والحساب على سبيل الإنكار والاستبعاد: أئذا بليت عظامنا، وتفتت أجزاؤنا، وصرنا كالتراب في تفتيته ودقته، أئنا لمبعوثون يوم القيامة بعثًا جديدًا، فتعود أرواحنا، وتدب فينا الحياة مرة ثانية؟ ونظير ذلك ما حكاه الله عنهم في قوله: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات].

وقوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وقولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق]. وقد أمر الله رسوله أن يقول للمكذبين باليوم الآخر:

٥٠، ٥١- ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ[1] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾

يقول الله سبحانه مجيبًا للمكذبين بالبعث والنشور: كونوا أيَّ شيء أصْلب وأشد وأقوى

(١) قرأ أبو جعفر بإظهار النون وإخفائها من (فسينغضون)، والباقون بإظهارها.

من الإنسان المكون من العظم واللحم، كونوا أيَّ مادة أبعد عن وجود الحياة فيها من العظام والرفات، كونوا ما شئتم -إن استطعتم ذلك- وهذا على سبيل التعجيز والتحدي، وإلا فهم لا يملكون أن يكونوا شيئًا من ذلك، كونوا حجارة، أو كونوا أشد من الحجارة، كالحديد؛ أو كونوا أعظم من الحديد وأشد منه، مما يُستبعد قبوله للبعث عندكم، كونوا من أي خلْق يعظُم في نفوسكم، وتتصورون أنه لا يقبل الحياة بحال، كونوا الموت نفسه، كونوا ذهبًا أو فضة، أو خلقًا آخر أشد وأصلب من الحديد؛ فإن قدرة الله لا يستعصي عليها شيء، فلو كنتم حجارة، أو حديدا لأحياكم الله بعد هلاككم.

فالله الذي خلقكم أول مرة قادر على إعادتكم مرة ثانية، وكل هذا يستوي عنده سبحانه، ولا يعجزه أن يُنفِذ فيكم مشيئته، ولن تسْلَمو من أن تنالكم قدرة الله تعالى، ولن يفيدكم هذا الإنكار: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾؟ من يردنا إلى الحياة بعد الموت؟ ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم بيَّن سبحانه موقف الملاحدة في كل زمان ومكان وهم يهزؤون، ويسخرون من البعث والنشور، فيخبر سبحانه أنهم عند سماعهم هذا الرد يهزُّون رؤوسهم ساخرين متعجبين ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يعني: يحركونها من أعلى إلى أسفل استهزاءً وسخرية ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾؟ متى هذا اليوم الذي يكون فيه البعث؟ يقولون ذلك على وجه الاستبعاد، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يس].

وقال ﷻ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨] يقول سبحانه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي تأتيكم الساعة بغتة بأمر ﴿كُن﴾ فإذا هم من بطن الأرض إلى ظهرها، وكل آتٍ قريب، كما قال ﷺ: «**بُعِثت أنا والساعة كهاتين**»[1] وأشار بالسبابة والوسطى، وعلمها عند رب العالمين، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) من حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٠) و«صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٤).

الاسْتِجَابَةُ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقْتَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥٢-﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

ويكون البعث في يوم المحشر والمنشر، يوم يناديكم ربكم وخالقكم للخروج من القبور، بواسطة الملائكة الذين يسوقون الناس إلى المحشر، فتَحْيَوْن وتَمْثُلون للحساب، بعد أن كنتم عظامًا ورفاتًا، فتستجيبون لأمر الله، وتنقادون له، والداعي هو إسرافيل عندما يأذن الله له بالنفخ في الصور، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم].

وقال سبحانه: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق].

قال مقاتل: ينادي إسرافيل في أرض المحشر من فوق صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، والعروق المتقطعة: اخرجوا إلى فصل القضاء؛ لِتُجزَوْا بأعمالكم، فيسمعون النداء، ويستجيبون له.

وقال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم وألسنتهم تلهج بحمد الله سبحانه، يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور والحساب والجزاء، وينفخ في الصور﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: وتقومون من قبوركم تنفُضون التراب عن رؤوسكم، وأنتم مسبِّحون بحمد الله، وتلهجون بذكره وتظنون أنكم ما لبثتم في قبوركم ولا في الدنيا إلا يومًا أو بعض يوم، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

وقال أيضًا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ﴾ [الروم: ٥٥].

ومن ذلك قصة أهل الكهف، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وكذا المجرمون حين يقومون من قبورهم، ومن خفت موازينهم، هؤلاء جميعًا حين يُسألون يوم القيامة عن المدة التي مكثوها في قبورهم، أو عمَّروها في الدنيا، كما ذكر القرآن عن

هؤلاء جميعًا فيقال لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾؟ فيكون جوابهم ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وفي آية أخرى ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤].

وهذه المدة طالت، أو قصرت هي قليلة بالنسبة لأيام الله، كما قال تعالى:
﴿قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وقد وصف الله تعالى حال الناس عند خروجهم للبعث والجزاء بمثل قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق]،

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس].

وهم في هذا اليوم يستحقرون مدة الدنيا ويستقلُّونها، وهكذا تُطوى الدنيا، فإذا هي لمحة مرَّت، وعَهْدٌ زال، وظِلٌّ تحوَّل، ومتاع قليل ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل] ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر]

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ

٥٣- ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

وبعد أن أمر الله رسوله أن يرد شبهات المكذبين بالبعث والنشور، أمره أن يبلِّغ المؤمنين أدبًا ينفعهم في تبليغ الدعوة، وفي حياتهم الخاصة والعامة، وذلك أن المسلمين في دعوتهم لأهل الضلال والإلحاد والكفر؛ كي يؤمنوا بالله سبحانه ويوحدوه، ويؤمنوا بالنبي الخاتم ﷺ وبالكتاب الذي نزل عليه، ويؤمنوا باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، يَلْقَوْن من غيرهم الأذى، والعنَت، والمشقة، حدث هذا في عهد رسول الله ﷺ وقت أن نزلت هذه الآيات، ويحدث أيضًا على مدار الزمن.

والمسلمون مكلفون أن يقوموا بدعوة محمد ﷺ وأن يبلِّغوا هذه الدعوة إلى جميع ملل الكفر والإلحاد، مهما لاقَوْا في سبيل ذلك ما يُلاَقونه من الأذى، وعليهم أن يصبروا عليه

كما صبر أصحاب رسول الله ﷺ.

والله جلَّ شأنه يعلمنا في هذه الآية، أدب الدعوة، وأدب الحوار، وأدب الحديث مع أنفسنا، ومع بعضنا البعض، المسلم مع المسلم، والمسلم مع غير المسلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ أي: أنه بالكلمة الطيبة يصبح العدو ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

قال الحسن البصري: ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ لا يقول له مثل قوله، بل يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك.

فالآية تأمر المؤمنين أن يقولوا الكلمة الطيبة، فيحسنوا الأدب، ويخفضوا الجناح، ويُلِينُوا القول، ويطرحوا نزغات الشيطان، أما الكلمة الشديدة المنفِّرة فإنها تغرس في صدر الآخرين العداوة، والحقد، والبغضاء، والشيطان ينزغ في قلوبهم الخصام، والفساد، ومن هنا أمر الله عباده أن يحسنوا إلى غيرهم في أقوالهم؛ فالكلمة الطيبة صدقة: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟﴾ في حوارهم، ودعوتهم ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من الكلام الحسن الطيب، الذي يُعرب عن حُسْن النية، والنفس الزكية؛ لأن الكلام يعبِّر عن المقاصد، ومن هنا وجبت مراقبة اللسان وما يصدر عنه، وعدم الاستخفاف بالكلمة النابية، ولو كانت مزاحًا، وفي الآية أمر بكل كلام يقرب إلى الله تعالى، من قراءة وذكر وعلم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، فينبغي على المسلمين تحري الكلمة سِيَّمَا في دعوتهم لغير المسلمين، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] بحيث يترفقون بهم في عرض الأدلة، وأسلوب الدعوة، وفي بسط ما يتعلق بالبعث والنشور، ونحو ذلك.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ فيجدُّ ويجتهد، ويحرص حين تخرج الكلمة النابية؛ ليوغر بها الصدور بين المسلمين وغيرهم، وبين المسلمين بعضهم مع بعض ليفسد عليهم دينهم ودنياهم ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ظاهر العداوة، يدعو أصحابه ليكونوا منه أصحاب السعير.

وقد نهى النبي ﷺ عن أن يشير المسلم إلى أخيه، أو جليسه بسلاح أو حديدة في يده؛ فإن الشيطان قد ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار:

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يشيرنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده، فيقع في حفرة من نار**»[١].

وصح في الحديث: عن معاذ بن جبل ﷺ أن النبي ﷺ أمره بأعمال تدخله الجنة، ثم قال له: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «**كف عليك هذا**»، قال: قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»[٢].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالًا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يَهْوي بها في جهنم**»[٣].

وروى الكلبي أن المشركين في بدء الدعوة كانوا يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل، فأنزل الله هذه الآية[٤].

وقيل: نزلت هذه الآية في عمر ﷺ شتمه بعض الكفار، فأمره الله بالعفو[٥].

ونزْغ الشيطان وعداوته قديمة منذ بدء الخليقة مع أبينا آدم ﷺ ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر] فهو حريص على الإفساد بين الناس يتربص بهم، ويتلمس السقطات التي تخرج من أفواههم، والعثرات التي تنطق

(١) «المسند» (٢/ ٣١٧) والبخاري برقم (٧٠٧٢) ومسلم برقم (٢٦١٧).

(٢) منْ حديث معاذ بن جبل في «الترمذي» (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) و«المسند» (٥/ ٢٣١)، برقم (٢٢٠١٦) وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده كما قال محققوه، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف (٢٠٣٠٣) وعبد بن حميد (١١٢) والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤).

(٣) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٦٤٧٨) وهذا لفظه و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٨) مختصرًا.

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ص (٢٤٣) و«زاد المسير» (٥/ ٤٦).

(٥) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٧٦).

بها ألسنتهم؛ لكي يبذر بذور الشر والبغضاء بينهم، ولذا حذرنا الله سبحانه منه أشد تحذير فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] فإن لم يأخذوا حذرهم منه، ألقى بينهم العداوة والفساد والخصام، فهو ظاهر العداوة يوسوس لأوليائه بالشر ليحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه. قال تعالى:

٥٤- ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ[1] يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ[1] يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾

يبيِّن الله سبحانه لخلقه جميعًا، لا سيَّما الكفرة الملحدين، أنهم في قبضة الله تعالى، وتحت قهره وتصرفه؛ ليكون هذا زاجرًا لهم عما هم فيه من الكفر والإلحاد ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ من أنفسكم، فهو محيط بكم، وبأحوالكم، وأعلم بدخائل نفوسكم، وأعلم بما يناسب حالكم من أسباب الرحمة أو العذاب، فيوفقكم للإيمان والهداية، أو للكفر والضلال فلا يأمركم إلا بخير، ولا ينهاكم إلا عن شر ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ بالتوفيق للإيمان ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ فيميتكم على الكفر والعصيان، وهو سبحانه أعلم بأسباب الهداية وأسباب الضلال، وما يوافق أحوالكم، ولكنه جلَّ شأنه يترككم إلى أنفسكم، وإلى محض اختياركم؛ حتى لا تكونوا مسيَّرين؛ كالملائكة، أو الحيوانات، فإن لكم عقولًا تميزون بها، وفيكم شهوة تنازع عقولكم.

وقد بيَّن الله لكم طريقي الحق والضلال في كتبه، وعلى ألسنة رسله، ولو شاء سبحانه لجمعكم على الهدى، ولكنه جلَّ شأنه لا يُسأل عما يفعل، فإن شاء رحم وإن شاء عذب، والرسل لا يَجْبُرون الناس على الإيمان، ومهمتهم هي البلاغ، فمن أطاعهم دخل الجنة ومن عصاهم دخل النار، وقد أرسلناك داعيًا إلى الله، ولست رقيبًا عليهم ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ تحفظ أعمالَهم - يا محمد - وتتكفل بهم، وتقسرهم على الإيمان، وإنما أنت بشير ونذير.

والآية تخاطب كل مَن عاند وأصر على الكفر، ولم يستجب للكلمة الطيبة.

---

(١) قرأ أبو جعفر والأصبهاني بإبدال همزة (يشأ) ألفًا وصلا ووقفا ومثلهما حمزة وهشام عند الوقف عليها.

عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ وَشَامِلٌ

٥٥- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ(١) عَلَىٰ بَعْضٖۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا(٢)﴾

يبيِّن الله سبحانه شمول علمه، وإحاطته بخلقه، وسعة علمه بهم، ومن علمه تعالى أن الرسالة والنبوة لا تكون إلا في عظماء الناس وخيارهم، وهو سبحانه أعلم بمن يستحق الرسالة من خلق الله تعالى، وبمن هو أهلٌ لها؛ فاعتراضكم - أيها المكذبون - على رسالة محمد ﷺ ليس في محله؛ فمحمد ﷺ ليس بدعًا من الرسل.

والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولذا اختار محمدًا ﷺ؛ ليكون خاتم الرسل، وفضَّله على غيره، والله أعلم بجميع خلقه، يفضل بعضهم على بعض، ويعطي كلا منهم ما يستحق حسب حكمته، ومن ذلك تفضيل بعض النبيين على بعض.

وهذه الجملة من الآية مقدِّمة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٖۖ﴾ فهو سبحانه أعلم باختيار محمد ﷺ رسولًا لكم، ومن سعة علمه سبحانه أن فضَّل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وفضَّل بعض الرسل على بعض، فلا تنكروا أمر محمد ﷺ وفضله.

وكان المشركون يقولون: أبعث الله بشرًا رسولًا، أبعث الله يتيم أبي طالب رسولًا، فردَّ الله عليهم بهذه الآية، وبيّن سبحانه أنه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو الذي فضَّل بعض النبيين على بعض، بحسب علمه الشامل لكل ما في الكون، ومنه التفاضل بينهم؛ فإدريس، رفعه الله مكانًا عليًّا، وإبراهيم، خليل الرحمن، وموسى، كليم الله، وعيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وآتى الله سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود الحكمة وفصْل الخطاب، وأسرى برسوله محمد، واصطفاه وقرَّبه، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

---

(١) قرأ نافع بالهمز في (النبيين) مع المد المتصل، وثلاثة أوجه البدل لورش، والباقون بياء مشددة.

(٢) قرأ (زُبُورًا) بضم الزاي حمزة وخلف العاشر، وقرأ الباقون بالفتح، وهما لغتان في اسم الكتاب المنزل على سيدنا داود عليه السلام.

نبي الله داود ﷺ:

ولما قال اليهود: لا نبي بعد موسى، وقالوا: لا كتاب بعد التوراة، رد الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ولما ذكر الله سبحانه أنه فضَّل بعض النبيين على بعض خص داود بالذكر؛ لأن داود وسليمان، أُرسلا في بني إسرائيل من بعد موسى، واليهود اليوم يريدون إقامة معبد سليمان أو هيكله المزعوم، فهذا هو داود، وهذا هو سليمان أرسلهما الله فيكم يا معشر يهود، وأنتم تنكرون النبوة بعد موسى ﷺ، وهذا هو الكتاب المنزَّل على داود (الزبور) فيه مئة وخمسون سورة، أو مئة وخمسون خطبة، كل خطبة أو سورة فيه، يقال لها: مزمور، ويسمى في العهد القديم: كتاب المزامير.

والزبور كتاب دعاء، وثناء، وتمجيد، وتحميد لله سبحانه، وفيه الحكمة وفصْل الخطاب، وليس فيه حلال ولا حرام، وليس فيه أحكام ولا تشريعات، فهو يعتمد على التوراة قبله.

وفي الآية الأخرى من سورة الأنبياء: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾.

أي: من بعد اللوح المحفوظ ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهذه الأرض هي أرض بيت المقدس، أرض المسجد الأقصى، وهي تصدُق على أرض الله كلها، لبيان أن الصالحين من عباد الله هم الذين يرثون الأرض، ويُعمِّرونها، ويكونون سادة عليها.

قال أهل العلم: إن في هذه الآية إشارة إلى أن هذه الأمة، لها الكلمة الأخيرة، وأن الله سبحانه، سينصرها حتمًا على اليهود، وعلى غيرهم، وأنهم سيرثون أرض بيت المقدس والمسجد الأقصى إلى يوم القيامة إن شاء الله، مهما حدث من اليهود عُلُوًّا وتكَبُّرًا في حِقْبة من الزمان، ووَعْدُ الله تعالى لا يتخلف.

وهذه بشرى تزفها هذه الآية للمسلمين، وأنهم يرثون أرض المحشر والمنشر، وتكون في أيديهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا: وقد أعطى الله داود النبوة والملك، فلم يذكره بصفته مَلِكًا، بل ذكره بصفته نبيًّا أنزل عليه كتابًا، وبالنبوة يكون التفضيل لا بالملك، والمال، والجاه.

وأيضًا: فإن الله تعالى كتب في الزبور: محمد خاتم الأنبياء، وأمته خير الأمم، وهو ما ذكره القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ ولذا: خُص داود بالذكر دون سواه.

وفي تخصيص داود بالذكر رد على من قالوا: أبعث الله يتيم أبي طالب رسولًا، ومَن قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ وذلك لأن داود عليه السلام كان راعي غنم، ذا قوة في الرمي، فأمر الله ملك بني إسرائيل، شاول ،أن يختار داود عليه السلام لمحاربة جالوت الكنعاني، فلما قَتَل داود جالوت آتاه الله النبوة والملك، وفي هذا إشارة إلى أن اختيار الأنبياء لا يكون عن وراثة، ولا عن عظمة سابقة ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**خُفِّف على داود القراءة، فكان يأمر بدابته لِتُسْرَج، فكان يقرأ قبل أن يفرغ**»[١] أي: يقرأ التوراة والزبور.

وهذا التفضيل بين الأنبياء، يكون من الله تعالى، وإخباره عن ذلك يكون على لسان رسله، ولا خلاف في أن الرسل أفضل من الأنبياء، وأن أولي العزم من الرسل، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، أفضل من غيرهم، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

فجاء ذكر أولي العزم الخمسة من الرسل في هذه الآية.

وقال أيضًا: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فجاء ذكرهم أيضًا في هذه الآية.

قال قتادة: اتخذ الله إبراهيم خليلًا، وكلم موسى تكليمًا، وجعل عيسى كمثل آدم، ثم قال له: كن فكان، وهو عبد الله ورسوله خُلِق من كلمة الله وروحه.

وآتى سليمان ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وآتى داود زبورًا، وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٢].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٧٣، ٣٤٧١٣).

(٢) ابن جرير (١٤/ ٦٢٥).

ولا خلاف في أن محمدًا ﷺ أفضل الرسل أجمعين، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ويُحمَلُ قول النبي ﷺ: «**لا تفضِّلوا بين أنبياء الله**»[1] على أن التفضيل يكون لله تعالى لا إليكم؛ حتى لا تتعصب كل أمة لرسولها، ولا يفضلون بغير دليل.

الْفَرْقُ بَيْنَ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَدَعْوَةِ الْبَاطِلِ

٥٦- ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟[2] ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾

قل - أيها الرسول - لمن يدعون غير الله: ادعوا آلهتكم، وانظروا هل يدفعون عنكم الضر، أويجلبون لكم النفع؟ فإذا كانوا لا يملكون شيئا من ذلك فلأي شيء تدعونهم من دون الله؟

وهكذا: بيَّن سبحانه الفرق بين دعوة الحق التي جاء بها الرسل الذين فضل الله بعضهم على بعض، وبين دعوة الباطل التي يعبدها المشركون، وهي عبادة غير الله تعالى في كل زمان ومكان، كما جاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف].

وبعد أن أبطل الله تعالى آلهة المشركين بالبرهان العقلي في قوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢] أبطل آلهتهم هنا بالبرهان الحسي، فبيَّن سبحانه في هذه الآية أن هذه الآلهة التي تنادونها -أيها المشركون- لِكشْف الضر عنكم، لا تملك رفع البلاء عنكم، ولا تقدر على تحويله إلى غيركم، ولا تقدر على تغييره من حال إلى حال، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه، كما قال تعالى:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ].

وهذه الآية عامة في كل ما يُدْعى من دون الله، من: الأولياء، والصالحين، وغيرهم ممن يُستغاث بهم، ويُطلب المدد منهم، ويُتقرب بهم إلى الله تعالى، فلا واسطة بين

---

(١) من حديث طويل أخرجه البخاري برقم (٢٤١١، ٣٤١٤) ومسلم برقم (٢٣٧٣) عن أبي هريرة ﷺ.

(٢) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بكسر اللام وصلًا من (قل ادعوا)، وضمها غيرهم.

الخالق والمخلوق، يستوي في ذلك من عبدوا عزيرًا، والمسيح وأمه، ومن عبدوا الملائكة، أو الشياطين، أو الكواكب، أو البقر، أو الأصنام.

ثم إن الذين تعبدونهم من دون الله في شغل شاغل عنكم، فهم مهتمون بافتقارهم إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه:

التَّوَسُّلُ الْمَمْنُوعُ وَالْمَشْرُوعُ

٥٧- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ[١] أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾

أي إن الذين تدعونهم من دون الله، من الأنبياء والأولياء والصالحين والملائكة، يتنافسون في القرب من ربهم، ويجتنبون كل ما يوصلهم إلى عذاب الله عز وجل، فإن عذاب الله ينبغي شدة الحذر منه.

ثم إن هذه السورة تغرس العقيدة الصحيحة في نفوس البشر، وتخاطب أهل الشرك والضلال في هذا الصدد، فهي سورة مكية، وكان المشركون -ولا يزالون- يقولون: إننا ملطخون بالذنوب والمعاصي، ولسنا أهلًا لأن نعبد الله تعالى مباشرة، أو نسأله مباشرة، فهناك عباد أقرب منا إلى الله، دعوتهم مستجابة، وسؤالهم مستجاب، ولذلك فإنه ينبغي علينا أن نتقرب إليهم؛ فإنهم يقربونا إلى الله، هكذا يقول بعض الناس في وقتنا، وهكذا قال المشركون في عهد النبي ﷺ.

وفي سبب نزول هذه الآية: أن نفرًا من قبيلة خزاعة عبدوا نفرًا من الجن فأسلم الجن، وبقي هؤلاء النفر من العرب يعبدون الجن بعد أن أسلموا وهم لا يشعرون بهم[٢].

والله سبحانه يوبخ مَن يعبدون غير الله تعالى حيث يقول: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم وصلًا من (ربهم الوسيلة) وحمزة والكسائي وخلف بضمهما، والباقون بكسر الهاء وضم الميم، وعند الوقف على (ربهم) كلهم يكسر الهاء ويسكن الميم.

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٤٧١٤، ٤٧١٥) ومسلم (٣٠٣٠) من حديث سليمان بن مهران الأعمى عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود، وأخرجه عبد الرزاق (١/ ٣٧٩) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٢٣، ١١٢٢٥) والطبراني في الكبير (٩٠٧٧) وغيرهم.

شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان].

ويقول: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؟ [الزمر: ٣٨] فهم لا يملكون كشف الضر عنكم، ولا أن يغيِّروا أوضاعكم من حال إلى حال، أولئك الذين يدعونهم؛ من الأولياء والصالحين الذين ماتوا أو الأحياء، أو الملائكة، أو المسيح، أو عزير، أو الجن، أو غيرهم، ممن عبدوا النجوم، والشمس والقمر، والأصنام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الذين يعبدونهم الناس من دون الله ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هم أنفسهم يتقربون إلى الله، ويبحثون عما يوصلهم إلى الله، ويتوسلون إليه بما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، ويتنافسون في القرب من ربهم، كل منهم يطمع في رحمة الله، ويخشى عذابه، وقد وصفهم ربهم بمحبتهم لله ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ إليه، ووصَفَهُم بالخشية، وبالخوف والرجاء ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ يخافه الملَك، ويخافه الإنسان، ويخافه النبي، والولي، والصالح،وكل عبدٍ من عبادالله يخاف‌عذاب الله يوم لقائه،**والتوسل‌المشروع على نوعين:**

النوع الأول: والآية تشير إلى التوسل الممنوع والمشروع، والتوسل المشروع الذي لا خلاف فيه، وليس فيه شبهة، هو التوسل بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلا، يتوسل فيه العبد إلى ربه بأسمائه الحسنى، كأنْ يقول: اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تغفر لي، ويطلب ما يشاء.

النوع الثاني من التوسل: أن يتوسل العبد إلى الله سبحانه بعمله الصالح، أي: بصلاته وصيامه، وقيامه الليل، وبتلاوته للقرآن، وبره لوالديه، ونحو ذلك من العمل الصالح الذي يقدمه لنفسه، يتوسل به إلى الله سبحانه أن يقضي له حاجاته، أو أن يغفر له ذنبه، كما في حديث الثلاثة الذين آواهم الغار، وتوسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم الصالحة، فكشف الله عنهم الغمة.

هذان النوعان من التوسل، لا جدال في جوازهما، ولا شبهة عند أحد فيهما، فلا ينبغي للمسلم أن يفعل ما فيه شبهة، ويترك ما هو متفق عليه.

والتوسل بالنبي ﷺ: في حياته مشروع كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]

أما التوسل به بعد مماته فهو محل خلاف، وفيه كلام لأهل العلم، فإذا كان التوسل بالنبي ﷺ بعد مماته موضع خلاف، فما بالكم بغيره من الأولياء والصالحين؟

وطلب المسلم من أخيه المسلم أن يدعو له بظهر الغيب، ليس من باب التوسل، وهو أمر مشروع، ولا علاقة له بالتوسل الممنوع.

والآية تشير إلى أن رسل الله وأنبياءه، ممن فضَّل الله بعضهم على بعض، هم الذين إن دعوا ربهم يستجب لهم، ويكشف الضر عنهم، وليسوا كالذين يدعوهم المشركون من الأحياء أو الأموات بلفظ الاستغاثة، أو الاستعانة، أو المدد، أو الدعاء؛ فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم بأنفسهم، ولا بشفاعتهم عند الله تعالى.

وأنبياء الله ورسله، وملائكته، والصالحون من عباده، يتنافسون في القرب من الله تعالى بما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، وهم يأملون رحمة الله، ويخافون عذابه، ومع قربهم من الله تعالى فإنهم لا يزدادون إلا إجلالًا له، وخوفًا من غضبه؛ فعذاب الله تعالى شديد يجب على العباد أن يحذروه، ويخافوه.

عِقَابُ الأُمَمِ المُكَذِّبَةِ لِرُسُلِ اللهِ تَعَالَى

٥٨- ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾

أي وما من قرية من القرى المكذبة لرسل الله، إلا ولا بد أن يصيبها الله بهلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، وهذا اقضاء مبرم لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله والرجوع إليه.

ولما خُتِمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ وكان في هذا تهديد لمكذبي الرسل، فقد بيَّن سبحانه في هذه الآية أنه ما من قرية ظالمة كافرة بالله ورسله إلا سينزل بها عقاب الله بالهلاك في الدنيا قبل يوم القيامة، وذلك يكون بالموت والفناء، أو بالقحط والجدب، أو بالخسف والغرق، أو بالفتن والحروب، أو بالوباء والبلاء، أو بالذل والأسر، أو بالخراب والدمار، أو باستئصال شأفتها وقطع دابرها، وهذا أمر مُسطَّر في اللوح المحفوظ، كتبه ربنا، وقضاه وأبرمه، فلابد من وقوعه؛ وذلك بسبب ذنوبهم

وخطاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

والمراد بالقرية في الآية: كل قرية أو مدينة كفرت بالله، وكذبت رسل الله في أي زمان، وفي أي مكان، وهذا ما تنطق به الآيات الأخرى، كقوله تعالى:

١ وقوله- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود].

٢-وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام].

٣- وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

٤- وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

٥- وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

٦- وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق].

٧- وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد].

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تحدد أن هذا الاستئصال، أو العذاب يكون في الدنيا، وهذا يخص الأمم المكذبة لرسل الله، أما هلاك يوم القيامة، لانتهاء عمر الدنيا، فهو هلاك عام، يشمل المؤمنين والكفار، ويشمل الخلق جميعًا وَفْق سُنَّة الله تعالى في فناء كل حادث، فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن تقوم الساعة، وما على وجه - هذه الأرض - أحد من الأحياء.

فيموت الخلق جميعًا، وتفنى الأمم والحضارات، بما في ذلك أهل المدن الكبرى، أو القرى الصغرى؛ حيث تقوم الساعة وما على وجه الأرض أحد من الأحياء، وتكون الأمم الكافرة السابقة، قد أهلكها الله في الدنيا بالاستئصال، وعذَّبها عذابًا شديدًا، كما حدث لقوم: نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، الذين كذبوا رسل الله؛ فأبادهم الله سبحانه واستأصلهم؛ بسبب تكذيبهم لأنبياء الله.

فما من قرية من هذه القرى الظالمة إلا أهلكها الله وأبادها قبل قيام الساعة.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: أمرًا محكمًا ومقدرًا وثابتًا في علم الله سبحانه.

ومعلوم أن عذاب الاستئصال قد رفعه الله تعالى عن الأمم التي أنزل الله فيها كتبًا على ألسنة رسله، فهو خاص بالأمم التي كانت قبل أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال].

خَوَارِقُ الْعَادَاتِ لَا تَنْفَعُ طَالِبِيهَا

٥٩- ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أنه أمهل المتمردين على الإسلام من هذه الأمة إلى يوم القيامة، ولم يجبهم إلى ما طلبوا من الآيات، وكانت الأقوام من سائر الأمم -قبل أمة محمد ﷺ- يطلبون من رسلهم آيات مادية: كالعصا، والناقة، وإحياء الموتى؛ لتكون علامة لهم على صدق الرسل، فيؤيد الله رسله بهذه الآيات، ثم يكذبون بها، فتكون النتيجة أن الله سبحانه يهلكهم؛ لأنه لا لعب، ولا سخرية، ولا استهزاء مع الله سبحانه، ومن رحمة الله بهذه الأمة ألَّا يجيبهم إلى إنزال الآيات التي اقترحوها، خوفًا من تكذيبهم لها، فإن كذَّبوها عاجلهم الله بالعقوبة.

كذلك الشأن في أهل مكة، سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم جبل الصفا ذهبًا، وأن يزيل جبال مكة عن أماكنها؛ كي تتسع الأرض للزراعة، فأوحى الله سبحانه إلى رسوله ﷺ: إن شاء أجاب مطلبهم، فيجعل الجبل ذهبًا، ويُنَحّي هذه الجبال عن أماكنها، ولكنهم إذا لم يؤمنوا فإن عذاب الله نازل بهم كغيرهم، وإن شاء أمهلهم؛ فإنه يُرجَى منهم ومن ذرياتهم الإيمان.

قال ابن عباس ﷺ: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن

يُنحّيَ عنهم الجبال فيزْدَرِعُوا، قال الله ﷻ: **«إن شئت أتيناهم ما سألوا، فإن كفروا أهْلكوا كما أُهلِكَ مَن قبلَهم، وإن شئت نستأني بهم، لعلنا نَنْتِجُ منهم»** فقال: **«بل أستأني بهم»** فأنزل الله هذه الآية[١].

وقال ابن عباس أيضًا: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن لك، قال: **«وتفعلون؟»** قالوا: نعم، فدعاه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهبًا، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة، قال: **«بل باب التوبة والرحمة»**[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: المعجزات الحسية ﴿إِلَّآ﴾ بسبب ﴿أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ من الأمم السابقة، والآيات التي يطلبونها هي الخوارق.

ومعجزة محمد ﷺ هي القرآن؛ لأن رسالة محمد ﷺ باقية إلى يوم الساعة، ومعجزة الرسالة المستمرة، ينبغي أن تكون باقية بين أيديهم إلى نهاية العالم، معجزة عامة ودائمة، كعموم الرسالة ودوامها.

أما الرسالات السابقة، فكانت محدودة بزمان ومكان، يناسبها المعجزات المادية التي يراها جيل من الأجيال، أو يراها أهل زمن من الأزمان، أو أهل مكان من الأمكنة، ثم تذهب هذه المعجزة، ولا يطلع عليها الآخرون، أما القرآن فهو بين أيدينا إلى قيام الساعة.

ثم ضرب الله مثلًا على هذه الآيات الحسية، فقال: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ أي: آية واضحة دالة على صدق نبيهم صالح ﵇ حين طلبوا ذلك منه ﴿فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾ أي: عقروا الناقة فعاقبهم الله تعالى كما قال: ﴿فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ۝٤٥﴾ [الذاريات].

---

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١١٢٢٦) والبزار (٢٢٢٥) في «الزوائد» والحاكم (٢/ ٣٦٢) و«المسند» (٢٣٣٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أيضًا الطبراني في «الكبير» (١٢٧٣٦) والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٧١) والضياء المقدسي في «المختارة» (١٠/ ٧٨) والطبري (١٤/ ٦٣٥).

(٢) «المسند» (٢١٦٦) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٧٢) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه عبد بن حميد (٧٠٠) والطبراني (١٢٧٣٦).

قال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ يخوف الله بها المكذبين بآيات الله، والمكذبين لرسل الله، يخوفهم من نزول العذاب بهم؛ حتى ينزجروا، ويدخلوا في حظيرة الإيمان، وليست هذه الآيات لحصول الإيمان، أو تصديق الرسل، بل هي للتخويف والترهيب.

وخص الله تعالى بالذكر ناقة صالح عليه السلام؛ لأنها مشهورة عند العرب، وهي من أعظم الآيات الحسية، وآثار هلاك قوم ثمود في بلاد العرب يمرون عليها في أسفارهم بين المدينة والشام، وهي معجزة واضحة الدلالة تفيد اليقين، وتجعل من يراها ذا بصيرة، كما قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ [النمل].

والمعنى: وما كان سبب تركنا لإجابة المقترحات التي طلبها المشركون منك -يا محمد- إلا لعلمنا بأنهم سيكذِّبون بهذه المقترحات إذا جاءتهم، كما كذَّب بها من سبقهم من الأمم، فقد أجاب الله قوم صالح لَمَّا طلبوا الناقة فأيده الله بها، ولكنهم لم يؤمنوا، فأخذهم عذاب الاستئصال.

وما إرسال الرسل بالمعجزات والعبر والآيات، إلا تخويفًا للعباد؛ ليعتبروا، ويتعظوا.

ولو أجاب الله كفار قريش لِمَا طلبوه من النبي ﷺ لكذَّبوه، وقالوا: هذا سحر مبين، واستوجبوا بذلك عذاب الاستئصال، وقد أراد الله تعالى أن يمهل المكذبين من هذه الأمة إلى يوم القيامة، وأخبر سبحانه أنه لا جدوى من تلبية ما يطلبون، فهي لا تنشيء إيمانًا، ولا تهدى ضالًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام].

وهذه الآية وأشباهها تثبيت لفؤاد المؤمنين؛ لئلا يفتنهم الشيطان كما فتن غيرهم، وفيها تسلية للنبي ﷺ لحرصه على إيمان قومه.

إِحَاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى بِمَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ يَكْفُرُ

٦٠-﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا[1] الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

وفي هذه الآية يبيِّن الله ﷻ أن علمه محيط بجميع خلقه، محيط بأولهم وآخرهم، ومن هذه الإحاطة: حفظه ﷺ، ومنعه من الكفار أن يقتلوه، أو يناله منهم مكروه، فقد عصمه الله منهم؛ كي يبلِّغ دعوة ربه.

قال الحسن: **أحاط بالناس**: عصمك من الناس، وقد علم ﷻ أن المكذبين من أمة محمد ﷺ لن يؤمنوا به، ولا برسالته مهما أتاهم من الآيات، أو الخوارق، والمعجزات، فيطمْئِن الله سبحانه رسوله ﷺ، ويقول له: امض في طريق الدعوة، فنحن ناصروك، ونحن عاصموك من أن يقتلوك، أو تمتد أيديهم إليك بأذى حتى تبلِّغ رسالة ربك، ولا تهتم بمن كفر منهم، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله تعالى محيط بهم ومالِكُ أمرهم، وهم في قبضة الله تعالى، فاذكر - أيها النبي - يوم أوحى الله إليك، بأنه أحاط بالناس علما وقدرة، فليس لهم ملجأ إلا الله، وليس لهم ملاذًا يلوذون به إلا الله.

ثم ذكرت الآية أمران افتتن بهما الناس وكثر شرهما، وهما:

١- ما أطلع الله عليه رسوله ليلة المعراج، من عجائب المخلوقات، ليظهر المصدق من المكذب.

٢- وما ذكره الله في القرآن عن شجرة الزقوم الملعونة في كتاب الله، امتحانًا للعباد وتخويفًا للكفار، ومع ذلك فلا يزيدهم هذا التخويف إلا إمعانًا في الكفر والعصيان، وهذا من إحاطة علم الله تعالى بشؤون خلقه، وتحت تصرفه.

رؤيا الرسول ﷺ ليلة المعراج:

وقد بيَّن الله ﷻ في هذه الآية أن الرؤيا التي أُريها رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج -حيث رأى من آيات ربه الكبرى- هي رؤيا عين.

---

(١) أبدل همزة (الرؤيا) واوًا أبو عمرو بخلف عنه، وقرأ أبو جعفر بياء مشددة بعد الراء هكذا (الرُّيَّا) والباقون بهمزة ساكنة، ووقف حمزة كالسوسي وأبي جعفر.

كما جاء في صحيح البخاري وغيره: عن ابن عباس ﷺ قال: هي رؤية عين رآها رسول الله ﷺ ليلة أسري به[١] من الرؤية البصرية، وليست من رؤيا المنام، أي: أن ما أطْلع الله عليه رسوله، وأراه إياه، من عجائب المُلْك والملكوت، ومن الجنة والنار في ليلة المعراج، وما رآه النبي ﷺ حال الإسراء من مكة إلى بيت المقدس، كانت كلها رؤية عين بصرية، وكان إسراءً ومعراجًا لرسول الله ﷺ بجسمه وروحه، يقظة لا منامًا، وأن هذه الرؤية كانت بلاء وفتنة للناس، واختبارًا لهم؛ ليتميز الكافر من المؤمن، فمنهم من آمن وصدق، وازداد إيمانه وثبت يقينه، ومنهم من كفر وارتد وكذب، وازداد الكافرون كفرًا، ومنهم من ضعُف إيمانه وارتاب.

فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر[٢].

قال قتادة: أرى الله رسوله من الآيات والعبر في مسيره إلى بيت المقدس، وذَكَر لنا أن ناسًا ارتدوا بعد إسلامهم، بعد أن حدَّثهم رسول الله ﷺ بمسيره، أنكروا ذلك وكذَّبوا به، وعجبوا منه، وقالوا: تحدثنا أنك سِرْتَ شهرين في ليلة واحدة[٣].

وقال الحسن: لَمَّا أُسري برسول الله ﷺ أصبح يحدِّث بذلك فكذب به أناس، فأنزل الله فيمن ارتد ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾[٤].

وكان النبي ﷺ قد أخبر أنه رأى الجنة والنار، ورأي نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار، ورأى شجرة الزقوم طعام الكافرين المكذبين في النار، والعياذ بالله.

وقيل: إن المراد بالرؤيا في الآية: رؤيا رسول الله ﷺ أنه يدخل مكة، فافتتن بعض من أسلموا لمَّا صُدَّ عنها، فلما كان العام المقبل دخلها، ومن ذلك أن النبي ﷺ رأى في

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٨٨٨، ٤٧١٦) وقال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٠٢) زاد سعيد بن منصور عن سفيان في آخر الحديث (وليست رؤيا منام) قلت: وقد جاء هذا في رواية عبد الرزاق (١/ ٣٨٠) وغيره، وقال الطبري في التفسير (١٥/ ١١٣): عُني به رؤيا رسول الله، ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسرى به، ونقل الإجماع على هذا المعنى.

(٢) ابن سعد (١/ ٢١٣).

(٣) الطبري (١٤/ ٦٤٣).

(٤) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٩٩) والطبري (١٤/ ٦٤٢).

منامه مصارع كفار قريش في غزوة بدر، فقيل له: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، فتحققت رؤيا النبي ﷺ.

والراجح من ذلك هو ما يتعلق بالإسراء والمعراج فهو المناسب لموضوع السورة وجوِّها، ولأن الإسراء كان في مكة، والسورة مكية.

الشجرة الملعونة: ولمَّا ذكر ﷺ شجرة الزقوم كان في ذلك أيضًا فتنة وابتلاء للناس، فمنهم من آمن وصدق، ومنهم من كذب وجحد.

ومنهم أبو جهل قال حين سمع ذلك: إن محمدًا يتوعَّدكم بنار تحرق الحجارة، ويزعم أن في النار شجرة نابتة، وكيف تنبت الشجرة في النار، والنار تأكل الشجر؟ ثم ما الزقوم الذي يخوفكم به محمد ﷺ؟ قال أحد المشركين، وهو عبد الله بن الزبعري: إنه التمر بالزبد، بلغة أهل اليمن، قال أبو جهل: ائتِ لنا يا جارية، بتمر وزُبد نتزقَّم، ونأكل مما يعدنا به محمد ﷺ، فأتت لهم بتمر وزبد، وأخذ أبو جهل يقول لمن حوله: تزقَّموا، وكلوا من هذا الذي يخوفكم به محمد(١).

وشجرة الزقوم ليست ملعونة في ذاتها، وإنما الملعون من يأكل منها، فقد لُعنت شجرة الزقوم، ولُعن الكفار الذين يأكلونها، على أن **اللعن**: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، وقد جُعلت شجرة الزقوم في أبعد مكان من الرحمة، وهو أصل جهنم وقعرها، وهذا معنى ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ أي: المذمومة ﴿فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾.

صحَّ عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال: الزقوم، قال: وذلك أن المشركين قالوا: يخبرنا محمد أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، ولا تدع منه شيئًا، فذلك فتنة لهم، ولما سمع الكفار عن هذه الشجرة قالوا: ظهر كذب محمد؛ لأن الشجر لا ينبت في الأرض اليابسة، فكيف ينبت في أصل النار؟! فكان ذلك فتنة للظالمين.

وفي حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار**

---

(١) يُنظَر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٦٢) والبيهقي (٥٩٨) والطبري (١٤/ ٦٤٨) عن ابن عباس.

الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟!»[1].

وقد جاء وصفها في قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾[الصافات]

أي: أنها تنبت في قعر جهنم، قال الله سبحانه ذلك تنفيرًا، وتخويفًا للمكذبين من الأمة.

ثم وصفها ربنا بقوله: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ﴾ أي: أهل النار ﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٥، ٦٦] فلا يأكلون مجرد أكل أو تذوق، إنما يملؤون بطونهم منها، ثم إذا امتلأت البطون وصارت ملتهبة، فإنهم يريدون أن يطفئوا هذا اللهيب فيغاثون ﴿بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الواقعة] أي: شرب الإبل، وهي عطشى حين ترد الماء، يقول سبحانه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة].

ويبيِّن الله جلَّ شأنه وصف شجرة الزقوم أيضًا في قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي الظالم الكافر ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾ أدخلوه ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي إلى وسط النار ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ يُقال له تذوق عذاب أهل النار، فقد كنت في الدنيا معززا مكرَّما في قومك، صاحب منزلة عالية ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٣- ٤٩] يقال له هذا تهكمًا به، وبمصيره الأخروي يوم لقاء رب العالمين.

والله سبحانه يخوِّف عباده بشجرة الزقوم، ويخوِّفهم بأنواع العذاب والآيات، ولكن هذا التخويف لا يزيد الطغاة والمتكبرين إلا طغيانًا أكبر ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ هذا التخويف إلا علوًّا واستكبارًا ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾.

---

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح، «السنن» برقم (٢٥٨٥) وابن ماجه برقم (٤٣٢٥) وصححه ابن حبان برقم (٧٤٧٠) الإحسان، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٢٩٤). وهو في مسند أحمد (٢٧٣٥، ٣١٣٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وعند الطيالسي (٢٦٤٣) والطبراني (١١٠٦٨) والبغوي في شرح السنة (٤٤٠٨).

ومما خوَّف الله به المشركين وقت نزول هذه الآيات: القحط، والجدب، والجوع الذي أصاب أهل مكة حتى رأوا الدخان بين السماء والأرض، وسألوا الله أن يكشف عنهم فقالوا: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الدخان].

قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الدخان].

تَكَبُّرُ الشَّيْطَانِ وَتَصَدِّيهِ لِإغْوَاءِ بَنِي آدَمَ

٦١-﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[1] ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ[2] لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾

ثم ما السبب في هذا الطغيان من الكافر؟ وما السبب في هذا الضلال؟ السبب: هو الكِبْر، والعناد، والحسد، الذي عانى منه الأنبياء قبلك يا محمد، من لدن آدم ﷺ.

فمعصية الكبر والحسد وقعتا أوَّلًا من إبليس حين حسد آدم الذي فضله الله عليه وأمره بالسجود له، وجاء ذكر هذه القصة مفصلة في سور: (البقرة، والأعراف، والحجر، و ص)، وأُشير إليها هنا في سورة (الإسراء)، وفي سورة (الكهف).

والله سبحانه يبيِّن سبب الغواية، وسبب استيلاء الشيطان على الكافر المتمرد على ربه سبحانه في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟﴾ سجود تحية وتكريم، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس فقد أبى، وامتنع.

وقد خوطب إبليس مع الملائكة؛ لأنه كان يقيم معهم، فوُجِّه الأمر والخطاب إليهم جميعًا ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ فقد عقد مفاضلة بينه وبين العنصر الذي خُلق منه آدم ﴿قَالَ﴾ على سبيل الاستنكار والاستكبار: أأسجد لهذا المخلوق الضعيف الذي خلقْته من طين؟! ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؟ وقد خلقتني من النار، والنار أفضل من الطين في زعمه ﴿قَالَ

---

(١) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بضم التاء من (للملائكة اسجدوا) وصلًا، وقرأ ابن وردان في وجهه الثاني بإشمام كسرتها للضم، والباقون بكسر التاء، والجميع يسكنها عند الوقف.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر وابن ذكوان بخلف عنه بتسهيل الهمزة الثانية من (أأسجد) مع إدخال ألف بينهما، وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل وعدم الإدخال، ويبدل ورش الهمزة الثانية حرف مد مع الإشباع، ولهشام التسهيل والتحقيق مع الإدخال، والباقون بالتحقيق وعدم الإدخال.

أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

وهذا قياس باطل، ولما تبيّن لإبليس تفضيل الله لآدم، توعّد ذريته بالغواية والإضلال:

٦٢- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ[1] هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ[2] إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾

فصَّل، سبحانه، ما قاله إبليس في اعتراضه على السجود لآدم ﴿قَالَ﴾ إبليس مخاطبًا ربه ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أخبرني عن هذا الذي كرمته، وفضلته، وميزته عليَّ وأنا خير منه، ثم أقسم وأخذ على نفسه عهدًا، وقال: لئن أمهلتني، وأخرت أجلي، ولم تقبض روحي إلى يوم القيامة لأُضِلَنَّ ذريته، ولأغوينهم، وهذا معنى ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ أي: لأستأصلنَّ، وأستولينَّ على ذريته فأجلبهم، وأُغويهم، وأفسدهم، وكان إبليس قد سأل ربه النظرة إلى يوم البعث؛ ليستمر في إغواء بني آدم، فأنظره الله إلى وقت انتهاء أعمار الخلائق، وفناء العالم.

وأصل **الاحتناك**: وضع اللجام في حنك الفرس؛ ليشده الراكب، ويجلبه إليه، ويسيِّره حسبما أراد.

وخص الذرية بالذكر، إشارة إلى امتداد الإغواء واستمراره من إبليس لذرية آدم من بعده، في احتوائهم، وملك زمامهم، والتأثير عليهم، إلا القلة المخلصة من عبادك الذين لا سبيل لي عليهم؛ بسبب قوة إيمانهم، وقوة إخلاصهم لله سبحانه، وتحصنهم صباح مساء من الشيطان ومن كيده.

وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

وجاء تهديد إبليس وتوعُّده بالاستيلاء على ذرية آدم، وإغوائهم بالمعاصي والشهوات في آيات كثيرة، منها قوله تعالى على لسان إبليس:

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

وقد تحقق ظن إبليس في كثير من بني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ]. قال تعالى في الرد على إبليس:

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية بَيْنَ بَيْنَ من (أرأيتك)، ولورش إبدالها ألفًا مع المد المشبع وسهلها حمزة وقفًا وقرأ الكسائي بحذف الهمزة هكذا (أريتك) وأثبتها الآخرون محققة.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (أخرتن) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين، ومن يثبت الياء يسكنها.

٦٣- ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾

﴿قَالَ﴾ سبحانه مهددًا إبليس وأتباعه ﴿ٱذْهَبْ﴾ أي: امضِ في الطريق الذي اخترته لنفسك ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: فإن من أطاعك واتبعك من ذرية آدم، فإن عقابك، أنت وهو، عقاب وافر في نار جهنم، تُجْزَوْن فيها جزاء كاملًا وافيًا لا ينقص منه شيء، والنار فيها العقاب الكامل للعصاة المذنبين، والطغاة المتجبرين، الخارجين على أمر رب العالمين، فقد أذنتُ لك في إغوائهم بعد أن زوَّدتهم بالعقل والإرادة، وبيَّنتُ لهم الخير والشر، وهم يملكون أن يتبعوك، أو يُعرضوا عنك، فمن غلَّب منهم جانب الغواية على جانب الهداية، وآثر نداء الشيطان على نداء الرحمن، فهو أهل للعقوبة، ومن غلَّب نداء العقل على الهوى فهو من عبادنا المخلصين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص]، وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء]. ثم أمر الله إبليس أن يفعل كل ما في وسعه لإغواء بني آدم فقال:

خَمْسٌ مِنْ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ

٦٤-﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ[1] وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾

وبعد أن بيَّن الله تعالى أن جهنم هي العقاب المعدُّ لإبليس، ومن تبعه من بني آدم، استدرج ﷻ إبليس بمعاصٍ خمس، يستخدمها في طرق كيده، وجلْبِه للإنسان بأن يفعل ما يستطيع فِعْله معهم من: الاستخفاف، والخداع، والإزعاج، ولهو الحديث، وكل ما يقْدر عليه من طرق ووسائل بأن يحشد لهم جنوده على اختلاف أنواعهم؛ لحربهم وإغوائهم وصدِّهم عن الصراط المستقيم.

وهذه الأمور الخمسة هي: اذهب، واستفزز. . ، وأجلب. . ، وشاركهم. . ، وعدهم.

(أ) **فالذهاب**، المراد به: الاستمرار والمضيُّ قُدمًا فيما نواه الشيطان من إغواء بني

---

(١) قرأ حفص بكسر الجيم من (ورجِلك) على أنها صفة مشبهة بمعنى: راجل ضد الراكب، وقرأ الباقون بإسكان الجيم، على أنها اسم جمع لراجل.

آدم، ممن اختاروك واتبعوك كما مرَّ في الآية السابقة.

(ب) **والاستفزاز**: هو الخفة، وعدم التثاقل، والإزعاج، لمن يتْبعه منهم بدعوته للمعصية، وإلقاء الوسوسة في أنفسهم، وإشغالهم بلهو الحديث وصوت الشيطان، ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

(ج) ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: اجمع عليهم كل ما تقْدر عليه من جنودك من كل راكب وماشٍ في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والجلبة: هي الصياح للنفير أو للغارة والهجوم، والدعوة إلى معصية الله بالأقوال والأفعال.

والخيل: اسم جمع للفرس، وليس له واحد من لفظه، ومنه قول النبي ﷺ: «**يا خيل الله اركبي**»[١].

أي: أجلب عليهم بجندك، من خيَّالة ورجَّالة، وابذل جهدك في صرفهم عن الطاعة.

أما (**الرَّجل**): فهو الماشي على قدميه، مقابل الراكب على فرسه.

والمعنى: اجمع لمن اتبعك من ذرية آدم وسائل الفتنة والوسوسة؛ لإضلالهم بتزيين المفاسد، وتحيُّن المعاصي.

(د) أما المشاركة في الأموال، فيكون بجمعها من حرام، أو إنفاقها في حرام، أو منع الزكاة منها، أو الإسراف بها في المباح. . ، ونحو ذلك، ويدخل في هذا، كل معصية تعلَّقتْ بالأموال، كمنع الحقوق الواجبة، وعدم الوفاء بالكفارات والنذور ونحوهما.

والمشاركة في الأولاد: بأن يكون للشيطان نصيب في أحوال أولادهم؛ فكل مولود عُصي الله تعالى فيه بلَوْن من ألوان المعاصي، فإن الشيطان يكون قد شارك فيه، وفي مقدمة ذلك: الزنى بأمِّه، أو إجهاضه، أو قتله، أو وأْده.

ومن ذلك ترك التسمية والدعاء عند الجماع، كما جاء في الصحيحين: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنِّبنا الشيطان وجنِّب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يُقدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبدًا**»[٢].

---

(١) رواه ابن عائذ عن قتادة مرسلًا كما في فتح الباري (٧/ ٤١٣).

(٢) البخاري برقم (١٤١، ٣٢٧١، ٣٢٨٣، ٧٣٩٦) ومسلم برقم (١٤٣٤).

قيل: إن الشيطان يقعد وقت الجماع على ذَكَرِ الرجُل، فإذا لم يقل: بسم الله، أصاب معه امرأته، وأنزل في فرجها كما يُنْزِل الرجل.

وسأل رجل ابن عباس ﷺ فقال: إن امرأتي استيقظت وفي فرجها شعلة نار، قال: ذلك من وطء الجن.

ومن ذلك ترك التسمية عند الطعام والشراب، فإن الشيطان يقول في هذه الحالة: أدركنا العشاء، فإذا دخل الإنسان بيته ولم يُسَمِّ قال: أدركنا المبيت والعشاء، فإذا سَمَّ العبد في الحالتين، قال الشيطان لمن معه: لا مبيت لكم ولا عشاء.

ومن مشاركة الشيطان في الأولاد: سوء التربية، وعدم تحصينهم من التيارات الجارفة التي تصرف الإنسان عن دينه.

جاء في الحديث القدسي: **«إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتْهم عن دينهم، وحَرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم»**[١].

ومن ذلك الشرك بالله تعالى في تسمية الأبناء؛ كمن يسمي ولده (عبد النبي)، أو (عبد الرسول)، أو (عبد الحسن)، أو (عبد العُزَّى)، أو (عبد شمس)، أو (عبد الحارث)، ونحو ذلك.

ومن ذلك: تربية الأبناء من مال حرام، أو عن طريق مخالفة أوامر الله تعالى بمختلف وسائل الفسق والفجور، فكل ما عُصي الله به أو فيه، وأُطيع به الشيطان أو فيه، فهو مشاركة للشيطان في المال والولد.

ومعنى ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: أعطهم المواعيد المزيفة التي لا حقيقة لها، بحصول ما يرغبونه من الشهوات في دنياهم، ومن ذلك: أنه ليس هناك بعث، ولا حساب، ولا عقاب.

وكل داعٍ يدعو إلى معصية الله، هو صوت الشيطان واستفزازه، والقرآن يصور في هذه الآية كأن هناك معركة ومبارزة بين إبليس وبين ذرية آدم، تتمثل في الأصوات المرتفعة والمنخفضة، والماشي والراكب، وأنواع المبارزة بالخيل غيره.

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٨٦٥) عن عياض بن حمار.

يقول تعالى لإبليس: لقد أنظرتك فابذل جهدك فيهم، استخِفَّ من استطعت منهم بصوتك، والمراد: صوت الشيطان حين ينادي بالمعصية، وينفِّر من الطاعة، وإيثار اللذة العاجلة: وهو راكب، وهو ماش، وهو بطيء، وهو سريع، استخدمْ الوسائل المتاحة لك في كل طريق ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٧] وفي كل اتجاه، وكل خطوة يخطوها الإنسان إلى المعصية سواء أكان راكبًا أم ماشيًا فهي خيل الشيطان وطريقه، وهذا معنى ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾.

قال بعض أهل العلم: إن صوت الشيطان المراد في الآية: هو الغناء، والمزمار، والموسيقى.

قال مجاهد: استنزلْ من استطعت منهم بالغناء، والمزامير، واللهو الباطل[1] والشيطان يعد الإنسان، ويمنيه بالباطل؛ فهو يعدهم أنه لا جنة، ولا نار، ويمنيهم باللذة العاجلة المؤقتة التي تصحب المعصية في الدنيا ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فيجعلهم يُفضِّلون الدنيا، ويؤثرون الفانية على الآخرة.

وقال تعالى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٨]

وفي يوم القيامة يتبرأ الشيطان من إغوائه للإنسان، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

ووعْد الشيطان كله غرور وباطل، كوعْده لبعض الناس أنْ يشفع لهم عند الله، ويقربهم منه، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ١٢٠﴾ [النساء] وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

والغَرور بفتح الغين: وصف للشيطان، أما **الغُرور** بضم الغين: فهو وصف للمتكبر المغتر بنفسه. ولما أخبر سبحانه عما يريد الشيطان أن يفعله بالعباد، ذكر ما يُعتصم به من فتنته، وهو تحقيق العبودية لله تعالى، والقيام بالإيمان به والتوكل عليه فقال:

---

(١) ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (٧٣) والطبري (١٤/ ٦٥٧).

٦٥- ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

قال سبحانه مستثنيًا عباده الصالحين من تأثير الشيطان عليهم، وإغوائه لهم: إن عبادي المؤمنين المخلصين الذين أطاعوني ليس لك قدرة على إغوائهم، كما قال ﷺ عن عمر ﷺ: «**والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطان سالكًا فجًا قَطُّ إلا سلك فجًا غير فجِّك**»[١] فإذا أذنبوا ذنبًا، واستغفروا غفره الله لهم.

وقال ﷺ في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «**وإياي إلا أن الله قد أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير**»[٢] أي: حتى أسلمَ قرين النبي ﷺ، وصار زمامه، وأمره بيد الرسول ﷺ، ليس له عليه سلطان، وكذلك عباد الله المخلصين في كل زمان وفي كل مكان، وهذا على رواية فتح الميم، من (أسلمَ)، وفي رواية بضم الميم، أي: أسلمُ أنا من شره.

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

أخرج البخاري، وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم -إذا هو نام- ثلاث عقد، يضرب كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإذا صلى انحلت عقدهُ كلها، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**»[٣].

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضُراط؛ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى النداء أقبل، حتى إذا ثُوِّب بالصلاة أدبر، حتى إذا قَضى التَّثويب أقبل، حتى يخْطِر بين المرء ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى**»[٤].

---

(١) من حديث طويل عن سعد بن أبي وقاص في «البخاري» (٣٦٨٣) ومسلم (٢٣٩٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٤) وانظر: (٢٨١٥) وابن حبان (٦٤١٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٢، ٣٢٦٩) و«صحيح مسلم» (٧٧٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٠٨، ١٢٢٢، ٣٢٨٥) و«صحيح مسلم» برقم (٨٢، ٣٨٩).

وقد وجَّه الله عباده في نهاية الآية إلى تفويض الأمر إليه سبحانه، والاعتصام بجنابه من وساوس الشيطان ونزغاته، وكفى به سبحانه وكيلًا، وحفيظًا، وعاصمًا، من كيد الشيطان ومكره.

لَا يُنْجِي فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ إِلَّا اللَّهُ

٦٦- ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾

يضرب الله ﷻ لنا مثلًا بنعمة واحدة من نعمه العظيمة التي لا تُعدُّ ولا تحصى؛ وهي نعمة تسخير السفن والفلك والمراكب، وإلهام الإنسان كيفية صنعها وقيادتها في البحر متلاطم الأمواج، إذ كيف تنسوْن ربكم؟ وكيف تتبعون غواية الشيطان، وهو الذي خلقكم وصوركم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، ورزقكم من الطيبات، وسخر لكم ما في البر والبحر والجو؟! ومن ذلك أنه تعالى يسوق لكم السفن في البحر حين تمشي بالوقود، أو بالطاقة؛ فإن الهواء والريح هو العامل المؤثر في سيرها، والله هو الذي سيرها في البحار والمحيطات للأسفار وللتجارة والحروب؛ لتنقلوا بضائعكم، وأساطيلكم في عابرات القارات والمحيطات، فربكم -أيها الناس- هو الذي يسوق لكم السفن في البحار؛ لتطلبوا رزق الله في أسفاركم وتجاراتكم.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس]

وقال: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]

ومن منافع السفن: طلب الأرزاق، والحج، والجهاد، والسياحة، وغير ذلك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث يسَّر لكم هذه المنافع، والمصالح، والمقصد من ذلك هو الاعتبار، وشكر المنعم سبحانه، فلا تعبدوا غيره؛ إذ لا يملك هذه القدرة إلا رب العالمين. قال تعالى:

٦٧- ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا﴾

وبعد الامتنان على الإنسان، بحفظ السفن في البحر، يأتي الامتنان عليه بحفظ الإنسان، ورعايته، في هيَجان البحر وارتفاع أمواجه، فيضرب الله المثل للإنسان وهو في

حالة الخوف والاضطراب، حين يقع في ضيق وكرب، وهو في عُرْض البحر، فإنه يتجه إلى الله سبحانه، ويتعرف عليه وحده في شدته، مع أن مشركي الزمان الأول كانوا يعرفون ربهم في الشدة والرخاء، ومشركو اليوم يعرفون الله تعالى في الشدة فحسب، فإذا جاء وقت الرخاء نسُوه، ونسوا ما كانوا فيه ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي: إذا أشرفتم على الهلاك، والغرق، واشتدت عليكم الريح، وغَشِيَتْكُم أمواج البحر كالجبال، وكنتم بين الخوف والرجاء، فإنه لا يخطر ببالكم غير الله وحده في هذه الحالة، ولا تلجؤون إلا إليه، ولا تدْعون إلا هو؛ فهو القادر على إعانتكم ونجاتكم، وجميع الآلهة التي تتقربون بها، أو تدعونها، وتعبدونها من دون الله تغيب عنكم في هذه اللحظات، فلا تسألون إلا الله، وهذا معنى ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي أنكم إذا مسكم الضر في البحر، وخفتم من الهلاك، لِتراكُمِ الأمواج واضطرابها، غاب عن أذهانكم، وخواطركم، كل ما يعبد من دون الله، وأنتم في هذه الحالة لا تدعون غير الله؛ لعلمكم أنه لا ينجِّي إلا الله، فأخلصوا له وحده العبادة والدعاء.

هذا: ولما فتح النبي ﷺ مكة، وأصدر عفوًا عامًّا عن أعدائه، كبُر على عكرمة بن أبي جهل أن يبقى بمكة، ففر هاربًا وخرج من مكة، وركب البحر متوجِّهًا إلى الحبشة، فاضطربت السفينة بالقوم في البحر وفيهم عكرمة، وأشرفوا على الهلاك والغرق، فقال القوم بعضهم لبعض: لا ينجيكم إلا الله، ادعوا الله، واسألوه أن ينجيكم مما أنتم فيه.

قال عكرمة: والله لئن كان الله وحده هو الذي ينفع في البحر؛ فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهمَّ لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه، لأذهبنَّ فأضَعنَّ يدي في يدي محمد ﷺ فلأجدنَّه رؤوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فأجاب دعاءكم، وكشف عنكم الضر ونجَّاكم، وخرجتم من هذا الضيق، ومن الكرب الذي أنتم فيه نسيتم ما كنتم فيه و﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان والإخلاص، ورجعتم إلى الكفر، والشرك بالله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ جحودًا لنعم الله عليه.

١- وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت].

٢- وقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم

مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان].

٣- وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر].

٤- وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].

٥- وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام].

٦- وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ [يونس].

وذلك لأن شكر النعمة متوقف على ذكرها، فإذا غطَّت الشواغل على تذكُّر النعم، وغاب ذكرها عن الحواس، أذهله ذلك عن شكرها، والقيام بواجبها، ولكنه يذكُرها عند فقدها، كما قالوا: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

ولعل هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت].

وهكذا فإن الإنسان كفور للنعم، إلا من هدى الله، فمنّ عليه بالعقل السليم، واهتدى إلى صراطه المستقيم، فإنه يعلم أن الذي يكشف عنه الشدائد وينجيه من الأهوال، هو الذي يستحق العبادة دون سواه، أما من خذله الله، ووكله إلى عقله الضعيف، فإنه إذا كشف الله عنه الضر، نسى ما كان يدعو إليه من قبل، وأشرك مع الله من لا ينفع ولا يضر، ولا يعطي ولا يمنع، وهذا من الجهل وعمي البصيرة.

جَمِيعُ الْخَلْقِ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُمْ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ أَوْ الْجَوِّ

٦٨- ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ(١) بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾

ثم بيَّن سبحانه أن قدرته تعالى لا يعجزها شيء، لا في البر، ولا في البحر، ولا غيرهما، ولذا: خوَّف الله عباده بقدرته العظيمة حين ينزل بهم بأسه وعقابه، أن يحل بهم عذاب الله من فوقهم أو من تحت أرجلهم، إذا استمروا في كفرهم وجحودهم، ومن هنا وجب على الإنسان أن يتذكر أيام الله وتداولها بين الناس؛ حتى يذكُر النعمة، ويتعاهد شكرها والقيام بواجبها، فإن من آداب النفس: تذكيرها دائمًا بنعم الله تعالى عليها؛ لأن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، فالناس في قبضة الله تعالى في البر، كما هم في قبضته في البحر والجو، فكيف يأمنون أن يخسف الله بهم جانب البر بزلزال، أو بركان، أو بغيرهما، فتنْهارُ بهم الأرض خسفًا، أو يُمْطِرهم الله بحجارة من السماء فتقتلهم، ثم لا يجدون أحدًا يحفظهم، ويمنعهم من عذاب الله تعالى؟

فالله سبحانه يبيِّن أن البر، والبحر، والجو، في قبضته تعالى وتحت تصرفه، فالذي أنجاهم من البحر قادر على أن يخسف بهم ساحل البحر من جانب البر الذي خرجوا إليه، ووقفوا فوقه.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ حين نجوتم من البحر - أيها المعرضون الناسون وقت الشدة - أنكم في قبضة الله تعالى في جميع أحوالكم وتقلّباتكم؟ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل]

فلا تأمنوا ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ أي: المكان الذي خرجتم فوقه من ساحل البحر.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بنون العظمة في هذه الأفعال الخمسة من هذه الآية والتي بعدها (أن يخسف، ويرسل، أن يعيدكم، فيرسل، فيغرقكم)، على الالتفات من الغيبة إلى التكلم، وقرأ أبو جعفر ورويس بتاء التأنيث في (فتغرقكم) بإسناد الضمير للريح، والباقون بياء الغيبة في الأفعال الخمسة على أن الفاعل ضمير يعود على (ربكم) في (ربكم الذي يزجي). وشدّد ابن وردان الراء من (فتغرقكم) بخلْفٍ عنه من طريق الدُّرَّة.

والخسف: انقلاب ظاهر الأرض في باطنها من الزلازل.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا تحمل الحجارة، والحصباء، فتُمطِركم كقوم لوط، وتعذبكم، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر]

فالحاصب: هو المطر الذي يحمل الحجارة، قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك]

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي: لا تجدوا من يمنعكم، ومن يحول بينكم وبين عذاب الله تعالى.

٦٩-﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ[1] فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

أم أمنتم -أيها الناس- أن ترجع دواعيكم إلى ركوب البحر مرة أخرى، فيعيدكم فيه مرة ثانية، وينزل بكم عذابًا من لون آخر؟ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ حين كفرتم بربكم ﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي: إلى ركوب البحر ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ﴾ في هذه المرة ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾.

أي: ريحًا عاتية قاصفة شديدة، تقصف وتحطم وتكسِّر السفن وتدمرها، فيغرقكم بسبب كفركم، هل أمنتم ذلك؟ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ أي: لا تجدوا أثناء ذلك أو بعده، تبعة ومطالبة بحقوقكم؛ فإن الله تعالى لم يظْلِمكُم ولا مثقال ذرة، ولا يوجد من يطالب الله تعالى بما فعله بكم، ولا من ينصركم من الله سبحانه، ولا من يأخذ لكم الثأر ممن انتقم منكم ﷻ، فيجدر بكم أن تلجؤوا إلى الله وحده وأن تفردوه بالعبادة، وتوحدوه، وتتعرفوا عليه في السراء والضراء، في وقت الشدة ووقت الرخاء.

خَمْسٌ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي آدَمَ

٧٠-﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

والحديث موصول عن نعم الله تعالى ومننه على خلقه، وفي هذه الآية إجمال لنعم الله

(١) قرأ أبو جعفر (الرياح) بالجمع، والباقون (الريح) بالإفراد.

تعالى على الإنسان، وقد ذَكرت هذه الآية خمس مِنَن على بني آدم وهي:

١- التكريم. ٢- وتسخير المراكب في البر.

٣- وتسخيرها في البحر. ٤- والرزق من الطيبات.

٥- والتفضيل على كثير من المخلوقات.

أولًا: تكريم بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾

عدَّد الله في هذه الآية، ما خُصَّ به بنو آدم من بين المخلوقات، فمن نعم الله ﷻ على الإنسان أنه جلَّ شأنه كرّمهُ على سائر المخلوقات، فميزه بالعقل، وبالعلم، وبالنطق، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منه الأصفياء والأولياء، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وجعله في أحسن تقويم، معتدل القامة، يمشي على رِجْلين، ولا يمشي على أربع كالدواب، ويأكل بيديه، ولا يأكل بفمه كالدواب، أكرمه الله وميزه، فأودع فيه فطرة التوحيد وشرفه وفضله ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين].

وجعل له سمعًا، وبصرًا، وفؤادًا يُفرِّق بين الأشياء، ويميز المضار من المنافع، وجعَلَهُ أهلًا لحمل الأمانة دون غيره من المخلوقات، فهو مخلوق نفيس غير ذليل في صورته، ولا حركته، ولا مشيته، ولا بشرته، وجميع الحيوانات لا تعرف النظافة، ولا اللباس، ولا الزينة، ولا التجمل، ولا حُسن تناول الطعام والشراب، ولا ترك القبائح، وجلب ما ينفع ودفع ما يضر، والإنسان هو الذي يعرف العلوم، والمعارف، والصناعات، والتطور، والحضارة.

ثانيًا: تسخير البر والبحر للإنسان: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾

أي: سخر الله لهم وسائل التنقل، والمواصلات المختلفة في: برهم، وبحرهم، وجَوِّهِم، بفضل الله سبحانه؛ حيث سخر لهم من يصنعها، فألهمه وهداه إلى تصميمها، فبعد المواصلات القديمة من: دواب، وخيول، وجمال، وحمير، ونحوها، كانت المواصلات الحديثة من: سيارات وطائرات وسفن وعابرات وحافلات وغير ذلك، فيسَّر لهم الرواحل، وألهمهم استعمالها، كما ألهمهم استعمال السفن والقلاع والمجاديف، ويسَّر لهم ركوب القطارات، والطائرات، والأقمار الصناعية، وسُفن الفضاء، وكل ما يجدُّ في العصور المتلاحقة، وهكذا سخَّر الله له كل ما في الكون.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون].

وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

وقال: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].

ثالثًا: الرزق من الطيبات: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾

كالزروع، والثمار، واللحوم، والألبان، أي: أنعمنا عليهم بسائر المطاعم، والمشارب، مما أحله الله لهم، وجعل ما يتناوله الإنسان من المطعومات، والمشروبات أكثر مما يتناوله غيره من الحيوانات التي لا تأكل إلا أشياء معينة اعتادتها.

رابعًا: تفضيل بني آدم على كثير من المخلوقات: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾

أي: وفضلهم الله على كثير ممن خلَق، والتفضيل منظور فيه إلى التشريف فوق غيره، أما التكريم فمنظور فيه إلى تكريمه في ذاته، فقد كرم الله الإنسان على سائر الحيوانات، بأمور خِلْقية طبيعية، مثل: العقل، والنطق، والعلم، وحُسْنِ الصورة، وعرَّفه الله أصناف العلوم بواسطة العقل والفهم، واكتساب العقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم والثاني هو التفضيل.

وقد فضَّل الله بني آدم على كثير ممن خلَق، لا على الكل.

قال ابن عمر ﷺ: ما من رجل يرى مبتلًى فيقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلى كثير من خلقه تفضيلًا، إلا عافاه من ذلك البلاء كائنًا من كان[1].

فقد فضله الله على كثير من المخلوقات: كالجن، والبهائم، والدواب، والوحوش، والطير.

وهنا يقف المفسرون، ويتحدثون عن المفاضلة بين الإنسان وبين الملائكة، ويرى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٩٥).

أكثرهم أن الخواص من البشر وهم الأنبياء، أفضل من خواص الملائكة، وأن خواص الملائكة مثل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل أفضل من عوام الناس، وعوام الملائكة، أفضل من عوام البشر، وهي مفاضلة بين الملائكة والمؤمنين خاصة، وهذه مفاضلة لا تفيدنا في شيء، وليس هناك داع للبحث فيها، وإنما يبحث الإنسان فيما يعود عليه بالنفع، ويعود عليه بزيادة العمل الصالح، وما يثقّل ميزانه.

وأبرز ما يتميز به الإنسان على سائر الحيوانات هو: العقل، والنطق، والعلم، والصورة الحسنة، واكتساب الفضائل، والعقائد، والأخلاق، والقيام بالتكاليف الشرعية، أفلا يشكرون نعم الله عليهم، ويتركوا الاستعانة بهاعلى معاصي الله، ويخلصوا العبادة لله وحده.

مَصَائِرُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ يَوْمَ لِقَاءِ اللهِ تَعَالَى

٧١- ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾

ويوم القيامة ينادي الله العباد، فيخرُجون من قبورهم، للبعث، والنشور، والحساب وتُنادَى كل أمة بكتابها، وبقائدها، ورسولها، وإمامها، فتبشَّر أو تنذَر، وتظهر أحوال الناس يومئذ، فينادى المؤمنون بإمامهم في الإيمان، وينادى الكفرة بإمامهم في الضلال والكفر، كما قال تعالى عن فرعون: إنه يتقدم قومه يوم القيامة، فهو إمامهم، يوردهم النار، كما أوردهم المهالك في الدنيا، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود]

ويصور الله سبحانه الأمم يوم القيامة أنها تُحشر جاثية على الرُّكب في ذل وانكسار.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨] أي: تُنسب إليه، فأهل التوراة يتبعون موسى، وأهل الإنجيل يتبعون عيسى، وأهل القرآن يتبعون محمدًا ﷺ، وهكذا.

والمراد بأهل التوراة، وأهل الإنجيل، وغيرهم: الأمم الذين ماتوا وقت صلاحية الرسالة، أي: اليهود الذين ماتوا في زمن موسى ﷺ وقبل أن يأتي عيسى، والنصارى الذين ماتوا في مدة صلاحية رسالة عيسى ﷺ، وقبل أن يأتي محمد ﷺ:

١- فالمراد ﴿بِإِمَـٰمِهِمْ﴾: الكتاب الذي أُنزل على نبيهم.

٢- أو المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾: نبيهم ومن اتبعوه، فيقال: يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد، يا أمة بوذا، يا أمة زرادشت، يا أمة برهما، يا أتباع فرعون، يا عبدة العزى، يا عبدة اللات، وهكذا.

٣- أو المراد **بإمامهم**: كتاب أعمالهم.

ويجمع هذه الأقوال الثلاثة أن كل أمة تدعى في حضرة نبيها وكتابها معًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [يونس: ٤٧]، وقال: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩].

الحديث عن أبي هريرة ﷺ يجمع الله الناس فيقول: «**من كان يعبد شيئا فيتّبِعْه، فيتّبع من كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، الطواغيت**»[1].

وبعد أن تحضر كل أمة مع رسولها وكتابها يعطى كل فرد من أفراد هذه الأمة كتاب أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ١٢].

وقوله: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

أما سائر المِلَل والنِّحَل من يهود، ونصارى، وغيرهم بعد بعثة الرسول ﷺ فهم من أمة محمد ﷺ، وهم مخاطبون بالدعوة الإسلامية ومكلفون بها، فينادَوْن بقائد هذه الأمة وإمامها وكتابها، وهم من المخالفين المكذبين بمحمد ﷺ وهم من أهل النار إن لم يؤمنوا به وبدعوته

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾؛ حيث يكون الناس صنفين، منهم من يأخذ كتابه بيمينه، وهؤلاء يقرؤون كتابهم فرحين مسرورين، ويقول كل منهم لأهله وعشيرته: انظروا شهادة نجاحي بتقدير امتياز ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩] يأخذه وهو مسرور، وينقلب إلى أهله

---

(١) ينظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣٦١١) ج٣ قال الألباني: صحيح لغيره وقد جاء هذا في حديث طويل عن أبي هريرة في مسند أحمد (٧٧١٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، (محققوه) وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٨٥٦) والبخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢).

وهو مسرور ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

والفتيل: هو خيط رفيع يكون في ظهر النواة، أي: ولا يظلمون شيئًا يسيرًا حقيرًا، فهم لا ينقصون شيئًا من ثواب أعمالهم، وإن كان أدنى من مقدار الخيط الذي في شق النواة.

وقد سكتت الآية عن الفريق الآخر الذي يأخذ كتابه بشماله، اكتفاء بما ورد في أول السورة ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وجاءت الإشارة إليه في قوله تعالى:

٧٢-﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ(١) فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ(١) وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

أما أهل الشمال -نعوذ بالله أن نكون منهم- فهم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، أو من وراء ظهورهم، لقد كانوا في الدنيا عُمْيًا عن الحق، وعُمْيًا عن الهدى، فلم يقبلوه ولم ينقادوا له، بل اتبعوا الضلال، فهم في الآخرة عُمي عن طريق الجنة، وعُمي عن طريق النعيم وطريق الخير، فالجزاء من جنس العمل.

ومن كان في هذه في الدنيا أعمى عن شكر النعم، وعن الإيمان بمن أسداها إليه، فهو في الآخرة أعمى عن طريق الجنة، وكما تدين تدان.

ومن كان في الدنيا أعمى القلب، مطموس البصيرة عن دلائل قدرة الله تعالى، فلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ، وآثر الكفر على الإيمان، فهو في يوم القيامة أشد عمى عن سلوك طريق الجنة، فهو حيران يتخبط ليس لديه حجة، وهو أضل طريقًا عن الهدى والرشاد؛ فإن الكافر في الدنيا يمكنه أن يهتدي فينجو، أما في الآخرة فلا يمكنه ذلك.

وأعمى القلب، أضل من أعمى البصر؛ لأن الأول لا تنفعه الذكرى، أما الآخر، فإنه ينتفع، فيتذكر، ويتعظ.

كما قال تعالى عن ابن أم مكتوم: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

لقد كان في الدنيا يمكنه تدارك ما فاته، أما في الآخرة فلا يمكنه ذلك، فهو أشد

---

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بالإمالة في (أعمى) الأولى، وبالفتح والتقليل لورش، والثانية مثل الأولى إلا أن أبا عمرو ويعقوب لهما الفتح فيها.

عمًى، وأكثر حيرة واضطرابًا، فالمراد بعمى الآخرة: ما ينشأ عن العمى من الحيرة، والاضطراب، وضلال الدنيا يمكن الخلاص منه، أما ضلال الآخرة، فلا خلاص منه إلا بنار جهنم، ولذا كان أشد ضلالًا منه، وهؤلاء هم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم من وراء ظهورهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ [الانشقاق].

جاء في الأثر، عن أبي هريرة ﷺ ما معناه: **«يُدْعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمدُّ له في جسمه، ويُبيَّض وجهه، ويُجعل على رأسه تاج يتلألأ، فيفرح به أهله، ويتمنون مثله، فيقول لهم: أبشروا؛ فإن لكل منكم مثل هذا، وأما الكافر فيسودُّ وجهه، ويراه أهله، فيتعوذون بالله منه ومن شره»**[1].

عِصْمَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٧٣- ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

وبعد أن وصف الله الكفار بالعمى والضلال، بيَّن سبحانه أن من ضلالهم، معارضتهم لدعوة الإسلام، وإعراضهم عنها، وطمعهم في أن يوافقهم الإسلام، وينزل على أهوائهم، مع رغبة الإسلام في اقترابهم منه، وسماعهم للقرآن لعلهم يهتدون.

والآية الثالثة والسبعون والآيتان بعدها من سورة بني إسرائيل يمتنُّ الله ﷻ فيها على رسوله ﷺ بأنه جلَّ شأنه قد ثبته على الوحي المنزل عليه، وهو هذا القرآن، وعصمه من فتنة المشركين وإغرائهم له، وقد كان من محاولاتهم أن يداهنهم الرسول ﷺ، أو أن يوافقهم إلى أهوائهم، ووقاه سبحانه من الركون إليهم ولو قليلًا، وحفظه من عاقبة هذا الركون في حالة حدوثه، وهو العذاب المضاعف في الدنيا والآخرة.

لقد حاول المشركون كثيرًا مساومة النبي ﷺ على ترك الدعوة كليًا، أو جزئيًا، ساوموه على أن يدع عيب آلهتهم، وأن يعبدها سنة؛ ليعبدوا إلهه سنة.

---

(١) يُنظَر النص في: «مسند البزار»، ورواه الترمذي في «السنن» برقم (٣١٣٦) وقال: حديث حسن غريب.

وفي سورة (الكافرون) التي نزلت بعد سورة (الإسراء) يقطع الله سبحانه فيها بمنع ذلك، ورَفْض النبي ﷺ لطلبهم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾.

وقبل سورة (الإسراء) نزلت سورة (القلم)، وفيها محاولة المشركين لاستمالة قلب النبي ﷺ إليهم، وطلبهم منه أن يداهنهم، وأن يلين لهم؛ كي يلينوا له ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم] أي: تمنوا أن تميل إليهم، فيميلون إليك، ويناصرونك ويوالونك، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث.

وهذه المحاولات التي عصم الله رسوله منها، هي محاولات أهل السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا؛ لإغرائهم بالانحراف عن صلابة الدعوة، والرضا بالحلول الوسط.

في أسباب النزول لهذه الآيات: أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يستلم آلهتهم كما يستلم الحجر الأسود.

وعن ابن إسحاق، وغيره أنهم اجتمعوا ليلة فعظموا النبي ﷺ، وقالوا له: أنت سيدنا ولكن أقبل على بعض أمرنا، ونقبل على بعض أمرك.

وفي أسباب النزول أيضًا: أن كبار المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم مجلسًا خاصًا غير مجلس الفقراء، أو يطردهم عن مجلسه، وكانوا يعلمون الحرص الشديد من رسول الله ﷺ على إسلامهم.

وبعض المشركين طلب من النبي ﷺ أن يمدح آلهتهم، ويُثني عليها، ويقرر أن لها شفاعة عند الله تعالى، كما جاء ذلك في حديث الغرانيق، الذي يأتي ذكره عند آيات سورتي: النجم، والحج، والذي افتتن به صاحب الآيات الشيطانية (سلمان رشدي) بسبب الأخذ من الدين بطرَف، ومعرفة القشور منه دون اللباب، وعدم فهم الحقائق والإلمام بها، وحديث الغرانيق هذا يقول عنه ابن إسحاق: إنه من وضْع الزنادقة، وهو أصل الفتنة والردة التي قام بها هذا الرجل، والمشركون يحاولون أن يُلَبِّسوا على المسلمين دينهم، ويُلْقُون الشُّبه عليهم، كما كان المشركون يفعلون مع رسول الله ﷺ، فهم لا يريدون منهم الخروج من الدين مرة واحدة، وإنما يريدون التشكيك، أو التنازل عن نقطة ولو يسيرة؛

ليلتقوا في وسط الطريق، ثم هم بعد ذلك إذا تنازلوا عن جزئية فيه فإنه يأتي ما بعدها، ويكون الإخراج من الدين بالكلية.

جاء وفد ثقيف إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يعطيهم أشياء؛ حتى يبايعوه على الإسلام، فإن سئل عنها فليقل: الله أمرني بهذا؛ حتى يميزهم عن سائر العرب، بأن يجعل لهم منزلة ومكانة خاصة، ويحرِّم وَادِيهم، أي: أن يجعل أرضهم التي في الطائف لها حرمة كحرمة مكة، وأن يضع عنهم الربا، وطلبوا منه أن لا ينحنوا في الصلاة، أو أن يضع عنهم الصلاة، وطلبوا منه أن لا يُكسِّروا أصنامهم بأيديهم، وأن يمتّعهم بعبادة اللات لمدة سنة[1].

والله سبحانه يجيب عن ذلك كله بقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ أي: لقد قارب المشركون أن يصرفوك عن القرآن الذي أنزلناه عليك، لتختلق علينا غير ما أوحيناه إليك، فتأتي بما يوافق أهواءهم، وتترك ما أنزله الله عليك. حتى يتخذوك حبيبًا خالصًا.

والآية مسوقة في مقام المنِّ على النبي ﷺ بعصمة الله إياه من الخطأ وحفظه من أعدائه، الحريصين على فتنته بكل طريق، وعدم إجابتهم إلى شيء مما استدرجوه إليه.

وفيها أيضًا إظهار ملل المشركين وخوفهم من عواقب الدعوة الإسلامية، مع ما فيها من تثبيت النبي ﷺ والمؤمنين والدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

وفيها تيئيس للمشركين بأن مثل ذلك لن يكون.

وقد بيَّن الله سبحانه أن النبي ﷺ أعرض عن مقترحاتهم ورفضها، ولم يلتفت إليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي ائت بقرآن ليس فيه هذا الوعد وهذا الوعيد، وهذه الأوامر والنواهي، وهذا الحلال والحرام ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا

(١) يُنظَر «أسباب النزول» هذه عند تفسير الآية في «زاد المسير»، و«فتح القدير»، و«تفسير ابن عطية»، و«لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن وابن جرير والقرطبي والبغوي.

يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [يونس: ١٥].

يقول سبحانه: لو حدث منك -يا محمد- الميل والركون إليهم، ولو شيئًا قليلًا بموافقة أهوائهم لاتخذوك صديقًا حميمًا فوالوك، وناصروك، وأحبوك ﴿وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا﴾ ولكن الله ثبَّتك، وعصمك، وحفظك، ولو حدث ذلك لكنتَ وليًّا لهم، وخرجتَ من ولايتي؛ فالنبي ﷺ معصوم من الخطأ في تبليغ الدعوة، ولكن الله تعالى ذكر هذا في القرآن؛ لتتعلم الأمة، ولكي لا تميل إلى غير المسلمين ولو طرفة عين، ولئلَّا يركنوا، أو يميلوا إلى الظلمة، ولكي يعلموا أنهم فاتِنُوهم عن دينهم في كل زمان ومكان.

فالآيات فيها تعليم للأمة، والنبي ﷺ معصوم من الزلل، ومحفوظ بحفظ الله سبحانه، قال تعالى:

٧٤-﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ[1] شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤﴾

يقول النحاة: **لولا**: حرف امتناع لوجود، أي: ولولا عصمة الله لك عن موافقتهم، وتثبيته إياك على الحق لقاربتَ الركون إليهم، ولكن هذا الركون، أو القليل منه، امتنع؛ لوجود العصمة، ولتثبيت الله لك بأن فهَّمك وجه الحق، ولولا ذلك لتحقق قرب ميلك القليل، ولكن ذلك لم يقع؛ لأنا ثبتناك.

فالمعنى: لقد قاربت أن تركن إليهم شيئًا قليلًا، ولكن هذه المقاربة، أو الركون إليهم امتنعتْ؛ لوجود العصمة، والتثبيت من الله سبحانه ﴿لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ ولو أن الله تركك، ولم يعصمك، ولم يحفظك، ولم يثبتك لحدثت المقاربة.

وقد نفت الآية مجرد المقاربة للركون إلى الكفار بأربعة أمور، هي: (لولا) الامتناعية، و (كدت) وهي من أفعال المقاربة، و (شيئًا) المنكَّرة بقصد التحقير، و (قليلًا) المقيدة للقلة، وهذا مبالغة في نفي مجرد المقاربة من الركون إليهم، فضلًا عن الركون نفسه، والركون إليهم منتف من أصله لأجل التثبُّت بالعصمة، كما انتفى أن يفتنه المشركون عن الذي أوحاه الله إليه بصرف الله لهم عن تنفيذ فتنتهم، وكان النبي ﷺ يقول فيما يرويه

---

(١) ضم الهاء من (إليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

قتادة: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»(١).

فيطلب من الله تعالى حفظه وعصمته، ويطلب منه سبحانه تثبيت قلبه على الإيمان صباح مساء.

ولو حدث شيء من الميل إلى الكفار لأصابك الله بعذاب مضاعف في الدنيا والآخرة كما قال تعالى:

٧٥-﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

أي: ولو أنك -يا رسولنا- ملْت وركنْت إليهم شيئًا قليلًا، لأذقناك عذابًا مضاعفًا في الدنيا والآخرة، أي: مثلَيْ عذاب الحياة في الدنيا، ومثلَيْ عذاب الممات في الآخرة.

ومضاعفة عذاب الحياة يكون بتراكم المصائب والنكبات، وزوال البهجة والسرور، وتمكن الأعداء ونزول الهزائم، مع استمرار هذا العذاب حتى الموت، فيموت العبد حسيرًا مكمودًا بالتواجد الذليل بين الكفار الذين يروْن أنهم قد فازوا عليه بعد أن أشرفوا على السقوط أمامه.

وليس المراد من ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾: عذاب الآخرة؛ وإنما المراد التهديد والوعيد، بمضاعفة العذاب له على فعل المعصية، لأن الرسول ﷺ لو ركن إليهم شيئًا قليلًا لكان ذلك عن اجتهاد منه لمصلحة الدين في نظره، والاجتهاد لا عقاب عليه في الآخرة؛ وذلك لأن عظم العذاب مع عظم الذنب، وعظم الذنب مع عظم المرتكب لهذا الذنب، والرسول ﷺ أعظم الخلق على الإطلاق، وأكملهم عند الله تعالى، وقد أتم الله عليه نعمته بالرسالة فهو أعرف الخلق بربه.

وقد بيَّن الله سبحانه في شأن نساء الرسول ﷺ مضاعفة العذاب لمن تأتي منهن بفاحشة مبينة؛ لأن نساء الرسول ﷺ يختلفْن عن غيرهن من النسوة ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] والتهديد على فعل المعصية لا يعني الوقوع فيها، وعند حلول العذاب بالعاصي لا يجد من يُخلِّصه منه يوم لقاء الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي: لا تجد من ينصرك، ومن يحميك، ومن يمنعك من عذاب

---

(١) ضعيف الجامع الصغير (١٢١٧).

الله تعالى، ولكن الله ثبتك وهداك ولم تركن إليهم بوجه من الوجوه، فلله الحمد والمنة.

وَعِيدُ مَنْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ

٧٦- ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ[1] إِلَّا قَلِيلًا﴾

ولما فشلت هذه المفاوضات، وهذه المحاولات من المشركين؛ كي يُثْنُوا رسول الله ﷺ عن دعوته، أو عن شيء مما أوحاه الله إليه، ولو جزءًا يسيرًا منه، لجؤوا إلى استعمال القوة، وهذه القوة تتمثل في عزمهم على إخراج رسول الله ﷺ من مكة.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ يحملونك على الخروج من وطنك، ويُجلوك عنه لبغضهم إقامتك بين أظهرهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أرض مكة، لقد قارب المشركون أن يزعجوك ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ ولو حدث هذا، وأخرجوك منها كُرهًا؛ فإنهم لا يقيمون بعدك فيها إلا زمنًا يسيرًا حتى تحل بهم العقوبة.

وأهل مكة لم يُخرِجوا النبي ﷺ منها، وإنما الذي أذن له بالخروج والهجرة هو رب العالمين، فلما علم الله كيدهم، وتدبيرهم قَتْلَهُ أمره بالهجرة، فخرج ﷺ بنفسه دون أن يخرجوه هم؛ لأن الله سبحانه أراد لأهل مكة البقاء، ولم يُرِد أنْ يستأصلهم، ويبيدهم كغيرهم من الأمم.

قال مجاهد، وقتادة، والحسن: هَمَّ أهل مكة بإخراج رسول الله ﷺ من مكة، فأمره الله تعالى بالخروج، وأنزل هذه الآية إخبارًا عما همُّوا به[2].

يقول جلَّ شأنه: ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يقيمون بعدك إلا وقتًا يسيرًا، فيهلكهم الله، وقد عاقبهم الله تعالى على هذا الهم، وهذا القصد بعد نحو عام، فخرج كبارهم إلى غزوة بدر فلقي كل منهم حتفه، ومات سبعون من صناديد قريش، وهم الذين كانوا يدبرون المؤامرة لقتل رسول الله ﷺ فلم يلبثوا بعده إلا قليلًا حتى أهلكهم

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر بفتح الخاء وسكون اللام من غير ألف بعدها هكذا (خَلْفَك)، وقرأ الباقون (خلافك) بكسر الخاء وفتح اللام بعدها ألف وهما لغتان بمعنى: بعد خروجك.

(٢) النيسابوري (٢٤٥) والسيوطي (١٧١) و«زاد المسير» (٥/ ٧٠).

الله سبحانه، وقد أبقى الله عامتهم؛ لضعف كيدهم، وعِلْمِه أنهم سيدخلون في الإسلام.

والآية تشير إلى أن النبي ﷺ سيخرج من مكة، وأنهم المتسببون في خروجه، وأن الله سيعاقبهم بعد خروجه منها. قال تعالى:

٧٧-﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا[1] وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

وتلك سُنَّة الله وعادته في الأمم، وأن الأمة التي تُخْرِج رسولها يهلكها رب العالمين، كما حدث لقوم هود لما أخرجوا نبيهم إلى مكة، وكذا قوم صالح، وإبراهيم، ولوط فقد هلكت أقوامهم لما أخرجوا رسلهم من ديارهم، سُنَّة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾ [الطلاق].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد] وسُنَّة الله لا تتغير، ووعده لا يتخلف ولا يتحول.

اللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ أَدَاءِ الصَّلَاةِ

٧٨-﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

ثم وجَّه الله رسوله في الآيات التالية، إلى الاتصال به سبحانه، بالوقوف بين يديه في الصلاة؛ فوسائل الاتصال بالله سبحانه، وتقوية الروح، تتمثل في إقامة الصلاة، والمحافظة عليها، وفي العمل بالقرآن وما فيه؛ ففيه طب القلوب ودواؤها.

وجاء ذكر الأوقات الخمسة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ .

وقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم] وغير ذلك، وكانت مشروعية الصلوات الخمس على الأمة ليلة الإسراء، كما ثبت في أحاديث الإسراء والمعراج.

وقد نزلت هذه الآية، عقب حادث الإسراء، جمعًا للتشريع بين الكتاب والسُّنَّة، الذي شُرِع للأمة في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

---

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلنا)، والباقون بضمها.

وقد عيَّنت الآية أوقات الصلوات الخمس بعد تقرير فرضيتها.

وقد بيّنت السُّنَّة المتواترة عن رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله ﷺ بتفاصيل أوقات الصلاة على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقَّوْه خلَفًا عن سلف، وقرنًا بعد قرن، وبيّنتْ كيفية الصلاة وما تشتمل عليه من الأفعال والأقوال، بيَّنتْه أيضًا السُّنَّة المتواترة، كما في قوله ﷺ: **«صلوا كما رأيتموني أصلي»**[1].

هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ، ويراد بهذا الأمر: الأمة.

ودلوك الشمس: هو وقت زوال الشمس عن وسط، أو كَبِد السماء إلى جهة الغروب، حيث يبدأ وقت الظهر، ويدخل فيه صلاتا: الظهر، والعصر، ولهذا صح الجمع بينهما بالنسبة للمسافر والمريض، فله أن يجمع بين صلاتي: الظهر، والعصر جمع تقديم، أو تأخير؛ فهما وقت دلوك الشمس.

ودلوك الشمس أيضًا: ميلانها نحو الغروب ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾

وغسق الليل: بدء دخول الظلمة، ويدخل في هذا وقت المغرب، والعشاء، ولهذا صح الجمع بينهما في السفر والمرض جمع تقديم أو تأخير، والوقت الخامس هو صلاة الفجر الذي عبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

فالخلاصة: أن **دلوك الشمس**: هو زوالها، وفيه إشارة إلى صلاتي: الظهر، والعصر، **وغسَق الليل**: ظلمته، وفيه إشارة إلى صلاتي: المغرب، والعشاء.

وفي قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ إشارة إلى صلاة الفجر، وسماه قرآنًا؛ لكثرة القراءة في صلاة الفجر بطوال المفصل، ولأنها صلاة جهرية، ولفضل صلاة الجماعة فيها، كما جاء في الصحيحين، وغيرهما:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح، يقول أبو**

---

(١) من حديث مالك بن الحويرث في «صحيح البخاري» برقم (٦٣١) و«صحيح مسلم» برقم (٦٧٤).

هريرة: **اقرؤوا إن شئتم** ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[١].

٢- وفي الحديث: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون، فيشهدون من صلى الفجر ومن صلى العصر**»[٢].

٣- وصح عن رسول الله ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ قال: «**تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار تجتمع فيها**»[٣].

فهذا نص في أن المراد **بقرآن الفجر**: القرآن الذي يُقرأ في صلاة الفجر، وتشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار.

فيكون **معنى الآية**: أقم الصلاة تامة وحافظ عليها من وقت زوال الشمس عند الظهيرة، وهو وقت دلوك أو تحول الشمس، كما في حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه دعا النبي ﷺ، وأصحابه فطعموا عنده، ثم خرجوا حين زوال الشمس عن وسط السماء، أي: أول وقت الظهر، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي بكر: «**اخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس**»[٤].

ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى: دلوكًا، إلى وقت ظلمة الليل، ويدخل في هذا صلوات: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء.

وأقم صلاة الفجر، إن قراءة القرآن في صلاة الفجر تحضرها ملائكة الليل، وملائكة النهار.

ودل هذا على أن الصلاة لا تكون إلا بقرآن؛ لأنها سُميت قرآنًا:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (١٧٦، ٤٧١٧) وأخرجه مسلم برقم (٦٤٩) وبنحوه (٢٧٢) مطولًا وعبد الرزاق (٢٠٠١).

(٢) البخاري برقم (٥٥٥، ٣٢٢٣، ٧٤٢٩) ومسلم برقم (٦٣٢).

(٣) «المسند» (١٠١٣٣) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٠٧) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٢٩٣) والحاكم (١/ ٢١٠) والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣٥) وابن ماجه (٦٧٠)، وابن خزيمة (١٤٧٤) وأخرجه البخاري في القراءة خلف الإمام (٢٥١).

(٤) «تفسير الطبري» (١٥/ ٩٣) وفي سنده (العنزي) مجهول.

١- عن عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»**[١].

٢- وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أُمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب، وما تيسر[٢].

٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي: إنه لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد[٣].

صَلَاةُ التَّهَجُّدِ

٧٩-﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾

عطف سبحانه صلاة الليل على صلاة الفريضة وصلاة التهجد ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ فيها زيادة على الصلاة المكتوبة، وهي خاصة بالنبي ﷺ؛ لرفع قدْره، وعلوِّ درجته مخاطبًا بذلك رسول الله ﷺ في قوله: ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ أي: فريضة زائدة لك، وهي بالنسبة لغير النبي ﷺ سُنَّة مرغَّب فيها على أفراد الأمة، المخاطبين بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقد سُئل النبي ﷺ عن أفضل الصلاة بعد المكتوبة فقال: **«صلاة الليل»**[٤].

والهجود: هو النوم في الليل، وصلاة التهجد تكون بعد منتصف الليل، وتكون بعد نوم على الأرجح؛ لأن فيها تركًا للهجود وهو النوم، وجاء ذكر صلاة التهجد من بين النوافل في القرآن الكريم على وجه الخصوص؛ فالله سبحانه يمدحها، ويثني عليها، ويأمر رسوله بها، وهي من النوافل في حق الأمة.

والأرجح أنها مفروضة في حق رسول الله ﷺ، وقد كانت صلاة التهجد فريضة على الأمة في بدء الإسلام؛ بمقتضى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ

---

(١) مسلم برقم (٣٩٤) والبخاري برقم (٧٥٦) والترمذي برقم (٢٤٧) وقال: حسن صحيح وأبو داود وابن ماجه وكلهم عن عبادة.

(٢) أبو داود في الصلاة (٨١٨) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٣٢) والترمذي في الصلاة (٢٣٨) وقال: حديث حسن.

(٣) أبو داود (٨٢٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٣٣).

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (١١٦٣).

ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل].

وظَلَّ هذا معمولًا به حتى نزلت الآية الأخيرة من سورة المزمل [٢٠]، وفيها: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

وهذه الآية الأخيرة من سورة المزمل نزلت بعد سَنة من نزول أول السورة، ونَسخت فرْضية التهجد على الأمة، وهي متقدمة في النزول على آية الإسراء ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾.

ومن الأحاديث الواردة في **فضل قيام الليل**:

١- حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**»(١).

٢- ومن ذلك ما جاء في الصحيحين، وغيرهما: عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»(٢).

٣- وفي صحيح مسلم، وأبي داود، وغيرهما: عن زيد بن خالد الجهني ﷺ أنه توسَّد عتبة النبي ﷺ وقال: لأرمُقنَّ صلاة رسول الله ﷺ قال: فصلى ركعتين خفيفتين، ثم صلى ركعتين طويلتين، طويلتين، طويلتين، ثم صلى ركعتين دونهما، ثم صلى ركعتين دونهما، ثم صلى ركعتين دونهما، ثم أوتر، فهذه ثلاث عشرة ركعة»(٣).

٤- وفي الصحيحين: عن عائشة ﷺ قالت: ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان، ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا، قالت عائشة: فقلت: يا

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١١٦٣).

(٢) هذا لفظ مسلم برقم (٢٨١٩) وأخرجه البخاري برقم (١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١).

(٣) مسلم (٧٦٥) وأبو داود (١٣٦٦) وابن ماجه (١٣٦٢) والترمذي في «الشمائل» (٢٦٩) والنسائي في «الكبرى» (٣٩٥، ١٣٣٨).

رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: «**يا عائشة إن عينيَّ تنامان، ولا ينام قلبي**»[١].

٥- وفي الصحيحين، وغيرهما: عن عائشة ﵂ وهي تصف صلاة النبي ﷺ في الليل، قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي بعد أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين، ويوتر بواحدة[٢].

وقد وَصَفَتْ ﵂ سجوده ﷺ بأنه بمقدار ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه.

٦- وروى أبو داود، والنسائي، وغيرهما: عن عوْف بن مالك الأشجعي ﵁ قال: قمت مع رسول الله، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ، ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «**سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**»، ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة النساء[٣].

٧- وفي الصحيحين: عن الأسود قال: سألتُ عائشة ﵂: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ من الليل؟ قالت: كان ينام أوله، ويقوم آخره فيصلي، ثم يرجع إلى فراشه، فإذا أذَّن المؤذن وثب، فإن كان به حاجة اغتسل، وإلا توضأ وخرج[٤].

فهذه أحاديث صحيحة تدل على مختلف أحوال النبي ﷺ في صلاة التهجد والوتر.

وفي قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ لفظ: ﴿عَسَىٰ﴾ بالنسبة لله تعالى للوجوب.

والمقام المحمود: هو موقف الشفاعة العظمى يوم القيامة لرسول الله ﷺ؛ حيث يبعثه الله هذا المقام وبيده لواء الحمد، ويحمده الأولون والآخرون من البشر، والناس في موقف عصيب، يعرَقون حتى يبلغ العرق إلى أنصاف آذانهم، ومنهم من يلجمه العرق

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٧، ٢٠١٣، ٣٥٦٩) و«صحيح مسلم» برقم (٧٣٨) وأبو داود (١٣٤١) والترمذي (٤٣٩) و«المسند» (٢٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه مالك في الموطأ ١/ ١٢٠ وعبدالرزاق (٤٧١١).

(٢) البخاري (٩٩٤، ١١٢٣) ومسلم (٧٣٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (٤١٨، ١٤٤٩) و«المسند» (٢٤٠٥٧).

(٣) أبو داود (٨٧٣) والترمذي في «الشمائل» (٣١٣) و«المسند» (٢٣٩٨٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٢٢).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (١١٤٦) و«صحيح مسلم» مطولًا برقم (٧٣٩).

إلجامًا، وهو يوم تشيب فيه رؤوس الأطفال، ويكون الناس في كرب شديد، فيتوجهون إلى الأنبياء بدءًا من آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، وهكذا... إلى عيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم، يسألونهم أن يَفْصِل الله بينهم، فيحاسبهم، ويقضي بينهم، ويَصْرِفَهُم من هذا الموقف ولو إلى النار؛ من شدة ما هم فيه من كرب، ويتخلى جميع الأنبياء عن هذه الشفاعة، ويسجد رسول الله ﷺ بين يدي ربه، ويقول الله تعالى له: **«ارفع رأسك، وسل تُعطَ، واشفع تُشفَّع»**[١].

هذا هو المقام المحمود، كما **نطقت بذلك الأحاديث**، ومنها:

١- ما جاء في الصحيحين: عن جابر بن عبد الله ﷺ أن من سمع النداء الآذان فقال: **«اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته، حلَّت له شفاعتي يوم القيامة»**[٢].

أي: وجبت له شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة.

٢- وقال عبد الله بن عمر ﷺ: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا، كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان: اشفع، يا فلان: اشفع، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يومَ يبعثه الله مقامًا محمودًا[٣] **وجُثًا** يعني: جماعات.

٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: **«هي الشفاعة»**[٤]. ولفظ أحمد **«هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه»**[٥].

٤- وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليَّ، فمن صلَّى عليَّ صلاة، صلى الله**

---

(١) يُنظَر: حديث الشفاعة العظمى في «المسند» (٣/١١٦) و(٢٢/٤٣٥) برقم (١٢٨٢٤) والبخاري برقم (٧١٢، ٣٣٤٠، ٤٤٧٦) ومسلم برقم (١٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦١٤، ٤٧١٩).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٤، ٤٧١٨) ومسلم (١٠٤٠).

(٤) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح (٣١٣٧) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٠٨) والسلسلة الصحيحة (٢٦٣٩، ٢٣٧٠) وظلال الجنة (٧٨٤).

(٥) و«المسند» (٩٦٨٤، ١٠٨٣٩). قال محققوه: حديث حسن لغيره وأخرجه الطبري (١٥/ ١٤٥).

عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، أرجو أن أكون هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»[١].

٥- وأخرج النسائي وغيره بسندهم إلى حذيفة ﷺ قال: يُجمع الناس في صعيد واحد، فيُسْمِعُهم الداعي، وينفُذهم البصر، حفاة عراة كما خُلقوا، قيامًا، لا تكلَّم نفس إلا بإذنه، ينادَى: يا محمد، فيقول: **«لبيك وسعديك والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهديُّ من هديْت، عبدك وابن عبدك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب هذا البيت»**، فهذا المقام المحمود الذي ذكره الله تعالى[٢].

٦- وعن كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلٍّ، ويكسوني ربي حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول: ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود»**[٣].

٧- وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم، فيقول: لستُ صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد، فيشفع بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقامًا محمودًا يحمده أهل الجمْع كلهم»**[٤].

٨- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع، وأول مشفع»**[٥].

٩- وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لكل نبي دعوة مستجابة،**

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٣٨٤).

(٢) وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» من حديث حذيفة برقم (١١٢٠٣٠) والطيالسي (٤١٤) والبزار في «الزوائد» (٣٤٦٢) وعبد الرزاق، والحاكم من طريق ابن أبي إسحاق وصححه ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٣٦٣).

(٣) «المسند» (١٥٧٨٣) بإسناد صحيح على شرط مسلم وابن حبان (٦٤٧٩) والحاكم (٢/ ٣٦٣).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٥، ٤٧١٨) و«تفسير الطبري»: (١٥/ ٩٨) وانظر: «صحيح مسلم» (١٠٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٧٨).

فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»[١].

ومن خصائص النبي ﷺ يوم القيامة إلى جوار ذلك، أنه أول من تنشق عنه الأرض، ويُبعث إلى الحشر راكبًا، ويكون الخلق تحت لوائه، وله الحوض المورود، ويَشفع في أقوام قد أُمر بهم إلى النار، فَيُرَدُّون عنها، وهو أول من يُقضى بين أمته، وأول من يجوز الصراط بأمته، وأول شفيع في الجنة، وأول داخل إلى الجنة، وأمته قبل الأمم، ويشفع في رفع درجات أقوام في الجنة، ويشفع للعصاة من أمته بما لا يعلم عددهم إلا الله، ولا يساويه أحد في هذه الشفاعة، ولا يكون مثله.

وقد أمر الله نبيه أن يتهيأ لهذه الدرجات يوم القيامة بقيام الليل، وتلاوة القرآن فيها؛ ليكون ذلك زيادة له في علو شأنه، حتى يشفع للناس يوم القيامة؛ ليرحمهم الله مما هم فيه، ويحمده الأولون والآخرون.

اللُّجوءُ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَنْ طَرِيقِ الدُّعَاءِ

٨٠-﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾

ولما أمر الله نبيه بالشكر الفعلي في الآية السابقة، أمره هنا بالشكر القولي، بأن يبتهل إلى الله تعالى، ويسأله التوفيق إلى كل خير، والخروج من كل شر، ومن ذلك أن يسأل ربه التوفيق في الدخول إلى كل مكان، ومن ذلك دخول المدينة النبوية، والخروج من أي مكان؛ ومن ذلك الخروج من مكة وغيرها، وأن يحسِّن الله حاله في كل ما يتناول من الأمور، ويجول من أسفار، ويحاول من أعمال، وما ينتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فالآية على هذا العموم.

ويصح أن يكون المراد منها: معنى خاصًا، وهو دخول المدينة النبوية، ولكن المعنى العام أولى، ولعل كون هذه الآية مسبوقة بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: يوم القيامة بعد البعث من القبور، لعل ذلك يناسب أن يكون المعنى: أدخلني يارب إلى القبر مدخل صدق، وأخرجني من القبر مخرج صدق.

---

(١) مسلم (١٩٨، ١٩٩) وهذا لفظه والبخاري (٦٣٠٤، ٧٤٧٤).

وأيضًا فإن هذه الآية سُبقت بقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ وفيها إشارة للنبي ﷺ أنه سيخرج من مكة، سائلًا ربه أن يخرجه منها مخرج صدق، وأن يدخله المدينة مدخل صدق، ودخول القبر، ودخول مكة، يدخلان ضمن عموم الآية، وكذلك الدخول إلى كل أمر فيه خير، والخروج من كل أمر فيه شر.

قال ابن عباس ﷺ: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أُمر بالهجرة، فأنزل الله هذه الآية[١].

وقال الحسن البصري: إن كفار مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ؛ ليقتلوه، أو يطردوه، أو يوثقوه، وأراد قتال أهل مكة، أمره ربه أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله فيه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾[٢].

قال ابن عاشور: والظاهر أن هذه الآية نزلت قبيل بيعة العقبة الأولى، التي كانت مقدمة الهجرة إلى المدينة[٣]. فالآية عامة، ولعل الأمر بالهجرة هو سبب النزول:

المراد بالسلطان النصير في الآية:

وقال قتادة: إن نبي الله علم أن لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانًا نصيرًا لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم[٤].

ولذا: سأل النبي ربه أن يؤيده بالحجة والبرهان، وبالعزة والسلطة، والقوة والمنعة؛ لكي يبلّغ رسالة ربه، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾.

والسلطان: هو الحجة، والبيِّنة الثابتة التي ينتصر بها الرسول ﷺ على جميع الخلق الذين خالفوا دعوته، بأن يُظهِر الله هذا الدين على سائر الشرائع، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف]

---

(١) «المسند» (١/ ٢٢٣) برقم (١٩٤٨) بإسناد ضعيف والترمذي (٣١٣٩) والطبراني (١٢٦١٨) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٦١١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٥/ ١٠٠) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١١١).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/ ١٠٠).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١١١).

ولابد لإقامة الحق من قوة تدعمه وتسانده، فتقهر أهلِ الباطل وتدحضهم، وتحول بينهم وبين الوقوف في وجه انتشار الدعوة، فلن يكون الدين عزيزًا قويًّا إلا بغلبة الأعداء، ولذا: فقد وعد الله رسوله بنزع مُلك فارس، والروم، وغيرهما، وعصَمه بحفظ دمه من أعدائه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

وقال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة].

وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور: ٥٥].

وقد أيَّد الله رسله بالقوة المادية، والحجج البينة لإقامة الحق وظهور الشريعة، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد]

فقد جمعت الآية بيْن الحجة النقلية، وهي الكتاب، والحجة العقلية، وهي البينات، والعدل، وهو الميزان والقسط، والقوة المادية، وهي الحديد.

وبيَّنتْ الآية أن نصر الله سبحانه، وقوة المؤمنين وعزتهم، تتحقق بهذه الأمور مجتمعة.

وجاء في الأثر: إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

أي: يمنع بالقوة والغلبة، ما لا يمنعه بالبرهان، والدليل النقلي.

ولما استعمل النبي ﷺ (عتَّاب بن أسيد) على أهل مكة، قال له: «**انطلق فقد استعملتك على أهل الله**»، فكان شديدًا على المريب، ليِّنًا على المؤمن، وقال: لا، والله لا أعلم متخلفًا يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه؛ فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله، لقد استعملت على أهل الله (عتَّاب بن أسيد) أعرابيًّا جافيًا، فقال ﷺ: «**إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتَّاب بن أسيد أتى باب الجنة، فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقالًا شديدا، حتى فُتح له فدخلها، فأعزَّ الله به الإسلام لنصرة**

المسلمين على من يريد ظلمهم، فذلك السلطان النصير»[(١)].

وطلبُ النبي ﷺ السلطان لنصره في تبليغ الدعوة وانتشار الإسلام، لا للتعالي وطلب الجاه، فكأنه ﷺ يقول: واجعل لي - يا إلهي - حجة تنصرني بها على من خالفني، وقوة غالبة تُرهب المبطلين وتُعينني على إقامة دينك، وإزالة الشرك والكفر.

مَجِيءُ الْإِسْلَامِ بِالتَّوْحِيدِ وَإِزَالَةِ الشِّرْكِ

٨١-﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾

ثم لقَّن الله رسوله أن يدعو ربه بتسديده وتأييده؛ لإقامة الحق، وإبطال الباطل، بإظهار أمره وفوزه على أعدائه، فأمره الله أن يقول للمشركين: جاء الإسلام وذهب الشرك؛ لأنه باطل، والباطل لا يثبت، وإنما ينتفش وينتفخ، ثم يتهاوى ويسقط، أما الحق فهو يحمل عناصر البقاء، ولذلك فهو ثابت لا يزول.

فالحق هو الإسلام وتعاليمه، والباطل هو الشرك وسائر المعاصي.

وقد قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ].

وفي الآية التي معنا بشارة لرسول الله ﷺ بإظهار الحق وهو الإسلام، وما تضمَّنه القرآن من التوحيد وغيره، وزوال الباطل، وهو دولة الشرك والوثنية، وقد ظهر الإسلام وانتشر في الآفاق، فهذا كتاب الله بين أيدينا، وقد ذهبت دولة الشرك من جزيرة العرب، وسوف تذهب بمشيئة الله تعالى من العالم كله ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ لا ثبات له مع الحق.

وقد استحضر النبي ﷺ هذه الآية الفذة الجامعة، فألقاها على مسامع أعدائه يوم فتح مكة:

ففي الصحيح وغيره: أن النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحًا وجد حول الكعبة ثلاث مئة وستين صنمًا، فأخذ ﷺ يطعنها بقضيب في يده، فتسقط وتتكسر وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ

(١) تفسير الكشاف (٢/ ٦٨٨).

﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[١].

الْقُرْآنُ شِفَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ وَشِفَاءٌ لِلْأَبْدَانِ

٨٢-﴿وَنُنَزِّلُ[٢] مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾

وهذا الحق المزهِق للباطل يتمثل في القرآن؛ والقرآن يشتمل على الشفاء والرحمة الخاصة بالمؤمنين، لأن القرآن هو وعاء الإسلام، وهذا القرآن فيه شفاء للناس: شفاء للأرواح والقلوب من الجهل والضلال، وفيه شفاء من الشرك والشك والشقاق والنفاق، ومن الشح والحسد والكبر، وشفاء للأبدان من العلل والأمراض كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه كان في سرية فنزلوا على قوم فأبوا أن يضيفوهم، فلُدِغ سيد الحي فسألوهم: أفيكم من يَرقِي من لَدْغ العقرب؟ قال: نعم، ولكن لا أرقي حتى تعطونا، فأعطوهم ثلاثين شاة، فقرأ عليه الفاتحة سبع مرات، فقال ﷺ: **«وما يدريك أنها رقيه؟»** قال: يا رسول الله، أُلقي في رُوعي قال: **«كلوا وأطعمونا من الغنم»**[٣].

فثبت بهذا أن الرُّقيا بالقرآن، أوالاستشفاء به، أمر مشروع، وهو شفاء للأبدان والأجسام كما هو شفاء للقلوب والأرواح ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ هذه الرحمة خاصة بالمؤمنين؛ لأنهم يهتدون بسببه؛ فالمؤمنون هم الذين ينتفعون بالقرآن، أما الظالم وغير المؤمن، فهو لا ينتفع به؛ لأنه يكذبه، ويجحده، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

فكل آية من القرآن فيها أمر ونهي، ووعد ووعيد، وهي مشتملة على هدى وصلاح للمؤمنين، وعلى عكسه للكافرين، فيزدادون غيظًا وكراهية للإسلام، فيزيدهم ذلك آثامًا، وبعدًا، وهلاكًا، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظَر: «البخاري» برقم (٢٤٧٨، ٤٧٢٠) و«مسلم» برقم (١٧٨١) و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٤/ ٤٨٧) و«الترمذي» (٣١٣٨) والنسائي في «الكبرى» (١١٢٩٧، ١١٤٢٨).

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بتخفيف الزاي وإسكان النون من (وننزل) مضارع أنزل، وقرأ الباقون بتشديد الزاي وفتح النون، مضارع نزل، ومثلها (حتى تنزل) في الآية[٩٣].

(٣) يُنظَر: «البخاري» (٢٢٧٦، ٥٧٣٦، ٥٧٤٩) و«مسلم» (٢٢٠١).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ﴾ [فصلت: ٤٤].

الْكَافِرُ لَا يَشْكُر فِي السَّرَاءِ وَلَا يَصْبِر عَلَى الضَّرَاءِ

٨٣-﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا[(١)] بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾

بيَّن ﷺ السبب النفسي الذي يوقع الكافرفي الحرمان من الخير؛ فالإنسان بغيرالقرآن، إذا تُرك إلى نزعاته وشهواته ورغباته فإنه يضل الطريق، وفي هذه الآية تصويرلحال غير المؤمن عند الشدةوالرخاء، والعسر واليسر؛فالإنسان الكافر حين يُنعم الله عليه بالصحة، وبالأمن، وبالرزق، فإنه يبتعد عن ذكر الله تعالى وشكره، ويتكبر وينسى ربه في وقت الرخاء، وإذا مسه الشر فإنه يجزع ويفزع، كما فسرت ذلك سورة المعارج [١٩-٢٢] فوصفتْه بالهلع فقالت َ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ ثم فسرت الآية التيبعدها الهلع فقال تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ يجزع عند الشر ولا يصبر، وإذا مسه الخير يمنع ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ ووصفهم ربنا بأوصاف تلي هذه الآية في سورة المعارج.

فالمعنى: أن الله تعالى إذا أنعم على الإنسان المكذب بآيات الله، بنعمة كالصحة، والأمن، والثراء تولى وتباعدعن طاعة الله،فهو ينكرالجميل في حالة السراء والرخاء، ويكفر بنعمة الله عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ﴾

فإذا زالت عنه هذه النعم، وأصبح في حالة الضراء والشدة، كالفقر، أو المرض، أو الخوف،فإن حاله لا يصلح،بل يظل ملازمًا لنكران الجميل،عاكفا ًعلى كفره وشركه، وعدم التوبة إلى الله تعالى، فيضيق صدره، ويقنط يائسًا من فضل الله تعالى، قاطعًا للرجاء في حصول الخير، وهذا معنى ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ فهو إلى شر في كلتا الحالتين: إذا كان في نعمة طغى،وبغى، وتكبر، وإذا زالت عنه النعمة يئس من الخير،

---

(١) قرأ ابن ذكوان وأبو جعفر (وناء بجانبه) بألف ممدودة بعد النون وبعدها همزة مفتوحة، بمعنى: نهض، وقرأ الباقون (ونآى) بهمزة مفتوحة ممدودة بعد النون، من النأي، وهو: البعد.

وضاق صدره.

١- وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [هود].

٢- وقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم].

٣- وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]

٤- وقوله: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت].

٥- وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].

٦- وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠].

وعلى هذا فإن طبيعة الإنسان أن يفرح بالنعم، ويقطع الرجاء عند حدوث النقم، إلا من هداه الله، فإنه عند النعم يشكر ربه ويقوم بواجبها عليه، وعند النقم يسأل الله العافية وإزالة ما وقع فيه.

ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان، وما فيه من رحمة للإنسان في السراء والضراء على حد سواء.

كُلُّ إِنَاءٍ يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ

٨٤-﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

ثم ذم الله الكافر، ومدح المؤمن بقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي: كل إنسان يعمل ما يشاء وفق أخلاقه، وفطرته، وسجيته، وما يناسبه من أحوال، وما هو عليه من هدى أو ضلال، فإن كانت نفس الإنسان صافية مشرقة صدرت عنه أفعال حسنة، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة، صدرت عنه أفعال سيئة شرِّيرة، فربكم أعلم بأهل الهداية ومن

يسلكون طريقها، فيوفقهم ويسددهم.

وفي هذا ترغيب للمؤمن وإنذار للكافر، كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود].

والله سبحانه سيجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

وفي الآية تهديد بعاقبة العمل السيئ، وتحذير من سلوك طريق الضلال، والحث على سلوك طريق الهديوالرشاد.

الرُّوحُ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى

٨٥- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

ثم ذكر الله تعالى جانبًا من الأسئلة التي كانت توجه للنبي ﷺ على سبيل التعجيز؛ لتكذيبه في دعوى النبوة، وقد كان بين قريش وأهل يثرب، مصاهرة وتجارة وصحبة، وكان لكل يثربيٍّ صاحب بمكة، ينزل عليه، كما كان بين أمية بن خلف وسعد بن معاذ، وكانت قريش تخالط نصارى الشام في رحلة الصيف، فاستفادت قريش من اليهود شيئًا، ومن النصارى شيئًا بحكم الصلات والعلاقات بينهما، وقد جاء السؤال من اليهود للنبي ﷺ عن الروح منفردًا، وجاء مع سؤالين آخرين عن أهل الكهف وعن ذي القرنين، كما سئل النبي ﷺ عن الروح وهو في مكة، وسئل عنها وهو في المدينة، وكانت الإجابة بالآية نفسها:

(أ) في الصحيحين، وغيرهما: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متكئ على عسيب (أي: على عصى من جريد) قال: فمر بنفر من يهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فسألوه، فقام ﷺ ينتظر الوحي ساعة، قال: ثم رفع رأسه إلى السماء، فتأخرتُ عنه، وعلمتُ أن الوحي قد نزل عليه، ولما صعد الوحي قرأ ﷺ هذه الآية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[١].

---

(١) يُنظَر «المسند» (١/٣٨٩١) برقم (٣٦٨٨) و(٣٨٩٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) و«البخاري» برقم (١٢٥، ٤٧٢١، ٧٤٦٢) و«مسلم» برقم (٢٧٩٤) و«الترمذي» (٣١٤١) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٢٩٩) وابن حبان (٩٨).

(ب) وأخرج الترمذي، وغيره من طريق ابن أبي مليكة عن ابن عباس ﷺ أن المشركين في مكة أرسلوا إلى أحبار يهود في المدينة، يقولون لهم: أعطونا شيئًا نسأل عنه هذا الرجل، أي: محمدًا ﷺ، فقالوا لهم: سلوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله سبحانه الآية ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الحديث[١].

هذان سببان لنزول الآية يفيدان التعاون بين كفار قريش وبين يهود المدينة في محاولاتهم لتعجيز رسول الله ﷺ وإفحامه، ويفيدان أيضًا أن هذه الآية تعدد نزولها، نزلت بمكة، ونزلت بالمدينة؛ لأن السورة مكية.

(ج) وفي رواية لابن عباس أيضًا أن نفرًا من قريش اجتمعوا، وقالوا: إن محمدًا نشأ فينا بالأمانة والصدق، وما اتهمناه بكذب قط، وقد ادعى النبوة، فابعثوا نفرًا من اليهود بالمدينة واسألوهم عنه؛ فإنهم أهل كتاب، فبعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، فقالت اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجاب عنها كلها، أو لم يُجب عن شيء منها فليس بنبي، وإن أجاب عن اثنتين ولم يجب عن واحدة، فهو نبي: اسألوه عن فتية فُقدوا في الزمن الأول، ما شأنهم؟ فإن لهم حديثًا عجيبًا، وعن رجل بلغ مشرق الأرض ومغربها، ما خبره؟ واسألوه عن الروح، فسألوا النبي ﷺ فقال: «**أُخبركم بما سألتم غدًا**»، فتأخر الوحي خمسة عشر يومًا؛ معاتبة على ترك الاستثناء، حتى حزن النبي ﷺ وشق عليه ذلك، ثم نزل جبريل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

ونزل في الفتية ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف].

ونزل فيمن بلغ المشرق والمغرب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف].

ونزل في الروح ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[٢].

---

(١) الترمذي (٣١٤٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥١٠) و«المسند» (٢٣٠٩) بإسناد صحيح (محققوه) و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٣١٤) وابن حبان (٩٩) وأبو يعلى (٢٥٠١) والحاكم (٢/ ٥٣١).

(٢) «تفسير الخازن» (٣/ ١٧٩).

فوقع السؤال عن الروح منفردًا كما في السببين السابقين، ووقع السؤال عنها مع المسألتين الأخيرتين مرة أخرى كما في هذا السبب، وكلها نزلت بمكة، وإن كانت سورة الإسراء متقدمة في النزول على سورة الكهف، على معنى أن النبي ﷺ أجاب عن سؤال الروح بما في سورة الإسراء، وأجاب عن أهل الكهف وعن ذي القرنين بما في سورة الكهف.

ولما سأل اليهود النبي ﷺ -كما في الرواية الأولى- انتظر إجابة الوحي ظنًّا منه أنه سيجيبهم بغير ما أجاب به قريش؛ لأن اليهود أقرب إلى فهم معنى الروح، فأعلمه الله تعالى أن اليهود وقريشًا يستويان في العجز والجهل، وكان الجواب واحدًا؛ حيث أمره الله أن يتلو عليهم آية الإسراء، أو أنه قد تكرر نزول الآية.

وكان سؤالهم عن حقيقة الروح التي يحيا بها الإنسان وبيان ماهيتها، فهي أمر غير مشاهد، ولو شُرِّح الجسد فإنه لن يفقد شيئًا من أعضائه الظاهرة أو الباطنة، فكيف تتصل بالجسد؟! وكيف تفارقه؟! وقد صرف الله السائلين عن الإجابة، وبيَّن أنها مما استأثر الله بعلمه، وليس في هذا حَجْر على العقل من النظر والعمل، ولكنه توجيه للعقل أن يعمل في حدوده.

وقد نص العلماء على أن هذه الآية لا تصد عن البحث في حقيقة الروح؛ لأن الجواب نزل لطائفة من اليهود ولم يُقْصدْ به المسلمون(١).

المراد بالروح: والروح مخلوقة لله تعالى قبل خلق البدن، أو عنده، وهي تبقى بعد فناء الجسد، وتحضر يوم الحساب، والروح تطلق في القرآن، ويراد بها عدة معانٍ:

١- فقد يراد بها: جبريل عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤] أي: جبريل.

وكما في قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥].

فلفظ الروح في هذه الآيات الثلاث يراد به جبريل الذي يَنْزِل بالوحي من عند الله، سواء أنزل على محمد ﷺ أم على غيره من الرسل.

---

(١) نقله ابن عاشور في تفسيره عن أبي بكر العربي في «العواصم» والنووي في «شرح مسلم»، «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/ ٢٠٠).

٢- وتطلق الروح، ويراد بها: القرآن كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

٣- وتطلق الروح على عيسى ﷺ؛ لأنه خُلق بكلمة كن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

٤- وتطلق الروح على الموجود الخفي الذي يحيا به جسد كل كائن حي، فيكون النمو والإحساس، ويموت هذا الكائن الحي عند مفارقتها للجسد.

والروح في هذه الآية: هي الروح التي يحيا بها الجسد؛ لأن القلوب تحيا بها، وهي من عند الله سبحانه، ومما استأثر الله جلَّ شأنه بعلمها.

وقد عجَز العقل البشري عن معرفة حقيقة الروح إلى يومنا هذا، وفي هذا إشارة إلى أن العقل ضعيف مخلوق محدود، له إمكانات لا يستطيع أن يتعداها، فلا ينبغي له أن يبدد طاقته فيما لا يمكنه إدراكه، فإذا عجز العقل عن معرفة حقيقة الروح فهو من باب أولى يكون عاجزًا عن إدراك الذات الإلهية، وعن كنهها وحقيقتها.

ومع أن الله سبحانه قد فوَّض أمر معرفة الروح إليه سبحانه، وبيَّن أنها مما استأثر الله بعلمه، وأنها من أمر الله وتكوينه، كما قال تعالى عن آدم ﷺ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] فإن بعض العلماء والمفسرين تحدثوا كثيرًا في معنى الروح، وهو كلام اجتهادي، لا يفيد شيئًا يقينيًا مقطوعًا به في معنى الروح:

معاني الروح:

١- قالوا: إن الروح هي النفْس، والصحيح: أنهما شيئان.

٢- وقالوا: إن الروح هي الدم الذي يجري في الأوردة والعروق؛ لأن بانقطاعه، وتوقُّفه تتوقف الحياة.

٣- وقالوا: إنها عرَض.

٤- وقالوا: إنها جسم لطيف نوراني يعيش به البدن.

٥- وقيل: إنها من الجواهر المجردة.

فهذه خمسة أقوال من بين أكثر من مئة وثمانية عشر قولًا، قيلت في معنى الروح، وهي من باب التصور والاجتهاد.

ولما نزلت ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال اليهود: نحن أم أنتم؟ لقد أوتينا العلم والحكمة، والتوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى - قبل تحريفهما - فيهما خير وعلم وحكمة كثيرة، ولكن هذا الخير الكثير بالنسبة إلى علم الله تعالى شيء قليل، فهي ردٌّ على اليهود.

قال عطاء بن يسار: نزلت بمكة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود، فقالوا: يا محمد، بَلَغَنَا أنك تقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أفَعَنَيْتَنا أم قومَك؟ قال: «**كُلًّا عَنَيْتُ**» قالوا: فإنك تتلو: إنَّا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به انتفعتم**» فأنزل الله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

والله ﷻ يبيِّن أن القرآن الذي أوتيه محمد ﷺ فيه العلم والحكمة، وفيه الخير كله.

والآية عامة بالنسبة للخلق أجمعين، فعلمهم قليل محدود، بالنسبة إلى علم الله سبحانه، كما قال الخضر لموسى عليهما السلام: ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله تعالى إلا كما نقص هذا العصفور من البحر، وكان قد نقر في البحر ليشرب.

قال تعالى في الرد على اليهود: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

هذا: وفي الآية ردع لمن يسأل تعنُّتًا وتعجيزًا، ولهذا فقد أمر الله رسوله أن السؤال عن الروح ليس فيه كبير فائدة، وأن علمهم قليل بالنسبة لعلم الله تعالى، وفيها أن المسؤول ينبغي له أن يوجه السائل إلى ما هو أهم من سؤاله، مما يرشده وينفعه.

مَانِحُ الْعِلْمِ قَادِرٌ عَلَى سَلْبِهِ

٨٦-﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾﴾

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يفيد أن الإنسان مُنح علمًا، ومُنع علمًا، كعلم الروح، فقد بيَّن ﷻ أن الذي منح العلم قادر على سلبه، وخوطب بذلك النبي ﷺ؛ لأن علمه أعظم العلوم، فإذا كان علمه خاضعًا لمشيئة الله تعالى، فما بالكم بعلم غيره؟ وفي هذا امتنان من الله تعالى على نبيه، وتحذير لسائر العلماء.

من أدلة انتزاع العلم:

١- قال عبد الله بن مسعود ﷺ: **«اقرؤوا القرآن قبل أن يُرفع؛ فإنه لا تقوم الساعة حتى يُرفع»**[(١)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يُرفع القرآن من حيث نزل، له دويٌّ حول العرش كدويِّ النحل، فيقول الرب: ما لك؟ فيقول: يارب، أُتْلَى ولا يعمل بي»**[(٢)].

٣- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: **«ولَيُنْزَعنَّ القرآن من بين أظهركم، يُسرى عليه ليلًا، فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى في الأرض منه شيء»**[(٣)].

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: **«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالم، اتخذ الناس رؤساء جهالًا، فسألوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»**[(٤)].

ويبدو من مجموع الأدلة أن انتزاع العلم يكون بقبض العلماء أوَّلًا، ثم يكون برفع القرآن آخرًا، وذلك حين يأتي عليه وقت يُقرأ ولا يُعمل به، والله أعلم. والعلم الحقيقي يتضمنه هذا القرآن.

والله سبحانه يمتنُّ على رسوله ﷺ بأنه أوحى إليه هذا القرآن، ولو شاء جلَّ شأنه لمحاه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: ولئن شئنا ذهاب القرآن من صدرك

---

(١) «تفسير الخازن» للآية، والأثر في «شعب الإيمان» للبيهقي (٢٠٢٦).

(٢) «تفسير الخازن» للآية والأثر أخرجه محمد بن نصر في كتاب الصلاة، كما في «الدر المنثور» (٩/ ٤٣٩).

(٣) ذكره الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ١٣) من رواية الطبراني (٨٦٩٨، ٨٧٠٠) وقال: سنده صحيح موقوف عليه وبنحوه عند ابن أبي شيبة (١/ ٥٣٤) وابن أبي حاتم (١٦٥٨٦) والحاكم (٤/ ٥٠٤) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٢): رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة.

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم برقم (٢٦٧٣).

لأذهبناه من الصدور فمحوناه من السطور، ومحوناه من صدرك، ومحوناه من المصاحف ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أي: لا تجد بعد ذهابه ومحوه من يتوكل عنا برده إليك في صدرك، أو بتسطيره في الكتب والسطور مرة أخرى وليس هناك من يمنعنا من ذلك. قال تعالى:

٨٧-﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾

أي: ولكنا لم نشأ محو القرآن، وإزالته عنك، بل أبقيناه في صدرك رحمة من ربك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أن الله سبحانه أبقى هذا الوحي، محفوظًا تفضلًا منه سبحانه، ومنة على عباده، ورحمة وفضلًا منه جلَّ شأنه ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾، فلْتغْتبط به، وتقرّ به عينك، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، ولا استهزاء المستهزئين.

ومن فضل الله تعالى على رسوله ﷺ أن أعطاه هذا القرآن.

ومن فضل الله على رسوله أن أعطاه المقام المحمود.

ومن فضل الله على رسوله أن غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ومن فضل الله على رسوله أن ختم به النبوة والرسالة.

ومن فضل الله على رسوله أن شرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره.

ففضل الله عليه كبير، وأعظمه القرآن والوحي، فهو أكبر النعم على الإطلاق.

التَّحدِّي بِإعْجَازِ الْقُرآنِ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٨٨-﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾

ولما كان القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا؛ فإن الله تعالى قد تحدى الذين لا يزيدهم إلا خسارًا، أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه فعجزوا عن كل ذلك مع معارضتهم له، وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به محمد ﷺ، حيث تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

ولو تعاونوا كلهم على ذلك، فإنهم لن يقدروا، وهم أهل الفصاحة والبلاغة.

وإذا عجز البشر عن معرفة حقيقة الروح وكُنهها؛ فإنهم عاجزون كذلك عن مضاهاة هذا

القرآن، ومحاكاته، ومعارضته من الإنس والجن كلهم.

فالنبي ﷺ بُعث إلى الثقلين: الإنس، والجن، وخلق الله الجن قبل خلق الإنس، وفي سورة الذاريات [٥٦]: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ قدَّم الله الجن على الإنس في مقام العبودية؛ لأنهم خلقوا أوَّلًا.

وقدَّم الإنس على الجن في هذه الآية من سورة (الإسراء)؛ لأن الإنس هو المعارض للقرآن، فهو أولى بالتقديم ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي بما يشبهه، ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ ولو تعاونوا على ذلك وتضافرت جهودهم على الإتيان بما يشبه هذا القرآن وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، وكان بعضهم يزعم أن الجن له قدرة على الإتيان بمثل هذا القرآن في نظمه ومعانيه، وفي مناهجه وبلاغته، فنفى الله تعالى ذلك نفيًا قاطعًا: فقال: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ أي: ولو تعاون الإنس والجن معًا في هذا المقام ما استطاعوا، وذِكْرُ الجن مع الإنس بقصد التعميم، كما يقال: لو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض، فنفى إمكانية ذلك، ولو تظاهروا وتعاونوا.

وفي **أسباب النزول**: أن هذا التحدي حصل أيضًا لليهود؛ حيث قالوا: يا محمد، إن الله يصنع لرسوله إذا بعثه، ما شاء، فأنزِلْ علينا كتابًا نقرؤه ونعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله الآية[١].

وفي **أسباب النزول** أيضًا: أن جماعة من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن، فإننا نقدر على المجيء بمثله[٢]. وقد وقع هذا التحدي على **أربع مراحل**:

أولها: تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثل القرآن كله، كما في هذه الآية التي معنا، والآية التي في سورة الطور ٣٤ ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾.

وثانيها: أن يأتوا بمثل عشر سور منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝﴾[هود].

وثالثها: أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟

(١) أخرجه الطبري بسند حسن من طريق ابن إسحاق عن ابن عباس.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٨٣).

بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾[يونس].

وهذه المراحل الثلاث كانت بمكة.

ورابعها: إن عجزوا عن الإتيان بمثل سورة واحدة من القرآن، فليأتوا بسورة من مثله، أي: تشبه كلامًا يشبه القرآن، جاء ذلك في آية مدنية من سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾[البقرة].

وقد عجز الإنس والجن معًا عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن، والتحدي قائم إلى قيام الساعة، كما حدث في فترتي الدعوة بمكة والمدينة معا، وكيف يمكن للمخلوق العاجز أن يعارض كلام رب الأرض والسماء، فكما أن المخلوق لا يماثل الله تعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله، فكذلك كلام الله تعالى وهو من أوصافه، لا يماثله فيه أحد. قال تعالى:

٨٩-﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[1] لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

ثم ذكر ﷻ جانبًا من جوانب إعجاز القرآن الذي اشتمل عليها، وهو ضرب الأمثال، وتنويع المواعظ، وبيان الحجج والبراهين القاطعة، وتوضيح الحق بالآيات والعبر، والترغيب والترهيب، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾.

أي: أن الله سبحانه كرر وبيَّن الأحكام والتشريع بوجوه مختلفة، وأمثلة متعددة، فأَمَر ونهى، ورغَّب ورهَّب، وذكر الأمثال والقصص بأساليب متنوعة؛ ليعتبر الناس وليستفيدوا، ولكن لم يتعظ منهم إلا القليل، أما الكثير فيقول الله تعالى عنهم: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحودًا للحق، وإنكارًا لحجج الله تعالى وأدلته، فلم يستجيبوا لهديه، وامتنعوا عن الإيمان به، وعَمُوا، وصَمُّوا عن الحق الذي جاء به رسول الإسلام ﷺ.

وفي هذه الآية زيد لفظ (الناس) عن الآية السابقة [٤١]؛ لأن هذه الآية في مقام التحدي والإعجاز، فالناس فيها هم المقصودون أصلًا، أما الآية السابقة فهي في مقام توبيخ المشركين خاصة.

---

(١) أدغم الدال في الصاد من (ولقد صرفنا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

إِجَابَةُ الْكُفَّارِ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِمْ لَا يُدْخِلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ

٩٠-﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ[1] لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾

ولما خُتمت الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بيَّن سبحانه في هذه الآية كُفْر من كفر بالقرآن فلم يؤمن به، وطلب معجزات أخرى.

كبار كفار قريش يُساومون النبي ﷺ:

١- ومن ذلك ما رواه عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن عددًا فوق العشرة ،من كبار كفار قريش، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، وأرسلوا إلى النبي ﷺ؛ ليجادلوه، ويكلموه، ويخاصموه، فجاء ﷺ مسرعًا، وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصًا على هداية القوم وإرشادهم، فقالوا له: يا محمد، إنا بَعثْنا إليك لِنُعذَر فيك، وإنا والله لا نعلم رَجُلًا من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك، لقد عِبْتَ آلهتنا، وشَتمْت آباءنا، وسفَّهت عقولنا، وفرَّقتَ جماعتنا.

فإن كنت تريد بهذا الحديث مالاً جمعْنا لك من أموالنا؛ حتى تكون أكثرنا مالاً.

وإن كنت تريد شرفًا، وسيادة سوَّدناك علينا.

وإن كنت تريد مُلكًا ملَّكْناك علينا.

وإن كان الذي يأتيك مسًّا من الجن بَذلْنا لك من أموالنا، وجلبنا لك الأطباء؛ حتى تبرأ مما أنت فيه.

فقال ﷺ: **«لا أطلب شيئًا من ذلك، ما جئتُكم لطلب أموالكم، ولا للشرف عليكم، وإنما بعثتُ إليكم بشيرًا ونذيرًا، وأنزل الله عليَّ كتابًا، فبلغتكم رسالة ربي، فإن تؤمنوا بي وتصدقوا قولي، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن لم تؤمنوا وتُعرضوا عني فأصبرُ حتى يحكم الله بيني وبينكم»**.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح التاء وسكون الفاء وضم الجيم من (تَفْجُرَ) مضارع فَجَر الأرض، بمعنى: شقها، والباقون بضم التاء وفتح الفاء وكسر الجيم مشددة هكذا (تُفَجِّرَ) مضارع فجَّر المضعف؛ للدلالة على تكثير النبع أو العيون.

قالوا له: فإن لم تقبل ما قلناه لك، فأنت تعلم أن أرضنا وبلادنا ضيقة، ولا يوجد أقل مالًا، ولا أشد عيشًا منا، فنحن نعيش في جبال مكة، ولا يوجد عندنا المياه، فسل ربك أن يسيِّر هذه الجبال، وأن يفجِّر لنا الأرض فتكون أنهارًا، كأنهار الشام والعراق، وتكون الحدائق والبساتين والزروع والأشجار، وما إلى ذلك، فأنت ترى ما نحن فيه من ضيق العيش.

وأَخْرِجْ لنا أبناءنا، وأجدادنا الذين ماتوا سِيَّمَا قُصيُّ بن كلاب، حتى نكلِّمه ويكلِّمنا، فإنه كان شيخًا صَدُوقًا فنسأله عما تقول، أهو حق، أم باطل؟

فإن لم تفعل فاسأل ربك أن يبعث ملَكًا يصدقك بما تقول، وتسأله، فيجعل لك جنات، وكنوزًا من ذهب وفضة، ويغنيك عما نراك من غشَيانك للأسواق، والْتِمَاسِك المعاش كما نلتمس، حتى نعرف فضلك ومنزلتك عند ربك إن كنت رسولًا.

فقال لهم: **«ما أنا بالذي يسأل ربه ذلك، وما بعثتُ بهذا، ولكن الله بعثني إليكم بشيرًا ونذيرًا»**.

قالوا: إن لم تقْدِر على الخير، فافعل الشر، إن لم تقدر على المنافع فأت بالمضار: اجعل السماء تنزل علينا قطعًا؛ حتى نؤمن بك، أي: أنهم يستعجلون نزول العذاب بهم على وجه الاستهزاء، كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهم يشيرون إلى قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[سبأ: ٩] قالوا: فأسقط السماء علينا قطعًا من العذاب كما تقول.

قال: **«ذلك إلى الله، إن شاء فعل بكم»**[1].

٢- قال عبد الله بن أمية: والله لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء، أي: تصعد إليها ونحن ننظر إليك.

٣- وقال ابن أمية: وسألوك أشياء يعرفون بها منزلتك، فلم تفعل، وسألوك نزول العذاب فلم تفعل، ولن نصدقك حتى تأتي إلينا بكتاب نقرؤه، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون بصدق قولك، فقد عَرَض عليك قومك ما عرضوا فلم تفعل.

٤- وقال آخر: لن نؤمن لك حتى تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، وتأتي بربك

---

(١) يُنظر مشكاة المصابيح (١١٥٦) عن مالك بنحوه.

نشاهده فيقف أمامنا، ويشهدون لك بصدق ما تقول.

فكان جواب النبي ﷺ مليئًا بأدب الرسول والرسالة: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ فلا يستطيع ذلك إلا رب العالمين، وانصرف ﷺ حزينًا آسفًا[1].

ونظير ذلك قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ [الفرقان].

قال تعالى مجيبًا لهم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾ [الفرقان].

وقد أُعطي النبي من المعجزات ما يُغني عما طلبوه، فقد أُعطي القرآن، وأعطي انشقاق القمر، ونبع الماء من بين أصابعه، وكثير من الآيات الحسية، ولكنهم كانوا متعنتين جاحدين، وليس قصدهم طلب الدليل.

ثم إن الله سبحانه أعلم بما يصلح أحوالهم كما بيَّن جلَّ شأنه: فلو فُرض أن الله تعالى نزَّل إليهم الملائكة كما طلبوا، وكلمهم الموتى، أي: أخرجناهم من قبورهم فكلموهم كما يطلبون، وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلًا، فرأوا الله تعالى، ورأوا الملائكة معاينة أمامهم -كما طلبوا- لو أجيبوا إلى كل هذا، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله.

إذن: فطلب الآيات لا تنفعهم شيئًا، فهم يطلبون أن يصعد محمد ﷺ إلى السماء، ويأتي منها بكتاب يشهد له، والله سبحانه يجيبهم: ولو أننا نزلنا عليك كتابًا مكتوبًا، ومنشورًا في ورق -كما طلبوا- فلمسوه حقيقة وعيانًا، وأمسكوه بأيديهم.

﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ كما طلبوا ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون من هذا الباب إلى السماء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجر].

(١) يُنظَر هذا في: «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٩٦) و«أسباب النزول» للواحدي (٢٤٧) و«تفسير الطبري» (١٥/ ١١٠) والقرطبي (١٠/ ٣٢٨) وابن كثير والبغوي و«زاد المسير» وغيرهم.

وقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الأنعام: ١١٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[يونس].

وقد أنزل الله سبحانه هذه الآيات من سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ أي: عيونًا جارية في أرض مكة ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾ أي: تجري الأنهار في وسطها بغزارة ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب مزركش، بحيث يكون البيت مزركشًا بالذهب، ومزينًا به ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ ولن نصدق صعودك حتى تعود، ومعك كتاب نقرؤه ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ هذه مطالب ستة، منها ثلاثة في حكم الممكن، ومنها ثلاثة في حكم الاستحالة، إلا على الله سبحانه.

وهذه المقترحات الست جاءت في الآيات الأربع على النحو التالي:

الْاقْتِرَاحُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُخرِجَ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَنْهَارًا جَارِيَةً:

قالوا: لن نصدقك -يا محمد- ولن نتبعك فيما تدعونا إليه، ونعمل بما تقول، حتى تُخْرِج لنا من أرض مكة عينًا جارية غزيرة، لا ينقطع ماؤها ولا يغور، ولا ينقص في وقت من الأوقات، وهذا معنى ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾.

الْاقْتِرَاحُ الثَّانِي: أَنْ تَكُونَ لَهُ حَدِيقَةٌ مُثْمِرَةٌ تَتَفَجَّرُ فِيهَا الْأَنْهَارُ

٩١-﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾

أي: أن تكون لك بصفة خاصة حديقة فيها أنواع النخيل والأعناب، ملتفة الأغصان، تتفجر الأنهار في وسطها بقوة وغزارة، فنستغني بها عن الأسواق، والذهاب والمجيء إليها، وكان النخيل والأعناب أهم الثمار عندهم.

وهذان الاقتراحان في حكم الممكن بالنسبة للبشر.

الاقْتِرَاحُ الثَّالِثُ: أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِمْ الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ

٩٢-﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[١] أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾

أن تجعل السماء تتساقط علينا قطعة قطعة، كما هدَّدتنا من أن في قدرة ربك أن ينزل علينا عذابًا من السماء إن لم نؤمن بك، هذا هو الاقتراح الأول في هذه الآية.

الاقْتِرَاحُ الرَّابِعُ: أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ عَيَانًا:

أن تُحضر لنا الله وملائكته فنراهم عيانًا ومقابلة، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ وهذا جرأة على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ كما طلب اليهود من نبيهم موسى عليه السلام فقالوا ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وهو الاقتراح الثاني في هذه الآية، وهذان الاقتراحان مستحيلان على البشر.

الاقْتِرَاحُ الخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ

٩٣-﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ[٢] فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ[٣] عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ[٤] سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

أي: أن يكون لك قصر عظيم مزخرف ومشيد من الذهب يناسب مكانتك، وليس من الحجَر والطين، وهذا الاقتراح في حكم الممكن بالنسبة للبشر، وهو الاقتراح الأول في هذه الآية.

الاقْتِرَاحُ السَّادِسُ: أَنْ يَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَيَأْتِي لَهُمْ بِكِتَابٍ يُصَدِّقُهُ

أي أن تصعد في درج إلى السماء، مع مشاهدَتِنا لك، ولن نصدقك في صعودك حتى تعود إلينا ومعك كتاب كامل من الله بِلُغَتِنا، وأسلوبنا نقرؤه، ونفهم ما فيه، ويدل دلالة

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر، بفتح السين من (كسَفًا)، والباقون بإسكانها.

(٢) أمال حمزة والكسائي وخلف ألف (ترقى)، وقللها ورش بخلف عنه، وفتحها الباقون.

(٣) قرأ أبو عمرو ويعقوب بالتخفيف في (تنزل)، والباقون بالتشديد في الزاي.

(٤) قرأ ابن كثير وابن عامر (قال) بصيغة الماضي؛ إخبارًا من الله تعالى عما قاله الرسول ﷺ ردًّا عليهم، والباقون (قل) بصيغة الأمر من الله تعالى لنبيه أن يرد عليهم بتنزيه الله تعالى عما طلبوه.

قاطعة على أنك رسول من عند الله، فنطالع في هذا الكتاب بأعيننا أنك نبي مرسل من عند الله، وهذا أمر يستحيل على البشر، وهذا هو الاقتراح الثاني في هذه الآية، وهو الاقتراح السادس والأخير.

فكان الرد على هذه المقترحات ما يلي: قل يا محمد متعجبًا من تعنت الكفار: سبحان ربي، هل أنا إلا عبد من عباده، مبلِّغ رسالته، فلا أقدر على فعل ما تطلبون، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

الرَّسُولُ يَكُونُ بِلِسَانِ قَوْمِهِ وَطَبِيعَتِهِمْ

٩٤-﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ[1] ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان بمحمد ﷺ، وهو كون الرسول بشرًا من جنسهم، فهذا هو السبب في إنكارهم وجحودهم الرسالة، وامتناعهم من الإيمان بها، وهو توهمهم أن الرسول لا يكون من البشر.

والواقع أنهم يقترحون هذه الاقتراحات؛ للتنصل من الدخول في الإسلام، ولو جاءهم الرسول بما سألوا لانتقلوا إلى سبب آخر، فقالوا: إن ذلك سحر، أو قالوا: قلوبنا غلف، وهذا يرجع إلى أصل كفرهم، وزيغ قلوبهم.

واستبعاد أن يكون الرسول بشرًا، شبهة نشأت عندهم من الجهل، وتعمد إنكار الرسالة، والعكوف على موروثات فاسدة.

ومعنى الآية: وما منع الكفار من الإيمان بالوحي المنزل، حين جاءهم من عند الله، إلا قولهم جهلًا؛ أيكون الرسول بشرا منا ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] وذلك بسبب شبهة ترددت في نفوسهم، وإنكارا منهم أن يبعث الله رسولاً من البشر.

وهذه الآية تبيِّن موقف البشر في جميع الأمم من المكذبين بالوحي والرسالة، وأنهم ينكرون الرسالات، ويعجبون من أن يكون الرسول واحدًا منهم، يأكل مما يأكلون،

---

(١) أدغم الذال في الجيم من (إذ جاءهم) أبو عمرو وهشام والداجوني بخلفه، وأمال الألف من (جاءهم) ابن ذكوان وحمزة وخلف.

ويشرب مما يشربون، وتكون له أزواج وذرية، ويعتقدون أن الرسول لابد أن يكون ملكًا منزّلًا من السماء، جاء هذا على ألسنة الأمم جميعًا؛ حيث تقول الأمم لجميع الرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

ويجيب الرسل على الأمم في الآية التي تليها: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[إبراهيم: ١١] أي: أن الله تعالى يمن على من يشاء بالوحي والرسالة، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وهذه الشبهة التي ذكرتْها هذه الآية، قالتْها جميع الأمم لجميع الرسل:

١- فقد قال قوم نوح له: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧].

٢- وهكذا قال قوم هود: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

٣- وقال قوم صالح: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

٤- وقال قوم شعيب له: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦].

٥- وقال قوم فرعون عن موسى وهارون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾؟ [المؤمنون: ٤٧].

٦- وهكذا عجب المشركون من العرب فقالوا عن النبي ﷺ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧].

٧- وقال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢].

٨- وقال أيضًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [هود: ٢].

٩- وقال جلَّ شأنه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦] وهكذا.

لَابُدَّ لِلرَّسُولِ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ حَتَّى يُمْكِنَهُ تَبْلِيغ الرِّسَالَةِ

٩٥- ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾

ثم رد الله سبحانه على شبهة الكفار: أن يكون الرسول من البشر، بأنه لو وُجد في الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم، كما يمشي الإنسان، ويعيشون فوقها مطمئنين

مستقرين، كما يقيم الإنسان ويستقر، لو ثبت وجود ذلك لأرسل الله لهم رسولًا من الملائكة؛ حتى يكون من جنسهم، يتكلم بلسانهم، ويمكنهم مخاطبته، والأخذ عنه، والتفاهم معه؛ لأن الرسول يلزم أن يكون من جنس المرسل إليهم؛ حتى يمكنه أن يبلغهم رسالة ربه، ولما كان أهل الأرض بشرًا، لزم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم من جنسهم، وبلغتهم؛ ليفهموا كلامه، ويألفوا هيأته، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن أرسل إليهم بشرًا منهم، لأنهم لا يطيقون التلقى من الملائكة.

ولو أن الله تعالى أرسل إلى البشر ملَكًا على سبيل الفرض لجعله رجلًا مثلهم؛ حتى يمكنهم رؤيته، والتعامل معه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ فتكون النتيجة أن اللبس يظل قائمًا، والشبهة لا تزال موجودة، وهذا معنى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] فمن رحمة الله تعالى بعباده أن بعث إليهم رسلًا من جنسهم.

١- كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

٢- وقال جل شأنه ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

٣- وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: ١٥١].

٥- وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

هذا: وقد اختص الله رسوله محمدًا ﷺ باجتثاث هذه الشبهة من أصلها بهذا الرد السابق، وادخر الله لرسوله الرد عليها؛ لكونه خاتم الرسل، ولأن الله تعالى أراد لأمته البقاء إلى قيام الساعة.

أما بالنسبة للرسل السابقين فقد كان الرد عليهم بإهلاك أقوامهم انتصارًا لهم.

كما قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء].

وقال عنه أيضًا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر] أي: انتصر لي يارب من قومي.

فأجابه الله تعالى بقوله: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر]

أي: أن الله تعالى عاقبهم بالغرق بالطوفان.

وهكذا كان إهلاك قوم لوط حين دعا ربه قائلًا: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وهكذا كان إهلاك قوم صالح حين كذبوه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى عن موسى وهارون: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون].

أما بالنسبة لخاتم الرسل ﷺ فإن الله تعالى لم يهلك أمته، وإنما لقن رسولها ما يكفي لزوال هذه الشبهة من نفوسهم، كما تقرره الآية التي معنا من سورة الإسراء، وأنه لو كان سكان الأرض ملائكة يستقرون فوق الأرض، ويسكنونها لكانت الرسل ملائكة من جنسهم، ولكن لَمَّا كان أهل الأرض من البشر، كان لابد أن يكون الرسل من البشر؛ لأن طبيعة البشر تختلف عن طبيعة الملك، فالملَك له أجنحة؛ لأن الملائكة ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١] وهذه الأجنحة يضرب بها الملَك في السماء.

والبشر يستقرون، ويسكنون فوق الأرض، ويتخذونها مستقرًا لهم، ومسكن الملائكة في السماوات، وهذا معنى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ كحالة البشر، أي: لو كان سكان الأرض ملائكة لكانت الرسل أيضًا ملائكة من جنسهم و ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ ولو أن الله سبحانه أرسل ملائكة إلى البشر لما فهموا لغتهم، ولا أمكنهم أن يأنسوا بهم، ويقتدوا بهم، فيجيئون يوم القيامة بعذر إلى الله سبحانه ويقولون: إنا لم نفقه قولهم، ولم نعرف أفعالهم، ولم يمكننا أن نتأسى، ونقتدي بهم، ولذلك فقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن يرسل لكل أمة رسولًا من البشر بلسانهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

وهذا الرسول يكون رجلا، ولا يكون امرأة، ولا من الجن، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [النحل: ٤٣].

قَطْعُ الْحِوَارِ وَالْجَدَلِ مَعَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ

٩٦- ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾

وبعد أن خص الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بتلقينه الحجة القاطعة في كون الرسول للبشر،

لا يكون إلا بشرًا مثلهم، لقَّن، سبحانه، رسوله أيضًا، ما لقَّنه للرسل السابقين من تفويض الأمر إلى الله تعالى في الحكم والفصل بينه وبين أعدائه؛ فهو خير الحاكمين، ومن ثَم يقطع الله سبحانه الجدل والحوار مع المكذبين بالوحي والرسالة، ويبيِّن جلَّ شأنه أنه تكفي شهادة الله وحده على صدق رسالة محمد ﷺ، وحقيقة نبوته؛ فهو سبحانه رقيب ومطلع على أحوال عباده، بصير بهم، وهو محاسبهم يوم القيامة على ما قدمت أيديهم، وهو الذي أرسل محمدا وجعله خاتم النبيين، وهو الذي أيده بالمعجزات وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه..

روى البخاري أن الملأ من قريش الذين عرضوا على النبي ﷺ الملْك والجاه والثروة، قالوا له: فمن يشهد أنك رسول؟ فكانت هذه الآية ردًا عليهم أن الله تعالى يشهد بيني وبينكم، وكفى به شهيدًا.

ولو كان الرسول ﷺ كاذبًا لانتقم الله منه أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ [الحاقة].

صُورَةٌ مِنْ حَشْرِ الضَّالِّينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٩٧- ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ[1] وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)﴾.

ثم إن للهداية والضلال عند الله تعالى سُننًا لا تتخلف، فمن يختر لنفسه طريق الهدى ويسلكه، ويأخذ في أسباب الهداية، يهده الله سبحانه، ويوفقه للهداية والصواب والحق والإيمان.

ومن يَزِغْ قلبه عن طريق الهدى، ويختر لنفسه طريق الضلال فإن الله ﷻ يخذله ويكِلُه إلى نفسه، فيُحْرَم التوفيق من الله تعالى؛ لأنه أصرَّ على الكفر مع وضوح الدليل، واتخذ هواه معبودًا من دون الله، فاستوجب غضب الله تعالى.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ إلى الحق فييسره الله لليسرى، ويجنبه العسرى، فهو المهتدى على الحقيقة ﴿وَمَن يُضْلِلِ﴾ الله، فيخذُله ويَكِلْهُ إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، وهذا معنى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ أي: ليس له

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات ياء (المهتد) وصلًا، ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

من دون الله وليٌّ ولا نصير، ولا هادي له غير الله سبحانه.

وأهل الضلال من الكفار الذين يموتون على الكفر، يُحشرون يوم القيامة على وجوههم خزيًا وإهانة لهم، عُمْيًا لا يَرَوْن، وبُكْمًا لا ينطقون، وصُمًّا لا يسمعون، وهم في أبشع صورة وأقبح منظر، مقرهم جهنم، كلما تهيأت للإطفاء زادهم الله سعيرا.

والحشر: جمْعُ الناس من مواضع متفرقة إلى مكان واحد.

والسبب في هذا أنهم قد عطَّلوا في حياتهم هذه الحواس عن الانتفاع بها، والاهتداء بهدي رسول الله ﷺ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] ولذلك فإنهم يحشرون وهم فاقدو هذه الحواس يوم القيامة كما كانوا في الدنيا.

أو أنهم لا يسمعون سمعًا تلتذ به آذانهم، ولا ينطقون بما يُقبل منهم، ولا يَرَوْن ما تقرُّ به أعينهم، إنما يَرَوْنَ النار ولهيبها، وهي تراهم، ويسمعون زفير جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان] وهم من هول الموقف لا ينطقون بكلمة، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وفي الصحيحين وغيرهما: عن أنس ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال ﷺ: **«إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»**[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر] وقوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ [الزمر: ٢٤] فهو يتقي النار ويتلقاها بوجهه، وهو يسكن جهنم ويقيم فيها، والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ أي: هي مصيرهم، ودارهم، ومستقرهم ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ هذه النار وسكنت ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ نارًا ملتهبة متأججة، وليس معناه أنه يوجد نقص في إيلام الكافر أحيانًا؛ فنار جهنم لا تخبو؛ لأن وقودها الناس والحجارة، والعذاب لا يخفف عنهم ولا يفتر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦].

---

(١) البخاري برقم (٤٧٦٠، ٦٥٢٣) ومسلم برقم (٢٨٠٦) و«المسند» (٣/ ١٦٧) برقم (١٢٧٠٨، ١٣٣٩٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٦٧) والحاكم (٢/ ٤٠٢).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف] وهم في عذاب متجدد مستمر: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

فالمعنى: أن لحومهم وجلودهم كلما أكلتْها النار، زادها الله توقُّدًا، فتبدّل جلودهم ولحومهم، بجلودٍ ولحومٍ أخرى، فتعود النار كحالتها الأولى مُلْتهبة مستعرة.

ومن الإمعان في عذابهم، أن الله تعالى يجعل وجوههم كأنها أعضاء، للمشي عليها، عوضًا عن الأرجل، فهم يُسْحبون على وجوههم، تجرُّهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم، كما يُفعل في الدنيا بمن يبالَغ في هوانه وتعذيبه.

وفي رواية الترمذي في الحديث السابق: «**أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدَب وشوك**»[١] **والحدَب**: هو ما ارتفع من الأرض.

وفي الحديث: عن معاوية بن حَيْدة قال: قال رسول الله ﷺ «**إنكم تحشرون رجالًا وركبانًا وتجرُّون على وجوهكم إلى ها هنا، ونحا بيده نحو الشام**»[٢].

قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣] **والظن بمعنى**: اليقين؛ ذلك أنهم لما أنكروا البعث في الدنيا كان الجزاء يوم القيامة من جنس عملهم ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء].

فهم في عذاب النار، تأتي على أجسامهم، تأكلها جزءًا جزءًا، فإذا فني الجسم فإنه يعاد من جديد ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: كلما فرغت النار من إحراقهم، وسكن لهيبها المقدر لهم، ثارت من جديد، والنار لا تَخْبُت ولا تنطفئ، ولكن أجسامهم تفنى، ثم تحيا من جديد، جزاء تكذيبهم بالبعث يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى:

٩٨- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا[٣] كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا[٣] لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

---

(١) ضعّفَهُ الألباني في ضعيف جامع الترمذي برقم (٣١٤).

(٢) «المسند» بنحوه برقم (٢٠٠١١، ٢٠٠٣١، ٢٠٠٥٠) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات، وهو في الترمذي (٢٥٧١) بدون (ونحا بيده...) و«صحيح سنن الترمذي» (١٩٧٦) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٣١) والحاكم (٤/ ٥٦٤) والدارمي (٢٨٣٦) وغيرهم.

(٣) سبق مثل هذا في الآية [٤٩].

ثم بيَّن سبحانه أن الذي أفضى بأهل النار إلى تلك العاقبة السيئة **سببان:**

أحدهما: الكفر، وينطوي تحته صنوف الإجرام.

وثانيهما: إنكار البعث والحساب والجزاء.

فالسبب في عقاب المشركين أنهم في الدنيا كفروا، وكذبوا بآيات الله وما تضمنتْها من: أوامر، ونواه، وجحدوا رسالة محمد ﷺ، وكذّبوا بالبعث والنشور، فاستبعدوا أن يُبعث الناس مرة ثانية، بعد أن أماتهم الله تعالى، وصاروا عظامًا وترابًا ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠].

الرَّدُّ عَلَى مُنْكِرِي الْبَعْثِ بِطَرِيقِ الاسْتِدْلَالِ الْعَقْلِيِّ

٩٩-﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا[1] رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

ثم رد الله سبحانه على منكري البعث ردًّا عقليًّا مقنعًا بعد زجرهم في الآية السابقة بأسلوب التهديد والوعيد، فبيَّن تعالى أنه لا غرابة في البعث، فقد خلق الله سبحانه هذا الكون الهائل بسماواته وأرضه، والقادر على ذلك قادر على إعادة أجساد الناس بعد فنائها من باب أولى، وقادر على أن يخلق أناسًا آخرين غيرهم، فعودة الحياة إليهم ليس أمرًا عجبًا؛ لأن الإعادة أهون من البداية في نظر الخلق، وليس عند الله سبحانه هيِّن وأهون، ولا سهل وأسهل، بل الكل عند الله سواء.

فهل عمي الكفار المنكرون للبعث والحساب والجزاء، فلم ينظروا في هذا الملكوت، وما فيه من العالم العلوي والسفلي، ويستدلوا بذلك على أن البعث بعد الموت ليس بأعجب من خلق السماوات والأرض؟! والإعادة تكون بجمْع ما تفرَّق، أو بما يُنْبَتُ من عَجْب الذنَب، كما تنبت النخلة من النواة، وهي أهون من البداية في عرف البشر.

ثم بيَّن تعالى أن لهذه الإعادة وقتًا معلومًا وَفْق حكمته تعالى، فقال: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ فقد جعل الله للمكذبين بآياته، ولغيرهم من البشر أجلًا محددًا لموتهم، ولبعثهم

(١) قرأ حمزة بمد (لا) من (لا ريب) أربع حركات بخلف عنه، والباقون بالقصر، ومعهم حمزة في الوجه الآخر.

ونشورهم، وهو آت لا محالة، والأجل في الآية يراد به: أجل الموت، أو أجل البعث.

ومع وضوح الحق، وإقامة الحجة فإن الظالمين يأبون إلا الكفر والجحود.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾؟ [يس: ٨١] وقوله: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾؟ [النازعات: ٢٧].

وتخصيص ذِكْر السماوات والأرض في الآية دون غيرهما؛ لأن خلْقهما أكبر وأعظم من خلق الإنسان، ومن كان قادرًا على خلق الأصغر، فهو قادر على خلق الأكبر بلا شك، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

فإعادة الناس إلى الحياة بعد موتهم أمر ممكن، سهل ويسير، ولكن هذه الإعادة لها وقت محدد عند الله تعالى ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود].

الرَّدُّ عَلَى مُقْتَرِحِي الْمُعْجِزَاتِ

١٠٠- ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي[1] إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾

ثم رد الله تعالى على الظالمين المكذبين، الذين طلبوا من رسول الله ﷺ أن يجعل جبل الصفا ذهبًا، أو أن يكون له بيت من ذهب، أو أن تكون المنطقة حول مكة جنات وبساتين، ونخيلًا وأعنابًا.

والله سبحانه يُجابه مَنْ طلبوا الخوارق من النبي ﷺ، ببيان ما هم فيه من شُح وبخل، تجاه تلك المقترحات التي اقترحوها، فيقول لهم: لو أنكم بيدكم مفاتيح خزائن الخيرات التي لا تنفد ولا تبيد، ومَلَكْتُم خزائن النعيم كله، لأمسكتم، ولما أنفقتم، شحًّا وبخلًا منكم، وخوفًا من نفاد الخزائن، فتصبحوا فقراء ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ من الخير والأرزاق والنعم، إذًا لأمسكتم عن الإنفاق، خشية أن تنفد هذه النعم وهذه الأرزاق

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربي إذا)، والباقون بإسكانها.

من أيديكم ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي: ممسكًا بطبعه؛ لأن الأشياء تفنى، وتتناهى، فهو يخشى الفقر.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء].

ومن شأن الإنسان أنه بخيل بما في يده إلا من عصمه الله بالإيمان، وقد وصف الله الإنسان الكافر بالهلع، والجزع، والبخل الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج].

أما المؤمن المصلي، المخرج للزكاة، الحافظ لأمانته وفرجه، والحافظ لشهادته، فإنه ليس كذلك، كما بيَّن سبحانه ذلك في أوصاف المؤمنين في سورة المعارج، وفي أول سورة المؤمنون.

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يد الله ملأى، لا تَغِيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه»**[١].

قال الألوسي: وقد بلغت هذه الآية من الوصف بالشح الغاية القصوى التي لا يبلغها الوهم؛ حيث أفادت أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله التي لا تتناهى، وانفردوا بملكها، من غير مزاحم، لأمسكوا عن النفقة من غير مقتض إلا خشية الفقر[٢].

الْعِبْرَةُ لَيْسَتْ بِخَوَارِقِ الْعَادَاتِ بَلْ بِفَتْحِ الْقُلُوبِ وَاسْتِعْدَادِهَا لِقَبُولِ الْحَقِّ

١٠١ - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ[٣] بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[٤] إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾

(١) أخرجه البخاري برقم (٧٤١٩) ومسلم برقم (٩٩٢).

(٢) «تفسير الألوسي» (١٥/ ١٨١).

(٣) قرأ ابن كثير والكسائي وخلف العاشر بنقل حركة همزة (فاسأل) إلى الساكن قبلها، فتُقرأ هكذا (فسل) وكذا حمزة وقفًا، والباقون بإسكانها وهمزة مفتوحة بعدها، وسَكَتَ على سكون السين: حمزة وحفص وابن ذكوان بخلفهما، (فاسأل).

(٤) سهل همزة (إسرائيل) التي بعد الراء أبو جعفر مع المد والقصر، وقرأ ورش من طريق الأزرق بمدّ الهمزة بعد الألف وقَصْرها، والباقون بالتحقيق مع القصر.

لست - أيها الرسول - أول رسول كذبه الناس، فقد أرسلنا قبلك موسى وأيدناه بتسع آيات، فكذبه فرعون وقومه، فإن شككت في شيء من ذلك، فاستشهد ببني إسرائيل على صحة رسالة موسى وتكذيب فرعون له، ووصفه له بالسحر.

وليس المراد حقيقة السؤال في الآية، إذ كيف يغور محمد ﷺ في غابر الزمن، ليسأل من كانوا في زمن موسى وفرعون، إنما المراد تأكيد ما بعد السؤال، وهو تكذيب الأمم لرسلهم على مدى الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومحمد ﷺ واحد منهم.

وهكذا: يبيِّن الله سبحانه أن المعجزات والخوارق التي يطلبها المكذبون بالوحي، لو أن الله تعالى أنزلها عليهم، وأيَّد رسوله بها، فإنها لن تغيِّر منهم شيئًا؛ لأنها لا تنشئ الإيمان في قلوب الجاحدين، ولا تزيد المعاندين إلا كفرًا على كفرهم، ورجسًا على رجسهم، فاصبر على أذى قومك وتكذيبهم لك.

وقد ضرب الله سبحانه مثلًا على ذلك بقوم موسى عليه السلام؛ فقد أيَّده الله سبحانه بتسع آيات بينات، هذه الآيات التسع: خمس منها ذُكرت في آية واحدة من سورة الأعراف [١٣٣] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ وذُكِر معجزتان في الآية قبلها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أما معجزتا العصا واليد فقد جاء ذكرهما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]

وقوله أيضًا ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢] وغير هذين الموضعين.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، والسنين، ونقص من الثمرات[١].

وتحديد الآيات بالتسع، لا ينفي غيرها مما حدث لموسى عليه السلام بعد خروجه من مصر، ولكن هذه التسع، هي التي شاهدها فرعون وقومه في مصر، وكانت حجة عليهم، فكفروا بها وجحدوها ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

ومن معجزات موسى الأخرى: فلْق البحر، ونتْق الجبل فوقهم، والطمس؛ حيث دعا

(١) عبد الرزاق (١/ ٣٩٠) والطبري (١٥/ ١٠٢) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨٥١).

موسى، وأمَّن هارون، فطمس الله أموالهم وردّها حجارة.

ومن معجزات موسى عليه السلام: إنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام، والحجَر الذي كان يضربه موسى بعصاه فيتفتق اثنتا عشرة عينًا من الماء بعدد أسباط بني إسرائيل، ومنها فك عقدة لسانه حين دعا ربه قائلًا: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه]

هذه هي المعجزات، أو الآيات البينات التي أيَّد الله بها موسى عليه السلام، وعلى رأسها التوراة، وما تضمنتْه من أحكام؛ كالنهي عن: الشرك بالله، والقتل، والزنى، والربا، والسحر، والبغي، والسرقة، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات، وعدم التعدي في يوم السبت، وهي دلائل قاطعة على صِدْقه ونُبوته، فماذا كان من فرعون وقومه؟

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: اسأل بني إسرائيل المعاصرين لك، واستشهد بهم، واجعلهم يقرُّون ويعترفون بما كان من أسلافهم حين جاءهم موسى عليه السلام بهذه الآيات البينات، وحين جاء موسى إلى فرعون يطلب منه أن يعبد الله وحده، وأن يخلِّص بني إسرائيل من تعذيبه وتسلُّطه عليهم، كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء] وعندما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ مخدوعًا ومغلوبًا على عقلك بما يأتيه من غرائب الأفعال، فأنت تتخبط وتهذي، هكذا كان موقفه مع وجود الآيات بين أيديهم.

قال له موسى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ أي هالكًا.

قال الفخر الرازي: وليس المطلوب من سؤال بني إسرائيل أن يستفيد النبي ﷺ هذا العلم منهم، بل المقصود أن يظهر لعامة اليهود وعلمائهم صدق ما ذكره الرسول ﷺ فيكون هذا السؤال سؤال استشهاد(١).

والمسؤولون هم المؤمنون من بني إسرائيل؛ كعبد الله بن سلام، وأصحابه، والمراد: اسأل -يا رسولنا- مؤمني أهل الكتاب عما جرى بين موسى وفرعون؛ فإنهم يعلمونها مما لديهم في التوراة.

ثم ذكَّر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ بحال فرعون حين تطاول على موسى ورماه بالسحر،

---

(١) «التفسير الكبير» (٢١/ ٦٥).

وقال له: إني لأظنك يا موسى قد سُحرت، فتخبَّط عقلُك، فالأرجح أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ موجه إلى النبي محمد ﷺ المنزل عليه هذه الآيات؛ ليسأل اليهود المعاصرين له سؤال تقرير، واستشهاد، عما جرى بين موسى وفرعون مع قومه؛ ليظهر بذلك صدق النبي ﷺ في دعوته، ولإقامة الحجة على أهل الكتاب والمشركين الذين كذبوا بالرسالة، وهذا في مقام المناظرة بين إيتاء موسى التوراة، وإيتاء محمد القرآن، وموقف فرعون وقومه من موسى، وموقف اليهود والمشركين من محمد.

وفي الآية التالية رَدُّ موسى على فرعون:

١٠٢- ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ[1] مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ[2] إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾

ولما رمى فرعون، موسى بالسحر، قال موسى لفرعون ردًّا على كذبه وافترائه: لقد علمتَ بالدليل والحجة، ولم يبق في نفسك شك أن هذه الآيات التسع لا تكون إلا بتسخير الله تعالى؛ إذ لا يقدر عليها غيره، فأنت تعلم أنها من عند الله حقيقة، ولكنك تكابر وتجادل وتعاند؛ فهي من الوضوح بحيث لا تجهل أن هذه الآيات البينات أيد الله بها موسى، وأنزلها هداية للناس في كشف الحقائق وتجليتها، فهي حجج وبراهين واضحة ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: هالكًا، مطرودًا، ومبعدًا من رحمة الله سبحانه.

فالمثبور: هو الذي أصابه الثبور وهو الهلاك.

وظنُّ فرعون تخمين، وكذب، وتخريص.

---

(١) قرأ الكسائي بضم التاء من (لقد علمت) مسندًا إلى ضمير المتكلم وهو موسى عليه السلام، أي: لقد علمت أن هذه الآيات ليست سحرًا كما زعمت، قال علي بن أبي طالب ﷺ: ما علم عدو الله قط، وإنما علم موسى، وقرأ الباقون بفتح التاء مسندًا إلى ضمير المخاطب وهو فرعون.

(٢) قرأ قالون والبزي بتسهيل الهمزة الأولى مع المد والقصر، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية، ولورش وقنبل وجه آخر هو إبدالها ياء ساكنة مع المد، ولورش وجه ثالث هو إبدالها ياء مكسورة، وأسقط أبو عمرو ورويس بخلف عنه، الهمزة الأولى مع المد والقصر، والباقون بتحقيق الهمزتين، وهم ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وروح وخلف.

وظنُّ موسى صدقٍ وعلم يقيني، وجعله موسى ظنًّا تأدبًا مع الله سبحانه.

فالمعنى: وإني لعلى علم ويقين أنك -يا فرعون- ملعون مغلوب، مصيرك إلى الهلاك والتدمير؛ بسبب إصرارك على الكفر والطغيان، بعد إتياني بالمعجزات الدالة على صدقي وصحة نبوتي.

وفي هذا ذم وتوبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق؛ حيث كان على علم يقيني بأن موسى ليس ساحرًا ولا مسحورًا، وأن الآيات التي جاء بها إنما هي من عند الله.

والله ﷻ يوضح هذا المعنى في قوله تعالى خطابًا لموسى عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل].

عِقَابُ اللهِ لِفِرْعَوْنَ حِينَ عَزَمَ عَلَى إِخْرَاجِ مُوسَى وَقَوْمِهِ مِنْ مِصْرَ

١٠٣- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾

وبعد أن وبخ موسى فرعون وهدده، أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر، وهذا شأن الطغاة والجبابرة في كل زمان ومكان؛ حيث يلجؤون إلى القوة المادية، بنفي خصومهم، وإيداعهم السجون، أو طَردهم وإبعادهم، بعد إفلاس حجتهم، وعجزهم عن مناظرة الخصوم ومقارعة الحجة بالحجة.

وهكذا أراد فرعون بموسى وقومه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف].

لجأ فرعون إلى القوة فأراد أن يُخرج موسى وقومه من مصر، فَيُشردهم، أو يقتلهم ويستأصلهم ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

الاستفزاز: هو الطرد والنفي والإبعاد، أي: أراد فرعون أن يخرج موسى وقومه من أرض مصر كما أراد كفار مكة أن يفعلوا بالرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] فماذا كانت النتيجة بالنسبة لفرعون حين أراد أن يزعج موسى، ويُخرجه مع قومه من مصر؟

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ أغرق الله فرعون وجنوده في الْيَمِّ عقابًا لهم دون أن يستثني منهم أحدًا، فردَّ الله سهامهم في نحورهم.

وكما فعل فرعون مع موسى ﷺ فعل المشركون مع محمد ﷺ، فأضمروا إخراجه من مكة، فعاد محمد إلى مكة فاتحًا، كما أورث الله بني إسرائيل الأرض.

الْيَهُودُ، شَعْبٌ بِلَا وَطَنٍ

١٠٤-﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾

وبعد هلاك فرعون وجنده، قال الله تعالى لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام: ﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ و (ال) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للجنس، أي: اسكنوا الأرض كلها، موزعين، متفرقين، مشتتين في أرجائها، فإذا جاء وعد الدار الآخرة جئنا بكم مجتمعين في مكان واحد.

ولعل هذا ينطبق على اليهود في وقتنا، وهم يقومون بإفسادة كبيرة في الأرض، وهي قيام معبد سليمان، وإيذاء أهل فلسطين، وقتل النشطاء منهم، وسجنهم وحصارهم.

ولعل تجمُّعَهم في فلسطين حاليا هو بداية النهاية التي أخبر بها النبي ﷺ: **«أن اليهود يقاتلهم المسلمون وينتصرون عليهم، حتى يُنطق الله الحجر فيقول: يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله»**[1].

فالضمير في ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يعود على فرعون، أي بعد غرقه وإهلاكه.

ويذكر المفسرون أن المراد بالأرض هي أرض مصر أو الشام، فـ(ال) للعهد - على هذا - وأن المراد بالآخرة: هي قيام الساعة، بمعنى: أنهم يخرجون جميعًا من قبورهم للبعث والحساب.

وليست أرض فلسطين وطنًا لهم حتى يعدهم الله بها، ولا يوجد ما يرجح هذا المعنى، فقد وعدهم الله بها، ولمّا امتنعوا من قتال الجبارين حرمها الله عليهم حرمة أبدية عقوبة لهم. **قلت:**

---

(١) الحديث في «البخاري» عن عبد الله بن عمر (٢٥٢٩، ٣٥٩٣) وفي «مسلم» (٢٩٢١).

١- القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا، وإن يوسف ﷺ يؤرخ لإخوته إلى يوم القيامة؛ حيث يبيِّن يوسف ﷺ أن إخوته قوم رُحَّل، جاؤوا من البدْو، وهم رعاة غنم في الأصل، ليس لهم وطن ثابت، ويسكنون في شتى أرجاء الأرض، شأنهم شأن البدو، ورعاة الماشية، يتنقّلون هنا وهناك، من العراق إلى الشام، إلى مصر، إلى السودان، إلى اليمن، إلى روسيا، إلى أمريكا، إلى فلسطين، وهكذا، قال يوسف ﷺ: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٢- ويرشح ما قلناه من أن (ال) في (الأرض) للجنس، وليست للعهد، قوله تعالى عن اليهود: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] أي: شتّتناهم، ووزّعناهم في أرجاء الأرض، وهذا بَعْد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف].

٣- وقد حرم الله تعالى على اليهود، أرض فلسطين، حُرمة أبدية، بعد جُبنهم وتقاعسهم عن حرب العمالقة، ومخالفتهم أمر رسولهم موسى ﷺ بدخولها للقتال، فكان هذا التحريم عقوبة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ والوقف هنا: وقف لازم؛ لأن مدة التيه في صحراء سيناء كانت أربعين سنة ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[المائدة: ٢٦] فهذه المدة هي مدة التيه، وليست مدة تحريم دخولها، فإن هذا التحريم قائم إلى قيام الساعة، وعلامة وقف التعانق في الآية اجتهاد من بعض أهل العلم.

٤- وهذه الآية تشير إلى أنهم بعد تفرقهم في أرجاء الأرض، يؤتى بهم مجتمعين في الأرض المقدسة عند قيام الساعة فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأٓخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

وهذا ربط بين أول السورة وآخرها، فقد بيَّن سبحانه أن بني إسرائيل يفسدون في الأرض كثيرًا بين الحين والآخر، وأنهم يفسدون إفسادتين كبيرتين عظيمتين.

وقد جرى كثير من المفسرين على أن الإفسادتين قد وقعتا في الماضي، على ضوء ما جاء ذكره عند تفسير الآية ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ والعمل على هدم المسجد الأقصى أكبر إفسادة في العصر الحديث.

وقد قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] أي: وإن عدتم إلى الإفسادة في الأرض عدنا إلى الانتقام منكم على أيدي عباد لنا أولي بأس شديد.

وإقامة معبد سليمان المزعوم في ساحة المسجد الأقصى هو ما تفعله اليهود في الوقت الحاضر، بالإضافة إلى جمْع شتاتهم من هنا وهناك، وهجرتهم إلى الأرض المقدسة، فلعل هذا تفسير واقعي لهذه الآية.

ونسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل نهايتهم على أيدي عباد له صالحين، يسوؤون وجوههم، ويدخلون المسجد الأقصى كما دخلوه أول مرة.

الْقُرْآنُ يُرَبِّي أُمَّةً وَيُقِيمُ مَنْهَجًا

١٠٥- ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن خوارق العادات، وبيَّنت تكذيب المستقبلين لها، وكيف مضت سُنَّة الله تعالى بإهلاكهم، بعد ذلك، بيَّنت السورة أن هذا القرآن أنزله الله آية دائمة للخلق أجمعين، فيه أمرهم ونهيهم وثوابهم وعقابهم، وقد نزل القرآن في مدة طويلة؛ لِيُقرأ على الناس على مَهَل، وتؤدة، وطمأنينة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان].

فقد نزل هذا القرآن؛ بالصدق والعدل، والحفظ من كل شيطان رجيم، نزل ليربي أمة، ويشرع نظامًا، ويقيم مجتمعًا، ويرسم منهجًا يُصلح البشر إلى قيام الساعة.

والخوارق أو المعجزات التي يطلبها مُكذبو الوحي والرسالة في جميع الأمم لها فائدة مؤقتة؛ فهي لا تنفع إلا من يراها في زمانها ومكانها.

أما معجزة القرآن فهي معجزة ثابتة باقية بين يدي الخلق جميعا إلى قيام الساعة، وإلى هذا المعنى يشير الله سبحانه بقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ فالقرآن نزل بالحق: الحق مادته، والحق غايته، أوامره حق، ونواهيه حق، وأخباره حق، ووعده حق، ووعيده حق، وقد نزل القرآن؛ ليكون حجة باقية بين يدي الخلق إلى يوم القيامة، جاء لهداية البشر، فهو

﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي: وقد أنزلنا هذا القرآن على محمد ﷺ لأمر العباد ونهيهم، وثوابهم وعقابهم، وأنزلناه بالصدق والعدل، وبالحفظ من التغيير والتبديل نزل، وقد ذُكر فعل النزول في الآية مرتين، وذكر لفظ الحق مرتين، مع اختلاف المعنى فيهما.

فالمراد بالحق الأولى: أن هذا **القرآن هو القول الثابت** الذي لا ريب فيه ولا كَذِب، وَفقًا للحكمة الإلهية التي اقتضت نزوله، وفيه رد على المشركين المنكرين أن يكون القرآن وحيًا من عند الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] هذا هو معنى النزول الأول.

أما الحق الثاني: فبمعنى **بلوغ القرآن للناس بالحق**، الذي هو ضد الباطل، أي: نزل مشتملًا على الحق الذي به صلاح الناس في الدنيا، وفوزهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١] وهو بيان لما اشتمل عليه القرآن من: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وأحكام، وحكم، وأمثال، ومواعظ، فأخباره صدق وأحكامه عدل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]وكيف لا؟ وقد نزل بعلمه سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء]

والرسول مؤتمن على إنزاله فلا يغير ولا يبدل، وهو قوي لا يغالب ولا يُعارض، فقد ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء].

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [التكوير].

جاء في تفسير النسفي للآية، أن محمد بن السماك اشتكى -قال الراوي- : فأخذنا ماءه وذهبنا به إلى طبيب نصراني، فاستقبلَنا رجل حسن الوجه، طيب الرائحة، نقيّ الثوب، فقال لنا: إلى أين؟ فقلنا له: إلى فلان الطبيب، نُرِيه ماء ابن السماك، فقال: سبحان الله! تستعينون على ولي الله بعدوّ الله، اضربوه على الأرض، وارجعوا إلى ابن السماك، وقولوا له: ضع يدك على موضع الوجع وقل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ ثم غاب عنا، فلم نره، فرجعنا إلى ابن السماك، فأخبرناه بذلك، فوضع يده على موضع الوجع، وقال ما قال الرجل، وعُوفي في الوقت نفسه، وقال: كان ذلك الرجل حسن

الوجه، هو الخضر عليه السلام.

ثم يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: لا تحزن؛ فمهمتك أن تبشِّر من أطاع الله بدخول الجنة، وتنذر من عصاه بدخول النار، أما خلق الهدى في قلوب العباد فإن ذلك إلى الله سبحانه.

إِقَامَةُ حُرُوفِ الْقُرْآنِ وَحِفْظُ حُدُودِهِ

١٠٦- ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾

هذا القرآن أنزلناه فارقًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، والحلال والحرام ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ أي: ونزل هذا القرآن منجَّمًا مفرقًا، ولم ينزل دفعة واحدة كسائر الكتب السماوية، إنما نزل في ثلاث وعشرين عامًا؛ للتثبت والتفكر، ولتتعلم الأمة.

وكما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن: إنهم كانوا يستقرئون على النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها، قال: فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا.

ويقول ابن عمر رضي الله عنه: كنا لا نتجاوز العشر آيات حتى نعلمها ونعمل بما فيها، فتعلمنا العلم والعمل معًا، وقد أنزلنا هذا القرآن منجمًا ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: على تأمل، وترسل، وتأنٍ.

هكذا يكون الأمر بالنسبة لتلاوة القرآن الكريم والعمل بما فيه ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾.

والمعنى: وأنزلنا عليك -يا محمد- قرآنًا بيناه، وأحكمناه، وفصلناه، وجعلناه فارقًا بين الحق والباطل، والهدى والضلال؛ لتقرأه على الناس في تؤدة، وتمهل، وحُسْن ترتيل؛ حتى يتيسر لهم حفظه بسهولة، وحتى يتمكنوا من تطبيق تشريعاته وتوجيهاته تطبيقًا عمليًّا دقيقًا في جميع أحوالهم الدينية والدنيوية، ونزلناه شيئًا فشيئًا على حسب الوقائع، والأحداث، والأحوال.

أخرج الطبري بسنده عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أُنزل القرآن من السماء جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا

يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[١].

صُورَةٌ مِنْ إِيمَانِ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ

١٠٧، ١٠٨- ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا[٢] ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾

وبعد أن تحدثت السورة عن القرآن الكريم، وبيَّنت أنه منزل من عند الله، وليس في استطاعة الإنس والجن الإتيان بمثله، وأن هذا القرآن قد اشتمل على ضرب الأمثال للناس

بعد ذلك كشفت السورة عن شبهة المشركين باقتراحهم معجزات أخرى، وأن الرسول لا يكون بشرًا، ومثَّلتْ حال المشركين مع رسول الله بحال فرعون وجنده مع موسى، وردَّت على شبهتهم في عدم نزول القرآن جملة واحدة.

بعد هذا أمر الله رسوله أن يخيِّر المكذبون بالقرآن في كل زمان ومكان، إن شاؤوا آمنوا بالقرآن، وإن شاؤوا لم يؤمنوا، وعليهم تبعة ما يختارونه لأنفسهم ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ ففوَّض النظر إليهم في تصديق القرآن وعدمه، وخيَّرهم بيْن إيمانهم أو كفرهم به، فآمِنُوا - أيها المكذبون - بهذا القرآن أو لا تؤمنوا، فإن إيمانكم لا يزيده كمالًا، وكفركم وتكذيبكم له لا يلحق به نقصًا، ولا يضره في شيء؛ فالضرر يعود عليكم.

ثم إن العلماء الذين أوتوا الكتب السابقة قبل القرآن؛ كورقة بن نوفل، الذي شهد للنبي ﷺ بالنبوة، وكذا من آمن بعد نزول هذه السورة، من اليهود والنصارى، ممن ميزوا بين الحق والباطل، وهم أولو العلم من أهل الكتاب، الذين عرفوا حقيقة الوحي، وعرفوا معالم النبوة؛ كعبد الله بن سلام، وتميم الداري، وزيد بن عمرو بن نفيل، ومعيقب، وسلمان الفارسي، والنجاشي، وغيرهم من الذين دخلوا في الإسلام، وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ، هؤلاء وأمثالهم يشير الله تعالى إليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي:

---

(١) رجاله ثقات، وإسناده صحيح إلى ابن عباس، وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٢٦٨) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٩/ ٤) وقد أخرجه النسائي (٧٩٨٩، ٧٩٩٠) والطبري (١٥/ ١١٥) وابن أبي حاتم (١٥١٢٧) والبيهقي (٧/ ١٣١).

(٢) عدّ لفظ (سجدا) الكوفي، وتركها بقية علماء العدد.

قبل نزول القرآن ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن، يعترفون به، ويتأثرون به غاية التأثر، ويخضعون له، و ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ تعظيمًا وخشوعًا لله سبحانه، فهم يتأثرون من وعظ القرآن، ويزيدهم خشوعًا، فيبكون ويتضرعون إلى الله سبحانه، وهؤلاء هم الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام من أهل الكتاب في وقت النبي ﷺ وبعد ذلك.

والبكاء مستحب عند تلاوة القرآن الكريم، كما قال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة ﷺ:

«لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله، ودخان من جهنم»[(١)].

وفي حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»**[(٢)].

- ويقول الذين أوتوا العلم بالتوراة والإنجيل عند سماعهم للقرآن، تنزيهًا لله ﷻ، وتبرئة له مما يصفه به المشركون، يقولون عندما يسقطون على الأرض، ممكنين جبهتهم منها؛ بسبب قوة الرغبة في السجود، استحضارًا لعظمة الله تعالى، وتأثُّرًا بالقرآن، يقولون في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي: ما كان وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم إلا حقًّا وصدقًا، يقولون ذلك ابتهاجًا بتحقيق الموعود به في كتبهم، فيسبحون الله تعالى تعجُّبًا وسرورًا بتحقيق البشرى بالنبي الأخير.

والسجود الأول شكرًا لله تعالى على إنجاز وعده ببعثة محمد ﷺ.

والسجود الثاني؛ لفرط تأثرهم بالقرآن.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٦٣٣، ٢٣١١) والنسائي بزيادة (في منخري مسلم أبدًا) في «السنن الكبرى» (٤٣٠١) ومسلم (١٨٩١) وابن ماجه (٢٧٧٤) و«المسند» (٧٤٨٠) وابن حبان (٤٦٠٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨١).

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عباس برقم (١٦٣٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (١٣٣٨).

قال تعالى في وصف بعض أهل الكتاب المؤمنين بخاتم المرسلين:

١٠٩- ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾

أعيدت كلمة ﴿يَخِرُّونَ﴾ مرة ثانية اهتمامًا بما صحب السجود من علامات الخشوع؛ حيث حصل الانفعال الباطني فنتج عنه البكاء، وهم يقعون ساجدين على وجوههم، يكون تأثرًا بمواعظ القرآن، ويزيدهم القرآن خشوعًا على خشوعهم من سماع كتابهم، فيخضعون لأمر الله تعالى وعظيم قدرته.

ومن السُّنَّة سجود القارئ والمستمع للقرآن قصدًا عند نهاية هذه الآية، وعند غيرها من مواضع السجود في القرآن؛ فالمسلم أجدر بالسجود من أهل الكتاب، ومما يقوله في سجود التلاوة: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

الدُّعَاءُ بِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى

١١٠- ﴿قُلِ(١) ادْعُوا اللَّهَ أَوِ(١) ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا(٢) مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠)﴾

وبعد أن خيَّر الله الناس بين أن يؤمنوا بهذا القرآن، أو لا يؤمنوا، خيَّرهم في الدعاء بما شاؤوا من أسمائه الحسنى، سِيَّمَا لفظ الجلالة (الله) الذي هو علم على الذات الإلهية، ولفظ: ﴿الرَّحْمَٰنَ﴾ وهو الصفة المختصة بالله سبحانه، المعادلة للفظ الجلالة، وليس لله تعالى اسم غير حسن، حتى يُنهى عن الدعاء به، بل أسماؤه كلها حسنى، فادعوه بما شئتم منها، ويتخير العبد من الأسماء ما يناسب مطلوبه، فيقول مثلا: يا رحيم، ارحمني، يا غفور، اغفرلي، يا تواب، تُب عليّ، وهكذا.

وكان الناس في الجاهلية ينكرون تسمية الله تعالى بالرحمن، فبيَّن ﷻ أن تعدد الأسماء

---

(١) قرأ عاصم وحمزة بكسر لام (قل) و واو (أو) حال وصلهما بما بعدهما، وقرأ يعقوب بكسر اللام وضم الواو، والباقون بضمهما.

(٢) عند الحاجة إلى الوقف، يجوز الوقف على كل من (أيًا) و (مَا) لجميع القراء، اتباعًا للرسم؛ لأنهما كلمتان منفصلتان.

لا يقتضي تعدد المسمى؛ فشتان بين دعاء المشركين آلهة مختلفة الأسماء والمسميات، كما يفعل النصارى في دعائهم لله تعالى، وللمسيح، ولأمه، ولجبريل ﷺ، وبيَّن سبحانه من يعبد إلهًا واحدًا له الأسماء الحسنى؛ فالتوحيد، والشرك يتعلقان بالذات لا بالأسماء، وقد تعددت الأسماء والصفات لله تعالى، ولكن المسمَّى واحد:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: نزلت هذه الآية ورسول الله مختف بمكة، وكانوا إذا سمعوا القرآن سبُّوه، وسبُّوا من أنزله ومن جاء به، فقال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ بين المخافتة، والجهر[١].

وعن هشام بن عروة عن عائشة ﷺ أن هذه الآية نزلت في الدعاء[٢].

ففي الآية التخيير بين دعاء الله تعالى باسمه العلَم، وبين دعائه بصفة الرحمن خاصة، ثم بيَّنت الآية أنَّ للمسلم أنْ يدعو ربه بأي اسم من أسمائه الحسنى، وأنه لا حرج في دعائه تعالى بعدة أسماء من أسمائه تعالى؛ إذ المسمى واحد سبحانه.

ولفظ الصلاة في الآية يحتمل الدعاء، ويحتمل العبادة المعروفة، ويكون المراد: الجهر بالقراءة في الصلاة، وللمسلم أن يسمي ربه: الله، وله أنه يسميه: الرحمن، أو الرحيم، وما إلى ذلك.

ومن أسمائه الحسنى ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر].

وقد جاء الحديث في الترمذي بتسعة وتسعين اسمًا لله تعالى[٣].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٢، ٧٤٩٠، ٧٥٢٥، ٧٥٤٧) و«المسند» (١٥٥، ١٨٥٣) والترمذي (٣١٤٦) ومسلم برقم (٤٤٦) وذكره الواحدي النيسابوري في «أسباب النزول» ص ٢٥٠ .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤٧٢٣) وانظر: (٦٣٢٧، ٧٥٢٦) ومسلم (٤٤٧) والبزار في «الكشف» (٢٢٢٨) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٠) وسيأتي.

(٣) انظر في هذا تفسير الآية [١٨٠] من سورة الأعراف.

وهي أسماء لا تكون إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن رسوله ﷺ، من كل اسم سَمَّى الله به نفسه، أو أنزله في كتابه، أو علَّمه أحدًا من خلقه أو استأثر به في علم الغيب عنده، ومما جاء في **أسباب النزول**:

(أ) أن رسول الله ﷺ تهجد ذات ليلة بمكة، فجعل يقول في سجوده: «**يا رحمن يا رحيم**» فقال المشركون: كان محمد يدعو إلهًا واحدًا، وهو الآن يدعو إلهين اثنين: الله والرحمن، ما نعرف إلا رحمن اليمامة، يَعْنُون: مسيلمة الكذاب، فأنزل الله الآية[1].

(ب) وقال ميمون بن مهران: كان النبي ﷺ يكتب في أول ما أُوحي إليه: «**باسمك اللهم**» حتى نزل ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ فكتب: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فنزلت[2].

(ج) ولما سمع أبو جهل رسول الله ﷺ وهو في صلاته يقول في دعائه: يا رحمن يا رحيم، قال: انظروا هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين، فأنزل الله سبحانه ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[3].

فاسم الرحمن مرادف لاسم الجلالة، وهم ينكرون الرحمن كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾[الفرقان]

وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فالرجل يوصف بأنه شجاع، وكريم، وغيور، وصادق، وأمين، وهكذا مئة وصف، أو أكثر أو أقل، وكلها لمسمى واحد.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٥/ ١٨٢) عن مكحول عن ابن عباس.

(٢) «زاد المسير» و«تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٤٣).

(٣) يُنظَر: الطبري (١٥/ ١٢١).

ونحن نقول للنصارى: أنتم مثلثون، فيقولون: وأنتم مثلثون، تقولون: بسم الله الرحمن الرحيم، فتدعون ثلاثة آلهة: الله والرحمن والرحيم، وهذا جهل فاضح، ومغالطة واضحة مكشوفة؛ فذات الله تعالى واحدة، وصفاته عديدة ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

والمعنى: قل -يا محمد- لمن ينكر أسماء الله الحسنى: ادعوا الله، أو ادعوا الرحمن، فبأي أسمائه دعوتموه فإنكم تدعون إلهًا واحدًا؛ لأن أسماءه كلها مشتملة على معاني التقديس والتعظيم والتمجيد، فكلها حسنى.

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال عن هذه الآية: **«هي أمان من السرقة»** وأن رجلًا من المهاجرين تلاها حين أخذ مضجعه، فدخل عليه سارق، فجمع ما في البيت وحمله، والرجل ليس بنائم، حتى انتهى إلى الباب، فوجده مردودًا، ففعل ذلك ثلاث مرات، فضحك صاحب الدار، وقال: إني حصنت بيتي[١] أي: بقراءة هذه الآية.

وهكذا فقد كان النبي ﷺ يجهر بصلاته وقراءته في الفترة المكية قبل نزول هذه الآية، فكان المشركون يستمعون إليه، ويسبُّون القرآن ومن أتى به، فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك في الصلاة، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ويسبوا من جاء به ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٢] أي توسط بين الجهر والإسرار.

وقيل: إن أبا بكر ﷺ كان يخفض صوته في صلاته، وكان عمر ﷺ يرفع صوته كثيرًا، فقيل لهما في ذلك؟ فقال أبو بكر: أناجي ربي، وقد أسمعت من أناجي، وقال عمر: أطرد الشيطان، وأوقظ الوسنان، فلما نزل ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قيل لأبي بكر: ارفع شيئًا، وقيل لعمر: اخفض شيئًا[٣]، والمراد بالصلاة هنا: هو القراءة فيها.

واعتراض المشركين كان بسبب جهر النبي ﷺ بلفظ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في البسملة، وقد اغتاظ المشركون من عدم ذكره لآلهتهم في صلاته فسبوه، فنهاه الله تعالى أن يثير حفيظة

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٢١) من طريق نهل بن سعيد عن الضحاك.

(٢) يُنظَر الحديث في: «البخاري» برقم (٤٧٢٢) ويُنظَر: (٧٤٩٠، ٧٥٢٥، ٧٥٤٧) و«مسلم» برقم (٤٤٦) و«المسند» (١/ ٢٣) برقم (١٥٥، ١٨٥٣) والطبري (١٥/ ١٨٤) والترمذي (٣١٤٦) والنسائي (١٠١٠) والطبراني (١٢٤٥٤) وابن حبان (٦٥٦٣).

(٣) الطبري (١٥/ ١٢٤)وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس كما في «الدر» (٩/ ٤٦٦).

نفوسهم، وأن يزيدهم تصلُّبًا في كفرهم، فقال الله له: لا تجهر بالقراءة في صلاتك فيسمعك المشركون، ولا تُسِرَّ بها فلا يسمعك أصحابك، وكُنْ وسطًا بين الجهر والهمس سدًّا للذريعة.

قلت: وكان الإسرار بالبسملة في الصلاة بعد نزول هذه الآية كما في حديث أنس وغيره، ومع زوال العلة التي من أجلها كان هذا الإسرار فقد بقى الحكم، كما هو عند أحمد، وغيره، وقد أخذ الشافعي وغيره، بالجهر بالبسملة كما في حديث أم سلمة، وابن عباس عند الترمذي، وغيره، والجهر محمول على ما قبل نزول هذه الآية، والإسرار محمول على ما بعد نزولها، ولذا فقد صح الحديث فيهما[١].

آيَةُ الْعِزِّ

١١١- ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾

خُتمت سورة (الإسراء) بما بُدئت به، فقد ابتدأت السورة بتسبيح الله سبحانه، وخُتمت بحمد الله ﷻ ردًّا على من زعم أن لله تعالى شريكًا، أو أن له مُعينًا، أو ناصرًا؛ فإن الحاجة إلى الشريك أو إلى الناصر والمعين عجز، والعجز مستحيل على الله تعالى، فوجب وصفه سبحانه بالغنى المطلق، فهو المالك لكل شيء القوي القاهر لجميع الطغاة والجبابرة، وهو أهل لصفات العزِّ والجلال والكمال، والعظمة والكبرياء ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما يقول اليهود، والنصارى، والمشركون الوثنيون، بل له الكمال المطلق، والثناء والحمد والمجد من كل الوجوه، المنزه عن كل نقص ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ كما يدَّعي الذين يقولون بتعدد الآلهة في القارة الهندية، وغيرها، وكما كان يقول المشركون في مكة وهم يُلَبُّون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك.

ولا أدري! إذا كان هذا الشريك مملوكًا لله تعالى وهو لا يملك شيئًا، فكيف يكون شريكًا؟ بل لله الملك كله، في العالم العلوي والسفلي، وهو الواحد والقهار.

---

(١) انظر بحثًا وافيًا في هذا في: كتابنا «فن الترتيل وعلومه» الجزء الأول.

وهو سبحانه ليس له ناصر ينصره من ذُلٍّ أصابه، فهو الغني الحميد، ولا يحتاج إلى أحد من خلقه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي: ليس بحاجة إلى نُصرة أحد، كما يقول الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل، قبحهم الله...[1].

فالله تعالى ليس بذليل، فيحتاج إلى وزير، أو مشير، أو معين، وهو المعز المذل ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام] فوجب تقديسه وتعظيمه:

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ عظمه ومجِّده وقدِّسه، وأخلص له العبادة.

جاء في الأثر: عن معاذ بن أنس أن هذه الآية تسمَّى (آية العز) فقد جاء في حديث معاذ بن أنس مرفوعًا: آية العز ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[2]، وكان النبي ﷺ يعلمها الصغار والكبار من أهله[3].

وورد أن النبي ﷺ كان يعلِّم الغلام من بني هاشم إذا أفصح، سبع مرات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[4].

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحمده على وحدانيته وإلٰهيته، فهو سبحانه المستحق لجميع المحامد، والمنزه عن جميع النقائص.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أفضل الدعاء: الحمد لله، وأفضل الذكر: لا إله إلا الله**»[5].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٢٦).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٤٠) برقم (١٥٦٢٥، ١٥٦٣٤) بإسناد ضعيف (محققوه) وأخرجه أيضًا الطبراني في الكبير (٤٣٠/ ٤٢٩)، وفي الدعاء (١٧٣٢).

(٣) ابن جرير (١٥/ ١٢٦) والطبراني (٤٢٩).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن عبد الكريم بن أبي أمية برقم (٧٩٧٦) وابن أبي شيبة برقم (١٥٣٢٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢١٣٧) وأبوداود (٤٩٥٨) والترمذي وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم ورقمه (٣٣٨٣)، وهو في مسند أحمد (٢٠١٠٧، ٢٠٢٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم. (محققو)

وعن سمرة بن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت»**[1].

وهو سبحانه له الحمد الكامل والثناء الجميل، فهو الغني عن خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إليه، وهو القوي المتين، وهم الضعفاء الأذلاء إليه، وهو جلَّ شأنه قاهر الجبابرة، ومذل الطغاة ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]

﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] فعظِّمه تعظيمًا تامًّا بالثناء عليه، وعبادته وحده لاشريك له، وإخلاص الدين كله له، فالموصوف بهذه الصفات، هو العزيز الذي يفتقر إليه العباد، وهو القادر على إعطاء النعم التي يعجز غيره عن إسدائها.

تم تفسير (**سورة الإسراء**) ولله الحمد والمنة.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٢١٣٧)

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْكَهْفِ (١٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف، والسورة الثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الغاشية، وقبل سورة الشورى، وهي سورة مكية.

وعدد آياتها مئة وعشر آيات في المصحف الكوفي[1] وهي ألف وخمس مئة وسبع وسبعون كلمة، وستة آلاف وثلاث مئة وستون حرفًا.

سماها النبي ﷺ سورة الكهف كما في حديث أبي الدرداء: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال**»[2]، ويقال: سورة أصحاب الكهف.

وروى الديلمي في مسند الفردوس أنها نزلت جملة واحدة معها سبعون ألفًا من الملائكة.

وهذه السورة تقع في منتصف المصحف، وقد قالوا: إن حرف التاء من قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ هو نصف حروف القرآن الكريم، وإن حرف النون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ هو نهاية خمسة عشر جزءًا من القرآن الكريم وفق التقسيم الحرفي للمصحف.

فضل سورة الكهف:

وقد وردت أحاديث في فضل سورة الكهف بصفة عامة، ووردت أحاديث في فضل الآيات العشر الأول منها، وأحاديث أخرى في فضل الآيات العشر الأواخر منها بصفة خاصة، وأنها تعصم من فتنة المسيح الدجال، من ذلك:

١- ما جاء في الصحيحين، وغيرهما، عن البراء ﷺ قال: قرأ رجل سورة الكهف،

---

(١) ومئة وخمس آيات في المصحف الحجازي (المكي والمدني) ومئة وست آيات في المصحف الشامي، ومئة وإحدى عشرة آية في المصحف البصري.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٩) من حديث أبي الدرداء، زاد أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٥: «ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نورًا يوم القيامة» والحديث في «المسند» (٢١٧١٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وأبي داود (٤٣٢٣) والترمذي (٨٨٦)، وابن حبان (٧٨٥) والنسائي (١٠٧٨٧) والحاكم (٢/ ٣٦٨).

وفي الدار دابة جعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة، أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«اقرأ فلان؛ فإن السكينة نزلت للقرآن»**[(١)].

والذي كان يقرأ السورة هو أُسَيْد بن حضير، كما بيَّنه الطبراني، وكان له حصان مربوط، فغشيته سحابة، وجعلت تدنو منه وتدنو، والحصان ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: **«تلك السكينة تنزلت بالقرآن»**.

٢- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الكهف كانت له نورًا من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره»**[(٢)].

وفي لفظ: لم يسلط عليه، ومن توضأ ثم قال: (سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك) كتب في رَقّ ثم طُبع بطابع فلم يكسر إلى يوم القيامة.[(٣)]

٣- وعن أبي سعيد أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»**[(٤)].

٤- وعن نافع عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغُفِر له ما**

---

(١) البخاري برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩، ٥٠١١) ومسلم برقم (٧٩٥) والترمذي برقم (٢٨٨٥) وقال: حسن صحيح و«المسند» (٤/ ٢٨١) برقم (١٨٤٧٤، ١٨٥٠٩، ١٨٥٩١) والنسائي (١١٥٠٣) وابن حبان (٧٦٩) وغيرهم.

(٢) صححه الحاكم على شرط مسلم (١/ ٥٦٤) وقال الذهبي: ووقفه ابن مهدي عن الثوري عن أبي هاشم، وأخرجه البيهقي موقوفًا (٣/ ٢٤٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٦): رواه الطبراني في الأوسط من حديث طويل (١٤٥٥) وهو بتمامه في كتاب الطهارة ورجاله رجال الصحيح.
وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ١٩٠) عند الحديث رقم (١٤٧٣): الصواب (من أولها) كما حققه في السلسلة الصحيحة (٢٦٥١)، وذكر أنّ رواية (من آخرها) جاءت في النسائي من رواية شعبة الشاذة، وأنه بين ذلك في الصحيحة (٥٨٢).

(٣) ينظر: صحيح الترغيب (١/ ١٩١) حديث رقم (١٤٧٣) صحيح لغيره قال: والموقوف صحيح لذاته. (الألباني).

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٢٤٩) وصححه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٦٨) وقال الذهبي: قلت: نعيم ذو مناكير، قلت: له شواهد بمعناه تقويه كالحديث الذي يليه، وصححه الألباني في «الإرواء». (٦٢٦) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٣٦).

بين الجمعتين»[١].

٥- وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: **«من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق»**[٢].

٦- وعن أبي هاشم بإسناده: **«من قرأ سورة الكهف كما أُنزلت كانت له نورًا يوم القيامة»**[٣].

٧- وعن علي ﷺ مرفوعًا: **«من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، وإن خرج الدجال عُصِم منه»**[٤].

٨- وعن أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال»**[٥]. وهذا بالنسبة لحفظ عشر آيات من أولها.

٩- وعن أبي الدرداء ﷺ أيضًا: **«من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال»**[٦]. وهذا لمن قرأ العشر آيات من آخرها حفظًا أو نظرًا.

فهذه أحاديث وآثار تنص على أن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سِيَّمَا الآيات العشر من أولها أوآخرها فإنه يُعْصم من الدجال، ويضاء له نور إلى عنان السماء، وإلى

---

(١) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ٥١٣) وقال: رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به، وضعف الألباني رفعه في «ضعيف الترغيب» (٤٤٧) وقال ابن كثير: في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.

(٢) رواه سعيد بن منصور، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣١ والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٧٩٠) ورجح الفاضل محمد طرهوني في «موسوعة فضائل القرآن» (١/ ٣٣٧) أنه موقوف له حكم الرفع وأخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٤) وابن الضريس (٢١١) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي في الشعب (٢٤٤٤).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٤٢٨) وقد رُوي مرفوعًا وموقوفًا وهو في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد برقم (٢٤٤٦).

(٤) رواه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٤٣٠) وابن مردويه، وفي تخريج «الإحياء» (١/ ٤٤٧): سنده مجهول.

(٥) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٩، ٤٥٠) برقم (٢١٧١٢، ٢٧٥٤٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات ومسلم برقم (٨٠٩) وأبو داود برقم (٤٣٢٣) والترمذي برقم (٢٨٨٦) وقال: حسن صحيح، إلا أنه قال: ثلاث آيات بدلًا من عشر آيات، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٢٥) و(١٠٧٨٧) وأبو داود (٤٣٢٣) وابن حبان (٧٨٥، ٧٨٦) والحاكم (٢/ ٣٦٨)وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٢).

(٦) «المسند» (٦/ ٤٤٦) برقم (٢٧٥١٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٩/ ٢٥٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) وأبو عبيد في فضائله ص (١٣٢).

البيت العتيق، ويُغفر له ما بين الجمعتين، وتُنزَّل السكينة عليه، ولا يضره شيطان ولا آفة.

سبب نزول السورة:

ذكر ابن إسحاق، والطبري، وغيرهما بسند فيه رجل لم يذكر اسمه، عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ: أن كفار قريش أرسلت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة، يقولون لهم: أنتم أهل كتاب، وعلى علم بالأنبياء وصفاتهم وعلاماتهم وأحوالهم أكثر منَّا، وقد جئنا نسألكم عن أمر محمد ﷺ فوصفوه لهم، وذكروا أخباره وأقواله.

ثم قالوا لهم: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في غابر الزمن ما قصتهم؟ وسلوه عن رجل طاف الأرض مشرقًا ومغربًا ما نَبَؤُهُ؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإن لم يجبكم فهو متقوِّل، أي: كاذب في أقواله، فلما سألوا النبي ﷺ قال: سأخبركم غدًا ولم يستثن، فانصرفوا عنه.

ثم مكث ﷺ خمس عشرة ليلة، وانقطع الوحي خلال هذه المدة، وشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ وحزن كثيرًا، ثم نزل الوحي بسورة الكهف، وفيها جوابهم بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وبقوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1].

وفي رواية أخرى: أن اليهود قالوا للمشركين من قريش: سلوه عن الروح، فإن أَخبركم به، فليس بنبي، وإن لم يخبركم به فهو نبي، كما سبق ذكره عند آية الروح في سورة الإسراء.

وأهم غرض نزلت له سورة الكهف هو قصة أصحاب الكهف، وقد ذُكرت القصة في أول السورة، ثم ذكرت قصة ذي القرنين في آخر السورة، أما الإجابة عن الروح فقد نزلت لِتُلحَق بسورة الإسراء التي نزلت قبل سورة الكهف بتفويض العلم فيها إلى الله تعالى.

ويُحتمل أن نزول سورة الإسراء ظل مفتوحًا إلى وقت نزول سورة الكهف.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٢٧) وابن كثير (١٤) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٣٠٢) وأبو نعيم في «الدلائل» والبيهقي في «الدلائل» أيضًا (٢/ ٢٧٠).

وقد عاتب الله سبحانه رسوله ﷺ بآيتين في هذا المقام: الآية السادسة وهي تتعلق بحزنه ﷺ وحرصه الشديد على إيمان القوم ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾، أي: لعلك قاتلها ومهلكها على عدم إيمانهم، وإنما أنت رسول تبلغ عن الله أمره ونهيه فحسب، وهذا معنى: ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وعاتبه ربه أنه لم يستثن حين قال: سأخبركم غدًا، أي: لم يقل (إن شاء الله)، ولذلك فإن الوحي قد انقطع، قيل: ثلاثة أيام، وقيل: خمسة عشر يومًا، ثم نزل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أغراض السورة:

وسورة الكهف فيها ثلاث قصص: قصة أهل الكهف في سبعة عشر آية، من الآية (٩-٢٩) وهي قصة الإيمان والكفر، وإثبات البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة.

وقصة موسى والخضر في اثنين وعشرين آية، من الآية (٦٠-٨٠)، وهي قصة فيها آداب طلب العلم، وبيان أن فضل موسى عليه السلام لا يمنع أن يكون الله سبحانه قد أطْلع الخضر عليه السلام على ما لم يُطْلع عليه موسى وهو نبي مرسل.

وجاءت قصة ذي القرنين في ثماني عشرة آية، من الآية (٨٣-١٠١) وهي قصة المَلِكِ العادل، الذي يحول دون وصول الأذى إلى رعيته، ويسوس الناس بالعدل والقسط، ويفتح البلاد، ويقيم الحضارات، فيعمل لخير العباد والبلاد، ولا يحرص على بقاء المنصب وتوريث الحكم.

وفي السورة ضرب الله سبحانه ثلاثة أمثلة: ضرب مثلًا بالرجل الغني المغرور المفتون بأمواله، في مقابل الرجل الفقير، المعتز بدينه وعقيدته، وذلك في اثنتى عشرة آية، من الآية (٣٢-٤٤).

وضرب مثلًا ثانيًا للحياة الدنيا في زينتها وبهجتها، ثم تصير إلى زوال وفناء.

وذلك في الآية (٤٥).

وضرب مثلًا ثالثًا للتكبر والاستعلاء، يتمثل في إباء إبليس وامتناعه عن السجود لآدم

وفق أمر الله سبحانه له، وذلك في الآية (٥٠).

وبعد كل مثَل وقصة تعليقٌ شافٍ رائعٌ يهدي إلى الله سبحانه، ويُعِدُّ للقائه:

ففي نهاية قصة أهل الكهف يعقِّب الله تعالى عليها بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ الآية [٢٦].

وفي نهاية مثَل أصحاب الجنتين يعقِّب الله تعالى عليها بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ الآية.

ويأتي ذكر المثل بالحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها عقب قصة المفتون بجنته، وفي التعقيب على مثَل الحياة الدنيا وزينتها يقول سبحانه: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الآية [٤٦].

وفي التعقيب على قصة ذي القرنين يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾﴾ الآية [١٠٢].

وقد مثَّل القصص في السورة أكثر من سبعين آية من مجمل آيات السورة، وهي عشر ومئة آية في المصحف الكوفي.

ولأن سورة الكهف مكية، فهي تُعنى بالدرجة الأولى بتصحيح العقيدة في إعلان التوحيد وإنكار الشرك، وإقامة منهج القيم والنظر والفكر على ميزان العقيدة الصحيحة.

ويرتبط أول السورة بآخرها وثناياها برباط التوحيد:

ففي أول السورة قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ الآية.

وفي آخرها يقول سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الآية [١١٠].

وفي ثنايا السورة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية ١٥].

وفيها: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [٢٦].

وفيها: ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ الآية.

ويوم القيامة يصيح الكافر ندمًا قائلًا: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ الآية [٤٢].

والقرآن كله جاء لدعم عقيدة التوحيد:

ومنه ما جاء في أول السورة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾﴾.

وفي نهاية القصة الأولى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ﴿٢٧﴾﴾ الآية.

والناس بالنسبة لهذا القرآن فريقان: مؤمن، وكافر، وقد أمر الله رسوله أن يُصَبِّر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهم المؤمنون، وأن يبتعد عمَّن أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا.

وبعد أن بيَّن سبحانه مصير كل فريق في الجنة أو النار، قال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ الآية [٢٩].

مع موضوعات السورة:

وسورة الكهف إحدى خمس سور بُدئت بـ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله تعالى وتقديسه، والثناء عليه بصفات الجلال والكمال، والآيات الأربع الأخرى هي على التوالي:

١- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢].

٢- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام].

٣- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ].

٤- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١﴾﴾ [فاطر].

وكان افتتاح هذه السورة بحمد الله تعالى على إنزاله القرآن على عباده؛ ليبشر المؤمنين بالنعيم المقيم، وينذر الذين نسبوا الشريك والولد لله تعالى، بنار جهنم وبئس المصير،

ولتقرير أن ما على وجه الأرض من زينة ومتاع إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء.

ويلي هذا الافتتاح قصة فتية آمنوا بربهم، وآثروا هذا الإيمان على زخرف الدنيا وبهجتها، فهربوا بعقيدتهم من جور المَلِك الطاغية، واتخذوا من الكهف مأوى لهم، فرَعتْهُم العناية الإلهية، حتى إن شعاع الشمس كان يميل عن فم الكهف في الصباح يمينًا، وفي المساء شمالًا؛ حتى لا يشعر المارة بأن في هذا الكهف أحدًا، وبعد ثلاث مئة سنة، يستيقظون ليجدوا أن الزمن قد تغير، فزالت دولة الشرك، وجاءت دولة التوحيد، وذهب الخوف والبطش، وحلَّ الأمن والأمان.

وبعد هذه القصة يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ إلى أن يكون مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي من أهل التقى والإيمان، وإن كانوا أفقر الناس وأضعفهم، وأن يبتعد عن الغافلين عن ذكر الله، وإن كانوا أهل ثراء وجاه.

ثم بيَّن سبحانه المصير العادل لكلا الفريقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ﴾ الآية [٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآيتان [٣٠، ٣١].

ثم يعقُب ذلك حوار بين مؤمن قليل المال، وكافر على جانب من الثراء، يتطاول فيه الكافر على المؤمن مغترًا ومفاخرًا بماله، فتأتي جوائح السماء لتجعل جنته قاعًا صفصفًا.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ الآية [٤٢].

لقد كان عليه أن يتأدب بأدب الإسلام وينسب الفضل إلى الله وحده، ويقول: **«اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»**[1]

إن الحضارة الحديثة صنعت أجيالًا من طراز هذا الثريِّ، فارتبطتْ بالتراب، واستبعدت الدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، وجنة ونار، وفُتِنوا بالدنيا وزخرفتها، فانهزموا

(١) يُنظَر: البخاري (٨٤٤، ٦٣٣٠، ٦٤٧٣) ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

أمام حب الدنيا، وتعلَّقوا بالحطام، وليس للدار الآخرة حساب في منظورهم، وهم في انتظار يوم الحساب حيث تكون المفاجآت، ويوقنون أنهم كانوا على خطأ بيِّن.

ولذا: فإن الله سبحانه يحذرنا من عداوة الشيطان أثناء الحديث عن مشاهد القيامة؛ لنكون على حذر من كيده ومكره.

وبعد قصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، تُختم السورة ببيان ما أعده الله سبحانه للكافرين من سوء العذاب، وما أعده للمؤمنين من جزيل الثواب؛ لإبراز عنصر الموازنة بين حُسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

وبعد تقرير جزاء المحسن والمسيء تأتي آية تتحدث عن كلمات الله تعالى؛ لتبيِّن أنه ليس في مقدور أحد إحصاؤها، وأن البحار لو كانت مدادًا، والأشجار أقلامًا لنفد البحر، وفنيت الأقلام، دون أن تفنى كلمات الله.

وبيَّنت السورة -في نهايتها- التوحيد الصحيح، عن طريق إفراد الله تعالى بالعبادة، فأشارت إلى أن العمل الصالح المقبول يحتاج إلى توافر شرطين فيه، هما:

١- إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به سبحانه.

٢- وأن يكون العمل موافقًا لهدي النبي ﷺ.

٣- أي: أنْ يكون العمل خالصًا لله، صوابًا وفق سنة رسول الله.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الآية [١١٠].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثمانية أقسام:

١- من أول السورة إلى الآية الثامنة: حديث عن الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ، وأسف النبي ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمن.

٢٠- ومن الآية (٩-٢٦) عن قصة أصحاب الكهف.

٣-وحديث عن خفض جناح الداعية إلى الفقراء والضعفاء، وبيان نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين بعد البلاغ والإنذار، وذلك من الآية (٢٧-٣١).

٤- ومن الآية (٣٢-٤٤) مثل الرجلين، المعتزّ بدينه، والمفتون بدنياه.

٥- ومن الآية (٤٥-٥٩) حديث عن الدنيا والأخرة، وآدم وإبليس والقرآن، ومهمة الرسل، ووعيد من لم يؤمن منهم بالعذاب المؤلم.

٦- أما قصة موسى والخضر فهي من الآية (٦٠-٨٢).

٧- يليها قصة ذي القرنين من الآية (٨٣-١٠١).

٨- ثم ختام السورة من (١٠٢-٢١٠) عن جزاء أهل الكفر والإيمان، وعدم نفاذ كلمات الله تعالى، وبشرية النبي ﷺ وشرطا قبول العمل.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

الْقُرْآنُ كِتَابٌ قَيِّمٌ، يُنْذِرُ وَيُبَشِّرُ، وَفِيهِ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا[1] ﴿١﴾﴾

وتبدأ سورة الكهف بلفظ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يُفتتح به الخطبة، والكلام المهم، ولما سألت قريش رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاث: الروح، والكهف، وذي القرنين بتوجيه من اليهود، قال لهم النبي ﷺ: **«غدًا أُخبركم»** ولم يقل: إن شاء الله، فعاتبه الله على ذلك، بأن انقطع الوحي خمسة عشر يومًا، فقال الكفار: إن محمدًا قد تركه ربه، وقال بعضهم: إنه عجز عن أكاذيبه، فلما انقضى أمد العتاب نزل الوحي بالجواب على الأسئلة، مفتتحًا ذلك بحمد الله الذي أنعم عليه بجوابهم وإفحامهم، وكانوا يحبون الإساءة إليه.

ووصَف الله نبيه بالعبودية تقريبًا لمنزلته، ورفعًا لمكانته، وتنويهًا بعلوِّ شأنه، وهذه بداية تصدرت خمس سور من القرآن الكريم هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وهذه السور الخمس المفتتحة بحمد الله سبحانه تشير إلى **أمرين**:

الأمر الأول: جاء فيما عدا سورة الكهف حيث تشير السور الأربع إلى أن الإيمان الصحيح يستمد حقيقته من هذا الكون، وهو يدل على توحيد الله سبحانه، إنها تتحدث عن الكون وما فيه من عجائب، وتبيِّن أن آثار الصنعة تدل على الصانع سبحانه، فهي تشير إلى السموات والأرض والملائكة أولي الأجنحة، وإلى خلق العالمين جميعًا، وهو من آثار قدرة الله جلَّ شأنه، وهذا من شأنه أن يأخذ بيد العبد إلى معرفة وحدانية الله سبحانه.

---

(١) قرأ حفص بالسكت دون تنفس على ألف (عوجًا) بخلف عنه، حال وصلها بالآية بعدها (قيمًا) والأفضل الوقف على (عوجًا) مع التنفس؛ لأنها رأس آية، والوقف على رءوس الآي سُنَّة، وبقية القراء بعدم السكت، ومعهم حفص في الوجه الثاني، وهو المتعين على قصر المد المنفصل له من طريق طيبة النشر، ووجه السكت أنه لدفع توهم أن يكون (قيمًا) نعتًا، لـ (عوجًا) فيفسُد المعنى؛ لأن العوج لا يكون قيمًا، و(قيمًا) حال، أو مفعول لفعل محذوف تقديره: بل جعله قيمًا.

والأمر الثاني: تُشير إليه الآية الأولى من سورة الكهف، وهو الإيمان بهذا القرآن، وبالوحي المنزل من السماء، وتبيِّن أنه أعظم نعمة أخرج الله بها الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى.

فالإيمان بالقرآن يقود العبد إلى الإيمان الصحيح، كما أن النظر في هذا الكون يقوده إلى الإيمان الصحيح كذلك، وفي الآية إرشاد للعباد أن يحمدوا ربهم على إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبيان الحق والباطل، والهدي والضلال.

والله سبحانه يعلمنا كيف نحمده، ويبيِّن لنا أعظم نعمة نحمده عليها، وهي نعمة الإسلام، ونعمة القرآن الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، فالحمد الكامل، والثناء الجميل كله لله وحده الذي تفضل به على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأنزل عليه القرآن؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفيه سبب نجاتهم وفوزهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وفيه انتظام حياتهم وسيادتهم وهدايتهم.

والحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يكون على النعم العامة الواصلة للخلق أجمعين، أما الشكر فيكون خاصًا بشخص معيَّن معنيٍّ بهذه النعمة.

والحمد أخص من المدح؛ لأن المدح يكون للعاقل وغير العاقل، أما الحمد فلا يكون إلا للفاعل المختار، فالثناء لله تعالى على إنزال هذا الكتاب الذي يحمل هداية البشر، ويحذرهم مما فيه ضررهم وهلاكهم.

وهذا القرآن ليس فيه ميل عن الحق، فهو منزه عما يرميه به المشركون من أنه سحر، أو أساطير الأولين ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨] ليس فيه زيادة ولا نقص، وليس فيه اختلاف ولا تناقض، لا في ألفاظه، ولا في معانيه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد وصفت هذه الآية القرآن بوصفين، وهما: نفى العوج عنه، وإثبات أنه قيم.

ونَفْيُ العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

وإثبات الاستقامة له، تقتضي أن أوامره ونواهيه تزكى النفوس وتطهرها، وتملأ القلب إيمانًا ومعرفة ويقينًا وعدلًا وقسطًا وإخلاصًا، وجدير بكتاب هذا وصفه أن يُحمد الله على إنزاله.

فهو كتاب ليس فيه إفراط ولا تفريط، لا في العقيدة، ولا في العبادة، ولا في أحكامه، ولا تشريعاته التي يأمر بها، وينهى عنها، بل هو كتاب قيم ومهيمن على الكتب التي نزلت من السماء على موسى، وداود، وعيسى، وغيرهم من رسل الله.

والأفضل للقارئ أن يقف على نهاية هذه الآية، ويتنفَّس، ثم يبدأ بما بعدها؛ لأن السكت بينهما بدون تنفس لتلافي فساد المعنى؛ لأن العوج لا يكون قيِّمًا، وهذا يتحقق بالوقف أكمل من السكت ولأنه رأس آيه.

وقد مدح الله القرآن بأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وأنه يهدي لِلَّتي هي أقوم، وأنه يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، إلى غير ذلك من الصفات، ثم وصف الله هذا الكتاب فقال:

٢-٤- ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ(١) وَيُبَشِّرَ(٢) ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾

وقد أنزل الله هذا القرآن، وجعله ﴿قَيِّمًا﴾ أي: مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم يقوم على هَدْي الأمة وإصلاحها.

ومهمة القرآن، أو الغرض من إنزال هذا الكتاب، أن يبشر مَنْ عَمِل به بدخول الجنة، وينذر من لم يعمل به بدخول النار.

فيخوِّف مَنْ خالفه وكذَّبه ولم يؤمن به بعذاب شديد في الدنيا والآخرة.

والبأس: هو شدة الألم، ويطلق على القوة في الحرب.

وهذا الإنذار يشمل عقاب الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

ويبشر المؤمنين الصادقين في إيمانهم أن لهم مثوبة عظيمة وأجرًا حسنًا، هذا الأجر الحسن هو الجنة يمكثون فيها دائمًا وأبدًا، لا يرحلون عنها ولا يفارقونها.

---

(١) قرأ شعبة بإسكان الدال من (لدنه) مع إشمامها، وكسر النون والهاء، ووصلها بياء في اللفظ مع مدها حركتين، هكذا (لدْنِهِي) مع الإشارة إلى ضم الدال بالإشمام -حال سكون الدال على اختيار الجعبري- وهو ضم الشفتين، والباقون بضم الدال وسكون النون وضم الهاء.

(٢) قرأ حمزة والكسائي بفتح الياء وإسكان الباء من (يبشر) وضم الشين مخففة من البشارة، والباقون بضم الياء وفتح الباء من بشَّر المضعف، لغة أهل الحجاز.

وهذا الأجر الحسن هو الثواب الذي رتبه الله تعالى على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه الفوز برضى الله عز وجل.

والعمل الصالح يشترط فيه أن يكون خالصًا لوجه الله سبحانه، لا يشوبه رياء ولا نفاق، فلا يُقْبل عمل صالح من غير مؤمن، ويشترط في هذا العمل أن يكون صوابًا موافقًا لهدي النبي ﷺ ليس فيه ابتداع، بل كما جاء به المصطفى ﷺ، والإيمان والعمل الصالح شرطان لاستحقاق دخول الجنة والمكث فيها.

والإنذار: هو الإعلام المقترن بتخويف وتهديد، فكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذارًا.

والبشرى: هي الخبر السار، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم].

ويُنْذِر هذا القرآن على وجه الخصوص: اليهود، والنصارى، وبعض قبائل العرب من المشركين الوثنيين الذين نسبوا لله تعالى الشريك والولد، وانفردوا بهذه الصفة القبيحة، فالنصارى يعتقدون أن عيسى عليه السلام ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، والوثنيون قالوا: الملائكة بنات الله.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠]. وقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات].

فالآية عامة في كل مشرك نسب الولد إلى الله تعالى، وإن كانت وقت نزولها بمكة تخاطب مشركي العرب الذين نسبوا الولد لله تعالى، والولد هو المولود، ويطلق الولد على الذكر والأنثى، والمشركون كانوا ينسبون البنات لله سبحانه؛ لأنهم يكرهونهنَّ، ويخصون أنفسهم بالذكور، وقد عاب الله عليهم ذلك في قوله:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم]. قال تعالى:

٥- ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

أي: وليس عند هؤلاء المشركين المكذبين شيء من العلم على ما يدَّعونه لله تعالى من اتخاذ الولد، كما أنه ليس عند آبائهم وأسلافهم الذين قلَّدوهم واتبعوهم علم بنسبة الولد

إلى الله تعالى، وانتفاء هذا العلم يعني: أن هذه النسبة مستحيلة على الله تعالى، لا يتعلق بها علم، وليس هناك من طريق يوصِّل إليها، فعدم العلم بالشيء يعني: الجهل به، أو استحالة وقوعه في حد ذاته، فهو فرية؛ لأنه أمر مستحيل لا يقولونه عن علم، إنما يقولونه عن جهل، أو عن ظن، أو عن كذب وافتراء، تقليدًا لآبائهم، كما قال تعالى:

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

وقال في آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

إنها مقالة شنيعة، عظيمة القبح، تنطق بها ألسنتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] أي: في غاية الفساد والبطلان.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وهذه المقولة افتراء وكذب على الله تعالى، ولا يوجد أحد أظلم ممن افترى على الكذب.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: عظمت هذه الكلمة التي ينسبون فيها الولد إلى الله سبحانه فلا شناعة ولا قربة أعظم من نسبة الولد إلى الله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]

فالشرك بالله تعالى مجرد كذب مخالف للواقع، مع علم قائله أنه باطل ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام]. والقول بإتخاذ الولد بالنسبة لله تعالى فيه:

١- تقوُّل على الله بغير علم ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾.

٢- ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾.

٣- ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

حِرْصُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ الْبَشَرِ

٦- ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾

ومن حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، أنه كان يفرح ويُسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين.

والله سبحانه يقول لرسوله: لا تحزن على عدم إيمان من لم يؤمن، فلماذا هذا الحرص الشديد؟! فلا تُشغل نفسك بهدايتهم، إنْ عليك إلا البلاغ، فمهمتك أن تبشر وتنذر، ولا عليك إن آمنوا أو لم يؤمنوا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي: قاتل نفسك ومهلكها غمًّا وغيظًا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي: على إثر توليهم وإعراضهم عن دعوتك ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: بما جاء في هذا القرآن حسرة و﴿أَسَفًا﴾ وحزنًا على عدم إيمانهم، شفقة بهم وخوفا عليهم.

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨]. وقال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨]. وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء].

وكأن هذه الآيات سيقت إلى الرسول ﷺ في آخر أوقات رجائه في إيمانهم بمعنى: إنهم لن يؤمنوا فامض -أيها الرسول- في تبليغ الدعوة وما أوحيناه إليك، ولا تبالِ بإصرار الكافرين على كفرهم، واصبر صبرًا جميلًا على أذاهم؛ فإن الهدى من الله، وإن الله مظهر دينه، ومُعْلٍ كلمته ولو كره الكافرون والمشركون.

قال ابن عباس: اجتمع عُتْبَة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأبو البَخْتَري في نفر من قريش،وكان رسول الله ﷺ قد كبُر عليه ما يرى من خلاف قومه عليه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه ذلك حزنًا شديدًا، فأنزل الله الآية[١].

وقال قتادة: نهى الله رسوله أن يأسف على الناس في ذنوبهم[٢].

وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فليس فيهم فائدة، وعلى هذا فإن على الداعية أن يبلغ دعوة ربه ويسلك السبل الموصلة إلى الهداية، ويسدّ منافذ الضلال، والغواية، فإن اهتدوْا، فالحمد لله، وإلا فلا يحزن ولا يأسف، فإن هذا خارج عن قدرته، فعليه أن يمضي في طريق دعوته، فإن موسى عليه السلام

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (٩/ ٤٨٣).

(٢) عبد الرزاق (١/ ٣٩٦).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة: ٢٥]

وقال تعالى لحبيبه محمد ﷺ ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ الغاشية]

وقال أيضًا ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ القصص: ٥٦]

الدُّنْيَا ابْتِلَاءٌ وَمَصِيرُهَا إِلَى زَوَالٍ

٧- ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧﴾

إنا جعلنا ما على وجه الأرض من المال والبنين، والمساكن، والأنهار، والزروع، والثمار والذهب والفضة، والنساء، والخيل المسومة، والنخيل والأعناب والأشجار، والمآكل والمشارب، وغير ذلك من زخرف الدنيا وبهجتها، جعلناه زينة لها؛ لنختبر العباد: أيهم أطوع لله تعالى وأيهم أسوأ عملًا بالمعاصي، فنظهر الطائع من العاصي.

وفي الآية تذكير للناس بنعم الله عليهم، فقد خلقها الله وأنعم عليهم بها؛ لِيُظْهر علمه للخلائق بهذا الابتلاء، ثم يجازي في الدار الآخرة كلًّا بما يستحق؛ فالله تعالى يعلم حقيقة النفوس، ويعلم ما يفعله العباد، وإنما يبتليهم كي يُسجِّل هذا في صحف الملائكة، وتظهر أفعال الناس وأقوالهم للخلائق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢].

أي: أخلصه وأصوبه، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعته.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ عن إعراض المشركين عنه ببيان أن الله تعالى قد أمهلهم وأعطاهم زينة الدنيا؛ كي يشكروه ويعبدوه، ولكنهم بطروا هذه النعمة، والله تعالى مُحاسبهم ومجازيهم على صنيعهم، فما يستحق هؤلاء أن تحزن أو تأسف عليهم، فقد جعلنا ما على وجه الأرض مما يصلح منها أن يكون زينة وجمالًا ومنفعة لأهلها.

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨﴾ [النحل].

وقال: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾.

وهذه الزينة المبثوثة على ظهر الأرض، توقظ العقول إلى النظر في توحيد خالق هذا الكون، وقيام أصحابها بشكره تعالى وعبادته؛ فإن من لوازم هذه الزينة أنها تثير الشهوات لاقتطافها وتناولها، والناس متفاوتون في ذلك: فمنهم المؤمن القائم بواجب الشكر، ومنهم الكافر الجاحد لفضل الله عليه، فمن اتبع أمْر الله ونهيه، وأسرع في ذلك فقد نجح في الامتحان، ومن أعرض وتباطأ فقد رسب في الامتحان، فامض -أيها الرسول- في طريق دعوتك وتبليغ ما أوحيناه إليك، فهم في موضع اختبار؛ ليتبين المحسن من المسيء.

عن أبي سعيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الله، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[١].

والناس متفاوتون في حسن العمل، ويوم القيامة تتلو كل نفس ما أسلفت. قال تعالى:

٨- ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

ثم إن هذه الدنيا تصير إلى زوال وتراب وفناء، لا نبات فيها عند انقضاء عمرها، أي: وإنا مُخَرِّبُو هذه الدنيا بعد عمارتها، حيث يأتي عليها الفناء والزوال، وتصير ركامًا كالتراب الذي لا نبات فيه، فتعود صعيدًا جرزًا، قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها، وزال نعيمها، واندثرت آثارها، وقد حذَّرنا الله تعالى من الاغترابها، ورَغَّبنا في دارٍ يدوم نعيمها.

ومعنى **صعيدًا**: يعني ترابًا، **وجرزًا**: أي لا نبات فيه.

ثم حض سبحانه على التزوُّد بالعمل الصالح الذي يؤدي إلى سعادة الدارين؛ فإن مصير هذه الدنيا إلى الزوال، حيث تعود الأرض بعد زخرفها وبهجتها وخضرتها إلى تراب جاف أجرد، لا يصلح للحياة فوقه عند فناء العالم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة].

وقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٧٤٢) من طريق أبي سلمة عن أبي نضرة به.

وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ الكهف].

وهكذا الدنيا تفنى بعد بهجتها وزَخْرَفَتِها، ومصير الناس إلى دار البقاء والسعادة الأبدية أو الشقاء الأبدين، عياذ بالله.

مُجْمَلُ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ فِي أَرْبَعِ آيَاتِ

٩- ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾

لقد تعجب الكفار والمشركون قديمًا وحديثًا من قصة أصحاب الكهف، فوصفوها بأنها من قصص وحكايات الأولين، ولذا فقد سألت قريش رسول الله ﷺ بإيعاز من اليهود، ومن النصارى والرهبان الذين كانوا في الأديرة الواقعة في طريق رحلة قريش من مكة إلى الشام في رحلة الصيف للتجارة، وإيعاز من النصارى الذين يَرِدُون إلى مكة للتجارة.

والله ﷻ يقول لهم: لا تحسبوا أن قصة أهل الكهف وحدها عجبٌ، فتسألوا عنها رسول الله ﷺ على سبيل الامتحان، فإن آياتنا كلها عجَب، ويوجد ما هو أجدر بالاهتمام منها، وأنتم عنها غافلون، فخلْق السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما، أمر عجب، وما على وجه الأرض من نبات وحيوان وإنسان ومعادن أمر عجب أيضًا، وانقراض هذا العالم وفناؤه أعظم من ذلك، ولايزال الإنسان يتفكر في نفسه وفي الكون حتى يتبيّن له الحق من الباطل والهدى من الضلال، فليست قصة أصحاب الكهف هي العجيبة وحدها، بل يوجد من جنسها الكثير، والوقوف عندها نقص في العلم والعقل.

لقد سألتم عن أمر عجيب هو قصة أهل الكهف، وكفرتم بما هو أعجب، وهو البعث والنشور، والحساب والجزاء، وهذا هو مغزى قصة أهل الكهف؛ حيث أماتهم الله في الدنيا ثم أحياهم؛ ليكون هذا دليلًا حيًّا مشاهدًا لمن قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي الآيات الأخرى يقول تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ويقول: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ [الرعد].

وقد ابتدأ القرآن قصة أهل الكهف ببيان العبرة منها، ويُجْمِل الله سبحانه قصتهم في أربع آيات، ويفصلها بعد ذلك في ثلاث عشرة آية.

والمعنى: أظننتَ يا محمد أن قصة أهل الكهف كانت عجبًا من بين آياتنا، فقد كان الناس يظنون أن قصتهم عجيبة، يقول الله سبحانه لنبيه: هناك ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف، ومن ذلك: الموت والحياة، والكون وما فيه، وغير ذلك.

والرقيم: اسم للَوْح من رصاص، أو لَوْحَيْن، كُتِب فيهما أسماء أهل الكهف وأنسابهم وأخبارهم وقصتهم، هذا هو أشهر الأقوال في الرقيم، وهو فعيل بمعنى مفعول، أي: الكتاب المرقوم فيه دينُهم، وسبب لجوئهم إلى الكهف والتعريف بهم، وذِكْرُ وقْت فقدهم، وجعْله تاريخًا لهم، ووضْعه على باب الكهف، كما قال تعالى عن كتاب الأبرار: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين].

قال سعيد بن جبير: الرقيم لوح من حجارة، كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمْرَهم، ثم وُضع على باب الكهف[1].

وقال السُّدِّي: الرقيم، حين رُقِّمت أسماؤهم في الصخرة، كتب الملِك فيها أسماءهم، وكتب أنهم هلكوا في زمان كذا وكذا في مُلْك دقيانوس ملك الروم، وكانت مدينة (طرَسُوس) تتبع ملكه، ثم ضربها في سور المدينة على الباب، فكان مَن دخل أو خرج قرأها، فذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾[2].

والرقيم أيضًا: اسم للجبل الذي فيه الكهف، قُرب (طرَسُوسَ) وهو اسم لوادٍ ومكان معروف في الأردن، وقيل: الرقيم هو الكلب.

والكهف: هو النقب، أو الشق المتسع في وسط الجبل، الذي اتخذه الفتية مستقرًّا

---

(١) ، (٢) «الدر المنثور» (٩/ ٤٨٨).

لهم، فإن لم يكن هذا النفق واسعًا فهو غار. قال تعالى:

١٠ - ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ[(١)] لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾

اذكر -يا محمد- حين لجأ الشبان المؤمنون إلى الكهف، خشيةً من فتنة قومهم لهم، وإرغامهم على عبادة الأصنام، فقالوا: ربنا أعطنا من عندك رحمة، تُثَبِّتنا بها وتحفظُنا من الشر، ويَسِّر لنا الطريق الصواب الذي يوصِّلنا إلى العمل الذي تحب؛ حتى نكون راشدين غير ضالين، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين التضرع والدعاء، وبين السعي والفرار من الفتنة.

اذكر إذ أوى هؤلاء الفتية الذين اختبؤوا في الكهف خفية، ودعوْا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ولأهل الكهف قصة أخرى مماثلة:

ثبت من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون، إذ أصابهم مطر، فأَوَوْا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء، لا ينجيكم إلا الصدق، فلْيدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فقال واحد منهم: اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لي أجير عَمِلَ لي على فَرَق** -أي: مكيال- **من أرز، فذهب وتركه، وإني عمدتُ إلى ذلك الفرَق فزَرَعْتُه فصار من أمره أني اشتريتُ منه بَقَرًا، وإنه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعْمَدْ إلى تلك البقر ،فَسُقْها، فقال لي: إنما لي عندك فرَق من أُرْز، فقلت له: اعْمَدْ إلى تلك البقر، فإنها من ذلك الفرَق، فساقها، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك، ففرِّجْ عنا، فانْساختْ** -أي: انشقت- **عنهم الصخرة.**

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنتُ آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأتُ عليهما ليلة، فجئتُ وقدْ رقدا، وأهلي وعيالي يتضاغَوْن -أي: يبكون ويصيحون- من الجوع، **فكنتُ لا أسقيهم حتى يشرب أبوايَ، فكرهتُ أن أوقظَهما، وكرهتُ أن أدَعَهُما، فيَسْتكنَّا لشَرْبتهما** -أي: يضْعُفا لعدم الشرب- **فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك، ففرِّجْ عنا، فانْساختْ**

(١) قرأ أبو جعفر بإبدال همزة (وهيئ) ياء، فيكون النطق بياء من الثانية منهما مخففة، ومثله حمزة وهشام بخلفه عند الوقف، ومثلها (ويهيئ) في الآية: (١٦)، والباقون بهمزة ساكنة.

عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.

فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابْنةُ عمٍّ من أحب الناس إليَّ، وإني راودتُها عن نفسها، فأبتْ إلا أن آتيها بمئة دينار، فطَلَبْتُها حتى قدَرْتُ، فأتيتُ بها فدَفَعْتُها إليها، فأمْكَنَتْني من نفسها، فلما قعدتُ بين رجليها قالت: اتق الله، ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه، فقُمتُ وتركتُ المئة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك، ففرِّجْ عنا، ففرَّج الله عنهم، فخرجوا»[1].

وقد وصف الله أصحاب الكهف بأنهم فتية، وأنهم لجؤوا إلى الكهف، وأنهم دعوْا ربهم بهذا الدعاء، ووصفهم بعد ذلك بأنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى، وربط على قلوبهم، وأنهم وحَّدوا ربهم ونبذوا الشرك، وأنه لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله تعالى باتخاذ الشريك والولد.

أجاب الله دعاء أهل الكهف، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، وأمّنهم من الفتنة:

١١- ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه ما حدث لهؤلاء الفتية بعد أن لَجؤوا إلى الكهف، ودعوا ربهم بهذا الدعاء الشامل لأنواع الخير، فقد أنامهم الله في الكهف نومًا طويلًا ثقيلًا بحيث لا يسمعون، ولم يكونوا أحياء، فالأحياء يأكلون ويشربون، وهؤلاء لا يأكلون ولا يشربون ولا يتحركون، ومكثوا في الكهف ثلاث مئة سنة شمسية، وازدادوا تسعا بالسنة القمرية، وخلال هذه المدة لم يكونوا أمواتًا، فالأموات لا يتقلّبون، وهؤلاء كانوا يُقلَّبون ذات اليمين وذات الشمال، ولم يكونوا أحياء، لأنهم لا يأكلون.

ويوم بُعِثوا وخرجوا من كهفهم، ذهب واحد منهم ليأتي لهم بالطعام، فكان في الصورة والهيئة التي كان عليها قبل ثلاث مئة عام وتسعة، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [٢٥]

أي: أنهم حين خرجوا كانت أجسامهم طرية فهم شبان كما هم، لم يشيبوا، ولم تَبْلَ أو

(١) البخاري (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) والنسائي كما في «تحفة الأشراف» (٨٤٦١).

تَفْنَ أجسامهم، إنهم لم يموتوا، ولم يكونوا أحياء، بحيث يسمعون كما يسمع الأحياء.

فالمعنى إذن: أن الله تعالى جعل على آذانهم غشاوة أو حائلًا عن السمع، كمن ينام نومًا ثقيلًا، وهذه حالة خاصة لم تكن معروفة قبل بيان هذه الآية لها، وهي من الإعجاز القرآني، وفيها كرامة لأهل الكهف.

ولذا سماها القرآن ضرْب على الآذان، ولم يقل موتًا، فالضرب بمعنى: الوضع، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد: ١٣]. والعبرة من هذه القصة هي إثبات البعث بطريقة حسية عملية، ليؤمن به من ينكره أو يشك فيه، قال تعالى:

١٢- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

وبعد ثلاث مئة سنة وتسع، بالسنة القمرية، بعثناهم من نومهم؛ ليُظهر الله عِلْمه، أيٍّ من الطائفتين المتنازعتين في مدة لُبثهم أضبط في الإحصاء، فقد كانوا يتحدثون عن أنفسهم بعد خروجهم ويقولون: مَكَثْنا في الكهف يومًا أو بعض يوم؛ وذلك لأنهم دخلوا عند شروق الشمس، وخرجوا عند غروبها، فظنوا أنهم مكثوا في الكهف هذه المدة من الشروق إلى الغروب.

وقال غيرهم من المؤمنين الذين كانوا في زمن بعثهم: مكثوا أكثر من ذلك أو أقل، واختلفوا في هذه المدة كما ستذكر السورة، وقد فعل الله تعالى ذلك ليظهر للناس أي الفريقين -أهل الكهف، أو الذين بعثهم الله إليهم لِيرَوْهم- أيهم أدق إحصاء للمدة التي ناموها، وليظهر اضطراب الناس في ضبط تاريخ الحوادث، ويعرفوا عدد السنين والحساب، ولو أن أهل الكهف استمروا في نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك في قصتهم.

قِصَّةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ

ومجمل قصة أهل الكهف: أنه وُجد سبعة من الفتية، شبان، مؤمنون بالله سبحانه، قد نوَّر الإيمان قلوبهم في عهد ملك الروم: (دقيانوس) بعد زمن عيسى عليه السلام، وقبل تنصُّر

قسطنطين في حدود سنة ٢٣٧م كان في مدينة طرَسُوس في سورية قُرب حلب وأنطاكية بـ (أُفسُوس) وكان هذا الرجل شديد البغض للنصرانية، عابد صنم، يذبح للطواغيت، ويقتُل كلَّ من يخالفه، وكان مُلْكه مدة عام واحد، فلما علم بأمر هؤلاء الفتية أرسل إليهم، فلما كانوا بين يديه توعَّدهم بالقتل والتعذيب إن لم يعبدوا الأوثان، ويذبحوا للطواغيت، فوقفوا في وجهه وتمسكوا بإيمانهم بين يديه، وقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [١٤].

لقد قلنا إن عبدنا غير الله قولًا فيه شطط، وفيه بُعد، قال لهم: أنتم فتية أحداث السن، صغار، وسأُمْهِلكم إلى الغد لتغيِّروا أقوالكم، ثم هربوا ليلًا إلى كهف في جبل الرقيم بالأردن بيْنَ النَّقب ومَعان، ودخلوا فيه، حيث قال أحدهم: إني أعرف كهفًا كان أبي يُدخل فيه غنمه، فلنذهب إليه نختفي فيه حتى يفتح الله لنا، فلما دخلوه ألقى الله عليهم النوم العميق، وهذا الكهف على بعد فرسخين من مقر الملك.

وعَلِم بأحوالهم اثنان في بيت الملك، مؤمنان يكتمان إيمانهما، فكتبا أسماءهم ونسَبهم وقصتهم، في لوح أو لَوْحين من رصاص أو غيره، ووضعاهما في تابوت من نحاس، ووُضع هذا التابوت في البناء الذي كان على الكهف؛ ليعلَم الناس قصتهم، وكانوا وهم في الطريق قد مَرُّوا براعٍ، فتبعهم كلب هذا الراعي، ومشى خلفهم، ونام على باب الكهف.

وعلم الملك بقصتهم، فسار هو وجنده خلفهم، ولكنهم لم يهتدوا إلى الغار، وألقى الله عليهم النوم، ومضت ثلاثة قرون، ثلاث مئة عام، وتسع سنوات، هي فرق السَّنةِ الشمسية من السنة القمرية، وبعدها بعثهم الله؛ لِيَرَوْا انقراض الذين كانوا يخافون منهم على دينهم، فظنوا بعد بعثهم أنهم أقاموا يومًا أو بعض يوم، وشعروا بالجوع، فأرسلوا أحدهم يأتي لهم بأزكى الطعام، ويتخير لهم من المدينة ما يراه حسنًا، وقالوا له: تلطَّف في القول حتى لا يعلم الناس بنا، ويأتي الملك إلينا، فكن حذرًا.

فلما وصل مَنْ يأتي لهم بالطعام إلى البلدة وجد معالمها قد تغيرت، ولم يعرف أحدًا من أهلها، فظن أنه أخطأ الطريق، فلما أخرج نقوده وأعطاها للبائع أخذ يقلبها في يده، وقال له: من أين حصلت على هذه النقود، هل أنت عثرت على كنز؟ قال: لا، هذه نقودنا، فقال البائع: إنها مضروبة من عهد الملك دقيانوس، قال الفتى: وما أخباره؟

قالوا: هذا مِلِك قد مات من قرون، ويوجد الآن ملك صالح، يعبد الله سبحانه، فذكر لهم قصتهم، لمَّا عرف أن الوقت والناس قد تغيروا، ثم أخبروا الملك بقصتهم.

فجاء إلى الكهف: القيصر، والأساقفة، والبطارقة، والقساوسة، فرأوْهم وكلَّموهم، وآمنوا بكرامتهم وحيَّوْهم عند الكهف، ثم أماتهم الله سبحانه بعد ذلك في مكانهم، وقال الملك: سنتخذ عليهم مسجدًا، أي: مصلًى في هذا المكان، وكان هذا أمرًا جائزًا في شريعتهم، ولم يذكر التاريخ: هل نُفِّذ بناء هذا المسجد، أم لا؟[(١)].

عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(٢)].

قال ابن عباس ﵄: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم، فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كُشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله ذلك مَنْ هو خير منك، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ فقال معاوية: لا أنتهي، حتى أعلم علمهم، فبعث رجالًا وقال: اذهبوا، فادْخلوا الكهف وانْظروا، فذهبوا، فلما دخلوه، بعث الله عليهم ريحًا فأخرجتهم[(٣)].

ولعل اليهود علموا قصتهم من النصارى، ولم يكن أمام قريش إلا اليهود في المدينة فبعثوا إليهم يسألونهم عن شأن محمد ﷺ وعن مدى صِدْقه في رسالته، وكانت هذه القصة من بين أسئلة الاختبار الموجهة له ﷺ.

تَفْصِيلُ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ عَلَى ضَوْءِ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ:

١٣- ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى[(٤)] ﴿١٣﴾﴾

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٥/ ٢٨٣) و«تفسير ابن عطية» (٣/ ٤٩٨) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٠) و«تفسير الصابوني» (٨/ ٧) وغيرها.

(٢) من حديث عائشة ﵂ في البخاري برقم (١٣٣٠، ٤٣٥٢) ومسلم (٥٢٩، ٥٣١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة كما في تخريج أحاديث «الكشاف» (٢/ ٣٠١) وابن المنذر وابن أبي حاتم كما قال الألوسي في تفسيره وكما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٤٤) وقال الحافظ: هذا إسناد صحيح.

(٤) لم يعد (وزدناهم هدى) الشامي وعدها غيره آية.

ونمضي مع الآيات التي تُفصِّل وتسرُد أحداث القصة في السورة، وقبل نزول هذه الآيات، كان الناس قد شوَّشُوا وخلَطوا، ومزَجوا بين الحق والباطل فيما يتعلق بقصة أهل الكهف، فأوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ يخبره أنه سيذكر له قصة أهل الكهف بالحق الصادق، والخبر اليقين من رب العالمين ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ ليس فيه باطل، وليس فيه ريب ولا شك ولاشبهة بوجه من الوجوه:

إنهم سبعة شبان آمنوا بربهم في وقت عَبَدَ الناس فيه الأصنام، والفتية: من جموع القلة، وهو يدل على أنهم كانوا دون العشرة، وكانوا على دين مليكهم الوثني، وكانوا هم على التوحيد، فشكر الله لهم إيمانهم، وزادهم هدى، فالإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد].

ومن زيادة الهدى: العلم النافع والعمل الصالح.

وكما قال جلَّ شأنه في وصف عباده المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

إن أصحاب الكهف شبان صدقوا ربهم، واستجابوا له، وزادهم الله هدًى وثباتًا على الحق، فقد علموا أن ما دونه سبحانه أصفار على الشمال، لا تضر ولا تنفع، فأخلصوا العبادة لله وحده، وأسلموا وجوههم له سبحانه، وآمنوا به إيمانًا عميقًا ثابتًا لا يتزحزح، فكان هؤلاء الفتية أفضل بكثير من شيوخ لهم قَدَمٌ راسخة في الباطل، إنهم فتية أنار الله بصائرهم، فعرفوا طريق النجاة، وألهمهم الله التوفيق والسداد. قال تعالى:

١٤- ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾

لقد غرس الله في قلوب هؤلاء الشباب قوة الإيمان، والثبات على الحق، والصبر على فراق أهلهم، فقوِيَ واشتد عزم هؤلاء الفتية، وربط الله على قلوبهم فأعلنوا إيمانهم بالله وحده في مجامع قومهم، وصبَّرهم حين فارقوا أوطانهم، وخرجوا من بلادهم مهاجرين

إلى ربهم، وكانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، فتركوا ما هم فيه من نعيم، وخرجوا فارين بدينهم إلى الكهف الذي لجؤوا إليه من ظُلْم الملك الطاغية الذي تعقَّبهم هو وجنده ليقتلوهم؛ لأنهم خرجوا عن طاعته في عبادة الأصنام.

لقد ربط الله على قلوبهم فثبتهم، ولم يترددوا حين وقفوا بين يدي الملك دقيانوس وحاشيته، وهو يحاورهم كي يعبدوا الأصنام، فأعلنوا في وجهه على مسامع القوم جميعًا إيمانهم بربهم قائلين: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ واستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، كما قال موسى لفرعون: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ [الشعراء: ٢٤].

فهو الذي خلقنا ورزقنا ودبّر أمرنا وربّانا بنعمه، وهو النافع الضار، المحيي المميت، فإن دعوْنا معه آلهة أخرى نكون قد شططنا وبعدنا عن الصواب ومِلْنا عنه ميلًا عظيمًا.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ يحتمل **ثلاثة معان:**

الأول: وقوفهم بين يدي الملك معلنين التوحيد.

والثاني: قيامهم بين يدي أقوامهم وعُظماءَهم معلنين إيمانهم بالله وحده.

والثالث: عزمهم على الهجرة إلى الله وحده، والفرار بدينهم، وترك الشرك وأهله[1].

ومادام الله سبحانه هو خالق هذا الكون، فلن نتخذ من دونه إلهًا كما تعبدون، وإذا فعلنا غير ذلك نكون قد شططنا عن الحق، وخرجنا عن الصواب. وهؤلاء القوم افتروا على الله الكذب حين أشركوا معه غيره في العبادة.

والآية تدل على قوة إيمان هؤلاء الفتية، وعلى أن من كان كذلك ثبَّت الله قلبه، وقواه على تحمُّل الشدائد، وتدل الآية على أن من أشرك مع الله إلهًا آخر، فإنه يكون قد اشتطَّ وابتعد عن الحق والصواب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

ولما ذكر هؤلاء الفتية ما من الله عليهم به من الإيمان والهدى، ذكروا بعد ذلك ما عليه قومهم من الشرك بالله، فذمّوهم، وبيّنوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية

---

(١) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٦٥).

الجهل والضلال، فقالوا:

١٥- ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ[1] عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾﴾

أي وبعد أن أعلنوا إيمانهم، وقرروا عقيدتهم، ذمُّوا عقيدة الملِك وعقيدة قومه حين قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾ فعبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، هلَّا يأتون على هذه الآلهة التي عبدوها من دون الله بدليل واضح، وحجة بينة ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ أي بحجة وبرهان على ما هم عليه من الضلال؟

وفي هذا تبكيت وتوبيخ لقومهم، لأن الإتيان بحجة واضحة على عبادة الأوثان أمر محال، وفي هذا تعجيز وتخجيل لهم، فلا أحد أظلم ممن كذب على الله سبحانه، فنسب الشريك والولد لله جلَّ شأنه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾.

فاتخاذ الآلهة من دون الله محض افتراء منهم، وكذب على الله تعالى، وهذا أعظم الظلم.

إن هؤلاء الفتية لم يكتفوا بإعلان إيمانهم الصادق، بل أضافوا إليه استنكارهم لِمَا عليه القوم من الشرك، وبينوا أن طريق الاعتقاد لابد أن يكون مستندًا إلى دليل واضح، وبرهان ساطع، وإلا فهو الكذب الشنيع، كما وصف الله سبحانه المشركين بالجهل والعجز في قوله:

﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف].

وإذا تبيَّن هذا فلا أحد أشد ظلمًا ممن زعم أن لله تعالى شريكًا له في الطاعة والعبادة ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود].

---

(١) أمال ألف (افترى) حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو، وابن ذكوان بخلْف عنه، وقللها ورش، وفتحها الباقون.

لُجُوءُ الْفِتْيَةِ إِلَى الْكَهْفِ فِرَارًا بِدِينِهِمْ

١٦- ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ[1] إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا[2] ﴿١٦﴾﴾

هذه الآية من كلام أهل الكهف بعضهم لبعض، وذلك أنه لما أصر هؤلاء الفتية على توحيد الله تعالى في مواجهة الملك الطاغية وأعوانه، وأبَوْا الاستجابة له في شركه، تهدَّدهم وتوعَّدهم، وأعطاهم مهلة ليراجعوا أنفسهم، وكان هذا من لطف الله تعالى بهم، حيث قرروا الفرار بدينهم ومفارقة قومهم، وترْك ما يعبدونه من الآلهة، إلا عبادة الله وحده، واللجوء إلى الكهف، ليتمكنوا من إفراد الله تعالى بالعبادة.

وهذا هو ما يُشرع في الفتن، كما جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعَف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن»**[3].

وفي غير وقت الفتن ذات الضرر البالغ التي لا يُستطاع ردها ولا قبل لهم بها، لا يجوز اعتزال الناس، كما في حديث أبي هريرة ﷺ عن الرجل الذي مر بشعب فيه عُيينة من الماء، فقال: لو أقمتُ في هذا الشِّعب واعتزلت الناس، ولكني لن أفعل حتى استأذن رسول الله ﷺ، فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ قال: **«لا تفعل»**، ثم قال: **«اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواق ناقة وجبت له الجنة»**[4].

والمعنى: أن المجاهد في سبيل الله ولو كان جهاده فترة وجيزة، بمقدار ما يعود اللبن إلى الضرع، فإن هذا يوجب له الجنة إن كان قتاله في سبيل الله.

---

(١) قرأ الأصبهاني عن ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه وكذا حمزة عند الوقف بإبدال همزة (فأووا) ألفًا، والباقون بهمزة ساكنة.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح الميم وكسر الفاء من (مرفقا)، والباقون بكسر الميم وفتح الفاء، وهما لغتان.

(٣) رواه البخاري برقم (١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨).

(٤) أخرجه الترمذي برقم (١٦٥٠) وقال: حديث حسن، وأخرجه أحمد في المسند (٩٧٦٢،١٠٧٨٦) بإسناد حسن، وهو في سنن البيهقي (٩/ ١٦٠) وشعب الإيمان (٤٢٣٠) وابن أبي عاصم في الجهاد (١٣٥) والبزار (١٦٥٢) كشف الأستار، والحاكم (٢/ ٦٨).

والله ﷻ يخبر عما جرى بين هؤلاء الفتية من تشاور وتناجٍ حين خرجوا من ديارهم متوجهين إلى الكهف، حيث قال بعضهم لبعض: ما دمتم قد اعتزلتم القوم، واعتزلتم دينهم، وفارقتموهم بعقيدتكم، واعتزلتموهم جسمانيًّا، فخالفتموهم في العقيدة وعبدتم الله وحده، ولجأتم إليه سبحانه.

مادام الأمر كذلك، فَالْجَؤُوا إلى الكهف يستركم ربكم في الدارين؛ حيث ييسر لكم الله السبيل، وينشر عليكم رحمته، ويهيئ لكم من أمركم ما ترتفقون وتعتاشون به في هذا الكهف.

ويقال: إن الملك تقصَّى أثرهم، فلم يظفر بهم وعمَّى الله عليهم.

وهكذا حين كان النبي ﷺ في غار ثور، وتقصَّى القوم أثره فوصلوا إلى الغار، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: **«يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! لا تحزن إن الله معنا»**[1].

وهكذا فعل إبراهيم عليه السلام فقال كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم].

وهكذا الإيمان الصادق يحمل صاحبه على تفضيل المغارات والكهوف على العيش الرغيد، والقصور العالية.

وكان هؤلاء الفتية قد دعوا ربهم قائلين ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ فجمعوا بين التَّبرِّي من حولهم وقوتهم، والتجؤوا إلى ربهم، في صلاح أمرهم، فنشر الله عليهم رحمته، حيث حفظ عليهم دينهم وأبدانهم، وجعلهم آية للناس، وموضع ثنائهم إلى قيام الساعة.

---

(١) البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١) و «المسند» (١١).

حِفظُ أَبْدَانِ الْفِتْيَةِ فِي الْكَهْفِ

١٧- ﴿۞ وَتَرَى[١] ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت[٢] تَّزَٰوَرُ[٣] عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ[٤] وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ۝١٧﴾

ولما دعا أهل الكهف ربهم قائلين لبعضهم: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ أجاب الله دعاءهم، فحفظ أبدانهم، وحفظ عليهم دينهم من المَلِك وجنوده، فلما دخلوا الغار حفظ الله الغار، وجعله في غاية الصيانة، إجابة لدعائهم حين دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾.

وهكذا هيَّأ الله لهم الأمر، فجعل في الكهف فجوة، أي: متسعًا، بحيث ينالهم برد الريح ونسيمه، فلا ينقطع عنهم الهواء، ولا تؤذيهم حرارة الشمس.

وفي هذه الآية والتي قبلها كلام مقتضب يُفهَم مما تقدم، تقديره: فآووْا إلى الغار، وضرب الله على آذانهم، ومكثوا فيه، فكانت الشمس لا تصيبهم البتَّة؛ حيث تدخل إلى الغار من شمال الباب، من ناحية المشرق، فكانت الشمس ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتقلص وتميل ﴿عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: إلى جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ أي: تتجاوزهم، وتتركهم، وتميل عنهم؛ حتى لا تؤذيهم بحرِّها فتغير ألوانهم وتبلي ثيابهم، فتكون ﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: تميل إلى جهة الشمال فهي لا تصل إليهم في الحالتين، وهذا

---

(١) أمال راء (وترى الشمس) وصلًا السوسي بخلف عنه، وأمالها وقفًا أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وقللها ورش، وفتحها الباقون.

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بتغليظ لام (طلعت)، ورققها غيره.

(٣) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر بفتح الزاي مخففة وألف بعدها، مع تخفيف الراء، في (تزاور) مضارع تزاور، على حذف إحدى التاءين تخفيفًا. وقرأ ابن عامر ويعقوب (تزْوَرُّ) بإسكان الزاي وتشديد الراء بلا ألف. وقرأ الباقون (تزَّاور) بفتح الزاي مشددة، وألف بعدها، وتخفيف الراء، وأصله تتزاور فأدغمت التاء في الزاي، وكلها بمعنى: الميل.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (المهتد) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

كرامة من الله تعالى لأهل الكهف ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: أن الكهف كان مفتوحًا وواسعًا بحيث تدخل فيه الشمس، قال الرازي: للمفسرين هنا **قولان**:

أولهما: أن باب الكهف كان مفتوحًا إلى جانب الشمال، فإذا طلعت الشمس كانت عن يمين الكهف، وإذا غربت كانت عن شماله، فلم يكن ضوء الشمس يدخل إلى الكهف.

وثانيهما: أن الله تعالى منع ضوء الشمس من وقوعه عليهم، وكان هذا أمرًا خارقًا للعادة، وكرامة خص الله بها أصحاب الكهف[1].

والخلاصة: أن الشمس لم تدخل عليهم الغار، إما لأسباب طبيعية، على القول الأول، وإما لأسباب غير طبيعية على القول الثاني.

قلت: إن مؤدى القولين واحد، وهو عدم إصابة الشمس لهم في وقتي الشروق والغروب، مع اتساع المكان الذي ينامون فيه، وهو الفجوة في وسط الغار، وهذا وحده كافٍ في أن يكون هذا آية من آيات الله لهم، حيث حجب عنهم ضوء الشمس في جميع الأحوال.

وهذه الآية تردُّ على القول الذي يقول: إن الملك (دقيانوس) قد وصل إلى الكهف وسدَّ عليهم باب الغار، والصحيح أن الملك لم يهتد إلى الغار، بل تعقَّبهم، ولكن الله تعالى أعماه عن الغار هو وجنده، كما أن الله سبحانه فعل ذلك برسول الله ﷺ حين لجأ إلى الغار في طريقه إلى المدينة ليلة الهجرة، وخرج المشركون في طلبه، ووقفوا فوق فم الغار، وأعمى الله أبصارهم عنه وعن صاحبه.

فالصحيح أن الملك لم يهتد إلى الغار، وأن الغار كان مفتوحًا جهة الشمال، وأن الله تعالى قد حفظ أبدانهم من حرارة الشمس، وأن باب الغار كان يفتح شمالًا، وأن الشمس كانت إذا طلعت في أول النهار تميل إلى جهة اليمين، وإذا غربت في آخر النهار تميل إلى جهة الشمال.

وهذا من آيات الله وعجائب صنعه وكرمه لهم ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾أي: من دلائل قدرته، وهو أمر خارق للعادة أيدهم الله به؛ وذلك لأن الله تعالى هداهم فيمن هدى من خلقه، فالأسباب والمسببات بيد الله تعالى، ومن يوفقه الله للاهتداء فهو الموفق، فالذي يأخذ بسبيل الهدى، ويسلك طريق النجاة يوفقه الله إلى الهداية، ويأخذ بيديه، والذي يسلك طريق

---

(١) بتصرف من «تفسير الفخر الرازي» (٢١/ ٩٩).

الضلال، ويزيغ قلبه عن طريق الهدى، يكون مآله إلى الضلال، ولا تجد له معينًا يرشده لإصابة الحق، كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. قال تعالى:

١٨- ﴿وَتَحْسَبُهُمْ[(١)] أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ[(٢)] مِنْهُمْ رُعْبًا[(٣)] ﴿١٨﴾﴾

وكما حفظ الله عقيدة هؤلاء الفتية بفرارهم من المَلِك، ولجوئهم إلى الكهف، وتعمية المَلِك عنهم، حفظ الله أبدانهم من أن تأكلها الأرض، فالميت إذا مات والتصق بدنه بالأرض، فإن الأرض تأكله، وعينه إذا أطبقت الجفون عليها فإنها تتلف وتبلى، ولذلك فإن الله سبحانه قد حفظ أهل الكهف، فجعل عيونهم مفتوحة، يحسبهم الرائي إذا نظر إليهم أيقاظًا، وهم في نوم عميق، لا يحسّون ولا يشعرون بأحد، ولو شاهدتهم وهم على تلك الحال لفررْتَ منهم هاربًا، رُعْبًا منهم، لِمَا ألقى الله عليهم من المهابة وهم نيام.

ثم إن الله ﷻ يقلِّبهم في الكهف، قيل: يُقلَّبون مرتين في العام، وقيل: مرة كل عام، وقيل: إنه كان في يوم عاشوراء، والعلم عند الله تعالى:

والله سبحانه قادر على أن يحفظ أبدانهم دون تقلُّب، ولكن الله تعالى يربط الأسباب بالمسببات، وهي سُنَّة الله في الكون.

وكلبهم على باب الغار في الفِناء خارج الباب، مفترش ذراعيه، كأنه يحرسهم ويمنع الوصول إليهم، قيل: إن اسم هذا الكلب قطمير.

قال الحسن البصري: كان اسم كبش إبراهيم: جرير، واسم هدهد سليمان: عَنْقز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه: بهموت،

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (وتحسبهم)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بتشديد اللام الثانية من (ولملئت) للمبالغة، والباقون بتخفيفها.

(٣) قرأ ابن عامر والكسائي وأبو جعفر ويعقوب، بضم العين من (رعبا)، والباقون بإسكانها للتخفيف، وهما لغتان.

وهبط آدم بالهند، وحواء بجدة، وهبط إبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان[١].

والله أعلم بصحة ذلك.

وَرَدَ أن أهل الإنجيل كثُرت فيهم الخطايا، وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام، وأُكرهوا على عبادتها، وممن شدد في ذلك (دقيانوس)، فأراد أن يجبر فريقًا من أشراف قومه على الشرك، وتوعّدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الإيمان، والتصلب فيه، ثم هربوا إلى الكهف، ومروا بكلب، فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله تعالى، فقال: ما تريدون مني، إني أحب أحباب الله، فناموا وأنا أحرسكم[٢].

إن هذا الكلب أحبَّ أهلَ الفضل وصحبهم، فنال درجة عالية، بأن ذكره الله تعالى وأخبر عنه في كتابه، فَمَنْ أحبَّ أهل الفضل نال بركتهم، وإذا كان كلب أهل الكهف نال هذه الدرجة، فما ظنك بالمؤمنين المحبين لأولياء الله والصالحين، إن هذا حفز لهمم المقصرين عن درجات الكمال[٣].

ويشهد لهذا المعنى ما جاء في الصحيح عن أنس ﷺ قال: بينما أنا ورسول الله ﷺ خارجيْن من المسجد فلقينا رجل عند سُدَّة المسجد، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: **«ما أعددت لها؟»** قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحببت الله ورسوله، قال ﷺ: **«فأنت مع من أحببت»**.

وفي رواية: قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحًا أشد من قول النبي ﷺ: **«فأنت مع من أحببت»** قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم[٤].

والذي تمسك به أنس يشمل كل مسلم، ويطمع فيه كل مقصر يرجو رحمة الله وإن لم

---

(١) رواه ابن عساكر في ترجمة الهمام بن الوليد الدمشقي، يُنظَر: «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور (٢٧/ ١٤٢).

(٢) يُنظَر «تفسير النسفي» للآية، وهذا من أقوال أهل الكتاب التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

(٣) يُنظَر: كلام ابن عطية والقرطبي في تفسيرهما للآية.

(٤) يُنظَر الحديث في: «صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٩) و«صحيح البخاري» برقم (٣٦٨٨، ٦١٦٧، ٧١٥٣).

يكن مستأهلًا لها.

والله سبحانه نصر هؤلاء الفتية، وحفظهم بإلقاء الرعب في قلوب من يأتي إليهم بالخوف منهم، وإلقاء المهابة عليهم.

والله سبحانه كان ينصر رسوله ﷺ بإلقاء الرعب في قلوب الأعداء من مسيرة سفر شهر على الإبل.

وهو سبحانه قادر أن ينصر عباده المؤمنين في كل زمان ومكان إن أخلصوا النية له، وقادر على نصر عباده بإلقاء الرعب في قلوب اليهود، وفي قلوب غيرهم من أعداء الإسلام، وإن قلَّت أسلحتهم، وإن قلَّت ذخيرتهم ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومعنى الآية: وتظن -أيها الناظر- أن أهل الكهف أيقاظ؛ لأن عيونهم كانت مفتوحة وهم في الواقع نيام، ونتعهدهم بالرعاية حتى لا تأكل الأرض أجسادهم بسبب طول رقادهم، فنقلبهم مرة للجنب الأيمن ومرة للجنب الأيسر، وكلبهم الذي صاحبهم مادٌّ ذراعيه بفناء الكهف، ولو أنك -أيها المخاطب- عاينتهم لأدبرت منهم هاربًا، ولَمُلِئَتْ نفسك فزعًا منهم.

خُرُوجُ الْفِتْيَةِ مِنَ الْكَهْفِ وَالتَّعَرُّفُ عَلَيْهِمْ

١٩- ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ(١) قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ(٢) هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾

وكما أنمْنَاهم وحفظناهم هذه المدة الطويلة، أيقظناهم من نومهم على هيئتهم دون تغيُّر؛ لكي يسأل بعضهم بعضًا: كم من الوقت ظلُّوا نائمين؟ فقد صار هناك جدل بين أهل الكهف وغيرهم من أهل المدينة، أو بين أهل الكهف أنفسهم، أو بين المسلمين وأهل الكتاب؛ لأنهم هم الذين اعتنَوْا بحفظ قصتهم ومعرفتها، وسألهم المشركون عنها.

---

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر بإدغام الباء في الثاء من (لبثتم) والباقون بالإظهار.

(٢) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة وروح وخلف العاشر بإسكان الراء من (بورقكم) للتخفيف، والباقون بكسرها على الأصل.

فحدث خلاف في مدة نومهم، كم لبثوا؟ -كما حصل في قصة عزير في سورة البقرة، حيث دخل القوم الكهف صباحًا وقت الشروق، وكان خروجهم بعد ثلاث مئة عام قبيل الغروب، فظنوا أنهم مكثوا يومًا أو بعض يوم، ثم فوضوا الأمر إلى الله تعالى فقالوا: ربكم وحده هو العليم بمقدار الزمن الذي قضيتموه نائمين في الكهف، فكُفُّوا عن الحديث في هذه المسألة، وقد حسم الله سبحانه هذا الجدال فبيَّن أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مئة عام بالسنة الشمسية، وثلاث مئة وتسعة بالسنة القمرية.

وكانوا قد أصابهم الجوع حين استيقظوا من نومهم الطويل، فأرسلوا واحدًا منهم بالنقود الفضية التي كانت معهم إلى المدينة التي كانوا يسكنونها قبل لجوئهم إلى الكهف؛ وهي قريبة منهم جدا، فقد أرسلوا من يشتري لهم الطعام وظلوا في انتظاره وقد بعثوه، ليتخيَّر لهم أحلى الطعام وأطيبه، وإن كان الطعام من ذبيحة فلتكن مذبوحة بطريق شرعي صحيح، وليتلطف في شرائه مع البائع حتى لا ننكشف، وليكن فطنًا ذكيًّا ليِّنًا في قوله وفعله؛ حتى لا يظهر أمرنا، فقد ظنَّ القوم أن الناس كما هم، ولم يعرفوا أن عجلة الزمن قد دارت، وأن المدينة قد تغيرت، وأن الأجيال قد تعاقبت، وأن دولتهم قد دالت، وأن الملِك عابد الوثن قد مات، وجاء مِلك آخر مسلم موحِّد، ولذلك قالوا لرسولهم: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لا يعلم بكم أحد من الناس، لقد خافوا على أنفسهم، كما خافوا عليها حين دخلوا الغار أول لحظة.

قيل: إن المبعوث إلى شراء الطعام كان اسمه (تمليخا) وإنه لما وصل إلى المدينة وجد أمارات التوحيد والإسلام عليها، فأخذته الحيرة، ولما أعطى البائع ما معه من نقود قال له: هذه دراهم من عهد الملك (دقيانوس)، من أين لك بها؟ فتعجب وقال: لا أعرف، غير أني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس: إنه مجنون، اذهبوا به إلى الملك، فلما وصلوا به إليه، لم يجده الملك الكافر، ووجد ملكًا مؤمنًا صالحاً يقال له: (بيدوسيس) فلما سمع منه القصة سار معه هو وأصحابه إلى الكهف، ثم طلب (تمليخا) أن يدخل عليهم هو؛ لئلا يأخذهم الرعب، فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر، فسُرُّوا وفرحوا، وخرجوا إلى الملك وعظموه، وقال بعض أصحاب الملك: هؤلاء الفتية

الذين أُرِّخ لهم في عهد (دقيانوس)، وكُتب تاريخهم على لوح النحاس بباب المدينة[١].

والذين أحصوا حروف القرآن وكلماته، قالوا: إن كلمة ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ هي منتصف القرآن. قال تعالى:

٢٠- ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾

إن قومكم إن عرفوا مكانكم، واطَّلعوا عليكم، فهم بين أمرين: إما يرجموكم بالحجارة فيقتلوكم شرّ قتله، أو يعيدوكم في ملة عبدة الأصنام، فتصيروا كفارًا، وإن فعلتم ذلك فلن تفلحوا بدخول الجنة أبدًا ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يظفروا بكم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ رميًا بالحجارة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ كفارًا ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا﴾ أي: إن فعلتم ذلك فعُدْتُم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم، فلن تفوزوا بخير ﴿أَبَدًا﴾ في أخراكم ولا في دنياكم.

وهذا الكلام علة للأمر بالتلطف، والنهي عن إشعار أحد بهم، فقد كانوا يتناجوْن فيما بينهم، ويوصون رسولهم بالتلطف في الدخول والخروج، وأخذ الحيطة والحذر؛ حتى لا يَعرِف مكانهم الملك الجبار فيقتلهم، أو يردَّهم إلى عبادة الأوثان.

العِلَّةُ مِنَ العُثُور عِلَى الفِتْيَةِ بَعْدَ نَوْمِهِمُ الطَّوِيل

٢١- ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ[٢] فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم[٣] بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾

ثم يأتي المشهد الأخير من قصتهم، وهو مشهد العثور عليهم بعد وفاتهم، ومعرفة مكانهم وقصتهم، وكان الحديث عن أهل الكهف في طرَسُوس ضاحية أُفسوس وما حولها، أمرًا شائعًا يتناقله الناس، فيسَّر الله لأهل هذه المدينة، العثور عليهم؛ لبيان الحكمة من القصة، وهي علمهم بأن الساعة آتية لا ريب فيها، وكان الذين عثروا عليهم

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥٠٥) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٤٦).

(٢) قرأ حمزة بمد لام (لا ريب) أربع حركات بخلف عنه، للمبالغة في النفي، والباقون بقصرها.

(٣) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

مؤمنين مثلهم، فكان هذا تثبيتًا وتقوية لإيمانهم، وقد كان الناس في عهدهم مختلفين في أمر البعث، فالمسلمون يقولون: يُبعث الناس يوم القيامة بأجسادهم وأرواحهم كما هي عقيدة المسلمين.

ومن الناس من يقول: يُبعث الناس بأرواحهم دون أجسادهم، كما هي عقيدة النصارى في شريعتهم المحرفة، فكانت قصة أهل الكهف دليلًا عمليًا، ودرسًا محسوسًا، حيث أماتهم الله ثم أحياهم؛ لتكون قصتهم عبرة ودليلًا على أن الله تعالى يُحْيي الناس بعد موتهم، وأن البعث والحشر والنشر والحساب والجزاء حق لا ريب فيه، وفي هذا زيادة يقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين.

قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وكما بعثناهم من نومهم أعثرنا عليهم، فأطْلعنا وأعلمْنا الناس الذين كانوا في زمانهم، بعد أن كشف البائع نوع الدراهم التي جاء بها مبعوثهم، أعلمناهم أن الحساب والجزاء للأجساد والأرواح حق في يوم البعث والنشور، يوم يقوم الناس لرب العالمين، بعد أن كان الناس بين مُثْبت له ومنكر، فجعل الله الاطلاع على أصحاب الكهف حجة للمؤمنين على الجاحدين بيوم القيامة.

وبعد أن انكشف أمرهم، وعرف الناس قصتهم، وأيقظهم الله، أماتهم في مكانهم، ولمَّا ماتوا، تنازع الناس في أمر البناء عليهم بعد وفاتهم، فقال فريق من المطَّلعين عليهم: ابنوا على أهل الكهف بناء يحجُبهم، فسُدُّوا عليهم باب الغار، واتركوهم وشأنهم، ربهم أعلم بحالهم ﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ وهم الذين جاؤوا مع من ذَهب ليجلب لهم الطعام: المَلِك المسْلم ومن معه، قالوا: ابنوا عليهم بنيانًا يسترهم، وليكون مَعْلَمًا أثريًا لهم في هذا المكان.

وقال أصحاب الكلمة والسلطة والنفوذ فيهم: لنتخذن على مكانهم مسجدًا للعبادة ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ أي: قالت الكثرة الغالبة من أصحاب الكلمة والنفوذ. والمراد وُلاة الأمر بالمدينة التي كانوا يسكنونها، قالوا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

بناء المساجد على القبور:

والمسجد في اللغة: اسم لكل موضع يكون فيه السجود، وهو يطلق على المعبد لليهود

وللنصارى، ولذلك فإن النبي ﷺ سَمَّى معابد اليهود والنصارى: مساجد، وذلك في الحديث عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: **«لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**، قالت: ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أني أخشى أن يُتَّخذ مسجدًا[(١)]، وفي لفظ لمسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(٢)] فسماها النبي ﷺ مساجد.

وهذا الحديث فيه ذمٌّ لإقامة المساجد على القبور، وأن هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ كانوا من المبتدعة في اليهودية والنصرانية، كما يفعل بعض جهال المسلمين اليوم من إقامة المساجد على القبور، فهم كذلك من الذين حرَّفوا وغيَّروا، وهم يتوهَّمون أن هذا عمل صالح، والقرآن يحكي قولهم، ولا يُشرِّع حُكمًا، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨]

وقد نهى رسول الله ﷺ عن ذلك في آخر وصاياه لأمته، كما نهى عن البناء على القبور مطلقًا، وعن تجصيصها والكتابة عليها؛ لأن ذلك من الغلو الذي قد يؤدي إلى عبادة من فيها.

جاء في حديث ابن عباس ﵄: أن النبي ﷺ **«لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج»**[(٣)]، زاد مسلم: **«ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»**[(٤)].

وفي الصحيحين عن عائشة ﵂: أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها بالحبشة، فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: **«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوْا على قبره مسجدًا، وصَوَّروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»**[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري عن عائشة برقم (١٣٣٠)، وانظر: (٤٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٥٣٠) عن أبي هريرة، وبرقم (٥٢٩، ٥٣١) عن عائشة، وينظر مسند أجمد (١٨٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٠) والبخاري برقم (٤٣٧) و«الموطأ» من رواية أبي مصعب (٥٧١).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٢٠٣٠، ٢٦٠٣، ٢٩٨٤، ٣١١٨) قال محققوه: وهو حديث حسن لغيره، دون لفظ (السرج) وهذا إسناد ضعيف لضعف أبي صالح مولى أم هاني، وعن أبي هريرة بلفظ (زوَّارات) (٨٤٤٩، ٨٤٥٢) وعن حسان بن ثابت (٨٦٧٠، ١٥٦٥٧) وأخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه وغيره.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٥٣٢) عن جندب بن جنادة.

(٥) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (٤٢٧) وانظر: (٤٣٤، ١٣٤١).

وكان اتخاذ المساجد على قبور الصالحين من سُنَّة النصارى، فنسخه الإسلام، قالت عائشة يوم وفاة النبي ﷺ: ولولا ذلك لأبرز قبره[١] أي: ولولا نهيه عن ذلك لأبرز القبر في المسجد النبوي، ولم يُجعل وراء جدار الحجرة.

وكان من آخر حال النبي ﷺ وهو في مرض الموت أنه يكشف عن وجهه ويقول: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[٢]؛ وذلك لأن كل قبر طاف الناس حوله، وسألوا صاحبه رفْع ضُرٍّ أو جلْب نفع، واتخذوه عبدًا لهم، فهو وثن يُعبد من دون الله، سواء أكان لنبي، أم وليٍّ، أم كافر، أم غير ذلك.

وسبب النهي عن ذلك؛ لأنه ذريعة لعبادة صاحب القبر، أو اتخاذه وسيلة لرفع الدعاء إلى الله، والتقرب به إليه، سِيَّمَا بعد تناسي سيرة صاحبه وتعاقُب الأجيال، وهذا أمر مشاهد من عوام المسلمين لدى أضرحة: الحسين، وزينب، والسيد البدوي، وعبد القادر الجيلاني وغيرهم، حيث ينذُر الناس لهم الذبائح وغيرها، ويطوفون حولهم، ويسألونهم حاجاتهم، ويتمسحون بضريحهم، ولمّا وجد عمر ﷺ قبر (دانيال) بالعراق أمر بإخفائه عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدوها عنده، وفيها شيء من الملاحم وغيرها[٣].

وفي هذه القصة دليل على أن من فرّ بدينه من الفتن، سلّمه الله منها، ومن حرص على العافية، عافاه الله، ومن آوى إلى الله آواه الله، ومن تحمل الأذى في سبيله وابتغاء مرضاته، كان عاقبة أمره عزًّا ونصرًا.

قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ حَدِيثُ النَّاسِ فِي نَوَادِيهِمْ وَمَجَالِسِهِمْ

٢٢- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ[٤] بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ[٥] فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٩، ٥٣١) عن العباس وعائشة، والبخاري (١٣٣٠، ١٣٩٠، ٤٤٤١).
(٢) من حديث عطاء بن يسار في «الموطأ» من رواية زيد بن أسلم برقم (٥٧٠).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/١٤٧).
(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربيَ أعلم)، والباقون بإسكانها.
(٥) عدّ المدني الأخير (إلا قليل) آية، ولم يعدها غيره.

ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم[١] مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾

وقصة أصحاب الكهف التي نزل بها القرآن كانت قد شاعت، وذاع صيتها، وأصبحت حديث الناس في مجالسهم ونواديهم، وأخذوا يتحدثون عن عددهم، ومدة مكثهم في الكهف، وقد نبَّه القرآن الناس أن يتركوا الاشتغال بما ليس فيه فائدة تعود عليهم ولا على غيرهم في الدنيا ولا في الآخرة، وبيَّن سبحانه أن الناس سيخوضون في عددهم، سِيَّمَا النصارى المعاصرون للنبي ﷺ.

فقد ورد أن قصة أهل الكهف ذُكرت بين يدي النبي ﷺ في حضور عدد من نصارى نجران، منهم: (السيد، والعاقب) وكلٌّ منهما يمثل طائفة من طوائف النصارى.

فقال السيد: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال العاقب: كانوا خمسة سادسهم كلبهم.

وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، فصدَّق الله قول المسلمين؛ لأنهم عرفوا ذلك بإخبار الرسول لهم، بعد أن حكى قول النصارى وأتبعه بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾[٢] أي: ظنًّا وتخرصًا من غير يقين ولا دليل، ولم يذكر سبحانه قولًا رابعًا، وضعَّف القولين الأولَيْن ببيان أنه قول بلا علم.

وبعد أن بيَّن سبحانه أن الله تعالى هو الذي يعلم حقيقة عددهم في قوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أثبت علم عددهم لعدد قليل من الناس في قوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهذا العلم المثبت لقلة من الناس، أولهم رسول الله ﷺ فهو أول من أطْلعه الله على ذلك بطريق الوحي، وقد علَّم الرسول ﷺ بعض أصحابه، منهم: حبْر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ، فقد قال ﷺ: أنا من أولئك القليل، وذكر أسماءهم، كما أن عليًّا ﷺ ذكر أسماءهم وهم سبعة.

والله سبحانه يُذكُر الخلاف الذي لا طائل تحته في عددهم في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقد ضعَّف الله سبحانه هذين القولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وسكت، ولم يقل رجمًا بالغيب، فدلَّ هذا على أنه هو العدد الصحيح.

---

(١) ضم الهاء من (فيهم) يعقوب، وكسرها غيره.

(٢) يُنظَر: «تفسير زاد المسير» و«الخازن» و«النسفي».

ثم يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجادل في هذا الأمر أهل الكتاب وغيرهم، إلا مراءً سطحيًّا ظاهرًا من غير عُمق، بل أخبرهم بما جاء به الوحي فحسب، فهو عن علم يقيني.

والمراد **بالظاهر**: الذي لا يطول الخوض فيه؛ لأنه لا سبيل إلى إنكاره.

ولا تسأل في شأن أهل الكهف أحدًا من أهل الكتاب ولا من غيرهم، لا تسألهم عن عددهم ولا عن أحوالهم؛ فهم لا يعلمون ذلك، فقد أخبرناك بعددهم وأحوالهم على لسان جبريل، وهذا معنى ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ فإن كلامهم مبني على الرجم بالغيب، والظن لا يغني من الحق شيئًا.

والاستفتاء: طلب الفُتْيا من الآخرين، وفيه دليل على المنْع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره، أو لعدم مبالاته، أوعدم ورعه، ونحو ذلك.

وُجُوبُ تَعْلِيقِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى

٢٣، ٢٤- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا[١] ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ[٢] رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾

ثم عاتب الله نبيه ﷺ على قوله للكفار الذين سألوه ﷺ - بإيعاز من اليهود والنصارى - عن قصة أهل الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فقال لهم الرسول ﷺ: **«سأجيبكم غدًا»**، ولم يقل: إن شاء الله، وكان الوحي قد انقطع عن النبي ﷺ خمسة عشر يومًا، أو ثلاثة أيام؛ بسبب هذا، فأنزل الله جلَّ شأنه هذه الآية يبيِّن فيها أن المسلم ينبغي عليه أن يباشر الأسباب التي شرعها الله سبحانه، ثم يقرن عمله بمشيئة الله تعالى، سواء أتعلّق ذلك بالماضي، أم بالحاضر، أم بالمستقبل.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا تقولن لشيء تعزم على فعله: إني فاعل هذا الشيء غدًا، إلا أن تُعلِّق قولك وفعلك بمشيئة الله تعالى،

---

(١) لم يعد (ذلك غدا) آية، المدني الأخير، وعدها آية البقية.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (يهدين) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

فتقول: إن شاء الله، فاتَّخِذ الأسباب -أيها المسلم- وفكِّر واعزم واستعن بالله وفوِّض الأمر إليه سبحانه، ولا تعزم على فعل شيء دون أن تُقَدِّم المشيئة، وذلك لأن الإنسان لا يدري ما الله فاعل في المستقبل، والمشيئة كلها لله، ولأن في ذكر المشيئة تيسير للأمر وتسهيل له، واستعانة من العبد بربه، وردّ المشيئة إليه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ أن سليمان بن داود عليهما السلام قال: لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تلد كل امرأة منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله، ولم يستثنِ، أي: لم يقل: إن شاء الله، فكانت العقوبة على ذلك أنه لم يولد له إلا نصف ولد.

وفي رواية: أن عدد النساء كان تسعين، وفي ثالثة: كان مئة[1].

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤] أي: نصف ولد، لا حراك فيه، ولا فائدة منه؛ ليكون هذا عبرة ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان واستغفر ربه؛ لأنه لم يقدم المشيئة، ورجع إليه.

فإذا نسيت -أيها العبد - تقديم المشيئة فقدمها عندما تتذكر ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: تدارك ما فاتك، وعلِّق فعلك بمشيئة الله ولو بعد الشروع في العمل، كما قال ﷺ فيما يرويه أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من نسى صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»** قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[2] [طه: ١٤] وكلما نسيتَ فاذكر الله؛ فإن ذكر الله تعالى يذهب النسيان، ولما كان الإنسان ينسى أمره ربه أن يستثنى بعد ذلك عند ما يتذكر، حتى يحصل المطلوب ويندفع المحذور.

وفي حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من حلف فقال: إن شاء الله، فإن شاء مضى، وإن شاء رجع غير حانث»**[3].

---

(١) تُنظَر رواية السبعين في البخاري برقم (٢٨١٩) ورواية مئة برقم (٥٢٤٢) ورواية تسعين برقم (٣٤٢٤، ٦٧٢٠) وفي مسلم برقم (١٦٥٤) والنسائي برقم (٣٢٢) و«المسند» (٧٧١٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) رواه البخاري برقم (٥٩٧) ومسلم برقم (٦٨٤)

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٢٧٩٤) والنسائي (٣٨٣٧) وأحمد في المسند (٤٥١٠) و(٥٣٦٢) و(٦١٠٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه) والحاكم (٤/ ٣٠٣) وابن حبان (٤٣٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٦٢). وفي السنن (١٠/ ٤٦).

ومع أن الله تعالى قد أجاب رسوله ﷺ عن الأسئلة الثلاثة التي سألها المشركون قبل النهي الوارد في هذه الآية، فإن هذا النهي لم يترتب عليه إعراض الله تعالى عن إجابة رسوله ﷺ، وفي هذا كرامة للنبي ﷺ، وأدب عظيم من آداب النبوة.

ومثاله في تأديب النبي ﷺ لأصحابه ما جاء في الصحيح: أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: **«يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»** قال حكيم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر يدعو حكيمًا إلى العطاء، فيأبى أن يقبل منه، ثم إن عمر دعاه ليعطيه، فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: أُشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، إني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى تُوُفِّيَ[1].

فعلم حكيم أن قول رسول الله ﷺ له ليس القصد منه منعه من السؤال، وإنما قصْده أن يخلِّقه بخلُق جميل، ولذلك فإن حكيم أقسم ألا يأخذ من أحد شيئًا مادام حيًّا بعد رسول ﷺ، ولم يقل: لا أسأل شيئًا بعد هذه المرة.

وعلى من فاته تقديم المشيئة أن يسأل ربه الهداية والتوفيق فيما شرع فيه، وألا يغفل عن تقديمها فيما يجدُّ له من أعمال بعدها، وكأن الله تعالى يقول لرسوله أيضًا: وإذا سُئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل ربك أن يوفقك إلى طريق الحق والإجابة الصحيحة، ويرشدك إلى الهدى والرشاد.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤٧٢) واللفظ له، وانظر: (٢٧٥٠، ٤١٤٣، ٦٤٤١) و«صحيح مسلم» مختصرًا برقم (١٠٣٥).

مُدَّةُ مُكْثِ الْفِتْيَةِ فِي الْكَهْفِ

٢٥- ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَثَ مِائَةٍ[١] سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾

أخبر الله سبحانه عن مدة مكث أهل الكهف في الكهف على وجه اليقين، وهي ثلاث مئة عام بالسنة الشمسية، وثلاث مئة وتسعة أعوام بالسنة الهلالية القمرية، وهذا هو فصل الخطاب في أمر أهل الكهف يقرره عالم الغيب والشهادة، فلا جدال ولا مراء.

ومعلوم في التفاوت بين السنتين القمرية والشمسية أن كل مئة سنة شمسية تزيد على المئة سنة القمرية بثلاث سنوات، وكان النصارى يعرفون حديث أهل الكهف ويؤرخون به، واليهود الذين لقنوا قريشًا السؤال كانوا يؤرخون بالأشهر القمرية، فكل مئة وثلاث سنوات قمرية تساوي مئة سنة شمسية. قال تعالى:

٢٦- ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ[٢] فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾

لقد أَرْجَع الله سبحانه العِلْمَ إليه، فهو جلَّ شأنه يعلم ما غاب وما حضر، ويعلم ما خفي وما ظهر، ويعلم ما صَغُر وما كَبُر، وهو سميع بصير بخلقه أجمعين.

فإذا سُئلت -يا محمد- عن مدة لبثهم في الكهف، وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل: الله أعلم بمدة لبثهم؛ فإن مردَّ الأمر في ذلك إلى الله؛ فهو سبحانه لا يغيب شيء عن سمعه وبصره؛ إذ لا يحجبه شيء، ولا يغيب عنه دقيق ولا كثيف، ولا صغير ولا كبير، ولا واضح ولا خفي، فما أسمعه سبحانه! وما أبصره!

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بترك التنوين من (ثلاث مائة سنين) على الإضافة إلى ما بعده، وقرأ الباقون بالتنوين على أنه عطف بيان، وقرأ أبو جعفر بإبدال همزة (مائة) ياء مفتوحة وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ ابن عامر بتاء الخطاب وجزم الكاف في (ولا يشرك)، على أن (لا) ناهية، والمخاطب هو النبي ﷺ، والمراد: أمته، وقرأ الباقون بياء الغيبة ورفع الكاف، على أن (لا) نافية، والفعل مسند إلى ضمير يعود إلى الله تعالى.

وهذا تعجَّب من كمال سمعه وبصره وإحاطته بكل شيء، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ثم أخبر سبحانه عن انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير شؤون الخلق جميعًا، وهو الولي لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو الذي يتولى أصحاب الكهف بلطفه وكرمه، وليس للخلق أحد غير الله تعالى يتولى أمورهم ويرعاهم ويحفظهم وينصرهم ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ وليس لأصحاب الكهف وليٌّ من دون الله، بل هو سبحانه وليهم ونصيرهم، كما أنه جلَّ شأنه ولي المؤمنين جميعًا، والولي هو: من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه.

والإيمان هو سبب ولاية المؤمنين لربهم بالطاعة، وولايته سبحانه لهم بالثواب والنصر والإعانة، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وولاية الله تعالى خاصة بالمؤمنين ولا تشمل الكافرين، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد].

والمؤمنون بعضهم يوالي بعضًا، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]. وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم نفى سبحانه أن يكون له شريك من خلقه كائنًا من كان، فقال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي: ليس له سبحانه شريك، ولا مثيل، ولا نظير، وليس له شريك في حكمه وقضائه وتشريعه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولا يشرك في حكم الله أحد من خلقه، ولا في قضائه وحكمه بينهم.

هذه نهاية قصة أصحاب الكهف، وفيها إثبات صدق النبي ﷺ فيما أوحاه الله إليه بشأنهم.

وهؤلاء الفتية مثال يحتذى للشباب المؤمن الذي يُؤْثِرُ دينه وعقيدته على جميع الاعتبارات والتوجُّهات، واللجوء إلى الله تعالى بالدعاء مع الأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله تعالى.

وفي القصة أوضح دليل على إحياء الناس بعد موتهم، كما جاء في قصة البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] وقصة الذي مرَّ على قرية، وقصة الذين أماتهم الله ثم أحياهم، وقصة خليل الرحمن مع الطيور الأربعة، فكلها أدلة محسوسة

لمنكري البعث والحساب والجزاء، توجب الإيمان باليوم الآخر، وقد ذكر الله سبحانه الحكمة من قصة أهل الكهف في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [٢١].

لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى

٢٧- ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾

وبعد أن أبرَّ الله رسوله بإجابة المشركين عن قصة أهل الكهف، أمره أن يتلو على الناس وحي الله إليه، وختم ذلك بأمره ﷺ أن يواظب ويداوم على تلاوة ما أوحاه الله إليه من الكتاب العزيز، وتبليغه للإنس والجن كما أنزله عليه؛ فإن فيه ما يغنيه عن السؤال والاستفتاء، وما يثقل الميزان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر].

وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي هذا قطْع لأطماع المشركين والكافرين في كل زمان ومكان، أن يجيبهم الإسلام إلى مقترحاتهم الفاسدة أو الثناء على أفعالهم، كما قال المشركون المعاصرون للنبي ﷺ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

فبيَّن ﷻ أن هذا الكتاب لا يتغير ولا يتبدل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥] ومحاولة التحريف لألفاظه أو معانيه أمر يُخرج من ربقة الإسلام، وليس في استطاعة أحد أن يغير أو يبدل كلام الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرأ واتبع -أيها الرسول- ما أوحاه الله إليك من القرآن، وتتبَّع إرشاداته وتوجيهاته؛ وفَهْم معانيه، والعمل بما فيه، وتصديق أخباره، وامتثال أمره ونهيه، وتلاوته غضًّا طريًّا كما أُنزل، فإن هذا القرآن يهديك إلى طريق الحق، وهذا الكتاب ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ لصدقها وعدْلها، فإن خالفْتَ ذلك فلن تجد غير الله ملجأ تلجأ إليه، ولا مأوى تأوي إليه؛ كي تنجو من العقوبة، وهذا معنى ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لا تجد مكانًا ولا جهة تميل إليها

للنجاة من العذاب، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الأنعام: ١١٥].

والإلحاد: هو الميل عن الحق، **والملحِد**: هو المائل عن الدين الحق.

والملتحَد: هو المكان الذي يميل إليه الملحد ويلجأ إليه، ولن تجد من دون الله ملجأ تلجأ إليه، ولا ملاذًا تلوذ به، وإذا تعيّن ذلك وجب توجيه العبادة لله وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن] فلا تعبأ - يا رسولنا - بمن يكره تلاوة القرآن كله أو بعضه، واتل جميع ما أوحى إليك وبلّغه للثقلين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فالقرآن فيه الخبر الصادق، والخبر اليقين، وفيه الحكم التشريعي، وفصل الخطاب، وفيه الأمر والنهي من رب العالمين.

وقد خُتمت قصة أصحاب الكهف بهذه الآية، كما بُدأتْ بمثلها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ والكتاب هو القرآن الذي جاء في هذه الآية ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾.

فُقَرَاءُ المؤْمِنِينَ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ فِي قُرْبِ الدُّعَاةِ مِنْهُمْ

٢٨- ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ[١] وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾

ثم بيّن جلَّ شأنه أن الناس تجاه هذا الكتاب فريقان: منهم المؤمن، ومنهم الكافر.

وقد أمر الله رسوله أن يحبس نفسه ويصبِّرها مع المؤمنين الذين يطيعون ربهم، ويسبحونه ويذكرونه، فيهلّلونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبّرونه، ويعبدونه صباحًا ومساء، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء.

ومما قيل في سبب نزول هذه الآية:

(أ) أن عيينة بن حصن، دخل على رسول الله ﷺ قبل أن يُسْلم، وعنده سلمان الفارسي

---

(١) قرأ ابن عامر (بالغُدْوَة) أي: بضم الغين وإسكان الدال وفتح الواو، على أنها نكرة دخلت عليها لام التعريف، وهي لغة، وقرأ الباقون (بالغداة) أي: بفتح الغين والدال وبعدها ألف، على غداة اسم للوقت، ثم دخلت عليها لام التعريف.

عليه جبة من صوف تفوح منها رائحة العرَق، وبيده خوص يشقُّه وَينْسجُه، فقال عيينة: أما يؤذيك ريح هؤلاء؟ اجعل هذا وأمثاله ينصرفون عن مجلسك، واجعل لنا مجلسًا خاصًا بعيدًا عنهم؛ فنحن سادات مُضَر وأشرافها، إن أسلمنا أسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحِّهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لنا مجلسًا[(١)].

(ب) وعن مسْلَمة بن عبد الله الجهني، عن عمه ابن مشجمة بن ربعي الجهني، عن سلمان الفارسي ﷺ قال: جاءت المؤلَّفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحَّيت عنَّا هؤلاء، وأرواح جبابهم -يَعنُون: سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب من صوف، -جلسنا إليك وحادثناك، وأخذنا عنك، فأنزل الله الآية يتهددهم بالنار، فقام النبي ﷺ يلتمسهم، حتى أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى فقال: «**الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى أمرني أن أصبِّر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات**»[(٢)].

(ج) وعن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال: نزلتْ على رسول ﷺ وهو في بعض أبياته ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ فخرج يلتمسهم، فوجد قومًا يذكرون الله منهم ثائر الرأس، وحافي الجلد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم، وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبِّر نفسي معهم**»[(٣)].

(د) وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا، وابن مسعود، ورجل من هذيل،

---

(١) يُنظَر: الطبري (١٥/ ٢٣٦) و«أسباب النزول» للواحدي ص ١٧١ والقرطبي (١٠/ ٣٩١) و«الدر المنثور» (٤/ ٢١٩) وقد أخرجه عبد بن حميد عن سلمان.

(٢) «زاد المسير» (٥/ ١٣٢) و«الدر المنثور» (٤/ ٢١٩) وقد أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٤٥) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٤٩٤) والطبري (١٥/ ٢٣٨).

(٣) رواه ابن منده وأبو نعيم في الصحابة كما في «أسد الغابة» (٣/ ٣٥٣) من طريق أبي حازم به، ورواه ابن جرير (١٥/ ١٥٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١٧): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، ورواه ابن مردويه.

وبلال، ورجلان نسيتُ اسمهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّث نفسه، فأنزل الله﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾[١].

(هـ) وقال الربيع: حُدِّثنا أن النبي ﷺ تصدَّى لأمية بن خلف وهو ساهٍ غافل عما يقال له، فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ فرجع إلى أصحابه وخلَّى عن أمية، فوجد سلمان يُذكِّرهم، فقال: «**الحمد لله الذي لم أفارق الدنيا حتى أراني قومًا من أمتي أمرني أن أُصبِّر نفسي معهم**»[٢].

وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في قصة عبد الله بن أم مكتوم في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾.

وكما طلب كفار قريش من النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين وضعفاءهم عن مجلسه تكبرًا عليهم وازدراء بهم، طلب ذلك أيضًا قوم نوح من نوح عليه السلام، فقالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧].

وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۝٢٩ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣٠﴾ [هود].

ومثل هؤلاء وأولئك: ضعفاء المسلمين وفقراؤهم من مكة، أهل صُفَّة مسجد رسول الله ﷺ، وكانوا سبع مئة رجل حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وتركوا أرضهم وأموالهم وديارهم في مكة، ولم يكن لهم في المدينة زرع ولا ضرع ولا تجارة، وقد أُمر رسول الله ﷺ أن يصبِّر نفسه معهم.

وكان ﷺ يُعلِّم أصحابه هذا الخلُق الكريم، وهو مخالطة أهل الإيمان والتقوى ولو كانوا ضعفاء فقراء، بحيث لا يمنع المسلم فقْرهم وضعْفهم أن يجالسهم ويصاحبهم، ويتواضع لهم، ويؤانسهم.

كما روى البخاري عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مرَّ رجل على النبي ﷺ فقال

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة برقم (٢٤١٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٩/ ٥٢٧).

لرجل عنده جالس: **«ما رأيك في هذا؟»**، فقال: رجل من أشرف الناس، هذا -واللهِ- حريٌّ إن خطب أن يزوَّج، وإن شفع أن يُشفَّع، فسكت رسول الله ﷺ.

ثم مرَّ رجل آخر، فقال له رسول الله ﷺ: **«ما رأيك في هذا؟»**، فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا -واللهِ- حريٌّ إن خطب ألا يزوَّج، وإن شفع ألا يشفَّع، وإن قال ألَّا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا»**(١).

وهكذا أمر الله رسوله أن يقرِّب فقراء المؤمنين من مجلسه، أمثال: بلال، وصُهَيْب، وعمَّار، وخبَّاب، وسلمان، وابن مسعود، فهؤلاء يعبدون الله وحده، ويدعونه في صباحهم ومسائهم، وهم بذلك لا يريدون إلا وجه الله تعالى ورضاه ومغفرته، ولا يصرف عينه عنهم إلى غيرهم من كبار القوم، طمعًا في إسلامهم لإرادة التمتع بزينة الحياة الدنيا في صحبة الوجهاء والأعيان، ولهذا نهى الله رسوله ألا يغفل عن فقراء المسلمين وضعفائهم، فقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ونهاه كذلك عن أن يُطيع من كانت قلوبهم غافلة عن ذكره تعالى، مؤثرة لهوى النفس، ممن صار أمره في جميع أعماله وأحواله ضياعًا وهلاكًا.

وهكذا نهى الله رسوله نهيًا جامعًا قاطعًا عن اتباع من حاد عن طريقه سبحانه، فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. وقال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان]. وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم].

لقد نهى الله تعالى عن طاعة مَنْ غفل قلبه عن ذكْر الله، وكان متبعًا لهواه حيثما اشتهت نفسه ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، وكان من المفرطين في طاعته، وأمر بطاعة من امتلأ قلبه بمحبة الله تعالى، وفاض ذلك على لسانه فلهج بذكر الله، فحفظ وقته، وصلح حاله، واستقامت أفعاله.

وإنما صَبِّر نفسك واحبسها مع ضعفاء المسلمين، ففيهم الخير، وفيهم تثمر الدعوة، فكان ﷺ يقول لابن أم مكتوم حين يقدم عليه: **«مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي»**.

وكان ﷺ يمرُّ بالمجلس فيه فقراء وضعفاء المسلمين، يقرؤون شيئًا من القرآن فيقول:

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٩١، ٦٤٤٧).

«هؤلاء الذين أمرني ربي أن أصبِّر نفسي معهم، معكم المحيا ومعكم الممات»[1].

وهذا الصبر المأمور به في الآية: صبر على طاعة الله، وهو أعلى أنواع الصبر.

وفي تخصيص الغداة والعشيِّ بالذكر إشعار بفضل العبادة فيهما؛ لأنهما محل الغفلة والاشتغال بأمور الدنيا غالبًا، كما جاء ذلك أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنعام].

وَعِيدُ الْكَافِرِينَ بِعَذَابٍ مُؤْلِمٍ

٢٩- ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن[2] وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ[3] ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

ثم أمر الله رسوله أن يَجْهر بالحق في وجوه المستكبرين، ويبيِّن مصير المؤمنين ومصير الكافرين في نهاية هذا الربع من السورة، وأن على الإنسان أن يختار لنفسه ما يجده غدًا عند ربه، وظاهر الآية هو التخيير بين الإيمان والكفر، وليس الأمر كذلك، وإنما المراد: هو التهديد والتخويف لمن اختار الكفر بعد بيان الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاء، ولم يبق إلا اختيار أحد الطريقين.

وقد أعطى الله العبد مشيئة يقدر بها على الإيمان والكفر، والخير والرشاد، فمن آمن فقد وُفق للصواب، ومن كفر فقد قالت عليه الحجة، وهو غير مكره على الإيمان ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]

والمعنى: قل -أيها الرسول- لهؤلاء الغافلين: ما جئتكم به هو الحق من ربكم، المتضمِّن لدين الإسلام، فمن أراد منكم أن يصدق به ويتَّبعه فليفعل؛ فهو خير له، وعاقبته الثواب الجزيل والنعيم المقيم، ومن أراد أن يجحد ويكفر فليفعل، وعاقبته الهلاك

---

(١) يُنظر: صحيح سنن أبي داود برقم (٣٦٦).

(٢) قرأ خلف عن حمزة بإدغام النون في الواو من (فليؤمن ومن شاء) بدون غنة، والباقون بغنة، ومثلها (وإن يستغيثوا).

(٣) أبدل همزة (بئس) ياء، ورش وأبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، وكذا حمزة عند الوقف، وحققها الآخرون.

والخسران، فما ظلم إلا نفسه.

وليس المراد بالآية: التخيير بين الإيمان والكفر، بل المراد: هو التخويف والتهديد والوعيد، بدليل ما بعدها؛ فقد بيَّن سبحانه أن الظالمين لهم نار أعدها الله لهم، فهي جاهزة معدة، لا تستغرق زمنًا ولا جهدًا ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَآ﴾.

وهو السور والحوائط، أي: أحاط بهم سُورها.

وطعام أهل النار: الزقوم، والضريع، والغسلين، نعوذ بالله، فإذا حدث لهم عطَش من لهب النار، وأرادوا أن يستغيثوا ليشربوا فإنهم يغاثون بماء كالمهل، أي: كعكر الزيت المغلي، أو كالرصاص، أو النحاس المذاب بالنار.

ورَدَ أن عبد الله بن مسعود ﷺ أُهديتْ إليه سقاية من ذهب، أو من فضة، فأمر بها فأذيبت حتى تميَّعت وتلوَّنت ألوانًا، فدعا مَنْ ببابه من أهل الكوفة، فقال: ما رأيتُ في الدنيا شيئًا أدنى شبهًا بالمهل من هذا[١].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ماء كالمهل** -كعكر الزيت- **فإذا قرُب إليه سقطت فروة وجهه فيه**»[٢].

قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾

وقد وصف الله السماء يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج].

وهذا الماء إذا شربوه يُقطِّع أمعاءهم، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وقال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾﴾ [الغاشية] أي: بالغة الحرارة، فإذا اقتربوا منه شوى وجوههم، وسقطت فروة الرأس، وجِلْد الوجه.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ أي: قبح الله هذا الشراب الذي لا يروي ظمأ، بل يزيده، وبئست النار لهم منزلًا ومقامًا، ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: وبئس هذا الشراب رفيقًا لهم في النار،

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥١٣) والطبري (١٥/ ٢٤٨) والطبراني (٩٠٨٢، ٩٠٨٣) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٥): فيه يحيى الحماني وهو ضعيف.

(٢) «المسند» (٣/ ٧٠) برقم (١١٦٧٢) إسناده ضعيف، وأبو يعلى (١٣٧٥) و«سنن الترمذي» برقم (٢٥٨١) و«تفسير الطبري» (٢٥/ ١٣٢) و«المستدرك» (٢/ ٥٠١) وضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٩).

وساءت النار مكانًا للارتفاق، وفي هذا تهديد شديد لمن أعرض عن الحق فلم يؤمن بالإسلام، ثم ذكر الله تعالى الفريق الثاني الذي اختار الإيمان.

ثَوَابُ مَنْ آمَنَ وأَحْسَنَ الْعَمَلَ

٣٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾

وبعد أن ذكر تعالى أحوال الأشقياء ذكر عباده المؤمنين الصالحين، فبيَّن جلَّ شأنه حُسن عاقبتهم، وأنه تعالى لا يضيع ثواب أعمالهم، فهم يوم القيامة في جنات تجري من تحت قصورها أنهار اللبن والعسل، والماء غير الآسن، والخمر الذي لا يُسِكر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصدقوا يقينًا بالله ورسوله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الواجبات والمستحبات، لهم أعظم الأجر والمثوبة، ولن نُضيِّع أجور أعمالهم، ولن نَنقُصها، بل نزيدها، وننميها ثوابًا لهم على ما أحسنوه من العمل، متبعين فيه شرع الله وسنة نبيه، ولا نترك أعمالهم تذهب سُدًى، بل نجازيهم عليها أحسن الجزاء ثم ذكَر سبحانه أجرهم وجزاءهم فقال:

٣١- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ[١] يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ[٢] فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

وأهل الجنة الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، يُحَلَّوْن في الجنة من أساور من ذهب ولؤلؤًا، ويلبسون ثيابًا خضرًا من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والاستبرق، وهو مارقّ منه، وهم متكئون على السرر المزينة بأفخم الفرش، والخدم يسعون بينهم بما يشتهون، ، كعادة ملوك أهل الدنيا، فإن عباد الله الصالحين يكونون في الجنة أفضل منهم، نِعْمَ هذا الثواب رفيقًا لهم في دار الخلود والنعيم، فهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحة أعد الله لهم في الآخرة جنات يقيمون فيها إقامة دائمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. تجري من تحت

---

(١) كسر الهاء والميم من (تحتهم الأنهار) حالة الوصل أبو عمرو ويعقوب، وضمهما حمزة والكسائي وخلف، وكسر الهاء وضم الميم الباقون، والجميع يسكّن الميم عند الوقف عليها.

(٢) حذف الهمزة من (متكئين) أبو جعفر، ومثله حمزة عند الوقف، وله أيضًا التسهيل.

قصورها وأشجارها، ومن تحت غرفهم ومنازلهم الأنهار العذبة، وهم يُحَلَّوْن في الجنات بأساور من ذهب، وأساور من فضة، ومن لؤلؤ، كما قال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]. وقال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣، وفاطر: ٣٣].

وفي الآية التي معنا ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وقد نُسِجت هذه الثياب الخُضْر من الحرير الرقيق، يُلبس على الجسم مباشرة، كما أنهم يحلون أيضًا بثياب منسوجة من الحرير، أو الديباج الغليظ يُلبس فوق الثياب الرقيقة، وهو الإستبرق.

قال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١].

فالسُّندس: هو الثياب الرقيقة من الحرير والديباج.

والإستبرق: هو الثياب الغليظة من الحرير والديباج.

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع عبد الله بن عُكَيْم قال: كنا مع حذيفة بالمدائن، فاستسقى حذيفة، فجاءه دهقان بشراب في إناء من فضة، فرماه به، وقال: أخبركم أني قد أمرته ألّا يسقيني فيه؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «**لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسوا الديباج والحرير؛ فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة**»[(١)].

ويكون أهل النعيم في الجنة على هيئة الملوك المنعمين، يتكئون فيها على فُرُشٍ مزدانة بالستائر الجميلة على الأرائك والأسِرَّة.

قال الحسن: لم نكن ندري ما الأرائك حتى لقينا رجلًا من أهل اليمن، فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجَلة إذا كان فيها سرير[(٢)]

والحجال مثل القبة: وهو بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرَّة والستور. والسرير بغير حَجَلة، لا يسمى أريكة، والحَجَلة بغير سرير، لا تُسمَّى أريكة، فإذا اجتمعا كانا أريكة، ولعل ذلك ما يطلق عليه في وقتنا (غرفة النوم)، حيث يكون السرير داخل غرفة مُزيَّنة بالستائر والفُرش.

نِعْمَ هذا الثواب والجزاء رفيقًا لهم في الجنة ﴿وَحَسُنَتْ﴾ لهم الجنات ﴿مُرْتَفَقًا﴾ أي:

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٠٦٧) والبخاري (٥٤٢٦، ٥٦٣٢، ٥٨٣٧).

(٢) يُنظَر: «فتح الباري» (٦/ ٣٢١)، ومشكاة المصابيح (٥٦٣٧) التحقيق الثاني للشيخ، الألباني.

منزلًا ومكانًا ومستقرًّا لهم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ [الفرقان].

وقد بشرهم ربهم في هذه الآية **بخمسة أمور**، وهي:

(أ) جنات عدن.

(ب) والأنهار تجري من تحتهم.

(ج) وهم يحلون فيها من أساور من ذهب.

(د) ويلبسون ثيابًا خضرًا من سندس وإستبرق.

(هـ) ويتكئون في تلك الجنات على الأرائك.

روى سعد عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو أن رجلًا من أهل الجنة اطَّلع فبدث أساورُه؛ لطمس ضوؤُه ضوء الشمس كما يُطمس ضوءُ النجوم»**(١).

وهذا في مقابل قوله تعالى عن الكافرين: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: قبح هذا الجزاء، وساء الرفيق مرافقًا لهم في النار.

وكأن الله تعالى يقول لمن يتكبرون عن مخالطة الفقراء ويأنفون منهم: من شاء فليجالس فقراء المؤمنين، وجبابهم تفوح منها رائحة العرق، أو فلْينفر، فمن لم تُرْضِه رائحة العرق من تلك الجباب التي تضم أصحاب القلوب الزكية بذكر الله تعالى، فليرتفق في سرادق النار، وليهنأ بدُرِّيِّ الزيت، أو القيح، يغاث به في النار(٢).

قال تعالى عن صديد أهل النار: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ [إبراهيم].

أَصْحَابُ الْجَنَّتَيْنِ

وبعد أن بيَّن سبحانه ما أعده من الجزاء الأخروي لكل من الكفار والمؤمنين، ضرب

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٦١). ومشكاة المصابيح (٥٦٣٧) التحقيق الثاني للشيخ الألباني.

(٢) «في ظلال القرآن» (٤/ ٢٢٧١٠).

مثلًا لحال الفريقين يُظهر تأييده للمؤمن وإهانته للكافر؛ ليتبين للفريقين ما يجره الكفر والغرور والإعجاب والجبروت من سوء العاقبة والخسران، وما يلْقاه المؤمن المتواضع من النجاح وحُسن العاقبة.

والمثل الذي في هذه الآية مَثَلٌ عَامٌ في كل من ينطبق عليه الوصف في كل زمان ومكان، وإن كان مبدأ ضَرْب هذا المثل على رجلين بذاتهما، فإن بعض الناس حينما يرزقه الله ﷻ مالًا أو متاعًا، أو يرزقه جاهًا أو منصبًا، يتعالى على فقراء الناس، فيترفع عن مُجالستهم، أو مُصاحبتهم، أو التعرف عليهم، والسبب في هذا لا يرجع إلى المال أو الجاه في حد ذاته، فالثراء ليس مذمومًا لذاته، والجاه أو المنصب ليس مذمومًا لذاته، وإنما المذموم هو الإنسان الذي أبطرتْه النعمة واغترَّ بدنياه، وافتتن بها فتعالى وتعاظم، وافتخر على الناس.

وسورة الكهف تضرب لنا مثلًا لرجل فقير مؤمن متصدق، معتز بدينه وعقيدته، فكانت نهايته حُسن العاقبة في الدنيا والآخرة، ورجل آخر مفتون بماله، كافر بالبعث والنشور، فكانت عاقبته أنْ خسر الدنيا والآخرة.

والرجلان قيل: إنهما اللذان ذُكرا في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الصافات]

أي: أنه كان له صديق في الدنيا ينكر البعث والنشور، فلما دخل أهل النارِ النارَ، وأهل الجنةِ الجنةَ، قال القرين المؤمن لمن معه في الجنة: تعالوا معي نطَّلِع على صديقي الذي كان ينكر هذا اليوم، فاطَّلَع عليه وهو في وسط الجحيم، قال له صديقه المؤمن: ﴿تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ وتدخلني معك نار جهنم ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ معك في النار، إلى آخر الآيات.

وهذه القصة تختلف عن قصة أصحاب الجنة التي ذُكرت في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧-٣٣] فهؤلاء إخوة شركاء في جنة واحدة، وأولئك رجلان أخوان، أحدهما يمتلك جنتين، قيل: إن الرجلين من مكة من بني مخزوم، يقال لأحدهما: عبد الله بن الأسد، أبو سلمة زوج أم سلمة، وهو مؤمن، وأخوه الكافر يقال له: الأسود بن عبد الأسد، وربما كانت الجنتان في الطائف.

وقيل: إنهما أخوان من بني إسرائيل، ورثا أموالًا طائلة عن أبيهما.

وقيل: إن هذه الأموال في ذلك الوقت السحيق، كانت ثمانية آلاف دينار، فاقتسماها فيما بينهما، وكان المؤمن يقال له: يهوذا، والكافر يقال له: قطروس، كما في بعض الروايات.

١- أما الكافر فقد اشترى أرضًا بألف دينار، فقال أخوه المؤمن: اللهم إني أشتري عندك أرضًا في الجنة بهذه الألف، وتصدق بها في سبيل الله.

٢- ثم قام أخوه ببناء دار فوق هذه الأرض بألف دينار، فقال أخوه المؤمن: اللهم إني أشتري عندك دارًا في الجنة بهذه الألف، وتصدق بها في سبيل الله.

٣- ثم تزوَّج أخوه امرأة بألف دينار، فقال أخوه المؤمن: اللهم إني أدفع هذه الألف صداقًا لامرأة من الحور العين في الجنة، وتصدق بها في سبيل الله.

٤- ثم اشترى أخوه خدمًا ومتاعًا بالألف دينار الرابعة، فقال أخوه: اللهم إني أشتري عندك في الجنة الوِلْدان المخلدين، وتصدق بالألف دينار الرابعة.

وبقي الرجل كفافًا راضيًا قانعًا بالشيء اليسير الذي معه.

ثم أصبح لأخيه الكافر جنتان مثمرتان بأنواع أشجار العنب، ومحاطة بالنخيل، وبيْن النخيل والعنب، زروع مثمرة، والأنهار تتفجَّر بين الجنتين.

مرَّ الكافر يومًا بأخيه المؤمن وهو جالس، وحاله قد افتقرت، فأخذ بيده وأدخله إحدى جنتيه، وقال له متكبرًا مفتخرًا بما عنده: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾.

وهكذا فإن بعض الناس حينما يُرزق بالأموال أو الجاه أوالمنصب يَنْسِب ذلك إلى نفسه، وأنه اكتسب ذلك بخبرته وحِنْكَته، واكتسبها بمؤهلاته وعلمه، وهذا من الجهل الفادح، وهي مقالة قارون، حينما أُوتِيَ أموالًا وادَّعى أنه اكتسبها بخبرته:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

وهذا شأن صاحب الشهادة والخبرة الذي يقول: إنما جمعتُ هذه الأموال، أو حصلتُ على هذا المنصب بفضل خبرتي وشهادتي ودراستي، ولا يعزو هذا الفضل إلى رب العالمين.

قال الرجل لأخيه: أنا أكثر منك مالًا، وأكثر أنصارًا وخدَمًا وحشَمًا، وأخذ بيد أخيه

وأدخله إحدى الجنتين، وهو ظالم لنفسه بالكفر، وظالم لنفسه بالتكبر على أخيه.

قال له أخوه المؤمن: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ ﴿وَدَخَلَ﴾ الكافر ﴿جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن﴾ تفنى هذه الجنة أبدًا ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أنكر القيامة وما فيها من بعث وحشر، وحساب وجزاء.

قال: ولو فرض أن هناك بعثًا -كما تقول- وأنني بعثتُ مع الناس كما يبعثون، فإن سعيد الدنيا سعيد الآخرة، وغني الدنيا غني الآخرة -كما يزعم- وهذا كلام الذين يقيسون الدنيا على الآخرة.

وقد بيَّن النبي ﷺ أن الله ﷻ يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولكنه جلَّ شأنه لا يعطي الآخرة إلا لمن يحب، وقد بيَّن الرسول ﷺ أن الدنيا قد تُؤتَى للعبد استدراجًا له، حتى يستمر في كفره، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف]. ولا يكون الغنى والجاه دليلًا على محبة الله ﷻ لعبده.

قال له صاحبه (أخوه المؤمن): أكفرت بالذي خلقك ورزقك حين أنكرت البعث، وحين قلت: إن حديقتك باقية لن تزول؟! لقد كفرت بخالقك الذي أوجدك من العدم، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، ولم تزل تتقلب في نعم الله، وتنتقل من حالة إلى أخرى: من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، حتى سواك بشرًا سويًّا، لكن أنا أؤمن بربي ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ وكان الأولى والأليق بك حين دخلت جنتك، وأُعجبت بما فيها أن تنسب هذا الفضل إلى رب العالمين، وأن تقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ فإن من رأى شيئًا فأُعجب به فقال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، لم يضره شيء، أي: أن هذا الفضل من الله، وأنه بحول الله وقوته، إن شاء أبقاه وإن شاء أفناه.

وفي الحديث الصحيح: عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أدلك على كنز** -أو قال: على كلمة- **من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[1].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٦١٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٤) و«المسند» (٢/ ٤٩٢) عن أبي هريرة برقم (٧٩٦٦، ٨٤٢٦، ٨٧٥٣).

قال المؤمن لأخيه الكافر: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فلعل الله أن يقْلِب الأمور، وتتغير الأحوال وتتبدل، فيرزقني ربي بإيماني خيرًا من جنتيك، ويرسل على جنتيك -بسبب كفرك- صاعقة من السماء، أو عذابًا مُهلِكًا يأتي عليهما ويُدَمِّرهما، أو يرسل عليهما عذابًا مقدرًا في حساب الله تعالى، فتصبح أرضًا جرداء زلقاء ملساء، لا نبات فيها، ولا يثبت عليها قدم، أو أن ماءها يغور في باطن الأرض، فلا يمكنك أن تحصل عليه.

وتحقق في الأخ الكافر رجاء أخيه المؤمن، وتحققت فيه الدعوة التي دعا عليه بها، فأحاط الهلاك والعذاب بالجنتين، وسقطتا على عروشهما، أي: سقطت سقوفهما على الجدران، وسقطت أعمدة الكروم أو العنب على عروشها، وأصبح الرجل يضرب يدًا بأخرى نادمًا ومتحسرًا ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ وما بذل في هاتين الجنتين من أموال وهو يندم ويتحسر ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾.

والله ﷻ يعقِّب على القصة، فيقول: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لقد كان مغترًّا بعشيرته وماله وهو يقول: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فأين هؤلاء النفر؟ إذ ليس هناك من جماعة منعوا عنه الهلاك والعذاب حين أحاط بجنتيه ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾؛ لأن من خذله الله لا ينصره أحد.

وفي هذا المقام يتضح للمؤمن أن الولاية والنصرة من الله وحده، وأن صاحب الملك والسلطان هو الله وحده ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ بالجر، وقرئت: (لله الحقُّ) بالرفع، والوَلاية من النصرة، والوِلاية من المُلْك والسلطان، وفي كلتا الحالتين يرجع الأمر إلى رب العالمين فهو خير مُجازٍ، وأحسن عاقبة.

وَصْفُ الجنَّتَيْن

٣٢- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا[1]﴾

ونمضي مع الآيات الكريمة، أي: اضرب -يا محمد- لقومك مثلًا حيًّا من الواقع العملي

(١) لم يعد المدني الأول والمكي (بينهما زرعا) آية، وعده غيرهما وهم المدني الأخير والشامي والبصري والكوفي.

المحسوس، في هذا الحوار الذي يدور بين كافر على جانب من الثراء، ومؤمن قليل المال، شاكر لأنعم الله، وقد جعلنا لأحدهما -وهو الكافر- حديقتين، أو بستانين من شجر العنب، مثمرين بأنواع العنب اللذيذ، ولم يعيِّن القرآن مكانهما؛ لأنه لم يتعلق به غرض صحيح، وجعلنا النخل محيطًا بالحديقتين، وكانت هذه عادة أهل الثراء، أن يحيطوا شجر العنب بالنخل المثمر، وأنبتنا وسط هاتين الحديقتين زروعًا نافعة مختلفة الأشكال والمذاق، تتخلل أشجار النخيل والعنب؛ كي تجمع الحديقتين بين القوت والفواكه، وما يشرح الصدر ويفيد الناس.

فهذه الآية بيَّنت ثلاثة أشياء اشتملت عليها الحديقتان، وهي: العنب، والنخيل، والزرع. قال تعالى مبيِّنًا وصف الجنتين:

٣٣- ﴿كِلْتَا[1] ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا[2] وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾﴾

أي: وكل واحدة من الحديقتين أثمرت ثمارها، بجوْدة وغزارة ووفْرة، بصورة دائمة مستمرة، فكانت ثمارها من العنب والتمر، وأنواع الزروع والثمار، يانعة طيبة كثيرة، ولم تنقص شيئًا منه في عام من الأعوام، على خلاف ما جرت به عادة البساتين، ولم يكن فيها عقاب بنقص الثمر أو إهلاكه، لظلم صاحبها.

ثم بيَّن سبحانه الشيء الرابع الذي اشتملت عليه الحديقتان، وهو وجود نهر جارٍ عذب قد شق طريقه بينهما؛ لِسقْيِهما بيسر وسهولة.

حِوَارُ الرَّجُلَيْنِ: المؤْمِنِ وَالْكَافِرِ

٣٤- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ[3] فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠[4] أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾

---

(١) اختُلِف في ألف (كلتا) هل هي للتأنيث أم للتثنية؟ فعلى القول بأنها للتأنيث يميلها وقفًا حمزة والكسائي وخلف ويقللها ورش وأبو عمرو وبخُلْفٍ عن ورش ويفتحها الباقون، وعلى القول بأنها للتثنية فلا إمالة فيها ولا تقليل.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الكاف من (أكلها)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ عاصم وأبو جعفر ويعقوب بفتح الثاء والميم من (ثَمَر) جمع ثَمَرة، وسكنت الميم تخفيفًا، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم، والباقون بضم الثاء والميم، جمع ثَمَرة أيضًا، مثل: خَشَبة وخُشُب.

(٤) قرأ نافع وأبو جعفر بمد ألف (أنا) وصلًا، فيصبح من قبيل المد المنفصل، والباقون بعدم المد وصلًا، وجميع القراء بمدها مدًّا طبيعيًّا عند الوقف، ومثلها (أنا أقل) في الآية (٣٩).

وكان لهذا الأخ الكافر، صاحب الجنتين، أنواع أخرى من الفواكه والخضراوات والثمار ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ وقد فسرها ابن عباس، وقتادة، ومجاهد بالأموال الكثيرة من الذهب، والفضة، والحيوان، وغير ذلك، ولعل لفظ (ثمر) يشير إلى ما يخرج من الارض من الزروع والثمار والأشجار والنخيل والأعناب.

فكأن **المعنى**: وكانت لصاحب الجنتين أموال أخرى غير الجنتين، كما في القراءة الأخرى بضم الثاء والميم (ثُمُر) والمراد: الأموال الكثيرة المثمرة من كل صنف، كالذهب والفضة، وغيرهما.

ثم حكى القرآن ما تفوَّه به الغني المغرور، المفتون بدنياه، في حواره مع أخيه المؤمن، قال له على سبيل المفاخرة والتكاثر: أنا أغنى منك وأشرف، وأكثر أنصارًا وأعوانًا وخدَمًا.

وقوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ يفيد أنه لم يكن أخاه، ومن قال: إنه أخوه، فسَّر النفر بالعبيد والخدم، **والمحاورة**: هي المراجعة في الكلام، **والنفر**: العدد من الناس، والمراد هنا: العشيرة والخدم والحشم، فيكون مجموع ما أوتيه هذا الثري هو:

أ- الحديقتان المشتملتان على العنب، والنخل، والزروع، والثمار، والنهر الذي يروي هذه الأشجار والزروع.

ب- وصنوف الأموال الأخرى العينية والمقوَّمة.

والافتخار بالمال، والمتاع، والجاه، والمنصب على الفقير الضعيف، شأن كثير من الناس، إلا من رحم ربي، وفي هذا تطاول من الأغنياء على الفقراء، حين ينْسَوْن أن الأيام دُوَل، وأن الجوائح كثيرة، وأن الله تعالى يُغني ويُفقر، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، بين عشية وضحاها.

لقد كره الله سبحانه من المؤمن المطيع أن يتطاول بطاعته على رجل آخر مذنب مقصر، فقال له: واللهِ لا يغفر الله لك، فقال الله تعالى: أكنت على ما في يدي قادرًا؟! فإني غفرت له وأحبطت عملك[1].

والواجب على صاحب الثروة والجاه، بدلًا من تطاوله على الفقير الضعيف أن يساعده ما استطاع، وأن يحفظ لسانه عنه، فمن يدري، فلعله يكون خيرًا منه عند الله تعالى؟!

---

(١) يُنظر: صحيح مسلم برقم (٢٦٢١).

قال تعالى مُثْبتًا ظُلم الكافر حال دخوله الحديقة:

٣٥- ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا[1] ﴿٣٥﴾﴾

أي: وأخذ الكافر بيد أخيه المؤمن، ودخل حديقته؛ ليريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار، وجاء لفظ: الجنة في هذه الآية مفردًا في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾؛ لأنه لم يدخل الجنتين معًا في وقت واحد، بل دخل جنة واحدة، ثم دخل الأخرى، دخلها وهو ظالم لنفسه بالشرك والكفر، وبطَر النعمة والعُجْب، فأُعجِب بما فيها من ثمار، وقال: لا أعتقد أن تفنى هذه الحديقة، وتزول من على ظهر الأرض مدى الحياة، بل ولا أعتقد أن هناك يومًا آخرا يحاسب فيه العباد، ولو وُجد هذا اليوم - كما يزعمون - فسيكون لي بستان أعظم من هذا البستان؛ قال:

٣٦- ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا[2] مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾

انتقل الكافر المغتر بماله ومتاعه، من اعتقاده ببقاء بستانه، إلى غرور أشد وأشنع، وهو اعتقاده بنفي قيام الساعة، فقال: وما أعتقد أن القيامة واقعة، فلا بعث ولا نشور كما تقولون، فأنكر فناء هذا العالم، وأنكر أن تفنى جنته، وأنكر البعث والنشور، ثم قال: ولئن فُرض وقامت الساعة -كما تزعم أيها المؤمن- فإنني سأجد عند ربي أفضل من هذه الحديقة؛ حيث يعطيني إياها بكرامتي ومنزلتي عنده، فكما أعطاني في الدنيا يعطيني في الآخرة.

وبهذا قال غيره من أهل الكفر والغرور: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ]. ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم].

وجاء في الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وهذا الكلام لا يخلو من أمرين، إما أن يكون على وجه التهكم والاستهزاء، فيكون فيه زيادة كفر على كفره، وإما أن يكون من باب الشك والظن، فيكون جهلا ونقصًا، إذ ليس

---

(١) لم يعد الشامي والمدني الأخير (هذه أبدا) آية، وعدها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (خيرًا منهما) بزيادة ميم بعد الهاء على التثنية، وبهذا رسم المصحف المدني والمكي والشامي، والباقون بحذف الميم وفتح الهاء، على الإفراد، والضمير على القراءة الأولى يعود على الجنتين، وعلى القراءة الثانية يعود على الجنة الموعود بها في الآخرة.

هناك تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أُعطى في الدنيا يعطى في الآخرة، بل الغالب أن الكافر يكون أوسع حظا في الدنيا من المؤمن.

٣٧- ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ[1] رَجُلًا﴾

أي: قال الرجل الفقير المؤمن في رده على صاحبه الكافر المغرور، منكرًا عليه جحوده للنعمة، وإنكاره البعث والنشور: كيف تكفر بالله الذي خلق أصلك -آدم- من تراب، فقد ذكَّره بنعم الله عليه، وبدلائل البعث والنشور، حيث ذكَّره بالخلق الأول؛ لأن من اعترف به لا ينكر الخلق الثاني ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧].

وذكَّره بذلك؛ لأن الأجزاء التي تتكون منها النطفة مستخلصة من تراب الأرض

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس].

ثم خلقك -أيها الإنسان- من نطفة الأبوين، ومرت هذه النطفة بأطوار خلق الإنسان التي فصَّلها في مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

ثم جعلك الله بشرًا سويًّا، معتدل القامة والخلْق، ذا سمع وبصر وعقل وإرادة واختيار، فكيف تجحدون ربكم، وهذه دلائل قدرته وعظيم صنعه ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة].

ولما رأى الرجل المؤمن، صاحبه الكافر مستمرًّا على كفره وطغيانه، قال مخبرًا عن نفسه على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه.

---

(١) أمال ألف (سواك) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلف عنه، وفتحها الباقون.

٣٨- ﴿لَّٰكِنَّا(١) هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ (٢) أَحَدًا ۝٣٨﴾

ثم يعلن الرجل الصالح عقيدته بشجاعة ووضوح، فقال لصاحبه الكافر: لكن أنا أعترف بوحدانية ربي وخالقي، ولا أقول بمقالتك الكافرة، فإن كنتَ قد كفرتَ بربك فإني لستُ بكافر، ولكني مؤمن بالله ورسُله وكُتبه واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره، وأنا مطيع لله تعالى، موحِّد له في عبادتي، وأنا لا أشرك بالله شيئًا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، فهو سبحانه المعبود بحق، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

قَوْلُ مَنْ نَظَرَ إِلَى شَيءٍ فَأَعْجَبَهُ، وَنِهَايَةُ الْحِوَارِ

٣٩- ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ(٣) أَنَا۠(٤) أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾

أرشد المؤمن صاحبه الكافر إلى ما كان يجب عليه أن يقوله عند دخوله جنته، فيقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ أي: وهلَّا حين دخلت حديقتك وأعجبك ما فيها من ثمار وأشجار وأنهار، حمدتَ الله تعالى على ما أنعم به عليك، وعلى ما أعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، فقلت: هذا من فضل الله، وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، إن شاء أبقاها وإن شاء أفناها، هذا ما شاء الله لي، ولا قوة لي على تحصيله إلا بالله.

والآية ترشد إلى أن من نظر إلى شيء فأعجبه فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ فإن في هذا رد الفضل والنعمة إلى الله تعالى، وفيه ردٌّ للحسد ودفْع له.

فعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل، أو مال ،أو**

---

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ورويس بإثبات ألف بعد النون من (لكنا) وصلًا ووقفًا، والأصل: لكن أنا، فحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال، وأدغمت النون في النون تخفيفًا، وقرأ الباقون بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا، تبعًا للرسم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (بربيَ أحدًا) والباقون بإسكانها، ومثلها في الآية (٤٢).

(٣) قرأ قالون والأصبهاني عن ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (إن ترن أنا) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (أن يؤتين) إلا أن ورشًا يثبتها وصلًا من الطريقين.

(٤) أثبت ألف (أنا) وصلًا نافع وأبو جعفر، وحذفها الباقون وصلًا وأثبتوها وقفًا.

ولد، فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فيرى فيه آفة دون الموت»[١].

ويمضي الرجل المؤمن قائلًا:

٤٠- ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا﴾

أي: فإني أرجو الله تعالى الذي لا يعجزه شيء أن يعطيني أفضل من حديقتك، ويرزقني ما هو خير منها في الدنيا والآخرة، فيقْلِب ما بي وما بك من الفقر والغنى، ويغير الأحوال ويبدلها، فيسلُب عنك النعمة؛ لكفرك بالله تعالى، ويرسل على جنتك -أي: بستانك- صواعق من السماء تدمرها، أو آفة تخرِّبها، فتصبح حديقتك أرضًا جرداء مستوية ملساء، لا تثبت عليها قدم، بلا نبات فيها ولا شجر، فلا يُنتفَع بها بوجه من الوجوه، حتى ولا بالمشي عليها.

فالحسبان: هو هلاك الجنتين بسبب آفة أو عذاب مدمر.

والزلَق: هو الأرض الملساء الجرداء، الخالية من الزروع والثمار، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾. واستمرَّ المؤمن قائلًا:

٤١- ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾﴾

أي: يصير ماؤها الذي تُسقى منه غائرًا في الأرض، ذاهبًا في أسفلها، فلا تقدر على إخراجه، ولا يكون في مقدورك أن تأتي بهذا الماء الغائر، ولا تطلبه بأية حيلة، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك].

وكان هذا الدعاء من المؤمن غضبًا لله تعالى لكون الكافر قد غرته دنياه وأطغته، لعله يرجع إلى ربه ويثوب إليه.

وبهذا يكون المؤمن قد ذكَّر الكافر بخَلْقه ونشأته، ووجَّهه إلى الأدب الذي يجب أن يتحلى به مع خالقه ورازقه، وحذَّره من سوء عاقبة بطَره.

وإلى هنا ينتهي الحوار بين الأخوين: المؤمن والكافر، وقد أجاب الله دعاء المؤمن

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» برقم (٤٥٢٥) من طريق الحسن بن صباح، عن عمرو بن يونس، ورواه أبو يعلى كما في «الدر المنثور» و«تفسير ابن كثير».

فأتلف الحديقة بثمارها ولم يبق منها شيء:

مَشْهَدُ الْبَوَارِ وَالدَّمَارِ

٤٢- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ[1] فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾

ثم تأتي المفاجأة المدهشة، فيحقق الله رجاء العبد الصالح بزوال النعيم عن الكافر، فينتقل السياق من مشهد البهجة والازدهار إلى مشهد البوار والدمار، ومن حال البطر والاستكبار إلى حال الندم والاستغفار، فقد أحاط الهلاك والخراب بحديقتيه، وأحدق بهما من كل جانب، فغار الماء، وهلَكت الأشجار والزروع والثمار، حيث أرسل الله عليهما عذابًا من السماء، فهلكت الأنعام وسُلبت الأموال، وتلفت الثمار، وأصبحتا صعيدًا زلقًا، مقتلعة الأشجار، قد زال نفعها وغرق زرعها.

وتملَّكته الحسرة والندامة، فأصبح يَضْرب كفًّا بالأخرى، ويُقلِّب ظاهر كفَّيْه وباطنهما أسفًا وحزنًا على ماله الضائع، وما أنفقه من أموال على هاتين الحديقتين حتى أثمرتا وأينعتا، وقد تهدَّمتا على دَعائمهما، وسقط السقف على الجدران، وأصبحتا خرابًا خاليتين من الشجر والزرع والعروش، وصارتا حطامًا يابسًا هشيمًا تذروه الرياح، وهذا مثلٌ للخراب التام، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. قيل: إن الله تعالى أغرق هاتين الجنتين في يوم وليلة، وأن مكانهما الآن بحيرة تُسمَّى: بحيرة تنيس[2].

وبعد أن أفاق الرجل من صدمته قال: يا ليتني عرفت نعم الله وقدرته، فلم أشرك به أحدًا.

وهذا يوحي بأنه قد ندم وتاب من شركه وكفره، ومن جحوده وبطره للنعمة، وأنه قد دخل في الإيمان، فإن منْ شروط التوبة أن تكون قبل الغرغرة، وقبل طلوع

---

(١) قرأ عاصم وأبو جعفر وروح بفتح الثاء والميم من (بثمره)، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وإسكان الميم، والباقون بضم الثاء والميم.

(٢) نسب ابن عطية ذلك إلى إبراهيم بن القاسم الكاتب، في كتابه «عجائب البلاد»، انظر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥١٥).

الشمس من مغربها، ولم يحدث شيء من ذلك للرجل، وقد قال تعالى بالنسبة للمشركين: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة]. ولاشك أن هذا الكافر لو هلك وزالت عنه دنياه، وانفرد بعمله لتمنى أنه لم يكن قد أشرك بالله وكفر به.

التَّعْقِيبُ عَلَى الْقِصَّةِ

٤٣- ﴿وَلَمْ تَكُن[(١)] لَّهُۥ فِئَةٌ[(٢)] يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾

ثم جاءت هذه الآية من باب العظة والتنبيه والتذكير، والعبرة المستفادة من هذه القصة، أو من هذا المثل المضروب للأغنياء الذين يترفَّعون عن مجالسة الضعفاء الفقراء، ويرون أنهم أدنى منهم منزلة، فبيَّن سبحانه أنه لم تكن لهذا المغرور بماله، المفتون بحاله - جماعة ممن افتخر بهم ينصرونه، ويمنعونه من عقاب الله النازل به، وما كان هو قادرًا على الامتناع مما نزل به في إهلاك حديقته، ولا منتصرًا لنفسه بقوته من انتقام الله منه، بل زالت عنه دنياه وزال عنه ما كان يغتر به، فلم تنفعه عشيرته التي اعتزَّ بها، ولم ينفعه ماله الذي افتخر به، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧]. قال تعالى:

٤٤- ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ[(٣)] لِلَّهِ ٱلْحَقِّ[(٤)] هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا[(٥)] ﴿٤٤﴾﴾

وفي هذا المقام، وهذه الشدائد، وفي مثل تلك الحالة، فإن الولاية والنُّصرة والمنَعة والقوة لله وحده، فلا يقدر على منع العقوبة عن أحد إلا الله، فولايته ونصرته هي الحق والصدق، وغيرها زائف وباطل، كما قال تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]. هو خير

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لم يكن) بالياء، والباقون بالتاء، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

(٢) أبدل أبو جعفر همزة (فئة) ياء وحمزة وقفًا، وحققها الآخرون.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر الواو من (الولاية)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٤) قرأ أبو عمرو والكسائي برفع القاف من لفظ (الحق)، على أنه صفة للولاية، أو خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو الحق، أو أنه مبتدأ والخبر محذوف، تقديره: أي الحق ذلك، بمعنى: الحق ما قلناه، والباقون بالجر، على أنها صفة للفظ الجلالة.

(٥) قرأ عاصم وحمزة وخلف بسكون القاف من (عقْبا)، والباقون بضمها.

جزاء لمن آمن في الدنيا والآخرة، وخير عاقبة لمن تولاهم، وكل مؤمن وكافر يرجع إلى الله وحده ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، فمن كان مؤمنًا تقيًا، كان الله له وليًّا، يكرمه ويدفع عنه الشرور، ومن كان شقيًّا مواليًا للشيطان، خسر دينه ودنياه.

مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

٤٥- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ(١) وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾

وكيف يتطاول الغني على الفقير، ويتعالى ويتكبر عليه، وكيف يغتر الإنسان بماله ويعتز بدنياه وهي إلى زوال؟!

والله ﷻ في نهاية قصة المشرك المغتر بحديقته، المنكر للحساب والجزاء، يعقِّب عليه بذكر مَثَلٍ لما في الدنيا من زخرف ومتاع، مصيره إلى سرعة زوال، فيأمر نبيه ﷺ أن يضرب للناس مثلًا، سِيَّمَا المتكبرين منهم، بأن صفة الدنيا التي اغتروا بها في بهجتها وسرعة زوالها، كماء أنزله الله من السماء على الأرض، فخرج به النبات، واختلط بعضه ببعض، وأنبتت من كل زوج بهيج، وما هي إلا مدة يسيرة، وبينما هي في زخرفها وبهجتها للناظرين، إذ اصفرَّ لونها وذبُل ويبس، وأصبح هشًّا يابسًا تَنسفه الرياح بعد نُضرته وخُضرته، فأصبحت غبراء ترابًا.

وهكذا الدنيا تنتهي وتزول، بعد أن فارق الإنسان الشباب، وذهب الدرهم والدينار، واقتطف من اللذات والشهوات، وظن أنه كذلك سائر أيامه، وإذ بالشيخوخة وضعْف الشهوات، وانصراف الخلَّان، وزوال السرور والحبور، فأصابه الموت، وأصبح كهيئة الهشيم المتفتت من العشب اليابس، كما قال تعالى: ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]. ثم يصير حطامًا يابسًا تذروه الرياح.

وذلك لأن قدرته سبحانه عظيمة، لا يعجزها شيء، وهو القادر على الإحياء والإماتة.

فالآية تشبِّه حال الدنيا في نُضرتها وحُسنها وبهجتها، وما يعقُبها من الفناء وسرعة

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (الريح) بالإفراد، والباقون (الرياح) بالجمع.

الزوال، بحال النبات يكون أخضرَ، ثم يصفرُّ، ويذبل، ويتكسر، ويتفتت، فتطير به الرياح، ويصبح كأن لم يكن، وقد جاء هذا المثل في آيات كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر].

على أن الحياة الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع مشروع، ليست شرًّا، ولا محرمة على العبد، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

الدنيا لا تُطلَّق:

وليس من منهج الإسلام طلاق الدنيا وتركها للعابثين المجرمين، كما قال قائلهم:

إنَّ لِـلَّـهِ عِـبَـادًا فُـطُـنـا طَـلَّـقُـوا الـدُّنْـيَـا وَخَـافُـوا الْـفِـتَنَا

فمن قال للمؤمن: طلِّق الدنيا؟ والله تعالى خلق للناس ما في الأرض جميعًا، ونصَّ الشرع على المحرمات من المطاعم والمشارب والملابس وغيرها، كالخمر والخنزير، ولبس الحرير، والذهب بالنسبة للرجال... إلخ.

والله تعالى لم يحرم الثراء على عباده الصالحين ليختص به المجرمون، فنعم المال الصالح للعبد الصالح، والتمكين للمؤمن في الأرض، وارتقاؤه إلى أعلى المناصب يكون دعمًا

للحق، وعونًا للضعفاء، كما قال تعالى عن يوسف ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف].

ودراسة الأرض، واستخراج كنوزها، وغزو الفضاء، والتعرف على كل ما فيه تعريف للناس بربهم، من شأنه أن يجعل الإيمان يتدفق ويزدهر في قلوب العباد، ولكن الحضارة الغربية الحديثة، صنعت أجيالًا ارتبطت بحطام الدنيا، واستبعدت الآخرة من حسابها؛ فهي لا تبصر شيئًا وراء هذه الحياة، كما قال هذا الكافر المغرور: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ ولذا فإن المكافأة على هذا التطاول عند رب العالمين أن يكون العبد حطب النار في الآخرة.

لقد كان الانهماك في الإقبال على نعيم الدنيا هو السبب الصارف عن إعمال العقول في فهم أدلة التوحيد والبعث، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل].

وقال في وصف الجاحد المعاند المكابر: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم].

وهؤلاء هم الذين يزعمون أن هذا العالم غير آيل إلى الفناء ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]. وكان صاحب الجنتين واحدًا من هؤلاء.

ولذا: فإن الله تعالى ضرب في نهاية قصته مثلًا للحياة الدنيا التي اغتر وفُتن بها، فما أسرع زوالها! وما أسرع انقضاءها!

أما صاحب المال الذي يسانده الإيمان، ويحدوه الرفق والتواضع، وترشيد الإنفاق منه في وجوه الخير، فهو عابد، تُمدَح دنياه ولا تُذم، فليس عنده جنون الشره، ولا عبادة المال، ولا التعلق بالحطام، ولا يمنعه الغنى من التمسك بالآداب الفاضلة.

جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت ﷺ مرفوعًا: **«من كانت الآخرة همه ،جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له، فلا يمسي إلا فقيرًا، ولا يصبح إلا فقيرًا، وما أقبل عبد على الله بقلبه، إلا جعل الله قلوب العباد تنقاد إليه**

بالودِّ والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع»[1].

الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ مِنَ المَالِ وَالْبَنِينَ

٤٦- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

وبعد أن بيَّن الله ﷻ أن هذه الدنيا وما فيها من زخرف ومتاع إلى زوال سريع، بيَّن جلَّ شأنه أن الزينة تتمثل في **عنصرين أساسيين**، هما:

المال، والبنون، فهما مصدران للجمال والقوة في الحياة، وهما أيضًا سبب الفتنة ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

والمال: اسم لكل ما يتموَّله الإنسان، ويتملَّكه، من النقود والعقار والحرث والأنعام، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران].

وهكذا فإن في الدنيا نوعان: نوع يزول بعد الانتفاع به قليلا وهو المال والبنون، ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهو الباقيات الصالحات.

ثم إن الله تعالى وجَّه عباده إلى العمل الذي يبقى ويثمر، ويعود على الإنسان بالفائدة الدائمة التي لا تنقطع، وهو العمل الصالح المتمثل في الباقيات الصالحات، بما يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

أحاديث في الباقيات الصالحات:

والباقيات الصالحات هي أعمال الخير، من الفروض والنوافل، ووجوه البر والطاعات، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، ومن ذلك التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والحوقلة، أي: قول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

---

(١) «المسند» (٢١٥٩٠)، بإسناد صحيح (محققوه)، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٤) وفي الزهد (١٦٣) وابن حبان (٦٧) والدارمي (٢٢٩) وأبو داود (٣٦٦٠) وابن ماجه (٤١٠٥) والطبراني في الكبير (٤٨٩٠،٤٨٩١) والبيهقي في الشعب (١٧٣٦) والترمذي (٢٦٥٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٦٠٠).

١- فقد جاء في حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: **«استكثروا من الباقيات الصالحات»**، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: **«التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ولا حول ولا قوة إلا بالله»**[١] أي: هذه الخمس المذكورة

٢- وجاء في الأثر: إنكم إن عجزتم عن مكابدة الليل ومجاهدة العدو، فلا تعجزوا عن قول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[٢].

٣- وفي صحيح مسلم، وغيره: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»**[٣].

٤- وتوضأ عثمان ﷺ، ثم أخبر أنه رأى رسول الله ﷺ يتوضأ مثل وضوئه، ثم قال: من توضأ وضوئي هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر غُفِر له ما كان بينها وبين الصبح -وذكر بقية الأوقات- ثم قال: وهُنّ الحسنات يذهبن السيئات، قالوا: هذه الحسنات، فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله[٤].

٥- وجاء عن رسول الله ﷺ من حديث أبي سلمى، راعي رسول الله ﷺ أنه قال: **«بخٍ بخٍ لخمس، ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يُتَوَفَّى، فيحتسبه والده، بخٍ بخٍ لخمس، من لقى الله مستيقنًا بهن دخل**

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٣/ ٧٥) من حديث دراج برقم (١١٧١٣) وهو حديث حسن لغيره، (محققوه) والطبري في التفسير (١٥/ ١٦٧) عن أبي سعيد، وأخرجه أبو يعلى (١٣٨٤) وابن حبان (٨٤٠) والحاكم (١/ ٥١٢)، والطبراني في الدعاء (١٦٩٦) والبغوي في شرح السنة (١٢٨٢) والبيهقي في الشعب (٦٠٥).

(٢) أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة كما في «الدر» (٩/ ٥٥٥).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٩٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٨).

(٤) تفرد به أحمد في «المسند» (١/ ٧١) برقم (٥١٣) قال الشيخ محمود شاكر في حاشية الطبري: إسناده صحيح، ورقمه: (١٨٦٦٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٩٧): رجاله رجال الصحيح غير الحارث مولى عثمان وهو ثقة، وأخرجه البزار (٤٠٥) والطبري (١٢/ ١٣٢) وحسّن إسناده محققو المسند، وفيه الحارث أبو صالح، مولى عثمان، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح.

الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب»[1].

٦- وقال ﷺ فيما يرويه شداد بن أوس ﷺ: **«إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»**[2].

٧- وعن سمُرة بن جُندُب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرُّك بأيهنَّ بدأت»**[3].

وورد هذا التفسير عن عدد من الصحابة: كعثمان، وعلي، وابن عباس ﷺ، وعن عدد من التابعين: كسعيد بن المسيب، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير وغيرهم، وهذه الألفاظ الأربعة تدخل ضمن الأعمال الصالحة، فهي منها.

أخرج الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلَّى الله على رسول الله، والصلاة، والصيام، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات، وهن الباقيات الصالحات التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» عن أبي سلّام عن مولى لرسول الله ﷺ هو أبو سلمى راعي رسول الله ﷺ (٤/ ٢٣٧) برقم (١٥٦٦٢، ١٨٠٧٦) وعن رجل برقم (١٥٨٨٣) وهو حديث صحيح رجاله رجال الصحيح (محققوه) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٨): رجاله رجال الصحيح.

(٢) من حديث شداد بن أوس في «المسند» (٤/ ١٢٣) برقم (١٧١١٤) و«سنن النسائي» بنحوه برقم (١٢٢٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٧١) وابن حبان (٩٣٥) والطبراني (٧١٥٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢٦٦) والحاكم (١/ ٥٠٨) قال محققو المسند: حديث حسن بطرقه، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، حسان بن عطية لم يدرك شداد بن أوس، ورجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، فقد أدخل مسلم بن مشكم بين حسان وبين عطية بن شدّاد.

(٣) مسلم (٢١٣٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٤٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٨١، ١٠٦٨٢) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٤٤).

والله ﷻ يبيِّن لنا أن ما في الدنيا من مال ومتاع، زينة زائلة لا تنفع في القبر، ولا تنفع في الآخرة، إلا بما يقدِّمه العبد لنفسه من عمل صالح، بما ينفق من هذا المال ويدَّخره لنفسه، وبما يُربِّي عليه ولده من تربية حسنة، بحيث تعود عليه منه دعوة صالحة بعد مماته، وهذا مما يرجوه العبد من ثواب ينال به في الآخرة ما كان يؤمله في الدنيا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

فالمال والبنون زينة في الدنيا فقط، والذي يبقى هو الباقيات الصالحات، فهي خير عند ربك ثوابًا وخير أملًا، فهي أفضل من المال والبنين.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ تَسْيِيرُ الْجِبَالِ

٤٧- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ[1] ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾

وما دام الحديث عن الباقيات الصالحات، فالله ﷻ يتحدث عن يوم القيامة، وفيه يكون الوزن والثواب لهذه الباقيات الصالحات، فيوم القيامة، يوم تتبدل فيه الأحوال، وتتغير فيه الأوضاع، حتى إن الجبال الشُّمَّ، وهي أوتاد الأرض، لَتُصْبح في خفتها كالصوف المنفوش حين يتطاير في الهواء.

١- قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه].

٣- وقال عز وجل: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ].

٤- وقال أيضًا ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطور].

٥- وقال سبحانه ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة].

٦- وقال جل شأنه ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بتاء مضمومة وياء مشددة مفتوحة في (تُسيَّر)، على البناء للمفعول ورفع (الجبالُ) نائب فاعل، والباقون (نُسيِّر الجبالَ) بنون مضمومة، وياء مشددة مكسورة، على البناء للفاعل، والجبالَ مفعول به، منصوب، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى.

فاذكر -يا رسولنا- يوم الانقلاب الكوني الكبير، وما يحدث فيه من الأهوال والشدائد، ويكون ذلك بانقراض هذا العالم وإقبال عالَم آخر، وذلك حين نُسَيِّر الجبال ونزيلها عن أماكنها، فنجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحلّ وتتلاشى حتى تصير هباءً مُنبثًّا، ثم تبرز الأرض فتصير الجبال قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، بعد أن ينسفها ربي نسفًا وترى الأرض بعينيك بارزة ظاهرة، لا يسترها شيء، فليس هناك شيءٌ يُختبأ وراءه، وليس هناك شيء يحجُب الإنسان، فالأرض بما عليها من مبانٍ وعمارات وجبال وأشجار وغير ذلك، كل شيء قد زال عن مكانه، وكل ما فيها من مرتفعات ومنخفضات قد سُوِّي بالأرض، فأنت ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه].

ويوم القيامة يُحشر الخلق جميعًا في ساحة العدل الإلهية، ويؤتى بهم من شتى أرجاء الأرض للحساب والجزاء، ولا نترك منهم أحدًا

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود].

يجمع الله الأولين والآخرين بعدما تفتّتوا وتمزقوا، ويعيدهم خلقًا جديدًا، فيعرضون على ربهم صفًّا لينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العادل.

وهذه الآية جمعت **ثلاثة أهوال** من أهوال يوم القيامة:

الهول الأول: نسف هذه الجبال الراسخة وتسييرها كالهباء.

الهول الثاني: استواء الأرض وخُلُوّها من كل ما عليها.

الهول الثالث: حشر الخلق جميعًا، وجمعهم في عرصات القيامة وساحة العدل الإلهية.

الْعَرْضُ فِي سَاحَةِ الحَشْرِ

٤٨- ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ(١) جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾

(١) أدغم الدال في الجيم من (ولقد جئتمونا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

أما الهول الرابع: فهو عَرْضُ الخلائق جميعًا وقيامهم بين يدي رب العالمين يوم القيامة، مصْطَفِّين صفوفًا كهيئتهم في الصلاة، كل أمة أو زمرة، صفًا، لا يحجبهم حاجب، ولا يحجب أحد أحدًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ].

ويكون العرض على رب العالمين بعد البعث والحشر في صفوف منتظمة بارزين، ليس هناك ما يحجب أحدًا من الخلق، لا حجر ولا شجر ولا بناء.

١- في الأثر مرفوعًا: عن معاذ بن جبل ﷺ أن الله ﷻ يقول يوم القيامة: «**يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفًا، على أطراف أنامل أقدامهم للحساب**».

٢- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفًا، يسمعهم الداعي وينفُذهُم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول الناس لبعض: عليكم بآدم**»[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر].

لقد بُعثتم وجئتم إلينا فرادى، حفاة عراة، لا مال ولا ولد، ولا جاه ولا منصب، ولا زوجة، ولا شفعاء، وجئتمونا كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم، تركتم ما أعطيناكم في الدنيا، وجئتم حفاة عراة.

٣- في البخاري، وغيره: عن ابن عباس ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «**يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلًا** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ألا إن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة: إبراهيم ﷺ، ألا وإنه سيُجاء برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: كما قال العبد الصالح:

(١) بطوله أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢) ومسلم برقم (١٩٤) عن أبي هريرة.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة] قال: فيقال لي: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[١].

وفي حديث وكيع، ومعاذ: «**فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[٢].

٤- وفي البخاري وغيره: عن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلًا**»، قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «**يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»[٣].

زاد النسائي: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

والغُرل: هو المختون، مقطوع القلفة التي تؤخذ من جلدة الذكر.

والبُهم: هو الذي لا شيء معه، وأهل الردة، من ارتدوا عن الإسلام - والعياذ بالله.

ثم انتقلت الآية إلى تعنيف أشد وأقسى، وهو إنكار البعث والتكذيب به، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]. حيث ظن المشركون أن الله تعالى لم يجعل لهم موعدًا للبعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقوله: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم].

ولما أنكر المكذبون بالبعث والحساب والجزاء على الأقوال والأعمال، تحقق وعد الله تعالى ووعيده، فهذه صحف الأعمال التي سجّلتها الملائكة، تطير لها القلوب، وتعظُم لها الكروب، ويشفق منها المجرمون، يوم يقوم الناس لرب العالمين:

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٤٧، ٤٦٢٥، ٤٧٤٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢٧) ومسلم برقم (٢٨٥٩).

نَشْرُ الصُّحُفِ

٤٩- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى[1] ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

وأُحضرت صحف الأعمال، وجيء بالنبيين والشهداء، وجَمع الله الأولين والآخرين، جَمع الله الرسل وجَمع الأمم ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ أي: جيء باللوح المحفوظ، وهو الأصل، وجيء بصحف العباد، كلٌّ يأخذ كتابه، فالمراد: صحف العباد التي سجلها الحفظة عليهم، المؤمن يأخذ كتابه بيمينه، نسأل الله ذلك، والكافر يأخذه بشماله، نعوذ بالله من ذلك.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق].

والمجرم الذي ظلم نفسه، وأسرف على نفسه بالكفر والمعاصي، وأخذ كتابه بشماله، خائف وَجِل مما يقرؤه في صحيفة أعماله ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ حين يقرؤون الكتاب ويقولون ندمًا وتحسرًا: يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لم يترك صغيرة من أعمالنا ولا كبيرة إلا أحصاها وأثبتها؟! كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]. ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة].

والنصوص الشرعية تفيد: أن المؤمن الذي يحافظ على الصلوات الخمس، وصلاة الجمعة، ويؤدي زكاة ماله، ويحج ويعتمر، ويصوم رمضان، فإن هذه الأعمال تكفِّر ما بينها من صغائر الذنوب، كما أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

أما الذي يصر على الذنوب الصغيرة، ويتهاون بها، ويستمر على فعلها مع العزم عليها،

---

(١) أمال حمزة والكسائي وخلف وأبو عمرو وابن ذكوان بخلف عنه الراء من (فترى المجرمين) عند الوقف عليها، وقللها ورش، وأمالها عند الوصل السوسي بخلف عنه.

فإن هذه الذنوب الصغيرة تجتمع على العبد يوم القيامة حتى تهلكه.

في أعقاب غزوة حنين، جلس النبي ﷺ وطلب من أصحابه أن يجمعوا له أعوادًا من حطب، وفي ساعة واحدة جمعوا له شيئًا كثيرًا، فقال ﷺ فيما يرويه سهل بن سعد رضي الله عنه: **«إياكم ومُحَقَّرات الذنوب، فإنما مثَل محقرات الذنوب، مثَل قوم نزلوا بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خُبْزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهلكه»**[1].

فقد بيَّن النبي ﷺ أن من يستقل الذنب الصغير، ويصير تافهًا يسيرًا في نظره، فهو بالنسبة له من الموبقات، أي: من كبائر الذنوب المهلكة؛ لأن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، بالنسبة لمن أصر وداوم عليها، وكل إنسان يجد ما قدَّمه في صحيفة عمله، فيتمنى أن يقترب منه عمله الصالح، ويبتعد عنه عمله السيئ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. فهو يتمنى أن يفارقه هذا العمل السيئ، وأن يكون بينهما أمد بعيد ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فلا تزر وازرة وزر أخرى، وليس هناك من صاحب ذنب يزاد في سيئاته، ولا صاحب حسنات ينقص من أجره، وعندئذ يحاسبون، ويجزوْن بأعمالهم وما قدمت أيديهم من خير أوشر.

ومعنى الآية: ووُضِع كتاب أعمال كل واحد في يمينه أو شماله، وعُرِضت عليهم أعمالهم، فتُبصر العصاة يومئذ خائفين من صحائف أعمالهم؛ بسبب ما قدموه من الجرائم والخطايا، وحينما يعايِنُون أعمالهم القبيحة في صُحفهم يندمون ويتحسرون، ويخافون من العقاب ويقولون: يا هلاكنا، ثم يتعجبون من كون هذا الكتاب لم يترك صغيرة ولا كبيرة من أفعالهم وأقوالهم إلا أثبتها وسجلها.

ووجدوا ما عملوه في الدنيا مسجَّلًا ومسطَّرًا، حاضرًا مثبتًا أمام أعينهم، يجازيهم الله عليه من ثواب أو عقاب، من غير نقص في ثواب المطيع، ولا زيادة في عقاب العاصي، بل يغفر سبحانه ويصفح ويرحم، ويعذِّب من يشاء بعدله وحكمته.

---

(١) «المسند» (٢٢٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٨٧٢) و«الأوسط» (٧٣١٩) و«الصغير» (٩٠٤) والبيهقي في «الشعب» (٧٢٦٧) والبغوي في «شرح السنة» (٤٢٠٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [النساء].

جاء في حديث عبد الله بن أنيس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلًا بُهْمًا**»، قلت: وما بُهْمًا؟ قال: «**ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعُد، كما يسمعه من قرُب: أنا الملك، أنا الدَّيَّان، لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أَقُصَّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وله عند رجل من أهل النار حق حتى أَقُصَّه منه، حتى اللَّطْمة**»، قال: قلنا: كيف؟ وإنما نأتي الله عراة غرلًا بُهْمًا؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**»[1].

وقد اشترى جابر بن عبد الله ﷺ بعيرًا وسار عليه شهرًا إلى الشام؛ ليسأل ابن أنيس عن هذا الحديث، وقال له: خشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه.

عَدَاوَةُ الشَّيْطَانِ وَذُرِّيَّتِهِ لِبَنِي آدَمَ

٥٠- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ[2] ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ۝٥٠﴾

قال بعض أهل العلم: إذا كانت الخطيئة أو المعصية التي يرتكبها الإنسان بسبب الكِبْر، فإنه لا تُرجى له توبة، كما وقع ذلك من إبليس، فقد كان امتناعه عن السجود وعدم امتثاله لأمر الله تعالى؛ بسبب كِبْره وعُلُوِّه على آدم عليه السلام.

وكما يحدث ذلك من اليهود، والنصارى، وسائر الكفار والمشركين، الذين لم يؤمنوا بخاتم الرسل ﷺ، عنادًا وجحودًا وكبرًا، وما منعهم من الإيمان به إلا الكبر.

قالوا: وإذا كانت الخطيئة أو المعصية التي يرتكبها الإنسان بسبب الشهوة ونحوها، فإن توبتهم تُرتجى، ولذا كانت معصية آدم عليه السلام حين أكل من الشجرة بسبب شهوة نفسه،

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٥) برقم (١٦٠٤٢)، بإسناد حسن، وأخرجه الحافظ في تغليق التعليق (٥/ ٣٥٥) وهو عند الحاكم (٢/ ٤٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وابن عبدالبر في بيان العلم ص (١٢٢) وابن أبي عاصم في السنة (٥١٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بخلف عن ابن وردان بضم التاء وصلًا من (للملائكة اسجدوا) وقرأ ابن وردان في وجهه الثاني بإشمام كسرتها للضم، والباقون بالكسر الخالص.

وسرعان ما رجع إلى ربه فتاب، وقَبِلَ الله توبته.

والآية التي تتحدث عن المعصية سيقت بمناسبة الحديث عن المتكبرين من أرباب الجاه والأموال، ممن أَنِفوا واستكبروا عن مجالسة الضعفاء والفقراء، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يُبعدهم عن مجلسه؛ حتى ينفردوا بالجلوس معه.

وكما وعظنا الله تعالى بأول أيام الآخرة في الآيات السابقة، ذكَّرنا في هذه الآية بأول أيام الدنيا، حين خُلق آدم عليه السلام، وفي هذا تمهيد وتوطئة لقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية [٥٢].

فضرب الله سبحانه مثلًا بِكِبْر صاحب الجنتين وترفُّعه على أخيه.

وضرَب مثلًا - ثانيًا - بقيمة هذه الحياة ووزْنها عند الله سبحانه.

وضرَب مثلًا - ثالثًا - بِكِبْر إبليس، وبيّن أن هذا الكبر، هو السبب الذي من أجله طُرد إبليس من الجنة، وخرج من رحمة الله سبحانه، وقد ذُكرت هذه القصة كثيرًا في القرآن، وفي كل مرة تشتمل على شيء لا تشتمل عليه في المواضع الأخرى.

والآية نص صريح في أن إبليس لم يكن من الملائكة، وأنه كان من الجن، فكل ما استتر عن العين فهو جِنٌّ، ولذلك فإن الملائكة يقال لهم: جِنَّة؛ لأنهم أيضًا مستترون عن العين لا نراهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

والجِنَّة هم الملائكة، وكانت قريش تقول: الملائكة بنات الله.

وإبليس خُلق كما ذكر القرآن الكريم من مارج من نار، قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن].

وخُلِقت الملائكة من نور، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**خُلِقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم**»[1].

وآدم أصل البشر، وإبليس أصل الجن، فهو مخلوق من عنصر آخر، وخُلق الإنسان مما

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٦).

وُصِف لكم، أي: من التراب والطين، والملائكة معصومون من الكفر الذي وقع فيه إبليس، فليس في وُسعهم أن يَعْصوا ربهم، ولا أن يفسُقوا، أو يخرجوا عن طاعته سبحانه، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقد فسق إبليس وخرج عن طاعة الله سبحانه بامتناعه عن السجود لله الذي خلق آدم، أو من سجوده سجود تحية لآدم.

قيل: إن المراد بالسجود: السجود المعروف بوضع الجبهة على الأرض كما في الصلاة، وهو سجود عبادة لله تعالى وتحية لآدم.

وقيل: المراد بالسجود: الانحناء والإيماء نحو الأرض.

وكان إبليس مخالطًا للملائكة ومقيمًا بينهم، وكان يتوسم أفعالهم ويتشبه بهم، ويتعبَّد ويتنسَّك مثلهم.

ولذا فإنه دخل في الخطاب الذي وجهه الله تعالى إلى الملائكة بأمره لهم بالسجود لآدم، وعندئذ نضح كل إناء بما فيه: فاستجابت الملائكة، وعصى إبليس ربه فخالف أمره، فاستكبر وكان من الكافرين، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ الأعراف:١٢] وقال ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء] فتبين بهذا عداوته لله، وعداوته لآدم، وعداوته لذريته، فكيف تتخذونه وذريته أولياء من دون الله.

ولذا: تعجب الله سبحانه في الآية ممن يتبع خطوات الشيطان، ويسلك طريقه، بعد أن ظهر له خروج إبليس عن طاعة ربه، ولإبليس ذرية يتبعون نهجه، وينفذون أمره.

وقد جاء عن مجاهد أن من ذريته (الأعور) الذي يحبب في الزنى، و(ولهان) موسوس الطهارة، و(مطوس) مزيِّن الأراجيف، و(داسم) يأكل مع كل من لم يسمِّ الله، و(زلنبور) يزيِّن اللغو والحلف الكاذب، وفي الحديث: أن موسوس الصلاة اسمه (خنزب) وهكذا:

١- أخرج الترمذي عن أُبَيِّ بن كعب ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن للوضوء شيطانًا يقال له: الولهان، فاتقوا وساوس الماء**»[1].

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٥٧) قال أبو عيسى: حديث أُبَيِّ بن كعب، حديث غريب وليس إسناده بالقوي عند أهل الحديث؛ لأنا لا نعلم أحدًا أسنده غير خارجة، وقد رُوِي هذا من غير وجهٍ عن الحسن، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مغفَّل.

٢- وفي صحيح مسلم: عن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وبين قراءتي يُلَبِّسها عليَّ، فقال رسول الله ﷺ: **«ذاك شيطان يقال له: خِنْزَب، فإذا أحسسته فتعوَّذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثًا»**، قال: ففعلت ذلك فأذهبه الله عني[١].

٣- وفي صحيح مسلم: عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئًا، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركتُه حتى فرَّقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْم أنت»** قال الأعمش: أراه قال: **«فيلتزمه»**[٢] أي: يحتضنه ويقبِّله.

ولذا يقول سبحانه: بعد أن تبيَّن لكم هذا، أفيصح منكم أن تتخذوا إبليس وذريته أولياء من دوني، فتتبعوا إشاراتهم وتطيعوهم وتقدِّموهم على موالاة الله سبحانه، وهم الذين استبدلوا بطاعة الله طاعة إبليس وأعوانه؟! وقد نهاهم الله عنها في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأعراف]

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. فبئس ما اختار الإنسان لنفسه من ولاية الشيطان، وهو لا يأمر إلا بالفحشاء، والمنكر، ولا يفعل ذلك إلا ظالم لنفسه ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٣).

اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ

٥١- ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ(١) خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ(٢) مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾

والله جلَّ شأنه هو الذي تفرَّد بخلق هذا العالم، ورزَقه وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠].

وهو سبحانه لم يُحْضِر أحدًا من الشياطين، ولا من المضلين، ولا من الجن وذريتهم، وقت هذا الخلق، ولم يشاركه أحد في الخلق والإلهية، فقد خلق الله السموات والأرض قبل خلْق سُكَّانهما، ولم يحضُرْه أحد، فيشاهده أو يشاوره، أو يستعين به على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما وإنما انفرد سبحانه بخلْق هذا الكون.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ أي: لم أُحضرْهم، ولم أستشرْهُم، ولم أستعن بهم على ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولا على خلق بعضهم، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ عن سبيلي من الشياطين وغيرهم أعوانًا وأنصارًا في شأن من شؤوني، فكيف تطيعونهم من دون الله؟! وليس له سبحانه وزير ولا مُعين، ولا أحد يشاركه في خلقه، فهو سبحانه الذي ينفرد بالعبادة، وغير الله تعالى لا يملك مثقال ذرة في هذا الكون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ].

وكان أهل الجاهلية يعتقدون أن في الأرض جِنًّا يتصرفون فيها، فكانوا إذا نزلوا واديًا مهجورًا يستعيذون بعزيز هذا الوادي، أي: بسيده من الجن؛ ليكونوا في مأمن من ضُره، وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ [الجن] أي: زادوهم خوفًا على خوفهم.

---

(١) قرأ أبو جعفر (ما أشهدناهم) بنون بعدها ألف، على الجمع، والباقون (ما أشهدتُهم) بالتاء المضمومة من غير ألف، على إسناد ضمير المتكلم إلى الله تعالى.

(٢) قرأ أبو جعفر بفتح التاء من (وما كنت) خطابًا للنبي ﷺ، والمراد: أمته، والباقون بضم التاء إخبارًا من الله تعالى عن ذاته المقدسة.

فهؤلاء الشياطين الذين عبدهم بعض الناس من دون الله، لم يشهد بعضهم خلق بعض، فقد خُلقت السموات والأرض قبل وجودهما، ولم يكونوا شركاء أو أعوانًا لله تعالى في شيء من مخلوقاته، وهم لا يملكون جلب نفع لكم، ولا دفع ضر عنكم، فهم عبيد أمثالكم، فكيف تطيعونهم من دون الله؟!

إن ذلك لا يليق بالكمال الإلهي المطلق، فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، ولا يليق بصاحب الكمال المطلق أن يتخذ له أعوانًا وأنصارًا ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: أعوانًا وأنصارًا، كما قال تعالى عن نبيه موسى ﷺ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]. وقد تبرأ موسى ﷺ من أن يكون ناصرًا ومعينًا للمجرمين ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص].

عَجْزُ الآلِهَةِ عَنْ إغَاثَةِ مَنْ عَبَدُوهُمْ

٥٢- ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ(١) نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾

ولما أبطل الله الشرك وذكر حال المشركين، حكم عليهم بالجهل والسفه، وهذه الآية فيها وعيد لكل من أشرك بالله تعالى، وقد بيَّن الله سبحانه فيها مشهدًا من مشاهد يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وهو الموقف الذي يكون بين الشركاء مع من أشركوهم مع الله تعالى، أي: بين العابدين والمعبودين.

وهذا انتقال من إبطال عبادة الشياطين والجن إلى إبطال إلهية جميع الآلهة التي عبدها المشركون، مع ما يعتريهم من الخزي يوم القيامة في عرصاتها، حيث يقال لهم: نادوا شركائي الذين أشركتموهم مع الله تعالى في عبادته كذبًا وافتراء، وزعمتم أنهم شركاء لله في أرضه، ادعوهم ونادوهم، فردًا فردًا بأسمائهم، فقد زعمتم أنهم شركاء لله في الطاعة والعبادة، ادعوهم لينصروكم اليوم مني، وليمنعوا عنكم العذاب وينفعوكم فاستغاثوا بهم، فلم يغيثوهم، ولم يجيبوهم ولم ينصروهم ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لأن الملك والحكم لله وحده.

---

(١) قرأ حمزة بنون العظمة في (نقول)؛ لمناسبة (وإذ قلنا)، وقرأ الباقون (يقول) بالياء على أن الفعل مسند إلى ضمير يعود على (ربك) من قوله تعالى: (وعرضوا على ربك صفا).

وقد وضَّح الله تعالى عدم استجابة مَنْ زعموهم شركاء لله سبحانه، إذا دعَوْهم يوم القيامة واستغاثوا بهم لينصروهم، ويمنعوهم من عذاب الله، فلم يستجيبوا لهم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص].

وقوله سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف]

ويوم القيامة يميز بين العابدين والمعبودين، كما قال تعالى:
﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

وقد بيَّن تعالى في هذه الآية أنه يُفصل يوم القيامة بين الناجين والهالكين، بواد عميق بين أهل الهدى وأهل الضلال، وبين أهل الجنة وأهل النار، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا، مهلكًا، وهو واد عميق يحجز ويفصل بين أهل الإسلام وغيرهم.

والموْبق: هو المهلك، يقال: أوبقه، أي: أهلكه، ومنه قوله تعالى:

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٤] أي: يهلكهن.

وفي الحديث: عن أبي هريرة: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»[١]، أي: المهلكات، وفي الحديث أيضًا: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[٢]، أي: مهلكها. **فالموبق**: اسم وادٍ في جهنم، فرَّق الله به بين الهالكين والناجين.

وعندئذ يتبيّن عداوة العابدين للمعبودين، ويتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]

---

(١) عن أبي هريرة في البخاري (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩) وأبي داود (٢٨٧٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٤٦٥).

(٢) من حديث أبي مالك الأشعري في صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) برقم (٢٢٣) وأوله «الطهور شطر الإيمان».

والتفرقة بين المؤمنين والكافرين في الدار الآخرة جاءت في آيات كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم].

وقوله: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس] أي: تميزوا عن المؤمنين.

وقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] أي: ميَّزنا، وفرقنا بينهم بحيث لا يتجاوز أهل النار مكانهم ولا يخرجون منه.

أما الشركاء الذين أشركوهم مع الله تعالى، من عباده الصالحين وأنبيائه، كعزير والمسيح والملائكة، ممن لم يرضوا ولم يقبلوا أن يكونوا شركاء مع الله تعالى، فهم في جنة الله، بخلاف الطواغيت الذين رضوا بالعبادة، أو لم يعرفوا شيئًا عنها، كالحجارة أو الأصنام والأوثان، فهي في النار مع من عبدوهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ العابد والمعبود كلاهما وقود النار يوم القيامة ﴿أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم أخبر سبحانه عمّن يرفضون عبادتهم من عباد الله الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ كالملائكة وعيسى وعزير ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ وهو الصوت من بعيد ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٢]. ولجهنم زفير وشهيق، كما بيَّن ذلك ﷺ. وبعد أن يتميز أهل الجنة من أهل النار، تحق كلمة العذاب على المجرمين، فيروْن جهنم قبل دخولها:

لَا بَدِيلَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنَ النَّارِ

٥٣- ﴿وَرَءَا(١) ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

والمجرمون يروْن النار الموبقة بأعينهم يوم القيامة، حين يؤتى بها تُقاد، أي: تُجَرُّ

---

(١) أمال الراء من (ورأى) وصلًا، شعبة وحمزة وخلف وهشام بخلف عنه، وأمال الراء والهمزة عند الوقف عليها ابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي وخلف، وأمال الهمزة وحدها أبو عمرو، وقلل ورش الراء والهمزة مع البدل في الهمزة.

بالسلاسل بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها، فإذا رأى المجرمون النار، أيقنوا بها وتحقق لهم أنهم واقعون فيها لا محالة، فهم يرون النار، والنار تراهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي أنها تحترق حنقًا وغضبًا، تريد أهلها ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

يقول سبحانه: ﴿لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان].

أخرج ابن حبان وغيره بإسناد حسن عن أبي هريرة ﷺ قال: «**ينصب للكافر يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل في الدنيا، وإن الكافر ليَرى جهنم، ويظن أنها مواقِعتُه من مسيرة أربعين سنة**»[1].

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ فأيقنوا أنهم داخلوها، كما جاء في قوله تعالى:
﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]

فهم سمعوا وأبصروا، ولكنهم لم يجدوا مصرفًا أو معدلًا عنها للانصراف إلى غيرها؛ إذ إنها أحاطت بهم من كل جانب، فلم يقدروا على الهرب منها، فقد أحدقت بهم من كل جانب: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

فليس هناك ملجأ من الله إلا إليه، وليس هناك من يمنعهم، ولا ينصرهم، ولا يحول بينهم وبين عذاب الله غيره سبحانه.

وهذا في غاية التخويف والترهيب بما ترتعدُ له الأفئدة والقلوب.

الْكَافِرُ لَا يَنْتَفِعُ بِهَدْيِ الْقُرْآنِ

٥٤- ﴿وَلَقَدْ[2] صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾

---

(١) ابن حبان في الإحسان برقم (٧٣٥٢) قال محققه: إسناده حسن، وأخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٧٥) عن أبي سعيد برقم (١١٧١٤) قال محققوه: حسن لغيره، والطبري (١٥/ ٢٩٩) وأبو يعلى في مسنده برقم (١٣٨٥) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٧) وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣٦): إسناده حسن.

(٢) أدغم الدال في الصاد من (ولقد صرفنا) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

ولقد كان لعموم الناس في الدنيا مصرف عن النار، لو أنهم صرفوا قلوبهم قِبَل القرآن، ولم ينصرفوا عنه، فقد أنزلنا هذا القرآن على رسولنا ﷺ وكرَّرنا وردَّدنا فيه الأمثال الكثيرة، ووضَّحنا فيه الحجج والبراهين، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والقصص والأمثال، والحلال والحرام؛ كي يتعظوا ويؤمنوا، فانتفع به المؤمنون المهتدون، ولم ينتفع به الكفار.

وهنا جملة محذوفة تقديرها: فجادلوا فيه، وجواب هذه الجملة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أي: أنه كثير الجدل يخاصم، ويعاند، ويجادل بالباطل، أو بالحجة أو الإقناع؛ ليقاوم الحق، فالجدال يكون بالحسنى ويكون بالباطل، وليس المراد بالإنسان في الآية: الإنسان الكافر؛ لأنه سيأتي -في الآية بعد التالية- أن الكافر يجادل بالباطل ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ فدَّل هذا على أن المراد هنا: عموم الإنسان، وأن الجدال منه ما هو مذموم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم].

ومنه ما هو محمود، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤].

وقد يراد بالجدال: الحجة والإقناع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١].

وقد يراد بالجدال: إبطال الحق، كمحام يجادل في قضية جدالًا مريرًا وهو يعلم أنه على باطل، كما قال تعالى عمن خالفوا في الخروج لغزوة بدر:
﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال].

وليس المراد: أن الإنسان أكثر جدلًا من غيره، وإنما المراد: أنه كثير الجدل؛ وذلك لأن الجدل خاص بالإنسان، وهو من شُعب النطق.

جاء في الصحيحين وغيرهما: أن النبي ﷺ مرَّ ليلًا ببيت عليّ وفاطمة، فطرق بابهما، وقال: «**ألا تصليان؟**» -يعني: صلاة التهجد- قال علي: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا -أي: يوقظنا من مرقدنا- بعثنا، فانصرف النبي ﷺ وهو غاضب،

يضرب يده على فخذه، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[١]. قال تعالى:

٥٥- ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ[٢] جَآءَهُمُ[٣] ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا[٤] ﴿٥٥﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه السبب الذي منع بعض الناس من الإيمان بالرسول ﷺ وبهذا القرآن، فصرفهم عن الهدى، وصرفهم عن طلب العفو من ربهم: هو العناد والطغيان، وتكذيبهم للرسول ﷺ وتحدِّيهم له أن يأتيهم بالهلاك أو العذاب الذي توعدهم به.

وهو نفس السبب الذي منع الأولين السابقين من الإيمان برسل الله وكتبه، بعد قيام الحجة عليهم ببيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وما منعهم إلا الظلم والعناد، فلم يبق لهم إلا أن تحلّ بهم العقوبة.

أي: ما منعهم من الإيمان بالله جلَّ شأنه، ومن الاستغفار والرجعة إلى الله سبحانه، إلا ما سبق في علم الله تعالى أنهم لن يؤمنوا، مهما جاءتهم الدلائل الواضحة، والحجج المقْنعة فهم سوف يستمرُّون على كفرهم وجحودهم وعدم العودة إلى ربهم بالاستغفار، حتى يأتيهم العذاب الذي يستأصلهم في الدنيا، كما حدث لكفار قوم نوح، وقوم لوط، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم صالح، أو يأتيهم العذاب عيانًا يوم لقاء رب العالمين، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

وسُنَّة الأولين هي استمرارهم في الكفر حتى ينزل بهم العذاب الذي حدث لأمثالهم من: الغرق، والصيحة، وعذاب يوم الظلة، والخسف، والريح وغير ذلك، لولا أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن هذه الأمة.

ومن سنن الأولين أنهم يطلبون الآيات والخوارق من رسل الله، ومنها أنهم يستعجلون

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (١١٢٧، ٧٣٤٧) و«صحيح مسلم» برقم (٧٥٥) و«المسند» (١/ ١١٢).

(٢) أدغم الذال في الجيم من (إذ جاءهم) أبو عمرو وهشام.

(٣) أمال ألف (جاءهم) ابن ذكوان وحمزة وخلف.

(٤) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم القاف والباء من (قبلا) جمع قبيل، بمعنى: أنواعًا وألوانًا، ونصبه على الحال، وقرأ الباقون بكسر القاف وفتح الباء، بمعنى: مقابلة، أي: معاينة، ونصبه على الظرفية.

نزول العذاب بهم، كما قال قوم نوح له: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]. وهكذا قال كل قوم لرسولهم:

فقوم شعيب قالوا له: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء].

وكفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فمعنى **سنة الأولين**: طريقتهم في الكفر والطغيان وتكذيب الرسل، ومقتضى هذه السنة إذا استمروا عليها أن يأتيهم عذاب الاستئصال؛ لإصرارهم على الكفر.

ومعنى ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: يأتينا العذاب أصنافًا وأنواعًا، وعلى قراءة (قِبَلا) بكسر القاف؛ يكون المعنى: أن ينزل بهم عذاب الله عيانًا جهارًا بحيث يُعاين ويُشاهِد كُلٌّ منهم الآخر، بأن يكون في مقابلته يعاينه ويواجهه.

وَظِيفَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ

٥٦- ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا[1] ﴿٥٦﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن الرسل لم يُبعثوا للجدال، ولا لاقتراح الآيات عليهم، وإنما مهمة الرسل أن يبشروا من أطاع الله بدخول الجنة، وينذروا من عصاه وكفَر به بدخول النار، وليس من مهمتهم أن يَخلُقوا الإيمان في قلوب العباد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ماذا تفيد الآيات المقترحة، وماذا يفيد الإنذار عن قوم لا ينتفعون بهما؟

لقد أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين بما فيه مُقْنِعٌ لطالب الحق والهدى، ومع وضوح

---

(١) قرأ حفص بإبدال همزة (هزؤًا) واوًا للتخفيف، مع ضم الزاي وصلًا ووقفًا، وقرأ حمزة بالهمز مع إسكان الزاي وصلًا، ويسكت على الساكن وصلا، وكذا خلَف عن حمزة في الوصل والوقف، ويقف حمزة بالنقل والإبدال، ولإدريس السكت وعدمه وصلًا، والباقون بالهمز مع ضم الزاي.

الحق والدلائل، يخاصم الكفار رسلهم بالباطل تعنتًا؛ لِيُزيلوا بباطلهم الحق الذي جاء به الرسول، فهم يطلبون خوارق العادات، ويستعجلون نزول العذاب، لا لطلب الإيمان، ولكن للسخرية والاستهزاء ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: يجادلون في شأن القرآن فيقولون عنه: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، كما قال النضر بن الحارث، وغيره: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان].

ويجادلون في شأن محمد ﷺ، كما قال بعض الكفار عنه: إنه ساحر، أو شاعر، أو كاهن، وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١].

وقال تعالى عنهم ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤﴾ [ص].

وقال أيضًا: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس].

ويجادلون في البعث، كما قال العاص بن وائل منكرًا الحساب والجزاء وقد أمسك بيده عظمًا قد بَلِيَ وهو يفتته بيده، ويقول: أترى يا محمد أن الله يبعث هذا بعدما بَلِي ورمَّ؟! فقال ﷺ: **«نعم، ويبعثك ويدخلك النار»**[1].

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

والله متم نوره، ولو كره الكافرون والمشركون.

والدحض: هو الطين الذي لا تستقر عليه الأقدام، يقال: دحضَتْ رِجْلُ فلان، أي: زلَّت وزلَقت.

والمعنى: يزيلون ويبطلون، كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي: زائلة.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء :١٨]

ثم إن الكفار لم يكتفوا بجدال الرسل، بل أضافوا إلى ذلك الاستهزاء، والاستخفاف بهم، وبما أيَّدهم الله به من آيات ومعجزات ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا﴾ المراد بآيات الله: الآيات الدالة على صدق رُسله من المعجزات الخارقة والكتب المنزلة، فهم يستهزئون بكتب الله،

---

(١) الطبري بسنده عن سعيد بن جبير (١٩/ ٤٨٧) والحاكم (٢/ ٤٢٩) والضياء في «المختارة» برقم (٨٢).

ويستهزئون برسل الله، ولذا حقَّت عليهم لعنة الله، وطرْدهم من رحمة الله.

قَوَارِعُ الْمُكَذِّبِينَ وَسُوءُ عَاقِبَتِهِمْ

٥٧- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾

ثم إن الحق واضح، ولكن الكفار يجادلون بسوء نية، ولا يرجى منهم أن ينتفعوا بهذا القرآن، فهم أظلم الناس، ولذا بيَّن ﷻ أنه لا أحد في الوجود أظلم ممن وُعِظ وذُكِّر وخُوِّف بآيات الله، ثم أعرض عن ذكر الله، ولم يعمل بمقتضى ما جاء في كتابه، ولا بما خوَّفه به رسل الله، ورغَّبوه في طاعته.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أكثر ظلمًا لنفسه ولا أكبر جُرمًا في حق ربه:

﴿مِمَّن ذُكِّرَ﴾ وُعظ وخُوِّف ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ الواضحة وبيِّن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخُوِّف ورُهب، ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: فانصرف عنها إلى لهوه وباطله ولم يرجع عما كان عليه ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الأفعال القبيحة، فلم يرجع عنها، ولم يراقب علّام الغيوب.

والمراد **بالنسيان**: الترك والإهمال والإعراض، أي: نسي ما ارتكبه من الكفر والفسوق والعصيان؛ نتيجة لعدم الانتفاع بالوعظ، ولعدم الانتفاع بالذكرى، ولعدم الانتفاع بآيات الهداية، وبالترغيب والترهيب، وقد نُسِب النسيان إلى اليدين؛ لأنهما آلة اكتساب الأمور المحسوسة، فجُعلت كذلك في الأمور المعنوية.

ولنسيان المعاصي والذنوب آثار سيئة وعواقب وخيمة، وذلكم أن الذي يعصي ربه كلما ارتكب المعصية، ولم يتب منها، فإنها تترك أثرًا أسود على قلبه حتى يُصبح ممن قال فيهم ﷻ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين]. ثم تتراكم هذه العلامات على العبد بتعدد المعاصي، وعدم التوبة منها، حتى يسودَّ القلب، ويُطْمسَ عليه، فيطبع الله على قلبه، ويُختَم عليه، فلا يقبل هدى ولا إيمانًا؛ بسبب تكرار ارتكاب المعاصي والذنوب، وكثرتها وتراكمها، وأنه نسي ما قدمت يداه منها.

ثم بيَّن سبحانه علة هذا الإعراض، وآثار هذا النسيان في **ثلاثة أشياء**:

أولها: عدم الانتفاع بالهداية ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: أغطية، فقلوبهم مقفلة، مختوم عليها، لا تقبل هدى، والعياذ بالله، فهي في غِلاف ساتر؛ لئلَّا يفقهوا ويفهموا هذا القرآن ويعملوا به، وهذه عقوبة من الله تعالى بسبب إعراضهم عن آيات الله، ونسيانهم لذنوبهم، والرضا بالشر، مع العلم به، وسدّ منافذ الهداية على أنفسهم، فهم كانوا السبب؛ حيث عطلوا أجهزة الاستقبال فيهم عن أداء مهامها؛ بسبب زيغ قلوبهم، وانحراف فطرتهم، واختيارهم طريق الضلال، وقد علم الله سبحانه ذلك منهم فسجَّله عليهم، ومن مات منهم على الشرك فلا ترجى له مغفرة، وهو كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقد فتح الله باب التوبة لمن يتوب قبل أن يغرغر، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ثانيها: ومن آثار هذه المعاصي أن الله تعالى جعل في آذانهم وقرًا، أي: صممًا معنويًا بحيث لا ينتفعون بما يسمعون، وقلوبهم لا تنفسح ولا تتسع للحق، وإنما تنشرح للمعصية، ولا تنشرح للطاعة، وهذا معنى ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾.

وإذا كانوا بهذه الحالة فلا سبيل لهدايتهم.

ثالثها: أنهم لن يستجيبوا للهداية؛ لأنه قد خُتم وطُبع على قلوبهم ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]. فكل مَنْ علم الله أنه لن يؤمن، فلن ينتفع بالدعوة إلى الهدى أبدًا ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ وهم كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

وقال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وهذه الأكنة تمنعهم أن يفقهوا ما ينفعهم من آيات القرآن التي ذُكِّروا بها، فلا ينفع فيهم دعوة الهدى، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس]. وقال سبحانه: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل].

وفي هذا تخويف لمن ترك الحق بعد العلم به، أن يُحال بينه وبينه ولا يتمكن منه بعد ذلك ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

مِنْ سِعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعِظَمِ فَضْلِهِ

٥٨- ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم[(١)] بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾

وبعد الوعيد والترهيب في الآية السابقة، يأتي الترغيب في رضوان الله تعالى، بطلب عفوه ومغفرته، والوعد بالرحمة، وغفران الذنوب في هذه الآية، وفيها بيان أن الله تعالى لو أخذ العباد بذنوبهم لعجَّل لهم العذاب، ولكنه تعالى يمهل ولا يهمل، إذْ لا بدَّ من جنْيْ ثمار المعصية وإن تأخر هذا الجنْيْ بعض الوقت.

والله سبحانه يبيِّن أن بابه مفتوح، يقبل توبة كل من يرجع ويتوب إليه سبحانه، حتى الكافر والمشرك إذا تاب من كفره وشركه قبل أن يغرغر، فإن الله تعالى يقبل توبته.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ [المائدة: ٧٤].

وهذه الآية من سورة المائدة في سياق الحديث عن الكفار والمشركين الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذا فإن الله تعالى يقبل توبتهم إذا تابوا ورجعوا إليه، كما قال جلَّ شأنه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. حتى الكافر إن ينتهِ عن كفره يغفر له ما قد سلف.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ هذا اسم يتضمن المبالغة في الغفران؛ لأنه تعالى واسع المغفرة، يغفر لأعداد لا تحصى، ويغفر ذنوبًا لا تحصر، فهو سبحانه يغفر جميع الذنوب

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (يؤاخذهم) واوًا في الحالين، وكذا حمزة عند الوقف، وليس للأزرق عن ورش فيها إلا قصر البدل؛ لأنه من المستثنيات.

لمن تاب منها، إلا من مات على الشرك بالله، فهو جلَّ شأنه عظيم المغفرة لعباده مع تقصيرهم وعصيانهم، وهو سبحانه ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ ورحمته واسعة، يُدْخِل فيها كل من تحقق فيه شرط التقوى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وهم الموصوفون بالصفات المذكورة في الآية السابعة والخمسين بعد المئة من سورة الأعراف وهي: إخراج الزكاة، والإيمان بالقرآن، والاتباع للنبي الخاتم.
ومن فضل الله تعالى وكرمه وحلمه على عباده أنه لا يعاقب المُعْرِض عن آياته بما اكتسب من الذنوب والآثام في هذه الحياة، ويُعَجِّل له العقوبة فيها، بل لهم موعد محدد يُجازوْن فيه، لا مفر منه ولا محيد عنه.

ولو يؤاخذ الله العباد في دنياهم على ما اقترفوا واكتسبوا من المعاصي والذنوب، فعجَّل لهم العقوبة في الدنيا، فلن تجد على ظهر الأرض أحدًا، ولكن الله تعالى يمهل ولا يهمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]. وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

وفي الآية التي معنا: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ يعني: في هذه الدنيا، وإنما حدد لهم موعدًا، يأتي في وقت معين هو يوم القيامة، كما اقتضته الحكمة الإلهية، فإذا لم يعجِّل الله لهم العذاب في الحال، فإنه ليس غافلًا عنهم، ولا تاركًا عقابهم يوم لقائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]. ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ فليس هناك من يلجؤون إليه غير الله تعالى، وليس هناك من يعصمهم من الله، فيحفظهم ويمنعهم من عذابه يوم لقائه، ولا فرار من هذا اليوم، ولا مندوحة لهم عنه.

هَلَاكُ الْأُمَمِ الَّتِي كَذَّبَتْ رُسُلَ اللَّهِ تَعَالَى

٥٩- ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم[1] مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

---

(١) قرأ شعبة بفتح الميم واللام التي بعد الهاء من (لمهلكهم) مصدر ميمي قياسي، من هلك، وقرأ حفص بفتح الميم وكسر اللام، مصدر ميمي سماعي، ومعنى القراءتين: وجعلنا لهلاكهم موعدًا، وقرأ الباقون بضم الميم وفتح اللام، مصدر ميمي من أهلك، أي: وجعلنا لإهلاكهم موعدًا.

لقد ظلم المعرضون عن آيات الله، المكذبون لرسوله، ظلموا أنفسهم بكفرهم، فاستحقوا العذاب كالأمم التي سبقتْهم من أهل القرى القريبة منهم، كأقوام هود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم من الأمم الذين أهلكهم الله بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر.

قال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ أي: انظروا إلى الأمم التي سبقتكم من الذين كذبوا رسل الله، وتعنّتُوا في طلب الآيات الخارقة منهم، ماذا فعل الله فيهم؟ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: أن الله تعالى أبادهم لما كذبوا رسل الله، ولم يؤمنوا بآياته، فظلموا أنفسهم بالشرك وتكذيب الرسل، وآثارهم ليست بعيدة عنكم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات] أي: أنكم تمرون على ديارهم الخربة صباحًا ومساءً في طُرقاتكم وأسفاركم.

فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذَّبتم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز على الله منهم، فاعتبروا بمن كان قبلكم من المكذبين المعاندين لرسل الله، ممن جعل الله لهلاكهم وقتًا محددًا لا يتقدم ولا يتأخر، فإذا بلغوه جاءهم العذاب.

قِصَّةُ مُوسَى وَالْخِضْر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

٦٠- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ[1] لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾

ثم تأتي قصة موسى والخضر، وليست هذه القصة مما سأل عنه المشركون النبي ﷺ بواسطة أهل الكتاب، حين سألوه عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، ولكنها ذُكرت هنا بين قصتي أصحاب الكهف وذي القرنين، تنبيهًا لأهل الكتاب على أنه كان من الأوْلى بهم أن يسألوا عن أخبار أنبياء بني إسرائيل، وعلى التقلُّب في البلاد؛ لأجل تحصيل العلم والحكمة، كما حدث من نبيهم موسى بن عمران مع الخضر عليهما السلام، وفي هذه القصة إشارة من الله جلَّ شأنه إلى أن النبي -أيَّ نبي- لا يلزمه أن يكون عالمًا بجميع القصص والأخبار.

وسبب هذه القصة أن موسى عليه السلام لما استقر به المقام في مصر، بعد أن أظهر الله دينه

(١) أمال ألف (لفتاه) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلفه، وفتحها الآخرون.

على فرعون، وأبطل كيد السحرة، قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل، يعظهم ويذكِّرهم بأيام الله، ويعدِّد لهم نعم الله عليهم، حتى رقَّت القلوب وفاضت العيون، ولما فرغ من موعظته تعلَّق به رجل من بني إسرائيل، وسأله: هل في الأرض من هو أعلم منك؟ وعندئذ نظر موسى ﷺ في نفسه، وفي غيره من البشر حوله، فإذا هو نبي الله المرسل، الذي أُنزلت عليه التوراة، وهو الذي كلَّمه ربه تكليمًا، وهو صاحب العصا واليد، وهو الذي فلق البحر بعصاه، فقال للسائل: إنه لا يعلم أن أحدًا أعلم منه على وجه الأرض، فعتب الله ﷻ على موسى؛ حيث لم يَرُدَّ العلم إليه جلَّ شأنه، وأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، إن العلم أكبر وأعظم من أن يَحْوِيه رجل، أو أن ينفرد به رسول، إن لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

ومجمع البحرين عند ملتقى خليج السويس بخليج العقبة.

والبحران: هما البحر الأبيض والأحمر، ويلتقيان في منطقة البحيرة المرة وبحيرة التمساح.

وفي رواية: أن موسى ﷺ سأل ربه، فقال: أي ربِّ، إن كان في عبادك أحد هو أعلم مني فدُلَّني عليه، فقال: نعم، في عبادي من هو أعلم منك، ثم وصف له مكانًا وأذن له في لقائه(١).

قيل: وكان موسى ﷺ قد سار إلى المكان مدة يوم وليلة راجلًا، وأن هذا المكان يسمى عند الإسرائيليين: بحر الجليل، وهو مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية.

وتاقت نفس موسى لرؤية هذا العبد الصالح الذي هو أعلم منه، قال: يارب أنَّى لي به؟ كيف أعرفه؟ قال: خذ معك حوتًا مشويًا مملحًا وضَعْه في مكتل (زمبيل)، وحيثُ فقدْتَ الحوت، سوف تجد الرجل الذي تطلبه في المكان الذي فقدتَ فيه الحوت.

أخذ موسى فتاه ووليَّ عهده الذي يلازمه في حضَره وسفره، وهو (يوشع بن نون) -الذي نُبئ فيما بعد- ويقال: إنه ابن أخت موسى، ويوشع بن نون، أحد الرجال الاثنا عشر، الذين بعثهم موسى إلى أرض كنعان؛ لاختبار بأس أهلها وقُوَّتهم، وهو أحد

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٨٠) والقصة في البخاري (١٢٢، ٣٢٧٨، ٣٤٠١، ٤٧٢٥، ٤٧٢٧، ٦٦٧٢) وفي «صحيح مسلم» (٢٣٨٠) والترمذي (٣١٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٠٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٢٠).

الرجلين اللذين شجَّعا بني إسرائيل على دخول أرض كنعان، وقد ذكرهما القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وكان ميلاد يوشع في حدود سنة ١٤٦٣ قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وكانت وفاته في حدود سنة ١٣٥٣قبل الميلاد، وعمَّر يوشع مئة وعشر سنين.

وقد أمر الله موسى أن يعهد إلى يوشع بتدبير أمر بني إسرائيل بعد وفاته.

حمل يوشع المكتل وفيه الحوت، حتى وصلا إلى مجمع البحرين، وقد أصر موسى على أن يصل إلى هذا المكان، قائلًا: مهما بلغتْ بي الشُّقة أو المشقة، ومهما طالت المدة فلا أبرح، أي: لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين، أو أمضي حقبًا، أي: أسير زمنًا طويلًا.

قال عبد الله بن عمرو: **الحقُب** ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفًا.

رِحْلَةُ مُوسَى وَيُوشَعَ

٦١- ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾

وجدَّ موسى ويوشع في السير، حتى وصلا إلى صخرة عند مجمع البحرين.

وفي رواية: أنَّ في أصل هذه الصخرة عينًا يقال لها: (عين الحياة) فيها ماء لا يشربُ، أو لا يصيبُ منه أحد، إلا عاش وحَيي.

وفي هذا المكان عند الصخرة، نام موسى وفتاه يوشع بعضًا من الوقت، وكان موسى قد قال ليوشع: ونحن في رحلتنا هذه لن أكلفك بشيء، إلا إذا فُقد منك الحوت أن تُعْلِمَني بالمكان الذي فُقد فيه، وأصاب الحوت شيء من ماء السماء، أو أصابه بلل البحر، أو أصابه من ماء عين الحياة، فاضطرب في المكتل.

وهو نفس الحوت المشْوِيّ المملَّح الذي أكل منه، لقد دبت فيه الحياة، وخرج من المكتل، فانسلَّ منه، وأخذ طريقه في البحر، وصار مع حيوانات البحر حيًّا.

وهذه آية من آيات الله تعالى لموسى عليه السلام، فكان للحوت سرَبٌ في البحر، وعجبٌ لموسى وفتاه، وأمسك الله عن الحوت جَرْيه، فطوَّقه الماء.

وفي صحيح البخاري: أن الماء صار كالنفَق في الموضع الذي مرَّ منه الحوت، حيث تجمد الماء فوقه، واتخذ له طريقًا مفتوحًا في المكان الذي صار فيه[1].

٦٢- ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

ولما رأى يوشع أن الحوت قد انسلَّ ودخل البحر، وجد موسى نائمًا، فكَرِه أن يُوقظه؛ ليخبره بذلك، ولما استيقظ موسى في اليوم التالي نسي يوشع أن يُذكِّره، واستأنفا المسير يومًا وليلة، حتى بلغ منهما التعب مبلغه، فلما فارقا المكان الذي نسيا فيه الحوت، ومشيا يومًا وليلة، شعرا بالجوع؛ فقال موسى لخادمه: أحْضِر لنا الحوت حتى نأكل منه، لقد لقينا من سفرنا هذا تعبًا.

٦٣- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ[2] إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ[3] إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

وهنا تذكَّر يوشع أنه نسي الحوت عند الصخرة، فقال لموسى: أتذكُر حين لجأنا إلى الصخرة التي استرحنا عندها؟ فإني نسيت أن أخبرك ما كان من شأن الحوت، وما أنساني أن أذكر لك ذلك إلا الشيطان؛ فإن الحوت الميت قد دبَّت فيه الحياة، وقفَز في البحر، واتخذ له طريقًا فيه، وكان أمره عجيبًا، ووجه العجب أنه حوت قد مات، وأُكل شقُّه الأيسر، ثم حيي بعد ذلك، وقد نسب الفتى النسيان إلى الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

ونسبة النسيان إلى الشيطان يؤيدها القرآن الكريم في كثير من آياته.

قيل: إن موسى مشى إلى مناجاة ربه أربعين يومًا لم يحتج فيها إلى طعام، وفي رحلته

---

(١) تُنظَر القصة بكاملها في: «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٥، ٤٧٢٧) وفي «صحيح مسلم» (٤/١٨٤٧) برقم (٢٣٨٠) والترمذي (٢/١٤٣) برقم (٣١٤٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) سهَّل الهمزة الثانية من (أرأيت) نافع وأبو جعفر، ولورش إبدالها حرف مد مشبعًا وصلًا، وليس له في الوقف إلا التسهيل، ومثله حمزة.

(٣) قرأ حفص بضم الهاء من (أنسانيه) من غير صلة، والباقون بالكسر من غير صلة، إلا ابن كثير فله الصلة حال الوصل.

للقاء الخضر لحقه الجوع في بعض يوم[١].

٦٤- ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ[٢] فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾

ولما علم موسى بفقد الحوت قال: إن ما حصل هو الذي نطلبه، وهو الهدف من هذه الرحلة؛ فإن الرجل الذي نريده هناك، فلنرجع حيث كنا؛ فإن هذا علامة على مكان العبد الصالح، فرجعا يقصان الأثر، ويقتفيان الطريق الذي مشياه حتى رجعا إلى الصخرة عند مَجْمَعَ البحرين مرة ثانية، وكان الله قد وعد موسى أنه متى فُقِد الحوت، فثمّ ذلك العبد الذي قصدْته.

مُوسَى يَلْقَى الْخِضْرَ

٦٥- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾

نظر موسى وفتاه فوجدا عبدًا من عباد الله الصالحين، هو الخضر، بإجماع أهل العلم كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ[٣].

وسُمِّيَ الخضر؛ لأنه كان يجلس على فروة بيضاء فاهتزت خلفه خضراء.

وقيل: إنه ما كان يجلس في مكان، أو يصلي في مكان، إلا اخضرَّ هذا المكان حوله.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما سُمِّيَ الخضر؛ لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**»[٤].

والمراد **بالفروة**: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات.

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥٢٩).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (نبغ)، وابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) تُنظَر القصة في «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٥-٤٧٢٧) وفي «صحيح مسلم» (٢٣٨٠) والترمذي (٢/ ١٤٣) قال: حديث حسن صحيح.

(٤) «صحيح البخاري» (٦/ ٣٠٩) برقم (٣٤٠٢) ورواه أحمد في «المسند» برقم (٨١١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والترمذي (٣١٥١)والطيالسي (٢٥٤٨).

والخضر: هو ابن ملكان بن فالغ بن عابر، من نسل سام بن نوح، وهو ابن عم الجد الثاني لإبراهيم، وقيل: الخضر لقبه، واسمه (إيليا) وليس الخضر من بني إسرائيل ولا مكلفًا بشريعة موسى عليه السلام.

ولعل الأرجح أن الخضر كان نبيًا من أنبياء الله، بدليل قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝﴾ والرحمة تطلق في القرآن على النبوة، وعلى الوحي، كما قال تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٦٢]. وبدليل قوله تعالى على لسان الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [٨٢] أي: إنما كان الذي فعلته بوحي من الله سبحانه.

والأرجح أن الخضر قد مات وليس بحي، وليس هناك خبر صحيح يؤيد وجود الخضر حيًّا[1].

ويتشبث بعض الناس في مخالفة ظاهر الشرع بما فعله الخضر، ويزعمون أنهم قد مُنحوا عِلْمًا لَدُنِّيًا كالخضر، وفي هذا ذريعة لمخالفة الشرع؛ لأن الخضر كان نبيًّا، ولم يفعل ما فعل بعلم باطني أو بإلهام.

وبعض الناس ينسبون إلى أنفسهم أو إلى غيرهم الكرامات، اقتداءً بالخضر، وليس لأحد أن يزعم لنفسه ما أيد الله به الخضر؛ لأن هذه المهمة الخاصة قام بها الخضر بأمر من الله سبحانه، تأديبًا لموسى عليه السلام حينما نسب العلم إلى نفسه؛ ليبيِّن الله له أنه يوجد في الأرض من هو أعلم منه.

فمخالفة ظاهر الشريعة، كما فعل الخضر، أمر خاص به، وهو نبي من أنبياء الله، ولا ينبغي لأحد أن يشبِّه نفسه بالخضر، فقد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما يحصل به الاطلاع على بواطن بعض الأمور التي تخفى على غيره، وكان موسى عليه السلام أكثر علمًا منه سيما في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولي العزم من الرسل الذين فضلهم الله بالعلم والعمل.

حِوَارُ مُوسَى وَالْخِضْرِ عَلَيْهِمَا السَّلَام

٦٦- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا[١] ﴿٦٦﴾﴾

نظر موسى إلى هذا العبد فوجد عليه سيما الصالحين: رجل نحيل البدن، غائر العينين، مغطى بثوبه الأبيض، قال له موسى: السلام عليك، قال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام، أي: ومَنْ يعرف السلام في هذه الأرض، مَن أنت؟ قال: أنا موسى. قال الخضر: نبي بني إسرائيل؟ قال موسى: من الذي أعلمك أني نبي بني إسرائيل؟ قال الخضر: الذي بعثك إليَّ هو الذي أعلمني[٢].

ثم قال موسى للخضر في أدب جم، وتواضع رفيع، أدب طالب العلم مع العالم: هل تأذن لي في أن أتبعك على أن تعلمني مما ينفعني ويرشدني في ديني ودنياي؟

٦٧، ٦٨- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا[٣] ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾

أي: قال الخضر لموسى: إنني لا أمتنع من ذلك، ولكنك لن تطيق أن تصبر على اتباعي وملازمتي، إني على عِلْم من الله علَّمني إياه لا تَعْلَمُه، وأنت على عِلْم من الله علَّمك إياه لا أعْلَمه، فموسى كان نبيًّا رسولًا، يعلم أمور الشريعة والرسالة، والخضر آتاه الله شيئًا من علم المستقبل، وهو علم لا يتعلق بالتشريع؛ لأن موسى ﷺ مستغنٍ بالوحي، وهذا من باب زيادة العلم مما خصَّ الله به الخضر.

قال الخضر لموسى: إنك إذا صحبْتني فسوف ترى أمورًا تخالف ظاهر الشرع، فلا تصبر على رؤيتها لأنك لا تعلم المقصود منها.

وكيف تصبر على ما لا تعلمه، ولم تُحط به خبرًا، مما سأفعله من أمور تخفى عليك، ظاهرها منكر، وباطنها لا تعلمه؟

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بفتح الراء والشين من (علمت رشدا)، والباقون بضم الراء وإسكان الشين، وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل.

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥٢٩).

(٣) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة وصلًا من (معيَ صبرًا) هنا وفي الآيتين: (٧٢، ٧٥)، والباقون بإسكانها.

٦٩- ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ[1] إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ۝٦٩﴾

قال موسى للخضر: ستجدني إن شاء الله صابرًا على ما أراه منك، ولا أُخالف ما تأمرني به، وهكذا أخذ موسى العهد على نفسه بالصبر وعدم المخالفة، وعزم على ذلك قبل أن يرى شيئا مما أشار إليه الخضر، ولذا أجابه إلى ما طلب:

٧٠- ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي[2] عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ۝٧٠﴾

وافق الخضر على مصاحبة موسى له، واشترط عليه شرطًا، قال له: فإن تبعتني وصاحبتني فلا تسألني عن شيء تنكره حتى أعلمك السبب بما خفي عليك دون سؤال منك، فلا تبدأني بسؤال ولا إنكار حتى أخبرك، فوعده أن يوقفه على حقيقة الأمر:

خَرْقُ السَّفِينَةِ فِي الرِّحْلَةِ الأُولَى

٧١- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ[3] أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا﴾

وسار موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى أدركتْهما سفينة، وعرف الخضر بعض مَنْ فيها، فوقفت لهما السفينة، وحملوهما حين توسموا في وجهيهما الصلاح والتقوى، حملوهما معهم في السفينة بغير أجر، وإذ بموسى يفاجأ بأن الخضر يَعْمَد إلى لوْح أو لوْحين من السفينة، ويَقْلَعُهما بالقدُوم أو الفأس من جدار السفينة، أو من على وجه الماء، فأخذ موسى عليه السلام يسدُّ الماء بثيابه، ويقول: هذا أمر عجيب، قوم حملونا معهم بغير أجر، تعمد إلى سفينتهم فتخرقها؟ قال موسى: (أَخَرَقْتَهَا لِيَغْرَقَ أهْلُهَا)، وفي القراءة الثانية ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا﴾؟ هذا أمر عظيم، ومنكر كبير، لا يتناسب مع كرمهم لنا، وعندئذ أجابه الخضر:

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا (ستجدنيَ إن شاء الله صابرًا)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفتح اللام وتشديد النون من (فلا تسألَنِّي عن شيء) على أنها نون التوكيد كسرت؛ لمناسبة الياء، والباقون بإسكان اللام وتخفيف النون على أن الفعل مُعْرب، والنون للوقاية.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف (لِيَغْرَق أهلُها) بياء وراء مفتوحتين في (ليغرق) ورفع (أهلها) فاعلًا، والباقون (لتُغرِق أهلَها) بتاء مضمومة وراء مكسورة في (لتغرق) ونصب (أهلها) مفعولًا به.

٧٢- ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾

لم يزد الخضر على أن ذكَّره بعهده وشرطه، فقال لموسى: لقد قلت لك من أول الأمر: إنك لن تستطيع الصبر على صُحْبتي لما ترى من صنيعي وأنت لا تدرك السبب فيه، فوقع ما أخبرتك به، وكان هذا من موسى نسيانًا، ولذا:

٧٣- ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي[1] بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا[2] ﴿٧٣﴾﴾

قال موسى للخضر معتذرًا: لقد نسيتُ هذه المرة، فلا تؤاخذني بنسياني شرطَك عليَّ، ولا تكلِّفني مشقة في تَعلُّمي منك، وعاملني بيُسْر ورفق،فاسمح لي ولا تؤاخذني أول الأمر، فجمع موسى بين الإقرار والعذر، فسامحه الخضر هذه المرة.

قال رسول الله ﷺ من حديث أُبيّ بن كعب ﷺ: «**كانت الأُولى من موسى نسيانًا**»[3].

أي: نسيانًا حقيقيًّا، قال مجاهد: وكانت الثانية شرطًا، والثالثة عمدًا.

والصحيح: أن هذا من معاريض الكلام، يتضمن السؤال والإنكار.

ولما ركبا السفينة جاء طائر فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال الخضر لموسى: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول ؟ قال: يقول: ما علمُك وعلم موسى في علم الله، إلا كما آخذ بمنقاري من الماء[4].

وفي رواية البيهقي: ما أصبتُ أنا وأنت من العلم في علم الله، إلا بمنزلة ما أصاب هذا الطير من هذا البحر[5].

وذلك لأن نسبة علم موسى والخضر كنسبة تلك النقطة إلى البحر، فعِلْمُ البشر يتناهى، وعِلْمُ الله تعالى لا يتناهى.

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر بإبدال همزة (تؤاخذني) واوًا في الوصل والوقف، وكذا حمزة عند الوقف.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم السين من (عُسُرًا) والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٣) من حديث طويل عن أُبَيّ بن كعب في البخاري (٧٤، ٤٧٢٥) ومسلم (٢٣٨٠).

(٤) أخرجه الحاكم عن أُبَيّ بن كعب (٢/ ٣٦٩) و«الأسماء والصفات» (٢٢٢) عند البيهقي.

(٥) أخرجه البيهقي عن ابن عباس في الأسماء والصفات.

قَتْلُ الْغُلَامِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ

٧٤- ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ[(١)] بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا[(٢)]﴾

قَبِلَ الخضر عُذْر موسى، ثم خرجا من السفينة، وسارا يمشيان على شاطئ البحر، وإذ بعدَد من الغلمان يلعبون، ومعهم صبي يافع صغير، دون سن الحلُم، فعمد الخضر إلى هذا الغلام، وتنحَّى به جانبًا وقَتَلَه، قيل: إنه اقتلع رأسه، وقيل: رضَّه بحجَر فقتله، ففزع موسى واستنكر الحادثة، فغضب، وأخذته الحمية الدينية، لأنه قتل غلامًا صغيرًا بدون ذنب، وقال: هذا أمر لا يُسكت عليه، قال موسى للخضر: أقتلت نفسًا زاكية طاهرة بريئة لم تبلغ حدّ التكليف بغير أن تقتُل، فتستحق القتل قصاصًا؟ هذا منكر عظيم لا يُسكت عليه، وهذه أشد من الأولى، وكانت الأولى من موسى نسيانًا وهذه غير نسيان ولكن عدم صبر.

٧٥- ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾

ذكَّر موسى الخضر بشرطه، فقال له معاتبًا ومذكِّرًا: ألم أقل لك إنه ليس في مقدورك الصبر على ما ترى من أفعالي، مما لم تُحِطْ به خبرًا؟ بزيادة (لك) عن الأولى؛ لتأكيد القول وتثبيته وتقويته.

٧٦- ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى[(٣)] عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾

قال موسى للخضر: إن سألتك بعد هذه المرة عن شيء آخر، فلا تصاحبني واتركني.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس (نفسا زاكية) بألف بعد الزاي وتخفيف الياء، اسم فاعل، أي: طاهرة من الذنوب والباقون (زكيّة) بحذف الألف وتشديد الياء، صيغة مبالغة، من الزكاة بمعنى: الطهارة.

(٢) قرأ نافع وابن ذكوان وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم الكاف من (نكُرا)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر بضم الدال وتخفيف النون من (لدُني)، على الأصل في ضم الدال وحذف نون الوقاية، اكتفاء بكسر النون الأصلية؛ لمناسبة الياء، وقرأ شعبة بوجهين: الأول: إسكان الدال مع الإشارة بالشفتين إلى الأصل، وهو الضم، فينطق القارئ بالإشمام مقارنًا لسكون الدال. والثاني: باختلاس ضمة الدال؛ لقصد التخفيف، وكلا الوجهين مع تخفيف النون، وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد النون؛ لأن الأصل في (لدن) ضم الدال والإدغام للتماثل، وألحقت نون الوقاية بهذه الكلمة؛ لتقي السكون الأصلي من الكسر.

قال ﷺ فيما يرويه أُبَيُّ بن كعب ﷺ: «**رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال:** ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾»[١].

قال عمر بن الخطاب ﷺ بعد أن فرغ النبي ﷺ من القصة: يرحم الله موسى، وَدِدْنا أنه لو صبر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما[٢].

لقد تعدَّدت الأعذار مني، وأنت لم تُقصِّر، فقد أخبرْتني أني لن أستطيع معك صبرًا.

ورد في هذه الآية أن الله تعالى جعل الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجبًا له.

وذلك أنه لما أنكر خرْق السفينة نودي: يا موسى، أين كان تدبيرك هذا وأنت في التابوت مطروحًا في اليم؟

فلما أنكر قتل الغلام، قيل له: أين إنكارك هذا من وَكْزِك للقبطي وقضائك عليه؟

فلما أنكر إقامة الجدار، نودي: أين هذا يا موسى من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟[٣].

لقد راجع موسى نفسه فوجد أنه قد خالف ما اتفق عليه مع الخضر مرتين، فأخبر صاحبه بأن يترك له فرصة أخيرة، فقال له: إن سألتك بعد هذه المرة الثالثة فلا تجعلني صاحبًا أو رفيقًا لك، فإني قد بلَغْتُ الغاية في مخالفتك؛ لأني كررتُ ذلك مرارًا، وهذا يدل على اعتذار شديد من موسى، وعلى شدة ندمه واعترافه بخطئه.

---

(١) رواه أبو داود في «السنن» عن أُبَيّ بن كعب برقم (٢٧٠٧، ٣٩٨٤) وانظر: «الطبري» (١٥/ ١٨٦) وصححه الحاكم والذهبي على شرط الشيخين في «المستدرك» (٢/ ٥٧٤) وهو في «المسند» (١١٢٤٤، ١١٢٤٨، ٢١١٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق محمد بن كعب القرظي كما في «الدر المنثور» (٩/ ٦١٤) وكذا البخاري في العلم (١٢٢، ٢٢٦٧، ٧٤٧٨) ومسلم في الفضائل (١٧١، ١٧٤، ٢٣٨٠) والترمذي في التفسير (٣١٤٩) وقال: حسن صحيح، والنسائي في التفسير (٣٢٧) وفي «الكبرى» (٥٨١٣).

(٣) «تفسير ابن عطية» (٣/ ٥٣٣).

إِقَامَةُ الْجِدَارِ فِي الرِّحْلَةِ الثَّالِثَةِ

٧٧- ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ[1] عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾

استمر موسى والخضر في رحلتهما، وانطلقا يمشيان حتى وصلا إلى مدينة أنطاكية على الأرجح، ليصل الخضر إلى حيث يُنفِّذ ما عنده من علم الله، فمرًّا بأهل هذه القرية قال ابن سيرين: هي أبخل قرية.

وجاء في الحديث عن أبي بن كعب ﷺ: أنهم قوم لئام[2].

فطلبا من أهلها أن يضيّفوهما، فلم يضيّفوهم، ثم طلبا منهم أن يطعموهم فأبوا، والضيافة من حق المسلم على أخيه، كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ: **«ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»**[3].

ومع هذا فإن الخضر نظر إلى جدارٍ آيلٍ للسقوط، فمسحه بيده فأقامه، وجعله مستويًا سليمًا وعدَّل مَيْلَه، وفي رواية: أنه هدمه وبناه، فعجِب موسى من ذلك، ولم يتمالك مشاعره؛ لأنه وجد نفسه أمام حالة متناقضة: قوم بخلاء لا يستحقون العوْن، ورجل يُتعب نفسه في إقامة حائط مائل لهم، دون أجر، فكان الأجدر به أن يطلب منهم أجرًا على هذا العمل الشاق، ولذا قال موسى للخضر: لو شئتَ لأخذتَ على هذا العمل أجرًا تصرِفُه في شراء طعام لنا، فهم قوم لم يضيفونا، ولم يطعمونا وتفعل بهم هكذا. وهنا:

٧٨- ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

قال الخضر لموسى: لقد حان وقت الفراق بيني وبينك، تحقيقًا للشرط الذي اشترطْتَه على نفسك، فإن الشرط قد حصل، ولكني قبل المفارقة سأشرح لك وأخبرك بما أنكرته

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بتخفيف التاء الأولى وكسر الخاء من غير ألف الوصل في (لاتخذت) هكذا (لَتَخِذْتَ) على أنه فعل ماضٍ من تخذ يتخذ، كعلم يعْلم، والباقون بألف وصل وتشديد التاء الأولى وفتح الخاء هكذا (لاتَّخذت) على أنه فعل ماضٍ من (اتخذ) فأدغمت الفاء في التاء.

(٢) أخرجه النسائي كما في «تحفة الأشراف» (٤٩) والديلمي (٤٢٦٩).

(٣) الحديث في البخاري (٦١٣٨، ٦٤٧٥) ومسلم (٤٧).

عليَّ من أفعالي التي لم تصبر على تركِ السؤال عنها، والإنكار عليَّ فيها.

الْخِضْرُ يُخْبِرُ مُوسَى بِأَسْبَابِ الأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَلَيْهِ

٧٩- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾

أما السفينة التي خرقتها فكانت لعشرة مساكين إخوة، منهم خمسة يعملون عليها في البحر، سعيًا وراء الرزق، ومنهم خمسة مرضى بأمراض مزمنة، وعملُ هؤلاء الخمسة لا يكفيهم؛ فهم مساكين، وكان أمامهم ملك ظالم يأخذ كل سفينة صالحة، ويغتصبها غصبًا من أهلها، من أجل ذلك أردتُ أن أعيبها بهذا الخرق؛ كي تسْلَم لهم السفينة، ولا يأخذها الملك.

٨٠- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾

وأما الغلام الذي قتلتُه فقد طُبع كافرًا، وكان أبوه وأمه مؤمنيْن، فعلمنا أنه لو بقي الغلام حيًّا لكان سببًا في كفر أبويه وطغيانهما إرضاء ومحبة له، كما جاء في الحديث عن أُبيِّ بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الغلام الذي قتله الخضر طُبع يوم طُبع كافرًا، ولو أدرك، لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا»**[(١)] قال الخضر:

٨١- ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا[(٢)] رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا[(٣)] ﴿٨١﴾﴾

أي: فأردنا أن يبدل الله أبويه بمن هو خير منه صلاحًا ودينًا وبرًّا، وكان أبواه صالحيْن، فخشينا لو بقي الغلام حيًّا لحملهما على الكفر والطغيان لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه.

---

(١) مسلم في القدر (٢٦٦١) وأبو داود في السُّنة (٤٧٠٥) والترمذي في التفسير (٣١٥٠) وقال: حسن صحيح غريب، وعبد الله بن أحمد (٢١١٢١، ٢١١٢٢).

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بضم الياء وتشديد الدال من (أن يبدلهما) مضارع بدَّل، والباقون بإسكان الباء وتخفيف الدال مضارع أبدل.

(٣) قرأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بضم الحاء من (رحُما)، والباقون بإسكانها.

قيل: إن المرأة كانت حاملًا، فولدت بنتًا، وإن هذه البنت ولدتْ نبيًّا، وإن هذا النبي هدى الله به أمة.

وقال ابن جريج: إن أم الغلام يوم قُتِل كانت حاملًا بغلام مسلم.

ولكن هل يسوغ هذا في شريعة الإسلام، وأن يُقتل الصبي الذي لم يبلغ الحُلم، ويؤخذ بجريرة غيره؟ لعل هذا كان جائزًا في شريعة الخضر، أو لعل هذا قد حدث بمقتضى ما أطْلع الله عليه الخضر، وما سيؤول إليه الأمر، من أن هذا الغلام بعد بلوغه سيكون كافرًا، ويتسبب في كفر أبويه، فكان هذا هو سبب قتل الغلام.

وَرَدَ أن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس ﵄ يسأله عن قتل الصبية، فكتب إليه: إن كنت الخضر، تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم فاعتزِلهم[1].

٨٢- ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾

وأما الجدار المائل الذي عدَّلْته فكان لغلامين يتيمين في مدينة أنطاكية، وكان تحت هذا الجدار الآيل للسقوط كنز من ذهب وفضة للغلامين، فأراد ربك أن يُحتفظ بهذا الكنز حتى يكبر الغلامان ويبلغا قوتهما؛ إذ لو سقط الجدار قبل بلوغهما لتناولتْه الأيدي بالحفْر، وعثروا على الكنز، لذا: أبقيتُ الجدار ثابتًا فوقه.

وفي الأثر: (إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته) قال الخضر لموسى: هذا رحمة من ربك بهما، وما فعلتُ هذا كله من تلقاء نفسي، إنما فعلته بوحي من الله تعالى وأمر من عنده، وهذا الذي بينْتُ أسبابه توضيح للأمور التي لم تصبر على ترك السؤال عنها، والإنكار عليَّ فيها.

أخرج ابن جريج عن الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال:

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني نقله عن أحمد وابن أبي شيبة (٣/٣٠٩) وهو في «المسند» عن عطاء برقم (١٨٦٧) وقال محققوه: إسناده صحيح، وهو عند مسلم برقم (١٨١٢).

لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم: عجبتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبتُ لمن يوقن بالموت كيف يفرح؟ وعجبتُ لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا الله محمد رسول الله[١].

وجاء في أول القصة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ الآية [٧٩] في شأن السفينة، وقال في شأن الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ الآية [٨١] وقال في شأن الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾.

وذلك أن الخضر تأدب مع ربه في شأن السفينة والغلام، فلم ينسب الفعل فيهما إلى ربه، وأسندهما إلى نفسه، أما في شأن الجدار، فالزمن فيه طويل، وهو من أمور الغيب الذي يحدث في المستقبل، فناسب هذا أن يسند الفعل فيه إلى ربه.

أخرج البيهقي وغيره عن أبي عبد الله المَلَطِيِّ قال: أراد موسى أن يفارق الخضر، فقال له موسى: أوصني؛ قال: كن نفّاعًا ولا تكنْ ضَرَّارًا، كن بشّاشًا ولا تكن غضبانًا، ارجع عن اللَّجاجة، ولا تمشِ في غير حاجة، ولا تُعيِّر امرأً بخطيئته، وابكِ على خطيئتك يا ابن عمران[٢]. **ويؤخذ من القصة:**

١- أن الإنسان مهما أوتي من العلم، فعليه أن يطلب المزيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقد أمر الله رسوله بطلب زيادة العلم، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

وقال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

٢- ويؤخذ منها استحباب الرحلة في طلب العلم والبحث عنه، ولو في أقصى البلاد:

قال البخاري: رحل جابر بن عبد الله رضي الله عنه مسيرة شهر إلى عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه في طلب حديث.

---

(١) وجاء أيضًا عن أبي ذر يرفعه، وعن ابن عباس وعلي ومجاهد، كما عند البزار عن أبي ذر برقم (٤٠٦٥) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٣): رواه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات. وانظر: البيهقي في الزهد (٥٤٤) وابن عساكر (١٦/ ٤١٥) والحاكم (٢/ ٣٦٩).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٦٩٤).

٣- ويؤخذ أيضًا وجوب التواضع وخفض الجناح، والتلطُّف مع المعلِّم ولو كان مفضولًا والمتعلم فاضلًا، والاعتذار له عند الحاجة، ولا بأس أن يشترط المعلِّم على المتعلم شروطًا معينة، ومنها وجوب التأني والتثبت في الأمور.

٤- ثم إن العلم علمان: علم لدنيٌّ يهبه الله تعالى لمن يشاء فيفيض به عليه عن طريق الوحي، أو إلقائه في رُوعه، كما حدث في قتل الخضر للغلام، فقد كان ذلك بوحي من الله تعالى حفظًا للدين.

والعلم الآخر: علم مكتسب يحصِّله الإنسان باجتهاده وتحصيله.

٥- ويؤخذ من القصة أيضًا وجوب تقديم المشيئة قبل الإقدام على العمل، وأن صلاح الآباء ينفع الأبناء.

٦- كما يؤخذ منها أن على الصاحب ألا يفارق صاحبه؛ حتى يبين له الأسباب في الأمور المخالفة للعادة أو للظاهر.

٧- ومن القواعد المقررة: دفع الضرر الأكبر بارتكاب الضرر الأصغر، فرب ضارة نافعة، ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع، وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وهذا يتمثل في قصة خرق السفينة ونحوها.

٨- الخضر كان نبيًّا يوحى إليه على الأرجح، وقد مات كما يموت سائر البشر، وخبره قد انتهى بهذه القصة.

٩- جواز اتخاذ الخادم في الحضر والسفر، واستحباب أن يكون ذكيًّا فطنًا كيِّسًا، ومؤاكلته ومجالسته ومحادثته.

١٠- جواز ارتكاب أخف الضررين ، ودفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير.

١١- القتل من أكبر الذنوب، والقتل قصاصًا غير منكر.

١٢- لا يؤاخذ الإنسان بالنسيان، لا في حق الله ولا في حقوق العباد.

١٣- من لا صبر له لا يدرك العلم، ومن لازم الصبر حصّل العلم(١).

---

(١) ينظر نحو هذه النقاط في تفسير ابن سعدي عند نهاية القصة.

قِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ

٨٣- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

وتأتي القصة الرابعة في السورة: قصة ذي القرنين، وهي ضمن الأسئلة الثلاثة التي وجهها مشركو مكة بواسطة يهود المدينة إلى النبي ﷺ، كما سبق ذكرها في سبب النزول أول السورة.

وهناك سبب خاص ذكره ابن أبي حاتم عن السدِّي قال: قالت اليهود للنبي ﷺ: يا محمد، إنك إنما تَذكُر إبراهيم، وموسى، وعيسى، والنبيين؛ لأنك سمعت ذِكْرهم منا، فأخبِرْنا عن نبي لم يَذْكُره الله في التوراة إلا في مكان واحد، قال: ومن هو؟ قالوا: ذو القرنين، قال: ما بلغني عنه شيء، فخرجوا فرحين قد غَلبوا في أنفسهم، فلم يبلغوا باب البيت، حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾[1].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أدري: أتُبَّع كان لَعينًا أم لا؟ وما أدري: أذو القرنين كان نبيًّا أم لا؟»**[2].

قال البقاعي: كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل طلب العلم، وكانت قصة ذي القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله، ولما كان العلم أساس الجهاد، تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذي القرنين[3]، والسائلون عن القصة هم كفار قريش بتلقين من اليهود.

وذو القرنين ملك صالح عادل، طاف المعمورة من الأرض في وقته، شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وهو الذي بنى الإسكندرية وسماها باسمه، ودانت له ملوك العرب والروم والفرس والبربر، وغزا البلاد القريبة والبعيدة، وبوَّب الأبواب، وبنى السدود[4].

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٣١٣) و«الدر المنثور» (٩/ ٦٢٩).

(٢) صححه الحاكم على شرط الشيخين، وقال: لا أعلم له علة، ووافقه الذهبي (١/ ٣٦)، (٢/ ٤٥٠) و«التاريخ الكبير» للبخاري (١/ ١٥٣) ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٧).

(٣) «نظم الدرر» للبقاعي (١٢/ ١٢٨).

(٤) «تفسير الخازن» (٣/ ٢٠٩).

وسُمِّي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرني الشمس في المشرق والمغرب، أو لأنه أطال شعره وضفَّره ضفيرتين، والعرب يطلقون القرن على الضفيرة من الشعر.

وفي حديث أم عطية ﵂ في صفة غُسل ابنة النبي ﷺ قالت: إنهن جَعلْن رأسَ بنت رسول الله ﷺ ثلاثة قرون، نقضْنَه ثم غسلْنه، ثم جعلْنه ثلاثة قرون[١].

وقيل: إن ذا القرنين كان يلبس خوذة في الحرب بها قرنان، ولهذا كان يلقب بذي القرنين.

والأرجح: ما أخرجه الضياء المقدسي بسند صحيح إلى أبي الطفيل، قال: سمعتُ ابن الكوَّاء يسأل عليَّ بن أبي طالب ﵁ عن ذي القرنين، فقال عليٌّ: لم يكن نبيًّا ولا ملكًا، كان عبدًا صالحًا أحبَّ الله فأحبه، وناصح الله فناصحه الله، بُعث إلى قومه فضربوه على قرنه فمات، فبعثه الله، فسُمِّي ذي القرنين[٢].

قال مجاهد: أربعة ملَكُوا الأرض: مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان وذو القرنين، والكافران: بُخْتَنَصَّر والنمروذ[٣].

وأخرج الحاكم عن معاوية ﵁ قال: ملَكَ الأرض أربعة: سليمان، وذو القرنين، ورجل من أهل حُلوان، ورجل آخر، فقيل له: الخضر؟ قال: لا[٤].

وقد أُطلِق ذو القرنين في التاريخ على عدد من الرجال منهم رجلان يقال لهما: ذو القرنين:

أحدهما: كان قبل الميلاد بنحو ستة قرون، وكان مَلِكًا صالحًا.

والآخر: كان قبل عهد عيسى ﵇ بمئتيْن وسبع وأربعين سنة، وهو الإسكندر اليوناني المقدوني تلميذ أرسطو، وكان كافرًا وثنيًّا، وبينهما أكثر من ألفي سنة، ومنهم مَنْ كان مَلِكًا مِنْ ملوك فارس، ومنهم مَنْ كان مِنْ ملوك الصين، ولا يعنينا إن كان ذو القرنين الذي ذكره القرآن هو من ملوك الصين، أو من ملوك فارس، أو من ملوك اليمن، وهم قوم تُبَّع -ملوك

(١) البخاري (١٢٦٠) ومسلم (٩٣٩).

(٢) «المختارة» برقم (٥٥٥) وأخرجه ابن عبد الحكيم في «فتوح مصر» ص ٤٠، وابن أبي عاصم في «السُّنة» (١٣١٨) وصححه ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٣٨٣) وأخرجه الطبري في التفسير (١٦/ ٩) وسنده صحيح.

(٣) «البحر المحيط» (٦/ ١٥٧).

(٤) الحاكم (٢/ ٥٨٩).

حمير- وهم الذين كانوا يُسَمُّون ملوكهم بذي يزن، وذي نواس، وذي القرنين.

ولعل ذا القرنين المذكور في القرآن هو المعروف بـ (قورش)

وكان ذو القرنين -صاحب القصة في القرآن- رجلًا صالحًا، وليس نبيًّا على الأرجح، وهو رجل مكَّن الله له في الأرض، وآتاه من كل شيء سببًا، أي: يسَّر الله له السبل لفتح البلاد، ودعوة أهلها إلى الإيمان.

قال سفيان: إن الله تعالى سخَّر له النور والظلمة: فالنور يسير أمامه في أي وقت يشاء، وتحيطه الظلمة من ورائه.

وأخرج الضياء المقدسي بسنده إلى حبيب بن جماز قال: كنت عند علي بن أبي طالب، ﷺ وسأله رجل عن ذي القرنين كيف بلغ المشرق والمغرب؟ قال: سبحان الله، سُخِّر له السحاب، ومُدَّت له الأسباب، وبُسِط له النور، فقال: أزيدك؟ قال: فسكت الرجل وسكت عليٌّ[1].

والمعنى: يسألك -يا محمد- هؤلاء المشركون من قومك عن خبر العبد الصالح والملك العادل ذي القرنين، قل: سأقص عليكم من أخباره ما تتذكرون وتعتبرون به.

٨٤، ٨٥- ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا[2] ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ[3] سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

إنا جعلنا ذا القرنين رجلًا صاحب نفوذ وسلطان في أقطار الأرض المختلفة، ومكناه من التصرف فيها كيف يشاء، وأعطيناه من كل شيء يريد الوصول إليه؛ لتقوية ملكه، أعطيناه أسبابًا وطُرقًا لفتح المدائن، وقهر الأعداء، من سبُل التنقل، وكثرة الجند، ووسائل

---

(١) «المختارة» برقم (٤٠٩) وصححه المحقق، ونقل توثيق العجيلي لحبيب بن جماز، كما في «تعجيل المنفعة» (٤/٨).

(٢) قوله تعالى (من كل شيء سببا) و (فأتبع سببا) في هاتين الآيتين وفي الآيتين (٨٩) و (٩٢) عدّها آية في المواضع الأربعة المصحف العراقي، أي البصري والكوفي وترك عدّها الآخرون.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بهمزة قطع وإسكان التاء في (فأتبع سببا) و(ثم أتبع سببا) على أنه فعل ماض متعد بالهمز ومفعوله (سببًا) أو أنه متعد لمفعولين على أن (سببًا) مفعول ثان والمفعول الأول محذوف تقديره: فأتبع أمره سببًا، وقرأ الباقون بهمزة وصل وتشديد التاء، على أنه فعل ماض، أدغمت تاء الافتعال في تاء الكلمة، وهو على وزن افتعل، وهما لغتان.

البنيان والعلم والقدرة والعمران، ويَسَّرْنا له أسباب المُلْك والسلطان والفتح والعمران.

فأخذ ذو القرنين بتلك الأسباب والطرق بجد واجتهاد، فسلك الطريق الذي يسَّره الله له إلى المكان الذي تغرب فيه الشمس في الرحلة الأولى له.

رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الأُولَى إِلَى أَقْصَى الْغَرْبِ

٨٦- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[(١)] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا[(٢)] قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

وكان لذي القرنين رحلات ثلاث: رحلة إلى أقصى بلاد المغرب، ورحلة إلى أقصى بلاد المشرق، ورحلة إلى أقصى الشمال الشرقي.

أما رحلة المغرب فقد وصل فيها إلى شاطئ البحر المحيط، ولعله وقف عند أحد مصبَّات الأنهار، في مكان تكثُر فيه الأعشاب، وتوجد فيه البِرَك، ويختلط فيه الماء بالطين الأسود، فنظر، فإذا الشمس تغرب في هذه العين، في رؤية العين، ووجد الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حارة، ذات طين أسود وهي عين حامية، كما في القراءة الثانية، أي: حارة من وهج الشمس.

أرسل معاوية إلى كعب يسأله: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ قال: أما العربية فلا علم لي بها، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين، وأشار بيده إلى المغرب[(٣)]

وفي الحديث: أن أبا ذر ﷺ كان خلْف رسول الله ﷺ حين غربت الشمس فقال له: **«أتدري أين غربت هذه؟»** قال: لا، قال: **«فإنها تغرب في عين حمئة»**[(٤)].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب بهمزة من غير ألف هكذا (حمئة)، وقرأ الباقون بألف بعد الحاء وإبدال الهمزة ياء مفتوحة هكذا (حامية)، والحمأ: هو الطين الأسود. والحامية: هي الحارة، فيكون المراد: أن الشمس تغيب في عين حارة ذات طين أسود.

(٢) قوله تعالى (ووجد عندها قوما) لم يعدها آية المدني الأخير والكوفي وعدها آية الباقون.

(٣) يُنظَر: عبد الرزاق (١/ ٤١١) والطيالسي (٥٣٨) وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٣٧): صحيح المتن.

(٤) يُنظَر البخاري برقم (٣١٩٩، ٤٨٠٢) ومسلم برقم (١٥٩) مطولًا.

فهذا يدل على أن العين التي تغرب فيها الشمس عين حامية.

قال ابن عاشور: والظاهر أن هذه العين من عيون النفْط، الواقعة على ساحل بحر الخزر، حيث مدينة (باكو)، وفيها منابع النفْط الآن، ولم يكن معروفًا يومئذ، والمؤرخون المسلمون يسمونها البلاد المنتنة[١].

ولا يمنع مانع أن يكون ذو القرنين قد عبر المحيط، ورأى غروب الشمس في تلك العين، ولكن يرجح أن ذا القرنين نظر إلى الشمس وهو يقف على ساحل البحر المحيط الغربي، وليس أمامه إلا الماء، حيث لا يرى شاطئًا آخر، فرأى الشمس كأنها تغيب في الماء في نظر عينيه، والذي يقف في صحراء ولا يرى أمامه إلا الجبل يرى كأن الشمس تغيب وراء هذا الجبل، وهو غير صحيح، وإنما هذا منتهى الرؤية البصرية.

وَوَجَدَ ذو القرنين في هذا المكان قومًا كانوا أخلاطًا، فيهم المحسن والمسيء، فأعلن دستوره في البلاد التي يفتحها، وكيف يعامل أهلها، فوضع الله له هذه الخطة:

بالنسبة للظالمين، فإنه يعذبهم ويرهِّبهم، حتى تعود النفوس إلى رشدها.

وبالنسبة للمؤمنين الصالحين فإنه يقابلهم بالإحسان.

وهذا أسلوب حكيم يتبعه كل حاكم صالح في أي زمان ومكان، فأعلن أنه سوف يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وإلى توحيده، فمن يصرُّ منهم على الكفر والشرك يعذبه ويأسره ويقتله، ومن يؤمن منهم ويعمل الصالحات يعامله معاملة حسنة ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل أوالأسر أوالحبس أو الضرب، ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالدعوة إلى الهدى والإيمان، اختر أحد الأمرين.

ولفظ: ﴿قُلْنَا﴾ وحي من الله سبحانه، أو إلهام منه سبحانه لذي القرنين.

والظاهر أنهم كانوا كفارًا أو فساقًا، لأنهم لو كانوا مؤمنين لم يرخص له في تعذيبهم، فكان عنده من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء لتوفيق الله له في ذلك.

فقال ذو القرنين: سأجعلهم قسمين: ظالم ومؤمن.

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/٢٨).

٨٧- ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾

اختار ذو القرنين الطريق الثاني، وهو أن يدعوهم ويَصْبر عليهم، قال: أما من ظلم نفسه وبقي على الكفر والشرك بربه فسوف نعذبه في الدنيا بالقتل أو الأسر، ثم يرجع إلى ربه في الآخرة فيعذبه عذابًا أعظم في نار جهنم، فتحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة.

٨٨- ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً[1] ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا[2] ﴿٨٨﴾﴾

أي: ومن آمن منهم بربه فصدَّق به، ووحَّده فاستجاب للدعوة، وعمل بطاعة الله، وأكثر من الصالحات فإنه يلقى عند الله الجزاء الحسن بدخوله الجنة في الآخرة، ونعامله في الدنيا معاملة حسنة، فيحصل له حسن الجزاء في الدنيا والآخرة، وهذا يدل على أنه كان من الملوك الصالحين والأولياء العادلين، حيث وفقه الله تعالى إلى هذا الحكم العادل.

رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الثَّانِيَةُ إِلَى أَقْصَى الشَّرْقِ

٨٩، ٩٠- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾

واستأنف ذو القرنين رحلته نحو المشرق متبعًا الأسباب التي أعطاه الله إياها، فما لقي أمة، ولا مرَّ بمدينة، إلا دانت له ودخلت في طاعته، وكل من عارضه أو توقف عن أمره جعله عبرة وآية لغيره.

وصل ذو القرنين إلى مطلع الشمس، وعندها وجد قومًا متخلفين، لزيادة همجيتهم وتوحُّشهم، وعدم تمدُّنهم، يسكنون في صحراء مكشوفة، لا يثبت عليها بنيان، ولا يحجبهم من الشمس حجاب، لا أشجار ولا جبال، ولا لباس يسترهم، فهم قوم عراة، والشمس عندهم دائمة، ولا تغرب عنهم إلا غروبًا لا يذكر.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بهمزة مفتوحة منونة منصوبة في (جزاء الحسنى) مع كسر التنوين وصلًا لالتقاء الساكنين، على أنه مصدر في موضع الحال، وقرأ الباقون بالرفع من غير تنوين هكذا (جزاءُ الحسنى) على أنه مبتدأ مؤخر خبره الجار والمجرور قبله، والحسنى مضاف إليه، وأمال (الحسنى) حمزة والكسائي وخلف، وقللها أبو عمرو وورش بخلفه.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم السين من (يُسُرًا)، والباقون بإسكانها.

والمكان الذي وصل فيه ذو القرنين عند مطلع الشمس؛ ربما كان على ساحل بحر اليابان في حدود كوريا شرقًا، ووجد هناك قومًا يتقون شعاع الشمس في الكهوف ونحوها؛ فليس لهم بنيان يسترهم، ولا شجر يظلهم، ولم نجعل لهم ما يسترهم ولا ما يحجبهم عن الشمس، فهي أرض مكشوفة واسعة، تشبه شاطئ أفريقيا الشرقي الجنوبي.

فكانوا إذا طلعت الشمس يدخلون في سراديب تحت الأرض، أو أسراب أو كهوف ومغارات، وقد يدخلون في ماء البحر، فإذا غربت الشمس خرجوا إلى معاشهم وأحوالهم ومكاسبهم؛ حيث لا يستقر لهم بنيان في هذا المناخ، ولو سلط الله عليهم الشمس لأحرقتهم، ولكن يسترهم في العراء: السحاب، والغمام، وبرْد الهواء، والأشجار..، ولا يستترون منها في البنيان والخيام والمظلات.

قال قتادة: مضى ذو القرنين يفتح المدائن، ويجمع الكنوز، ويقتل الرجال إلا من آمن، حتى أتى مطلع الشمس، فأصاب قومًا في أسرابٍ عراة، ليس لهم طعام إلا ما أنضجتْه الشمس إذا طلعت، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معايشهم، وذُكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان، ويقال: إنهم الزنج[1].

وقد عاملهم ذو القرنين بما عامل به أهل المغرب، أي: بالدستور الذي أعلنه في رحلاته الجهادية، عندما توجه جهة المغرب، فلسنا في حاجة إلى تكراره في رحلتي المشرق والشمال. قال تعالى:

٩١- ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾

وكما بلغ ذو القرنين مغرب الشمس، بلغ مطلعها، وكلما مرَّ بأمة دعاهم إلى الله تعالى، فإن أطاعوه، وإلَّا قهرهم وأذلهم، وحَكَم في القوم الذين هم عند مطلع الشمس كما حَكَم فيمن هم عند مغربها، وقد أحاط علم الله تعالى إحاطة تامة بما عند ذي القرنين من: جنود، وآلات، ومال، وأسباب النفوذ والملك والسلطان، حيثما توجَّه وسار.

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ١٨٧) و«تفسير الطبري» (١٦/ ١٤).

رِحْلَةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ الثَّالِثَةُ إِلَى شَمَالِ الْكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ

٩٢، ٩٣- ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ[١] وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ[٢] قَوْلًا﴾

ثم سار ذو القرنين آخذًا بالطرق والأسباب التي منحها الله إياه، فتوجه في مسيرههذه المرة نحو طريقٍ معترضٍ بين المشرق والمغرب متوجهًا نحو الشمال، حيث الجبال الشاهقة.

وواصل ذو القرنين مسيره إلى منطقة تقع بين جبلين عظيمين (السدين) يحجزان ما وراءهما، وهما سدّان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، يسدان بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، واصل سيره مستأنفًا رحلته الثالثة نحو الشمال، ووجد في هذه الأماكن قومًا يشبهون أهل المشرق في التخلف والعجز، ولكن لهم جيرانًا يُغيرون عليهم، وينالون منهم، وهم لا يكادون يفقهون قولًا، ولا يفهمون كلام غيرهم إلا بواسطة الترجمة، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، مَافَقِهَ به ألسنة هؤلاء القوم، فراجعهم وراجعوه، واشتكوا إليه أضرار يأجوج ومأجوج.

يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ

٩٤- ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ[٣] وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[٤] عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا[٥] ۝٩٤﴾

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين من (بين السدين)، والباقون بضمها، وهما لغتان بمعنى واحد.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الياء وكسر القاف من (يُفقِهون) من أفقه غيره، أي: أفهمه، وهو متعد لمفعولين: الأول محذوف، أي: لا يُفهمون السامع كلامهم، والثاني (قولًا)، وقرأ الباقون بفتح الياء والقاف من فَقِه الثلاثي فيتعدى لمفعول واحد، أي: لا يفقهون كلام غيرهم؛ لجهلهم بلسانهم.

(٣) قرأ عاصم بهمزة ساكنة في لفظي (يأجوج ومأجوج) وهي لغة بني أسد، والباقون بإبدالهما حرف مد، أي: بدون همزة، وهي لغة أكثر العرب.

(٤) قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الراء وألف بعدها من لفظ (خرجا) هكذا (خَرَاجًا)، والباقون بسكون الراء وحذف الألف (خَرْجا)، وهما لغتان بمعنى واحد، وقيل: الخراج: ما يُضرب على الأرض كل عام. والخرج: ما يُجعل من المال مرة واحدة من غير تكرار.

(٥) قرأ نافع وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم السين من (سدًّا)، والباقون بفتحها، وهما لغتان بمعنى واحد.

حينما رأى أهلُ الشمال ذا القرنين استعانوا به على قبيلتي يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان كبيرتان من أبناء يافث بن نوح.

في حديث سمرة بن جندب ﷺ: **«وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»**[1] فالترك منهم.

ويأجوج ومأجوج قوم هَمَج، لا يضبطُهم وخْيٌ، ولا تحكمهم شريعة، وهم مفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد والنهْب والسبْي، يقطعون الطريق ويغتصبون الأموال، وينتهكون الحرمات.

وظهور يأجوج ومأجوج بخروجهم من وراء السد يكون بعد نزول عيسى ﷺ وقتْله للمسيخ الدجال ضمن علامات الساعة الكبرى، واقتراب خروجهما لا يستلزم وقوعه بالفعل وقت التنزيل، بل معناه: الاقتراب مع مهلة، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]. ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]. ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

ودلت الآية على أن القوم لا يقدرون بأنفسهم على بناء السد، وأنهم عرفوا قدرة ذي القرنين على بنائه، فعرضوا عليه الأجرة مقابل البناء، وذكروا له السبب، وهو إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض، ولم يكن ذو القرنين طالب دنيا ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية، فلذلك أجابهم إلى مطلبهم دون أجرة، وشكر ربه على تمكينه واقتداره.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- قوله ﷺ كما جاء في الصحيحين وغيرهما: من حديث زينب بنت جحش ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ من نومه وهو محمرٌّ وجهه، وهو يقول: **«لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه»** -وحلَّق بين

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٩) برقم (٢٠١١٤) بإسناد ضعيف لأن ابن أبي الحسن البصري لم يصرح بالسماع، (محققوه) وأخرجه الطبري في تاريخه (١/ ٢٠٩) والترمذي (٣٢٣١) والطبراني في الكبير (٦٨٧١).

أصابعه- قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم، إذا كثر الخبث»**[١].

٢- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»**، وعقد بيده تسعين[٢].

وفَتْحُ شيء من السدِّ في زمن النبي ﷺ، كما جاء في هذا الحديث، يشير إلى بداية ظهور فساد يأجوج ومأجوج في الأرض، ولا ينافي اقتراب دَكِّ السد يوم القيامة؛ فإن بعثة النبي ﷺ من علامات الساعة.

ظهور المسيح الدجال:

وفي حديث النواس بن سمعان ﷺ في صحيح مسلم وغيره: أن النبي ﷺ ذكر المسيخ الدجال ذات يوم، فرفع رأسه وخفضها، ثم ذكر لأصحابه أنه يخاف عليهم فتنة الدجال، فإنه إن يخرج وهو فيهم فهو حجيجهم، وإن يخرج وهو ليس فيهم فكل امرئ حجيج نفسه.

ثم وصف النبي ﷺ الدجال فقال: **«إنه شاب قطط، عينُه طافئة، أشبه بعبد العُزَّى، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»**.

وبيَّن ﷺ أنه يخرج بين الشام والعراق، وأنه يعيث في الأرض فسادًا يمينًا وشمالًا، وأنه يمكث في الأرض أربعين يومًا، يومًا كسنة، ويومًا كشهر، ويومًا كجمعة، ويومًا كسائر أيامكم.

ثم بيَّن ﷺ ما يظهره الله على يديه فتنة للناس، ومنها:

أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنبت فتنبت، ويمرُّ بالأرض الخربة، فيقول لها: أَخرِجي كنوزك فَتَخرِج كنوزها، ويدعو شابًّا مُمْتلِئًا فيضربُه بالسيف، ويجعله نصفين، ثم يدعوه فَيُقْبل عليه حيًّا، يتهلَّل وجهه بالضحك، وأنَّ من يؤمن به تكثُر أرزاقُه، ومن لا يستجيب له يُصبح وليس بيده شيء من ماله.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٠، ٢٢٠٧).

(٢) «المسند» (٨٥٠١، ١٠٨٥٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري (٣٣٤٧، ٧١٣٦) ومسلم (٢٨٨١) وابن أبي شيبة (٥/ ٦٢).

نزول عيسى ونهاية يأجوج ومأجوج:

ثم قال النبي ﷺ: **«فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ، واضعًا كفيه على أجنحة ملَكين، فيطلب الدجال فيدركه بباب لد فيقتله»**، ثم قال ﷺ: **«ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمرُّ أوائلهم على بُحيرة طبريَّة فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم، فيقولون: لقد كان بهذه ماء.**

ثم يرسل الله عليهم دودًا قاتلًا في رقابهم فيموتون، وتمتلئ الأرض بنَتَنهم، ثم يرسل الله طيرًا كأعناق البُخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ويرسل الله مطرًا، فتُغسَل الأرض من آثارهم، ثم يقال للأرض: أَخْرِجي ثَمركِ، ورُدِّي بركَتك، فيومئذٍ يشترك العدد من الناس في أكل الحبَّة الواحدة من الفاكهة، وتكفي الْحَلْبة الواحدة من الإبل، أو البقر، أو الغنم، لعدد كبير من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل امرئ مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة»[1].

وفي هذا الحديث الصحيح بيان شافٍ لثلاثة من علامات الساعة الكبرى، وهي:

١- ظهور المسيخ الدجال.

٢- ونزول عيسى عليه السلام.

٣- وخروج يأجوج ومأجوج.

- وجاء في البخاري: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لَيُحَجَّنَّ البيت ولَيُعْتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج»**[2].

- وأخرج الترمذي وغيره بسند صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال في السدِّ: **«إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا، فيعيده الله كأشد ما كان، حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله أن**

---

(١) يُنظَر النص بطوله في: «صحيح مسلم» برقم (٢٩٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٥٩٣).

يبعثهم على الناس قال للذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا إن شاء الله واستثنى، قال: فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه، فيخرقونه فيخرجون على الناس، فيستقون المياه، ويفرُّ الناس منهم، فيرمون بسهامهم في السماء، فترجع مخضَّبة بالدماء، فيقولون: قهَرْنا مَن في الأرض، وعلَوْن مَن في السماء قسْرًا وعُلُوًّا، فيبعث الله عليهم نغَفًا في أقفائهم فيهلكون، فوالذي نَفْسُ محمد بيده: إنَّ دواب الأرض تسْمَن وتبْطر، وتشكَر شَكَرًا من لحومهم»[١].

ومعنى **تشكَر**، بفتح الكاف، أي: أنها تَسْمَن وتمتلئ شحمًا.

وشَكَرًا، بفتح الشين والكاف، أي: أنها سَمِنَتْ وامتلأ ضرعُها لبنًا[٢].

- وفي الصحيحين: من حديث أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بَعْثَ النار، فيقول: وما بعثُ النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة! فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمَّتين، ما كانتا في شيء إلا كثَّرتاه: يأجوج ومأجوج»**[٣].

ومع أن هؤلاء القوم الذين هم وراء السدين، كانوا لا يفهمون كلام غيرهم، فإنهم بذلوا جهدًا في إبلاغ ذي القرنين أن قبيلتي يأجوج ومأجوج المجاورين لهم يُغيرون عليهم، وأنهم مفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد، ثم قالوا له: هل نجعل لك مقدارًا كبيرًا من أموالنا على سبيل الأجرة؛ لكي تقيم بيننا وبين قبيلتي يأجوج ومأجوج حاجزًا منيعا يحول بيننا وبينهم؟

موقع السد: وهذا السد يقع شمال الصين، وجنوب منغوليا، وهو الردم الفاصل بين الصين وبلاد المغول، وقد وُجد السدُّ هناك، ولم تزل آثاره إلى اليوم يشاهدها السائحون

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٥٣) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٢٠) و«سنن ابن ماجه» (٤٠٨٠) وصحيح سنن ابن ماجه (٣٢٩٨) والسلسلة الصحيحة (١٧٣٥) و«صحيح ابن حبان» برقم (٦٨٢٩) الإحسان، وصححه محققه، كما صححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٤/ ٤٨٨).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٩٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٤٨، ٤٧٤١، ٦٥٣٠، ٧٤٨٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢٢٢).

والجغرافيون، وصُوِّرت له صور شمسية في كتب الجغرافيا، وكتب التاريخ العصرية[١] وهو ما يعرف بالسور الأعظم.

مَنْ يأجوج ومأجوج؟

وبناء عليه: فإن يأجوج ومأجوج هما المغول والتتار، وقد تشتَّت مُلْك المسلمين بأيدي المغول والتتر، بخروج جنكيز خان المغولي واستيلائه على بخارى سنة ست مئة وست عشرة هجرية، وخرب هولاكو بغداد عاصمة الإسلام سنة ست مئة وستين هجرية.

هل هما قبيلة واحدة أم قبيلتان؟ يقال: إن (يأجوج ومأجوج) كلمة واحدة مركبة تركيبًا مزجيًّا، والواو ليست عاطفة، ولكنها جاءت في صورة الواو العاطفة، فتكون الكلمة اسمًا لأمة واحدة هي المغول.

وقيل: إن الواو عاطفة، فتكون أمة كثيرة العدد ذات شعبين مأجوج وهم المغول، ويأجوج وهم بعض أصناف التتر، وهو الأرجح، وكانا متجاورين.

يأجوج ومأجوج من أبناء يافث واستقرَّا في منغوليا:

وهما من أبناء يافث بن نوح من صلبه، وكان نوح قد اختار له الشمال الشرقي من الأرض مسكنًا، ضمن تقسيمة الأرض لأبنائه الثلاثة بعد الطوفان، وهي مساحة واسعة مرتفعة استقر فيها يأجوج ومأجوج وذريتهم، وتحول الاسم بعد ذلك عبر العصور إلى (منغوليا) ولهم أسماء مختلفة عند الآشوريين والصينيين والأوروبيين[٢].

وتقع منغوليا في قارة آسيا، وهي أكثرها ارتفاعًا ووُعورة، ومن جهة الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي تمتد سلسلة جبال ألطاي، بطول يزيد على سبع مئة ميل، وارتفاع يصل إلى خمسة عشر ألف قدم فوق سطح البحر.

ومنغوليا: هضبة مرتفعة مغلقة تحيط بها سلسلة من الجبال الشاهقة والمنيعة، وهي تتصل بالعالم عبر ممرات جبلية تربطها بالصين من الجنوب والشرق، وبأوروبا من

---

(١) يُنظَر: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (١٦/ ٣١).

(٢) يُنظَر: كتاب «يأجوج ومأجوج» د/ الشفيع المليحي أحمد، ص ٥، دار ابن حزم بالرياض، ط بيروت، طبعة أولى (١٤١٦)هـ.

الغرب، ومن جهة الشمال والجنوب لا تتوافر فيها ممرات، نظرًا لارتفاعها الشاهق وبرودتها القارسة.

أوصافهم: ويشترك يأجوج ومأجوج مع إخوانهم من سلالة يافث في نظام الجسم العام والملامح العامة، بيد أن الله تعالى جعل لهم هيئة مَيَّزَتْهم عن إخوانهم، وركَّب فيهم صفات وخصائص معينة تتسم بالشدة والاضطراب والسرعة، واصطبغوا بالتأجج الذي يشبه النار المشتعلة المؤججة، ومنه اشتق اسمهم، وقد أحدثوا من الخراب والفساد الشيء الكثير؛ لِمَا تنطوي عليه نفوسهم من القسوة والعنف والهمجية والوحشية والشراسة.

وهم ذوو أجسام ضخمة قصيرة، وسِمَن يحجبُ مفاصلهم، وأبدانهم رطبة مسترخية، وتجاويفهم السفلى تمتلئ رطوبة؛ إذ لا يمكن للبطن أن ييبس في مناخ بلادهم، وعيونهم صغيرة سوداء اللون، ومدفونة في الرأس بعمق، وأنوفهم مسطحة ملساء، وشعرهم أسود صلب، وأجسامهم مربوعة القامة ممتلئة، وأكتافهم عريضة، ورقابهم غليظة وصلبة، ورؤوسهم كبيرة، هكذا شاهدهم الأوروبيون في القرن الخامس الميلادي حين أغاروا عليهم، وهكذا يوصف المغول.

قال البلخي: إن الغالب عليهم خفس العيون، وفطس الأنوف، وقِصَر القامة، وهم أسوأ الناس عيشًا، وأخبثهم طعمًا، وأقلهم تمييزًا أو فطنة[(١)].

من مفاسد المغول والتتار:

ومن فساد المغول أنه قُتِل على أيديهم في الفترة التي غزوْا فيها الصين والعالم الإسلامي، [٦٠٨-٦٢٠هـ] عددًا من الخلق يُقدّر بأكثر من ثمانية عشر مليونًا من الأنفس، وكان عدد القتلى في المجر (هنغاريا) ١٣٥ ألف شخص بالإضافة إلى غيرها من مناطق أوروبا[(٢)].

والتاريخ لم يتضمن مثل ما فعلوه من آدم إلى وقتنا، ناهيك عن تخريبهم لبلاد البلقان، فقد بلغ من الوحشية والقسوة ما يربو على أربعة قرون تحولت فيه المدن إلى أطلال بالية تأوي إليها البوم والوحوش.

---

(١) «البدء والتاريخ» للبلخي (٦٤).

(٢) «البدء والتاريخ» للبلخي ص ٣٣١.

وقد حكم المغول العالم الإسلامي ردْحًا من الزمن، ذابوا خلاله في أمة الإسلام ذوَبانًا لم يترك لهم بقية من خصائص ومميزات، وقد حرصوا على إضفاء الطابع الإسلامي على أنفسهم في كل تصرفاتهم ومظاهر حياتهم الخاصة والعامة، فكانوا يحرصون على أداء الصلاة في المساجد، واهتموا بفريضة الحج، واتخذوا لأنفسهم ألقابًا إسلامية، وتسمَّوا بأسماء عربية إسلامية، وكان هذا في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

ومنذ القرن السابع قبل الميلاد، وحتى القرن الثالث عشر الميلادي وهم يغيرون على الصينيين والآشوريين والرومان والمسلمين في سلسلة من خروج يأجوج ومأجوج، وقد أرَّخ القرآن الكريم لهم في سياق قصة ذي القرنين (قورش)[1].

وصف مكان السدين:

وكان ذو القرنين بعد انتهاء مهمته في جهة الشرق قد توجه شمالًا تاركًا بحر قزوين عن يمينه، متوجهًا إلى جنوب جبال القوقاز، حيث عسكر بجيشه على شاطئ نهر قورش، الذي سُمِّي باسمه، وتمتد سلسلة جبال القوقاز من البحر الأسود حتى بحر قزوين.

وفي وسط سلسلة الجبال هذه، يوجد مضيق نحو الشرق، يشق هذه السلسلة طولًا، ويكوِّن جبلين منفصلين في موقع فريد يحجز بين سلسلتين من الجبال، بينهما ممر أشبه بالثغرة، وكل من السلسلتين من الجبال تقف إحداهما في مواجهة الأخرى، كما يقف الجبلان وجهًا لوجه، حيث تمتد الأولى من الممر شرقًا حتى بحر قزوين، وتمتد الثانية غربًا حتى البحر الأسود، وهو موضع السدين المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ وكان هذا المضيق هو المنفذ، أو الرابط الوحيد بين شمال آسيا وجنوبها[2].

قال أهل الشمال لذي القرنين: هل نعطيك أموالًا على أن تقيم حاجزًا وحصنًا منيعًا بيننا وبينهم حتى لا يؤذونا.

قال أهل التفسير: إن الأتراك كانوا في غارة لهم على قوم، أي: أن طائفة منهم كانوا قد خرجوا للإغارة على قوم، فضرب ذو القرنين السدَّ، فبقوا خارجه، فسموا أتراكًا؛ لأنهم تُركوا دون السد.

---

(١) «البدء والتاريخ» ص ٦٤.

(٢) نفسه ص ٦٥، ٦٦.

بِنَاءُ الرَّدْمِ

٩٥- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي[١] فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا[٢] ﴿٩٥﴾﴾

قال ذو القرنين في الرد عليهم: عندي أموال كثيرة من فضل الله، فلا أريد مالًا، ولكن أمدوني بالأيدي العاملة ومواد البناء أجعل بينكم وبينهم ما هو أعظم من السد وهو الردم.

قيل: إنه حفَر الأرض حتى وصل إلى الماء، وأقام أساسًا منيعًا من الصخر والحديد والنحاس المذاب. وهكذا قال ذو القرنين: إن الله قد بسط عليَّ من الرزق والمال والقوة ما هو خير من أموالكم التي تريدون أن تجعلوها لي لإقامة السد بينكم وبين يأجوج ومأجوج، فوفِّروا أموالكم، وقفوا إلى جانبي بسواعدكم وآلات البناء؛ حتى أجعل مواد البناء يتراكم بعضها فوق بعض بتكاثف، حتى تتصل وتتواصل بهذا الردم الذي هو أقوى وأبلغ من السد؛ لأن السد بين الجبلين يجعلهم يتسلقون إلى البلاد المجاورة، فأراد أن يبني سورًا ممتدًّا على الجبال في طول حدود البلاد؛ حتى يتعذر عليهم تسلق الجبال، وهذا ما سماه ردمًا، وأنه بنى جدارين مرتفعين، وردم الفراغ الذي بينهما بما يشبه الخرسانة.

وموقف ذي القرنين في عُلوِّ الهمة، والنفس الأبية، كموقف سليمان عليه السلام حين ردَّ هدية بلقيس قائلًا: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦].

وقد نُقل كلام القوم الذين لا يفقهون قولًا، إلى ذي القرنين، إما بواسطة مترجم له إلمام بلغتهم، أو أنه من الأسباب التي يسرها الله تعالى إليه؛ ليجوب الدنيا شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا.

---

(١) قرأ ابن كثير بنونين خفيفتين: الأولى مفتوحة والثانية مكسورة بدون إدغام في (مكنني)، على الأصل، والباقون بإدغام النونين (نون لام الفعل، ونون الوقاية) والنطق بنون واحدة مشددة مكسورة.

(٢) في حالة وصل الآيتين ببعضهما (ردمًا آتوني) قرأ شعبة بخلف عنه بكسر تنوين (ردمًا) بعده همزة وصل ساكنة، على أن (ائتوني) فعل أمر ثلاثي بمعنى: المجيء، فإن وقف القارئ على (ردمًا)، وابتدأ بما بعدها فإنه يبدأ بهمزة وصل مكسورة وإبدال الهمزة الساكنة ياء مديَّة، والباقون بإسكان التنوين في (ردمًا) وهمزة قطع بمعنى: أعطوني.

آليَّةُ العَمَلِ فِي بِنَاءِ الرَّدْمِ

٩٦- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ[1] قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ[2] ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾

ولما تطوَّع ذو القرنين ببناء السد، وطلب منهم عون الرجال فحسب، ولما كانت سلسلة جبال القوقاز شاهقة معدومة المعابر، تمتد من البحر الأسود غربًا بارتفاع ١٢٠٠ كيلومتر حتى بحر قزوين، ثم تمتد من بحر قزوين حتى تتصل بجبال الهيمالايا، وهذه المنطقة تفصل ما بين شمال المنطقة وجنوبها، وفيها ممرٌّ واحد تنفذ منه إلى شمال آسيا وغربها.

وقد أدرك ذو القرنين أنه لا سبيل للحيلولة بين هؤلاء القوم الضعاف وبين جيرانهم يأجوج ومأجوج، إلا بإقامة سد حاجز يُحكِم إغلاق هذا الممر الوحيد، بحيث يستحيل عليهم اختراقه مهما بلغت قوتهم وتضافرت جهودهم.

عبقرية هندسية رائعة: وبدأ ذو القرنين بردْم الممر الوحيد الفاصل بين الصين ومنغوليا، بقِطَع الحديد الكبيرة بوضْع بعضها فوق بعض، حتى ساوى أعلى رؤوس الجبلين طولًا وعرضًا ببعضها، وهما ﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ -والصدف: جانب الجبل- ثم أمر بأكوام هائلة من الحطب والخشب والفحم والحجارة فوُضعت فوق الحديد، ثم أمر بإشعال النار فيها فاشتعلت، ثم أمر بنفخ النار بالمنافخ، وهي (الكيران)؛ ليشتد سعيرها وتأججها.

ولَمَّا صار الحديد متوهجًا كالنار، وبلغ درجة الانصهار، أمر بإحضار النحاس المذاب، وهو (القِطْر) فأفرغه على الحديد المنصهر؛ حتى تنسدَّ الثُّقب التي فيه، ويلتصق بعضه ببعض، ويزداد تماسكًا؛ حتى يصبح مع السلسلة الجبلية المتجانسة جدارًا صُلْبًا، حجارته الحديد، وطينه النحاس المذاب[3].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بضم الصاد والدال من (الصُّدُفين) وهي لغة قريش، وقرأ شعبة بضم الصاد وإسكان الدال مخففة من القراءة السابقة، وقرأ الباقون بفتحهما وهي لغة الحجازيين.

(٢) قرأ حمزة وشعبة بخلف عنه بهمزة ساكنة بعد اللام من (قال آتوني) وصلًا، والباقون بهمزة قطع مفتوحة بعدها ألف، وصلًا ووقفًا وهو الوجه الثاني لشعبة وهي مثل (آتوني) السابقة في توجيه القراءتين.

(٣) «البدء والتاريخ» للبلخي ص ٣٠٨.

وقد بلغ طول السدِّ ثلاثة آلاف وثلاث مئة كيلومتر، وكان بناؤه في القرن الثالث قبل الميلاد.

ومن الثابت تاريخيًّا أن رحلة ذي القرنين إلى مشرق الشمس، ثم توجُّهَه إلى ما بين السدين، استغرقت نحو ستة أعوام من عام ٥٤٥ ق.م إلى عام ٥٣٩ ق.م وهو العام الذي اكتمل فيه بناء الردم، وبعد عشرة أعوام، وبالتحديد في عام ٥٢٩ ق.م تُوُفِّيَ ذو القرنين (قورش) وخلَفه ابنه (قمبيز)، واستمر حكمه ثمانية أعوام[١].

باب الأبواب:

وقد ظل سدُّ ذي القرنين باقيًا على حاله، ولما فتح المسلمون هذه المناطق وأدخلوها ضمن سيادتهم سموه (باب الأبواب) وهو الحاجز بين جورجيا وولاية شيروان، وسماه الأتراك (باب الحديد)، وسماه الأرمن (مضيق قورش)، وسماه أهل جورجيا (الباب الحديدي)[٢].

وفي هذا السد، عبقرية هندسية رائعة، قام بها ذو القرنين، وعرَفها البشر منذ هذا التاريخ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ أي: أحضروا إليَّ الكثير من قطع الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي: الجبلين اللذين بُنى بينهما السد ﴿قَالَ ٱنفُخُوا۟﴾ النار بالمنافخ على هذه القطع الكبيرة من الحديد لتشتدّ فَتُذيب النحاس، فلماذا بالنحاس ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ وانصهر الحديد، وحاذوا به جانبي الجبلين ﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي: النحاس المذاب؛ ليزداد صلابة وقوة، فاستحكم السدّ استحكامًا هائلًا، ومُنِع الناس من أضرار يأجوج ومأجوج: ولم يعُد لهم قدرة على الصعود عليه ولا على نقبه لإحكامه وقوته. قال تعالى:

٩٧- ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟[٣] أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟﴾ يعني: يأجوج ومأجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يرتقوا، أو يصعدوا فوق هذا السد؛ لارتفاعه وملاسته ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ أي: خرقًا من أسفله؛ لصلابته وبُعْد عرضه ومتانته.

---

(١)، (٢) نفسه ص ٣١٠.

(٣) قرأ حمزة بتشديد الطاء بعد إدغام التاء التي قبلها فيها، من (فما اسطاعوا)، وأصلها (استطاعوا)، والباقون بحذف التاء وفتح الطاء تخفيفًا، أما (وما استطاعوا) فقد أجمع القراء على قراءته بإثبات التاء مع الإظهار.

وبذلك يكون ذو القرنين قد لَبّى دعوة القوم بإقامة السد المنيع؛ للحيلولة بينهم وبين يأجوج ومأجوج، ولما تم بناء السد، أضاف ذو القرنين الفضل إلى ربه:

تَوَاضُعُ الْحَاكِمِ الصَّالِحِ

٩٨- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ[1] ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

لم يغترَّ ذو القرنين حين أجرى الله على يديه هذا العمل الضخم، فلم يأخذه البطر والعجب، وإنما أرجع الفضل إلى ربه، فذكر الله وشكره، وأظهر عجزه أمام قدرته تعالى، وردَّ إليه العمل الصالح الذي وفّقه إليه، وتبرأ من حوله وقوته، وأعلن أن جميع الحواجز والسدود والجبال ستدك قبل يوم القيامة.

وهكذا قال سليمان عليه السلام لمّا وصله عرش بلقيس في لحظة، على بُعد المسافة، قال:

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] بخلاف أهل الكبر والعلو كقارون لما آتاه الله الكنوز قال ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]

وهكذا يكون الحاكم الصالح، حين يمكّن الله له في الأرض، فيُحق الحق، ويبطل الباطل، ويردع الظالم، ويُحسِن للمحسن، قال ذو القرنين في خشوع وتواضع لخالقه: هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي بخروج يأجوج ومأجوج، أو بقيام الساعة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: أن هذا الجبل، أو هذا السد سوف يتهدَّم ويسوَّى بالأرض، فيدكُّ قرب قيام الساعة، عندما يجيء الوقت الموعود به بخروج يأجوج ومأجوج، وانتشارهم في الأرض.

وجاء في صحيح مسلم وغيره: أن دكَّ السد يكون بعد نزول عيسى عليه السلام، وقتله المسيخ الدجال.

والمعنى: إذا جاء وعد الله باقتراب يوم القيامة، ودنا الأجل الذي ينتهي إليه أمر السد، سوَّاه الله بالأرض، وعاد ممرًّا وطريقًا كما كان أول مرة، وهذا الوقت في علم الله

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بمد الكاف وهمزة مفتوحة غير منونة في (دكاء) ممنوع من الصرف، مد متصل، أي: أرضًا مستوية، والباقون بحذف الهمزة وحذف المد مع تنوين الكاف (دكًا) مصدر، أي: مدكوكًا.

تعالى، فالمراد بوعد الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ هو وعده تعالى بدكِّ الردْم، وخروج يأجوج ومأجوج، وأن ذلك يكون قرب قيام الساعة.

النَّفْخُ فِي الصُّورِ

٩٩- ﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

ويوم يأتي وعد الله تعالى بدكِّ السدِّ وتسويته بالأرض تتزاحم قبائل يأجوج ومأجوج فيضطربون، ويموج بعضهم في بعض، من شدة الحيرة والاضطراب؛ لكثرتهم واختلاط بعضهم ببعض، وذلك قرب قيام الساعة.

لأن التنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد به:

١- أنهم يوم تمام بناء السد تُرِكوا خلفه يموج بعضهم في بعض، ويستفاد هذا من قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾.

٢- أو أنهم يوم يُفتح السد، ويُسوَّى به الأرض، يخرجون على الناس، ويموج بعضهم في بعض في الدنيا؛ لكثرتهم واضطرابهم، كما قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

وعلى هذا فإن الضمير في (بعضهم) يعود على يأجوج ومأجوج في الحالتين.

٣ - ويحتمل أن يكون المراد بالتنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو يوم القيامة، حيث يجتمع الخلائق، فيكثرون، ويموج بعضهم في بعض من الزلازل والأهوال، ويستدلون بقوله تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ﴾ وعلى هذا فإن الضمير في ﴿بَعْضَهُمْ﴾ يعود على الخلائق جميعًا.

فهذه ثلاثة أقوال للمفسرين في الآية.

قلت: ويجمع هذه الأقوال أن يكون المراد: هو قرب قيام الساعة، وليس القيامة ذاتها، وقرب قيام الساعة يَصدُق عليه منذ بدء البعثة المحمدية، وأن خروج يأجوج ومأجوج يكون آخرها، وهو من علامات الساعة الكبرى، بدليل أن الله تعالى قال بعدها: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: نَفخ إسرافيل في القَرْن، أو البوق -وهو الصور- النفخة الثانية للبعث والنشور، يوم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي

ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه هي النفخة الأولى، أما النفخة الثانية فيقول الله تعالى عنها: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

والدليل على أن المراد هو النفخة الثانية، قوله تعالى بعدها: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ أي: جمعنا الخلق جميعًا بعد خروجهم من القبور للحساب والجزاء، لا يَشذُّ عنه أحد، ولا يفلِت منه مخلوق ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]. وقال سبحانه ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٧].

وقد أسند الطبري إلى أبي هريرة ﷺ أن النفخ في الصور يكون ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لرب العالمين، والجمع بينها أن نفخة الصعق هي نفخة الفزع، وأنها تكون نفخة طويلة ممتدة من صعق الخلائق، أي: موتهم جميعًا إلى فزعهم، كما أجملتْهُما آية سورة الزمر ٦٨.

وجاء لفظ الفزع في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]. أما النفخة الثانية فجاءت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي الحديث: عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، يسمع، متى يؤمر فينفخُ؟!»**[1].

وهكذا فقد كان ذو القرنين مَلِكًا صالحًا عادلًا، شمل ملكه أقطارًا شاسعة في أرجاء المعمورة، بلغ في فتوحه ما كان مجهولًا مما سماه القرآن عينًا حمئة، وبلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأقام سدًّا يحول بينهم وبين وصول فسادهم إلى الأمم المجاورة لهم، وقد كان معه قوم أهل صناعة متقنة في الحديد والبناء، وخروج يأجوج ومأجوج، ودكُّ السد من علامات الساعة الكبرى.

---

(١) «المسند» (٣٠٠٨) حسن لغيره (محققوه) وعن زيد بن أرقم (١٩٣٤٥) وعن أبي سعيد (١١٣٠٩، ١١٦٩٦) وفي «سنن النسائي الكبرى» عن أبي هريرة (١١٠١٦) وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٣٤٤).

أَهْلُ الْكُفْرِ يَرَوْنَ النَّارَ فِي سَاحَةِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

١٠٠- ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾

ويوم القيامة تبرز جهنم وتظهر للعيان؛ ليرى الخلق ما فيها من العذاب والنكال ولينظروا إلى أغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها، قبل دخولها؛ ليكون هذا أبلغ في تعجيل الهمّ والحُزْن لهم.

والمعنى: وعرضنا جهنم يوم الجمع والحشر والبعث للكافرين، وأظهرناها لهم في عرصات القيامة؛ ليرَوْا سوء عاقبتهم، كما قال تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات].

وكما قال تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»**[(١)].

وكما أن الكفار يروْن النار ويشاهدونها دونَ لبس ولا خفاء، فإنهم يُعرضون أيضًا على النار، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]. وهذا في البرزخ قبل قيام الساعة.

لقد كانوا في الدنيا معرضين عن الذكر الحكيم ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] وعلى أعينهم أغطية تمنعهم من الرؤيا النافعة.

فقد ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وجعل ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فهم لا يؤمنون [البقرة: ٧]

١٠١- ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه الكفار بما يدل على استحقاقهم دخول النار، فبيَّن تعالى أن الذين أُبرزت لهم جهنم في هذا اليوم العصيب ليشاهدوها بأعينهم يوم القيامة، هم الذين كانت أعينهم في الدنيا في غطاء كثيف، وغشاوة وإعراض عن الانتفاع بآيات الله تعالى المنزلة على رسوله ﷺ، وكانوا كذلك في إعراض عن رؤية دلائل الله تعالى في هذا الكون، فلا يُبْصرونها.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٢).

وبسبب إصرارهم على الكفر والباطل، فقد كانوا لا يُطيقون سماع حجج الله تعالى، الموصلة إلى الإيمان به؛ لأنهم عطَّلوا جهاز الاستقبال فيهم، فكانوا كفاقدي السمع بالكلية، ولأنهم يبغضون القرآن ورسول الإسلام، ومن يبغض شيئا لا يُلقى بسمعه إليه، فإذا انحجبتْ عنه طرق الخير، فتحت له أبواب الشر، ومنها الهوى، وقرناء السوء والشيطان:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف]

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

التَّعْقِيبُ الأَوَّلُ عَلَى مَا جَاءَ فِي السُّورَةِ

١٠٢ - ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ[1] أَوْلِيَآءَ[2] إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾

هذه هي الآية الثانية من الآيات العشر الأخيرة من سورة الكهف، وهي آيات تعقِّب على ما جاء في السورة من أحداث وقصص؛ ذلكم أن المشركين واليهود الذين سألوا النبي ﷺ عن أصحاب الكهف والرقيم، وعن ذي القرنين، وعن الروح، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الجن، وبعض اليهود يعبدون عزيرًا، والنصارى يعبدون المسيح، ويكفرون بالجنة، وهؤلاء جميعًا كفار.

والجميع يظنون أنهم في عبادتهم على حق وصواب، وأنهم يحسنون العمل، والله ﷻ يبيِّن أنهم أخطؤوا الحسبان؛ لأن أعينهم كانت في غطاء عن ذكر الله، وكانوا لا يطيقون سماع الحق والهدى، وقد ظنوا أنهم على صواب.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وكلمة ﴿كَفَرُوٓا۟﴾ تشمل اليهود والنصارى والمشركين بأنواعهم.

قال القرطبي: وجواب الاستفهام محذوف، تقديره: أفحسبوا أن ذلك ينفعهم، أو لا أعاقبهم[3].

أى أفحسب الكفار أن يتخذوا بعض عبادى آلهة يعبدونهم ويدفعون عنهم عذابي.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا في (من دوني أولياء)، والباقون بإسكانها.

(٢) سهَّل الهمزة الثانية من (أولياء إنا) نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ورويس، وحققها الباقون، والهمزة الأولى محققة للجميع.

(٣) «تفسير القرطبي» (١١/ ٦٥).

والعباد المشار إليهم في الآية كالمسيح وعزير والملائكة، وأيضًا الجن والشياطين فهم من عباد الله وعبيده، والأصنام أيضًا مخلوقة لله تعالى، والوثنيون يعبدونهم مع الله، أو يعبدونهم عبادة مستقلة، أو يوالونهم من دون الله سبحانه، أحسبوا أن هذا ينفعهم؟ أظنُّوا أن الله تعالى لا يغضب عليهم ولا ينتقم منهم؟

فمن زعم أنه يتخذ وليّ الله وليًا له، وهو معادٍ لله، فهو كاذب، لأن أولياء الله موافقون لله في محبته ورضاه وسخطه وبغضه، وهذا يشبه قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢]

ويحتمل أن يكون المراد بالآية: أفحسب الذين يتخذون آلهة من دون الله، أنهم ينصرونهم وينفعونهم ويدفعون عنهم عذاب الله؟ هذا زعم فاسد، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

ثم بيَّن سبحانه أن مصيرهم في الآخرة نار جهنم، فهي دار ضيافة لهم، ينزلون بها، ويحلُّون فيها، طعامهم الزقوم والضريع والغسلين، وشرابهم ماء حار منتن، يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، وفراشهم من نار جهنم والعياذ بالله، وغطاؤهم النار كذلك ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] أي: فراش وغطاء ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. نسأل الله العافية والسلامة والنجاة من النار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ جاء على سبيل التهكم والتقريع؛ لأن النُّزل: هو ما يعدُّ للضيف على سبيل التكريم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]. لأن البشرى تكون بالنعيم لا بالعذاب، وقوله تعالى عن صاحب النار: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان] فأيُّ عزة وأيّ كرامة له وهو في وسط الجحيم، يصب الحميم من فوق رأسه؟! نسأل الله العافية والسلامة.

أَخْسَرُ النَّاسِ لِدُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ

١٠٣- ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا[١] ﴿١٠٣﴾﴾

وتمضي الآيات في التهكم والتوبيخ بأهل الضلال، فتقول هذه الآية ما معناه: أتحبون أن أخبركم بأخسر الناس عند الله يوم القيامة؟ إنهم الذين يظنون أنهم على حق وصواب في عبادتهم لله تعالى، والواقع أنهم على باطل وضلال، كأهل البدع الذين يُحدِثون في دين الله تعالى ما ليس منه، فيزيدون أو ينقصون، أو يبدلون، ويغيرون، ويحرفون، ومنهم الخوارج وأضرابهم.

يقول الله سبحانه عن هؤلاء وأولئك جميعًا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾؟

أي: حذر الناس وأخبرهم بأن الذي خسر عمله كما يخسر التاجر تجارته وبضاعته، فيذهب ربحه ورأس ماله معًا، وهؤلاء قد يعملون في الدنيا أعمالاً خيِّرة كثيرة، كالصدقة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، ولكن الإيمان منتفٍ، فلا قيمة له ولا وزن لأعمالهم.

فهؤلاء خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك هو الخسران المبين.

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: يأتي أناس بأعمال يوم القيامة هي عندهم من العِظَم كجبال تهامة، فإذا وزنوها لم تزن شيئًا، وذلكم كما يقول رب العزة: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

ومثل قوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

إنهم يتقربون بأولياء الله تعالى إلى الله سبحانه، إنهم يدعون مع الله غيره، إنهم لا يعترفون برسالة محمد ﷺ إلى العالمين، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا، إنهم يقولون: المسيح ابن الله، ويظنون أنهم يحسنون صنعًا ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ﴾ [فاطر: ٨].

---

(١) عد المصحف الشامي والبصري والكوفي (أعمالا) آية، وأسقطها من العدد غيرهم.

واليهود والنصارى ممّن ضل سعيهم كما أخبر بذلك النبي ﷺ.

وعلى سبيل التمثيل بمن ضل سعيه في الحياة الدنيا، فقد سأل مصعب أباه سعد بن أبي وقاص ﷺ عن المقصودين بالآية، فقال: أهم الحرورية؟ يعني: الخوارج، نسبة إلى حروراء، وهي القرية التي ابتدأ خروجهم منها، قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذّبوا محمدًا ﷺ، وأما النصارى فقد كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد ﷺ يسميهم الفاسقين(١). وقال عليٌّ ﷺ أيضًا: هم الحرورية.

والآية عامة تشمل اليهود والنصارى، وتشمل الخوارج وأهل البدع والأهواء وغيرهم، من كل من يعمل عملًا يحسبه مقبولًا، وهو مردود عليه.

ومعلوم أن هذه الآية مكية، قبل أن يخاطب القرآن أهل الكتاب، وقبل وجود الخوارج، ولكنها تشملهم وتعود عليهم كما صح في الحديث السابق.

ومن يعمل من الكفار عملًا يُتعب فيه نفسه، فهو عمل باطل؛ لأنه يشقى بدون عائد، بل ويعذَّب على عمله، كما قال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾ [الغاشية].

وفي الآية تحذير للناس من سلوك طريق أهل الضلال، حيث يقول تعالى: قل -يا محمد- للناس محذرًا: هل نخبركم بأخسر الناس أعمالًا؟ والجواب في الآيات التالية:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ لِلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

١٠٤- ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ(٢) أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾

ويأتي الجواب في هذه الآية ببيان أن الذين بَطُل عملُهم وضاع، في الحياة الدنيا: هم

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٣) وعبد الرزاق (١/ ٤١٣) والحاكم (٢/ ٣٧٠).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين من (يحسبون)، والباقون بكسرها.

الذين يظنون أنهم يقدِّمون أعمالًا حسنة تنفعهم، وهم غير مؤمنين بالله، أو غير مؤمنين بخاتم الرسل،أو غير مؤمنين بأنه رسول الله إلى الناس كافة،وهذا هو الجهل المركب؛ لأن من يعمل عملًا سيئًا وهو يعلم سوء عمله؛فإن استقامته تُرجى، أما من يعمل السوء ويعتقد أنه حسنٌ؛ فهذا هو الضلال البيِّن، وهكذا كل من ضل عن سواء السبيل، وهو يظن أنه على صواب وهُدًى كالمشركين واليهود والنصارى ونحوهم،من الذين بطُل ثواب عملهم في الدنيا،فلا قيمة له ولا فائدة منه،ولا وزن له، وكذا عمل الكافر من الصالحات فهو عمل باطل؛ لأنه بدون إيمان.

الْوَصْفُ الآخَرُ لِلأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

١٠٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾

ثم عرَّف الله سبحانه الأخسرين أعمالًا: بأنهم الذين كفروا بآيات ربهم المنزَّلة على رسوله محمد ﷺ، وكفروا بأدلة التوحيد كلها: فكفروا بالآيات الكونية، وكفروا بالآيات المنزَّلة من رب العالمين، وكفروا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء.

﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾.

والوزن يوم القيامة يكون بين الحسنات والسيئات: كفة للحسنات وكفة للسيئات، وهؤلاء لا حسنة لهم؛ إذ لا توجد حسنة مع عدم الإيمان، فيكون الميزان للسيئات من جهة واحدة ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون].

والإيمان شرط لقبول العمل، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ [طه: ١١٢]

وقد بيَّنت السُّنَّة الصحيحة أن الكافر مهما كان عظيمًا في الدنيا فإنه يوم لقاء رب العالمين يكون لا قيمة له ولا وزن؛ إذ ليس له حسنة توزن في ميزانه، ومن لا حسنة له فهو في النار.

جاء في الحديث الصحيح: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل**

العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»[١].

هذا هو الكافر لا وزن لعمله، ولا وزن لذاته، كما جاء في الأثر: يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها، وقرأ ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[٢].

والآية ذَكرتْ رُكْنين من أركان الإيمان، هما سبب عدم قبول العمل، وحبوط أجره، وهما: الكفر بآيات الله، والكفر بلقاء الله.

والحبوط: أصله انتفاخ بطن الدابة حين تأكل شيئًا سامًّا يكون سببًا في موتها، وهكذا العمل الباطل الذي لا أصل له في الشرع، ينتفخ انتفاخًا زائفًا لا وزن له ولا قيمة.

سَبَبُ عَذَابِ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا

١٠٦- ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

وبعد أن تساءل القرآن الكريم عن الأخسرين أعمالًا، ثم وصفهم وبيَّن بُطلان عملهم، بيَّن في هذه الآية أن سبب عذابهم في نار جهنم يوم القيامة هو كفرهم بالله تعالى، وكفرهم بكل ما يجب الإيمان به، والسخرية والاستهزاء بآيات الله وحُجَجِه، وتكذيبهم رسل الله جلَّ وعلا، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو إشارة إلى ما تقدم من حبوط العمل وبطلانه ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي: بسبب جحودهم بكل ما يجب الإيمان به، وبسبب أنهم ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾.

أَسْعَدُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ

١٠٧، ١٠٨- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾

---

(١) البخاري عن أبي هريرة برقم (٤٧٢٩) ومسلم برقم (٢٧٨٥).

(٢) رُوِي مرفوعًا وموقوفًا على أبي هريرة، «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٩) وهو في «فتح الباري» (٨/ ٣٢٤) وأخرجه هنَّاد بن كعب بن عُجرة بنحوه (٨٦٦).

وبعد أن أخبرنا سبحانه عن حال الأشقياء -نعوذ بالله من سوء المصير- أخبرنا جلَّ شأنه بحال السعداء -نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم- فبيَّن سبحانه ما أعدَّه للمؤمنين الذين كانوا يتزودون بالأعمال الصالحة في الدنيا، وقد شمل ذلك الدين كله: عقائده وعباداته وأعماله، وأصوله وفروعه الظاهرة والباطنة، فهؤلاء جميعا أعد الله لهم من الثواب العظيم والنعيم المقيم يوم لقائه، جنات الفردوس، فكما أن جهنم دار نزل وضيافة أُعدت للكافرين، فإن الجنة دار نُزل وضيافة أعدَّها الله لعباده المتقين، سِيَّمَا جنات الفردوس، فقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى، فإنها أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»[1].

أي: الأنهار الأربعة: الماء، واللبن، والعسل، والخمر، وأوسط الجنة أفضل الجنات، وأرفعها درجة.

وإذا كانت جنة الفردوس جنة واحدة، وهي أعلى الجنات، فإنها تكون لأكمل الناس إيمانًا، وهم الأنبياء والمقربون.

وإن كانت جنة الفردوس جنات متعددة، كما جاء في الآية ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ فهي إذن طبقات، ودرجات ومنازل، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وهي تستوعب أهل الإيمان جميعًا، تستوعب المقربين والأبرار والمقتصدين، فإن لكل طبقة من هؤلاء درجة من درجات الفردوس، وهي نزل وضيافة، تشمل كل نعيم للقلوب والأبدان والأرواح، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف.

والفردوس: هو البستان الجامع لكل ما يكون في البساتين، فهي جنات من وصف الفردوس.

وفي حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة مئة درجة، كل درجة فيها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش، ومنه**

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٤٢٣) ورقم (٢٧٩٠) و«المسند» (٢/ ٣٣٣-٣٣٩) برقم (٨٤٧٤) حديث صحيح عن أبي هريرة وعن معاذ (٢٢٠٨٧) وعن عُبادة (٢٢٦٩٥).

تفجر أنهار الجنة، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى»[١].

وهم مخلدون في جنات الفردوس خلودًا أبديًا سرمديًا، لا يريدون أن يتحولوا عنها إلى غيرها؛ لرغبتهم فيها، وحُبِّهم لها؛ لِمَا حَوتْه الجنات من اللذات والنعيم، فلهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون في عطاء دائم ونعيم لا ينقطع، ولذا فإنهم لا يحبون الانتقال منها ولا التحول عنها مع ما جُبل عليه الإنسان من حب الانتقال والتحول من مكان إلى مكان ومن حال إلى حال.

التَّعْقِيبُ الثَّانِي: شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتُهُ

١٠٩- ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ[٢] كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾

ثم يأتي التعقيب الثاني من هذه الآيات الأخيرة على ما جاء في سورة الكهف؛ لبيان شمول علم الله سبحانه وإحاطته، وأن علم الله جلَّ شأنه لا ينفَد، ولا ينتهي، بالقياس إلى علم الإنسان المحدود، وذلك بعد أن أجاب النبي ﷺ عما سأله المكذبون عن الروح، وعن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وهي إجابات لا قِبَل لمحمد ﷺ بها إلا بتعليم الله إياه، ولما كان آخرها خبر ذي القرنين أتبع ذلك ببيان سعة علم الله تعالى، ومنه ما أوحاه إلى نبيه محمد ﷺ.

أخرج الترمذي وغيره بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئًا نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، قال: فسألوه عن الروح، فأنزل الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة برقم (٣٤٩٢٣) وأحمد (٥/٣١٦-٣٢١) برقم (٢٢٦٩٥، ٢٢٧٣٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات والترمذي برقم (٢٥٣١) وابن جرير (١٦/ ٣٠) والحاكم (١/ ٨٠) والبيهقي في البعث (٢٤٨) وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم (٢٠٥٦) وله شاهد في الصحيح عن أبي هريرة برقم (٢٧٩٠).

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء التذكير في (أن تنفد)، والباقون بتاء التأنيث، ولأن الفاعل مؤنث غير حقيقي جاز تذكير الفعل وتأنيثه.

قالوا: أوتينا علمًا كثيرًا: التوراة، ومَن أُوتي التوراة فقد أُوتي خيرًا كثيرًا، فأُنزلت ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾[1].

وروى الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حييَّ بن أخطب اليهودي، قال: في كتابكم ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ثم تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنزلت الآية[2].

ولما نوَّهت سورة الكهف في أولها بشأن القرآن العظيم الذي أنزله الله على عبده محمد ﷺ، وأنه لم يجعل له عوجًا، ثم ذَكرت السورة أربعًا من أحسن القصص والعبر والمواعظ.

بعد ذلك بيَّن ﷻ في نهاية هذا القصص، أن ما سبق ذِكْره في السورة هو شيء قليل من علم الله تعالى الذي أفاض منه على رسوله محمد ﷺ إجابة لما ظننتم أنه مُفْحِم للنبي ﷺ وأنه لا قبل له بعلمه.

والمعنى: لو كان ماء الأبحر التي في العالم حِبرًا، يكتُب به القلم، وهذه الأبحر تُمَدُّ بسبعة أبحر أخرى، والأقلام التي يُكتب بها، هي مجموع أشجار الدنيا وأعوادها، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] لَفَني ماء البحار ونفِد، وتكسَّرت الأقلام وانتهت، ولم ينفد علم الله الواسع، وهذا من باب تقريب المعاني إلى الأذهان لأن كل مخلوق ينقضى وينتهى، وكلام الله تعالى وعلمه ليس له حد ولا نهاية، لأنه من صفات الله، وصفات الله غير مخلوقة، فلو جُمع علم الخلائق أجمعين، من الأولين والآخرين، لأهل السموات والأراضين، لكان ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى أقل مما أخذه العصفور بمنقاره من ماء

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣١٤٠) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٠١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥١٠) وصححه الحاكم والذهبي (٢/ ٥٣١) وقال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ١٠٤): رجاله رجال مسلم، وأخرجه النسائي في التفسير برقم (٣٣٤) وفي الكبرى (١١٣١٤) وأحمد في «المسند» برقم (٢٣٠٩) بإسناد صحيح، وابن حبان برقم (٩) وابن أبي شيبة برقم (٥١٩٢٣) وابن جرير (١٦/ ٣٠).

(٢) من حديث ابن عباس عن عكرمة في الترمذي برقم (٣١٤٠) و«تفسير النسائي» برقم (٣٣٤) و«المسند» برقم (٢٣٠٩) وابن حبان في الإحسان برقم (٩٩) و«المستدرك» (٢/ ٥٣١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥١٠).

البحر بالنسبة إلى مياه البحر.

وكلمات الله: هي كل ما يدل على شيء من علم الله تعالى مما أوحاه الله إلى رسله، وكلمات الله لا تتناهى؛ لأن علم الله لا يتناهى، وعلم العباد كلهم كقطرة من ماء بحر، بالقياس إلى علم الله تعالى، فلو كان البحر حبرًا للأقلام التي يكتب بها كلام الله تعالى، لنفد ماء البحر قبل أن تنفد كلمات الله، ولو جئنا بمثل البحر بحارًا أخرى مددًا له، وفي الآية إثبات صفة الكلام لله تعالى على وجه الحقيقة، كما يليق بجلاله سبحانه.

التَّعْقِيبُ الأَخِيرُ عَنِ الإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ

١١٠- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

هذا هو التعقيب الأخير في السورة على ما جاء فيها من قصص وأمثال؛ لبيان أن المنزلة العليا من البشر هي منزلة الرسول محمد ﷺ، ومع ذلك فإن الله جلَّ شأنه يرُدُّ العلْم إليه، ويعلِّم رسوله التواضع، ويأمره أن يخاطب المشركين وأهل الكتاب الذين أجابهم عما سألوه، ويقول لهم: إنني بشر مثلكم، ولكن الله يوحِي إليَّ، وقد اصطفاني ربي واختارني للنبوة والرسالة، ومع ذلك فإنني لم أُبعث للإخبار عن الحوادث الماضية، والقرون الخالية، وليس من مقتضى الرسالة أن يحيط علم الرسول بالأشياء كلها، فيتصدى للإجابة عنها، ولكنه بشر، عِلْمُه كعلم البشر، أوحى الله إليه بما شاء إبلاغه إلى العباد من التوحيد والشريعة، ولا علم له إلا ما علَّمه ربه ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقَصْرُ الموصوف على الصفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ﴾ معناه: ما أنا إلا بشر أبلِّغ ما يوحى إليَّ، ولا أتجاوز البشرية إلى شيء من علم الغيب، ومما أوحاه الله إليَّ ما أجبتكُم به عن أهل الكهف، وذي القرنين، ولكن الهدف الأول من الوحي هو التوحيد، فأنا بشر: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذا هو الأساس، ويأتي بعده العمل الصالح ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ويأمل في حُسْن لقاء الله عند القدوم عليه، ويخاف عذاب الله ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

وقد اشتملت هذه الجملة من الآية على ركني قبول العمل، وهما:

١- أن يكون العمل موافقًا لهدي رسول الله ﷺ ليس فيه بدعة، ولا خروج على الدين.

٢- وأن يكون خالصًا لله ﷻ، لا يشوبه رياء، ولا شرك، ولا سمعة.

جاء في أسباب النزول:

١- قال ابن عباس ﷺ: نزلت في جندب بن زهير الغامدي، وذلك أنه قال: إني أعمل العمل لله فإذا اطَّلع عليه الناس سرَّني، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيبًا، ولا يقبل ما رُوئي فيه**»، فأنزل الله هذه الآية[١].

٢- وقال طاوس: قال رجل: يا نبي الله، إني أحب الجهاد في سبيل الله، وأحب أن يُرى مكاني؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

٣- وقال مجاهد: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أتصدق، وأصل الرحم، ولا أصنع ذلك إلا لله ﷻ، فيُذكر ذلك مني، وأحمد الله عليه، فيَسُرُّني ذلك وأُعجب به؛ فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا؛ فأنزل الله تعالى الآية[٣].

أحاديث في ذم الشرك بالله تعالى:

والشرك المذكور في الآية يشمل الشرك الأكبر المخرِج من الملة، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ويشمل أيضًا الشرك الأصغر، وهو الرياء، كما يشمل الشرك الخفي:

١- عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «**الرياء، يقول الله يوم القيامة**

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/ ٦٩).

(٢) «تفسير الطبري» (١٦/ ٣٢) وهو خبر مرسل أخرجه عبد الرزاق (١/ ٤١٤) والحاكم (٤/ ٣٢٩).

(٣) «أسباب النزول» للواحدي ص ٢٥١ والسيوطي (١٧٨) قال ابن كثير (٤/ ٢٠٥): وهكذا أرسل هذا مجاهد وغير واحد، وأخرجه أبو نعيم (١٥٩٧) وابن عساكر (١١/ ٣٠٤).

إذا جَزَى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»[١].

٢- وفي الصحيحين وغيرهما: عن جندب بن عبد الله البَجَلِي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سَمَّع سمَّع الله به، ومن يُرائي يرائي الله به»**[٢]

أي: من عمل عملًا ليشتهر به بين الناس، شهَّر الله به يوم القيامة.

٣- في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشأنه»**[٣].

فإذا أخلص العبد في عمله لله تعالى، ولم يُرد إلا وجهه سبحانه، وأثنى الناس عليه خيرًا، فإن هذا من عاجل ثوابه في الدنيا.

٤- جاء في الحديث: عن ابن عباس ﷺ أن رجلًا سأل النبي ﷺ قال: يا رسول الله، إني أقف المواقف -يعني: أجاهد وأعمل الأعمال الصالحة- أريد بها وجه الله، وأحب أن يُرى موطني -أي: أحب أن يطلع الناس على عملي- فسكت النبي ﷺ ولم يَرُدَّ عليه، حتى أنزل الله هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[٤].

٥- وفي الحديث: عن شداد بن أوس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من صلى يُرائي فقد أشرك، ومن صام يُرائي فقد أشرك، ومن تصدق يُرائي فقد أشرك»**[٥].

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٨) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٢): رجاله رجال الصحيح، ورقمه في «المسند» (٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣١) والبيهقي (٦٨٣١) وقال محققو «المسند»: حديث حسن، رجاله رجال الصحيح إلا أنه منقطع. وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (٤١٣٥) وابن خزيمة (٩٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٧٥٢، ٦٤٩٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٧) وعن ابن عباس (٢٩٨٦) و«المسند» (١٨٨٠٨) وابن أبي شيبة (١٣/ ٥٢٥) وابن ماجه (٤٢٠٧) والبيهقي (١٠١٩).

(٣) حديث قدسي في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة برقم (٢٩٨٥).

(٤) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٢/ ١١١)، (٤/ ٢٣٩) وأخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٦٨٥٤) الكتب العلمية، وعبد الرزاق (١/ ٤١٤).

(٥) من حديث طويل أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٥) برقم (١٧١٤٠) بإسناد ضعيف، لضعف شهر بن حوشب والطبراني في الكبير (٧١٣٩) والحاكم (٤/ ٣٢٩) والبيهقي (٦٨٤٤) والطيالسي (١٢١٦)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٢٠): رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثقه أحمد وغير واحد، وبقية رجاله ثقات.

٦- وجاء في الحديث: عن أبي سعد بن أبي فَضالة الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله أحدًا فليطلب ثوابه من عند غير الله ﷻ؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك»**[(١)].

٧- وفي حديث ابن مسعود ﷺ: **«من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك استهانة استهان بها ربه ﷻ»**[(٢)].

٨- وعن محمود بن لبيد مرفوعًا: **«إياكم وشرك السرائر»** قالوا: وما شرك السرائر؟ قال: **«أن يقوم أحدكم يزيّن صلاته جاهدًا؛ لينظر الناس إليه، فذلك شر السرائر»**[(٣)]

٩- وجاء في الأثر: لو لم يُنْزِل الله ﷻ على أمة محمد ﷺ إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم[(٤)]

أحاديث في فضل الآيات العشر الأخيرة وسورة الكهف:

وتقدم في أول السورة آثار وأحاديث في فضل سورة الكهف، والآيات العشر الأخيرة منها[(٥)] نذكر منها:

١- ما جاء في صحيح مسلم والمسند وغيرهما عن أبي الدرداء ﷺ، وفي النسائي عن قتادة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: **«من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال»**.

٢- وفي صحيح مسلم، وغيره عن أبي الدرداء ﷺ: **«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»**.

٣- ومن قرأ ثلاث آيات من سورة الكهف عُصِمَ من الدجال.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢١٥) برقم (١٥٨٣٨، ١٧٨٨٨) وهو حديث صحيح لغيره وإسناده حسن. (محققو المسند)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨١٧) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢١) وفي «سنن الترمذي» برقم (٣١٥٤) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه برقم (٤٢٠٣) وهو عن أبي سعد بن أبي فضالة.

(٢) «مسند أبي يعلى» (٩/ ٥٤) وحسنه ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ١٨٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢١): فيه إبراهيم بن مسلم الهجري وهو ضعيف.

(٣) ابن أبي شيبة (٢/ ٤٨١) والبيهقي في «الشعب» (٣١٤١).

(٤) أخرجه الطبراني وابن مردويه عن أبي حكيم في «مسند الشاميين» (١٦٨٥) وفيه محمد بن إسماعيل وهو ضعيف كما قال محققه.

(٥) سبق تخريجها في أول السورة.

٤- وعن عليٍّ ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة فهو معصوم من كل فتنة إلى ثمانية أيام، فإن خرج الدجال عُصِمَ منه**».

٥- جاء مرفوعًا وموقوفًا على ابن عمر ﷺ عن نافع: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة** -أي: في أي وقت من نهار الجمعة- **سطع منه نور من تحت قدمه إلى عنان السماء، يضيء له يوم القيامة، وغُفِرَ له ما بين الجمعتين**».

٦- وفي الحديث الآخر: «**من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق**».

٧- وفي الصحيحين وغيرهما: أن أسيد بن حضير كان يقرأ سورة الكهف وفي الدار دابَّة فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن، أو تنزَّلت للقرآن**»[1].

تم تفسير (سورة الكهف) ولله الحمد والمنة



(١) هذه الأحاديث والآثار مخرَّجة في مقدمة السورة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ مَرْيَمَ (١٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة مريم هي السورة التاسعة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والأربعون في ترتيب النزول، وسورة مريم سورة مكية عند الجمهور، وهي تسعون وثماني آيات بالعدد الشامي والمدني الأول والبصري والكوفي الذي هو على رواية حفص، وفي غيرها أي المكي والمدني الأخير تسع وتسعون آية.

وهي سبع مئة واثنتان وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة حرف وحرفان.

وهي أول سورة في القرآن يُذكَر فيها لفظ: ﴿كَلَّا﴾ الذي يدل وجوده في السورة على أنها مكية.

وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن أبيه، عن جده أبي مريم، قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنه وُلِدتْ لي الليلة جارية، فقال: **«والليلة أُنزلت عليَّ سورة مريم، فسمِّها مريم»**[1].

ووجه التسمية: أن السورة بسطتْ قصة مريم وابنها قبل سورة آل عمران وغيرها.

ويقال لها: (سورة كهيعص)، وقد نزلت بعد سورة فاطر، وقبل سورة طه، أي: أنها نزلت سنة أربع من البعثة.

وقد تكرر اسم مريم في القرآن ثلاثين مرة، ولم تُذكر امرأة بالاسم الصريح في القرآن سواها، ردًّا على الذين يفترون على الله الكذب بقولهم: عيسى ابن الله، حيث إن من عادة العرب الذين نزل فيهم القرآن أنهم يستحيون من ذكر اسم المرأة أمام الرجال، فِذِكْرُ اسمها الصريح في القرآن ينفي بنوة عيسى لله تعالى، كما يزعمون، ولذلك اهتمت السورة بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، ونَفْي الشريك والولد عن ذاته سبحانه، وهذا هو العنصر الأول من عناصر القرآن المكي ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

كما اهتمت السورة بالعنصر الثاني، وهو إقامة الأدلة على أن البعث حق، وأن الناس

(١) رواه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٣٤) وأبو نعيم في «المعرفة» برقم (٧٠٣٠) والحاكم والديلمي، وابن مندة.

سيحاسبون على أقوالهم وأعمالهم يوم القيامة، ويجزون عليها بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ وقال سبحانه ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

أما العنصر الثالث للقرآن المكي، وهو: إثبات الوحي والرسالة، فيتجلَّى في ذكر شيء من تفصيل قصتي مريم وإبراهيم مع أبيه، والإشارة المركزة إلى موسى وإسماعيل وإدريس بالإضافة إلى زكريا ويحيى في أول السورة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا مما جاء به محمد ﷺ في القرآن.

وسورة مريم جاءت فواصلها غالبًا مختومة بحرف الياء المشدد المنصوب، عدا الصفحة الأخيرة منها، فقد جاءت بحرف الدال المشدد المنصوب.

وقد افْتُتِحَتِ السورة بكلمة الرحمة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾.

وكُررت هذه الكلمة أربع مرات أثناء السورة، في الآيات: ٢ و٢١ و ٥٠و ٥٣.

وذُكِرَ اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في السورة ست عشرة مرة في قوله تعالى:

١- ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

٢- ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [٢٦].

٣- ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [٤٤].

٤- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [٤٥].

٥- ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [٥٨].

٦- ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [٦١].

٧- ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾.

٨- ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [٧٥].

٩- ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾.

١٠- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

١١- ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾.

١٢- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾﴾.

١٣- ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

١٤- ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

١٥- ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

١٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾.

وذِكْر اسم الرحمن في السورة بهذا العدد، مع بدئها بصفة الرحمة وتكراره أربع مرات - إشارة إلى أن جَوَّ السورة هو ظل الرحمة والرضى والاتصال، وهي تقرر عقيدة التوحيد وتُنزِّه الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وتُثبِّت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، إلى جوار استنكار الكون كله، وارتجافه لوقْع كلمة الشرك التي لا تطيقها الفطرة.

وسورة مريم نزلت في السنوات الأولى للدعوة بمكة المكرمة قبل الهجرة إلى الحبشة، ولما هاجر بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة قرأ جعفر بن أبي طالب صدر سورة مريم على النجاشي، فبكى حتى ابتلّت لحيته وأسلم، وبكت الأساقفة حوله حتى ابتلّت الصحف التي بين أيديهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[1].

فشأن سورة مريم شأن السور المكية، تدعو إلى توحيد الله سبحانه، وتغرس في الناس معالم الرسالة الإلهية، وتتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار.

وهي من السور ذات القصص القرآني، فقد ابتدأت بذكر قصة نبي الله زكريا، وابنه يحيى عليهما السلام، وذكرتْ قصة مريم، وقصة ولادة عيسى عليه السلام، واختلاف النصارى في شأنه، وهي القصة الرئيسة في السورة، وذكرتْ الحوار المصحوب بالأدب الجمِّ بين

---

(١) تُنظَر القصة في: «المسند» (١/ ٢٠١) برقم (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨) بإسناد حسن، ورجال ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، (محققوه) والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٠) وأبونعيم في الدلائل (١٩٤) وابن إسحاق (١/ ٣٦٠) من حديث أم سلمة.

خليل الله إبراهيم الابن، وأبيه عابد الوثن، وهو يدعوه إلى عبادة الله وتوحيده.

وأشارت السورة إلى عدد من الأنبياء منهم: إسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح.

وبيَّنت السورة أن هؤلاء من الذين أنعم الله عليهم جميعًا، وأنهم من أهل الجنة، وأنه سبحانه قد خَلَف من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأنهم أهل النار، وقد استغرق هذا نحو ثُلُثي السورة، ثم تحدثت في نهايتها عن أهل الضلال والشقاء، وأهل الهداية والسعادة، وبعض مشاهد القيامة.

ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: يشتمل على قصة زكريا ويحيى، وقصة مريم وعيسى، ويستغرق هذا من أول السورة إلى الآية الخمسين منها.

وقد تحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة يحيى ﷺ من شيخ كبير قد وهَن عظمه، وخارت قُواه، ومن أم عجوز عقيم، وكان لزكريا ﷺ أقارب لا يَصْلحُون لميراث النبوة في بني إسرائيل وهم يتطلّعون لها، فسأل ربه أن يرزقه مَنْ يسدُّ الطريق عليهم، فوهبه الله يحيى بعد ثلاث ليال من التسبيح والتحميد والانقطاع للعبادة.

وتحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة عيسى ﷺ بدون أب، كما وُلد آدم بدون أب ولا أم، وَوُلدتْ حواء بدون أم، ووُلد سائر البشر من أب وأم، وقد أنطق الله عيسى عليه السلام وهو في المهد، ليُبرِّئ أمه من تهمة اليهود لها.

المقطع الثاني: يتضمن قصة إبراهيم مع أبيه، وإشارة إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهديهم، ثم مَنْ جاء بعدهم من الخلَف الغُواة، وهذا من الآية الحادية والخمسين إلى الآية الخامسة والستين.

وفي هذا المقطع يدور حوار بين إبراهيم وأبيه المشرك، حيث يناشد الابن أباه أربع مرات أن يدع الأصنام، ويُسْلِم وجهه لله تعالى، ومع أدب الحوار فإن أباه يهدده بالرجم واعتزاله إن بقي على عقيدته الصحيحة.

المقطع الثالث: يتحدث عن قضية البعث وبعض مشاهد القيامة، مع التعرض لمن أنكر

ذلك من المكذبين بلقاء الله تعالى وشبهاتهم في ذلك، وينتهي هذا القسم بمشهد مؤثر من مصارع الظلمة في القرون المكذبة، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

وقد استغرق هذا من الآية السادسة والستين إلى نهاية السورة.

وفي هذا المقطع خطاب موجه إلى منكري البعث إلى قيام الساعة، وموازنة بينهم وبين المؤمنين الصالحين الذين يَظْفَرون بالنجاة ويأمنون من الفزع، إلى جوار تفنيد عقيدة كل من زعم أن لله تعالى شريكًا، فكل ما عدا الله سبحانه من إنس وجن ومَلَك، عبْدٌ لله تعالى، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فكيف يملك شيئًا لغيره؟ والله سبحانه يبغض كل من أشرك به، ولا يغفر له جريمته إن مات وهو مُصِرٌّ عليها، ويحب الموحِّدين ويُقبل عليهم بالودِّ والرحمة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

فَاتِحَةُ السُّورَةِ

١ - ﴿كٓهيعٓصٓ[1] ۝١﴾

بدأت السورة بخمسة أحرف من حروف الهجاء، وهي: الكاف، والهاء، والياء، والعين، والصاد، وتُمدُّ الكاف والصاد ست حركات، وتُمدّ الهاء والياء حركتين، وفي العين ثلاثة أوجه هي: المدُّ ست حركات، وهو المقدَّم في الأداء، والتوسُّط أربع حركات، والقصر حركتين، ويتعيَّن وجه القصر فيها على قصر المد المنفصل مع توسط المتصل، وعلى قصر المنفصل مع إشباع المد المتصل، وبيْن حرف العين والصاد غنَّة مفخمة مع الإخفاء الحقيقي بمقدار حركتين.

وهذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلم حقيقة المراد به سوى رب العالمين، قيل: إن هذه الكلمة ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ اسم للسورة، وقيل: إنها اسم الله الأعظم، وقيل: إن كل حرف منها يدل على اسم أو صفة من أسماء الله تعالى وصفاته.

ولعل الأرجح أنها حروف هجاء، كسائر الحروف الهجائية التي افتتح الله بها بعض السور، نزلت هذه الأحرف لتحدي المشركين الذين كذَّبوا رسول الله ﷺ، فتحدَّاهم القرآن بأن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، مع أنه مكوَّن من هذه الحروف التي ينطقون ويتلفظون بها.

مع ما في هذه الحروف من الإيقاظ والتنبيه، ولفْتِ النظر إلى فصاحة القرآن وبلاغته، وكونه ليس من كلام البشر، وشدِّ الانتباه إلى تدبر معانيه وفهْم ما فيه من عبر ومواعظ

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت من غير تنفس على كاف، وها، ويا، وعين، وص، على أنها حروف مقطعة مستقلة، وأمال الهاء والياء شعبة والكسائي، وفتح الهاء وأمال الياء ابن ذكوان وهشام بخلْفه، وحمزة وخلَف، وأمال الهاء أبو عمرو، وله في الياء الفتح والإمالة، وفتح هشام الهاء، وله في الياء الفتح والإمالة، ولنافع الفتح والتقليل في الهاء والياء، والباقون بفتحهما.
هذا: وقد عد الكوفي (كهيعص) آية، وأسقطها غيره من العدد.

وأحكام وهدايات، وفي هذه السورة سبع قصص لأنبياء الله ورسله:

١- نَبِيُّ اللَّهِ زَكَرِيَّا يَسْأَلُ رَبَّهُ الْوَلَدَ

٢، ٣- ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ[1] رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ[2] ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾

ابتدأت السورة بالحديث عن عبد الله ونبيه ورسوله زكريا ﷺ، وهو زوج خالة مريم، ومن رسل بني إسرائيل، وليس له كتاب في أسفار التوراة.

يرجع نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام، وينتهي نسبه إلى يعقوب ﷺ.

وقد عاش زكريا ﷺ -على الراجح- مئة وعشرون عامًا، منها مئة قبل ميلاد عيسى ﷺ، وعشرون بعد ميلاده، وهو غير (زكريا بن برخيا) الذي كان موجودًا في القرن السادس قبل المسيح، ولذا يقال له: زكريا الثاني.

وكان (زكريا) خادمًا للهيكل، رئيسًا في قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، ويدعوهم إلى الصلاة والزكاة، ويبلِّغ الناس رسالة ربه، وينصحهم بما أمره الله ﷻ، ولكن القوم كانوا أهل فسق وعناد، وكانوا يقتلون الأنبياء والمرسلين وأولي العلم من الناس، فلما تقدمت السن بزكريا ﷺ، وبلغ من الكبر عتيًّا، ورأى في قومه من يتطلَّع إلى الرئاسة والزعامة، وهم ليسوا أهلًا لها، ولا يَصْلُحون لإمامة الدين، ولا للخلافة في النبوة، ولا يصلُحون إلى وراثة العلم؛ نظرًا لتفشِّي الفساد والمنكرات فيهم؛ لمَّا رأى زكريا ﷺ ذلك دعا ربه أن يرزقه الولد، ونمضي مع الآية:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾﴾ أي: هذا ذكر رحمة الله سبحانه بعبده زكريا سنقصه عليك؛ ونفصله لك، ونبين آثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن فيه عبرة للمعتبرين.

وكان زكريا قد دخل على مريم وهي تخدم الهيكل، ورآها وهي تتعبد وتتبتَّل، ورأى

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (رحمت) وهي لغة طيِّئ، ووقف الباقون بالتاء كرسمها في المصحف وهي لغة قريش.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بالقصر وحذف الهمزة من (زكريا)، والباقون بالمد وهمزة مفتوحة، فتصبح من قبيل المد المتصل.

عندها فاكهة الشتاء في الصيف، فتعجَّب من ذلك وسألها: أنى لك هذا؟ قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

هنالك طمع زكريا عليه السلام في رحمة ربه الذي أمدَّ مريم بهذه الكرامة، وهيَّأ لها الأسباب، ورزقها بفاكهة الشتاء في الصيف؛ فهو سبحانه قادر على أن يرزقه الولد بعد أن بلغ هذه السن، وبعد أن كانت امرأته عقيمًا منذ الصغر، وكانت قد بلغت ثمانية وتسعين عامًا.

فاذكر -يا محمد- نبيَّ الله زكريا وقت أن دعا ربه في ضراعة وخفية، وسأله أن يرزقه الله الولد، وكان ذلك في أوقات تردُّدِه على مريم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران].

وقد أمرنا الله تعالى بإخفاء الدعاء أو الجهر به، ونهانا عن الاعتداء في الدعاء، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف].

وكان دعاء زكريا ربه سرًّا بصوت خفي؛ لأن الله تعالى يَعْلَم القلْب النقي، ويسمع الصوت الخفي، ولأن الدعاء في السر يكون أقرب إلى الإجابة، وهو أحب إلى الله تعالى، وأبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولأن زكريا كان ضعيفًا لم يستطع في أواخر حياته إلا أن يذهب إلى الهيكل ليتعبد، ويذهب إلى مكان عمله (حانوته)؛ ليشتغل ساعة من نهار، فيأتي بقُوت يومه، له ولأولاده، كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن نبي الله زكريا عليه السلام كان نجارًا[1] يأكل من عمل يده.

وكان زكريا من الذين يكتبون الوحي ببيت المقدس[2].

وهو من آخر أنبياء بني إسرائيل من ذرية يعقوب عليه السلام.

رآى زكريا من نفسه الضعف، وخاف الموت، ولم يكن له أحد ينوب عنه في دعوة الخلق إلى ربهم، وعندئذ شكا ضعفه إلى ربه وناداه نداءً خفيًّا.

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٩) و«المسند» (٩٢٥٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات وأبي يعلى (٦٤٢٦) والحاكم (٢/ ٥٩٠) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٩٨١)

(٢) كما أخرجه ابن عساكر (١٩/ ٤٨) عن ابن عباس.

زَكَرِيًا يَتَوَسَّلُ إِلَى رَبِّهِ بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ

٤- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾

ربِّ إني تقدمت بي السن، وضعف عظمي، وانتشر الشيب في رأسي، وهكذا ذكر زكريا في دعائه لربه ثلاثة أشياء:

١- ضعْف العظم. ٢- وانتشار الشيب.

٣- وأنه لم يكن محرومًا من إجابة الدعاء في وقت من الأوقات.

وهذا تمهيد في الدعاء يتضمن اضطراره لسؤال الولد، والله تعالى يجيب دعاء المضطر إذا دعاه.

وقول زكريا هذا يشبه قول خليل الرحمن: ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [٤٨].

ويشبه حديث أبي هريرة، وأبي سعيد ﷺ في شأن الذاكرين الله تعالى: **«هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»**[1]، أي: أنه يسعد معهم.

وإذا وهن العظم، وهن الجسم كله؛ فالعظم هو عمود البدن، وقوامه وأصلبه، وانتشار الشيب في الرأس نذير الموت ورسوله، وعلامة الضعف والكبرَ.

ويغْرِض البياض للشعر عند كبر السن غالبًا، بسبب نقصان المادة التي تُعطِي اللون الأصلي للشعر، وقد يكون ذلك من مرض، يقول زكريا ﷺ متوسلًا إلى ربه بضعفه وعجزه، وهذا من أحب سبل التوسل إلى الله تعالى، لأنه يسأل متبرئًا من حوله وقوته، فهو يدعو ربه بعيدًا عن عيون الناس وأسماعهم، في قُرْب واتصال مباشر بربه بدون حرف نداء، ومستعينًا بحول الله وقوته، وأنه لم يعهد منه إلا الإجابة ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم تُخيِّب رجائي فيك في وقت من الأوقات، ولم تترك إجابتي في يوم من الأيام، وها أنا ذا أدعوك يا رب العالمين، وأسعد بدعائك وإن لم تعطني، وفي هذا شكر لله تعالى على سالف أياديه عليه، فكما أحسنت إليّ سابقًا أسألك أن تتم إحسانك إليّ لاحقًا.

---

(١) جزء من حديث طويل في «المسند» (٧٤٢٤، ٨٩٧٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبراني في الدعاء (١٨٩٤) والترمذي (٣٦٠٠) وهو في البخاري (٦٤٠٨) وابن حبان (٨٥٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١).

قال البيضاوي: هذا توسل بما سلف له من الاستجابة، ومن حق الكريم ألا يخيِّب من أطمعه[١].

خاف زكريا على مستقبل الدعوة في بني إسرائيل، لأنه لم ير فيهم من هو أهل للقيام بهذه المهمة بعد موته، فسأل ربه ولدًا صالحًا يرثه في النبوة:

سَبَبُ إِلْحَاحِ زَكَرِيَّا فِي الدُّعَاءِ

٥، ٦- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى[٢] وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى[٣] وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾

ثم ذكر زكريا بعض الأسباب الأخرى للإلحاح في الدعاء، فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى﴾ **الموالي**: هم الأقارب والعصبات، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣].

فالموالي في الآية هم الذين يتولَّوْن الأمر من بعده، من بني عمومته وأقاربه، وكان فيهم من يتطلع إلى الزعامة والرئاسة، فأراد زكريا أن يَسُدَّ عليهم الطريق بدعائه لربه أن يرزقه ذرية طيبة، تقود بني إسرائيل قيادة صالحة، كما جاء في آيات أخرى: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء].

والمعنى: إني خفت أقاربي وعصَبتي من بعد موتي، ألَّا يقوموا بدينك حق القيام، فقد كان قومه شرار بني إسرائيل، فخاف ألا يُحسنوا خلافته في أمته، وليس أدل على ذلك من أنهم قتلوه ونشروه بالمنشار.

كان زكريا رجلاً كبيرًا، قد وهن عظمه واشتعل الشيب في رأسه وإلى جوار ذلك فإن امرأته كانت عاقرًا لا تلد ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ هذا أمر فوق العادة، فارزقني من عندك ولدًا وارثًا ومُعينًا.

---

(١) البيضاوي (٢/ ١٤).

(٢) قرأ ابن كثير بفتح ياء الإضافة في (من ورائي)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ أبو عمرو والكسائي بجزم الفعلين من (يرثني ويرث) فالأول مجزوم في جواب الدعاء والثاني معطوف عليه، والمعنى: أسألك يا رب أن تهب لي من لدنك وليًا يرثني، وقرأ الباقون بالرفع فيهما على أن الأول صفة والثاني معطوف عليه، والمعنى: فهب لي من لدنك وليًا وارثًا لي، ووارثًا من آل يعقوب.

وقد بيَّن سبحانه في آية أخرى أنه أزال عنها العُقْم، وأصلحها للولادة، فقال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وبعد هذا التمهيد دعا زكريا ربه قائلًا: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ لم يصرح زكريا بالولد، وإنما طلب الولي الصالح الذي يُحسِن الوراثة، **والولي**: هو النصير والمعين.

ولم يذكر الولد تصريحًا؛ لأنه يعلم أنه رجل كبير قد خارت قواه، وقلَّت رغبته في إتيان النساء، وامرأته بلغت الثامنة والتسعين من عمرها، وهي عقيم من الصغر لا تلد، فإجابة دعائه أمر معجز لا يقدر عليه إلا الله، ولذا قال: اجعل لي من لدنك وليا يقوم بأمر الدين بعدي، يرثني في العلم والنبوة والخلافة؛ فالأنبياء لم يورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، كما قال النبي ﷺ في حديث عائشة ﵁: «**لا نورَّث ما تركنا صدقة**»[١].

وفي لفظ: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث**»[٢].

وفي الحديث، عن أبي الدرداء: «... **إن العلماء هم ورثة الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورّثوا العلم..**»[٣].

أي: اجعل يا رب هذا الولد يرثني في نبوتي وعلمي، ويرث النبوة من آخر أجداده في بني إسرائيل؛ فإن من المعلوم أن آل يعقوب قد انقرضوا منذ زمن، فلا يورَث عنهم إلا العلم والنبوة والدين؛ لأن أموالهم لا وجود لها، واجعله يا رب مرضيًّا عنه عندك، مُحببًا إلى خلقك، جاء في الأثر: «**يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه مَنْ وراثه، ويرحم الله**

---

(١) البخاري برقم (٤٠٣٤، ٦٧٢٧، ٦٧٣٠) ومسلم برقم (١٧٥٨) عن عائشة، وفي البخاري عن أبي بكر (٣٧/١) برقم (٦٧٢٦) ومسلم برقم (١٧٥٩) وفي البخاري عن عمر وعثمان وطلحة والزبير برقم (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم برقم (١٧٥٧).

(٢) أخرجه النسائي من طريق أبي عيينة عن أبي الزناد، وهو عند أحمد في «المسند» برقم (٩٩٧٢) عن أبي هريرة بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر (٧٣٠٣) ومسلم (١٧٦٠،١٧٦١) والبخاري (٢٧٧٦) وأبوداود (٢٩٧٤).

(٣) من حديث طويل في «المسند» (٢١٧١٥) والترمذي (٢٦٨٢) وأبو داود (٣٦٤٢) وابن ماجه (٢٣٩) وهو حديث حسن لغيره، أورده السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٧٠٣) وله شاهدان عن البراء بن عازب وعن أنس.

لوطًا، إنْ كان ليأوي إلى ركن شديد»(١).

وأخرج البخاري وغيره بسنده إلى عائشة ﵂ أن فاطمة والعباس ﵄ أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضيْهما من فدَك، وسهمهما من خيبر، فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا نورَّث ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»**، قال أبو بكر: والله لا أدع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته، قال: فهجرتْه فاطمة، فلم تكلمه حتى ماتت(٢).

قال الرازي: قدَّم زكريا ﵇ على طلب الولد **أمورًا ثلاثة**:

أحدها: كونه ضعيفًا.

وثانيها: أن الله تعالى ما ردَّ دعاءه البتَّة.

وثالثها: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين(٣).

والحاصل: أن زكريا سأل ربه ولدًا، ذكرًا، صالحًا، يبقى بعد موته، ويكون وليًا ونبيًا، مرضيًّا عند الله وعند الناس.

إِجَابَةُ دُعَاءِ زَكَرِيَّا ﵇

٧- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ(٤) إِنَّا نُبَشِّرُكَ(٥) بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/٣) والطبري (١٥/٤٥٩). وانظر صحيح البخاري برقم (٣٣٧٢) عن أبي هريرة وفيه (يرحم الله لوطا...) ومسلم (١٥١).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٠٩٢، ٤٢٤٠، ٤٢٤١، ٦٧٢٥، ٦٧٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٥٩).

(٣) «التفسير الكبير» (٢١/١٨١).

(٤) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بدون همزة بعد ألف (زكريا) فيكون المد منفصلًا حال وصلها بما بعدها، وقرأ الباقون بهمزة مضمومة بعد الألف، فيكون المد متصلًا، وتلتقي هذه الهمزة بالهمزة التي بعدها، الأولى مضمومة والثانية مكسورة، فيسهل الثانية ويبدلها واوًا خالصة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، ويحققها ابن عامر وشعبة وروح.

(٥) قرأ حمزة (نَبْشُرُك) بفتح النون، وإسكان الباء، وضم الشين، من البشرى، وقرأ الباقون بضم النون وفتح الباء وكسر الشين مشددة (نُبَشِّرك) من بشَّر المضعف، لغة أهل الحجاز.

أجاب الله دعاء زكريا، فبشَّره بمولود تولى الله سبحانه تسميته بنفسه تشريفًا له، ولم يترك التسمية لأبويه، ولم يُسمَّ أحد بيحيى قبله، فهو اسم وحيد وفريد من نوعه؛ إذ ليس هناك من سُمِّي قبله بهذا الاسم.

ومَن قَال من المفسرين: إن يحيى ليس له بين الأنبياء الذين قبله شبيه ولا نظير، فهو قول مردود بأفضلية أنبياء الله: نوح، وإبراهيم، وموسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وإنما المراد: لم نجعل له من يوافقه في هذا الاسم قبل وجوده.

ونظير هذه الآية ما جاء في سورة آل عمران بعد أن دعا زكريا ربه أن يرزقه الذرية الطيبة، وكان ذلك بعد انقطاعه للعبادة والتبتل، والإكثار من التسبيح والتحميد مدة ثلاث ليال ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد امتنَّ الله تعالى على زكريا، وأثنى على يحيى بأنه لم يجئ قبله من الأنبياء من اجتمع له ما اجتمع ليحيى:

(أ) فإنه قد أُعطي النبوة وهو صبي، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

(ب) وجعله الله حصورًا، لا يأتي النساء، مع قدرته على ذلك، وهو أبلغ في عصمته من الحرام، وأدنى مشقة عليه في الجمع بين حقوق العبادة والحقوق الزوجية.

(ت) ووُلِد لأبيه بعد الشيخوخة، ولأمه بعد أن كانت عاقرًا.

(ث) وبُعِث مبشِّرًا برسالة عيسى قبل أن يكون هو رسولًا.

(ج) وجعل الله اسمه مبتكَرًا لم يسبق لأحد أن تَسمَّى به، وهذا مزيَّة في قوة التعريف؛ لعدم الاشتراك في التسمية، وهذه المزايا لا تقتضي الأفضلية على أولي العزم من الرسل.

زَكَرِيَّا يَتَعَجَّبُ وَيُرِيدُ الاطْمِئْنَانَ

٨- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾

قال زكريا متعجِّبًا وفَرِحًا مسرورًا من عظيم قدرة الله تعالى، شاكرًا فضله عليه، ومعترفًا بأنه قد أعطاه عطية عزيزة غير مألوفة، مقررًا ذلك في بيان أنَّ زوجته كانت عاقرًا لا تلد

في شبابها،فكيف وهي عجوز؟! وأنه قد تقدمت به السن، وبلغ النهاية في الكبر، فالمانع من وجود الولد موجود بي وبزوجتي، وكأنه وقت دعائه لم يستحضر هذا المانع لشدة الرغبة في الولد.

قال المفسرون: كان زكريا قد بلغ مئة وعشرين عامًا، وامرأته ثمانية وتسعين عامًا.

وقال وهب بن منبه: قال هذه المقالة وهو ابن ستين أو خمس وستين سنة[1].

وعدم الإنجاب قد يكون لعلة في رحم المرأة، أو لعلة في ماء الرجل، تجعله غير صالح لنموِّ البويضات، وعليه فإن كلًّا من الرجل والمرأة يوصف بأنه عاقر، وكان الله تعالى قد أجاب دعاء زكريا في طلبه الولد وأصلح له عقْر امرأته حين قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

فأجاب الله دعاءه، ورزقه الولد بعد أن أصلح له زوجه، وبلغ هو مبلغًا كبيرًا في دقة العظم، ونحول الجسم، وضعف إتيان النساء، ولما قُبلت دعوة زكريا، تعجب من ذلك، فأجابه الله بأن هذا الأمر وغيره هيِّن على الله تعالى:

٩- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ[2] مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾

قال الملَك مجيبًا زكريا عمَّا تعجَّب منه: الأمر كذلك، أي: أن الحال كما تقول من كون امرأتك عاقرًا، وبلوغك من الكبر مبلغًا كبيرًا، ولكن هذا قدَرُ الله تعالى ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فخلْق يحيى من شيخين كبيرين أمر سهل وهيِّن على رب العالمين؛ لأن قدرته تعالى لا يعجزها شيء، ولا تخضع لما جرت به العادة.

ثم لفت نظره إلى ما هو أعجب مما تعجب منه، فقال: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ أي: وقد خلقتك أنت يا زكريا من قبل يحيى، ولم تك شيئًا مذكورًا، كما قال تعالى:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾.

وقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان].

---

(١) كما أخرجه الرامهُرْمُزِيُّ في «الأمثال» ص ٦٤ .

(٢) قرأ حمزة والكسائي (وقد خلقناك) لمناسبة (إنا نبشرك)، وقرأ الباقون (وقد خلقتك) لمناسبة (هو علي هين).

وقبلك خلقتُ أباك آدم، وأوجدته من العدم، فلا عجب أن أصلحنا لك زوجك، ورزقناك الولد على كبر.

وليس في الخلْق ولا في غيره ما هو هيِّن وصعب على الله تعالى، فكل شيء عليه هيِّن، وإنما هذا في اعتبار الناس، والله تعالى يخلق كل شيء بقوله: كن فيكون ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] أي: بمجرد توجه الإرادة إليه.

زَكَرِيَّا يَطْلُبُ عَلَامَةً عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِهِ

١٠- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ[1] ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾

أراد زكريا زيادة الاطمئنان، خاصة وأن البشارة لم تحدِّد زمنًا، فقد فرح زكريا فرحًا شديدًا بهذه البشرى، وتاقت نفسه إلى الاطمئنان، فأسرع يطلب من ربه علامة تبيِّن له ذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ أي: علامة أستدلُّ بها على حَمْل امرأتي! وهذا كقول الخليل ﷺ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] فطلَب الوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبه.

قال سبحانه: العلَامة أنك تُمنع من الكلام، ولا تقدر عليه مدة ثلاثة أيام من غير أن تكون أخرسَ ولا أبكم، أي: من غير علة ولا مرض، وأنت سوِيٌّ معافى، فلا تكلِّم الناس إلا بالإشارة أو الكتابة.

وهذا لا ينطبق على التسبيح والتحميد وتلاوة التوراة، فقد كان زكريا ممنوعًا من كلام الناس، ولكنه إذا سبح الله تعالى فإنه كان يسبح، وإذا قرأ التوراة فإنه يتلوها، وإذا ذكر الله تعالى فإنه يَذْكُره، وإنما أمسك الله لسانه عن كلام الناس ثلاث ليال سويًّا، وفي قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١] أي: إلا كلامًا بالإشارة، فقد ختم الله على لسان زكريا وهو صحيح سوِيٌّ فلم يتكلم ثلاثة أيام[2]، والأيام الثلاثة هي الليالي الثلاث، فتارة يعبر القرآن بالليالي وتارة يعبر بالأيام، والمعنى واحد.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (اجعل لي آية)، والباقون بإسكانها.
(٢) الحاكم (٢/ ٥٩١).

قال ابن عباس ﷺ: اعتُقل لسانه من غير مرض[(١)]

وقال ابن زيد: حُبس لسانه، فكان لا يستطيع أن يكلِّم أحدًا، وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة، ولم يكن الإنجيل قد ظهر بعدُ؛ لأن هذا كان قبل ولادة عيسى عليه السلام- فإذا أراد أن يكلم الناس لم يستطع أن يكلمهم[(٢)].

وحَبْسُ لسان زكريا عن الكلام ثلاثة أيام من غير خَرَسٍ ولا آفة، آية عجيبة من آيات الله تعالى الدالة على عظيم قدرته، لاسيما وأن هذا المنع خاص بخطاب الناس، فإذا أراد أن يذكر ربه زال المانع، كما قال تعالى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ آل عمران:٤١] فاطمأن قلبه واستبشر، وامتثل أمر ربه في الذكر والعبادة، وعكف في محرابه.

زَكَرِيَّا يُمْنَعُ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ

١١- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾

أي: فأظهر الله الآية المطلوبة، وخرج زكريا على قومه من المحراب، وهو المصلَّى الذي يصلي فيه وكانوا يتخذون المحاريب فيما ارتفع من الأرض، وهو أيضًا المكان الذي بُشِّر فيه بالولد، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وكانت مساجدهم تُسمَّى محاريب، أي: الأماكن التي تُحارَب فيها الشياطين، وكان زكريا هو الحبر الأعظم لهم، فكان يصلي بهم في المحراب، والناس وراءه ينتظرون أن يُفتَح لهم الباب؛ كي يدخلوا الهيكل ويتعبدوا، ففُتح لهم الباب، وبدل أن يتكلم، أشار إليهم أن ادخلوا وسبحوا وصلّوا بكرة وعشيًا، أي؛ في صلاة الفجر، وصلاة العصر، وأكثروا من ذكر الله وتسبيحه صباحًا ومساءً شكرًا لله تعالى، لأن البشارة بنبي الله يحيى فيها مصلحة دينية يعود نفعها على الجميع.

وانتظر زكريا، فما هي إلا أيام ثلاثة حتى رزقه الله بالجنين في بطن أمه.

---

(١) الطبري (١٥/ ٤٦٨).

(٢) «تفسير الطبري» (١٦/ ٢٥) عن ابن أبي حاتم.

ويقف القرآن هنا عند قصة زكريا ﷺ، فيطوي ما بعده من تمام قصة زكريا ﷺ، ويفتح الصفحة الجديدة على قصة ابنه يحيى ﷺ.

٢- نَبِيُّ اللهِ يَحْيَى ﷺ

عَشْرُ خَصَائِصَ مَدَحَ اللَّهُ بِهَا نَبِيَّهُ يَحْيَىٰ

١٢- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾

قبل هذه الآية كلام محذوف تقديره: حملت أم يحيى به -وهي أخت حنَّة، أم مريم، فيحيى وعيسى ابنا خالة- حَملت به أمه ووضعته وشبَّ وترعرع، ثم خصه الله بعشر خصائص.

الأولى: أن يأخذ التوراة بقوة، وذلك أنه لما بلغ مبلغًا يَعقل فيه ويخاطَب، خاطبه الله سبحانه بقوله: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة، فالإنجيل لمَّا ينزلْ بعدُ، وعيسى لمَّا يولدْ بعد، خذ التوراة بقوة، أي: بجد واجتهاد وعزم، احفظها وافهمها، واعمل بما فيها، وامتثل أمرها واجتنب نهيهاً، وحلل حلالها، وحرِّم حرامها، واتَّعظ بما فيها.

امتثل يحيى أمر ربه، فأقبل على كتابه يحفظه ويفهمه ويعمل بما فيه.

الثانية: أنه أوتي الحكم وهو صبي، فقد آتاه الله من الذكاء والفطنة ما لا يوجد في غيره، ولذا قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي: آتيناه الحكمة، وحُسن فهم التوراة، ورجاحة العقل، وعدم اللهو واللعب، والاشتغال بالعبادة، وهو ابن سبع سنين، فالمراد بالحكم: الحكمة، ورجاحة العقل، والفهم، وقد أُوتي يحيى وعيسى النبوة، قبل سن الأربعين بكثير؛ لحكمة يعلمها الله تعالى، فقد أرسل الله رسله في سن الأربعين، عدا يحيى وعيسى، فكانت رسالتهما في سن الثلاثين؛ ولعل ذلك لاستشهاد يحيى، ورفع عيسى قبل بلوغ الأربعين، وقد أوتي يحيى الحكم وهو صبي، فقرأ التوراة وهو صغير.

قال قتادة: جاء الغلمان إلى يحيى بن زكريا، فقالوا: اخرج بنا نلعب، قال: ما لِلَّعب خُلِقنا[(١)].

وقال ابن عباس ﷺ: من قرأ القرآن قبل أن يبلغ سن الحُلم فقد أوتي الحكم صبيًّا[(٢)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق عن معمر (٢/ ٤).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٧) وقد أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٤٩).

الثالثة: أنه أعطى الحب والحنان، كما قال تعالى:

١٣، ١٤- ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾

أي: ورزق الله زكريا الرأفة والرحمة والحنان والحب، والعطف والشفقة -ومن ذلك قولهم: حنَّ الرجل إلى وطنه، وحنَّت الناقة على ولدها، وحنَّت المرأة على زوجها- كما رزق الله زكريا الرحمة بالناس، ولين الجانب، وهذه الخاصية يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

الرابعة: أن الله تعالى جعله زكيًا طاهرًا من الذنوب، وهذا معنى ﴿وَزَكَوٰةً﴾ فالمراد بها الطهارة والنقاء من الرجس والدنس، والمعاصي والذنوب.

جاء في الأثر عن سعيد بن المسيب، وعن الحسن أن يحيى بن زكريا لم يقدم على خطيئة، ولم يهمَّ بمعصية.

فقد طهر الله لسانه وقلبه وجوارحه من الآفات والذنوب، ومن الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة، وسائر الشرور والمساوئ.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنْب إلا ما كان من يحيى بن زكريا»**[1]. وفي لفظ البزار: (لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يحيى بن زكريا ما همّ بخطيئة - أحسبه قال- ولا عملها)[2].

الخامسة: أن يحيى كان تقيًا، فاعلًا للمأمورات، تاركًا للمكروهات والمحرمات، ومن كان تقيًّا كان وليًّا. وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وأكرمه الله بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة. وهذا معنى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٤٤) و«المستدرك» (٢/ ٣٧٣) من طريق ابن إسحاق، قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ورجَّح أبو حاتم أنه موقوف، وانظر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٩). وابن كثير (٤/ ٢١٨). وابن إسحاق متكلَّم فيه، وقد عنعن في هذا الحديث، وجاء مثله عن ابن عباس في «المسند» (٢٢٩٤) بإسناد ضعيف لضعف ابن جدعان، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٤٤) والبزار (٢٣٥٩) كشف الأستار، وابن أبي شيبة (١١/ ٥٦٢) وعبد بن حميد (٦٦٥).

(٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند البزار (٢٣٦٠) بإسناد رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين إلا محمد بن الوليد البغدادي فقد روى له النسائي وقال: لا بأس به.

السادسة: وكان يحيى كثير البر والإحسان لوالديه، مطيعًا لهما، لم يكن عاقًّا ولا مسيئًا لهما بقول أو فعل. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾.

السابعة: ولم يكن يحيى متجبرًا ولا متكبرًا عن طاعة ربه ولا عن طاعة والديه، ولا عاصيًا لربه، بل كان متذلّلًا متخشّعًا رجّاعًا إلى الله تعالى قد جمع بين القيام بحقوق الله وحقوق العباد. ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ بل كان متواضعًا متطامنًا لربه ولخلق الله.

الثامنة: ولم يكن يحيى عاصيًا لربه، بل كان مطيعًا له ممتثلًا أمره ونهيه، وقد أُخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

وقد وصف الله تعالى يحيى عليه السلام بوصفين آخرين:

أحدهما: أنه كان سيدا في قومه يرجع الناس إليه في أمورهم الدينية والدنيوية.

وثانيهما: أنه حصور كما قال تعالى عنه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

والحصور: هو الذي لا يأتي النساء مع قدرته على ذلك، فهو يمتنع عن إتيان النساء تبتلًا وانقطاعًا للعبادة، وكان هذا جائزًا في شريعتهم، فكان يحيى خائفًا مطيعًا لله تعالى، مؤديًا للفرائض، مجتنبًا للمحرمات، فهذه عشرة خصائص مدح الله بها يحيىٰ عليه السلام قال تعالى:

١٥- ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

وتحية من الله وسلام وأمان على يحيى من حين مولده إلى حين بعثه في يوم ولادته، وفي يوم موته، ويوم يبعث من قبره، فقد حياه الله في **مواطن ثلاثة**: هي موطن الغربة، وموطن الوحشة، وموطن الضعف، التي يكون فيها العبد بحاجة أشد إلى عطف ربه، وافتقار إلى رعايته سبحانه، وذلك يوم الولادة حين يخرج من بطن أمه إلى عالم آخر، ويوم يموت حين يخرج من الدنيا ويدخل في وحشة القبر، ويوم يبعث حيًّا إلى الحشر والنشور يوم الفزع الأكبر.

قال سفيان بن عُيَيْنة: أحوج ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم ولد، فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم.

فخص الله يحيى عليه السلام بالكرامة والسلامة في المواطن الثلاثة.

وهذه الأحوال الثلاثة هي ابتداء أطوار: الورود على الدنيا، والارتحال عنها، والورود على الآخرة.

وفي الآية سلامة ليحيى من الشيطان ومن الشرور، والآفات والعقاب، وسلامة من النار وأهوالها، وبشرى له بأنه من أهل دار السلام.

قال الحسن البصري: الْتقَى يحيى وعيسى، فقال عيسى ليحيى: استغفر لي فأنت خير مني، قال يحيى: استغفر لي أنت خير مني، قال عيسى أنت خير مني، سلَّم الله عليك، وسلمتُ على نفسي[١].

وقد سلَّم عيسى على نفسه، كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾.

وسلَّم الله على يحيى في قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

قال مالك: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك[٢].

وهذا معنى ﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، إلا ابني الخالة: عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا**»[٣].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره للآية بإسناده عن الحسن، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٢٥) باختلاف في اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ٤) وأحمد في «الزهد» ص ٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم من طريق عبد الرحمن بن القاسم كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٢٨).

(٣) «المسند» (١٠٩٩٩، ١١٥٩٤، ١١٦١٨، ١١٧٧٧) بدون (إلا ابني الخالة..) وأبو يعلى (١١٦٩) وابن حبان (٦٩٥٩) والحاكم (٣/ ١٦٦) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح، ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (٧٩٦)، والزيادة المذكورة جاءت من طرق أخرى كالخطيب في تاريخه (٤/ ٢٠٧) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٧١) والنسائي في الكبرى (٨١٦٩) والطبراني في الكبير (٢٦١٠). والحديث صحيح بدون هذه الزيادة.

اسْتِشْهَادُ يَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

أخذ يحيى عليه السلام يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه، وإقامة شرائعه، من الصلاة والصيام، والصدقة والذكر، وغير ذلك مما أُمر بتبليغه.

وكان حاكم فلسطين وقتها يُسمَّى (هيرودس) وهو رجل طاغية، وكان يعشق ابنة أخيه، فأحبها وأراد أن يتزوجها، وهي محرمة عليه؛ لأنه عمها، وهذا من زواج المحارم، فلما علم يحيى بذلك أخذ يحارب هذه الزيجة ويمنعها، فعلمت أم البنت بذلك، فزينتْها وجمَّلتْها وأدخلتها على الملِك، وأخذت تراقصه حتى قال لها: تمني عليَّ، فتمنَّت عليه - كما قالت لها أمها- رأس يحيى، فأمر بقتله، وجيء برأسه في طبق، فقُتل يحيى عليه السلام في حياة أبيه زكريا عليهما السلام.

ولما احتجَّ أهل العلم واستنكروا على الحاكم قتله له، قتلَهم جميعًا، فكان ممن قال الله عنهم: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. وهم العلماء الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، وقتل فيهم ضمن من قُتِل: زكريا عليه السلام، وقد نُشِر بالمنشار. ولمّا كانت ولادة يحيى عليه السلام من الأمور العجيبة انتقلت الآيات إلى ما هو أعجب منها.

٣- وِلَادَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْجَبُ مَا عَرَفَتْهُ البَشَرِيَّةُ

١٦- ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾

وبعد قصة زكريا ويحيى عليهما السلام، تأتي قصة ولادة عيسى عليه السلام، وهي قصة أعجب من قصة ولادة يحيى؛ إذ إن ولادة العذراء من غير بعل أعجب وأغرب من ولادة العاقر من بعلها الشيخ الكبير، فولادة عيسى أعجب ما عرفتْه البشرية في تاريخها كله، وهو حادث فذ لا نظير له مِنْ قَبْل ولا مِنْ بَعد، ولغرابة الحادث، فإن فريقًا من الناس أخذ يُضفي على عيسى صفات الألوهية، ويصنع حول مولده الخرافات والأساطير، حيث قال بعض النصارى: صحيح ليس له أب من البشر، وإنما أبوه هو الله نفسه، وأنه رب ثان مثل أبيه، ويوجد إله ثالث يكمل سلسلة الآلهة، هو الروح القدس الذي نفخ في مريم، وهذه هي الأسرة المقدسة!!

ولما كان هذا الكلام لم يُعهد في دين سابق، ولم يجرِ على لسان أحد من المرسلين، فقد سُمِّي بالعهد الجديد.

والإنسان يتساءل: هل الأب والابن والروح القدس كلمات مترادفة، لذاتٍ واحدة؟ أم أن لكل منهم ذاتًا خاصة؟ فإذا كان لكل منهم ذات خاصة، فكيف يكون الكل ذاتًا واحدة؟ وهل هم ثلاثة أثلاث يكوِّنون واحدًا صحيحًا؟! كل الفروض يأباها العقل!

ويقول بعض النصارى: بل هما ذات واحدة وصفتان! الأب والابن، والصفة، التي هي المسيح، تُصْلَب ثم تصعد إلى السماء، والأب يَنْظُر.

والصحيح أن الله تعالى إله واحد، وأن عيسى عبده ورسوله، كسائر العباد المرسلين، وأنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة في عشرات السور.

إن هذا الخلاف سيظل محتدمًا، حتى يجمعنا الله يوم المشهد العظيم، عندئذ يعلم الجميع أن الله تعالى واحد، وأن ما عداه من مخلوقاته عبد له، وأنه هو الذي يدين له العباد يوم الدين، وإذا كان بعض الناس اليوم ينظر ولا يرى، ويسمع ولا يعي، فإن الحواس يومها ستسمع الهمس، والعيون سترى الذرَّ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [٣٨] أي: ما أشد سمعهم! وما أشد بصرهم يومئذ![1].

وِلَادَةُ مَرْيَمَ

وقصة ولادة عيسى عليه السلام ترتبط بقصة ولادة أمه مريم التي سبق ذكرها في سورة آل عمران [٣٥-٣٧] فقد كان أبوها عمران رئيسًا في قومه، كبيرًا وإمامًا لأمته، وكانت زوجه حنَّة لا تلد، فنذرت إن رزقها الله مولودًا فستجعله وقفًا على خدمة بيت المقدس، وتهبه له، ولما وضعتْ حنَّة هذا المولود ووجدتْه أنثى اعتذرت إلى ربها قائلة: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾، ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ في خدمة بيوت الله، وجملة ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ جاءت معترضة بين قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وقولها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ومعنى لفظ مريم، أي: عابدة ناسكة، وقد أعاذتْها أمها بالله، هي ونسْلها من الشيطان الرجيم.

ثم إن الله عز وجل أعلمها أنه تقبَّل مريم -هذه الأنثى- لخدمة بيته ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

---

(١) يُنظَر: الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ١٤٣ .

ونشأت مريم نشأة صالحة، عابدة ناسكة، وأنبتها الله نباتًا حسنًا، ومات أبوها عمران، وهي طفلة صغيرة، فحملتْها أمها إلى سدنة بيت المقدس (الكهان والأحبار) وقالت لهم: دونكم هذه البنت فقد نذرْتُها لخدمة بيت الله، فتنازعوا مَنْ يكفُلها، ومَنْ يقوم على تربيتها، وكان زكريا عليه السلام هو النبي المرسل في ذلك العهد، وهو زوج خالتها أم يحيى، وكان زكريا يرغب في كفالتها.

ولمَّا تنازعوا اقترعوا، حيث خرجوا إلى نهر، وألقى كل منهم بقلم في هذا النهر، فتساقطت الأقلام جميعًا، وترسَّبت تحت الماء، وظهر قلم زكريا فوق الماء، فكانت القرعة لصالحه، فأخذها وكفلها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ أي: في النهر ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: وهم يتنازعون على من يقوم بتربية مريم وكفالتها.

ولما خرجت القرعة على زكريا عليه السلام تولى القيام على شؤون مريم، وبنى لها محرابًا، أي: غرفة في أعلى المسجد مقفلة، لا يدخل إليها أحد، فإذا فرغت من خدمة البيت في غير وجود الناس، استراحت في هذا المكان.

وبعد وقت من الزمن، لفت نظر زكريا شيء عجيب، حيث وجد عندها طعامًا وشرابًا، ووجد فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، فعجب من ذلك وسألها: أنى لك هذا؟ قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

حَمْلُ مَرْيَمَ بِعِيسَى عليه السلام

ولما بلغت مريم سن الثالثة عشرة تقريبًا، وبلغت مبلغ الحيض، انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا، أي: أنها تنَحَّت عن المسجد إلى مكان آخر، هو شرقي بيت المقدس، وشرقي دارها، ولذا: فإن النصارى يتجهون في صلاتهم تجاه المشرق، في الجهة التي وَلَدت فيها مريم عيسى عليه السلام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لأن مريم اتخذت من أهلها مكانا شرقيًا، فاتخذوا ميلاده قبلة، وإنما سجدت اليهود على حرف، حين نُتق فوقهم الجبل، فجعلوا يتحرَّفون وهم ينظرون إليه، يتخوَّفون أن يقع عليهم، فسجدوا سجدة

رضيَها الله، فاتخذوها سُنَّةً[١].

ومعنى الآية: اذكر -يا محمد- في هذا القرآن، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، خبر مريم بالذكر الحسن والثناء الجميل، إذ تباعدت عن أهلها واعتزلتهم، فاتخذت لها مكانًا في الدار، مما يلي الشرق عنهم؛ لتحتجب عن أنظارهم، وتتفرغ لعبادة ربها.

جِبْرِيلُ يَخْتَرِقُ عَلَى مَرْيَمَ حِجَابَهَا وَيُبَشِّرُهَا بِعِيسَى

١٧- ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾

أي: أن مريم اعتزلت قومها؛ لتنقطع للعبادة، وقيل: إن الحيض قد أتاها لأول مرة، فاعتزلت حتى تطهُر منه، وجَعلت لها ساترًا يسترها، أو حجابًا يحول بينها وبين قومها؛ حتى لا يدخل عليها أحد، كي تنفرد لعبادة ربها وتقنت له، امتثالًا لأمر الله تعالى لها في قوله ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران]

فأرسل الله تعالى إليها في هذا المكان، جبريل عليه السلام، فظهر لها في صورة إنسان تام الخلقة، حسن الصورة، مكتمل شكل بني آدم، فالمراد بلفظ: ﴿رُوحَنَا﴾ في الآية: هو جبريل عليه السلام، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه تكريمًا وتشريفًا له، وقد أرسله الله لها في صورة رجل لأنها لا تحتمل رؤية الملَك.

وسمَّاه الله ﴿رُوحَنَا﴾؛ لأنه يحمل الوحي الإلهي إلى رسل الله، فتحيا به قلوب الناس، كما تحيا الأجسام بالروح، وقد حمل جبريل إلى مريم مادة الحياة التي يحيا بها عيسى، وهي تشبه الروح الحقيقية التي هي مادة الحياة للبشر.

لقد اعتزلت مريم الناس، واتخذت لها حجابًا عن أعز الناس من أهلها، ولكنها فوجئت بمن دخل عليها:

١٨- ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ[٢] أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾

---

(١) الطبري (١٠/ ٥٤٣) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١١).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أعوذ)، والباقون بإسكانها.

فلما رأت مريم هذا الإنسان قد اخترق عليها حجابها وسترها أساءت به الظن؛ لشدة ورعها وعفافها، فاستعاذت بالله منه، وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء، فقالت: إني أعوذ وأستجير وألتجئ إلى الله منك وأعتصم بجنابه، إن كنت عبدًا صالحًا ممن يتقي الله ويخافه، فـ ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فاتركني، ولا تؤذيني.

قيل: كان في وقتها رجل فاجر يسمَّى تقيًّا، فلما تسوَّر عليها المحراب ظنَّتْهُ هو، فاستعاذت بالله منه، واحتمت بحماه، ولجأت إليه أن يحفظها منه[1].

والله سبحانه لم يرسل إليها جبريل على هيئته؛ لكي لا تنفر منه، ولا تقدر على محادثته، بل ظهر لها بشرًا مستوي الخلقة؛ لتأنس به ولا تنفر منه، ويمكنها التحدث إليه، وقد جمعت مريم بين الاعتصام بربها، وبين تخويف من تخاطبه وترهيبه من عذاب الله تعالى، وأمرته بلزوم التقوى، وهذا أبلغ ما يكون في العفة مع وجود الدواعي وعدم الموانع، ولذلك أثنى الله عليها في قوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ التحريم: ١٢ وقوله: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] وخصت اسم الرحمن بالذكر؛ لإثارة مشاعر التقوى في نفسه؛ حتى يرجع عما أراده بها حسبما ظنت، فلما رآى جبريل ما بها من روْع وخيفة:

١٩- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ[2] لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾

﴿قَالَ﴾ لها جبريل مطمئنًا: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذت به، ولجأت إليه، فلا تخافي ولا تجزعي، وقد أرسلني الله إليك؛ لِأُعْلِمَكِ ولأنفُخ فيك من روح الله، فمهمتي أن أنفِّذ رسالة ربي ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بإذن الله تعالى ﴿غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهرًا مبرَّأً من الذنوب والعيوب، وقد نسبت الآية الهبة إلى جبريل؛ لأنه السبب فيها، وفي قراءة: (ليهب لك)، أي: ليهب الله لك غلامًا زكيًّا، وفي هذا بشارة بالولد وزكائه، وهذا يستلزم الاتصاف

(١) يُنسَب هذا القول إلى وهب بن منبه، وهو قول ضعيف، يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٩).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو ويعقوب وقالون بخلف عنه بياء بعد اللام في (لأهب) هكذا: (ليهب) على إسناد الفعل إلى ضمير (ربك) في قوله تعالى: (رسول ربك) وهو إسناد حقيقي، أي: ليهب الله لك، وقرأ الباقون ومعهم قالون في وجهه الآخر بهمزة بعد اللام، على إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وهو الملَك، فهو من إسناد الفعل إلى سببه المباشر؛ لأنه باشر النفخ.

بالأخلاق الحميدة، والبعد عن الأخلاق الذميمة.

وقد جاء وصف هذا الغلام في آيات أخرى، منها قوله تعالى في وصفه عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران]. وهنا تعجبت مريم من وجود الولد من غير أب:

مَرْيَمُ تَتَعَجَّبُ مِنْ بِشَارَتِهَا بِالْغُلَامِ

٢٠- ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾

تعجبت مريم من حدوث أمر لها لا تطيقه، فأخذت تحاور الملَك لمَّا علمت أنه مرسل من عند الله؛ لتصرفه عما جاء لأجله، فكأنها تراجع ربها في ذلك، كما راجع إبراهيم رُسُلَ الله حين جاؤوه في شأن نبي الله لوط، وكما راجع محمد ﷺ ربه في فرض الصلاة خمسين صلاة في بادئ الأمر، وقد تضمنت مراجعة مريم **أمرين**:

أحدهما: التعجب من حملها دون زواج.

والآخر: أنها لم تزنِ. ﴿قَالَتْ﴾ للملَك: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾؟

أي: لم أتزوَّج زواجًا شرعيًّا.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧]

وعدم مسِّ بشر لها، يعني: أنه لم يمسها أحد في حلال ولا حرام.

والمسُّ: هو النكاح الحلال، كما قال تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]

أي: تجامعوهن بعد الدخول عليهن، فقد يخطب الرجل المرأة، أو يعقد عليها دون أن يمسها، وكانت مريم مخطوبة ليوسف النجار، ولم يعقد عليها ولم يمسها.

ثم قالت مريم: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي: ولست بزانية فيما مضى، ولا فيما هو آتٍ، والمولود لا يأتي إلا من أحد هذين الطريقين.

٢١- ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾

﴿قَالَ﴾ لها الملَك: الأمر ﴿كَذَٰلِكِ﴾ كما تقولين، لم يمسسكِ بشر، ولست زانية، ولكن ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: أن خلْق عيسى من غير أب أمر سهل ويسيرعلى الله سبحانه، وكل أمر عند الله سهل يسير، ولنجعلَ ولادة عيسى من غير أب علامة دالة على قدرة الله سبحانه؛ لتكتمل القسمة العقلية عند البشر، فالله سبحانه قد خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلَق حواء من غير أم؛ ليُعلم أن خلْقَ الإنسان لا يتوقف على الحمل، ولا على بطن الأم، وخلق عيسى من غير أب؛ ليُبَيِّن أن قدرة الله سبحانه في خلق الإنسان لا تتوقف على تلقيح الذكر للأنثى، وكان خلْق سائر البشر من أب وأم، ذكر وأنثى.

وقد خلق الله عيسى من غير أب؛ ليجعله رحمة منه، ورحمة لأمه، ورحمة لمن يبعث إليهم نبيًّا، فيهتدون بهديه مدة صلاحية رسالته، التي ينتهي أمدها ببعثة محمد ﷺ.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾، أي ولنجعله رحمة منا به وبوالدته وبالناس.

أما رحمة الله به، فَلِمَا أنزله عليه من الوحي وجعله من أولي العزم من الرسل.

وأما رحمته بأمه، فلما حصل لها من الفخر والثناء الحسن.

وأما رحمته بالناس، فلأنه بُعث فيهم رسولًا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فتحصل سعادة الدنيا والآخرة لمن أطاعه واتَّبعه وقال: إنه عبد الله ورسوله.

وكان خلق عيسى بهذه الصورة قضاءً سابقًا مقدرًا في علم الله تعالى، مسطورًا في اللوح المحفوظ، فلابد من نفاذه، فهو أمر مقدر في الأزل عند الله سبحانه. وبهذا ينتهي الحوار بين جبريل ومريم.

أخرج ابن عساكر بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال بما معناه: لما بلغتْ مريم، فبينا هي في بيتها منفصلة، إذ دخل عليها رجل بغير إذن، فخشيتْ أن يكون دخل عليها ليغْتالَها فاستعاذت بالله منه، فأخبرها أنه رسول الله إليها جاء ليهب لها غلامًا زكيًّا، وأن هذا أمر الله، فجعل جبريل يردد: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ وهي تردد: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ وتغفَّلها جبريل فنفخ في جيب درعها، ونهض عنها، فاستمرَّ بها حملُها...[١].

---

(١) ابن عساكر (٧٠/ ٨١).

وقال ابن مسعود ﷺ: خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيضٍ أصابها، فلما طَهُرتْ إذا هي برجل معها تمثَّل لها بشرًا، ففزعت واستعاذت بالله منه، فخرجت وعليها جلبابها فأخذ بكُمِّها فنفخ في جيب درعها -وكان مشقوقًا من قُدَّامها- فدخلت النفخة صدرها فحملت. . . [(١)].

قِصَّةُ حَمْلِ مَرْيَمَ بِعِيسَى وَوِلَادَتِهِ

٢٢- ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

لما اطمأنت مريم إلى قول جبريل المتمثل لها في صورة بشر، اقترب منها فنفخ في جيب درعها، أي: في فتحة ثوبها من أعلى، فوصلت النفخة إلى فرجها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقد وصلت النفخة التي نفخها جبريل إلى بطنها فحملت بعيسى ﷺ، وهذه النفخة الإلهية، هي الروح التي نفخها الله في آدم ﷺ، فإذا هو إنسان، ونفخها في مريم بواسطة جبريل فإذا البويضة مستعدة للنمو، فهي النفخة التي تَمنح الحياة، كما صحَّ في حديث ابن مسعود ﷺ: أن الإنسان يكون أربعين يومًا نطفة، ثم أربعين يومًا عَلَقَة، ثم أربعين يومًا مضغة، ثم يُرسِل الله الملَك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

فهذه الروح واحدة، هي التي أمدَّت آدم بالحياة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]. وأمدت عيسى بالحياة، وهي التي تَمُدُّ كل إنسان بالحياة، وقد حملها جبريل من عند الله تعالى إلى مريم، ولذا فإنه يسمى روحًا.

والأظهر أن مريم حملت بعيسى كما تحمل بقية النساء؛ أي: أنها حملت به حملًا عاديًّا استمرَّ تسعة أشهر على الأرجح، وكان سن مريم آنذاك ثلاث عشرة سنة. ولما حملت مريم بعيسى خرجت من مكانها شرقي بيت المقدس إلى بيت لحم حيث تنحَّت عن أعين الناس إلى مكان بعيد عن أهلها، وهو ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

قال ابن عباس ﷺ: أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم، فرارًا من قومها أن يعيِّروها

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٩٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٧٧٣).

بولادتها من غير زوج[١].

وقال وهب بن منبه: إن مريم لمَّا حملت بعيسى كان معها ابن عم لها يقال له: يوسف النجار، وكانا يخدمان ذلك المسجد، ولا يُعلم من أهل زمانهما أحد أشد عبادة واجتهادًا منهما، وأول من عَلِم بحمل مريم هو يوسف، فبقي متحيِّرًا في أمرها، كلما أراد أن يتهمها ذَكَر عبادتها وصلاحها وأنها لم تغب عنه، وإذا أراد أن يبرِّئها رأى ما ظهر عليها من الحمل.

فكان أول ما تكلم به إليها أنه قال: إنه وقع في نفسي من أمرك شيء، وقد حرصتُ على كتمانه فغلبني ذلك، فرأيت أن أتكلم به؛ كي أشفي صدري، فقالت: قل قولًا جميلًا.

قال: أخبريني يا مريم، هل ينبت زرع بغير بذر؟ وهل ينبت شجر بغير غيث؟ وهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، ألم تر أن الله أنبت الشجر بالقدرة من غير غيث؟ أو تقول: إن الله تعالى لا يقدر على إنبات الشجر حتى يستعين بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها؟

قال يوسف: لا أقول هذا، ولكني أقول: إن الله تعالى يَقْدِر على كل شيء، يقول له كن فيكون.

قالت له مريم: ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك زال ما عنده من التهمة.

وكان يوسف ينوب عنها في خدمة المسجد؛ لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل، فلما دنت ولادتها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[٢].

وكانت مريم قد أفشت سرها إلى أختها امرأة زكريا، بعد أن حملت بيحيى، وذلك حين دخلت امرأة زكريا على مريم فقامت إليها واعتنقتها، وقالت لها: أشعرتِ يا مريم أني حبلى؟ فقالت مريم: وهل علمتِ أيضًا أني حبلى؟ وذكرتْ لها شأنها.

---

(١) «حاشية الجمل» (٣/ ٥٧).

(٢) من «تفسير الخازن» (٣/ ٢١٨) وقد ذكره ابن كثير في تفسير الآية غير منسوب لوهب (٤/ ٢٢٢).

وقد نقل ابن أبي حاتم بسنده عن مالك قال: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعًا معًا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك؟

قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام؛ لأن الله جعله يُحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله[١].

هذا: ولما حملت مريم بعيسى خافت من الفضيحة، فاتخذت لها مكانًا بعيدًا عن الناس، إلى أن قرب وقت الولادة وجاءها المخاض:

آلَامُ الطَّلْقِ وَالْوِلَادَةِ

٢٣- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ[٢] قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا[٣]﴾

وبعد أن حملت مريم بعيسى، وابتعدت به عن أهلها، حان وقت ولادته، ولما جاءها الطلْق وألم الولادة أمسكت بجذع نخلة يابسة واحتضنتْها؛ لتتكئ عليها عند الولادة، فلما نزل المولود نظرت إليه وهي بائسة حزينة مكتئبة، قالت: يا ليتني مت قبل هذه اللحظة التي ألد فيها من غير بعل، وكنت شيئًا لا يُعرف، قالت ذلك حياءً من الناس، وخوفًا من ملامتهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان، إلا مريم وابنها»**[٤]، ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وتمني الموت لا يجوز لأمر دنيوي، كالفقر، والمرض، والهزيمة، ويفوِّض العبد الأمر إلى الله تعالى في الأمور الدينية، كما جاء في صحيح مسلم وغيره: أن النبي ﷺ قال فيما يرويه أنس رضي الله عنه: **«لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به، فإن كان لابد متمنيًا فليقل: اللهم**

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٢١).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (مت)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

(٣) قرأ حفص وحمزة بفتح النون من (نَسيًا)، والباقون بكسرها، وهما لغتان كالوَتر والوِتر، بمعنى: الشيء المتروك.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٦٦) و«صحيح البخاري» برقم (٣٤٣١، ٤٥٤٨) و«المسند» (٧١٨٢، ٨٢٥٤) وعبد الرزاق (١/ ١١٩) وابن أبي حاتم (٣٤٣٢).

أحييني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[(١)].

فلا يجوز تمني الموت إلا عند الفتنة في الدين.

وتمني مريم للموت كان لأجل الدين؛ إذ خافت أن يظن الناس بها الشر في دينها.

ومعناه: أن الموت أهون عليها من العار الذي لحق بها وبأهلها.

خَوَارِقُ لِلْعَادَاتِ أَكْرَمَ اللهُ بِهَا مَرْيَمَ

٢٤- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن[(٢)] **تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾**

ولما وضعت مريم ناداها الملَك من تحت جذع النخلة، وقال بعضهم: إن الذي تحتها هو عيسى، والضمير يرجع إليه، أي: ناداها ابنها عيسى الذي كان أسفل منها عندما وضعتْه، ولعل الذي ناداها هو جبريل، بدليل القراءة الأخرى بفتح الميم: (فناداها مَنْ تحتها)، أي: الذي تحتها من مكان أسفل منها، ناداها قائلًا: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

قال ابن عباس: المراد بمَنْ تحتها: جبريل، أي: ناداها الملك من أسفل الوادي، وهو مكان أسفل منها.

قال ابن عباس ﷺ: ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وعلى هذا فإن المنادِي لها هو جبريل، **والسري**: هو النهر، أو الجدول الصغير، قيل: إن جبريل أو عيسى ضرب الأرض بقدمه فنبعت عين ماء عذبة فجَّرت جدْولًا أو نهرًا يسري لها.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٨٠) عن أنس، و«صحيح البخاري» برقم (٥٦٧١، ٦٣٥١، ٧٢٣٣).

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلف بكسر ميم (مِن) وجرِّ تاء (تحتِها) جار ومجرور والفاعل ضمير يعود على عيسى، والباقون بفتح الميم ونصب تحتها على أن (مَن) اسم موصول فاعل نادى، وتحتَ ظرف.

٢٥- ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ[١] عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾

وأمرها جبريل أن تهز جذع النخلة اليابسة يسَّاقط عليك، أو تُساقط عليك رطبًا جنيًّا.

قال العلماء: إن أفضل طعام للنفساء هو الرطَب، ولو كان شيء خير منه للنفساء لأطعمه الله مريم.

والمرأة حين تضع تحتاج إلى الماء، فهيَّأ الله لمريم جدْولًا كثير المياه يجري كالساقية؛ لتشرب وتقضي حاجتها منه، ثم إن جذع النخلة الذي أمسكت به كان يابسًا ميتًا فحركتْه - كما طلب منها الملَك- فتساقط منه الرطب، وهل النفساء وهي في حالة ضعف تقْوى على تحريك جذع نخلة؟ ولكن الله تعالى يربط الأسباب بالمسببات، فالرزق يأتي مع العمل والحركة وبذل السبب، ولا يأتي من تلقاء نفسه، ثم إن الوقت كان في الشتاء، وهو ليس موعدًا لجنْي الرطب، وكان رُطبًا ولم يكن تمرًا، فهذه خوارق للعادات أكرم الله بها مريم، وشهدها يوسف النجار؛ لتقوى فيه براءة مريم وعصمتها مما يظن بها.

٢٦- ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

﴿فَكُلِى﴾ من الرطب الشهي ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من الماء العذب السلسبيل ﴿وَقَرِّى عَيْنًا ۖ﴾ بالمولود ولا تحزني، فإن وجدت أحدًا من البشر، وأراد أن يسألك عن أمرك فلا تنطقي ولا تتكلمي، بل قولي له بالإشارة: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي أوجبتُ على نفسي سكوتًا، وكان من الصوم في شريعتهم الإمساك عن الكلام ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي: لن أكلم أحدًا من البشر، وهذا وحي من الله تعالى إلى مريم بواسطة الملك، أو بواسطة الطفل، وقد نسخ الإسلام أن يكون السكوت ضربًا من العبادة، أو نوعًا من الصيام.

---

(١) قرأ حفص بضم التاء من (تُساقِط) وتخفيف السين وكسر القاف، مضارع تَساقَطَ والفاعل ضمير يعود على النخلة، و(رطبًا) مفعول به. ٢- وقرأ حمزة بفتح التاء وتخفيف السين وفتح القاف هكذا (تَساقَط) على حذف إحدى التاءين، والفاعل ضمير يعود على النخلة، و(رطبًا) تمييز. ٣- وقرأ يعقوب بالياء على التذكير، وتشديد السين، وفتح القاف هكذا (يَسَّاقَط) مضارع تساقط، أدغمت التاء في السين تخفيفًا، والفاعل ضمير يعود على الجذع و(رطبًا) تمييز. ٤- وقرأ شعبة مثل قراءة يعقوب. ٥- وله قراءة أخرى بفتح التاء وتشديد السين وفتح القاف هكذا (تَسَّاقَط)، وبها قرأ الباقون، فهذه خمس قراءات في (تساقط).

فقد روى مالك في الموطَّأ أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا قائمًا في الشمس فقال: **«ما بال هذا»**؟ فقالوا: نذَر ألا يتكلم، ولا يستظل من الشمس، ولا يجلس، ويصوم، فقال ﷺ: **«مروه فليتكلم، وليستظل، وليجلس، وليتم صيامه»**[(١)] وكان هذا الرجل يُدعَى أبا إسرائيل.

ودخل أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ على امرأة قد نذرت ألا تتكلم، فقال لها: إن الإسلام قد هدَم هذا فتكلَّمي.

وكان بعض العرب قد اقتبس من بني إسرائيل هذا الصمت، فحجَّت امرأة من الحُمس وهي صامتة لا تتكلم، فنسخ الإسلام ذلك بالحديث السابق.

وقد دلَّ هذا النسخ على أن النذر ليس قربى إلى الله تعالى، وأنه لو كان في معصية أو كان في شيء يتعذر الوفاء به، فإنه لا تلزم فيه الكفارة، ولا يلزم الوفاء به؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر الرجل الذي نذر ألا يتكلم أن يكفِّر عن نذره، أو يفي بنذره، بل أشار إلى أن مثل هذا النذر لا ينعقد أساسًا بقوله: **«إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»**.

كما جاء في البخاري وغيره: عن أنس أن النبي ﷺ رأى شيخًا يُهادَى بين ابنيه فقال: **«ما بال هذا»**؟ قالوا: نذر أن يمشي، قال: **«إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني»** وأمره أن يركب[(٢)].

وكان هذا المشي في الطواف بالبيت، ومع هذا أمره النبي ﷺ أن يركب، وكان الركوب في الطواف وقتها ميسرًا، وفي معناه الآن حمل الطائف فوق الخشبة.

وفي البخاري أيضًا: عن ابن عباس أن النبي ﷺ مرَّ وهو يطوف بالكعبة بإنسان ربط يده إلى إنسان بخيط أو بسير أو بشيء آخر، فقطعه النبي بيده ثم قال: **«قُدْه بيده»**[(٣)].

قلت: وإن هذا ليذكِّرني بأحوال الناس اليوم، وهم يطوفون حول الكعبة، فمنهم من يضرب سورًا من حبل ونحوه حول المجموعة من الناس، سِيَّمَا النساء؛ حتى لا يضيع بعضهن من بعض، ومنهم من يضرب حلقة من الرجال حول النساء لِيَطُفْن وهكذا، وهم لا يفكرون في الضرر الذي يلحق بالآخرين من جرَّاء ذلك.

---

(١) «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٢٢١٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٨٦٥، ٦٧٠١) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٤٢).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٦٢٠، ٦٧٠٢، ٦٧٠٣).

وفي المسند بإسناد حسن: عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ أدرك رجلين وهما مقترنان، فقال: «**ما بالهما**»؟ قالا: إنا نذرنا لنقترننَّ حتى نأتي الكعبة، فقال: «**أطلقا أنفسكما، ليس هذا نذرًا، إنما النذر ما ابتُغِي به وجه الله**»[1].

ونَذْرَ شيء لم يشرعه الله تعالى في العبادات يُعدُّ معصية لله تعالى، والإمساك عن الكلام ليس عبادة في الإسلام، والنصارى يعدُّونه عبادة وترحُّمًا على الميت، حين يقفون عليه صامتين هنيهة.

مَرْيَمُ تَضَعُ عِيسَى وَتُوَاجِهُ اسْتِنْكَارَ قَوْمِهَا

٢٧- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾

وبقيت مريم في بيت لحم حتى انتهت مدة النفاس، وفي اليوم الحادي والأربعين[2] وبعد أن اطمأنت نفسها، وقرت عينها بتكليم عيسى لها، وبعد أن عَلِمَتْ أن الله سيُبرئها ويبيِّن عذرها، رجعتْ إلى أهلها وهي تحمل مولودها بين يديها من المكان القصيِّ الذي انتبذت إليه.

قيل: إن قومها خرجوا في طلبها فوجدوها وهي مقبلة عليهم، فلما رأوْها وهي تحمله بين يديها، قالوا لها: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي: منكرًا عظيمًا، حين أتيتِ بولد من غير زوج.

٢٨- ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾

١- قيل: كان لها أخ حقيقي، رجل صالح اسمه هارون، وكانوا يتسمَّوْن بأسماء الأنبياء.

٢- وقيل: هو رجل صالح في قومها اسمه هارون، وليس بهارون أخي موسى بن عمران؛ لأن بينهما نحو ألف عام.

والمعنى: يا أخت هارون في الصلاح والتقوى أنت من أهل بيت نبوَّة وشرف، معروف

---

(١) «مسند أحمد» برقم (٦٧١٤)، حديث حسن، وأخرجه أبو داود (٢١٩٢، ٣٢٧٣) والخطيب في تاريخه (٦/٤٨).

(٢) ذكر ذلك إنجيل لوقا.

بالصلاح والعبادة والزهد، فكيف صدر هذا منك؟! فأبوك ليس برجل شر يأتي الفواحش، وأمك ليست زانية.

في صحيح مسلم وغيره: عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: لما قدمتُ نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرؤون ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمتُ على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك، فقال: «**إنهم كانوا يُسمُّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم**»[1].

وفي بعض الروايات: أن الذين سألوا المغيرة هم أهل خراسان.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح إلى قتادة قال: كان رجلًا في بني إسرائيل صالحًا يسمى هارون، فشبهوها به، فقالوا: يا شبيهة هارون في الصلاح[2].

وقال السهيلي: هارون رجل من عُبَّاد بني إسرائيل المجتهدين، كانت تُشبَّه به في اجتهادها، وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهرًا طويلًا[3].

وكان هذا الاسم كثيرًا في بني إسرائيل، يسمون به أبناءهم تبركًا به دون أخي موسى؛ فهو اسم وافق اسمًا.

وقد شبَّهوها بهارون العابد المنقطع إلى الله تعالى؛ لأنها كانت كذلك منقطعة لخدمة المعبد.

٣- وذكر الطبري وابن أبي حاتم أنه كان في زمانها رجل فاجر يقال له هارون، فشبهوها به على جهة التعيير والتوبيخ، ونسب هذا إلى سعيد بن جبير[4].

ولعل الأرجح من هذه الأقوال الثلاثة أنهم شبهوها برجل صالح في زمانها يسمى هارون، أو أنها نُسبت إلى هارون بن عمران؛ لأنها كانت من سبطه، كما تقول: يا أخا الأنصار.

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (٢١٣٥) و«المسند» (١٨٢٠١) بإسناد حسن على شرط مسلم، وابن أبي شيبة (١٤/ ٥٥١) والترمذي (٣١٥٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٥) وابن حبان (٦٢٥٠) والطبراني (٩٨٦).

(٢) عبد الرزاق (٢/ ٧) ويُنظَر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٧٧) وعبد بن حميد.

(٣) وجاء هذا عن قتادة عند ابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٦٥).

(٤) كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٦٦).

عِيسَى يَتَكَلَّمُ فِي الْمَهْدِ

٢٩- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾

وبعد اتهامهم لها بالفاحشة أرادت مريم أن تدافع عن نفسها، ولمَّا لم تكن لها حجة أشارت إلى عيسى ولسان حالها يقول: وجِّهوا كلامكم إليه، فإنه سيخبركم بحقيقة الأمر، وليكون كلامه حجة لها، لم تجبهم بنفسها ولم تكلمهم، واكتفت بالإشارة إليه، أن اسألوه ﴿قَالُوا﴾ مستنكرين عليها: كيف نسأله؟ أتتهكمين بنا؟ إنه لا يزال طفلًا رضيعًا في مهده، وقد دلَّت الآية على أن الإشارة المفهِمة تقوم مقام الكلام والنطق، **ومن أدلة ذلك**:

١- قصة الأمة السوداء التي قال لها رسول الله ﷺ: «**أين الله**»؟ فأشارت إلى السماء، فقال ﷺ: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[(١)].

فجعل النبي ﷺ إشارتها كنطقها، وحكَم لها بالإيمان الذي هو أصل الشرائع، وبه يُعصم الدم والمال، وتُستحق به الجنة، ويُنجِّي به اللهُ من النار.

ونُزِّلت إشارة زكريا منزلة الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

ومن ذلك أن النبي ﷺ أشار بأصابعه إلى أن الشهر قد يكون تسعة وعشرين يومًا، وثلاثين يومًا.

٢- كما رواه مسلم وغيره: عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فضرب بيديه، فقال: «**الشهر هكذا، وهكذا، وهكذا**»، ثم عقد إبهامه في الثالثة، وقال: «**فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فاقدُروا له ثلاثين**»[(٢)].

٣- وفي البخاري وغيره: عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**لا يعذب الله بدمع العين ولكن يعذب بهذا**» وأشار إلى لسانه[(٣)].

---

(١) يُنظَر الحديث في: «صحيح سنن أبي داود» عن معاوية بن الحكم السلمي برقم (٢٨٠٩) وفي «المسند» برقم (٢٣٧٦٢، ٢٣٧٦٧)، بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٢) ومسلم (٥٣٧) والدارمي (١٥٠٣) وأبوداود (٩٣٠) وابن حبان (١٦٥) والطيالسي (١١٥٠) وغيرهم.

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٨٠) و«صحيح البخاري» (١٩٠٨، ٥٣٠٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطلاق، باب الإشارة في الطلاق والأمور، ك (٦٨) ب (٢٤) قبل الحديث رقم (٥٢٩٣) وانظر: (١٣٠٤) ومسلم (٩٢٤).

٤- وقالت أم المؤمنين زينب بنت جحش ﷺ: قال رسول الله ﷺ: **«فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وهذه»** وعقد تسعين[(١)].

٥- وعن ابن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الفتنة تجيء من هنا»**، وأشار إلى المشرق[(٢)].

وفي حديث عبد الله بن أبي أوفى ﷺ: أن النبي ﷺ أشار إلى المشرق، وقال: **«إذا رأيتم الليل قد أقبل من ها هنا فقد أفطر الصائم»**[(٣)].

٦- وفي حديث النبي ﷺ لمعاذ ﷺ وقد أشار إلى لسانه، وقال: **«كُفَّ عليك هذا»**[(٤)].

فهذه الأدلة وأمثالها حجة على أن الإشارة المُفْهِمة تقوم مقام الكلام[(٥)].

عِيسَى يَصِفُ نَفْسَهُ بِتِسْعَةِ أَوْصَافٍ

٣٠- ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ[(٦)] ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا[(٧)] ﴿٣٠﴾﴾

فأنطق الله عيسى، ووصف نفسه بتسعة أوصاف:

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: كونه عبدًا لله تعالى ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾

قال الرازي: رُوي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلّمهم، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغًا يتكلم فيه الصبيان[(٨)]، هذه أول كلمة ينطق بها

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٠٥) و«صحيح البخاري» (٣٥١١، ٧٠٣٢).

(٣) «المسند» (١٩٣٩٩)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه عبد الرزاق (٧٥٩٤) والحميدي (٧١٤) والبخاري (١٩٤١) ومسلم (١١٠١) والنسائي في الكبرى (٣٣١١) وابن حبان (٣٥١٢).

(٤) «المسند» (٢٢٠١٦) من حديث طويل صحيح بطرقه وشواهده وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٣٠٣) وعبد بن حميد (١١٢) والبغوي في شرح السنة (١١) وعند ابن ماجه (٣٩٧٣) والترمذي (٢٦١٦) والنسائي في الكبرى (١١٣٩٤) والبيهقي في الشعب (٣٣٥٠) وغيرهم.

(٥) يُنظَر: تفصيل هذه المسألة للشيخ الشنقيطي في «أضواء البيان» (٤/ ٢٥٥) وما بعدها.

(٦) قرأ حمزة بإسكان ياء (آتاني الكتاب)، وفتحها الباقون.

(٧) قرأ نافع بالهمز في (نبيًا) فيكون من قبيل المد المتصل، والباقون بياء مشددة.

(٨) «التفسير الكبير» (٢١/ ٨٠٢).

عيسى، وهو رضيع في المهد، وفيها ردٌّ على ضلالات النصارى وافتراءاتهم، فهو يقول لهم: لستُ بإله، ولست ابنًا للإله، ولست ثالث ثلاثة، إنما أنا عبد الله ورسوله.

الْوَصْفُ الثَّانِي: نزول الإنجيل عليه ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

وقد قضى الله سبحانه في الأزل بإعطائي الإنجيل مصدقًا للتوراة ومبشرًا بالقرآن، فيه هدى ونور، فهو سبحانه منزل عليَّ جبريل بالوحي، فقد ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: أنه نبي مرسل ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾

وآتاني النبوة والرسالة؛ فأنا رسول الله إلى بني إسرائيل أيدني الله بالمعجزات، ولأحل لهم بعض ما حُرِّم عليهم عقوبة لهم؛ بسبب ظلمهم وبغيهم، وأخبره الله بما هو كائن من أمره إلى أن يموت.

والمعنى: سيجعلُني نبيًّا، ويؤتيني الكتاب وهو الإنجيل، وهذا إخبار من الله له عما سيكون في المستقبل، كما قيل للنبي ﷺ: متى كنت نبيًّا؟ قال: **«كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد»**[1].

وقد أقرَّ عيسى على نفسه بالعبودية؛ لئلَّا يُتخذ إلهًا كما فعل النصارى، وفيه إزالة للتهمة عن الأم؛ لأن الله تعالى لم يختص بمرتبة النبوة ولد الزنى.

وكلام عيسى هذا وهو في المهد أهملَتْه أناجيل النصارى؛ لأنهم طوَوْا خبر وصول مريم إلى أهلها بعد أن وضعت عيسى، وهذا أمر عجيب يدل على عدم الدقة في صحة نقل الإنجيل عن عيسى عليه السلام.

وفي هذه الآية والآيتين بعدها، اطلاع الله تعالى لنبيه محمد ﷺ على ما كتمه النصارى من هذا الأمر.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ مُبَارَكٌ أَيْنَمَا حَلَّ

٣١- ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾

ومضى عيسى عليه السلام يكمل كلامه، فقال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: جعلني

(١) قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ١١٥) برقم (٦٦١): ضعيف.

الله عظيم الخير والنفع حيثما وُجدت، وحيثما حَلَّت.

وذلك لأن الله تعالى أرسله رحمة لبني إسرائيل، يعلمهم الخير، ويدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، ومِنْ بَركته عليهم أن يُحِلَّ لهم بعض الذي حُرِّم عليهم، ويدعوهم إلى مكارم الأخلاق، بعد أن قست قلوبهم، وغيَّروا في دينهم.

ومن بركته عليهم أن جعل الله حلول عيسى في الأرض المقدسة سببًا للخير والخصوبة، وسببًا لاهتداء أهلها، وتوفيقهم إلى الخير، حيث تنفتح قلوب الناس فيها للإيمان والحكمة، ولذا فإن الحواريين كانوا من عامة الأميين: عمَّالًا وصيَّادين، فصاروا دعاة هدى، وفاضت ألسنتهم بالحكمة.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: أنه يقيم الصلاة ويخرج الزكاة

وواصل عيسى كلامه قائلًا: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أن الله تعالى أمرني أمرًا مؤكدًا مستمرًّا بالمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة ما بقيت حيًّا، وهي وصية خاصة، زائدة على الصلاة والصدقة المفروضتين، كما خصَّ الله نبيه محمدًا ﷺ بمزيد من قيام الليل.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: برّه بأمه

٣٢- ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾

ثم أخبر عيسى عليه السلام، أن الله تعالى جعله بارًّا بأمه، محسنًا إليها غاية الإحسان، ومطيعًا لها، ومكرِمًا إياها، وفي هذا تصريح بأنه لا والد له.

الْوَصْفُ السَّابِعُ: ليس بجبار ولا متكبر ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾

أي أن الله تعالى لم يجعلني جبارًا مغرورًا غليظ القلب جافيًا، ولم يجعلني عاصيًا لربي، ولا متكبرًا على خلق الله، بل جعلني متواضعًا، خاضعًا، هيِّنًا، ليِّنًا.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: تَحِيَّةُ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ وَعِنْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْبَعْثِ

٣٣- ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

ومما نطق به عيسى وهو طفل رضيع في المهد إخباره أن الله تعالى قد حيَّاه وسلَّم عليه في يوم ولادته، ويوم مماته، ويوم خروجه من قبره، فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ أي من الله تعالى في هذه المواطن الثلاثة التي يكون العبد فيها ضعيفًا ﴿يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾.

أي: والسلامة والأمان عليَّ؛ حيث لم يمسني الشيطان بِشَرٍّ، ولا بشيء سيئ، ولا عقوبة من الله سبحانه تنالُني يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم أُبعث حيًّا.

ثم سكت عيسى بعد ذلك، فلم يتكلَّم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الأطفال.

وهكذا وصف عيسى نفسه في هذه الآيات الثلاث بأوصاف ثمانية هي: العبودية، وإنزال الإنجيل عليه، والنبوة، والبركة، ومزيد من الصلاة والصدقة، والبر بأمه، والتواضع، وأنه من أهل السعادة والسلامة.

وأكثر هذه الصفات، وصف الله تعالى بها نبيه يحيى عليه السلام.

وإجابة عيسى عليه السلام لقومه كانت بناء على مجرد إشارة أمه إليه دون كلام.

قال سعيد بن جبير: تكلم في المهد أربعة: عيسى، وصاحب يوسف، وصاحب جُرَيْج، وابن ماشطة فرعون[١].

وعن هلال بن يِساف قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: صاحب جُريج، وعيسى، وصاحب يوسف[٢]. قال تعالى:

٣٤- ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ[٣] ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾

---

(١) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٦٧). وهو عن ابن عباس من حديث طويل في مسند أحمد (٢٨٢١) بإسناد حسن، وأخرجه الطبراني (٢٢٨٠) عن عبد الله بن أحمد، وبنحوه عند ابن حبان (٢٩٠٣) والطبراني (١٢٢٧٩) وانظر في المسند (٢٨٢٢، ٢٨٢٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١١/ ٥٤٥).

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب بنصب لام (قولَ)، على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله، وعامله محذوف وجوبًا تقديره: أقول قول الحق، أي: الصدق، والباقون بالرفع على أنه خبر بعد خبر، والحق يحتمل أن يراد به: الصدق، أو على اسم من أسماء الله تعالى.

ثم بيَّن ﷻ وجه الحق في قضية ولادة عيسى؛ للرد على اليهود والنصارى معًا؛ فهم الذين يشكُّون ويختلفون في أمره، فاليهود ينسبونه إلى الزنى، وينزلونه إلى الحضيض، والنصارى يرفعونه إلى مقام الألوهية، وكلاهما مبطل مخطئ، وما قصَّه الله علينا في الآيات السابقة هو صفة عيسى وخبره، من غير شك ولا مرية، وهو القول الحق الذي لاشك فيه، وما يخالف تلك الصفات فهو باطل لا ينطبق على عيسى عليه السلام، فلا تلتفت إلى شكِّهم وكفرهم، بل ذرهم في طغيانهم يعمهون.

وهذا الذي قصصناه عليك -يا محمد- هو قصة ولادة عيسى عليه السلام، وحقيقة أمره وهو القول الحق الذي يشكُّ فيه اليهود والنصارى، وهذه الحقيقة من رب العالمين، فهي خبر يقيني، وما عداه مقطوع ببطلانه.

٣٥- ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ[١] ﴿٣٥﴾﴾

ثم نزَّه الله سبحانه نفسه عن قولهم: اتخذ الله ولدًا، فما كان لله تعالى أن يتخذ من خلقه ولدًا -كما يقول المشركون والكفار- ولا يليق به سبحانه ذلك، وإذا قضى الله أمرًا من الأمور صغيرًا كان أو كبيرًا، توجهت إليه إرادته سبحانه، فخلقه في لمح البصر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر].

وقد خلق الله عيسى عليه السلام بكلمة ﴿كُن﴾ فكان كما شاء وأراد.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: نفْيُ الْبُنُوَّةِ وَنَفْيُ التَّثْلِيثِ عَنْهُ

٣٦- ﴿وَإِنَّ[٢] ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ[٣] مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

---

(١) قرأ ابن عامر بنصب نون (فيكونَ)، على تقدير إضمار (أن) بعد الفاء حملاً للفظ (كن) على الأمر الحقيقي، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وروح وخلف بكسر همزة (وأن) على الاستئناف، أو عطفًا على (قال إني)، والباقون بفتحها، على أنه مجرور بلام محذوفة والجار والمجرور متعلق بالفعل بعده، والمعنى: ولوحدانية الله تعالى في الربوبية أطيعوه، ويصح أن يكون عطفًا على بالصلاة، أي: وأوصاني بالصلاة، والزكاة، وبأن الله ربي وربكم.

(٣) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسين في (صراط)، وقرأ حمزة وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لقنبل، وكلها لغات.

ومن تتمة كلام عيسى وهو في المهد، أن قال لقومه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ وهذا كلام بشر، ينفي دعوى النصارى في قولهم: عيسى ابن الله، فهو يقول: أنا مخلوق مثلكم، وأنا عبد الله مثلكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وهذا الذي أعلمتكم به عن الله من وحدانيته تعالى، ونفي الولد عنه، وغير ذلك مما يتنزَّه عنه سبحانه، هو الطريق القويم المؤدي إلى جنات النعيم.

والآية السابقة والتي قبلها كلام معترض بين كلام عيسى عليه السلام.

اخْتِلَافُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي شَأْنِ عِيسَى عليه السلام

٣٧- ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

ومع وضوح الحق وبيانه إلا أن أهل الكتاب حادوا عنه، وسلكوا طرقًا أخرى، ولم يتفقوا على شيء، فقد اختلف الأحزاب -وهم فرق اليهود والنصارى- في شأن عيسى عليه السلام:

(أ) فقالت اليهود: إنه ابن يوسف النجار، إنه ابن زنى، قبَّحهم الله، فقد كان يوسف النجار عابدًا ناسكًا يخدم المعبد، وحينما رأى بوادر الحمل على مريم سألها: يا مريم أيكون زرع بغير بذر؟ قالت: فمن الذي خلق الزرع الأول؟ قال: أيكون شجر بغير ماء؟ قالت: فمن الذي خلق الشجر الأول؟ قال: أيكون ولد بغير ذكر؟ قالت: إن الله تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى. ثم ذكَرت له قصة مجيء جبريل إليها، وأن الله سبحانه قد وهب لها بشرًا سويًا، فاقتنع بالأمر.

(ب) وأما النصارى فيذكر المؤرخون أن امبراطور الرومان (قُسطنطين) قد جمع ألفين ومئة وسبعين من الأساقفة؛ لاتخاذ قرار في شأن عيسى، فكانوا فرقًا أربعًا: نُسبت ثلاث منها إلى كبار علمائهم، وهم: يعقوب، ونسطور، وملكان:

١- فقالت اليعقوبية، وهم يمثلون من الفرق الحالية (الأرثوذكس)، قالوا: إن عيسى عليه السلام هو الله، نزل إلى الأرض، فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء.

٢ - وقالت النسطورية، وهم (البروتستانت)، قالوا: إن عيسى هو ابن الله؛ لأنه نفخ فيه من روحه، وأظهره بعض الوقت، ثم رفعه إليه.

٣- وقالت المَلكانية، وهم (الكاثوليك)، قالوا: إن عيسى ثالث ثلاثة، وهم: الله، وعيسى، ومريم، أو جبريل بدل مريم، فكل واحد من الثلاثة إله، وقالوا: إن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة.

ثلاثة في واحد، وواحد في ثلاثة، كيف يكون هذا؟! فالثلاثة لا تدل على شيء واحد أبدًا؛ لأن كل واحد منها يدل على ذات مستقلة، فكيف يكون الواحد ثلاثة؟! هذا تناقض.

٤- وقالت فرقة من النصارى: عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهذا ما يقرره إنجيل برنابا، وسائر الفرق لا تعترف به.

ولذلك فإن الله سبحانه قال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم الفرق الثلاث منهم، وهذا يعني: أن هناك من لم يكفر، وهم الذين قالوا: إنه عبد الله ورسوله، ولذا لم يقل الله تعالى: فويل لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ﴾ يشير إلى أن النصارى كانوا متفقين على قول واحد، هو التوحيد، وكان ذلك في حياة الحواريين.

ثم حدث الاختلاف بين تلاميذهم، فكانت الفرق الثلاث السابق ذكرها في وقت لاحق، ومنها تشعبت فرق أخرى كثيرة[١].

قال قتادة: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أُخرِج من كل قوم عالِمُهم، فامترَوْا في عيسى حين رُفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض، فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم اليعقوبية، فقال الثلاثة: كذبْتَ، ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، فقال: هو ابن الله، وهم النَّسْطورية، فقال اثنان: كذَبْت، ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه، قال: هو ثالث ثلاثة، الله إله، وعيسى إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية، وهم ملوك النصارى، فقال الرابع: كذبْتَ، هو عبد الله ورسوله وروحه من كلمته، وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال[٢].

---

(١) مثل: الألبانية، والبليارسية، والمقدانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، والبولية، وغير ذلك مما ذكره الشهرستاني في «الملل والنحل» وذكره غيره.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ٨) وابن أبي حاتم.

وإنجيل برنابا شاهد صدق على الفرقة الموحدة في زمانهم.

ومعلوم أن من كان موحدًا بالله تعالى، ولم يؤمن بمحمد ﷺ بعد بعثته فهو كافر بمحمد ﷺ، وبما أُنزل عليه، ولا يُقبل له قول ولا عمل.

عن عُبادة بن الصامت ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»[(١)].

وقد هدد الله سبحانه وتوعَّد من نسب إلى الله تعالى الشريك والولد، فأنظره إلى يوم القيامة، وهو يوم المشهد العظيم، حيث تُجزى كل نفس بما تستحق.

كما جاء في الصحيحين: عن أبي موسى ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[(٢)] [هود].

وفي الصحيحين أيضًا: من حديث عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون له ندًّا، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم ويعطيهم**»[(٣)].

٣٨- ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

ثم إن هؤلاء الكفار الذين قالوا: عيسى ابن الله، أو قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: إن عيسى هو الله، هؤلاء جميعًا لم يستعملوا حواسهم وعقولهم فيما خُلقت من أجله، فلم ينتفعوا بها في التوصل إلى توحيد الله سبحانه، فكأنهم كانوا في الدنيا بلا سمع ولا بصر، فإذا كان يوم القيامة فإن سمعهم يكون قويًّا، وبصرهم يكون حادًّا نافذًا، ولكنهم يسمعون ويبصرون ما يكرهون، مما تنخلع له القلوب، وتسودُّ له الوجوه، وقد كانوا في الدنيا صمًّا وعميانًا عن الحق.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨).

(٢) البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) البخاري برقم (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) ومسلم برقم (٢٨٠٤) وهذا لفظه.

لقد كان السمع والبصر في الدنيا وسيلتين للهدى والنجاة، ولكنهما في الآخرة وسيلتان للخزي والندامة، فما أعجب حالهم! وما أشد سمعهم وبصرهم يوم لقاء رب العالمين! كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾.

ها هم يعترفون ويقرون يوم القيامة، فيقولون ورؤوسهم منكّسة من الخزْي والفضيحة: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ ثم يتمنون العودة إلى الدنيا لإصلاح الماضي، فيقولون: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]. ولكن القطار قد فات، فما أسمعهم! وما أبصرهم يوم يَرْجِعُون إلينا، ويروْن ما نصنع بهم من العذاب! حيث يزول إعراضهم، ويُقبلون على الحقيقة، فيقرون بكفرهم وشركهم وأقوالهم وأفعالهم، ويقولون ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢] ويكون هذا يوم لا ينفعهم الإقبال على الله سبحانه، وقد كانوا في الدنيا صُمًّا، بكمًا، عميًا، لا ينتفعون بالهدَى، ولا يُقْبلون عليه، ويوم القيامة يسمعون ويبصرون حقيقة ما قاله لهم رسل الله في شأن عيسى وغيره، فما أسمعهم وما أبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ في يوم القيامة، حين تُنشر الصحف، وتُبلى السرائر، وقد كانوا في الدنيا في غفلة وذهول عن الحق، ظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر، فهم معاندون ضالون، لأنهم عرفوا الحق وانصرفوا عنه.

ذَبْحُ الْمَوْتِ

٣٩- ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هذه الآية تخاطب النبي ﷺ؛ لإعلام الأمة، ويوم الحسرة هو اليوم الذي يُقضى فيه الأمر بذبح مثال الموت، ويُقضى فيه بالعذاب على الكافرين فَتَتَابُهم الحسرة حين يروْن مقاعدهم التي فاتتهم في الجنة لو كانوا مؤمنين، والحسرة هي الندامة الشديدة، والحسرة اسم من أسماء يوم القيامة؛ حيث يتحسر كل إنسان: المحسن يتحسر أن لو ازداد من حسناته، والمسيء يتحسر على سيئاته.

أحاديث في ذبح الموت:

١- جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، ويُذبح على الصراط بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل

الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده، وقال: «**أهل الدنيا في غفلة الدنيا**»(١).

٢- ومجيء الموت يوم القيامة في صورة كبش، ثم يُذبح، صحَّت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين وغيرهما، من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيَشْرَئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، ثم يُنادى: يا أهل النار، فيَشْرَئبُّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت**»(٢).

هذا هو يوم الحسرة إذ قُضي الأمر، وفُرغ من الحساب، وفُرغ من القضاء بين العباد.

والله تعالى يأمر رسوله محمدًا ﷺ أن يخوِّف الخلائق وهم في الدنيا قبل فوات الأوان، وقبل أن يأتي وقت الحسرة، يخوفهم من أهوال يوم القيامة؛ حيث يتحسر الظالمون على تفريطهم في طاعة الله تعالى في وقت لا ينفع فيه الندم، وذلك إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ، وأهل النارِ النارَ، حين يُقضَى الأمر، ويُفصَل بين الخلائق، فيصير أهل الإيمان إلى الجنة، وأهل الكفر إلى النار، وقد كانوا في الدنيا في غفلة عما أنذروا به، لا يصدقون بالحساب والجزاء، ولا يعملون الصالحات، ويوم القيامة يكون فريق منهم في الجنة، وفريق في السعير.

وصحَّ في الحديث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: ذُبح الموت، مع أن الموت عرَض وليس بجسم، ولكن الله تعالى يجعله في صورة كبش، ثم يُذبح، ويموت الموتُ.

٣- جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار،**

---

(١) يُنظَر الحديث في «المسند» (٣/٩) عن أبي سعيد الخدري برقم (١١٠٦٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، والنسائي في «الكبرى» (١١٣١٦) وانظر البخاري برقم (٤٧٣٠) ومسلم برقم (٢٨٤٩) وهو في الترمذي برقم (٣١٥٦) وقال: حديث حسن صحيح، وأبي يعلى (١١٧٥).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم (٢٨٤٩).

فيذبح! ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحًا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»[١].

فلو أن أحدًا مات فرحًا لمات أهل الجنة، ولو أن أحدًا مات حزنًا لمات أهل النار.

وحين يؤتى بالموت في صورة كبش أملح، ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، هذا هو الموت الذي كان يُميتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد من أهل علّيين، ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه.

ثم ينادَى: يا أهل النار، هذا هو الموت الذي كان يُميتُ الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار، ولا في أسفل دركٍ في جهنم إلا نظر إليه.

ثم يُذبح بين الجنة والنار، ثم ينادَى: يا أهل الجنة هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة، لو كان أحدٌ ميتًا من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة، لو كان أحدٌ ميتًا من شهقة ماتوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يقول: إذا ذبح الموت[٢].

وعن التحسر في هذا اليوم يقول سبحانه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

٤- وأخرج البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يدخل أحد الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء؛ ليزداد شكرًا، ولا يدخل أحد النار إلا أُري مقعده من الجنة لو أحسن؛ ليكون عليه حسرة»**[٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن الكافر يظل في ذهول وغفلة، ويستمر على عدم إيمانه إلى حلول قضاء الأمر يوم الحسرة حتى يلقوا ربهم، حين يجمع الأولين والآخرين في موقف واحد، ويسألهم عن أعمالهم، فمن آمن وعمل صالحًا، سعد سعادة لا يشقي بعدها أبدا، ومن لم يؤمن ويتبع رسوله، شقى شقاوة لا سعادة بعدها، فحينئذ يندم ويتحسر حسرة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٤٤، ٦٥٤٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٥٠).

(٢) قاله السدّي، عن زياد، عن زِرِّ بن حبيش، عن ابن مسعود، كما في تفسير الآية عند ابن كثير (٤/ ٢٣٤) عن ابن أبي حاتم وابن مردويه، وهو في «الدر المنثور» (١٠/ ٧٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٦٩).

تتقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وقد كان في الدنيا في غفلة عن هذا اليوم. ولم يخطر لهم على بال، لقد ألهتهم دنياهم وحالت بينهم وبين الإيمان بالله واتباع رسله شهواتهم وشبهاتهم، فهم لا يؤمنون، مع أن هذه الدنيا ستذهب عنهم ويذهبون عنها: قال تعالى:

٤٠- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[1] ﴿٤٠﴾﴾

وخُتمت قصة ولادة عيسى عليه السلام ببيان أن الكون كله في قبضة الله تعالى، في قبضة الواحد الأحد، وهو الذي أشرك المشركون معه غيره في عبادته؛ حيث جعلوا عيسى ابنًا له سبحانه، أو جعلوه شريكًا مع الله جلَّ وعلا، علمًا بأن جميع ما على وجه الأرض سيفنى، ويكون في جوف الأرض، ومنهم عيسى عليه السلام.

فإذا هلك الإنسان والحيوان لم يبق تصرُّف في هذا الكون إلا لخالقه، فهو الباقي بعد فناء جميع الخلائق، وبقاء الخالق وفناء المخلوقات كأنها وراثة، حيث لا يبقى لأحد من البشر سلطان على الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن]. وبعد فناء خلقه يبقى حكمه سبحانه فيهم، وهذا معنى: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: إلينا مصيرهم وحسابهم، فنجازيهم على أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر].

فهو سبحانه الحي الذي لا يموت، والخلائق يموتون، ثم يرجعون إليه يوم القيامة فيحاسبهم ويجازيهم على ما قدمت أيديهم.

٤- وَصْفُ إِبْرَاهِيمَ بِالصِّدِّيقِ

٤١- ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ[2] إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾

---

(١) قرأ يعقوب بفتح الياء وكسر الجيم من (يرجعون)، على البناء للفاعل، والباقون بضم الياء وفتح الجيم، على البناء للمفعول.

(٢) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان بفتح الهاء وألف بعدها من (إبراهيم)، والباقون بكسر الهاء وياء بعدها، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، وهما لغتان. هذا: وقد عدّ (إبراهيم) آية المدني الأخير والمكي، وترك عده الباقون.

وبعد أن بيَّنت سورة مريم فرية النصارى في عقيدتهم الفاسدة، من أن عيسى عليه السلام هو ابن الله، وبيَّنتْ كذب ذلك وضلاله، وقررت أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

تمضي سورة مريم بعد ذلك في بيان عقيدة الشرك الباطلة، على لسان خليل الرحمن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فيأمر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يذكُر للناس في القرآن ويتلو عليهم آيات الله، ويبلِّغهم قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه حين نهاه عن عبادة الأصنام.

ولما كان إبراهيم أبًا للأنبياء، وهو الذي بَنى قبلة التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة، وخالفه العرب، فأشركوا بالله، وهم ورثة إبراهيم، لذلك قُدِّم على غيره من الأنبياء في محاربته للأصنام.

والمنكرون للتوحيد فريقان: فريق أثبت معبودًا غير الله، حيًّا عاقلًا، وهم النصارى ومَنْ على شاكلتهم.

وفريق أثبت معبودًا ليس بحي ولا عاقل، وهم عبدة الأوثان، وكلاهما على ضلال، إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم.

ولما بيَّن سبحانه ضلال الفريق الأول وهم النصارى، أتبعه بذكر الفريق الثاني وهم عبدة الأوثان، ومنهم قوم إبراهيم، وقد وصف الله إبراهيم في الآية بصفتين هما: الصِّدِّيقية والنبوة.

فاذكر -أيها الرسول- في هذا القرآن نبيَّ الله إبراهيم، وبلِّغ دعوته للناس أجمعين، فقد كان إبراهيم صديقًا نبيًّا، جمع الله له بين الصِّدِّيقية والنبوة، فهو صادق في أقواله وأفعاله وأحواله، وكان مصدِّقا بكل ما أُمر به، وإبراهيم أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث لأهل الشرائع الثلاث، وقد جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وجعله إمامًا يقتدى به، وكان صديقًا نبيًّا.

والصِّدِّيقية رتبة دون رتبة النبوة، ولذلك فإن الله سبحانه انتقل منها إلى الرتبة التي هي أعلى وهي رتبة النبوة والرسالة، فالرسل هم الذين اختارهم الله سبحانه؛ ليكونوا الواسطة بينه جلَّ شأنه وبين عباده في تبليغ الدعوة إلى الناس.

والصِّدِّيقون على مراتب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾

[الحديد: ١٩]. والمؤمنون ليسوا على درجة واحدة.

كما أن الله تعالى وصف يوسف عليه السلام بأنه صِدِّيق؛ لفرط صدقه، وقد عُرف بذلك بين رفاقه في السجن، يقول تعالى على لسان من جاء يطلب منه تأويل رؤيا الملك:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

ولفرط تصديق أبي بكر لرسول الله ﷺ لُقب بالصِّدِّيق، وقال الله تعالى في شأنه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر].

والصِّدِّيق هو من صدَّق الله سبحانه في وحدانيته، وصدَّق رسل الله وكتبه، وصدَّق بالبعث وما بعد الموت، وقام بالأوامر والنواهي.

والصِّدِّيق أيضًا: هو الملازم للصدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، وكان إبراهيم عليه السلام من أولي العزم الذين فضلهم الله على غيرهم من الرسل، فقد كان عظيم الصدق، وكان من أرفع أنبياء الله منزلة، وقد أثنى الله عليه في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود].

حِوَارُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مَعَ أَبِيهِ فِي أَرْبَعِ نِدَاءَاتٍ

٤٢- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ[1] لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾

ثم ذكرت السورة الحوار الذي دار بين إبراهيم -خليل الرحمن- وبين أبيه آزر، عابد الأوثان، ومُصَنِّعها ومُصَدِّرها، وقد وجه إبراهيم عليه السلام إلى أبيه أربع نداءات بلفظ الأبوة ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وهو نداء فيه عطف وبر واستعطاف، واستمالة لقلب أبيه، وإشعار بإخلاص النصيحة له.

وقد ابتدأ ذلك بذكر الحجة المحسوسة، ثم أتبعها بالحُجَّة العقلية.

وقد رتب إبراهيم هذا الكلام في غاية الحسن مقرونًا بالتلطف والرفق، مصدَّرًا بما يدل

(١) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبتَ) في المواضع الأربعة، والباقون بكسرها، وأصلها: يا أبي، فعُوِّض عن الياء تاء التأنيث، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب، ووقف الباقون عليها بالتاء.

على شدة الحب والرغبة في صرف العقاب عنه، وإرشاده إلى الصواب:

١- فنبهه أوَّلًا إلى بطلان عبادة الأوثان، وبيَّن له العلة في ذلك. [الآية ٤٢]

٢- ثم رغَّبه في الإيمان، واتباع الدليل، وترك التقليد الأعمى، ولم يصف إبراهيم نفسه بالعلم الفائق، ولم يصف أباه بالجهل المفرط. [الآية: ٤٣].

٣- ثم ذكَّره بأن طاعة الشيطان غير جائزة عقلًا. [الآية: ٤٤]

٤- ثم ختم كلامه بتخويفه سوء العاقبة بالوعيد الزاجر عند الإقدام على ما يخالف أمر الله تعالى، [الآية ٤٥] وإنما فعل إبراهيم ذلك مع أبيه لأمور ثلاثة:

أحدها: حرصه الشديد على هداية أبيه مع الرفق به وأداء حق الأبوة.

ثانيها: أن النبي لابد له أن يكون رفيقًا حكيمًا؛ حتى تُقبَل دعوته.

ثالثها: أن النصح واجب لكل أحد، فبذْلُه للأب من باب أولى.

النِّدَاءُ الْأَوَّلُ: تَلَطُّفُ إِبْرَاهِيم مَعَ أَبِيهِ لِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ

وهكذا: بيَّن إبراهيم لأبيه في **النداء الأول** أن عبادة الأصنام أمر باطل، وذَكَر له الدليل العقلي والبرهان المنطقي: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع قولك إذا تكلمت، ولا يسمع مَنْ يناديه، ولا يُبصر فِعْلك، ولا يُبْصِرُ مَن وقف أمامه، ولا يدفع عنك شرًّا من الله تعالى ولا من الناس، ولا يجلب لك نفعًا ولا خيرًا.

وقد وصف الله سبحانه الأصنام في هذه الآية بثلاثة أوصاف: عدم السمع، وعدم البصر، وعدم النفع، وكل وصف منها يقدح في الإله الحق.

والأصل في العبادة أن تُوجَّه إلى الله وحده، ولا تُوجَّه لمخلوق حي، يسمع ويبصر، وينفع ويضر في أمور الدنيا، فما بالك إذا وُجهت هذه العبادة إلى حجر أو صنم لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، ولا يغني من الله شيئًا؟! وعبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلًا وشرعًا.

النِّدَاءُ الثَّانِي: دَعْوَتُهُ إِلَى طَرِيقِ الْحَقِّ

٤٣- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣﴾

كان النداء الثاني من إبراهيم ﷺ لأبيه، يدعوه فيه بألطف أسلوب إلى اتباع دعوته في توحيد الله سبحانه، فيقول له: يا أبت أنا وَلدك، وأنت أبي وأكبر مني، لا تحتقرني ولا تستصغرني، فإن كانت خِبْرتك أكثر، وأنت أكبر، فإن الله تعالى قد أوحى إليَّ وأعطاني من العلم ما لم يُعطك، فاقبل مني وأطعني في دعوتي وتوحيدي لله سبحانه، وبهذا آخذ بيدك إلى الطريق السويِّ والهداية المستقيمة، وأُرشدك إلى الطريق الذي لا تَضِل فيه، وهو الإيمان.

ولم يكن إبراهيم حين قال هذه المقالة يائسًا من إيمان أبيه، فكان يرجو له الإيمان، ويخاف عليه أن يتمادى في كفره فيمسه العذاب، وقد كرر إبراهيم النصح لأبيه باللطف، ولم يصفه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام، بل تلطف به وترفق.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: نَهْيُهُ عَنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ

٤٤- ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤﴾

بيَّن إبراهيم ﷺ لأبيه في النداء الثالث أن عبادة الأصنام طاعة للشيطان، فاحذر يا أبت طاعة الشيطان في عبادة الأصنام؛ فإنها جهل وانحطاط في التفكير، وكل من يطيع الشيطان فهو عابد له.

وقد عبَّر بالعبادة عن الطاعة؛ لأن من أطاع شيئًا في معصية الله فقد عبده.

وفي الآية بيان لعلة النهي عن طاعة الشيطان، وهي أنه كثير العصيان لله تعالى، وهو أول من خالف أمر الله تعالى، واستكبر عن طاعته، وأخذ على عاتقه أن يُضِلَّ بني آدم ويغويهم بكل وسيلة، فقال كما حكى الله تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف].

وقد أخذ الله العهد على بني آدم بعدم اتباعه، فقال: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾ [يس].

ونهانا سبحانه في كثير من الآيات عن اتباع إشارته، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]. ومن يتبع خطوات الشيطان فقد اتخذه وليًا، وكان عاصيًا لله تعالى، ومعصية الله تعالى تمنع العبد من رحمة الله، وتُغْلِق عليه أبوابها، ولذا قال تعالى:

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر].

وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣].

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: تَحْذِيرُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ

٤٥ - ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ[1] أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥﴾

حذَّر إبراهيم أباه في النداء الرابع من العاقبة الوخيمة التي تترتب على عبادة الأصنام، فبيَّن له أنه مشفق عليه من أن ينزل به عذاب الرحمن؛ بسبب إصراره على عبادة غير الله تعالى، فيصبح قرينًا للشيطان في عذاب النار، فإبراهيم يخاف على أبيه أن يموت على الكُفر، فيحل به عذاب الله، ويخلَّد في النار، ويكون قرينًا للشيطان في النار يوم القيامة، وقرينًا له في البعد عن رحمة الله سبحانه، وقرينًا له في حلول اللعنة به كما حلَّت بالشيطان، فأخبر إبراهيم أباه بما يعلم من أمور الآخرة، ونهاه عن عبادة الشيطان لما فيها من المضار المهلكة، وحذره من عقاب الله تعالى إن بقي على حاله.

آزَرُ يُهَدِّدُ إِبْرَاهِيمَ بِالرَّجْمِ وَيَطْرُدُهُ

٤٦ - ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾

ولكن هذه النصائح الحكيمة من إبراهيم لأبيه لم تصادف أذنًا واعية، ولم تَحْظ من أبيه بالقبول، بل قوبلت بالاستنكار والتهديد من الأب الكافر للابن المؤمن البار، الذي يتوسل لأبيه ويستعطفه أن يترك عبادة الأوثان، فماذا كان رد الأب على ابنه إبراهيم؟

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

إن قلبه لم يَلن ولم يَرِقّ، بل لم يزل مصرًّا على دعوة إبراهيم إلى عبادة الأصنام معه، فبدل أن يجيبه إلى التوحيد وبَّخه على تركه لعبادة الأصنام، فقال له: هل أنت مُعْرِض عن عبادة أحدِ الأصنام التي أعبدُها؟ ثم هدده وتوعَّده قائلًا له: لئن لم تنته يا إبراهيم عن سبِّها وتنفير الناس منها لأرجمنك بالحجارة حتى تُقتل، ثم طرده كما يَطْرُد الأب ابنه العاق ويُخرجه من بيته، فقال له: ابتعد عني ولا أرينَّك زمنًا طويلًا.

لقد كان آزر قاسي القلب، بعيد الفهم، شديد التصلُّب في الكفر، فلم يقابل قول إبراهيم: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بقوله: يا بني، بل ناداه باسمه قائلًا: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ وبدل أن يجيبه بأنه سيظل على عبادة الأصنام، ولن يتبع إبراهيم في دعوته، يجيبه بغير الجواب المطلوب، فيبدأ بما هو الأهم في نظره من كلام إبراهيم؛ حيث يقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾؛ ليدل على أن الأب ينكر على إبراهيم عدم رغبته في عبادة الأصنام، وينكر عليه أن عدم عبادتها أمر متمكن من نفس إبراهيم، ويعتبر آزر أن هذا شيء عجيب من إبراهيم.

وبأسلوب الفظاظة والغلظة والعناد والجهالة يهدد الأب ابنه، ويتوعده بعقوبة آجلة إن لم يُقلع عن كفره بآلهتهم وهي القتل فقال له ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فهو يهدده بعقوبة عاجلة هي الطرد من معاشرته، وقطع تكليمه له، فيقول له: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وهذا الهجر معناه: الطرد والإبعاد لإبراهيم من أبيه إشعارًا بتحقيره، وعدم الرضا عنه.

إِبْرَاهِيمُ يَعِدُ أَبَاهُ بِالاسْتِغْفَارِ وَالدُّعَاءِ، وَيُفَارِقُهُ وَمَا يَعْبُدُ

٤٧- ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ(١) ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾

لم يغضب إبراهيم الحليم من قسوة أبيه، ولم يفقد برَّه وعطفه وأَدبَه مع أبيه، فقابل غضبه وتهديده بسعة الصدر، وجميل المنطق، وودَّعه مشيرًا له بأنه لن يناله منه أذى ولا مكروه، وبيَّن له أن هذا الهجر لا يسوؤه ما دام في مرضاة الله تعالى، وأنه سيظل حريصًا على هدايته، وهكذا قابل إبراهيم قسوة أبيه وجفائه ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع ومتاركة ومسالمة، ومع ذلك ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ وأطلب منه سبحانه أن يغفر لك ذنبك،

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ربي إنه)، والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

وأن يهديك إلى التوحيد، فيغفر لك بإيمانك ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فهو سبحانه يجيب دعائي، ورجائي فيه كبير.

نهي الله لإبراهيم أن يستغفر لأبيه الكافر: وقد ظل إبراهيم يستغفر لأبيه مدة طويلة قبل أن يهاجر من العراق، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبعد أن بنى الكعبة، ورزقه الله بإسماعيل وإسحاق، طيلة هذه المدة وهو يستغفر لأبيه ويدعو له، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١].

ثم نهاه الله سبحانه عن الاستغفار لأبيه بعد أن أعلمه أن أباه سيموت على الكفر، وبعد أن أوحى إليه أنه لا يغفر لكافر.

ولعل إبراهيم هو أول نبي أُوحي إليه بهذا، كما ذكر القرآن الكريم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. وهذه المؤعِدة كانت حين قال له: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ في هذه الآية التي معنا من سورة مريم ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، وترك إبراهيم الاستغفار لأبيه وتبرّأ منه.

وقد كان المسلمون يستغفرون لأهليهم وأقربائهم من المشركين، حتى نزل قول الله سبحانه ينهاهم عن ذلك في قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين ماتوا على الكفر والشرك ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. فلا تدعُ لهم بالرحمة، ولا تدعُ لهم بالمغفرة.

وقد أمرنا الله سبحانه أن نتأسى بإبراهيم عليه السلام في البراءة من الشرك وأهله في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: لا تتأسوا بإبراهيم في الدعاء للمشركين؛ فإن إبراهيم كان يدعو لأبيه قبل أن يعلم أنه عدو الله ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

وتوديع إبراهيم لأبيه بالسلام والأمان، هو صفة المؤمن في حواره مع الجاهل المعرض، كما قال تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص].

وهكذا ودَّع إبراهيم أباه قائلًا له: سلام عليك مني، فلا ينالُكَ مني أذى ولا مكروه، وسوف أدعو الله لك بالهداية والمغفرة؛ إنه كان رحيمًا بي، رءوفًا بحالي، يجيبني إذا دَعوْته. وقد أُمرنا باتباع ملة إبراهيم، وسلوك طريقه في الدعوة إلى الله بالعلم والحكمة واللين واليسر والصبر على الأذى، والعفو والصفح، ولما أيس إبراهيم من قومه وأبيه قال:

٤٨- ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾

رأى إبراهيم أن هجرته لأبيه وحده لا تكفي؛ لأن بقية القوم على دين أبيه، يعبدون الأصنام مثله، فلابد أن يهجرهم جميعًا هم وأصنامهم، فقرر مفارقتهم جميعًا حين قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أنتم وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله، وأرتحل عنكم جميعًا إلى أرض الله الواسعة، وأدعو ربي، دعاء عبادة ودعاء مسألة، مخلصًا له طاعتي ودعائي، عسى ألا أشقى بدعاء ربي، فلا يعطيني ما أسأله.

وهكذا قال إبراهيم لأبيه: إذا كان جوابي إليك يؤذيك، وإذا كانت دعوتي لك تؤذيك، فإني مهاجر إلى ربي، وإني معتزل لكم بجسمي وبدني، ومعتزل لما تعبدون من دون الله، وأرجو بسبب إخلاصي العبادة لله ألا يجعلني شقيًّا ولا محرومًا، كما شقيتم أنتم بعبادتكم للأصنام، وطُردتم من رحمة الله تعالى وهكذا الداعي إلى الله إذا أيس من إصلاح قومه يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، وكل من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه، وقد عوض الله إبراهيم بأن جعل النبوة في ذريته.

آنَسَ اللهُ وَحْشَةَ إِبْرَاهِيمَ بِأَنْ جَعَلَ فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ

٤٩- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾

طَوَتْ هذه الآية، خبر اعتزال إبراهيم لأبيه وقومه، اكتفاء بما ترتب على هذه العُزلة، فقد هاجر إبراهيم من بلد الكلدان بالعراق إلى فلسطين ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات]. وكان قد تزوج بسارة، ورزقه الله بإسحاق، كما رزقه من قبل بإسماعيل من هاجر، ورزقه بيعقوب حفيدًا له من إسحاق، تربَّى في حجره.

وهكذا آنس الله وحشة إبراهيم وغُربته، فلم يتركه وحيدًا، بل عوَّضه خيرًا من أبيه وأهله، وجعل في ذريته النبوة، في بني إسرائيل مدة طويلة، بدءًا من إسماعيل، ثم إسحاق، ثم يعقوب حفيده ابن إسحاق، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]. وقال: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. ولم يكن يعقوب قد نُبِّئَ في حياة إبراهيم، ولكن الله تعالى أشار إلى أن يعقوب سيكون نبيًّا، فقال:

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وحسبك بهذا مكرمة له عند ربه.

وكان إبراهيم حين ترك قومه، وخرج من أرض العراق مهاجرًا إلى الشام، قد خرج بزوجته سارة التي اعتزلت قومها أيضًا إرضاء لربها ولزوجها، ولذلك فإن الله تعالى اكتفى بذكر المكرمة التي تشمل إبراهيم وزوجه سارة، فذكَر إسحاق دون إسماعيل، مع أن إسماعيل أكبر من إسحاق، بثلاثة عشر عامًا، ولأن يعقوب وُلد لإسحاق قبل موت إبراهيم بخمسة عشر عامًا، فرأى إبراهيم حفيده يعقوب وسُرَّ به.

وكانت سارة، وإسحاق، وزوجه، ويعقوب، كانوا جميعًا يؤانسون إبراهيم، ويعيشون معه ويعاشرونه، ولذا خصَّهم الله تعالى بالذكر في الآية، ولم يذكر الابن الأكبر لإبراهيم، وهو إسماعيل الذي أراد الله له أن يجاور بيته الحرام، وإنه لجِوار أعظم من كل جوار، وقد خصَّ الله إسماعيل بالذكر بعد ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ﴾ [٥٤].

وجاء ما يبيِّن أن إسماعيل هو الذي وهبه الله لإبراهيم أوَّلًا، بعد مفارقته وطنه بالعراق في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات] والغلام الحليم هو إسماعيل.

وذكَر القرآن قصة ذبح إسماعيل، وفي نهايتها قال تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ فذكَر إسحاق بعد ذِكْر إسماعيل، وهذا هو الترتيب الموافق لسنِّ إسماعيل، ولسنِّ إسحاق.

وإسحاق هو الغلام العليم الذي بشرتْ به الملائكة الذين جاؤوا لإهلاك قوم لوط ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وكان من نسل يعقوب ابنه، أنبياء بني إسرائيل جميعًا، وكان

من نسل إسماعيل محمد ﷺ وحده، فهما شجرتا النبوة التي أصلها إبراهيم ﷺ. قال تعالى:

٥٠- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

أي: ومع ما وهب الله لإبراهيم وبنيه من النبوة، وهب لهم أيضًا المال والولد، وبسط لهم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء]. فقد منح الله آل إبراهيم الكثير من فضله وإحسانه ورِزْقِه، وجعل الناس إلى يوم القيامة تُثْني عليهم، وتمْدَحُهم وتذكُرهم بالثناء الجميل.

وهذه الهبات والمكارم هي عند الله تعالى لآل إبراهيم في الأزل، ولكنها ظهرت لهم ولجميع الناس بعد أن خرج إبراهيم من بلده بمدة، وبعد أن سكن أرض كنعان، واجتاز أرض مصر، ورجع منها:

١- فقد أعطاهم الله المال، والحكمة، والعلم، والنبوة والكتاب، وخصهم بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من خلقه، .

٢- ووهب لإبراهيم وابنيه من رحمته: العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المثمرة الذين كثر فيهم الأنبياء والصالحون.

٣- وجعل لهم لسان صدق، هو الثناء الحسن على إبراهيم وعلى آله من الخلق كلهم: اليهود، والنصارى، والمسلمين، وامتلأت القلوب بمحبتهم وفاضت الألسنة بذكرهم، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، وفي عبادة المسلم وتشهُّده في صلاته خمس مرات كل يوم وجوبًا، وبعدد النوافل التي يتنفّلها العبد، فإنه كذلك يصلي على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. .

وهذا ذكر وثناء حسَن من الله سبحانه على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلى يوم القيامة.

وهذا الثناء الحسن مرتب على نبذ إبراهيم للشرك، حيث جُوزي في الدنيا بالذرية الصالحة، وجوزي في الآخرة بالرحمة.

ولسان الصدق غير الكاذب الموصوف بالثناء الحسن، يأتي نتيجة هاتين النعمتين؛ إذ لا يناله إلا من حَظِيَ بنعيم الدنيا والآخرة.

٥- نَبِيُّ اللهِ مُوسَى عليه السلام

٥١- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا(١) وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا(٢) (٥١)﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه حلقة من قصة إبراهيم في سورة مريم، تبعها بفروع إبراهيم، والفرع الأكبر، أو النبي الأكبر في بني إسرائيل، هو موسى عليه السلام، فقد بعث الله أنبياء كثيرين في بني إسرائيل، يبلِّغون دعوة موسى، ويحكُمون بالتوراة، كما قال تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومعنى الآية: اتلُ -يا محمد- في القرآن لقومك قصة موسى ﷺ، وبلِّغها للناس؛ فقد كان عبدًا مخلصًا لله سبحانه في طاعته وعبادته، كما أن الله تعالى اصطفاه واجتباه لحمل الرسالة، كما قال تعالى عنه: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقد أخلصه الله للنبوة والعبادة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾ [ص]. وجمع الله له بين النبوة والرسالة، وكان من أولي العزم من الرسل، وقد استخلصه الله لنفسه، واصطفاه من بين الخلق بكلامه.

بمعنى أن الله تعالى أخلصه لنفسه واصطفاه لرسالته.

وقد خصه الله سبحانه بهذا الوصف في قوله: ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام وكسرها، بمعنى أن موسى كان مخلصا لله تعالى في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، وأن الله تعالى قد أخلصه إليه، والمعنيان متلازمان، فإن الله تعالى أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه حقيق باستخلاصه، وكانت هذه مزية له لسببين:

الأول: أنه أخلص لله في طاعته وعبادته، كما أخلص له في دعوته حين استخفَّ بأعظم جبار في الأرض وهو فرعون، فجادله وحاوره، ووقف منه موقف الداعي الناصح، وهو يقول له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح لام (مخلَصًا) اسم مفعول، والباقون بكسرها اسم فاعل.

(٢) قرأ نافع بالهمز في (نبيًّا) فيكون من قبيل المد المتصل، وقرأ غيره بياء مشددة.

كما أنه أخلص في الانتصار للمظلوم حين قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]. فكان هذا الإخلاص مزية له.

والثاني: أن الله تعالى قد اصطفاه لحمل الرسالة، واصطفاه لكلامه قبل أن ينزل عليه الوحي بالتوراة ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف].

وهو الذي ربَّاه الله على عينه، ونجَّاه من الذبح وهو صغير، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه].

وقد جمع الله لموسى بين النبوة والرسالة، والرسالة تقتضي تبليغ ما جاء به من عند الله إلى بني إسرائيل، والنبوّة معناها: نزول الوحي عليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، وقد اختص موسى بأعظم أنواع الوحي وهو تكليم الله له، ولذا قال تعالى:

٥٢- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية فضائل أخرى منحها لنبيه موسى عليه السلام، ومنها تكليم الله تعالى له، وكان ذلك حين ناداه ربه في جبل طور سيناء من الجانب الأيمن بالنسبة لموسى، وكان هذا النداء بعد أن قضى موسى الأجل الذي بينه وبين صهره ، وسار بأهله بعد أن تزوج ابنة الرجل الصالح، وسار بهم من مَدْيَن متوجهًا إلى مصر، ونودي من شاطئ الوادي الأيمن على يمين موسى، من الشجرة المباركة في طور سيناء، من ناحية الجبل السفلي، مع استقبال مشرق الشمس، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه].

وكان هذا النداء هو بدء الرسالة، وبدء نزول الوحي على نبي الله موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي: من ناحية اليمين بالنسبة لموسى؛ لأن الجبل لا يمين له ولا شمال.

﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي: أن الله تعالى اصطفى موسى وناجاه وكلَّمه بلا واسطة، وذلك حين كان يسير بأهله في طور سيناء، فرأى قطعة من النار تلوح ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ حتى آتيكم منها بخبر، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون، فقصدها، فوجد نورًا عند شاطئ الوادي من جبل الطور، فكلمه ربه بعد أن قرَّبه منه وناجاه.

والمناجاة: هي المسارَّة بالكلام.

وقد بارك الله هذه النار ومن حولها. ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]

قال ابن عباس ﷺ: أُدْنِيَ موسى من الملكوت، ورُفعت له الحجُب حتى سَمع صريف الأقلام في الألواح[(١)].

أخرج ابن أبي حاتم عن عمرو بن معدي كرب، قال: لما قرَّب الله موسى نجيًّا بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقتُ لك قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجة تعين على الخير، فلم أُخزن عنك من الخير شيئًا، ومن أُخزن عنه هذا، فلن أفتح له من الخير شيئا[(٢)].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ قال: بين السماء السابعة وبين العرش سبعون ألف حجاب: حجاب نور وحجاب ظلمة، وحجاب نور وحجاب ظلمة، فما زال موسى يُقرَّبُ حتى كان بينه وبينه حجاب، فلما رأى مكانه وسمع صريف القلم قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[(٣)] [الأعراف: ١٤٣]. قال تعالى:

٥٣- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

أي: وهبنا لموسى من نعمتنا عليه ورحمتنا به أخاه هارون؛ ليكون عونًا له في تبليغ الرسالة، وكان ذلك حين أعلم الله موسى أنه مرسل لبني إسرائيل؛ لتخليصهم من عذاب فرعون، وأطلعه على العصا واليد معجزتين له، بعد ذلك طلب موسى ﷺ أن يرسل الله

(١) «البحر المحيط» (٦/ ١٩٩) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٥٣٣) والطبري (١٥/ ٥٥٩) والحاكم (٢/ ٣٧٣) والديلمي (٧١٩٦) وجاء ذلك عن سعيد بن جبير وأبي العالية وميسرة كما في «الدر المنثور» (١٠/ ٧٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٣٨).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٢٨٢) واللفظ له، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٥٥) قال محققه: إسناده صحيح.

معه أخاه هارون وزيرًا ومعينًا.

وهارون آنذاك كان في مصر، وهو أكبر سنًّا من موسى، وموسى كان في صحراء سيناء حين دعا ربه أن يشد أزره بأخيه، فأجاب الله شفاعته، ولبَّى دعاءه، وفي ذلك يقول الله تعالى على لسانه: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص].

وفصاحة اللسان تتمثل في اللُّكنة التي كانت في لسان موسى عليه السلام حين أخذ الجمْرة ووضعها على لسانه، وقت أن كان طفلًا، وأُتي به من النيل إلى فرعون، وجذبه من لحيته، فأراد أن يقتله، فقالوا له: إنه طفل، لا يفرق بين التمرة والجمرة، فوُضِعت له تمرة وجمرة، فأراد موسى أن يأخذ التمرة، فحوَّل جبريل يده إلى الجمرة، ثم وضعها على لسانه، فكانت هذه اللُّكنة التي أصابتْه، وفي هذا يقول تعالى كما جاء على لسان موسى: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَـٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [طه].

فأرسل الله له أخاه هارون نبيًّا يؤازره ويعضده، ويرافقه في الدعوة، فكان يتكلم عن موسى بما يريد إبلاغه، وكان يستخلفه على قومه في الأمور المهمة، وكانت هبة هارون لموسى رحمة من الله تعالى به؛ إذ يسّر له أخًا فصيح اللسان مُبَلِّغًا عن أخيه، ولم يوصف هارون عليه السلام بأنه رسول يوحى إليه؛ لكونه كان مرافقًا لأخيه في تبليغ الدعوة، فنبوته كانت تابعة لنبوة موسى عليه السلام يساعده ويعاونه، والتوراة نزلت على موسى.

وقوله تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. هو من باب التغليب، وكان هذا رحمة من الله تعالى بهارون ومنَّة عليه، وكرامة لموسى حيث أجاب الله دعاءه، فوهب له أخاه هارون نبيا.

قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًّا.

وما ذكره الله تعالى هنا مجملًا عن ندائه لموسى من جانب الطور الأيمن، جاء مفصَّلًا في مواطن أخرى، منها قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ

﴿ٱلطُّورِ نَارًاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص].

٦- نَبِيُّ اللهِ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام

٥٤- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية الفرع الآخر لإبراهيم، نبي الله إسماعيل، - وهو أصل العرب - تنبيهًا على جدارته بالاستقلال بالذكر؛ لأنه الابن البكر لإبراهيم، وشريكه في بناء الكعبة، ولأن إسماعيل صار جَدًّا لأمة العرب، قبل أن يكون يعقوب جدًّا لبني إسرائيل.

وإسماعيل عليه السلام نبي مرسل، قد نُبِّئ في مكة، وأرسله الله إلى قبيلة جُرْهم، وهم من عرب اليمن، أبناء قحطان، وكانوا مجاورين للبيت العتيق، فتزوج منهم، وكان من ذريته محمد ﷺ وقد وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ وجميع رسل الله وأنبيائه يتصفون بهذه الصفة، فهم صادقون في وعودهم، ولكن هذه ميزة خصَّ الله بها إسماعيل عليه السلام، وتميَّز بها؛ لشدة وفائه بالوعد، فقد كان إسماعيل يفي بوعده في عبادته ونذْره لربه، ويفي بوعده للناس، وربما ينتظر صاحب الوعد أيامًا وليالي.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن إسماعيل عليه السلام وعد رجلًا أن يأتيه في مكان، فجاء إسماعيل ونسي الرجل، فبات في مكانه حتى جاء الرجل من الغد، وقال: إني نسيت، فقال إسماعيل: لم أكن لأبرح مكاني حتى تأتي. وهذا من صدق الوعد(١).

وليس أدل على ذلك من أن أباه حين قال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾؟ [الصافات: ١٠٢]. أنه وفَّى بوعده، وقدَّم نفسه للذبح صابرًا محتسبًا، وهو أعظم وعد وفَّى به، مع أن أباه لم يجلس معه طفولته وصباه.

لقد أُتى به طفلًا رضيعًا إلى مكة، وتركه مع أمه، وكان يتردد عليهما بين الحين والآخر، ثم جاءه بعد ثلاثة عشر عامًا من عمره يقول له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾

---

(١) الطبري (١٥/ ٥٦١).

والرجل منا يربي ولده، ويؤدبه ويعلمه، ثم يقول الابن لأبيه: لم تفعل لي شيئًا!

وهذا إسماعيل عليه السلام يبرُّ والده مرة أخرى، لمَّا لم تُعجبه امرأته حين كنَّى لها إبراهيم بالطلاق، فطلَّق إسماعيل زوجته فورًا؛ لمجرد كلمة يشير فيها أبوه إلى الطلاق دون تصريح، مع أنه لم يره، ولم يأمره بهذا مشافهة، بل قال لامرأته: قُولي له: غيِّر عتبة بابك، إنه البر بالوالدين وأخلاق الرسل، ونحن نرى الأبناء غالبًا ما يفارقون آباءهم؛ لإرضاء زوجاتهم.

وقد جمع الله لإسماعيل بين النبوة والرسالة وصِدْق الوعد الذي تميَّز به إسماعيل، وهو من علامات الإيمان الكامل، كما أن خُلف الوعد من علامات النفاق، ومن الصفات المذمومة ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**[١].

وقد كان النبي ﷺ لا يَعِدُ وعْدًا إلا وفَّى به، ولما تُوُفِّيَ ﷺ قال أبو بكر: من كان له عند رسول الله عِدَة، أو دَين، فليأتني أُنجز له، فجاءه جابر بن عبد الله رضي الله عنه، فقال: إن رسول الله كان قد قال لي: **«لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»**، يعني: ملء كفيه ثلاث مرات، فلما جاء مال البحرين، أمر الصِّدِّيق أن يحضروا جابرًا فغرف بيديه من المال، ثم أمره بعدِّه، فإذا هو خمس مئة درهم، فأعطاه مثليها معها[٢].

قال تعالى في وصف إسماعيل:

٥٥- ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

ثم وصف الله إسماعيل بصفة رابعة، وهي أنه كان حريصًا على طاعة قومه وأهل بيته لربهم، فكان يأمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهما الركنان الأول والثاني بعد الشهادتين، وهما عماد الدين، ولهما هذه المنزلة في كل شريعة، وكان يبدأ في الدعوة

---

(١) البخاري برقم (٣٣، ٢٦٨٢، ٦٠٩٥) ومسلم برقم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٢٥٩٨، ٣١٣٨، ٣١٦٤) ومسلم برقم (٢٣١٤).

إلى ربه بأهل بيته، وأقرب الناس إليه أوَّلًا؛ حتى يكون هو وأهله قدوة للناس في العمل الصالح، والزوج والزوجة هما اللبنة الأولى في الأسرة.

لذا جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**رحم الله رجلًا قام من الليل فصلَّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبَى نضحت في وجهه الماء**»[1].

وعن أبي سعيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين، كُتبا من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات**»[2].

وإذا كان هذا بالنسبة لصلاة الليل وهي نافلة، فالأمر عظيم بالنسبة للفريضة، ولا ينبغي التهاون، أو المجاملة بين الزوجين على حساب الدين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. ولذا كان الاهتمام الأول لإسماعيل ﷺ هو وصيته بالصلاة والزكاة لأمته وأهل بيته وعشيرته، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وكان إسماعيل راضيًا عن ربه، مرضيًّا عنه عند ربه، مرضيَّ الخصال؛ لاستقامته في أقواله وأفعاله، وصدقه في وعده، وأمره لأهله بالصلاة والزكاة.

قال الفخر الرازي: وهذا نهاية المدح؛ لأن المرضيَّ عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات، وقد وصف الله عباده المؤمنين المستحقين لجنَّتِه، كما وصف أصحاب رسول الله ﷺ بقوله: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨، والتوبة: ١٠٠][3].

---

(١) أبو داود برقم (٤٥٠، ١٣٠٨) وابن ماجه برقم (١٣٣٦) و«المسند» (٧٤١٠) بإسناد قوي، وابن حبان (٢٥٦٧) و«الكبرى» للنسائي (١٣٠٢) وابن خزيمة (١١٤٨) والحاكم (١/ ٣٠٩).

(٢) أبو داود برقم (١٣٠٩، ١٤٥١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٣١٢) وابن ماجه برقم (١٣٣٥) وابن حبان (٢٥٦٨، ٢٥٦٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٨٨) بلفظ (من استيقظ من الليل) وهو في صحيح ابن ماجه (١٠٩٨) ومشكاة المصابيح (١٢٣٠) والروض النضير (٩٦٢).

(٣) «التفسير الكبير» (٢١/ ٢٣٢).

٧- نَبِيُّ اللهِ إِدْرِيسُ عليه السلام

٥٦ ، ٥٧- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾

واذكر -يا محمد- لأمتك في القرآن نبي الله إدريس، وإدريس هو الرسول الأول بعد آدم عليه السلام، وهو من ذرية شيث، واسمه: أخنوخ، وهو جد نوح، وكان بين إدريس ونوح ألف سنة، وليس إدريس من أنبياء بني إسرائيل؛ لأنه كان قبل نوح، وكان إدريس خياطًا، وهو أول من خاط الثياب ولَبِسه، وكان الناس يلبسون الجلود، وهو أول من وضع للبشر عمارة المدن والحضارة، ووضَع قواعد العلم والتربية والنظُم العقلية.

وهو أول من خطَّ بالقلم، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وقواعد سير الكواكب، وأول من عرف المكيال والموازين.

وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وذُكر في القرآن مرتين: هنا، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٨٥﴾ [الأنبياء].

وقد وصفه الله سبحانه بما وصف به إبراهيم من أنه كان صِدِّيقًا نبيًّا، فجمع له بين النبوة والصدّيقيّة.

وقد رفع الله إدريس مكانًا عاليًا، فهو صاحب منزلة عالية هي النبوة، وهو صاحب مرتبة عليا في الجنة، ولا شرف أعلى من هذا، أو أنه في السماء الرابعة، كما جاء ذلك في حديث أنس بن مالك بن صعصعة أن النبي ﷺ: رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج. متفق عليه[1].

ولعل المراد برفعه مكانًا عليًّا: رفع منزلته بين المقربين، وذكره في العالمين، فكان عالي الذكر، وعالي المنزلة؛ لما أوتيه من العلم الذي فاق به غيره.

وجاء في الخبر عن الحسن ووهب: أن إدريس عليه السلام طلب من ملَك الموت أن يقبض

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» في حديث الإسراء الطويل برقم (٣٢٠٧، ٣٣٩٣، ٣٤٣٠، ٣٨٨٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٤) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٥٧) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٥٢٤) وأخرجه الطبري بسنده إلى قتادة (١٦/ ٧٩).

روحه فأماته، ثم أحياه الله، ثم طلب منه أن يُدخله النار؛ ليزداد رهبة، فأدخله النار، ثم خرج منها، ثم طلب منه أن يدخله الجنة؛ ليزداد رغبة، فأدخله الجنة، ثم قال له: اخرج، فقال: ما أنا بخارج من الجنة، قالوا: فأرسل الله ملَكًا يحكم بينهما، فقال لإدريس: ما لك لا تخرج؟ قال: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. وقد ذقت الموت، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [٧١] يعني: النار، وقد وَردتها، وقال عن الجنة: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. وها أنا دخلت الجنة ولا أخرج منها إلا بإذن ربي، فأوحى الله إلى ملَك الموت: بإذني دخل الجنة، وبأمري لا يخرج(١).

قالوا: والذي أعلم إدريس هذه الآيات التي نزلت على محمد ﷺ هو الله سبحانه عن طريق الوحي.

وقال وهب: كان يرفع لإدريس من العبادة مثل ما يرفع لجميع أهل الأرض في زمانه.

قال بعضهم: إن إدريس رُفع حيًّا كما رُفع عيسى، ولم يمت(٢).

قال أبو مسلم الأصفهاني: هو رفع حقيقي إلى السماء، والعلم عند الله.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَصِفَتُهُمْ

٥٨- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ(٣) مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ(٤) وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ(٥) ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا(٦) ۩ ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ٢٧٤) من رواية ابن المنذر عن عمر مولى غُفْرَة يرفعه، وعن ابن أبي حاتم من طريق داود بن أبي هند عن بعض أصحابه، وهو في الطبعة المحققة (١٠/ ٨٦) وما بعدها، والله أعلم بصحته، وهو في تفسير «زاد المسير» والنسفي والخازن وغيرهم للآية.

(٢) قاله مجاهد، كما أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن حميد، وقال ابن كثير: إن أراد أنه لم يمت إلى الآن ففيه نظر. «البداية والنهاية» (١/ ٢٣٥).

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبيين)، والباقون بياء مشددة.

(٤) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة من (إسرائيل) مع المد والقصر، والباقون بالتحقيق.

(٥) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها.

(٦) قرأ حمزة والكسائي بكسر الباء من (بكيا)، والباقون بضمها، وهما لغتان.

وبعد أن ذكر الله ﷻ في سورة مريم عشرة من الرسل والأنبياء، وهم: زكريا، ويحيى، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وكان أولهم زكريا وآخرهم إدريس، بعد ذلك قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ وهو إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة، وهو إبراهيم من ولد سام ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾: إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ممن ذُكِروا في السورة، ومن ذرية إسرائيل -أي: نبي الله يعقوب- كان زكريا، ويحيى، وموسى، وهارون، وعيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهم جميعًا ممن هدى الله سبحانه، وممن اصطفى، واختارهم لحمل رسالته وتلقي وحيه، ممن وُصفوا في الآيات بأنهم أنبياء صِدِّيقون.

وقد جمع الله لهم في هذه الآية **فضائل ثلاثًا**، وهي أنه سبحانه: أنعم عليهم، وهداهم، واجتباهم، والإشارة في الآية لا تخص هؤلاء الرسل والأنبياء المذكورين في هذه السورة فقط، وإنما تشمل رسل الله وأنبياءه جميعًا.

وفي سورة الأنعام: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]
وقد ذكر الله سبحانه فيها ثمانية عشر رسولًا، وقال في نهاية تعدادهم: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم قال سبحانه عنهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ﴾ وأمر رسوله ﷺ أن يقتفي أثرهم، ويتبع هداهم، وهؤلاء الرسل ممن ذَكَر الله في كتابه.

وهناك رسل غيرهم لم يذكرهم الله في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر: ٧٨].

وهؤلاء الرسل والأنبياء جميعًا يشملهم آدم عليه السلام وهو أصل شجرة النبوة، وأقرب رسول ينتسب إليه ممن ذُكروا في سورة مريم، هو إدريس عليه السلام.

ونوح يشمل مَن بعده، وله ولإدريس شرف القُرْب من آدم عليهما السلام.

وإبراهيم يشمل فرعَيْ النبوة في العرب وبني إسرائيل، وله شرف القُرب من نوح.

ويعقوب يشمل شجرة النبوة في بني إسرائيل.

وإلى إسماعيل ينتسب العرب، ومنهم خاتم النبيين، ولهما شرف الانتماء لإبراهيم.

وهؤلاء الأنبياء هداهم الله للإيمان، بمنّه وفضْله وتوفيقه، واصطفاهم للنبوة والرسالة، وهم الصفوة المختارة من البشر، ومن صفاتهم أنهم: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ المتضمنة لتوحيده وحججه ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ خضوعًا واستكانة من الترغيب والترهيب الذي في الآيات، ومن الوعظ والحِكَم، ومن الأخبار الماضية والمستقبلية؛ حيث تتأثر قلوبهم، وتقشعر خوفًا من الله سبحانه فهم ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ويبكون من تأثرهم بآيات الله ﷻ، ومن خشيتهم منه سبحانه.

وفي سورة النساء بيَّن الله سبحانه الذين أنعم عليهم من غير الأنبياء، من أهل الدرجات التي هي أدنى من درجة النبوة، وذلك في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء].

وهؤلاء الذين ذُكروا في هذه الآية لم يأت ذكْرهم في سورة مريم، وإنما ذُكروا في سورة النساء.

وقد ذكر الله سبحانه أن من غير الأنبياء من عباد الله المؤمنين الصالحين أيضًا، من وصفهم القرآن بالمخبتين، وهم أولو العلم من أهل الكتاب السابقين، الذين إذا تُلي عليهم القرآن خروا لله سبحانه سجَّدًا وبكيًّا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ﴾ في سجودهم ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ وبهذا وغيره يقول المسلم في سجود التلاوة.

قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين حين يستمعون إلى القرآن بقوله:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

كما وصف سبحانه مَن رقَّ قلبُه من أهل الكتاب، فتأثر بالقرآن، ودخل في الإسلام بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة].

وهذه الآية التي معنا في سورة مريم من مواضع سجود التلاوة في القرآن الكريم للقارئ والمستمع في الصلاة وخارجها.

وسجود التلاوة: سنة مستحبَّة.

الدعاء والبكاء في سجود التلاوة: قال بعض أهل العلم: يستحب لمن قرأ آية سجدة فسجد، أن يدعو بما يناسب تلك السجدة:

فإن قرأ السجدة التي في سورة الإسراء [١٠٩]. قال: اللهم اجعلني من الباكين إليك، والخاشعين لك.

وإن قرأ سجدة سورة مريم [٥٨]. قال في سجوده: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك.

وإن قرأ سجدة آية سورة السجدة [١٥]. قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك، وهكذا.

والبكاء ينشأ غالبًا من انفعال النفس انفعالًا مختلطًا بالخوف والرهبة وخشوع القلب.

وقد سجد النبي ﷺ عند هذه الآية، وقرأها عمر وسجد، ثم قال: هذا السجود، فأين البكاء؟![1].

وجاء في الأثر: **«اتلوا القرآن وابكوا، وإن لم تبكوا فتباكوا»**.[2]

وقال صالح المري: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا صالح، هذه القراءة، فأين البكاء؟

---

(١) ابن أبي الدنيا في «ذم الدنيا» (٤١٨) والطبري (١٥/٥٦٦) والبيهقي في «الشعب» (٢٠٥٩)، وفتح الباري (٨/٤٢٨) ومصنف ابن أبي شيبة بزيادة (والدعاء) برقم (٣٥٥٣٢).

(٢) مسند سعد بن أبي وقاص رقم (١٢٨).

وعن صفية زوج النبي ﷺ أنها رأت قومًا قرؤوا سجدة فسجدوا فنادتْهم: هذا السجود والدعاء، فأين البكاء[1]؟

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَمَصِيرُهُمْ

٥٩- ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾

ثم بيَّن الله سبحانه أنه بعد هؤلاء الأنبياء والمرسلين، المخلصين المتّبعين، جاء -في القرون التي تلتْهم- جيل ثم جيل، خلْف من بعدهم خلْف، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وهذه الآية تتحدث عن أهل الشقاء بعد الحديث عن أهل السعادة.

فإن الخَلْف -بسكون اللام- هم أولاد السوء، أو القوم السوء، أهل الضلال.

والخلَف -بفتح اللام- على عكسهم، فهم أولاد الخير، أو القوم الصالحون، فالخلَف هو البدل، كما قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

والخلْف المذكور في الآية يشمل جميع الأفراد وجميع الأمم التي ضلَّت عن سبيل الله؛ لأنها ترجع في النسب إلى إدريس جد نوح، وهم من ذرية نوح، ومن ذرية إبراهيم في العرب وفي بني إسرائيل، وهذا يشمل طبقات وقرونًا كثيرة.

وهذا الخلْف السيئ الذي جاء من بعد النبيين الكرام، كان من صفاتهم أنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وهما وصفان جامعان لأنواع الكفر والفسوق.

فإضاعة الصلاة من الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

ويوم القيامة يجيب المشركون عن سبب عذابهم في جهنم، فيقولون: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣].

وقد توعد الله سبحانه من يَسْهو عن أداء الصلاة في وقتها بالويل والعذاب الشديد، فقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون].

---

(١) ابن أبي شيبة (٨/١٤).

واتباع الشهوات من ألوان الشرك، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فالذي يتبع شهوات نفسه مقدِّمًا لها عن أمر الله سبحانه، يكون قد عبد الهوى من دون الله؛ لأنه قدَّم مراد نفسه على مراد الله.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون خلْف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا، ثم يكون خلْف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر**».

قال بشير: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به، والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به[(١)].

حكم تارك الصلاة جحودًا: ومما يتعلق بالآية أن تارك الصلاة -جحودًا لوجوبها- كافر، وأنه يُقتل كفرًا ما لم يتب، كما في حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[(٢)].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وفي الآية الثانية: ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

ومعنى ذلك أنهم ليسوا إخوة لنا في الدين إن لم يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة.

وفي الحديث: عن بريدة الأسلمي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨) برقم (١١٣٤٠) بإسناد حسن، والبخاري في خلق أفعال العباد (ص١١٨) والبيهقي في الشعب (٢٦٢٦) و«صحيح ابن حبان» برقم (٧٥٥) الإحسان، و«المستدرك» (٢/ ٣٧٤) صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٢) و«المسند» (١٤٩٧٩، ١٥١٨٣) وأبو داود (٤٦٧٨) والترمذي (٢٦١٨) والنسائي (٤٦٣) وابن ماجه (١٠٧٨) وابن أبي شيبة (١١/ ٣٣).

(٣) من حديث بريدة بن الحصيب في «الترمذي» برقم (٢٦٢١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، و«سنن النسائي» (١/ ٢٣١) برقم (٤٦٢) وابن ماجه (١٠٧٩) و«المسند» (٢٢٩٣٧) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١١/ ٣٤) وصححه الحاكم (١/ ٦) ووافقه الذهبي، و«التمهيد» لابن عبد البر (٤/ ٢٣٠) وابن حبان (١٤٥٤) وإسناده قوي كما قال محققو المسند.

ويقول أبو هريرة ﷺ: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يروْن شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة.

وتارك الصلاة يُحشَر يوم القيامة مع رؤوس الكفر: قارون، وفرعون، وهامان، وأُبَيِّ بن خلف، كما جاء في الحديث.

وهؤلاء الأربعة يمثِّلون: الغنى، والمُلْك، والوزارة، والتجارة؛ فكل من ألهاه غناه، أو ملكه، أو وزارته، أو تجارته عن أداء الصلا، فهو مع هؤلاء يوم القيامة.

ومن ترك الصلاة تهاونًا وكسلًا مع الإقرار بوجوبها يُستتاب ويُعزَّر.

حكم تارك الصلاة كسلًا وتهاونًا: ومن نسي صلاة أو نام عنها حتى فات وقتها وجب عليه قضاؤها؛ لما رواه الشيخان عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك**» ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1] [طه: ١٤].

والصلاة الفائتة تُقدَّم على الحاضرة إذا كان في الوقت متسع، وأكثر أهل العلم على وجوب الترتيب بين الفوائت.

ومن كان لا يصلي البتة ثم بدأ يصلي، فهو في حكم الكافر الذي أسلم، والإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها، فلا يلزمه قضاء ما فات.

أما من كان يصلي أحيانًا وبدأ يلتزم، فعليه أن يقضي ما فاته، حتى يغلب على ظنه أنه قضى؛ لأنه مسلم عاص، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. وهكذا وصف الله هذا الخلْف بوصفين:

الأول: تضييع الصلاة: والصلاة عماد الدين وقوامه، والمراد بإضاعة الصلاة: إضاعة مواقيتها، ولو كان المراد تركها لكان ذلك كفرًا.

قال عمر بن عبد العزيز: لم تكن إضاعتهم لها تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

وهي العبادة الوحيدة التي تفرق بين المسلم والكافر، وهي علامة ظاهرة على الإيمان، لا يؤتى بها سرًّا، وإنما يؤتى بها جهرًا، يتردد الرجل من أجل أدائها على المساجد،

(١) البخاري برقم (٥٩٧) ومسلم برقم (٦٨٤).

والذي يقول: أنا أصلي في البيت، وأنا لا أصلي للناس، شخص يحتال على ترك الصلاة، وهو كلام لا معنى له، فالصلاة عبادة ظاهرة تؤدَّى أمام الناس، ولذا جاء في الأثر: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان**»[1].

ومن أعظم الصلوات: صلاة الجماعة والمحافظة عليها، لا سِيَّمَا صلوات: الفجر، والعشاء، والعصر، وفي خصوص هذه الأوقات الثلاثة نصوص كثيرة صحيحة وصريحة وردت عن رسول الله ﷺ تُبيِّن فضل المحافظة عليها مع الجماعة، وفيها الوعيد لمن يتهاون أو يتخلف عنها.

البكور إلى صلاة الجمعة: والصلاة صلة بين العبد وربه، وخصَّها القرآن في هذه الآية بالذكر؛ لأن من أضاع الصلاة فهو لما سواها أضيع، ولكن كيف أضاعها؟

فجَحْدُ وجوبها إضاعة لها.

وتضييع أوقاتها سهوًا أو تكاسلًا حتى يخرج الوقت ثم يصليها قضاء، إضاعة لها.

والنوم عنها في الفجر أو العصر مثلًا إضاعة لها، والتهاون في أركان الصلاة وشروطها، أو النقص منها تضييع لها.

وترك الصلاة مع الجماعة تضييع لها.

وتعطيل المساجد عن إقامة الصلاة فيها تضييع لها، كل ذلك داخل في إضاعة الصلاة.

ومن أعظم الصلوات المفروضة: صلاة الجمعة، وقد بيَّن النبي ﷺ أن من ترك جمعتين متواليتين بدون عذر طبع الله على قلبه، وبيَّن ﷺ أن أول بدعة أُحدثت في الإسلام: ترك البكور إلى الجمعة، وأن الذي يُعدُّ ممن صلى الجمعة هو الذي يحضر إلى المسجد قبل أن يصعد الإمام إلى المنبر، فإذا صعد الإمام المنبر فليس من جاء بعد ذلك، من العدد الذي تنعقد به صلاة الجمعة.

وإن كان قد فاته شيء من أول الخطبة فهو لا ينتفع غالبًا بموضوع الخطبة، ولا ينتفع

---

(١) حديث ضعيف عن أبي سعيد في «المسند» (١١٦٥١، ١١٧٢٥) وأخرجه الترمذي (٢٦١٧) وقال هذا حديث غريب حسن، وأخرجه ابن خزيمة (١٥٠٢) وابن حبان (١٧٢١) وابن ماجه (٨٠٢).

بما فيها من الموعظة، ولا يدرك مدى ارتباط الكلام بما قبله أو بعده، فالذي يريد أن يحافظ على صلاة الجمعة، ويُكتب من العدد الذي حضر الجمعة، لابد له أن يحضر إلى المسجد قبل أن يصعد الإمام إلى المنبر، وهذا أضعف درجات الإيمان، فهو كمن أهدى بيضة، والذي يأتي قبله يهدي ما هو أكثر.

والذي يأتي إلى المسجد في ساعات مبكرة يوم الجمعة، يجلس يتلو كتاب الله، أو يصلي، أو يسبح ويستغفر، أو مجرد الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة، فكل هذا عبادة، وأجره عند الله كبير.

الوصف الآخر: اتباع الشهوات:

وهم الذين: اتبعوا هوى النفس، والميل إلى الحرام، والسير في طريق الشيطان، بما يزيِّنه لهم من الخمر، أو المسكرات، أو الزنى، أو الربا، ونحو ذلك

ثم بيَّن سبحانه مصير هؤلاء الذين أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فقال سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قالوا: إن غيًا: اسم لوادٍ في جهنم، بعيدٍ قعره، خبيثٍ طعمه، يسيل من قيح وصديد أهل النار.

التَّائِبُونَ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ

٦٠- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ[1] ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾

ثم إن الله سبحانه يفتح باب التوبة للعبد ما لم يغرغر، وما لم تطلع الشمس من مغربها، فيقول تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي: من شركه وكفره، ومن تضييع الصلاة عن وقتها، ومن اتباع الشهوات والشبهات، فلم يضيّع الصلاة بعد توبته، ولم يتبع الشهوات، وتزود بالإيمان والعمل الصالح.

والذين وصفهم الله سبحانه بالإيمان والعمل الصالح، والتوبة من الشرك والكفر، هم الذين يدخلون الجنة مع المؤمنين، ولا يُنقصون شيئًا من ثواب أعمالهم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح الخاء من (يدخلون)، على البناء للمفعول، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء، على البناء للفاعل.

وهذا الاستثناء في الآية كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. بعد ذِكْر بعض كبائر الذنوب، وهي: الشرك بالله تعالى، والقتل، والزنى.

وفي الحديث عن عبد الله مسعود ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١).

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل بني آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون**»(٢). ثم ذكر سبحانه ما أعده لهؤلاء التائبين من الأجر العظيم فقال:

٦١- ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه مصير التائبين الراجعين إلى الله سبحانه، فبيَّن أنهم في نعيم الجنة لا يَرْحَلُون عنها، فهم يخلَّدون فيها بصفة دائمة، فمعنى عدن من قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ يعني: أنها دار إقامة، يقيمون فيها دائمًا، ولا يَرْحَلُون عنها، ولا يظعنون ولا يسافرون، ولا يزولون ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

وهذه الجنة هي ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ فآمنوا بها وهم لم يروْها، آمنوا بالجنة وهم في الدنيا، وآمنوا بما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن صفات عباد الله المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، ولا وجه للمفاضلة بين وعد الله لعباد الرحمن، ووعد الملوك لعبيدهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ووعْد الله لعباده بالجنة أمر محقق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي: آتيًا لا محالة.

والجنة لا لغو فيها ولا نصب، قال تعالى:

٦٢- ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «السنن» برقم (٤٢٥٠) من حديث ابن مسعود، وفي سنده انقطاع، وحسّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٧) وأخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي (٢١٢٣) والبيهقي في «الشعب» (٧١٩٦) وغيرهما.

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٥١) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٢٩) والبيهقي في «الشعب» (٧١٢٧) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٨٧) وهو حديث حسن، كما قال الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٨) ومشكاة المصابيح (٢٣٤١).

ثم ذكر الله سبحانه شيئًا من أوصاف أهل الجنة، فهم لا يسمعون فيها لغطًا، ولا لهوًا، ولا سخطًا، ولا ضجيجًا؛ إذ ليس فيها كلام خارج، ولا باطل ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: لا يسمع أهل الجنة فيها كلامًا باطلًا، ولكن يسمعون التحية فيما بينهم، ويجدون فيها الأمن والخير، والإكرام والطمأنينة، وهذا معنى ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي: يسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد]. ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ﴾ من الطعام والشراب بصفة دائمة.

١- أخرج الحكيم الترمذي في **«نوادر الأصول»** من طريق أبان، عن الحسن، وأبي قلابة قالا: قال رجل: يا رسول الله، هل في الجنة من ليل؟ قال: **«وما هيَّجك على هذا»**؟ قال: سمعت الله يذكر في الكتاب: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلت: الليل من البكْرة والعشيِّ، فقال رسول الله ﷺ: **« ليس هناك ليل، وإنما هو ضُوء ونور، يَرِدُ الغُدُوُّ على الرواحِ، والرَّوَاح على الغُدُوِّ، وتأتيهم طُرَفُ الهدايا من الله لمواقيت الصلاة التي كانوا يصلُّون فيها في الدنيا، وتسلِّم عليهم الملائكة»**.

وهذا الرزق الذي في الجنة يأتي بغير كدٍّ ولا تعب، وبغير أن يشقى الإنسان في طلب هذا الرزق، أو يبحث عنه، وإنما يأتيه بدون بذل أسباب، يأتيه صباحًا ومساءً، وقت ما يطلب.

وليس في الجنة ليل ولا نهار، فهم في ضياء مستمر، ونور دائم، وإنما قال سبحانه: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ لأن رزقهم يأتيهم في الجنة على مقدار أيام الدنيا، حسب ما يألفون ويَعْرِفون في الدنيا، أو أن الحُجُب تُرفع وتُسدل على العباد، فيكون هذا بمثابة الليل والنهار.

٢- عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الشهداء على بارق نهر الجنة، في قبة خضراء، يخرج إليهم رزقهم في الجنة بكرة وعشيًا»**[(١)].

---

(١) «صحيح ابن حبان»، الإحسان برقم (٤٦٥٨) قال محققه: إسناده قوي و«المسند» (١/ ٢٦٦) برقم (٢٣٩٠) إسناده حسن، من أجل ابن إسحاق حسن الحديث وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) وأخرجه ابن حبان (٤٦٥٨) وابن ابي شيبة (٥/ ٢٩٠) وابن أبي عاصم في الجهاد (١٩٩) والبيهقي في الشعب (٤٢٤١). و«المستدرك» (٢/ ٧٤) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٩٨): رجال أحمد ثقات، ونسبه للطبراني وهو برقم (١٠٨٢٥) وفي الأوسط (١٢٣)

٣- وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة قال: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء عجب له، فأخبرهم الله أن لهم في الجنة بكرة وعشيًّا قدْر ذلك الغداء والعشاء.

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أول زمرة تلج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يَبْصُقون فيها، ولا يتمخَّطون فيها، ولا يتغوَّطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومَجامِرُهم الألُوَّةُ، ورشحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مُخُّ ساقيها من وراء اللحم من الحُسْن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون لله بكرة وعشيًّا»**[1].

قال تعالى مبيِّنًا أهل الجنة المستحقون لها:

٦٣- ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ[2] مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾

أي: أن هذه الجنة التي ذكر الله شيئًا من أوصافها، يورثها سبحانه في الآخرة لعباده المتقين.

وحقيقة الإرث: انتقال مال القريب إلى قريبه بعد موته، وكما أن الحي يرث مال مورِّثه؛ لأنه أولى الناس بماله، فإن التقي يرث ثمرة عمله الصالح وتقواه في الآخرة، بعد أن انقضى عمله في الدنيا، فالتَّقيُّ يرث الجنة، كما أن الوارث يرث المال.

قال تعالى عن عباده المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف].

فالثمن هو التوبة، والإيمان، والعمل الصالح.

وبهذا يرث المؤمن الجنة، كما أنه يرث مكان الكافر في الجنة، وذلك أن كل إنسان عند الموت يرى مقعده من النار، ومقعده من الجنة، فالكفار قد كانت لهم أماكن في

---

(١) «المسند» (٢/٣١٦) برقم (٨١٩٨) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والبخاري برقم (٣٢٤٥، ٣٢٤٦، ٣٢٥٤) ومسلم برقم (٢٨٣٤).

(٢) قرأ رويس بفتح الواو وتشديد الراء من (نوَرِّث) مضارع ورَّث المضعف، والباقون بسكون الواو مدية وكسر الراء مضارع أورث.

الجنة، ولكنهم تركوها، وذهبوا إلى النار ليرثها المؤمنون، وهم أيضًا يرثون الجنة بأعمالهم الصالحة التي قدَّموها في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال سبحانه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

جِبْرِيلُ يَنْزِلُ بِالْوَحْيِ وَفْقَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ

٦٤- ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾

هذه الآية نزلت في شأن جبريل ﷺ حين تغيَّب في النزول أيَّامًا على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **«يا جبريل، ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»**، فأنزل الله الآية: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[١].

أي: إنما نتنزل على الرسل حينما تقتضي الحكمة، وحينما يلزم نزول الوحي.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال في هذه الآية: هذا قول جبرائيل، احتبس جبرائيل في بعض الوحي، فقال نبي الله ﷺ: **«ما جئتَ حتى اشتقتُ إليك»**، فقال جبرائيل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

وقال مجاهد: أبطأ الملَك على رسول الله ﷺ، ثم أتاه فقال: لعلِّي أبطأت، قال: **«قد فعلت»**. قال: ولِمَ لا أفعل وأنتم لا تتسوَّكون، ولا تقُصُّون أظفاركم، ولا تُنَقُّون بَراجِمَكُم؟ قال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قال مجاهد: فنزلت الآية[٢].

---

(١) رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، «المسند» (١/ ٢٣١) برقم (٢٠٤٣، ٢٠٧٨، ٣٣٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وهو في البخاري برقم (٣٢١٨، ٤٧٣١، ٧٤٥٥) و«تفسير الطبري» (١٦/ ٧٨) والترمذي (٢/ ١٤٥) برقم (٣١٥٨) وصحيح الترمذي (٢٥٢٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣١٩) والحاكم (٢/ ٦١١) والبيهقي (٧/ ٦٠).

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ص (٢٥٣) و«زاد المسير» (٦/ ٢٤٩) ورفعه الطبراني عن ابن عباس، «المعجم الكبير» (١١/ ٤٣١) وهو في «المسند» (١/ ٢٤٣) وفي إسناده أبو كعب مولى ابن عباس لا يُعرَف إلا في هذا الأثر.

قال المفسرون: إن الوحي لمَّا احتبس عن رسول الله ﷺ فترة من الوقت، حتى قال المشركون: إن رب محمد قلاه وأبغضه، فلما نزل جبريل بعد غياب خمسة عشر يومًا، وقيل أكثر، قال ﷺ: «**يا جبريل احتبستَ عليَّ حتى ساء ظني، واشتقتُ إليك**»، فقال جبريل: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور، إذا بُعثتُ جئت، وإذا أُحبستُ احتبست، فأنزل الله هذه الآية، وآية الضحى[1].

والآية إخبار من الله تعالى على لسان جبريل أن القرآن لا يتنزل إلا بأمر الله في الأوقات التي يريدها رب العالمين، وهي تشبه قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى].

ثم بيَّن سبحانه أن هذا الكون يسير وَفْق مراد الله تعالى، وأن الملائكة لا تتصرف في قليل ولا كثير، ولا تنتقل من مكان إلى مكان إلا بإذن الله تعالى؛ فهم مقيدون بالقدرة الإلهية، لا يتصرفون، ولا يتنزَّلون، ولا يتنقلون إلا بأمر الله.

فإن له سبحانه جميع الجهات والأماكن والأزمنة، وكل ما مضى وكل ما هو آت، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، يعلم الحاضر والغائب، ويعلم السرَّ والنجوى.

وحين يتأخر نزول الوحي، فليس هذا عن نسيان من الله سبحانه، وإنما هو عن حكمة اقتضت ذلك، فتنزُّل جبريل لا يقع إلا بأمر الله تعالى، وليس له اختيار في ذلك، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء].

وهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]

والنسيان: هو الغفلة عن توقيت الأشياء بأوقاتها، وما كان ربك لينسى نبيه ويهمله.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣] بل لم يزل معتنيًا به في جميع شؤونه، وإذا تأخر عنه الوحي بعض الوقت، فإن ذلك لحكمة أرادها الله تعالى.

جاء في الحديث عن أبي الدرداء مرفوعًا: «**ما أحلَّ الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله العافية، فإن الله لم يكن نسيًّا**».

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٦/ ٨٧) والألوسي (١٦/ ١١٤).

ثم تلا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[1]. ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣].

ثم علل سبحانه إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه رب السموات والأرض:

مُقْتَضَى اسْتِحْقَاقِ الْعِبَادَةِ

٦٥- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

ثم يُختم هذا السياق بالتعقيب على مقتضى التوحيد الذي تدعو إليه السورة، فتبيِّن أنه سبحانه رب هذا الكون، وخالقه، ومالك أمره، ومدبر شؤونه، وهو خالق السموات والأرض، على أحسن نظام وأكمل هيئة، وفي هذا برهان قاطع على أنه الإله الحق المستحق للعبادة دون سواه، فاعبده وحده، وكن صبورًا على تكاليف العبادة بمجاهدة النفس، والهوى، والشيطان، والعبادة لا تشمل الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فحسب، إنما هي منهج حياة متكامل للمسلم، أنفاسه عبادة، وحركاته عبادة، وعمله عبادة، ونومه عبادة، وشهوته حين يأتي أهله عبادة، وحينما ينوي بأعماله كلها وجه الله تعالى فهي عبادة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام].

فهو سبحانه مالك كل شيء، وخالقه، ومدبره، فاعبده وحده، وكن شديد الصبر على طاعته أنت ومن تبعك من أهلك، ومَنْ هم تحت مسؤوليتك، قال تعالى:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

ثم ختم الله الآية ببيان أنه سبحانه ليس له ندٌّ، ولا نظير، ولا مماثل، ولا سَميٌّ، يقول سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾؟ هل تعلم لله شبيهًا ونظيرًا؟ هل تجد أحدًا سُمِّي باسمه

---

(١) رواه البزار في مسنده (١٢٣، ٢٢٣١) «كشف الأستار» والحاكم وصححه بموافقة الذهبي في «المستدرك» (٢/ ٣٧٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٢) وهو حديث صحيح الإسناد وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٧١) إلى الطبراني في «الكبير» والبزار، وقال: إسناده حسن، ورجاله موثقون، وقال ابن حجر في «فتح الباري» (١٣/ ٢٢٦): إسناده صالح.

تعالى، الله؟ أو أحدًا سُمِّي باسم الرحمن؟ الله وحده واحد أحد، فرد صمد، لا والد له ولا ولد، وهذا استفهام بمعنى النفي المعلوم بالعقل، فالله تعالى غني عن خلقه من كل الوجوه، وغيره فقير إليه بكل وجه

والمعنى: أنه لا يوجد أحد مماثل لله تعالى، في اسمه (الله) اسم الجلالة: ولا يوجد لله مساميًا ولا مشابهًا ولا مماثلًا من المخلوقين؛ فإن المشركين لم يُسَمُّوا شيئًا من أصنامهم (الله)، وإنما يقولون للواحد منها: (إله)، وفي هذا اعتراف منهم بأنه لا مماثل له سبحانه في صفة الخلق، فهم لم يجترئوا على أن يدَّعوا لآلهتهم صفة الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وهو سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا موجب لإفراد الله تعالى بالعبادة التي جاء الأمر بها في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

الْبَعْثُ وَالْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ

٦٦- ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا[1] مَا مِتُّ[2] لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾

وبعد الأمر بعبادته تعالى والصبر على أدائها، أبطل ﷻ عقيدة المشركين في نفي البعث بعد الموت، بعد إبطال عقيدة الإشراك مع الله تعالى غيره في عبادته؛ ليتم بذلك نقض أصْلَيْ الكفر، وهما: نفي التوحيد، ونفي البعث؛ فأنكر سبحانه على الكافرين عدم إيمانهم بالبعث والنشور، وأنكر عليهم أنهم لا يتذكرون نشأتهم الأولى وهي أعجب؛ فإن الإيجاد من عدم، أدْعى إلى الاستبعاد والغرابة، من إعادة ما كان موجودًا، وهذا في عُرْف الناس، ولكنه عند الله سواء.

وفي الحديث القدسي: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتْمُه إياي فقوله: إن**

(١) قرأ ابن ذكوان بخلف عنه بهمزة واحدة، على الإخبار في (أئذا)، والباقون بهمزتين على الاستفهام ومعهم ابن ذكوان في الوجه الآخر، وكلٌّ على مذهبه في التسهيل والتحقيق والإدخال وعدمه.

(٢) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (مت)، والباقون بضمها.

لي ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد»[١].

وقد جاء تكذيب الكفار للبعث في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس].

فسبب هذا الإنكار هو غفلة الإنسان عن نشأته الأولى، فإن النشأة الأولى، فيها إخراج الجواهر والأعراض من العدم إلى الوجود، أما النشأة الثانية فليس فيها إلا تأليف الأجزاء الموجودة وردُّها إلى ما كانت عليه مجموعة بعد التفريق، وفي هذا دليل عقلي يهدي القلوب إلى الحق، ويفتح العقول إلى قدرة الله تعالى، ويبيِّن أن البعث حق وصدق، بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة].

ومن الناس في كل زمان ومكان من ينكر البعث والحساب والنشور، ومنهم من يشكك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية]. هذه الشبهة قديمة حديثة.

ففي عهد رسول الله ﷺ جاء بعض الكفرة، كالوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأبي جهل، إلى النبي ﷺ بعظْم يفتته بين أصابعه، وقد بَلِيَ هذا العظم وتفتَّت وأصبح رميمًا، وهو يقول: أتُرى أن الله يُحيي هذا بعدما رُمَّ وبَلِيَ؟ فيقول ﷺ: **«نعم، ويبعثك ويدخلك النار»** قيل: نزلت في العاص بن وائل حين أخذ عظامًا بالية يفتتها بيده، ويقول: زعم لكم محمد أنَّا نُبعث بعدما نموت[٢].

فهم يقولون هذا على وجه الاستبعاد والاستنكار، وعلى سبيل الاستهزاء والسخرية

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥) من حديث أبي هريرة.

(٢) «زاد المسير» (٦/ ٢٥١) وقد رواه الطبري عن سعيد بن جبير (١٩/ ٤٨٧) والحاكم (٢/ ٤٢٩) والضياء المقدسي في «المختارة» (٨٢) وقد جاء في بعض الروايات، ذِكْرُ عبد الله بن أُبَيٍّ فيه، ولكنه كان بالمدينة والسورة مكية.

والتكذيب ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟ يعني: بعدما نموت نَحيا مرة ثانية، وأيضًا آباؤنا وأجدادنا الأقدمون الذين ماتوا قبلنا يبعثون؟!

وفي سورة مريم يقول الله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر المنكر للبعث، فالمراد بالإنسان: كل منكر للبعث مستبعد لوقوعه، يقول على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿أَءِذَا مَا مِتُّ﴾ وصِرْتُ ترابًا وعظامًا، سوف أخرج من قبري حيًّا بعدما أموت؟ هذا لا يكون، ولا يُتصوّر.

ثم ذكر سبحانه برهانًا قاطعًا ودليلًا واضحًا على إمكان البعث فقال:

٦٧- ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ[1] ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾

والله سبحانه يقول: استعملوا عقولكم، واستدلوا على الإعادة بالبداية؛ فالبداية أهون، والله ﷻ قد خلقكم من العدم، والبداية تحتاج إلى خلْق وإنشاء جديد، أما الإعادة فليس فيها إلا تأليف الأعضاء، وإعادة الأجزاء التي كانت موجودة، فهي أهون، وكيف ينسى الكافر خلْقه الأول وهو لم يكن له وجود؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت]. ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم].

فما على من ينكر البعث إلا أن يتذكر خلقه الأول، وأن القادر على إنشائه من النطفة، قادر على إعادته بعد ما تفتت وتفرق.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ: حَشْرُ الْكَافِرِينَ مَعَ الشَّيَاطِينِ

٦٨- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا[2] ﴿٦٨﴾﴾

ثم يُقْسم الله سبحانه على مشهد الحشر في عرصات القيامة، يقسم بذاته العلية، أنه سبحانه سيجمع منكري البعث يوم القيامة مع الشياطين، ويأتي بهم أجمعين حول جهنم باركين على الركب، فلا يقدرون على القيام؛ لشدة ماهم فيه من الهول.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وعاصم بإسكان الذال وضم الكاف من (يذكر) مضارع ذكر من الذكر ضد النسيان، والباقون بتشديد الذال والكاف مفتوحتين مضارع تذكَّر، وأصله يتذكر فأبدلت التاء ذالًا وأدغمت الذال في الدال، وهي من التذكُّر، بمعنى: التيقظ والمبالغة في عدم الغفلة.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي بكسر الجيم من (جثيًا)، والباقون بضمها وكذا الآية (٧٢).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي: نحشر الكَفرة منكري البعث، مع شياطينهم الذين زينوا لهم الباطل، ونحشر الخلق جميعًا، لميقات يوم معلوم، ومنهم الإنس والشياطين؛ حيث نحشر كل كافر مع شيطانه الذي أغواه، فيُقيَّد معه في سلسلة ويَحضُر به إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ [ق]. فيجلس جلسة الخائف الذليل على ركبتيه، كالأسرى حينما يكونون باركين على ركبهم وأطراف أصابعهم، وهو مشهد رهيب يصوِّر حالة الذلة والمهانة، ولأن الشياطين هم سبب ضلال الإنس كان المصير واحدًا، وهيئة الخضوع والجثوّ واحدةً، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية]. وهو جثوٌّ حول جهنم، من شدة الأهوال، وفظاعة الأحوال، وانتظار حكم الكبير المتعال.

مَشْهَدُ قَذْفِ الْأَعْتَى فَالْأَعْتَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ

٦٩- ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا[1] ﴿٦٩﴾﴾

ثم يأتي مشهد القذف بالكفار في نار جهنم، ونزعهم، وجذْبهم إليها؛ حيث يكون البدء بالأكابر فالأكابر جُرمًا، من كل أهل ديانة كفروا بالله وبرسوله، ومن كل طائفة، ومن كل فرقة، فنميزهم، للإلقاء بهم في دركات جهنم، نأخذ الأعتى فالأعتى، الأشد كفرًا فالأشد، والأشد جُرمًا فالأشد، يُقذَف به في نار جهنم، الأول، فالأول، فنأخذ من كل طائفة أشدهم تمردًا وعصيانًا، فنبدأ بعذابهم، وفي هذا تخصيص بذكر الطغاة من الكافرين أيهم أشد كفرًا وأعظم جرمًا، فيقدّمون في العذاب، ومن ثم يلعن بعضهم بعضًا، ويكفر بعضهم ببعض ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]

روى أبو سعيد الخدري ﷺ أنه يندلق عنق من النار فيقول: إني أُمرت بكل جبار عنيد، وهذا الذي يحدث في جهنم، هو من عدل الله وحكمته وعلمه الواسع، ولذا قال تعالى:

٧٠- ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بكسر الجيم من (جثيا)، والعين من (عتيا)، والصاد من (صليا)، والباقون بضم الحروف الثلاثة، وهما لغتان.

ثم يذكُر سبحانه أنه أعلم بمن يستحق دخول النار، ومن هو أولى بدخولها ومقاساة حرها، ومن يستحق أن يُقذف به أوَّلًا فيُبدأ به ويكون في المقدمة، وهو سبحانه أعلم بمن يستحق الخلود في نار جهنم، وبمن يستحق أن يضاعف له العذاب فيُختارُون اختيارًا؛ ليكونوا في طليعة المقذوفين، ولا يؤخذ منهم أحد جزافًا، بل يتم اختياره وفق مؤهلاته الإجرامية في الدنيا، ثم يحاسبهم سبحانه، ويجازي كلًّا بما يستحق.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ لَا وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وفي الآية التالية خطاب لجميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار حتمًا وقضاءً نافذًا.

وُرُودُ جَهَنَّمَ وَنَجَاةُ الْمُتَّقِينَ

٧١، ٧٢- ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى[1] ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

لما ذكر سبحانه انتزاع أعتى الجبابرة لِيُقذف بهم أوَّلًا في جهنم، بيَّن هنا أن جميع طوائف الكفر والشرك يدخلون النار؛ لئلَّا يَتوهَّم مُتوهِّم أن دخولها يقتصر على العتاة.

وتحويل ضمير الخطاب في الآية؛ للالتفات عن الغيب، ليدخل فيه الناس جميعًا، من نزع منهم إلى النار ومن لم ينزع، مؤمن وكافر، كلهم يرد جهنم، فَيُقْسِم الله سبحانه على أنه: ما من أحد إلا وهو وارد النار، بالمرور على الصراط المنصوب على متن جهنم، كلٌّ بحسب عمله، ثم ينجي الله المتقين، وهذا أمر محتوم، قضى به رب العالمين ولابد من وقوعه، وهو عرْض رهيب على النار، حيث يمرُّون عليها وهي تتأجج وتتلظَّى وتتلمَّظ حنقًا على الكفار، وفي القرآن ثلاثة مواضع غير هذه الآية جاء فيها لفظ الورود، وهي في سور: هود [٩٨]، والأنبياء [٩٨]، والقصص [٢٣].

---

(١) قرأ الكسائي ويعقوب بإسكان النون الثانية، وتخفيف الجيم من (نُنْجِي) مضارع أنجى، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم، مضارع نجَّى.

وللعلماء في معنى الورود في الآية التي معنا **أربعة أقوال**:

١- فمنهم من قال: المراد **بالورود: دخول النار لجميع الناس**، المؤمن والكافر، إلا أنها تكون بردًا وسلامًا على المؤمن.

وهكذا يُفَسِّر بعضهم الورود بالدخول؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: نتركهم فيها، قالوا: ومعنى ذلك أن الجميع دخلوا النار أوَّلًا، ثم يُترك الظالمون فيها، والترك لا يكون إلا بعد الدخول.

٢- ومنهم من يرى أن المراد **بالورود**: القرب والمشارفة، أي **رؤية النار** والإشراف عليها والقرب منها، دون الدخول، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]. أي اقترب منها وأشرف عليها.

- ومنهم من يرى أن الدخول **خاص بالكفار** كما في قوله تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ أي أدخلهم النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ [هود: ٩٨].

٤- ومنهم من قال: إن الورود هو **المرور على النار عند اجتياز الصراط**. ولعل هذا هو الأرجح.

وحقيقة الورود: هو الوصول إلى الماء للشرب منه، كورود الحوض.

وإطلاق الورود على الدخول مجاز يحتاج إلى قرينة.

وصَدْرُ الكلام موجه للكافرين في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [٦٨].

وقد بيَّن سبحانه بعد ذلك اختلاف حشْر المؤمنين والكافرين في قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾. فورود المؤمنين معناه: المرور والرؤية؛ لقوله تعالى عن المؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: مبعدون عن النار فلا يدخلونها، وإذًا فهذا الدخول خاص بالكفار، كما قال به بعضهم.

ويقول سبحانه عن الكفار، ومَنْ يُعبدون آلهة مِنْ دون الله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء] يعني: داخلون.

وبناء على ما سبق فإن الورود يكون بالنسبة لجميع الخلق، وهو المرور فوق الصراط، وأن الكلاليب تتخطف أهل النار فيسقطون فيها، والمتقون يمرون عليها ويرونْها، ولا

يسقط فيها إلا عصاة المؤمنين فينالهم منها بقدْر معاصيهم، ثم يخرجون منها.

ويؤيد ذلك أحاديث منها:

١- ما جاء في البخاري وغيره: عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ وفيه: «. . .**يؤتى بالجسر، فيُجعل بين ظهريْ جهنم**». قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ فبيَّن ﷺ أنه مَدْحَضة، عليه كلاليب وخطاطيف، لها شوك كشوك السعدان، يمر المؤمن عليها كالطرْف، أو البرق، أو الريح، أو أجاويد الخيل. . .، فالمسلم إما ناجيًا وإما مخْدُوشًا، وإما مَكْدُوسًا في نار جهنم، حتى يمرَّ آخرهم يُسحَب سحبًا.

وبعد شفاعة من المؤمنين، يقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويُحرِّم الله صورهم على النار، فيأتون، وبعضهم قد غاب في النار إلى قدميه، وإلى أنصاف ساقيه.

ثم يأمر الله بإخراج مَنْ هم أدنى منهم رتبة في الإيمان، ثم يشفع الملائكة، والنبيُّون، والمؤمنون.

فيقول الله تعالى: بقيت شفاعتي، فيقْبض قبضة من النار فَيَخْرُج أقوامًا قد امتُحشوا، فيُلْقوْن في نهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة، فَيَنْبُتون في حافتيه، كما تنبت الحبة إلى جانب الصخرة وإلى جانب الشجرة[(١)].

٢- وأخرج الترمذي وغيره عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يردُ الناسُ النارَ، ثم يَصْدُرُون منها بأعمالهم، فأولهم كلمح البرْق، ثم كالريح، ثم كَحَضْرِ الفرس، ثم كالراكب في رَحْلِه، ثم كَشَدِّ الرجُل، ثم كَمَشْيِه**»[(٢)].

وفائدة ورُودهم النار: أنهم يزدادون سرورًا للخلاص منها، ويكون هذا سببًا لمزيد التلذذ بنعيم الجنة.

---

(١) يُنظَر الحديث بطوله في: «صحيح البخاري» برقم (٤٥٨١، ٤٩١٩، ٧٤٣٩) في كتاب التوحيد، و«صحيح مسلم» برقم (١٨٣).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن، ورواه شعبة عن السدِّي فلم يرفعه وهو برقم (٣١٥٩) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٢٦) وصححه الحاكم على شرط مسلم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٣٧٥) وحسَّنه البغوي في «مشكاة المصابيح» برقم (٥٦٠٦) وأخرج شطره الأول بإسناد حسن أحمد في «المسند» (٤١٤١) وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣١١) و عند أبي يعلى (٥٢٨٢، ٥٠٨٩).

وفي الوقت نفسه، يكون في ذلك مَزِيدُ غَمٍّ لأهل النار باجتذابهم إليها، ونجاةِ المؤمنين.

٣- أما حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يموت لأحد من المؤمنين ثلاثة من الولد، فتمسُّه النار إلا تحلَّة القسم»** وفي رواية: **«فيلج النار إلا تحلة القسم»**(١).

أي: ولُوجًا قليلًا، يشبِه ما يُفعل لأجل تحلَّة القسم، ولا علاقة له بالآية.

٤- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أم مُبَشِّر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل النار -إن شاء الله تعالى- من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها»** قالت حفصة: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النبي ﷺ: **«قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾»**(٢).

٥- وفي البخاري وغيره: عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير»** وفي آخر الرواية: **«وزن ذرة»**(٣).

٦- وفي حديث طويل جاء في الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ، وفيه: **«ويُضرب الصراط بين ظهريْ جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يُجِيزُها ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السَّعْدان، هل رأيتم السعدان؟»** قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **«فإنها مثل شوك السعدان(٤) غير أنه لا يعلم ما قدْرُ عظمها إلا الله تعالى، تَخْطفُ الناسَ بأعمالهم، فمنهم الْمُوبَق(٥) بَقِيَ بعمله(٦)**،

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١١) البخاري برقم (٦٦٥٦، ١٢٥١) ومسلم برقم (٢٦٣٢) والترمذي (١٠٦٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٣٢٠) وابن ماجه (١٦٠٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٤٩٦) و«المسند» (٢٧٣٦٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات والطبراني (٣٥٨) والنسائي في الكبرى (١١٣٢١) والبيهقي في الشعب (٣٧١) والدلائل (٤/ ١٤٣) وقد جاء عن حفصة في المسند (٢٦٤٤٠) وابن ماجه (٤٢٨١) وغيرهما.

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٤٤، ٤٤٧٦، ٦٥٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٣).

(٤) شوك السعدان: نبت ذو شوك معقف، وهو من أجود مراعي الإبل.

(٥) يوبق بعمله: أي أن ذنوبه أوبقته، وأهلكته.

(٦) إلى هنا من «صحيح البخاري» برقم (٧٤٣٧) ويُنظَر: رقم (٨٠٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٢).

ومنهم من يَنْجدل[١] ثم ينجو، حتى إذا أراد الله رحمة مَنْ أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخرِجوا من كان يعبد الله، فَيُخرِجونهم، ويعرفونهم بآثار السجود، وحرم الله على النار أن تأكل أعضاء السجود، فيخرُجون من النار، ثم يُصَبُّ عليهم ماء الحياة، فينبُتون كما تنبت الحبة، ثم يُفرغ من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، هو آخر من يدخل الجنة من أهل النار»[٢].

٧- وكان عبد الله بن رواحة ﷺ مريضًا فوضع رأسه في حجر امرأته وأخذ يبكي، فبكت امرأته، قال: ما يُبْكِيكِ؟ قالت: رأيتُكَ تبكي فبكَيْتُ، قال: إني ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا أدري، أنجو منها، أم لا؟[٣].

٨- وفي رواية: عن بكر بن عبد الله المُزَنيّ قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ ذهب عبد الله بن رواحة إلى بيته فبكى، فجاءت المرأة فبكت، وجاءت الخادمة فبكت، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكُون، فلما انقطعت عَبْرَتُهم قال: يا أهلاه، ما الذي أبكاكم؟ قالوا: لا ندري، ولكن رأيناك بَكِيتَ فبكيْنا، قال: إنه أُنزلت على رسول الله ﷺ آية، يُنبئ فيها ربي تبارك وتعالى أني وارد النار، ولم ينْبئْني أني صادر عنها، فذاك الذي أبكاني[٤].

٩- وعن الحسن أن رجلًا قال لأخيه: يا أخي، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ فما رُئي ضاحكًا حتى مات[٥].

١٠- وفي الحديث الذي أخرجه الحاكم وأحمد وغيرهما، عن عبد الرحمن بن شيبة قال: اختلفنا في الورود، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعًا ثم ينجي الله الذين اتقوا، فقلت له: إنا اختلفنا بالبصرة، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن، وقال آخرون: يدخلونها جميعًا ثم ينجِّي الله الذين اتقوا، فأهوى بأصبعيه إلى أذنيه فقال: صمتًا

---

(١) ينجدل: أي تقطعه كلاليب الصراط حتى يقع في النار.

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» (٨٠٦).

(٣) يُنظَر: «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١١) وهو من حديث متفق عليه.

(٤) أخرجه ابن المبارك (٣٠٩) وابن عساكر (٢٨/ ١٠٦) وأحمد في «الزهد» ص ٢٠٠ .

(٥) ابن المبارك (٣١٢).

إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار -أو قال: لجهنم- ضجيجًا من نزقها**»، ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[1].

أي: ثم ننجي الذين اتقوا ربهم بطاعته، والبعد عن معصيته، ونترك الظالمين لأنفسهم بالكفر بالله في النار باركين على ركبهم، أي: أن المؤمنين يدخلونها ولكنها تكون عليهم بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم عليه السلام.

ومجموع الأحاديث الواردة في ذلك ترسّخ هذا المعنى، فهو المراد بقول النار يوم القيامة: جُزْ يا مؤمن. ويوضحه حديث أبي هريرة وأنس في الصحيحين.

فالورود على الأرجح: هو المرور على الصراط، أي: الجسر الكائن فوق متن جهنم، هذا الصراط يمر عليه الخلائق كلهم، ثم يكون هناك خطاطيف وكلاليب من نار يُجذب بها الكفار من فوق الصراط إلى جهنم، ويكون مرور المؤمن فوق هذا الصراط على قدر عمله في الدنيا، منهم من يمرُّ كالبرق، ومنهم من يمرُّ كالريح، ومنهم من يمرُّ كالطير، ومنهم من يمرُّ كأجود الخيل، ومنهم من يمرُّ كأجود الإبل، ومنهم من يَعْدُو عَدْوًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يَحْبُو حَبْوًا.

ويأخذ المؤمن العاصي نصيبه منها ثم يخرج، أما من مات على الكفر والشرك فهو الذي يُخَلَّد فيها، فهو دخول أبدي بالنسبة للكافر، بسبب ظلمه وكفره، وهو دخول مؤقّت بقدر عصيان العاصي، ومرور عابر بالنسبة للمؤمن، نسأل الله السلامة والعافية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلًا من أصحابه وَعِكًا وأنا معه،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/٣٢٨) برقم (١٤٥٢٠) من حديث جابر، قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة أبي سُمية، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/٣٠٦): رجاله ثقات، وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٤/٥٨٧) وحسّنه البيهقي في «الشعب» برقم (٣٦٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (٧/ ٥٥) رواه أحمد ورجاله ثقات، وهذا لفظ الحاكم وأخرجه عبد بن حميد (١١٠٦).

فقال: «**إن الله تعالى يقول: هي ناري أسلِّطها على عبدي المؤمن؛ لتكون حظه من النار في الآخرة**»[١]، وفي الآية التالية بيان لبعض الأسباب التي استحق بها الكافر الخلود في النار:

مَتَاعُ الْكَافِرِ ظِلٌّ زَائِلٌ

٧٣- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا[٢] وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

ثم عطف الله سبحانه على الآية السابقة، وهي قوله تعالى في شأن منكري البعث: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ ببيان نوع آخر من أهل الكفر، وهم قوم استدلوا بحسن حالهم في الدنيا على أنهم خير من المؤمنين، وهذا من أكاذيب الكافرين بالله ورسوله في كل زمان ومكان، مِنَ الذين اغتروا بدنياهم، حين يستمعون إلى القرآن، وهو يُنْذِرهُم بسوء المصير، ويبشر المؤمنين بحسن العاقبة، فإنهم يكذِّبونه، ويقولون: لو كان هذا صحيحًا لكان المتَّبعون لمحمد ﷺ في نعمة وسيادة ورفاهية عيش، وكنا في هزيمة وضنك وسوء عيش، فيقيسون الدنيا على الآخرة، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

وهذه مغالطة من الكافرين؛ حيث يستدُّلون بدنياهم على حُسْن حظهم في الآخرة، فيقولون للمؤمنين: انظروا إلى ما نحن فيه من حضارة وتفوق، ونصر وتقدم، انظروا إلى منازلنا فهي أحسن من منازلكم، وانظروا إلى مجالسنا ونوادينا التي نتصدرها، فنحن خير منكم عند الله، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله مثلنا، وهذا كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام]. وهكذا تأفف قوم نوح من فقراء المسلمين، وقالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

---

(١) أخرجه الطبري (١٥/ ٥٩٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٥٧).

(٢) قرأ ابن كثير بضم الميم الأولى من (مقامًا) على أنه مصدر ميمي، أو اسم مكان، من أقام الرباعي، أي: خير إقامة أو مكان، والباقون بفتحها، من قام الثلاثي، أي: خير قيام، أو مكان قيام.

كما تأفف سادة قريش من فقراء المسلمين الذين يَلْتفُّون حول رسول الله ﷺ، وهم يقولون: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

وهكذا تقاس الأفراد، بالجانب المادي في حياتها، وتقاس الأمم بقوة اقتصادها في عالمنا المعاصر، والأمم ضعيفة الاقتصاد تسمى بالعالم الثالث، أو الدول النامية، والفقير لا يُسمع له قول، ولا يُنصت إلى منطقه، ولا يؤبَهُ بعقله وحُجته وبرهانه.

هذا المعنى الذي نعيشه، هو الذي كان موجودًا أيضا في عهد رسول الله ﷺ، فقد نزل القرآن على النبي ﷺ بالحجة والبرهان، وبالإعجاز البيِّن، وكان هذا القرآن إذا تُلي على كفار مكة من الأثرياء والمترفين أعرضوا عنه، وعن حججه، وبراهينه، وإعجازه، وقابلوا ذلك بثرائهم وتَرفِهم، وقالوا: لو كان المؤمنون خيرًا منا لكانوا أحسنَ منا حالًا بالمال والمتاع ومظاهر الحياة.

لقد كان الكفار في مكة أمثال: النضر بن الحارث، وعمرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، يعيشون في رغَد من العيش، وفي بيوت فخمة مؤثثة، وحالة حسنة، وكانت لهم نوادٍ في قرى قريش (مجلس شورى) يجتمعون فيها.

وكان المسلمون يعيشون في خشونة وضنْك من العيش، أمثال: بلال، وعمَّار، وخبَّاب، وكانت بيوتهم متواضعة، ويجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

والمعنى: وإذا تتلى على العباد آيات القرآن واضحة المعاني، قال الكافرون للمؤمنين على وجه المفاخرة أى منا أفضل منزلة وأكثر أتباعا؟ هذا هو موقف المشركين مِنْ نزول القرآن على رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ أى آيات القرآن المنزلة من عند الله، الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، وهي ظاهرة الحجة، واضحة الدلالة على صدق ما جاء به محمد ﷺ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أ نحن الأثرياء، أم المؤمنون الفقراء، أينا ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: أينا أكثر مالًا ومتاعًا؟ وأينا أحسن دِيارًا وأثاثًا؟ وأينا أحسن ناديًا؟ وأينا أكثر عُمَّارًا وروَّادًا لها؟ فنحن أكثر مالا وأولادًا وجاهًا ومتاعًا وحضارة! وهذا دليل فاسد، فيه قلب للحقائق، وسوء استنتاج، واستدلال على النتائج بالمقدمات.

والنادي: هو المكان الذي يجلسون فيه، ويجتمعون فيه، والمراد بالمقام في الآية: مكان القيام، وهو السكن والمنزل، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان].

ومَثَلُ هؤلاء القوم، كما لو أنك قارعْتَ إنسانًا وناظرْته بالحجة والبرهان، والمنطق والعقل، فيردُّ عليك قائلًا: أنا أجمل منك ثوبًا، وقَصْري أعلى من دارك. وهذا إفلاس في المناظرة؛ فإن المناظرة تقتضي إقامة الحجة أمام الحجة، وألَّا يستهين أحد الطرفيْن بالطرَف الآخر مهما كان فقيرًا، وألا ينظر إلى حالته المادية، وإنما ينظر إلى منطقه، وعقله، وحجته، وعلمه، وبرهانه، ومقدار قُرْبه من الله تعالى؛ على أن كثرة الأموال والأولاد كثيرًا ما تكون سببًا للشقاء والهلاك:

وَكَمَا أَهْلَكَ اللهُ السَّابِقِينَ يُهْلِكُ اللَّاحِقِينَ

٧٤- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا[(١)] ﴿٧٤﴾﴾

قال البيضاوي: إن المشركين لمَّا سمعوا الآيات الواضحات، وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار بما لَهُم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحُسْن حالهم؛ لقصور نظرهم[(٢)].

فردَّ الله عليهم بأن كثيرًا من الأمم التي أهلكها الله بسبب تكذيبهم لرسل الله، وكفرهم بآيات الله، كانوا أكثر منهم متاعًا وقوة وجاهًا وسلطانًا، وكما أهلك الله السابقين يُهلك اللاحقين. ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]

وفي الآية تهديد لجميع الكفار إلى قيام الساعة، وفيها بيان أنَّ ما هم فيه من زخرف ومتاع، ومن علم بظواهر الأمور، إنما هو من باب الاستدراج، وتوفية حقوقهم في الدنيا، والله ﷻ يُلْفِت أنظارهم إلى أنه يجب على الكفار جميعًا أن ينظروا إلى الأمم السالفة التي كذَّبت رسل الله، ماذا لحق بهذه الأمم؟ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؟

---

(١) قرأ قالون وابن ذكوان وأبو جعفر بتشديد الياء بلا همز، هكذا (وريًا) وقرأ الباقون بالهمز هكذا (ورئيا) وهو من رؤية العين، أي: أحسن منظرًا، بمعنى المفعول، أما القراءة الأولى فهي من الحُسْن والنضارة، وهي إما أن تكون مهموزة الأصل فأبدلت ياء وأدغمت في الياء بعدها تخفيفًا، أو تكون مصدرًا من روى يروي، والريان يكون حَسَن المنظر.

(٢) «تفسير البيضاوي» (٢/ ٢٠).

فأمة عاد كانت أكثر مالًا وأشد قوة ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؟ يقول سبحانه في بيان مصيرهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت].

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﷺ ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت].

وهكذا قال الله تعالى عن قوم فرعون حين أهلكهم: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان].

إن النوادي الفخمة، والمجامع المترفة، ومظاهر الترف والبهجة والزينة التي يفتخرون بها، ويحتجُّون بها على صحة باطلهم، لم تُغْنِ عنهم من الله شيئًا يوم لقائه، لقد تركوها في الدنيا وجاؤوا إلى الله فرادى كما خلقهم أول مرة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

فلو كان نعيم الدنيا ومتاعها، ينفع في الآخرة، لنفعَ هؤلاء المهلَكين من الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ].

فعُلِم بهذا أن الاستدال بخير الدنيا على خير الآخرة، من أفسد الأدلة، وأنه من طُرق الكفار.

سُنَّةُ اللَّهِ فِي إِمْهَالِ الْكَافِرِينَ وَإِثَابَةِ الْمُهْتَدِينَ

٧٥- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا[1] حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾﴾

ثم كشف ﷻ عن شبهة المشركين ومغالطتهم، في أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة، فأعلمهم أن ما هم فيه من نعيم في الدنيا، إنما هو إمهال من الله تعالى، واستدراج للكافر، فقد فرَّق الله سبحانه بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده، والنعمة

(١) لم يعد الكوفي لفظ (مدا) آية، وعده غيره.

الناشئة عن استدراج الكافر وإمهاله، فقال تعالى في شأن المؤمن المنعَم عليه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

وقال جلَّ شأنه في حق الكافرين: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون].

فمن كان منغمسًا في الشقاوة والضلال والغفلة، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يمدَّ له في العطاء، ويوسع عليه في الرزق؛ ليقْطع عذره، فقد أمهله الله تعالى وأمدَّ له؛ ليعود إلى رشده وصوابه، ويُقلع عن غروره وتفاخره بإنعام الله عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

ولكنه بدلًا من ذلك يزداد طغيانًا وجهلًا وغرورًا، فتكون نهايته أليمة، وعقابه وخيمًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام].

وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران].

فالمعنى: أن من كان منغمسًا في الضلالة، فرضيها لنفسه وسعى فيها، واغترَّ بإمهال الله تعالى له فركبه الغرور وازداد إثمًا، فإن الله تعالى قد أمهله، ومدَّ له في النعيم؛ حتى لا يبقى له عذر، فازداد حبًا للضلالة، عقوبة له على اختيارها على الهدى.

وعلى هذا فصيغة الطلب في ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ إخبار من الله تعالى عن سُنَّة من سُننه تعالى في خلقه، أو هو دعاء عليهم بالضلال، أي: أن الله ﷻ يأمر رسوله محمدًا ﷺ أن يدعو ربه بأن من كان من الفريقين في ضلال وطغيان وعماية عن الحق والهدى، فلْيزِدْهُ الله في ضلاله، أي: فَلْيُمْلِ له، ولْيُمْهِلْه، ويزدْ في أجَلِه؛ ليزداد في طغيانه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

فهو استدراج لهم كقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم]

وأن من كان على هدى من الفريقين فليزده الله هدى.

وهكذا فإن الله تعالى أجرى العادة بأن يُمْهِل الضالّ، ويُمْلي له في ضلاله استدراجًا، وهذه سُنَّة الله في خلقه، بأنَّ من كان في ضلاله مستمرًّا على طغيانه وكُفره عاكفًا عليه، فالله ﷻ يمهله ويزيده في طغيانه، استدراجًا له حتى يأتي أجله المحتوم ووقته الموعود، وقد علم الله منه أنه راسخ في الضلال، ثابت عليه، لا يتحول عنه، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فضلاله وفسقه هو السبب كما قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وزيغ قلبه هو السبب ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. فهم الذين زاغوا أوَّلًا.

وكُفْرُهُم هو السبب ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]. وهكذا.

فيكون المراد بالآية على هذا: هو الدعاء عليهم، وبيان أن هذا من سنة الله في خلقه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا﴾ يقينًا ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: ما توعَّدهم الله به من العذاب العاجل في الدنيا، أو بعد قيام الساعة ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا حتى يَلْقىٰ العبد ربه، وينقضي أجله ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ وهي القيامة ويكون فيها الحساب والجزاء ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذٍ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أهم أم المؤمنون؟ الذين قالوا عنهم ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، هل هم الأقل أنصارًا وأعوانًا، أم المؤمنون؟ وهل هم شر مكانًا، أم المؤمنون؟ سيرون ذلك رأي العين، وتنكشف الحقائق، ويظهر الصبح لكل ذي عينين.

ولما ذكر سبحانه أن الظالمين يستدلون على نعيم الآخرة بنعيم الدنيا، أخبر في الآية التالية أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الصالح هو عنوان السعادة وسبب الفوز والنجاة.

الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَبْقَى

٧٦- ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾

وكما أن الكفار يزدادون ضلالًا، فإن المؤمنين يزدادون هدى وبصيرة وإيمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وقال جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال أيضًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾.

وهكذا بيَّن الله سبحانه أن مظاهر الحياة من المال والمتاع إلى فناء ولابُدَّ، وأن الذي يبقى هو الإيمان والعمل الصالح، وما يقوم به العبد من الفرائض، والنوافل، والتسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير.

والهدى يشمل: العلم النافع، والعمل الصالح، من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة، وتلاوة وإحسان، الخ، فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، ويسَّره له، وسهّله عليه، ووهب له أمورًا أخرى لا تدخل تحت كسبه.

وكما أنه لا جزاء للكفار سوى النار، فإنه لا ثواب للمؤمنين سوى الجنة؛ فالأعمال الصالحة هي التي تبقى، ومظاهر الحياة هي التي تفنى، والكافر يجازَى على عمله الصالح، كبِرِّ الوالدين، والتنفيس عن المكروب، بسعة الرزق وكثرة المتاع.

وكأن سائلًا سأل: أي الأعمال يبقى نعيمها وخيرها؟ فكان الجواب: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ أي: خير جزاء يوم القيامة، وخير عاقبة، وهذا معنى: ﴿وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾.

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح إلى قتادة في قوله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والحمد لله، وسبحان الله، هن الباقيات الصالحات.

والمشهور: أن الباقيات الصالحات هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وقد ورد أن النبي ﷺ قال لأبي الدرداء ﷺ: «**خُذْهنَّ يا أبا الدرداء، قبل أن يُحال بينك وبينهنّ، فهن الباقيات الصالحات، وهن من كنوز الجنة**».

وكان أبو الدرداء يقول إذا ذَكَر هذا الحديث: لأهللنَّ الله، ولأكبرنَّ الله، ولأسبحنَّه، حتى إذا رآني الجاهل ظنني مجنونًا[١]

(١) يُنظَر في هذا: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٣٠) و«تفسير عبد الرزاق». (٢/ ١٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٣٨١٣).

وورد عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومًا: «خُذُوا جُنَّتَكُم» قالوا: يا رسول، أَمِنْ عَدُوٍّ حَضَر؟ قال: «مِنَ النار» قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: «سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وهُنَّ الباقيات الصالحات»[١].

وقد جاءت روايات في شأن الباقيات الصالحات بزيادة ونقصان عن الكلمات السابقة، فكل ما كان من هذا الباب فهو داخل فيها.

وفي الآية ارتقاء بشارة المؤمنين بالنجاة من النار، إلى بشارتهم برفع الدرجات، أي: أن الباقيات الصالحات، خير من السلامة من العذاب الذي مُني به مَنْ هُم شَرٌّ مكانًا وأضعف جندًا، وسيظهر يوم لقاء الله تعالى أن مآل المسلمين على ضعفهم، خير من مآل غيرهم على ما هم فيه من الدنيا من مال ومتاع.

مَتَاعُ الدُّنْيَا لَا يَسْتَلْزِمُ مَتَاعَ الْآخِرَةِ

٧٧- ﴿أَفَرَءَيْتَ[٢] ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا[٣] ﴿٧٧﴾﴾

يضرب الله سبحانه مثلاً لكل كافر نزلت فيه هذه الآية، وهو ينكر البعث والنشور، ويَسْخَر بما في الآخرة من نعيم، والكلام متصل بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ فقائل هذا الكلام مفتون بدنياه، ومغرور بها فقد جمع بين الكفر بآيات الله وبين أمانيه بأنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولدًا، فالآية وإن كانت قد نزلت في كافر معين، إلا أنها تشمل كل كافر زعم أنه على حق، وأنه من أهل الجنة:

وفي الصحيحين وغيرهما: أن خَبَّاب بن الأرتّ ﷺ كان حَدَّادًا (قيْنًا) يصنع السيوف

(١) «سنن النسائي الكبرى» (١٠٦١٧) والطبراني في «الصغير» (٤٠٧) والحاكم (١/ ٥٤١) والبيهقي في «الدعوات» (١١١).

(٢) قرأ الأصبهاني عن ورش وقالون وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أفرأيت) وحذفها الكسائي، وللأزرق عن ورش فيها، التسهيل والإبدال.

(٣) قرأ حمزة والكسائي بضم الواو وسكون اللام من (وُلْدًا) جمع وَلَد، والباقون بفتحهما، مفرد قام مقام الجمع، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد، وذلك في المواضع الثلاثة هنا وفي الآيتين: [٨٨، ٩١].

ونحوَها، وكان صائغًا أيضًا، فصنع سيفًا للعاص بن وائل السهمي، وذهب إليه يطلب منه حقه، فقال العاص لخبَّاب: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، قال خباب: والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث، قال العاص: وإني لمبعوث بعد الموت؟ قال: نعم، قال: فإنه سيكون لي شأن هناك، أي: مال وولد، فأتني يومئذ، فسأعطيك وأقضي لك دَيْنك[(١)].

وعن ابن عباس ﷺ أن رجالًا من الصحابة ذهبوا إلى العاص بن وائل يطلبونه في ديون لهم، فقال لهم: ألستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا، وفضة، وحريرًا، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإن موعدكم الآخرة، فوالله لأوتين مالًا وولدًا، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به[(٢)].

وهكذا فإن هذا الكافر لم يكتف بكفره، بل قال بكل تبجُّح وإصرار على الباطل، واستهزاء وتهكم بالدين الحقِّ، إنه سيُعطَى في الآخرة مثل ما في الدنيا من المال والولد.

وقد بدأت الآية بالتعجب من شأن هذا الكافر وأمثاله من كل من يجحد آيات الله، ويكفر بخاتم المرسلين، ويزعم أن الله تعالى سيعطيه في الآخرة، المال والبنين، والثروة والمتاع...، وهذا كما قال تعالى على لسانه في آية أخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] أي: وكما أنا في الدنيا صاحب مال ومتاع فسأكون في الآخرة كذلك، فسعيد الحظ في الدنيا سعيد الحظ في الآخرة، على حدِّ زعمه.

وقد أنزل الله سبحانه هذه الآية يبيِّن فيها ما يقوله الكافر تهكُّمًا وسخرية بالبعث والحساب والجزاء على وجه التعجب.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أعلمت -يا محمد- وعجبت من هذا الكافر (العاص بن وائل) وأمثالِه؟! إذ كفروا بآيات الله، وكذَّبوا بها، وقال هذا الكافر: لأعطَين في الآخرة أموالًا وأولادًا، قال تعالى:

---

(١) يُنظَر الحديث في «المسند» (٤/ ١١١) برقم (٢١٠٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري برقم (٢٠٩١، ٢٢٧٥، ٢٤٢٥، ٤٧٣٢)، (٤٧٣٣) ومسلم برقم (٢٧٩٥) و«تفسير عبد الرزاق» (٢/ ١٣) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٦٢) وقال: حسن صحيح، والبزار (٢١٢٤) والطبري (١٥/ ٦١٧) وابن حبان (٤٨٨٥) والطبراني (٣٦٥١).

(٢) «تفسير الطبري» (١٦/ ١٠١) والألوسي (١٦/ ١٢٩) والقرطبي (١١/ ١٦١) وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه.

٧٨- ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ۝٧٨﴾

يقول سبحانه في الرد على كل متبجح مغرور، يفتري على الله الكذب: ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فرأى أن له مالًا وولدًا عند الله تعالى؟! هل عرف ما في علم الله؟! وهل قرأ ما في اللوح المحفوظ، وعلم أنه سيكون صاحب مال وولد يوم القيامة؟! أم أنه اتخذ عهدًا عند الرحمن أن يُدخله الجنة، فتيقَّن من ذلك، ولا سبيل له لمعرفته إلا بأحد أمرين: المكاشفة أو المشاهدة، والاطلاع على الغيب، ولا يكون العهد عند الله إلا بالإيمان والعمل الصالح، وهذا لا إيمان له، ولا عمل يرجى له ثواب، ولا عهد له عند الله، وما دام كلٌّ من الأمرين لم يتحقق فإن ما قاله مجرد كذب وافتراء، وتقوُّل على الله تعالى.

وما ذكرتْه الآية، من عدم الاطلاع على الغيب، وعدم اتخاذ عهد عند الله بما قال، كلاهما حاصل، فينتفي هذان الأمران، ويُعلم بذلك بطلان الدعوى. قال تعالى:

٧٩، ٨٠- ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا ۝٧٩ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا﴾

قال سبحانه في الردِّ عليه وعلى أمثاله: كلَّا، ليس الأمر كما زعم هذا الكافر، فلا علم له بالغيب، ولا عهد له عند الله، وسنكتب ما يقول من كذب وافتراء على الله، فنسجل عليه قوله، ونحاسبه عليه حسابًا عسيرًا، ونزيده في الآخرة من أنواع العقوبات، وكما ازداد من الغيِّ والضلال في الدنيا، نزيده من العذاب، ونُضاعِفُه له يوم القيامة، فكان الإمداد بالمال والولد؛ بسبب كفره وفجوره، وافترائه الكذب على الله سبحانه، فتقوّله مكتوب محفوظ ليجازَى عليه ويعاقَب.

وهذه أول مرة يُذكر فيها لفظ: ﴿كَلَّآ﴾ في القرآن، فالنصف الأول من القرآن لا يوجد فيه لفظ: كلَّا، وهي إذا ذُكرت في سورة تكون دلالة على أن هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ في مكة، وهذا من باب الاستقراء والتتبع.

وكل ما خلَّفه الكافر وتركه وراء ظهره من المال والولد في الدنيا، وما كان يفتخر به، فإنه يتركه لغيره، ويرثه الآخرون، ثم يأتينا يوم القيامة فردًا وحده بلا مال ولا ولد، وهذا معنى ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي: أنّ ما كان يقوله الكافر في الدنيا من أنه سيؤتاه في الآخرة من المال والولد سنسلبه إياه، فيخرج من الدنيا خالي الوفاض، ليس معه في قبره سوى كفنه،

فإذا كان يوم القيامة فإنه سيأتينا بعد بعثه فردًا، بدون مال، ولا ولد، ولا خدم، ولا حشم، ولا منصب، ولا جاه، ولا نصير له، ولا سند.

والقرآن قد أوجز ولم يُعِدْ ما قاله الكافر من الإلحاد والتهكم على الإسلام، وما قاله عن المال والولد، واكتفى بأن الله تعالى سيحاسبه ويجازيه على قوله وفعله.

تَنَصُّلُ الْمَعْبُودِ بِالْبَاطِلِ مِمَّنْ عَبَدَهُ، فِي سَاحَةِ الْحَشْرِ

٨١، ٨٢- ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾

أي: واتخذ الكفار المشركون آلهة يعبدونها من دون الله، فقد عبدوا الملائكة، وعبدوا الجن، وعبدوا غيرهم؛ ليكونوا لهم أعوانًا يعتزون بهم، وأنصارًا ينصرونهم، وشفعاء يقربونهم إلى الله تعالى يوم القيامة على حد زعمهم.

قال سبحانه في الرد عليهم: كلَّا، الأمر ليس كذلك، فلن تكون الآلهة لهم أعوانًا ولا أنصارًا، ولن يقرِّبوهم من الله سبحانه، ولن يشفعوا لهم عنده، وإنما ستكفر هذه الآلهة بعبادتهم لها، أي: سيجحدون عبادتهم لهم وينكرونها؛ وذلك لأن المعبود يكفر بالعابد في الآخرة، أي: يكذبه، ويخاصمه، ويتبرأ منه:

١- كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فهو لا يعرف عنه شيئًا، وهو في غفلة عن عبادته وهذا معنى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: أضدادًا لهم، يقولون: ما كانوا إيانا يعبدون ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

٣- وهؤلاء الشركاء لا يملكون لمن عبدوهم قليلًا ولا كثيرًا من النفع أو الضر.

قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

٤- وعن تبرؤ المعبودين من العابدين يقول سبحانه حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣].

٥- ويقول أيضًا: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝٢٩﴾ [يونس].

٦- والمعبودون يكذبون العابدين في دعواهم أنهم عبدوهم ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦﴾ [النحل].

٧- والعابد ينكر أنه قد عبد الآلهة في الدنيا، ويُقسِم على ذلك، كما قال ﷻ حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. فهم يتبرؤون من عبادتهم، والله سبحانه يكذبهم في هذا فيقول: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنعام].

وهذا معنى ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي: ستنكر الآلهة عبادة المشركين لهم ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ينقلبون لهم أعداء.

وواو الفاعل التي في ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ ترجع إلى المعبودات التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويرجِّحه الضمير الذي بعده في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

وقيل: إن الواو ترجع إلى العابدين، وأنهم الذين يكفرون بعبادتهم لشركائهم وينكرونها.

وآيات القرآن الكريم تشير إلى أن كلًّا من العابد والمعبود يتبرأ من الآخر، ويُلقي باللائمة عليه كما في الآيات السابقة.

هذا: ولمّا لم يعتصم الكافرون بربهم، ولم يتمسكوا بحبله، بل أشركوا معه غيره، سلط الله عليهم الشياطين، تدفعهم إلى الكفر، وتسوقهم إلى المعاصي، قال تعالى:

٨٣، ٨٤- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾

ألم تعلم -أيها الرسول- أنا سلَّطنا الشياطين على الكافرين بالله ورسله، تحركهم إلى المعاصي، وتهيِّجُهم، وتُزعجهم، وتَصْرِفهم عن الطاعة، وتدفعهم دفعًا إلى ارتكاب الشهوات والشبهات والمفاسد والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ

لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وقال سبحانه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف].

والأزُّ: هو التحريك بقوة، والتحريض على فعل المعاصي.

فتتشرب قلوبهم حب الباطل ومقاومة الحق، وذلك لأن ولايتهم للشيطان جعلت له عليهم سلطانا، كما قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل].

وقال سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]

ومادام الأمر كذلك، فلا تستبطئ عقابهم ولا يضق صدرك عليهم، ولا تستعجل نزول العذاب بهم، فنحن نَعُدُّ أيامهم وأعوامهم، ونَعُدُّ أنفاسهم عدًّا، ونمدُّ لهم في النعيم وقبيح أعمالهم، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي: نُنْظِرُهم ونُؤجلهم إلى يوم القيامة:

١- كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود].

٢- وحين ينزل بهم العذاب فإنه سيحل بهم ولا يُصرف عنهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: ٨].

٣- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

٥- وقال سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق].

٦- وقال أيضًا: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

فإذا لم ينجح فيهم الإمهال وعدم تعجيل العقاب لهم، أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

الْمُتَّقُونَ وَالْمُجْرِمُونَ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى سَاحَةِ الْعَرْضِ

٨٥، ٨٦- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه عاقبة المتقين والمجرمين في يوم المحشر؛ حيث يُحشر المتقون الذين اتقوا الشرك والبدع والمعاصي، إلى الرحمن وفدًا على هيئة الرَّكْب مُعَزَّزين مكرَّمين، كما يفد الوفود على الملوك، فيلقوْنَهم بالحفاوة والتكريم، كما قال عليٌّ ﷺ: ما أرى الوفد إلا الركب يا رسول الله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم عطاشًا متوجهين إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، يعلوهم الذل والصغار، وهم في حال ظمأٍ ونَصَب، يستغيثون فلا يُغاثون، ويَدْعُون فلا يُجابون، ويستشفعون فلا يُشفع لهم، فالمتقون يفدون إلى الرحمن والمجرمون يساقون إلى جهنم:

١- جاء في الحديث عن عليّ ﷺ عنه ﷺ: **«إنهم يحشرون ركبانًا على نوُقٍ لها أجنحة ورحائل من ذهب»**[١]. يركب كلٌّ منهم ما يحب أن يركبه.

٢- وجاء في الأثر: عن أبي سعيد الأشج عن ابن مرزوق: أن المؤمن يخرج من قبره فيستقبله صاحب وجه حسن، وهيئة مضيئة، ومَظْهرٍ جميل، ورائحةٍ طيبة، فيقول له: ألا تعرفني؟ يقول: لا أعرفك، فيقول له: أنا عملك الصالح، هكذا كنت في الدنيا، حَسَن العملِ، طيِّبه، فطالما ركبتُك في الدنيا، فهلُمَّ ارْكَبني، فيركبه[٢].

٣- وفي الصحيحين وغيرهما: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يُحشر الناس على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُر بقيتهم النار، تَقيلُ معهم حيث قالوا، وتَبيت معهم**

---

(١) يُنظَر: «زوائد المسند» (١/ ١٥٥) و«تفسير الطبري» (١٦/ ٩٦) من حديث النعمان بن سعد عن عليٍّ ﷺ، عند عبد الله بن أحمد بن حنبل، ورواه مطولًا ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» برقم (٧٠).

(٢) نقله ابن كثير عن ابن أبي حاتم (٥/ ٢٦٣).

حيث باتوا، وتُصبح معهم حيث أصبحوا، وتُمسي معهم حيث أمسَوْا»[(١)].

وهذا يكون من المحشر إلى الجنة أو إلى النار والعياذ بالله.

٤- وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «يُحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفًا مشاة، وصنفًا ركبانًا، وصنفًا على وجوههم»، قيل: يا رسول الله، كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يُمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتّقون بوجوههم كل حدَب وشوك، وكل مرتفع من الأرض»[(٢)].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

والمعنى: فلا تستعجل -يا محمد- بطلب العذاب إلى الكافرين، إنما نحصي أعمارهم وأعمالهم إحصاء لا تفريط فيه ولا تأخير.

والفرق بين نهْي الله تعالى لنبيه عن استعجال نزول العذاب بالكفار هنا، وفي قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي لا تستعجل نزول العذاب بهم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [سورة الأحقاف: ٣٥]. الفرق بينهما أن العذاب المنهي عن استعجاله هنا: هو نزول العذاب الدنيوي بهم، بدليل ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

أما العذاب الذي في سورة الأحقاف فهو العذاب الأخروي، بدليل ختام الآية، وهو عن يوم القيامة، أي: أن العذاب سينزل بهم في وقت قريب. وقد فسر بعضهم نزول العذاب بهم في الدنيا، بما كان يوم غزوة بدر، بالنسبة للكفار المعاصرين لنزول هذه الآية.

والآية عامة في كل من لم يؤمن بالله ورسوله، وأنه سينال عقابه في الآخرة ولابد،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٢٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٦١) والنسائي (٢٠٨٤).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٨٦٤٧، ٨٧٥٥)، قال محققوه: حديث حسن لغيره، وأخرجه الترمذي (٣١٤٢) والطيالسي (٢٥٦٦) ويشهد للقسم الأخير منه حديث أنس في البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦).

سواء أعُذِّب في الدنيا أم لا، فوقْتُ إهلاكهم قد اقترب.

والمعنى: فلا تستعجل وقوع العذاب بهم؛ فإن الله تعالى قد حدّد لهم أجلًا معدودًا، فإذا انتهى ذلك الأجل جاءهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت].

أما المجرمون الذين ماتوا على الكفر والشرك فإنهم يساقون إلى النار سَوْقًا شديدًا وهم مشاة عطاش، كما تساق الإبل إلى الحياض، وموارِدِ الماء، وهي عطشى، يبحثون عن الماء فلا يجدونه.

شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٨٧- ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾

وهؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد، ولا يملك أحد أن يشفع لهم، إنما يملكها المؤمنون الذين لهم عهد الإيمان بالله ورسله ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يملك كافر أن يشفع لغيره، ولا أن يشفع فيه غيره ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه]. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]

وإنما يملك الشفاعة المؤمنون الذين رضي الله عنهم وقبل شفاعتهم، فلهم عند الله عهد وحَظْوة بمقتضى إيمانهم وعملهم الصالح ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ بذلك، وهم المؤمنون بالله ورسله.

فالمجرمون لا يستحقون أن يَشْفع فيهم شافع يخلِّصهم مما هم فيه من الهول والعذاب، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

وقال أيضًا: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

ومن باب أولى، فإن المجرمين لا يشفعون في غيرهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم].

وقال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فالكافر لا يشفع لغيره، ولا غيره يشفع له، وشفاعة النبي ﷺ تكون لأهل الكبائر من أمته.

والعهد المذكور في الآية هو توحيد الله تعالى، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، فهو الإيمان والعمل الصالح.

وجاء في الحديث: عن ابن مسعود ﷺ، أن النبي ﷺ قال لأصحابه ذات يوم: **«أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدًا»**؟ قالوا: وكيف ذلك؟ قال: **«يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدُك ورسولك، وإنك إن تكِلْني إلى نفسي تُقرِّبني من الشر، وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عهدًا تُوفِّينيهِ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، فإن قال ذلك طُبع عليه بطابَع، ووُضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الذين كان لهم عند الله عهد فيدخلون الجنة»**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من جاء بالصلوات الخمس يوم القيامة قد حافظ على وضوئها، ومواقيتها، وركوعها، وسجودها، لم ينقص منه شيئًا، جاء وله عند الله عهد ألَّا يعذبه، ومن جاء قد نقص منها شيئًا فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه»**(٢).

الْكَوْنُ كُلُّهُ يَفْزَعُ مِنْ شِرْكِ ابْنِ آدَمَ بِاللهِ تَعَالَى

٨٨، ٨٩- ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾

ومهمة سورة مريم بالدرجة الأولى غرسُ عقيدة التوحيد في نفوس الناس، ونَفْيُ الشريك والولد عن الله سبحانه، ففي مقدمة السورة تحدثت عن الأسطورة والخرافة التي

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٢٩) وابن أبي حاتم والطبراني في «الكبير» والحاكم وصححه (٢/ ٣٧٧) وابن مردويه، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٤): فيه المسعودي وهو ثقة ولكنه اختلط، وبقية رجاله ثقات.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» برقم (٤٠١٢).

لدى النصارى المشركين، وهي نسبة عيسى عليه السلام إلى الله ﷻ، وفي نهايتها تُعنى السورة أيضًا بهذا الأمر في هذه الآيات التي معنا.

والمشركون الذين يقولون: اتخذ الله ولدًا، هم: اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، والنصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، والمشركون من العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله، وهؤلاء جميعًا قالوا: اتخذ الرحمن ولدًا.

لقد جئتم أيها الضالون المضلون بقولكم هذا، شيئًا فظيعًا عظيمًا منكرًا، تقشعر له الأبدان، **فالإِدُّ**: هو الأمر الشنيع الفظيع، والداهية الكبيرة، فهو شيء مفترى، وجُرم عظيم، وأمر شنيع، وداهية عظيمة.

رُوِي أنه أول ما قيلت هذه المقالة: شاكَ الشجر، واستعَرتْ جهنم، وغضبت الملائكة من هذا المنكر العظيم والمقالة الكبيرة. قال تعالى:

٩٠- ﴿تَكَادُ[1] ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ[2] مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾

تكاد السموات تتصدع من فظاعة هذا القول، والأرض تتشقق، والجبال تسقط سقوطًا شديدًا، غضبًا لله تعالى الذي نسبوا له الولد.

جاء في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن الجبل ينادي الجبل باسمه ويسأله: هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله تعالى، فيقول: نعم ويستبشر، قال راويه -عون بن عبد الله: إن الجبال للخير أسمع، أفتسمع الزور والباطل، ولا تسمع غيره؟![3].

---

(١) قرأ نافع والكسائي بياء التذكير في (يكاد)، والباقون بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وحفص والكسائي وأبو جعفر بتاء بعد الياء مع فتح الطاء وتشديدها في (يتفطرن)، على أنه مضارع تفطر، بمعنى: تشقق، وقرأ الباقون بنون ساكنة بعد الياء، مع كسر الطاء مخففة هكذا (ينْفَطِرْن) مضارع انفطر، بمعنى: انشق.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (١١٧٦، ١١٨٥) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (١٠٧٩، ٨٥٤٢) من طريق سعيد بن منصور عن سفيان، عن مسعر، عن عون، عن ابن مسعود، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: (١٠/ ١٧٩) رجاله رجال الصحيح، وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٣٣) وابن أبي شيبة (١٣/ ٣٠٥) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٧، ٥٣٨).

وعن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنه يشرَك به، ويُجعَل له ولد، وهو يعافيهم، ويدفع عنهم، ويرزقهم**»[١].

قال ابن عباس ﷺ: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولدًا[٢].

تكاد السموات تتشقق، والأرض تتصدع، والجبال تسقط من فظاعة هذا الجرم العظيم، الذي يهدم أركان الدين وقواعده؛ لأن هذه الكائنات فُطِرت على التوحيد، فعجبت من فَجَرة بني آدم إعظامًا لله سبحانه، فلو أن جميع الكائنات وُضعت في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، لرجحت بهن كفة لا إله إلا الله، وتفطُّر السماء: انشقاقها، وهو مرادف لتشقق الأرض، وجيء به لدفع ثقل تكرار اللفظ، والهدُّ: هو الهدم والتفرق السريع للجبال، وكل ذلك بسبب:

٩١، ٩٢- ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾

أي: أن هذا كله حدث بسبب دعواهم الولد لله سبحانه، وهي أعظم فرية افتراها الإنسان.

وهذا نفي على جهة التنزيه لله تعالى، أي: ما يليق ولا يصح بالرحمن اتخاذ الولد، ولا أن يوصف به، فهو الغني سبحانه، وهو الخالق الذي لا شبيه له، فكيف يكون له ولد؟ لأن اتخاذ الولد يكون عن حاجة ونقص، ويكون الولد من جنس الوالد، والله تعالى لا شبيه له ولا نظير، والله هو الغني الحميد عن الشريك والمعين والولد، وجميع الخلق عبيد لله سبحانه.

٩٣- ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾

أي: إن كل من في السموات والأرض من الملائكة، ومن إنس وجن إلا آتي الرحمن يوم القيامة خاضعًا ذليلًا مقرًّا بعبوديته لله تعالى، والعبودية تنافي البنوة؛ لأن بنوة الإله،

---

(١) «المسند» (٤/ ٤٠٥) برقم (١٩٥٨٩) والبخاري برقم (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) ومسلم برقم (٢٨٠٤).

(٢) أخرجه الطبري بسند حسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (١٥/ ٦٣٥) وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق (٤/ ٢٤٩).

جزء من الإله، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] أي: أنه لو كان لله تعالى ولد، لَعَبَدْتُه قبلكم، فاتخاذ الولد مستحيل على الله تعالى.

قال سبحانه عن عباده المنزهين له: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

وتكرار اسم الرحمن أربع مرات في هذه الآيات يشير إلى ثبوت وصف الرحمة لله تعالى، وأن هذه الرحمة تشمل كل مخلوق، وأن كل مخلوق مفتقر إليها، ولا يتحقق ذلك إلا بالعبودية لله تعالى، ولو كان بعض المخلوقين ابنًا لله تعالى لاستغنى عن رحمتِه؛ لأن اتخاذ الابن يتطلب برَّ الابن بأبيه، ورحمته له، وهذا ينافي عموم الرحمة للخلق. قال تعالى:

٩٤، ٩٥- ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

والله سبحانه قد أحاط علمُه بالأولين والآخرين، فَعَلِمَ عددُهم منذ خلَقهم إلى يوم القيامة، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم، وعلم حركاتهم وسكناتهم، لا يخرج أحد عن علمه تعالى وإحاطته، وكلهم في قبضته، وما منهم من أحد يدَّعي أنه شريك لله تعالى، ولا أنه ابن له سبحانه.

لقد أحصى الله أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، وعدَّهم عدًّا، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم، وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته.

وكل فرد من الخلق يأتي ربه يوم القيامة وحيدًا فريدًا بلا مال، ولا ولد، ولا متاع، ولا مُعين، ولا نصير، بل يأتي فردًا أعزل ليس معه ما يُجيره من عذاب الله تعالى إن كان قد مات على الشرك والكفر.

مَنْ أَحَبَّهُمْ اللَّهُ حَبَّبَ النَّاسَ فِيهِمْ

٩٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾

ولما ذكر سبحانه أحوال المجرمين أتبعه بذكر أحوال المؤمنين، وذلك أنه لَمَّا خُتمت الآية السابقة بأن كل أحد من الخلق يأتي ربه يوم القيامة فردًا، بلا مال، ولا جاه، ولا ولد، فلا يجد المشرك من يدفع عنه عذاب الله يوم لقائه، وهذا يُشعر بغضب الله تعالى عليه.

أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين الصالحين، وبيان أنهم على العكس من حال المشركين، حيث سيكونون في مقام المودة، والمحبة، والتبجيل من الملائكة، والناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]. وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩].

والمعنى: أن الله تعالى سيُحْدِث لهم مودة ومحبة في قلوب العباد، وذلك في مقابلة المجرمين، فالله سبحانه يزرع المحبة والمودة لعباده المؤمنين في قلوب الصالحين والملائكة من خلقه، فيحبهم الله تعالى ويحببهم إلى الناس، وهذا من نعم الله تعالى على من جمع بين الإيمان والعمل الصالح، وأن لهم محبة في الأرض ومحبة في السماء:

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أحب فلانًا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا، قال: فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإن الله إذا أبغض عبدًا دعا جبريل، فقال: يا جبريل، إني أبغض فلانًا فأبغِضْه، فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه، قال: فيبغضه أهل السماء، ثم توضع له البغضاء في الأرض»**(١).

وقال قتادة: ما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

وقال عثمان رضي الله عنه: ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًّا إلا كساه الله عز وجل رداء عمله.

فالقبول الذي يضعه الله في الأرض هو لمن يحب من عباده.

أخرج ابن جرير عن عبد الله بن عوف أنه لما هاجر إلى المدينة وَجَدَ في نفسه على

---

(١) «المسند» (٢/ ٤١٣) برقم (٢٢٢٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٧) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٩، ٦٠٤٠، ٧٤٨٥) و«سنن الترمذي» برقم (٣١٦١) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٦، ١٠٤٠).

فراق أصحابه بمكة، منهم: شيبة، وعتبة ابنا ربيعة، وأمية بن خلف، فأنزل الله الآية إلى ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ قال: محبة في قلوب المؤمنين[1].

وقال عثمان بن عفان: إن هذه الآية بمنزلة قول النبي ﷺ: **«من أسرَّ سريرة ألبسه الله رداءها»**[2].

وفي الأثر عن أبي هريرة: **«ما من عبد إلا وله في السماء صِيتٌ، فإن كان حسنًا وُضع في الأرض حسنًا، وإن كان سيئًا وُضع كذلك»**[3].

إِيذَانٌ بِانْتِهَاءِ السُّورَةِ

٩٧- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ[4] بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾

فإنما يسرنا هذا القرآن، وأنزلناه بلسان عربي مبين، وجعلناه سهلًا يسيرًا لمن تدبره وحفظه وقرأه؛ لتبشر به المتقين من أمتك، وتخوِّف به قومًا معاندين شديدي الخصومة والجدال من المائلين عن الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ٢٢]. وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان].

وقد نزل هذا القرآن بأفضل اللغات وأفصحها، وهي من أسباب فضله على غيره من الكتب، وتسهيل حفظه، وفهمه وتدبره، والعمل بما فيه، وهو كالبحر يغترف منه كل إنسان بمقداره.

ومهمته: البشرى للمؤمنين المستجيبين له، الممتثلين أمره، المجتنبين نهيه، والإنذار للكفار المجرمين ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أي: قومًا أشداء الخصومة بالباطل، معاندين للحق.

وفي الحديث: عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: **«أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصيم»**[5].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦/ ١٠١) والقرطبي (١١/ ١٦١).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٥/ ٣٤).

(٣) الحكيم الترمذي (٢/ ٢٢٦). وانظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧٥) ج٥ ص(٣٤٥).

(٤) قرأ حمزة بفتح التاء وإسكان الباء مخففة من (لِتَبْشُرَ) من البشر وهو البشارة، وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الباء وكسر الشين مشددة (لِتُبَشِّرَ) مضارع بشَّر المضعف، لغة أهل الحجاز.

(٥) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٥٧، ٧١٨٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٨).

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة].

وكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: بلِّغ -أيها الرسول- ما أُنزِل إليك من ربك ولو كره المشركون ما فيه من إبطال دينهم، وإنذارهم بسوء العاقبة، فما أنزلناه عليك إلا لتبشر به الصالحين، وتخوِّف به المجرمين، ولا تعبأ بما يحصل لك من الإيذاء والتكذيب كمن يقولون لك: لو كففتَ عن شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه عقولنا وآرائنا لاتَّبعناك، فقد جاء هذا القرآن بالبشرى لمن أقبل عليه واستجاب له، وبالإنذار لمن أعرض عنه ولم يستجب له.

وفي الآية تعريض بأن من كفر بالقرآن إنما كفر به عن عناد وجحود ومكابرة، فالألَدُّ الخصم: هو الدائم في الخصومة المستمر على شدته وعناده، قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

خِتَامُ السُّورَةِ

٩٨- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

ثم ختم الله السورة بموعظة بليغة فذة جامعة؛ لأن الناس إذا علموا وأيقنوا أنه لابد من زوال الدنيا، خافوا سوء العاقبة، فكانوا إلى ترك المعاصي أقرب

وطريق ذلك هو النظر إلى الأمم السابقة، فكثيرًا ممن سبق هذه الأمة أهلكهم الله، فلم يبق لهم أثر، وكذلك الشأن بكفار هذه الأمة، يهلكهم الله كما أهلك من قبلهم.

وفي هذا تهديد ووعيد لكل من كذَّب بخاتم الرسل ﷺ ولم يؤمن بعموم رسالته للخلق أجمعين، فسنة الله تعالى لا تتخلف كما قال تعالى في الظالمين: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

فكم أهلك الله قبلهم من قرن، وما عليهم إلا أن ينظروا إلى أمة عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم فرعون، وغيرهم من الأمم التي أبادها رب العالمين.

فانظر -أيها المسلم- وتلفَّت وتأكد هل تجد منهم من أحد على وجه الأرض؟ أو تسمع

من أخبارهم قليلًا أو كثيرًا أو طرْفًا خفيًّا ضعيفًا ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾؟ هل تراه بعينك؟ هل تلمسه بيدك؟ هل تسمع له صوتًا؟ هل بقي له أثر؟ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أي: صوتًا خفيًّا؟ كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج]. إنهم في سكون عميق وصمت رهيب.

وإذا كان الأمر كذلك، فعليكم أن تأخذوا العبرة، وتنتفعوا بالدروس التي سبقت من الأمم التي أتى الله عليها؛ لأنها كذَّبت رسل الله، لقد أُهلكوا وأُبيدوا، وخلَتْ منهم الديار، وأوحشت منهم المنازل، وكذلك نفعل بمن كان مثلهم.

قال الحسن: بادُوا جميعًا، فلم يبق منهم عين ولا أثر، فقد خيَّم الصمت عليهم، وكتم الموت أنفاسهم، فلا صوت ولا حركة، فسبحان الحي الذي لا يموت.

تم تفسير (**سورة مريم**) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ طَهَ (٢٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (طه) هي السورة العشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والأربعون في ترتيب النزول.

وهي سورة مكية: نزلت بعد سورة (مريم)، وقبل سورة (الواقعة) في السنة الخامسة من البعثة.

وعدد آياتها في المصحف الكوفي مئة وخمس وثلاثون آية(١).

وهي ألف وست مئة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف ومئتان وأربعون حرفًا.

وشهرتها: سورة (طه)، وتسمَّى: سورة (موسى)، أو سورة (الكليم)؛ لأن معظم السورة تحدثت بالتفصيل عن قصة موسى ﷺ، بدءًا من رسالته، بعد قضائه الأجل في مدْين، إلى عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي بعد خروجهم من مصر، بما في ذلك موقفُ الجدل بين موسى وفرعون، والمباراة بين موسى والسحرة.

وقد ذُكرت قصة موسى ﷺ في حلقات موزعة في أكثر من عشر سور في القرآن الكريم، منها سور: (البقرة، والمائدة، والأعراف، ويونس، والإسراء، والكهف، والشعراء، والنمل، والقصص، والذاريات، والنازعات)، وهي حلقات يُكَمِّل بعضها بعضًا، وليس فيها تكرار.

فقصة ولادة موسى ورضاعه، وقَتْله القبطي، وخِدْمته لصِهْرِه عشرة أعوام مهرًا لابنته، ذُكِرتْ هذه القصة في سورة القصص فقط.

وقصة الرسالة، والعصا، واليد، والسحرة، وعبادة بني إسرائيل للعجل، ذُكرت أكثر من مرة، في أكثر من سورة، بأساليب تناسب مقام السورة، وسياق الكلام، والعبرة المطلوب الاستفادة منها في كل مقام بإيجاز، أو إطناب.

وقد اعتنى القرآن بها؛ لأنها تشبه السيرة النبوية في كثير من مراحلها.

---

(١) وعند أهل المدينة ومكة: مئة وأربع وثلاثون آية، وعند أهل الشام: مئة وأربعون آية، وعند أهل البصرة: مئة واثنتان وثلاثون آية، وفي العدد الحمص مئة وثمان وأربعون آية.

وبعد هذه المقدمة من السورة، تأتي حلقة طويلة من قصة موسى عليه السلام، وكأنّ الله سبحانه يُعِدُّ رسوله محمدًا ﷺ؛ ليتحمل أعباء الرسالة، ويقول له: لك فيمن سبقك من الرسل أسوة، فتأسَّ بهم، وانظر ماذا فعل موسى عليه السلام مع قومه، وكيف واجه فرعون على جبروته وطغيانه، وكيف لاقى من المشقة والعنت والأذى في تبليغ الدعوة ما لاقى، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ كي يحتسب ويصبر، ويتحمل ما يجده من أذى قريش، وليتأسى به الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

وهذه الحلقة من قصة موسى عليه السلام في سورة طه، تُذْكَر بإطناب وإسهاب، وتبدأ من نزول الرسالة على موسى عليه السلام، وتنتهي بعبادة بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، ثم تختم السورة بحديث يَرْوِي مشاهد من يوم القيامة، ومصير أهل الضلال وأهل الهدى يوم لقاء رب العالمين، وفي ثنايا ذلك نبذة يسيرة عن قصة آدم وحواء عليهما السلام.

وتَبدأ هذه السورة، وتُختم ببيان وظيفة النبي ﷺ ومهمته، وبيان التكاليف التي أُمر بها، وأن هذه الرسالة لم تَنْزل عليه ﷺ ليشقىٰ بها، وإنما مهمته هي البشرى والإنذار، والدعوة والتذكرة والبلاغ، أما الهداية فهي من الله سبحانه، المهيمن على هذا الكون وخالقه، وخالق العباد جميعًا، ورازقهم ومدبر أمرهم.

هذا: ويمكن **تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: يخاطب الله تعالى فيه النبي ﷺ؛ ليشُدَّ أزْره، ويُقوِّي رُوحه في مواجهة المكذبين لدعوته، ويرشده إلى وظيفته التي اصطفاه لها، وفي هذا المقطع تنويه بشأن القرآن، وأنه نزل لهداية القابلين للهداية، وفيه إثبات أن رسالة محمد ﷺ أعمُّ وأشمل من رسالة أعظم رسول قبله شاع ذكره في الناس، فضرب الله المثل لنزول القرآن على محمد ﷺ بكلام الله تعالى لموسى عليه السلام، وهذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثامنة منها.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية الثامنة والتسعين، وهو عن بَسْطِ قصة نشأة موسى ﷺ ووحي الله إليه، ونَصْرِه على فرعون بالحجة والمعجزة، ونجاة موسى وقومه بإخراجهم من قبضة فرعون، وإيمان السحرة، وصناعة السامري للعجل، وتنتهي القصة بإحراق العجل وإلقائه في اليمِّ.

وفي هذا تعريض بأن رسالة محمد ﷺ ستصير إلى ما صارت إليه رسالة موسى ﷺ من النصر على مُعانديه ونشْرِها في الآفاق.

والمقطع الثالث: يبدأ من الآية التاسعة والتسعين إلى نهاية السورة، وفيه وعيد لمن أعرض عن القرآن، ولم ينتفع بمواعظه وأمثاله، ثم تذكُر ما أعده الله لهؤلاء المعرضين من عقاب مؤلم، إلى جوار بيان ما في يوم القيامة من مشاهد وأهوال، وتُذكِّر السورة بعداوة الشيطان للإنسان، وموقفه من آدم أبي البشر.

وتختم السورة بما بدأتْ به من خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ وتحديد معالم الرسالة له، وعدم التطلع إلى ما متَّع الله به الآخرين من زينة الحياة.

وفي النهاية يكون انتظار العقبى؛ ليُعلم مَن أصحابُ الصراط السوي ومن اهتدى.

قصة إسلام عمر ﷺ:

وقد نزلت سورة (طه) قبل إسلام عمر بن الخطاب ﷺ؛ لما رواه الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته[1] أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يُسلم شديد العداوة للإسلام، وأنه قد خرج يومًا متوشّحًا سيفه يريد قتل النبي ﷺ فلقيه في الطريق نُعيْم بن عبد الله، قال: إلى أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمدًا هذا الصابئ، الذي فرَّق أمر قريش، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها فأقتله، قال له نُعيْم: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، إذا أنت قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟ قال: ومن هم أهل بيتي؟ قال: ختنك -والختن: هو زوج الأخت- وابن عمك، سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة أختك؛ فإنهما والله قد أسلما، وتبعا دين محمد، فعليك بهما، فرجع عمر إليهما، وبالقرب منهما سمع صوتًا خفيًا، وكان خبَّاب بن الأرت، يقرأ من صحيفة فيها صدر سورة (طه)، فلما سمعوا صوت عمر، اختبأ (خبَّاب) في غُرفة لهما، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فوضعتْها تحت فخذها، فلما دخل عمر قال: ما هذه الهمهمة -أي: ما هذا الكلام الخفي- الذي سمعت، فأنكرا، فقال: لقد أُبلغتُ أنكما تبعتما محمدًا على دينه.

---

(١) وهو عند ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ٢٦٧) والحاكم (٤/ ٥٩) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢١٩) وغيرهم.

ثم ضرب ابن عمه وأخته حتى شجها، فقالا: والله قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، وتبعنا محمدًا، فاصنع ما بدا لك، قال: فأرني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفًا، أَنْظر ما جاء به محمد، قالت: إننا نخشى عليها منك، فأقسم بآلهته أن يردها عليهم، وألا يمسها بسوء، فلما قال ذلك، طمِعتْ في إسلامه، فقالت له: إنك مشرك نجس، ولا يقرب هذه الصحيفة إلا طاهر، فذهب واغتسل، ثم جاء فأعطتْهُ الصحيفة، فقرأ فيها صدر سورة (طه)، فقال: ما أحسن هذا الكلام! وما أجمله! فلما سمع خبَّاب هذه المقالة وهو مختبئ، تجرَّأ وخرج، فقال: إني والله لأرجو أن يكون الله سبحانه قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإني سمعته بالأمس وهو يقول: **«اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبهما إليه عمر»**[1] فالله الله يا عمر، فقال عمر: يا خباب، أين محمد؟ دُلَّني عليه، فجاء إلى النبي ﷺ، وأسلم وحسن إسلامه ﷺ، وكان هذا بسبب قراءة عمر ﷺ لأوائل سورة طه.



(١) جامع الترمذي برقم (٣٦٨١) عن ابن عمر ﷺ وقال: حديث حسن صحيح غريب من (اللهم أعز الإسلام..) وصححه الألباني برقم (٢٩٠٧) وفي مشكاة المصابيح (٦٠٣٦) التحقيق الثاني وصححه ابن حبان (٦٨٨١) وانظر المسند برقم (٥٦٩٦) من (اللهم أعز الإسلام..) قال محققوه: خارجة بن عبدالله الأنصاري، ضعفه أحمد والدار قطني والذهبي وقال ابن معين وابن عديّ: لا بأس به، وقيل: غير ذلك، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

التَّنْوِيهُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ

١-٣- ﴿طه[١] ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ[٢] لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾

بدأت السورة بحرفين من حروف الهجاء هما: الطاء، والهاء، وهما من الحروف الهجائية المقطعة التي افْتُتِحَت بها بعض أوائل السور في القرآن الكريم، والتي يُرجَّح أنها نزلت في مقام التحدي والإعجاز.

وقد افتتحت السورة بملاطفة النبي ﷺ بأن الله تعالى لم يُرِد من إرساله وإنزال القرآن عليه أن يشقى بذلك، أي: تصيبه المشقة وشدة النصب، سواء أكان من كثرة العبادة، أمْ مِنْ حرصه على إيمان قومه.

وفي هذا إشارة إلى عِظَم ما يطّلع به النبي ﷺ من القيام بأعباء الرسالة، وتأهيله ليكون من أولي العزم من الرسل، وأن يذّكر بهذا القرآن من يخاف لقاء الله ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ومما ورد في **أسباب النزول** ما جاء:

١- عن مقاتل، قال: قال أبو جهل، والنضر بن الحارث، للنبي ﷺ: إنك لتشقى بترك ديننا، وذلك لِمَا رأياه من طول عبادته واجتهاده، فأنزل الله الآية[٣].

٢- وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك، قال: لما نزل القرآن على النبي ﷺ قام هو وأصحابه فصلّوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله تعالى هذا القرآن على محمد إلا ليشقى

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت بدون تنفس على الطاء والهاء من (طه)، على أنها حروف مقطعة، والباقون بعدم السكت، وأمال الطاء والهاء شعبة وحمزة والكسائي وخلف، وأمال الهاء وحدها ورش وأبو عمرو، والباقون بفتحهما. وأمال كل رؤوس الآي في هذه السورة حمزة والكسائي وخلف، وأمال أبو عمرو ما كان منها من ذوات الراءات، وقلل ما عدا ذلك. أما ورش فقلل جميع رءوس الآي فيها.

هذا: وقد عدا الكوفي (طه) آية، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (القرآن) إلى الراء، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بعدم النقل.

(٣) «زاد المسير» (٥/ ٢٦٩) و«تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧١).

به، فأنزل الله تعالى ﴿طه ۝١﴾ يقول: يا رجل ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾[١] ومعنى كلمة طه بالنبطية: يا رجل[٢].

٣- وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى، فأنزل الله الآية[٣].

٤- وأخرج عبد بن حميد في تفسيره، وابن المنذر، عن الربيع بن أنس قال: قالوا: كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رِجْل ورفع الأخرى، فأنزل الله (طَهْ) يعني: طأ الأرض يا محمد بقدميْك ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾[٤].

٥- وأخرج ابن مردويه عن عليٍّ ﷺ قال: لما نزل على النبي ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل]. قام الليل كله حتى تورمت قدماه، فجعل يرفع رِجْلًا ويضع رِجْلًا، فهبط عليه جبريل، فقال: (طَهْ) يعني: طأ الأرض بقدميك يا محمد ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ وأنزل ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾[٥] [المزمل: ٢٠].

٦- وأخرج ابن مردويه، وابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس ﷺ قال: قالوا: لقد شقي الرجل بربه، فأنزل الله الآية[٦].

٧- وقيل: إن قريشًا نظرت في شظف عيش النبي ﷺ مع كثرة عبادته، فقالوا: إن محمدًا مع ربه في شقاء[٧].

---

(١) الواحدي ص (٢٥٥) والسيوطي ص (١٨١) و«تفسير الطبري» (١٦/ ١٠٣).

(٢) جاء ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين كما في «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧١) و«الدر المنثور» (١٠/ ١٥٥) والطبري (١٦/ ٥) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٧٢).

(٣) نسبه السيوطي في «الدر المنثور» إلى ابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» برقم (١٤٩٧) وابن عساكر (٤/ ١٤٤).

(٤) وأخرجه البزار بسند حسن عن عليٍّ برقم (٩٢٦)، وانظر: «مجمع الزوائد (٧/ ٥٦) و«الشفا» للقاضي عياض (١/ ٥٦) و«تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٤٨) و«تفسير ابن كثير» للآية.

(٥) يُنظَر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣٤٨) و(طَهْ) بسكون الهاء وردت في قراءة شاذة.

(٦) «زاد المسير» (٥/ ٢٦٩) والطبري (١٦/ ٥).

(٧) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٤٠).

وما قيل من أن (طه) اسم للنبي ﷺ ورد فيه أثر ضعيف، لم يصح عن رسول الله ﷺ.

وعلى هذا فإن (طه) معناها: يا رجل، والمراد بالرجل: محمد ﷺ وأن هذا قد ورد في بعض لهجات العرب.

ولذا فقد قيل: إن معنى (طه) طأ الأرض بقدميك يا محمد،

وهكذا فإن النبي ﷺ كان يتحمل من المشقة في الصلاة، حتى تتورَّم قدماه، ويحتاج إلى الترويح بينهما، فقيل له: طأ الأرض بقدميك، ولا تتعب نفسك؛ حتى لا تحتاج إلى هذا الترويح.

فقد صح أن النبي ﷺ كان يصلي حتى تتورم قدماه، وكان يقف على صدر قدميه، وكان يقف على قدم ويرفع أخرى، كما جاء عن الربيع بن أنس: وربما ربط نفسه بحبل؛ كي لا ينام، وحين يأخذه النوم يستيقظ ويشدُّ هذا الحبل، فأنزل الله تعالى يقول له: طأ الأرض بقدميك، ما أنزلتُ عليك هذا القرآن لتشقى به[١] ولتتعب نفسك وتُحمِّلها فوق الطاقة، وتُرهقها في أداء العبادة؛ فإن الله تعالى قد أراد لك به خيرًا كثيرًا، كما ثبت في الصحيحين: من حديث معاوية أن النبي ﷺ قال: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»**[٢].

وفي الحديث القدسي: عن ثعلبة بن الحكم: يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة، إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: **«إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم، إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي»**[٣].

ومن جهة أخرى فقد كان ﷺ حريصًا على هداية القوم، يأسف ويحزن كثيرًا لتكذيبهم وعدم إيمانهم، فقال الله سبحانه له: إن مهمتك هي الدعوة والتذكير، والتبشير والإنذار ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا رسولنا هذا ﴿ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ به في طاعتك وعبادتك، فشريعة الإسلام سمحة سهلة يسيرة، ليس فيها عسر ولا مشقة، وهي غذاء للقلوب والأبدان والأرواح،

---

(١) أورده القاضي عياض في كتابه «الشفا بحقوق المصطفى» (١/ ٢٦) عن أنس بن مالك من طريق عبد بن حميد في تفسيره.

(٢) البخاري برقم (٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٣١٢) ومسلم برقم (١٠٣٧).

(٣) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٨٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٦): رجاله موثقون.

وهي تأخذ بيد العبد إلى سعادة الدارين، وما أنزلنا عليك - أيها الرسول - هذا القرآن، لتشقى به في عبادتك، ولا لتشقى به مِنْ أَسَفِكَ وحُزْنك على من لم يؤمن مِنْ أمتك.

فلا تُجهد نفسك -أيها الرسول- همًّا وغمًّا؛ بسبب إعراض المشركين عن دعوتك، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف]. وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

وإنما أنزلنا عليك هذا القرآن؛ لتسعد بنزوله، ولتبلِّغ للناس آياته، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فعليك البلاغ وعلينا الحساب.

وقد أنزل الله تعالى عليك هذه الرسالة؛ لتكون أسعد بني آدم في الدنيا والآخرة، فتحظى بأعلى المراتب في جنات النعيم.

وفي هذه الآية ثلاث **توجُّهات للمفسرين**:

أولها: نهي النبي ﷺ عن إجهاد نفسه في العبادة، فقد كان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه.

ثانيها: أنها ردّ على المشركين الذين قالوا: إن محمدًا يشقى بسبب تركه لديننا، واتباعه لهذا الدين الجديد.

وثالثها: أنها تُواسي الرسول ﷺ وتُسلِّيه بسبب فَرْطِ أسفه على كفر الكافرين.

والآية تتسع لهذه المعاني الثلاثة وهي إلى الأول أقرب؛ لأن الآية التي تليها ترشح هذا المعنى.

لكن أنزلنا هذا القرآن تذكرة وموعظة، ودعوة وبيانًا لمن يخاف عقاب الله تعالى بأداء الفرائض واجتناب المحرمات، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، إنه تذكرة ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويخاف عقابه.

وبعض الناس مهما سمع مِنْ وَعْظ وحِكَم، وقرآن وحديث، فإن قلبه مقفل والعياذ بالله تعالى.

قال بعض الكفار؛ كالنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة، والمطعِم بن جبير، وأبي جهل، حينما رأَوُا النبي ﷺ يتعبد الليالي الطوال، ويُتعب نفسه في العبادة، قالوا: إن

محمدًا لَيشقى بترك ديننا[١].

والمعنى: ما نزل هذا القرآن على محمد ﷺ ليشقى به، وليكون عليه عناء ومشقة بهذا التهجد وهذا القيام، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾.

ومادام الأمر كذلك فامض في طريقك، وبلِّغ دعوة ربك، ولا تُتعِب نفسك لكُفْرِ الكافرين؛ فإن الهداية من الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وقال أيضًا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات].

وقال ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى]

ثم بيّن سبحانه في الآية التالية أن هذا القرآن تنزيل من خالق الأرض والسماء.

مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ

٤، ٥- ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝٤ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾

إن التوحيد كامن في النفوس، مستقر فيها بالفطرة، والشرك منافٍ لها، وهذا القرآن تذكير بهذه الفطرة، وتذكير بملة إبراهيم الحنيفية السمحة، ومن يخشى الله تعالى هو المستعد للتأمل والنظر، وهو الذي ينتفع بالذكرى فيهتدي، وهذا القرآن ليس كما يقول عنه الكفرة، فهو ليس بسحر، ولا شعر، ولا كهانة، ولا أساطير الأولين، إنما هو تنزيل ممن خلق هذا الكون بعالَمَيْهِ: السفلي، والعلوي وما فيهما وما بينهما، فهو سبحانه خالق المخاطبين بالقرآن، وخالق ما هو أعظم منهم كالسموات والأرض، وكثيرا ما يقرن القرآن بين الخلق والأمر، كما قال تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقال ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]

فالخالق هو الآمر الناهي، وليس على الخلق أمر ولا نهي إلا ممن خلقهم، وأيضا فإن الخالق هو المدبر لشؤون الخلق، فهو سبحانه الخالق المدبر الآمر الناهي.

والمعنى: إن هذا القرآن تنزيل من خالق الأرض، ومبدع الكون، ورافع السماء بلا

---

(١) يُنظَر: «أسباب النزول» للواحدي بدون سند.

عمد، وَوَصْفُ السموات بالعلا، دليل على عظَمة قدرة مَنِ اخترعها.

ويصح أن يكون ﴿تَنزِيلًا﴾ مفعول لأجله، أي: ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة، أي: لأجل التذكرة لمن يخشى الله ويخاف عقابه.

والتذكرة هي الموعظة التي ترقُّ لها القلوب وتلين، فتمتثل الأوامر، وتجتنب النواهي، وخص بالتذكرة من يخشى الله تعالى دون غيرهم؛ لأنهم المنتفعون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس].

ثم زاد في تصوير عظمة الله تعالى، وسعة مُلْكِه وسلطانه، فبيَّن أنه ليس كمثله شيء، فمن هو الله سبحانه؟ هو الرحمن الذي مَلَكَ هذا الكون، وارتفع وعلا، واستوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته بلا كيف ولا انحصار، ولا تشبيه ولا تحديد، ولا تعطيل ولا تمثيل.

قال مالك بن أنس لرجل سأله عن الاستواء: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أَخْرِجُوه عني، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبد الله، لقد سألتُ عنها أهل العراق، وأهل الشام، فما وُفِّق أحد توفيقك.

وقد ذُكر العرش في القرآن في إحدى وعشرين آية، والله تعالى منزَّه عن مشابهة المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فاستواؤه تعالى على العرش ليس له كيف ولا انحصار، وليس له شبه ولا نظير، وكيفية الاستواء أمر غيبي لا يعلمه إلا الله سبحانه، وكما أن الله تعالى استوى على العرش فقد احتوى على الملك:

٦- ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾

وهو سبحانه مهيمن على هذا الكون، مالكه ومدبر أمره، يعلم ظاهره وباطنه، ما خفي منه وما ظهر، ويعلم ما هو تحت الأرض، من كل ما في هذا الكون، خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا، فالجميع ملك لله، عبيد مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ويملك ما تحت الثرى، أي: وما تحت التراب من معادن ونفط، وكنوز وأموات، ومياه وغير ذلك يعلمه سبحانه، ويملكه ويصرِّف أحواله.

والثرى هو التراب الندي، وخُصَّ بالذكر؛ لتأكيد شمول مِلْكِيته تعالى بكل شيء. قال تعالى:

٧، ٨- ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

وإن تجهر -يا رسولنا- في عبادتك أو في قولك أو فعلك، فلا حاجة له في ذلك؛ فإنه سبحانه يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى منه، فالسر هو الذي تُناجِي به أو تُسِرُّ به إلى غيرك، وما هو أخفى منه، يكون كالوسوسة والخاطر والهاجس الذي هو حديث النفس، وما يجيش في الصدر ويدور في الخلد، وهوَ سبحانه يعلم ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه، ويعلم السر الذي في القلب ولم يُنطق به، ويعلم ما خطر على القلب وما لم يخطر.

قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق]. فعلم الله تعالى محيط بجميع الأمور، دقيقها وجليلها، خفيها وظاهرها، فسواء جهرت أو أسررت في قولك أو عملك، فالكل سواء عند الله تعالى.

وفي الآية زجر عن القبائح ظاهرها وباطنها، وترغيب في الطاعات، وفيها أن الله تعالى يعلم ما يُسرُّه المرء في نفسه من الذنوب أو الطاعات، ويعلم ما يعزم عليه منها، ويعلم ما يخفيه في نفسه ولا يعزم عليه، ويُحَاسَب على كل ما يترتب عليه ثواب أو عقاب.

وفيها تطمين للنبي ﷺ بأن ربه معه يسمعه ويراه، ولن يتركه وحيدًا يواجه الكفار بلا سند، والعبد إذا استشعر قُرب الله تعالى منه، وَعِلْمَهُ بسرِّه ونجواه، فإنه يطمئن ويأنس بقرب ربه منه.

في صحيح البخاري، وغيره: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيَّان وقرشي، كثيرةٌ شحمُ بطونهم، قليلةٌ فقهُ قلوبهم، فقال أحدهم: أترَوْن أن الله تعالى يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إنْ جَهَرْنا، ولا يسمع إن أَخفيْنا! وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفيْنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ

تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[(١)] [فصلت].

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود].

وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

والآيات في هذا كثيرة، مبيِّنة أن الله تعالى يعلم السر ويعلم ما هو أخفى من السر، وقد ثبت في السُّنَّة مشروعية الجهر بالدعاء والذكر، فلا مزية للجهر على السر إلا ما ورد الشرع باستواء الأمر فيه.

وصاحب العرش والملك هو الإله الخالق المدبّر ، المستحق للعبادة دون سواء.

ثم أتبع الله ذلك بما يدل على عظيم سلطانه؛ فهو سبحانه واحد أحد في ذاته وصفاته، وهو المتفرد بالوحدانية، لا رب غيره ولا معبود بحق إلا هو، وله أسماء وصفات عدة ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الكاملة في الحُسْن، فهو سبحانه واحد في ذاته، متعددةٌ أسماؤه وصفاته.

قال المشركون لمّا سمعوا النبي ﷺ يقرأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]. قالوا: إن محمدًا يدعو إلهين.

ولما سمعوا ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قالوا: إنه يدعو آلهة متعددة.

وهكذا يقول النصارى: إنكم تدعون ثلاثة آلهة: بسم (الله) واحد، (الرحمن) اثنان، (الرحيم) ثلاثة.

والله ﷻ يقول: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو واحد في ذاته، أما أسماؤه وصفاته فهي متعددة، فالإنسان يوصف بعدة أوصاف، فيقال: كريم، وشجاع، وبطل، وصادق، وأمين، وصابر، وحليم، وكذا أسماء الله تعالى وصفاته فهي كثيرة متعددة بعدد الأسماء الحسنى، وكلها حسنى دالة على المدح، فليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، وهي وسائل يُتعبد بها ويتقرب بها إلى الله تعالى، ومن حسنها أنك إذا سألت

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٦، ٤٨١٧، ٧٥٢١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٧٥).

الله تعالى بها فدعوته وتوسلت إليه بأسمائه وصفاته، فهو سبحانه يجيب دعاءك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وهي صفات كمال وجلال لله رب العالمين.

جاء في حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مئة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة**»[١].

وجاء في الأثر أن لله تعالى أسماءً أخرى غيرها، عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[٢].

فهناك أسماء لله تعالى أخرى، جاءت في القرآن وفي السُّنَّة، غير العدد المعروف، وهناك أسماء لله تعالى استأثر بها عنده لا يعلمها إلا هو.

قِصَّةُ نُزُولُ الرِّسَالَةِ على مُوسَى عليه السلام

٩، ١٠- ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ[٣] ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ[٤] ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ[٥] ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾

ثم تأتي بعد ذلك قصة موسى عليه السلام، وحين نزول هذه الآيات كان الإسلام مضطَهدًا، والمسلمون يعذَّبون، فأراد الله سبحانه أن يخفف عن رسوله ﷺ بما لقيه نبي الله موسى عليه السلام في سبيل الدعوة إليه، فقال له على سبيل التقدير والتعظيم لهذه القصة: هل علمت - يا محمد- خبر موسى بن عمران عليه السلام، وما تحمَّله من أعباء النبوة وتكاليف الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد حتى نال الدرجة العليا.

---

(١) البخاري (٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧) والترمذي (٣٥٠٧) وابن ماجه (٣٨٦١) وغيرهم.

(٢) ينظر «المسند» (٣٧١٢، ٤٣١٨) وأوله: «اللهم إني عبدك» وقد ضعفه محققوه، وأخرجه ابن حبان (٢٣٧٢) والحاكم (١/ ٥٠٩) وابن السُّني في «عمل اليوم والليلة» (٣٤٢) وغيرهم، وقد ضعفه الدار قطني في العلل (٥/ ٢٠١) ينظر تفسير آية سورة الأعراف (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها).

(٣) قرأ حمزة بضم هاء الضمير وصلًا من (لأهلهُ امكثوا)، والباقون بكسرها.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني آنست نارا) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٥) ومثلها (لعلي آتيكم) إلا أن ابن عامر يفتحها مع مَن فتح.

ولم يكن الرسول ﷺ يعرف شيئًا عن قصة موسى عليه السلام، وكأن الله تعالى يقول له: تأسَّ بموسى واصبر على أذى قومك، ولا تحزن على أقوالهم وتكذيبهم لك، وانظر ماذا فُعِل بموسى مع قومه.

وتبدأ القصة بأحداث نزول الرسالة عليه، وهي منشأ نُبُوَّته ومبدأ سعادته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾﴾ [النازعات].

وكان هذا بعد ما جاء موسى من مصر إلى مدين وقضى فيها عشرة أعوام على الأرجح، هي صداق لابنة الرجل الصالح، فلما قضى موسى هذه الأعوام العشرة وهي (أتم الأجلين) بالنسبة للعقد المبرم بينه وبين صهره، وكان موسى قد اشتاق إلى أمه في مصر، فاستأذن صهره أن يأخذ زوجه، ويأخذ أغنامه وخدمه، ويذهب إلى مصر لرؤية أمه وأخته، وكانت زوجه حاملًا.

جاء في سِفْر الخروج من التوراة: فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع إلى أرض مصر. وكان يفضل السير ليلًا؛ ليكون أستر على أهله من الناس.

وفي طور سيناء، في ليلة شاتية مظلمة، فيها سحاب وضباب وبرق، ضل موسى الطريق، وفقد الماء فلم يجده، وجاء طلْق الولادة لزوجته، فأراد أن يلتمس نارًا كي تستدفئ ويضيء بها المكان، فأخذ يقدح زنده الذي معه حسب العادة؛ ليخرُج منه الشرر، فيستضيء به، ولمَّا لم يقدح الزناد، رأى نورًا فظنه نارًا، فقال لأهله: انتظروا هنا؛ إني أبصرْتُ على بُعْد نارًا، لعلي أجِيئكم بفتيل تستدفئون به من هذه النار، وتوقدون به نارًا أخرى، أو أجد من يهديني على الطريق، فلما دنا منها تباعدت منه، فإذا رجع عنها تبعتْه، فلما رأى ذلك أيقن أن هذا أمر خارق للعادة، وهو من عند الله تعالى.

وفي هذا يقول تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص].

وفي الآية الأخرى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل].

والقبس أو الجذوة من النار: هو ما يكون مشتعلًا في رأس العود ونحوه، فأراد

موسى إما أن يجد فتيلًا من النار يستدفيء به هو وأهله، أو يجد مرشدًا أو دليلًا يهديه، ويرشده إلى الطريق الذي ضله في شدة الظلمة من الليل. قال تعالى:

١١، ١٢- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ[(١)] أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ[(٢)] ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى[(٣)]﴾ فلما وصل موسى إليها وجدها نارًا بيضاء تتقد في شجرة خضراء.

قال أهل التفسير: لم يكن الذي رآه موسى نارًا، بل كان نورًا ذُكر بلفظ النار؛ كما حَسِبها موسى ﷺ، وهذه النار هي إحدى حُجُب الرب تبارك وتعالى، يدل عليه ما جاء في صحيح مسلم وغيره: عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**حجابه النار، لو كشفها، لأهلكتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بَصرُه من خلقه**»[(٤)].

قيل: إن موسى أخذ شيئًا من الحشيش اليابس وقصد الشجرة، فكان كلما دنا منها نَأَتْ عنه، وإذا نأى دنت منه، فوقف متحيرًا، وسمع تسبيح الملائكة، وأُلقِيت عليه السكينة، وعندئذ نودي موسى:

ناداه الله تعالى من هذه الشجرة أن يا موسى، إني أنا الله رب العالمين؛ ربك الذي يحدثك. ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]

وفي إظهار النار لموسى، رمز ربَّاني لطيف، يشير إلى أنه سيجد عند هذه النار هدى عظيمًا يبلِّغه لقومه، ويبدد به الظلمات، ويخرجهم -بالوحي الذي سيتلقاه في هذا المكان- من فساد الاعتقاد وضلال الطريق إلى الدين الصحيح، والنور التام، ناداه الله

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح همزة (إني) من (إني أنا ربك) على تقدير الباء، أي: بأني، والباقون بكسرها على إضمار القول، وفتح ياء المتكلم منها في حالة الوصل: نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر، وأسكنها الباقون.

(٢) وقف يعقوب بالياء على (بالواد)، والباقون بدونها.

(٣) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بتنوين الواو من (طوى)، حال وصلها بما بعدها، والباقون بعدم التنوين.

(٤) يُنظَر: «مسند أحمد» برقم (١٩٦٣٢) و(١٩٥٨٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وصحيح مسلم برقم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥) وابن أبي عاصم في السنة (٦١٤) وأبو يعلى (٧٢٦٣) وابن خزيمة في التوحيد ص(١٩) والطبراني في الأوسط (١٥٣٥).

تعالى من الشجرة المباركة، يا موسى، إني أنا الله العزيز الحكيم.

وقد علم موسى عليه السلام أن هذا النداء موجَّه إليه من قِبَل الله تعالى؛ لأنه نداء غير صادر عن شخص مشاهَد، ولا صادر من جهة معينة، أو مكان معين، ولا هو موجه بواسطة ملَك يتولَّى تبليغه، بل كان كلامًا مباشرًا بطريقة غير معتادة. قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤].

ورؤية النار تدل على أن ذلك كان في الليل، وكان موسى يُحِبُّ أن يسير ليلًا، وقد خفي عليه الطريق من شدة الظُّلمة، فلما أتاها نودي من الجانب الغربي في جبل الطور، في وادي طوى المبارك بسيناء، من تحت الشجرة المباركة: أن يا موسى ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾.

وجاء هذا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص].

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾ [سورة النمل].

يسمع موسى هذا النداء، وقلْبُه يخفق، وكيانُه يرجُف، إنه يسير فريدًا في صحراء واسعة متعرجة، ليس فيها ماء ولا نور، في ليل دامس، وظلام شامل، وصمت رهيب، وهدوء مخيم، وهو ذاهب يلتمس نارًا، فيسمع هذا النداء العلوي: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ سمع موسى هذا النداء من جميع الجهات، ومن جميع جوارحه، وأُمِر بخلع نعليه ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهر، تعليمًا للأدب والتواضع، نظرًا لقداسة المكان وطهارته، أو أنه يخلع نعليه نظرًا لما يسمع من كلام ربه، وقيل: إنهما كانا من جلد حمار ميت غير مدبوغ، فأمره الله تعالى بخلعهما.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ بسند فيه مقال قال: **«كان على موسى يوم كلَّمه ربه كِساءُ صوف، وجُبة صوف، وكُمةُ صوف، وسراويلُ صوف، وكانت نعلاه من جلد حمار ميت»**[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب اللباس، لبس الصوف برقم (١٧٣٤) قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حُميد الأعرج -وحُميد هو ابن علي الأعرج- منكر الحديث، وحُميد بن قيس الأعرج المكي صاحب مجاهد ثقة، والكُمَّةُ: القلنْسُوَة الصغيرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المسمَّى ﴿طُوًى﴾ الذي باركْته وطويْته ليلًا، فاصعد أعلى الوادي؛ لتتلقى الوحي، وذلك استعدادًا لمناجاة ربك، فخلع موسى نعليه وألقاهما، قيل: إن الله تعالى أمره أن يُلقي نعليه لأنهما من جلد حمار، والله أعلم.

قال الفخر الرازي: وفي هذا نهاية الهيْبة والجلالة فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له، واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفًا إليه[(١)].

وقد أباح الإسلام الصلاة في النعلين ما لم يكن فيهما أذى، وكان هذا أمرًا شائعًا بين الصحابة والتابعين، مقتدين فيه برسول الله ﷺ.

ولما اتخذ الناس الفُرش والبُسط في المساجد، تعَوَّدوا خلْع نعالهم عند دخول المسجد حفاظًا على فُرشِه النظيفة مما عساه أن يكون قد علق بها من الطريق، أو من رطوبة الحمام.

والأصل هو جواز الصلاة فيهما، إذا لبسهما المسلم على طهارة، أو مسح عليهما على طهارة.

أخرج الطبراني عن علقمة أن ابن مسعود ﷺ، أتى أبا موسى الأشعري ﷺ في منزله، فحضرت الصلاة، فقال له أبو موسى: تقدم يا أبا عبد الرحمن، فإنك أقدم سنًّا وأعلم، قال: لا، بل أنت تقدَّم، فإنما أتيناك في منزلك، فتقدَّم أبو موسى، فخلع نعليه، فلما صلى قال له ابن مسعود: لِمَ خلَعْتَ نعليك؟ أبالواد المقدس أنت؟ لقد رأيتُ رسول الله ﷺ يصلي في الخفين والنعلين[(٢)].

التَّوْحِيدُ وَالْبَعْثُ عُنْصُرَا الرِّسَالَاتِ الْإِلَٰهِيَّةِ

١٣، ١٤- ﴿وَأَنَا[(٣)] ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ[(٤)] أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٢/١٩).

(٢) الطبراني في الكبير برقم (٩٢٦٢) وهو عند أحمد في «المسند» (٧/ ٤٠٤) برقم (٤٣٩٧) وقال محققوه: صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤١٧) وابن ماجه (١٠٣٩) وفي الباب عن أنس في البخاري (٣٨٦) ومسلم (٥٥٥).

(٣) قرأ حمزة بتشديد النون من (وأنا)، وقرأ ما بعدها هكذا (اخترناك)، والباقون بتخفيف النون وما بعدها هكذا (اخترتك).

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم وصلًا من (إنني أنا)، والباقون بإسكانها، ومثلها (لذكري إن) إلا أن ابن كثير يسكنها مع من سكَّن.

ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ[1] ﴿١٤﴾﴾

وأنا اصطفيتك للنبوة من أفراد قومك؛ لتحمل رسالتي، وتُبلِّغ دعوتي، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، واجتبيتك؛ لتكون سفيرًا بيني وبين خلقي ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك مني.

قيل: إن موسى عليه السلام لما قيل له: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ وَوَقَفَ على حَجَر، واستنَد إلى حَجَر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقْنه على صدره، وقف يستمع، وكان لباسه صوفًا[2].

وقد تضمن النداء الأول لموسى عليه السلام منهج الدعوة إلى الله تعالى مشتملًا على **ثلاثة عناصر هي**:

أولًا: الدعوة إلى توحيد الله تعالى.

ثانيًا: الدعوة إلى عبادته سبحانه

ثالثًا: الإخبار بالساعة، وأنها آتية لا ريب فيها.

العنصر الأول: إخلاص التوحيد لله تعالى:

لقد أوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ في بدء الأمر؛ بالعقيدة وتوحيد الخالق؛ لأنهما الأساس الأول ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فلا معبود بحق إلا أنا، لا شريك لي، وهذا هو أول واجب على الخلق، أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله، المستحق للعبادة دون سواه، وهذا هو أصل الدين ومبدؤه، وعماد الدعوة الإسلامية، وهو **الركن الأول** في الإسلام.

العنصر الثاني: هو ركن العبادة الذي يترتب على العقيدة، وقد جاء هذا في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أي: أطعني وحْدي، ولا تعبد غيري، ولا تُشرك مع الله أحدًا في عبادتك بجميع أنواعها، أصولها وفروعها، ظاهرها وباطنها.

ومن العبادة: الصلاة، ولكن الله تعالى خصها بالذكر؛ لشرفها وفضلها، ولأنها تصل العبد بربه وتُذَكِّره به، وهي تشتمل على عبادة القلب واللسان والجوارح ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) فتح الياء من (ذكري) حال وصلها بأول الآية التي بعدها، نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. وسكَّنها الباقون.

(٢) نسبه ابن عطية في تفسيره إلى أبي الفضل بن الجوهري.

﴿لِذِكْرِيٓ﴾ أي: لِتذْكُرَني فيها، فاللام للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكر الله تعالى أجلّ المقاصد وأسنى المطالب، والقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، والمقصود من العبادات، ذكر الله تعالى، وعلى رأسها الصلاة، فالعبد يذكر الله تعالى في صلاته، والذي لا يصلي لا يذكر الله سبحانه، وتنقطع الصلة بينه وبين رب العالمين.

وإقامة الصلاة عند ذِكْرِها مأخوذ من الآية، على وجه التبعية والاستئناس، إلى جوار المعنى الأصلي وهو إقامة الصلاة لذكر الله فيها، أي: أقم الصلاة؛ لأنها مشتملة على ذكر الله تعالى، أو أن المعنى: أقم الصلاة في الوقت الذي خصصتُه لذكري، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

وأقم الصلاة بأدائها قضاء إن أنت نمت عنها، أو غفلت عنها، بمجرد تذكرك لها، كما جاء في الحديث، عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكري**»[1].

وفي الصحيحين: عن أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**من نَسِيَ صلاة فليصلِّها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك وأقم الصلاة لذكري**»[2].

وذِكْرُ الله في الصلاة علاجٌ نافعٌ في ترك الفواحش، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ﴾ في الصلاة ﴿أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

أي: أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر، أي: أن ذكر الله أثناء الصلاة، أعظم درجة عند الله تعالى وأكبر تأثيرًا في النفس إذا واطأ اللسان فيه القلب، وصَحِبه العمل.

الْعُنْصُرُ الثَّالِثُ: الْإِيمَانُ بِالْيَومِ الْآخِرِ:

١٥، ١٦- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٨٤) برقم (١٢٩٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين ومسلم (٦٨٤) وأبو داود (٤٤٢) وأبو يعلى (٣١٩٢).

(٢) البخاري برقم (٥٩٧) ومسلم برقم (٦٨٤) وهذا لفظه.

ثم ذَكَرَ الله تعالى **الركن الثالث** المهم في الدعوة، وهو قيام الساعة، التي يُبعث فيها الناس، وهي ما تسمى باليوم الآخر، وهي آتية لا محالة، ففي الآية إخبار من الله تعالى أن الساعة آتية، وأن الله تعالى يُخفِي وقت إتيانها عن الناس، كما قال تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ عن نفسي فلا أُطْلِع عليها أحدًا من المخلوقين، لا ملَكًا مقربًا، ولا نبيًّا مرسلًا ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقد أخفاها الله تعالى عن كل إنسان؛ كي يجتهد في الطاعة والعبادة؛ لأنه لا يعلم وقت موته، ولا يعلم متى قيام الساعة، حتى يلقى ربه، وهو تائب إليه مقبل عليه، فيجازيه بما قدم لنفسه من قول وعمل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]

والسبب في إخفاء موعد قيام الساعة؛ ألا يستمرَّ العصاة في عصيانهم حتى موتهم، أو إلى قرب قيام الساعة، ثم يتوبون، فإخفاؤها لكي يجتهد الناس في العبادة حتى يأتيهم اليقين، ثم تُجْزَى كل نفس بما عملت في الدنيا من خير أو شر.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أُطلع عليها أحدًا غيري، كما يقال: كتمْتُ سرك في نفسي.

فالمعنى: أكاد أُخفي وقت مجيء الساعة عن نفسي، فكيف أُطْلِعكم عليها وهي شديدة الغموض على المخلوقين؟!

وقال السدي: ليس أحد من أهل السموات والأرض، إلا وقد أَخفى الله عنه علم الساعة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إني أكاد أخفيها من نفسي، يقول: كَتمْتُها من الخلائق، حتى لو استطعتُ أن أكتمَها من نفسي لفعلت.

وعن قتادة قال: لقد أخفاها الله تعالى عن الملائكة المقربين، وعن الأنبياء والمرسلين(١).

وقيل: إنَّ المعنى: أكاد أظهرها، أي: أُظهِر وقوعها؛ لقرب وقتها، وفيه رد على من أنكرها

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية و«الدر المنثور» (١٠/ ١٧٨).

في قولهم: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾؟ [الإسراء: ٥١]. وقولهم: ﴿مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾؟ [الجاثية: ٣٢].

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ١٨٧].

والحكمة في إخفاء الساعة حتى يستعد العباد لمجيئها بالعمل الصالح الذي ينفعهم يوم لقاء ربهم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

والحكمة في الإتيان بالساعة ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]

فلا يَصْرِفَنَّكَ ويُشغلك -يا نبي الله موسى- عن ذكر الساعة والاستعداد لها، من لا يُصدِّق بوقوعها، أو شكَّ واشتبه فيها، واتبع هوى نفسه وكذَّب بها، فتهلَك وتَفْنى.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الليل].

والخطاب في هذه الآية لكل واحد من المكلفين ألا يصدَّه عن الإيمان بالساعة ومجيئها، مَنْ كذَّب بها فخالف أمر الله تعالى، وأقبل على ملاذ الدنيا وعصى خالقه، فمن وافقهم على ذلك فقد تردَّى، أي: خاب وخسر.

والآية تحذِّر من اتباع المنكرين ليوم البعث والنشور، المنغمسين في شهواتهم وملذاتهم، الغافلين عنها، المعرضين عن التفكر فيها والعمل لها.

فكن - أيها المسلم - قويَّ الإيمان، شديد التمسك به؛ حتى لا يلوح منك لمن لم يؤمن بالبعث والحساب والجزاء، أن يطمع في صدِّك عما أنت عليه من الإيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر مُتَّبع لهواه، كافر بربه، وأنت إن فعلتَ ذلك هلكْتَ مع الهالكين.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾[الحج].

مُعْجِزَةُ الْعَصَا

١٧ ، ١٨- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ[1] فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾

بعدما أعلم الله سبحانه موسى ﷺ بأنه اصطفاه للرسالة، أراد أن يبين له المعجزة التي أيده بها، فلفت نظره إلى العصا التي معه وسأله: ما هذه العصا التي بيدك يا موسى؟ والمقصود من السؤال: هو اعتراف موسى، وإقراره، بأن ما في يمينه هو العصا، فإذا تأكد ذلك له أمره بإلقائها، كما يقول الإنسان لصاحبه: ما الذي في يدك؟ فيقول: درهم، فيقول: سوف أحوِّله إلى عصا، ويريد بذلك أن يتأكد مما في يده؛ حتى لا يشك بعد التحويل فيما حدث؛ لتظهر لموسى القدرة الباهرة، والمعجزة القاهرة في تحويل العصا إلى حية. أجاب موسى على السؤال قائلًا:

١- ﴿هِيَ عَصَايَ﴾- والله أعلم بما في يمينه، فلا يحتاج الأمر إلى سؤال وجواب، ولكنه سبحانه يلفت نظره إلى ما سيكون من هذه العصا -وهذا جوابٌ كافٍ، ولكن موسى لم يكتفِ به.

٢- بل قال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ أي: أعتمد عليها في سيْري ومَشْيي.

٣- ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ فأزجُر بها الغنم؛ حتى لا تذهب يَمْنة أويَسْرة، وتنفلّت مني، وأهز بها أوراق الشجر اليابسة فيسقط ورقها، فترعاه غنمي، ففي هذه العصا معونة للإنسان ومنفعة للبهائم.

وفي بعض الآثار: أن الله تعالى عتب على موسى؛ لأنه أضاف العصا إلى نفسه، فأمره بإلقائها؛ ليعلم أنه لا مِلْكَ له عليها، وليرى منها العجب.

٤- ثم استطرد موسى في الجواب، فذكر أن له فيها منافع أخرى غير هذين الأمرين.

إنه يفتح باب التخاطب مع الله سبحانه، طمعًا في كثرة الحديث مع الذات العلية؛ كي يزداد تلذذًا بالخطاب؛ لأن كلام الحبيب مريح للنفس، ومُذْهِبٌ للعناء، وقد كان ربه

(١) قرأ الأزرق عن ورش وحفص بفتح ياء (ولي فيها) وصلًا، والباقون بإسكانها.

يُكَلِّمه بلا واسطة، فيقول موسى: ولي فيها مآرب أخرى كثيرة.

فهذه أربعة أغراض ذكرها موسى، وهو يطمع في أن يسأله ربه عن هذه المآرب الأخرى؛ ليزداد أُنْسًا ومناجاة.

وقد ذكر العلماء في منافع وفوائد هذه العصا، كلامًا ممتعًا وشيِّقًا، منها: أنه يضع فيها زاده وشرابه ومتاعه، ويحملها على عاتقه، ويقتل بها الحيات والعقارب، وغير ذلك.

١٩ ، ٢٠- ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾

قال الله تعالى لموسى: اطرح هذه العصا يا موسى على الأرض؛ لترى ما يكون من شأنها.

ألقى موسى العصا على الأرض ممتثلًا أمر ربه، ونظر إليها، فإذا العصا تنقلب حية بإذن الله تعالى، وإذا بها يتغير لونُها، ويكبُر حجمُها، وَيمُدّها الله بخفة الحركة وكثرتها، فولّى موسى هاربًا خائفًا ولم يعقب، فناداه ربه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] ﴿يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

والغرض من ذلك تثبيته ﷺ حين يؤمر بذلك، فهي تَجْربة.

وفي القرآن العظيم أن هذه الحية يتعدد وصفها: مرة تأخذ شكل ثعبان، ومرة تكون في شكل حية، ومرة تكون في شكل جان، والثعبان هو الذكَر الكبير العظيم، والحية تصدُق على الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والثعبان أعظم وأكبر حجمًا، والجان هو الذَّكَر الصغير من أنواع الحيات، دقيق الجسم، خفيف الحركة، والحية في عِظَم الثعبان، وسرعة الجان، فهي في غاية الكبر، وغاية السرعة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل].

وقال أيضًا: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

ووصف الله للحية بأنها (تسعى) لإزالة الظن بأنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم، ثم طمأن الله موسى، ووعدَه بأن الحية ستعود كما كانت:

٢١- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

تَمَلَّكَ موسى الخوف والفزع، وحين رأى أن العصا قد انقلبت حية اعتراه ما يعتري البشر، عند رؤية الأهوال والمخاوف، فولَّى مدبرًا ولم يعقب ﴿قَالَ﴾ الله تعالى مطمئنًا له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ وبمجرد إمساكك لها ستعود عصا كما كانت، ونعيدها إلى حالتها الأولى، فعادت عصاه التي كان يعرفها.

قيل: إن هذه العصا كانت في بيت عصا الأنبياء عند شعيب، ولما استأذنه موسى في العودة بأهله إلى مصر أعطاه هذه العصا، وكانت ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فمًا، وصارت حية تتنقَّل وتمشي، وقد أراد الله سبحانه أن يُدَرِّب موسى على تلَقِّي تكاليف الرسالة، وتأييده بالمعجزات التي يواجه بها طغيان فرعون.

هذه هي المعجزة الأولى التي أيدك الله بها يا موسى.

مُعْجِزَةُ الْيَدِ

٢٢، ٢٣- ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾

وأدخل يدك اليمنى -وكان موسى أسمر اللون- أدخِلْها تحت إبطك الأيسر، ثم أخرِجْها، وانظر فيها فإنك ستجدها بيضاء تتلألأ كفِلْقة من القمر، أو كالثلج في نصاعة بياضه، وهذا البياض من غير برص ولا مرض، إنما هو معجزة أخرى.

وقد عارض القوم العصا، ولم يستطيعوا معارضة اليد، وقد قال الله تعالى له: اضمُم يدك إلى جنبك تحت العضد؛ لتكون لك معجزة ثانية، ولتكون علامة دالة على صدق رسالتك.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٣٢]. والجناح هو الجنب تحت الإبط، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

وقد فعلنا ذلك يا موسى؛ كي نطلعك على عظيم قدرتنا وسلطاننا، ونُطَمْئنك على صحة رسالتك بما أيدك الله به من خوارق العادات، ومن آيات الله العظيمة التي تقلب العصا حية، وتجعل اليد مختلفة اللون، ثم تعود كما كانت.

ومجموع الآيات يفيد أن موسى عليه السلام أُمِرَ أن يُدْخِلَ كف يده اليمنى تحت ذراعه الأيسر،

فيضمها إليه ثم يخرجها، فإذا هي بيضاء، بياضًا يخالف لون جسده، معجزة أخرى، أيد الله بها موسى ﷺ، وقد خص الله موسى بقلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء بعد إدخالها تحت عضده، دون غيره من الرسل؛ لأن الله تعالى يعلم من بطش فرعون وجبروته ما ليس لغيره من أقوام الرسل، فكان من الحكمة أن يثبِّت الله قلب موسى قبل أن يرسله إلى فرعون، ويَعُدُّه لتلك المهمة الشاقة.

مُوسَى يُوَاجِهُ أَعْظَمَ مُلُوكِ الأَرْضِ

٢٤- ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾

أعطى الله سبحانه موسى هذا السلاح ممثَّلًا في هاتين المعجزتين وطَمْأنه، ثم قال له: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ فادْعُهُ إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، اذهب إلى هذا الطاغية، وخلِّص بني إسرائيل من شره، فقد تجاوز الحد في الكبر والطغيان، وتمرَّد على ربه، وعصى، وتجبَّر، وموسى ﷺ مرسل إلى الجميع، ولكن خُصَّ فرعون بالذكر؛ لأنه ادَّعى الربوبية والألوهية، وأوغل في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، وكان متكبرًا، متبوعًا من غيره ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وقال أيضًا: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. وتجاوز الحد في تعذيب وقتل بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [القصص].

وكان طغيان فرعون سبب لإهلاكه، ومن رحمة الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فكانت رسالة موسى إلى فرعون.

وهكذا سلَّح الله موسى بمعجزتين عظيمتين لا قِبَل لفرعون بمعارضتهما، وأمره أن يدعوه إلى توحيد الله تعالى، وأن يرسل معه بني إسرائيل؛ ليتحرروا من ظلمه وجبروته؛ فقد تجاوز فرعون الحد في الفساد والطغيان.

لم يبادر موسى بالتراجع خوفا من ظلم فرعون، بل سلَّم واستجاب، وسأل الله تعالى الإعانة عليه، بخلق الأسباب التي تعينه على تبليغ الدعوة.

مُوسَى يَسْأَلُ رَبَّهُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ تُعِينُهُ عَلَى مَهَامِّ الرِّسَالَةِ

٢٥، ٢٦- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى[1] ﴿٢٦﴾﴾

علِمَ موسى أنه أمام مهمة شاقة وصعبة، وأنه قد تحمَّل حملًا ثقيلًا، حيث أرسله الله إلى هذا الجبار العنيد، وهو صاحب منة عليه، فموسى عليه السلام قد تربَّى في حِجْر فرعون، وشاهد بعينيه طغيانه وجبروته في تعذيب بني إسرائيل، ومع ذلك فقد تلقى موسى الأمر من ربه، ممثلا أمره، ولم يتراجع خوفًا من بطش فرعون، بل سأل الله تعالى الإعانة على ذلك، في رباطة جأش وقوة يقين، فدعا ربه أن ييسِّر له هذه المهمة، وسأله **أربعة أمور**:

أَوَّلًا: شَرْحُ الصَّدْرِ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾﴾

قال موسى: يارب اشرح صدري للحق ووسِّعه؛ حتى أعلم أنه لا أمان ولا ملاذ لأحد غيرك، ولا أخاف سواك، وحتى أعلم أنه لا سبيل إلى وصول الأذى لخلقك إلا بإذنك، فأفسح لي صدري لأتحمل الأذى القولي والفعلي، حتى لا يتكدر قلبي، ولا تضيق نفسي، فإن الصدر إذا ضاق لا يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

وشرحُ الصدر قوة معنوية تفيض بالسكينة على العبد، وتجعله يصبر ويتحمل المشاق، ويُقبِل على الدعوة بهمة ونشاط، أما ضيق الصدر فهو من أسباب الضعف، والملل، وخور العزيمة.

ثَانِيًا: تَيْسِيرُ الْأَمْرِ: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾

طلب موسى من ربه أن يذلل له الصعاب، ويوفقه للأخذ بالأسباب، فاجعل يارب، أمري سهلًا هينًا، لا مشقة فيه ولا نصَب، وسهِّل عليَّ كل أمر أسلكه، وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوِّن عليَّ ما أجد من الشدائد.

ثَالِثًا: فَصَاحَةُ اللِّسَانِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ويسر لي أمري) وصلًا، وأسكنها غيره.

قال موسى: يارب، أطلق لساني بفصيح المنطق؛ ليفهموا قولي، فلابد للرسل من قوة البيان، وبلاغة القول،وفصاحة اللسان حتى يفقه الناس ما يقولون، ويحصل المقصود من الدعوة بحسن المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني:

١- وحين كان موسى صغيرًا في حجر فرعون نتف لحيته، وشد شعره، ولطمه لطمة شديدة، فتوجَّس فرعون في نفسه خوفًا من أن يزول ملكه على يديه، وهمَّ بقتله، فقالت له زوجته: إنه طفل صغير لا يَعْلَم شيئًا، وأرادت أن تُبرْهِن لفرعون على ذلك؛ حتى يطمئن ولا يؤذيه، فجاءت بجمْرتين وتمرتيْن وقالت: إن أمسك بالتمرة فإنه يُدْرك ويَفْهم، وإن أمسك بالجمْرة فإنه لا يَفْهَم ولا يدْري، وأمسكَ موسى بالجمْرتيْن ووضعهُما على لسانه، فأنجاه الله من أذى فرعون، وأصاب لسانه لثغة[1].

وقيل: إن موسى أراد أن يُمسك التمرة، فحوَّل جبريل يده على الجمرة فوضعها في فمه، فصار في لسانه عقدة من أثر النار. وقيل: بدَّل التمرة جوهرة أو لؤلؤة، ولهذا قال عنه فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥٢] أي: يُفْصِح في الكلام.

وكان هارون أكبر من موسى، وأفصح لسانًا وأجمل، وأوسم، وكان أبيض اللون، وكان موسى أسمر.

٢- وقيل: إن موسى عليه السلام كان في لسانه ثِقَل، فقال لربه: يارب أرسل معي أخي الأكبر ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤].

٣- وقيل: إن موسى لما أقام في مدين مدة طويلة، نسي لهجة المصريين، وإن هارون كان مختلطًا بالمصريين، ويعرف لغتهم، فهو أعلم منه بلغة القوْم.

أخرج الحاكم عن وهب قال: كان هارون فصيحًا، بيِّن النطق، يتكلم في تؤدة، ويقول بعلْم وحلْم، وكان أطولَ من موسى وأكبرهما في السن، وأكثرهما لحمًا، وأبيضهما جسمًا، وأعظمهما ألواحًا، وكان موسى جَعْدًا آدم، طُوَالًا، كأنه من رجال شَنوءة.

---

(١) يُنظَر في هذا: ما جاء عن سعيد بن جبير، عند عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٠/ ١٨٤).

ولم يبعث الله نبيًّا إلا وقد كانت عليه شامة النبوَّة في يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا محمد ﷺ فإن شامة النُّبوَّة كانت بين كتفيه[(١)].

رَابِعًا: الْوَزِيرُ الْمُعِينُ

٢٩-٣٢- ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى[(٢)] ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ[(٣)] فِىٓ أَمْرِى﴾

سأل موسى ربه أن يجعل له معينًا من أهله، هو أخوه هارون، يساعده ويتحمل معه أعباء الرسالة، يؤازره ويعينه، ويلجأ إليه في أموره، فأجاب الله دعاءه ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]

قال ابن عباس ﷺ: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون في شأن القبطي الذي قضى عليه، وشأنِ عُقْدة لسانه فإنه كان في لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل موسى ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رِدْءًا، ويتكلم عنه بكثير مما لا يُفصِح به لسانه، فآتاه الله سؤله، وحل عقدة من لسانه[(٤)].

واجعله يارب معينًا وناصرًا لي، وقوِّني به، وشُدَّ به ظهري؛ فإن من شأن الأخ أن يكون حريصًا على نجاح أخيه، وفي هذا بيان لحكمة الاختيار من قرابته.

قال موسى: وأشركه يارب معي في النبوة وتبليغ الرسالة.

وقد أجاب الله سؤال موسى ﷺ فأوحى لهارون وهو في مصر، في نفس الوقت والساعة التي أرسل فيها موسى وهو في طور سيناء.

قال ابن عباس ﷺ: نبئ هارون ساعتئذ حين نُبِّئ موسى ﷺ.

---

(١) «المستدرك» (٢/ ٥٧٧).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح ياء الإضافة من (أخي اشدد) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ ابن عامر وابن وردان بخلف عنه بهمزة قطع مفتوحة وصلًا وبدءًا من (اشدد) مضارع شدَّ، وقرأ ابن عامر وابن وردان بخلف عنه أيضًا (وأشركه) بهمزة قطع ولكنها مضمومة من أشرك، والباقون بهمزة وصل فيهما تحذف وصلًا وتثبت في البدء مضمومة في (اشدد)؛ لضم ثالثها ومفتوحة في (واشركه)؛ لكسر ثالثها.

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٨٢).

وورد عن عائشة ﵂ أنها سمعت رجلًا يسأل مَن معه: أي الإخوة كان أنفع لأخيه في هذه الدنيا؟ فقالوا: ما ندري، قال: والله أنا أدري، قالت عائشة: فقلت في نفسي: في حِلْفِه لا يستثني، إنه ليعلم أي أخ كان في الدنيا أنفع لأخيه، قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة، فقلت: صدق والله(١).

وفي هذا قال الله تعالى في الثناء على موسى ﵇: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وهكذا طلب موسى من ربه أن يُعينه بأخيه، يشُد به أزره؛ لِمَا يعلم منه من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، وأن يُشْركه معه في المهمة للقيام بشؤون الدنيا، وأن يجعله نبيًّا رسولاً، وذلك لما يعلم من طغيان فرعون وجبروته. قال موسى ﵇ مُبينًا الفائدة في ذلك:

٣٣-٣٥- ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٢) ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣) ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

علل موسى سؤاله لربه أن يشد أزره بأخيه هارون؛ فبيَّن أنه كي يستعين به على الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه، وفي هذا بيان للغاية المنشودة من الوزير المعِين للحاكم ومن البطانة التي حوله، وهي الإعانة على البر والتقوى، وما يعود على الناس بالخير والنفع في دينهم ودنياهم ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي: نُكثر من حمْدك، وتسبيحك، وتنزيهك عما لا يليق بجلالك، ونُكثِر من ذكرك وشُكْرِك؛ فأنت سبحانك لا يخفى عليك شيء من أقوالنا وأفعالنا فاخترتنا - يا ربنا - لرسالتك، وبعثتنا إلى عدوك، ومنحتنا الكثير من فضلك، وأنت تعلم ضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، فَمُنَّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك، فلك الحمد والمنة.

٣٦- ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ (٤) يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

قال سبحانه: قد أعطيتك يا موسى، كل ما سألت؛ فإن الله يسر لك أمرك، وشرح لك

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٥/ ٢٧٧) و«الدر المنثور» (١٠/ ١٨٥).

(٢)، (٣) أسقط البصري (كثيرا) من العدد في الآيتين (٣٣، ٣٤) وعدهما بقية علماء العدد.

(٤) قرأ الأصبهاني عن ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (سؤلك) حرف مد وصلًا ووقفًا وكذا حمزة وقفًا، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

صدرك، وفك لك عقدة لسانك؛ ليفقهوا قولك، وأرسل معك أخاك هارون شريكًا لك في النبوة، فطب نفسًا وقَرَّ عينًا.

سَبْعُ مِنَنٍ أُخْرَى امْتَنَّ اللهُ بِهَا عَلَى مُوسَى تَتَنَاوَلُ حَيَاتَهُ كُلَّهَا

٣٧- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧﴾

أراد الله سبحانه أن يذكِّر موسى ﷺ بنعم أخرى سابقة، كانت هذه النعم في وقت التربية، وفي نشأته وأطوار حياته، منها ما يدركه، ومنها ما لا يدركه. فذكَر سبحانه وتعالى له ثماني منن امتن بها عليه، وجاء ذكرها في سورة (القصص) مفصَّلة، وجاءت هنا موجزة.

ومن هذه المنن، ما لا يذكرها موسى؛ لأنه كان طفلًا صغيرًا، لا يدرك ولا يميز، وذلك حينما أنجاه الله تعالى من بطش فرعون وقت أن كان رضيعًا.

قيل: إن فرعون رأى في منامه أن نارًا قد أحرقت فرعون والمصريين، وأبقت على بني إسرائيل، فجمع الكهنة والعرافين؛ ليفسِّروا له هذه الرؤيا، فقالوا له: إن مولودًا يولد من بني إسرائيل يكون سببًا في زوال مُلكِك، فأمر فرعون بقتل الرجال، وإبقاء الإناث أحياء، واستمر القتل في بني إسرائيل لكل مولود، حتى كاد النسل من الذكور أن ينقرض.

وكان فرعون يستعمل الرجال من بني إسرائيل في الأعمال الشاقة، من الحفر والبناء ونحوها، فذهب المقرَّبون من فرعون إليه، وأعلموه بأن عدد الذكور يكاد أن ينقرض، فأمر بأن يُقْتَل الذكور عامًا، ويُتركُون عامًا، وَوُلِدَ هارون في العام الذي فيه عفو، وَوُلِدَ موسى في العام الذي فيه القتل.

وقيل: إن فرعون وجلساءه تذكَّروا ما وعد الله به إبراهيم، أن يجعل في ذريته أنبياءَ وملوكًا، وكانوا يظنون أنه يوسف ﷺ، فلما مات، قال فرعون: كيف ترون؟ فأَجْمَعُوا أمرهم على ذبح الذكور من بني إسرائيل، فكان هذا سبب محنة موسى ﷺ.

المِنَّةُ الأُولَى: نَجَاةُ مُوسَى مِنَ الْبَحْرِ، عَلَى يَدِ عَدُوِّه

٣٨، ٣٩- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ[١] فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ[٢] عَلَىٰ عَيْنِىٓ[٣] ﴿٣٩﴾﴾

أي: ألهمنا أمك -يا موسى- فألقيْنا في قلبها أن ضعي ابنك موسى بعد ولادته في التابوت، ثم اطْرَحيه في النيل، فسوف يلقيه النيل على الساحل، فيأخذه فرعون عدوي وعدوه، ولا تخافي عليه، ولا تحزني؛ فإن الله سيردّه عليك بتدبيره وحكمته، ويكون له شأن عظيم بالنبوة والرسالة.

ولما خافت عليه أمه من قتل فرعون له، ألْهمها الله تعالى، وأوحى إليها أن اصنعي له صندوقًا وضعيه فيه، وألقيه في اليم، ففعلتْ ذلك.

وهذا أمر يصادم العقل، إذ كيف يقول الله تعالى لأم موسى: إن خفت على ولدك فألقيه في النهر؟ ولكن الله تعالى طمأنها بعودته وبشَّرَها برسالته، فأجابت أمر ربها، وامتلأ قلبها يقينًا بوعد الله لها.

وصنع مؤمن آل فرعون وهو (حزقيل) صندوقًا لها، وطلاه بالزفت، وحشاه بالقطن المحلوج، وربطتْه بحبل تجرُّه إليها كلما أرادت أن تُرضعه، ثم تُرجعه مرة أخرى.

وكان للنهر فرع كبير يدخل بيت فرعون، وذات يوم انفلت الحبل منها، وانجرف الصندوق مع الماء، فطار عقلها خوفًا عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ﴾ [القصص: ١٠، ١١]

وكان اسمها مريم، أرسلتْها أمها؛ لتتعرف على خبر موسى بعد إلقائه في اليمِّ، وقد

---

(١) عد الحمصى (في اليم) آية، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) قرأ أبو جعفر بإسكان اللام من (ولتصنع) مع جزم العين، فهي لام الأمر الجازمة، وقرأ الباقون بكسر اللام ونصب العين، على أن اللام لام كي وما بعدها منصوب بأن مضمرة بعدها.

(٣) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (عيني) حال وصلها مع (إذ) بعدها، والباقون بإسكانها.

أخذ الموج موسى لِقَصْرِ فرعون، وكان قَصْرُ فرعون فيه شجر وماء، فأمر الله البحر أن يُلقي موسى على الساحل، وقيض له من يأخذه، وهو أعدى الأعداء، كي يتربى في بيته كأولاده ويكون قرة عين لمن يراه:

وبينما كان فرعون جالسًا مع امرأته على فرع نهر النيل الذي يمر ببيته، إذا بتابوت يحمله الماء، فأمر الغلمان والجواري بإخراجه، فأخرجوه وفتحوه، وإذ بغلام من أملح الناس وجهًا، فألقى الله محبته في قلب آل فرعون، ولم يملك فرعون إخفاء ذلك، ولا منْع امرأته وابنته من محبته.

ووُجد موسى بين الماء والشجر فسُمِّي (موشى) بالشين، وهي كلمة مركبة من (مو) وهو الماء، و(شَى) وهو الشجر، ثم أُبدلت الشين سينًا ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

فقال فرعون لآسية: قرة عين لكِ وحدك، فأنا لا أريده.

الْمِنَّةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى[١]﴾

أي إني ألقيت عليك يا موسى محبة مني فصِرْتَ بها محبوبًا بين العباد، حيث زرعتُ محبتك وأنت صغير في قلوب الناس، فلا يراك أحد إلا أحبك، ولا أدل على ذلك من محبة فرعون وآله لك، وتَرْبِيتُك في بيته معززًا مكرمًا، مع أنك ستكون عدوه في المستقبل، ووصْف المحبة بأنها من الله؛ للدلالة على أنها محبة خارقة للعادة بوضع القبول له في الأرض، كما يضعه الله لعباده الصالحين.

أخرج عبدُ بنُ حميد أن عكرمة قال: نظرتْ آسية وجْهَ موسى فرأت حُسْنًا ومَلاحة، فعندها قالت لفرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩].

قال ابن عباس ﷺ: كان في عيني موسى مَلاحة، بحيث لا يراه أحد إلا أحبه، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾.

---

(١) قوله تعالى (وألقيت عليك محبة مني) عدّها آية، المدنيان والمكي والدمشقي، وأسقطها غيره من العدد.

المِنَّةُ الثَّالِثَةُ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾

أي: أنك تُرَبَّى على عيني، في حفظي وتحت رعايتي وعنايتي، وأنت في بيت عدو الله وعدوك، لا يصيبك سوء، ولا ينالك مكروه، بل تكون في عزة ومنعة، ومستوى راقٍ من المعيشة، وأنت في أحضان أمك وبيت أبيك، ونفقة فرعون عليك، وحب أهل بيته لك، وإعدادك للنبوة والرسالة.

وفي الآية إثبات صفة العين لله سبحانه، كما يليق بجلاله وكماله.

المِنَّةُ الرَّابِعَةُ: عَوْدَتُهُ إِلَى أَحْضَانِ أُمِّهِ

ومن حسن تدبير الله تعالى لموسى، أنه لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقًا شديدًا، فحرم الله عليه المرضعات تمهيدًا لعودته إلى أحضانها بإقباله على ثديها، وقد أخذت أخته تطوف في الديار لعلها تجده:

٤٠- ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ(١) وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا ۚ(٢) فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ(٣) ثُمَّ جِئْتَ(٤) عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ومننا عليك يا موسى، حين رفضْتَ المرضعات بإيحاء منا؛ حتى تعود إلى أمك وتُرَبَّى في حِضنها، وذلك حين أخذ موسى يبكي من الجوع، وجاؤوا إليه بالمرضعات، فرفض أن يَرْضَع، وامتنع من كل المرضعات، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾. وتقصَّت أخته أثره، وتبعتْه فوجدتْه في قصر فرعون، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: يحفظونه ويصونونه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. يحافظون عليه ويُرْضِعُونه، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ﴾ وتتبع أثرك

(١) عد (ولا تحزن) آية، الشامي وحد، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) عد (وفتناك فتونا) آية، الشامي والبصري، وتركه غيرهما.

(٣) عد (في أهل مدين) آية، الشامي وحده، وأسقطها غيره من العدد.

(٤) أبدل أبو عمرو بخلف عنه وأبو جعفر، همزة (جئت) حرف مد، وكذا حمزة عند الوقف، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

﴿فَنَقُولُ﴾ لمن أخذوك من آل فرعون ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ ويُرْضِعه لكم.

ولم يُقْبِل موسى على أيِّ امرأة ممن أُحْضِرْن له، فلما أُحْضِرَتْ له أمه رضع منها، وفرحوا فرحًا شديدًا، وقالت آسية: أَحْضِروها للقصْر لترضعه، فقالت أمه: إن لديها مسؤوليَّات، ولن تستطيع ترك بيتها والإقامة عندهم، فوافقوا على إرساله لها في البيت لترضعه، وتحقق بهذا وعد الله سبحانه لها في قوله: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]، وفي قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. وهنا قال تعالى: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: أعدناك إلى أحضان أمك بعدما كنت في حجر فرعون؛ كي تطيب نفسها بسلامتك من الغرق، والقتل، ولا تحزن على فقدك.

الْمِنَّةُ الْخَامِسَةُ: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾

أي: واذكر يا موسى حين قتلت الرجل القبطي خطأ، حين كانت سنُّك اثنتي عشرة سنة، فنجيناك من غم مؤكد، وقَتْلٍ محقق؛ حيث اغتمَّ موسى خوفًا من عقاب الله له، واغتمَّ خوفًا من القصاص، فغفر الله له ذنبه ونجاه من القصاص.

في صحيح مسلم بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ قال: يا أَهْل العراق، ما أسأَلكم عن الصغيرة وأركَبكم للكبيرة، سمعت أبي، عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الفتنة تجيء من ها هنا» وأومأ بيده نحو المشرقِ من حيث يطلع قرنا الشيطان، «وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قَتَل موسى الذي قَتَل من آل فرعون خطأ»، فقال الله ﷻ له:** ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[1].

وقد جاء سبب هذا القتل الخطأ في سورة القصص [١٥، ١٦] وهو استغاثة الإسرائيلي بموسى على المصري الذي تشاجر معه، وأن موسى ﷺ أراد أن يفصل بينهما، فوكز المصري؛ ليدفعه عن الآخر، فكانت القاضية، فأسند موسى ذلك إلى الشيطان، واستغفر ربه فغفر له، وهذا هو المراد في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

وهو الذنب المراد في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء]. وهو مراد فرعون حين قال لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء].

---

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ٢٢٢٩) برقم (٢٩٠٥) كتاب الفتن، باب الفتنة في المشرق من حيث طلع قرنا الشيطان.

وقد نجى الله موسى من الغم: أي من عقوبة الذنب ومن القتل.

الْمِنَّةُ السَّادِسَةُ: هِجْرَتُهُ إِلَى مَدْيَنَ وَنَجَاتُهُ مِنَ الْفِتَنِ ﴿وَفَتَنَّكَ فُتُونًا﴾

أي: ابتليناك ابتلاء، واختبرناك فوجدناك مستقيمًا في أحوالك وأطوارك حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من النبوة والرسالة، وهما أعلا مراتب البشر:

وبعد تعداد هذه المنن، ذكَّر الله سبحانه موسى بالفتن التي ابْتُلِيَ بها، وهي قتْله للقبطي، والهجرة إلى مدين، وبيَّن سبحانه أن عاقبة هذه الفتن كانت محمودة؛ حيث أعده الله تعالى لتحمُّل المصاعب، وأعباء الرسالة.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: خرجت خائفًا من مصر ووصلْتَ إلى مدين، ومكثْتَ فيهم سنين طوالًا، ثم رجعت من مدين في الموعد الذي قدَّرناه لإرسالك، فجئت في وقت موافق لقدر الله وإرادته، والأمر كله لله تعالى.

قالوا: إن قَتْلَ موسى للمصري الذي اشتبك مع الإسرائيلي، كان خطأ، فإن موسى دفع المصري؛ ليُبعده عن الإسرائيلي، فوقع على الأرض من هذه الدَّفعة ومات، ولم يكن موسى يقصد قتله، وخرج موسى من مصر هاربًا إلى أهل مدين، ونجَّاه الله من فرعون وقومه، وبقي في مدين ثمانية وعشرين عامًا، عشرة منها كانت مهرًا لابنة شعيب، وثمانية عشر بعدها؛ حيث ولد له أولاد، وكان عنده غنم.

ثم خرج موسى من مدين قاصدًا مصر، متوجهًا إلى أمه، وبينما كان في أرض سيناء، بجبل الطور، نزل عليه الوحي، وعُمْره أربعون سنة، ذلكم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ المراد بالقدَر هنا: هو وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر، أي: أن موسى عليه السلام جاء في وقت مقدَّر ومحدد من الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]

وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وهو القدَر العام الذي يدبر الله به شؤون الكون.

وكان هذا المجيء يوافق بلوغه سن الأربعين وهو السن الذي يوحى فيه إلى الرسل غالبًا، فقد وصل موسى في هذا الوقت إلى جبل الطور، وجاءته النبوة حيث أوحى الله إليه ما أوحى.

وما حصل لموسى كان من الابتلاءات والمحن التي نجاه الله وخلَّصه منها، واحدة بعد الأخرى: قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أي: محنة بعد محنة، وفتنًا متتابعة، حيث ابتليناك بابتلاءات متلاحقة، وخلَّصك الله منها جميعًا، ومن هذه المحن:

أن أمك حملتْك في السنة التي يُذبَح فيها الأطفال، ثم ألقتك في اليم بعد وضعك في الصندوق، ثم منْعك من الرضاعة إلا من ثدي أمك، ثم أخذْتَ بلحية فرعون وهمَّ بقتلك، ثم قتلْت القبطي، وخرجْت إلى مدين خائفًا، فنجاك الله من هذا كله.

وأهلُ مدين هم قوم شعيب، ومدين أحد أبناء إبراهيم ﷺ، حيث سكنتْ ذريته في مواطن تسمى مدين والأيكة، على شاطئ البحر الأحمر، جنوب العقبة، وصار الاسم علمًا على المكان، ومدين والأيكة مكانان مختلفان متجاوران، وليسا مكانًا واحدًا على الأرجح؛ لأن الله تعالى قال في أهل مدين: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: ٨٤]. وقال عن أهل الأيكة: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء]. ولم يقل: (أخوهم)، فتبيَّن بهذا أن شعيبًا كان من مدين، ولم يكن من الأيكة، وأنه قد أُرسل إليهما معًا، وتبيَّن أيضًا أنه الرجل الصالح الذي تزوج موسى ابنته.

فقد خرجتَ يا موسى من مصر، ولبثتَ سنين في أرض مدين، وأنت بجانب الطور الأيمن أثناء عودتك إلى مصر اصطفيتك لرسالتي، ونبوتي؛ للقيام بمهام الرسالة وفق إرادتي، وجعلتُك واسطة بيني وبين عبادي.

المِنَّةُ السَّابِعَةُ: اجْتِبَاءُ مُوسَى وَاصْطِفَاؤُهُ

٤١ - ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى[(١)] ﴿٤١﴾﴾

أي وأنعمت عليك يا موسى، هذه النعم، اجتباءً مني لك، واختيارًا لرسالتي، والبلاغ عنِّي، والقيام بأمري ونهيي.

(١) فتح نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر الياء من (لنفسي) حال وصلها بما بعدها، والباقون بإسكانها، ومثلها ياء (ذكري) عند وصلها بما بعدها، وعند الوقف عليهما: الجميع بالسكون المدِّي.
هذا: وقد عد (لنفسي) آية، الشامي والكوفي وتركها غيرهما.

والمعنى: إني اصطفيتك واجتبيتُك رسولًا، كما أريد وأشاء، وربيتك على مرآى مني، تحت حفظي ورعايتي، لتكون لنفسي حبيبًا مختصًا، وتبلُغ مبلغًا كبيرا بين الخلق.

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«التقى آدم وموسى، فقال موسى لآدم: أنت الذي أشقيتَ الناس وأخرَجْتَهم من الجنة؟ قال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدتَها كُتب عليَّ قبل أن يخلقني؟ قال: نعم، فحج آدم موسى»**(١).

ومعنى أن الله تعالى كتب ذلك على آدم قبل أن يخلقه، أي: أن الله سبحانه عَلِمَ فأراد، فالكتابة تسجيل لما سيقع، مما كشفه عِلْمُ الله تعالى في الأزل، ولا يقع في مُلك الله تعالى ما يخالف عِلْمه وإرادته.

وهكذا يمتنُّ الله على نبيه موسى بأن حفظه وهو في نهر النيل، ثم حفظه وهو في حِضن أعدائه وأعداء الله، ثم سخَّر له أخته؛ لترشد آل فرعون إلى من يُرضعه وَيكفُله، ثم ردَّه إلى أمه بعد حزنها البالغ وألمها الشديد، والذي صنع به كل ذلك قادر على أن يحفظه من بطش فرعون وهو يدعوه إلى توحيد ربه، وإطلاق سراح بني إسرائيل من ظلمه واضطهاده.

مُوسَى وَهَارُونُ رَسُولَانِ إِلَى فِرْعَوْنَ بِاللُّطْفِ وَاللِّينِ

٤٢- ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾﴾

كان ذِكْرُ المنن السابقة تمهيدًا للأمر الذي جاء في هذه الآية، وكأنَّ الله تعالى يُطَمْئِن موسى سلفًا؛ لئلَّا يرهب جبروت فرعون في مواجهته له بالدعوة إلى الله تعالى؛ لأنه تربَّىٰ في بيته، ونشأ في رعايته، وليبيِّن له أن الله تعالى الذي حفظه ورعاه في طفولته، وصباه، وشبابه، سيحفظه من فرعون، وينصره عليه وهو نبيًا رسولًا.

وهكذا أَمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون؛ لتبليغه دعوة الله إليه، حيث خاطب الله موسى وهارون أن يقوما بدعوة فرعون، بعدما كان هارون حاضرًا مع موسى على أرض مصر، بوحي من الله تعالى إلى هارون في أرض (جاسان) صفط الحنة

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٧٣٦) وهذا لفظه، وانظر: (٣٤٠٩) وغيره ومسلم برقم (٢٦٥٢).

حاليا، بين مدينتي الزقازيق وأبي حماد، حيث كانت منازل بني إسرائيل، في محافظة الشرقية بمصر، وجاء في التوراة أنهما التقيا في جبل حُوريب[١]؛ وجبل الطور هو جبل حُورِيْب في سيناء ويكون الكلام قد طُوِيَ عن الفترة ما بين تكليم الله لموسى ﷺ في صحراء سيناء، حتى وصوله أرض مصر، حيث لقي أخاه وأبلغه أمر ربه.

وكان الله تعالى قد أمر موسى أن يتجه إلى مصر، وأمر هارون أن يقابل أخاه لدى وصوله إلى أرض مصر، حيث قال الله تعالى لموسى: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ الدالة على ألوهيتي، وكمال قدرتي، وقد أيَّدتُك بمعجزتي العصا، واليد؛ لبيان صدق رسالتك ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ أي: لا تضعُفا، ولا تفتُرا عن المداومة على ذكري، ولا تُقصِّرا في تبليغ دعوتي.

وفي هذه الآية أمْر من الله تعالى لموسى أن يبلِّغ أخاه هارون بمرافقته في تبليغ الدعوة لفرعون وقومه؛ لأن هارون لم يكن حاضرًا حين كلَّم الله موسى في البقعة المباركة من الشجرة، ولم يكن هارون حاضرا في الوقت الذي أمر الله فيه موسى أن يصحب أخاه في تبليغ الدعوة إلى فرعون، فتعيَّن أن يكون المراد: هو ذهاب موسى بعد وصوله مصر حيث يوجد فرعون، وبعد لقائه بأخيه هارون، وإبلاغه أمر الله تعالى إليه.

أُسْلُوبُ دَعْوَةِ الطُّغَاةِ وَإِعَانَةُ اللَّهِ لِلدُّعَاةِ

٤٣، ٤٤- ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾

أمر الله موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون؛ لدعوته إلى الله تعالى، فقد تجاوز الحد في الكفر والظلم، فذهب موسى ولقي أخاه هارون، وأبلغه أمر الله إليه، واصطحبه معه للقاء فرعون، ورسم الله لموسى وهارون في هذه الآية أسلوب الدعوة الذي يجب أن يتحلَّى به كل داعية فأمرهما بلين القول، ورقيق العبارة عن طريق الترغيب والترهيب، لعله يتعظ ويخاف، لأن القول الغليظ ينفر الناس عن صاحبه.

---

(١) وذلك في الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج، يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٢٤).

وهناك بيان لهذا القول في قوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات] أي: ولْتكن دعوتكما له بكلام رقيق لين، قريب سهل؛ ليكون أوقع وأبلغ، وأنجع في النفوس، لعله يرجع عما هو فيه من الضلال، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولفظ (هل) يدل على العرض والمشاورة.

فقولا له: إن لك ربًا، وإن لك مَعادًا، وإن بين يديك جنة ونارًا، وارفُقا به ولا تُعنِّفاه، وكنِّياه فقولا له: (يا أبا الوليد).

قيل: إن فرعون أعجبه كلام موسى، وأراد اتباعه، ولكن هامان منعه، وكان لا يتخذ قرارًا دونه، وقد تذكر فرعون ذلك وخشي مما كان موسى قد وعظه به، وذلك حين ألجمه الغرق، في وقت لا تنفع فيه الذكرى والخشية.

واللين هو شعار دعوة الحق، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. إذ المقصود هو حصول الاهتداء، لا إظهار العظمة، وغلْظة القول بدون جدوى، فإذا لم ينفع اللين جازت الغلظة، كما أمر الله نبيه محمدا ﷺ أن يدعو أهل الكتاب بالتي هي أحسن: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وهم ممن أعرض، واستكبر، وكذّب، وتولى، وقد دعا موسى فرعون إلى تزكية النفس وتطهيرها من الشرك، ثم دعاه إلى مقابلة النعم بالشكر وسلوك الطريق السوى.

إن الله تعالى يعلم أن فرعون لن يؤمن، ولكنه سبحانه يقيم عليه الحجة؛ ليقطع عذره، وليتعلم الدعاة إلى الله أن لا ييأسوا من جدوى دعوتهم، وأن يقوموا بدعوة الضعفاء والجبابرة على حد سواء، باللطف واللين، والحكمة والموعظة الحسنة.

٤٥، ٤٦- ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾

قال موسى، وهارون: ربنا إننا نخاف إن دعونا فرعون إلى الإيمان أن يعجِّل بعقوبتنا، أو يتمرد على الحق فلا يقبله.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ﴾ سطوة فرعون ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالعون والنصرة، والتأييد والقدرة على فرعون ﴿أَسْمَعُ﴾ كلامكما، ﴿وَأَرَىٰ﴾ مكانكما

وأفعالكما، فلا تخافا من بطش فرعون، فإن ناصيته بيدي، فلا يتنفس، ولا يتكلم، ولا يبطش إلا بإذني وحولي وقوتي، فزال الخوف عنهما واطمأنت قلوبهما بوعد الله لهما، وذهبا إلى فرعون والله معهما يسمع ويرى، قال تعالى:

٤٧ ، ٤٨- ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[1] وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ۝٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

اذهبا إلى فرعون فقولا له: إننا رسولان إليك من ربك، قالوا: إن موسى وصل إلى قصر فرعون، وقرع الباب بعصاه، فقال له البوابون: ماذا تريد؟ فقال: أريد فرعون، فقالوا لفرعون: إن بالباب رجلًا مجنونًا يريدك، ويقول: إنه رسول رب العالمين، فأذن لهما، فدخلا عليه وقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ وأخبَراه بأن هنالك إلهًا واحدًا يجب عليه أن يعبده، ويوحده، وهذا هو **الشق الأول** من الدعوة.

أما الشق الثاني: فهو إنقاذ بني إسرائيل من تسلُّط فرعون؛ ليكونوا أمة واحدة، وهذا معنى ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، وقالا له: قد جئناك بالآية والمعجزة الدالة على أننا رسولان من عند الله إليك، فقال فرعون: ما هي؟ فأدخل موسى يده في جيبه تحت إبطه، ثم أخرجها بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس.

قال موسى لفرعون: وجئناك بآية أخرى، هي آية العصا التي انقلبت حية في يوم الزينة - كما سيأتي بيانه -.

ثم قال موسى وهارون لفرعون في نهاية كلامهما: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ومن لم يتبع الهدى فإنه لا ينجو من عذاب الله يوم القيامة.

والمعنى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، فآمنت بالله وصدقت رسوله.

وهكذا لما كتب النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا كان أوله: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى.**

أما بعد: فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين»[2].

---

(١) عد (معنا بني إسرائيل) آية، الشامي، وأسقطها غيره.

(٢) عبد الرزاق في «المصنف» (٩٧٢٤) والبخاري (٤٥٥٣) ومسلم (١٧٧٣).

ولما كتب النبي ﷺ إلى مسيلمة الكذاب رادًّا على رسالته قال له: **«من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»**(١) وهكذا قال موسى وهارون لفرعون.

قال قتادة: التسليم على أهل الكتاب إذا دخلْتَ عليهم بيوتهم أن تقول: السلام على من اتبع الهدى(٢).

وقالا له إن ربك وخالقك قد أوْحَى إلينا أن عذابه على من كذب الرسل، وأعرض عن دعوة الله وشريعته، وفي هذا ترغيب لفرعون بالإيمان، وترهيب له من الكفر، ودعوة إلى الانقياد والا تباع لما جاء به موسى عليه السلام، ولكن فرعون لم يُفد فيه هذا الوعظ والتذكير، فكفر بالله وكذب رسوله، وجادل في ذلك ظلمًا وعنادًا:

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات].

وقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل].

وقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة]

أي: كذب بقوله وتولَّى بفعله، وبهذا الترهيب والتحذير من مخالفة أمر الله تعالى ورسله، يُخْتم كلام موسى وهارون إلى فرعون.

وقد تضمنت هاتان الآيتان جملة الدعوة التي وجَّهها موسى وهارون إلى فرعون، وتوعدتْه بالعذاب إن هو كذَّب وأعرض، ووعدتْه بالسلامة من العقاب إن هو اتبع الهدى.

وفي قولهما: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ إشارة إلى الجانب الأول من مهمتهما وهي دعوته إلى التخلي عن الكفر والطغيان، وإقراره بوحدانية الواحد القهار، وإخلاص العبادة له سبحانه.

وفي قولهما: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. إشارة إلى الجانب الآخر من الدعوة، وهو إطلاق سراح بني إسرائيل؛ كي يعيشوا أحرارًا ويخرجوا من أرض مصر، وألا يعذبهم

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٦٠٠) وهو في الآحاد والمثاني برقم (١٣٠٩) عن أبي سلمة بن نعيم بن مسعود، عن أبيه.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٨٤١) والبيهقي في «الشعب» (٨٩٠٧).

باستعبادهم وقَهْرِهم، وقَتْلِ الذكور وإبقاء الإناث، كما امتنَّ الله عليهم بذلك في قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة].

فهو سبحانه خلق ورزق وقدر وهدى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى].

جَانِبٌ مِنَ الْحِوَارِ بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

٤٩، ٥٠- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾

أي: أن موسى وهارون أتيا فرعون، وبلَّغاه ما أُمِرا به، فقال لهما: ومَنْ هذا الرب الذي تدعُوَاني إليه يا موسى؟! إني لا أعرفه، وقد أضاف الرب إليهما، إنكارًا وطغيانًا أن يكون هناك رب غيره؛ فهو يدَّعي الربوبية والألوهية، وهذا هو السؤال الأول، وقد خصَّ فرعون موسى بالخطاب؛ لِعِلْمِه أنه الأصل في الرسالة، وأن هارون وزيره تابع له، ولِمَا بينهما من اتصال سابق؛ حيث كان موسى معروفًا في بلاط فرعون، وقد سأله بضمير التثنية، ثم أفرد موسى بالذكر، وأجابه موسى بالجمع في الآية التالية.

قال موسى لفرعون مجيبًا عن سؤاله: إن ربنا هو الذي وهب الوجود لكل موجود، وخلَق هذا الخلق، وصوَّر كل مخلوق بصورته وشَكْلِه وهيئته التي تناسب وظيفته، فصورة المرأة غير صورة الرجل، وصورة الحيوان غير صورة الطير، ثم هدى كل مخلوق إلى أداء الوظيفة التي خلَقَهُ من أجلها، وهداه إلى منافعها، فقد ألهم الله الذَّكَر كيف يأتي الأنثى، وألْهَم كل جارحة لأداء مهمتها، فاليد وظيفتها البطْش، والرِّجْل وظيفتها المشْي، والأُذُن وظيفتها السمع وهكذا كل مخلوق هداه الله لأداء المهمة التي خلق من أجلها.

فالمعنى: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق، وكل عضو صورته وهيئته المناسبة التي تلائمه، وتُحقِّق مصلحته؛ كالعين، والأذن، والأنف، واللسان، واليد، والرجل، فأعطى العين الهيئة التي تُطابق الإبصار، وأعطى الأذن الشكل الذي يُوافق الاستماع، وهدَى كل مخلوق، وكل عضو إلى وظيفته التي خُلق من أجلها، وأمده بالوسائل والملَكات التي تحقق وظيفته، وهكذا.

وهدى خلْقه إلى كل ما يحتاجونه في معاشهم وحياتهم، فهو سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ

شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ السجدة: ٧] وهدى كل مخلوق لأداء وظيفته التي خُلق من أجلها.

وخلَق للذكور نظائر من الإناث؛ ليكونوا أزواجًا لهم، فيأنس كل منهم بالآخر، وتعْمر هذه الحياة، فخلَق من الإنسان الذكر والأنثى، ومن الحيوان الذكر والأنثى، ومن الطيور الذكر والأنثى، ومن الهوام الذكر والأنثى، وهكذا الشجر والنبات وسائر المخلوقات، كما خلق سبحانه كل نظير من الإناث على هيئة الذكور وصورته؛ ليتم الأنس والنفع، ويكون النسل والرزق، ويعمر هذا الكون.

١- فسواء أكان المعنى: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق صورته ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها.

٢- أو كان المعنى: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق نظيرًا له في الهيئة والشكل.

٣- أو أنه - سبحانه - أعطى كل شيء مقومات صلاحه، ثم هداه لما يُصلحه.

٤- أو أنه جل شأنه - أعطى خلْقَه كل ما يحتاجونه، ثم هداهم إلى طرق استعماله والانتفاع به. سواء أكان المعنى هذا أو ذلك فإن الآية تشمل هذه المعاني كلها.

فالله تعالى هو الذي أفاض بالوجود والنعم على كل مخلوق، ثم هداه إلى ما خلقه من أجله، كما قال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد].

والنجدان: هما طريقا الخير والشر، وبهذا أجاب موسى فرعون وهو يعرِّفه بربه ورب كل شيء. فماذا كان جواب فرعون؟

٥١ ، ٥٢- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾

قال فرعون في سؤاله الثاني: فما شأن الأمم السابقة؟ وما خبر القرون الماضية؟ مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، فإنها كانت تعبد الأوثان وتنكر البعث؟! وكان مؤمن آل فرعون قد ذكر له مصارعهم في قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر] فرد عليه موسى بأن عِلْمها عند ربي في كتاب، محفوظ عند الله

يجازيهم عليها، فاحتجاج فرعون بمن كان قبله مردود عليه بأن الله تعالى محيط بهم، وسوف يعاقبهم.

قال موسى لفرعون: عِلْمُ تلك القرون فيما فَعَلَتْ من الإيمان، أو الكفر، وغيرهما، عند ربي في اللوح المحفوظ، ولا عِلْمَ لي به، وإنما قال موسى ذلك؛ لأن هلاك فرعون كان قبل نزول التوراة.

إن ربي لا يَغْفَل عن شيء في أفعاله وأحكامه، وعِلْمُه محيط شامل، ولا ينسى شيئًا مما عَلِمَه منها، ولا من غيرها، فهو سبحانه ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ وعِلْمُ الإنسان يعتريه النقص والنسيان، أما عِلْم الله تعالى فلا يندُّ عنه صغيرة ولا كبيرة، ولا يُنسى منه شيئًا، مهما تطاولت القرون والأزمان.

وتلك أمة قد خلت بمالها وما عليها، وقد أريناك - يا فرعون - من الآيات ما يوجب الانقياد للدعوة، وإن كنت في شك من ذلك فالباب مفتوح للبحث والحجة والبرهان.

ثم استطردت الآيات في ذكر بعض الدلائل الكونية الموجبة لوحدانية الله تعالى:

مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِي الْكَوْنِ لِهِدَايَةِ مَنْ كَفَرَ بِهِ سُبْحَانَهُ

٥٣، ٥٤- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا[١] وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾

هذه الآية، والآيتان بعدها معترضة في أثناء القصة، وفيها استدلال بالأرض وهي ممهدة للعيش فوقها، واستدلال بما فيها من طُرُق ومسالك، واستدلال بها حين ينزل عليها الماء، فتُخرِج النبات والكلأ، واستدلال بها في خلق الإنسان من الأرض ودَفْنِه فيها، وإخراجه منها يوم البعث والنشور.

ولا يُحتمل أن تكون هذه الآيات الثلاث من كلام موسى ﷺ؛ لأن فيها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾.

وفي هذه الآيات لَفْتُ نظر فرعون وغيره إلى قدرة الله تعالى في هذا الكون، سِيَّمَا المكان الذي يعيش فيه فرعون من العالم في مصر، وهي أرض منبسطة، فيها ماء، وفيها

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (الأرض مهادًا) بكسر الميم وألف بعد الهاء، اسم لما يمهد كالفراش، والباقون (مهدًا) بفتح الميم وحذف الألف.

زرع ونخيل وأنعام، فقال تعالى في مقام الاستدلال على آثار قدرة الله تعالى في الأرض والزرع والنبات والماء:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ بسطَها ومهَّدها لكل إنسان في أي مكان من العالم، فيسَّرها للانتفاع بها في السكنى والبناء والغرس والزرع واستخراج المعادن والكنوز وغير ذلك، وجعلَها مسْتقَرًّا لنا في الحركة والنوم والحياة، ولم يجعلها كلها جبالًا، ولا بحارًا، ولا سُهولًا، ولا أوْدِية، بل جعلها متعددة المنافع

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل فيها الطرق الكثيرة، والفجاج الواسعة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]. فينتقلون من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، وينتفعون بأسفارهم وتنقلاتهم، وأنزل بقدرته من السماء ماء، فأخرج بسببه أصنافًا متعددة من النبات تختلف في طعمها، وشكلها، ورائحتها، وأحيا به الأرض بعد موتها.

والأزواج في الآية هي الأصناف من النبات، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وجميع الأجناس المتفاوتة من النبات والزروع يُخرجها الله تعالى من الأرض بسبب هذا الماء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

وقال جلَّ ذكره: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

وهكذا فإن الآية الكريمة اشتملت على أربع مننٍ امتنَّ الله بها على عباده، وذكرها الله تعالى في سياق تعريف العبد بربه، وهذه المنن الأربع هي:

١- تمهيد الأرض وتهيئتها لنفع الإنسان والحيوان.

٢- وجعل الطرق فيها للتنقُّل والأسفار.

٣- وإنزال المطر من السماء ليحى به كل كائن حيّ.

٤- وإخراج النبات المتنوع من الأرض قوتًا للإنسان والحيوان.

كلوا أيها الناس من طيبات ما أنبتنا لكم من الأرض، واتركوا حيواناتكم وبهائمكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرجه الله من الأرض وجعله ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٣﴾ [النازعات]. إن فيما ذُكِر لَعَلاماتٍ دالة على قدرة الله تعالى، ودعوة لوحدانيته سبحانه، وإفراده بالعبادة، فهي حجج واضحة، وعظات وعبر لذوي العقول والبصائر، وخص أولى النهي بذلك، لأنهم المنتفعون بالدلائل والبراهين، بخلاف غيرهم فهم كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ولما ذكر سبحانه نعمة الأرض، أخبر أنه خلقنا منها وفيها يعيدنا إذا متنا ومنها يخرجنا عند البعث والنشور للحساب والجزاء على الأقوال والأعمال فقال:

٥٥- ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝٥٥﴾

بيَّن الله سبحانه في هذه الآية، أنه خلَقنا من الأرض، وإليها نعود، ومنها نُبعث: فإن كنت تعقل -أيها المخاطب - فاعْلَم أن هذا من آثار نعم الله عليك، وعلى غيرك، فلا تتكبر فإنك مخلوق من تراب، بِخَلْق آدم عليه السلام منه، وأنت - أيها الإنسان - مخلوق من هذه الأرض، وعناصر جسم الإنسان من عناصر الأرض، من المادة ذاتها، ومن الأرض يأكل الإنسان، ومنها يشرب، وفيها يموت، فيتحلل إلى نفس المواد الترابية التي خُلق منها، ودفن فيها، ومن الأرض نُحييكم تارة أخرى.

حضر النبي ﷺ جنازة، فلما دُفن الميت، أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر، ثم قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ ثم قَبض حِفْنة أخرى، فقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ وقبض قبضة ثالثة فقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: للبعث، والحساب، والجزاء.

فأصل خَلْق الإنسان من الأرض، شبيه بإخراج النبات منها، وخروج الناس إلى الحشر، شبيه بخروج النبات من الأرض، قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨﴾ [نوح].

والقادر على البدء قادر على الإعادة، وهذا كقوله تعالى:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ۝٢٥﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

ودَفْنُ الميت في اللحد أو الشق من الأرض، هو الأمر المشروع، وليس إحراقه بالنار، ولا إغراقه في الماء، وبهذا هدى الله الغراب؛ ليرشد ابن آدم إلى دفن أول جثة تموت بوضعها في الأرض، وإلى هنا ينتهي هذا المقطع من السورة، وتبدأ قصة موسى مع السحرة:

آيَاتُ مُوسَى التِّسْعُ

٥٦- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾

وبعد هذا الاستطراد تعود الآيات إلى قصة موسى مع فرعون، فتأتي هذه الآية مقدمة لاستئناف الحوار بينهما، بمعنى: أن موسى وهارون أتيا فرعون، وقالا له ما أمرهما الله به، وأطلع موسى فرعون على ما أيده الله به من المعجزات المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ۖ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ [النمل].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وكانت معجزتا العصا واليد، هما أول ما واجه بهما موسى فرعون، واستمر تكذيبه حتى بعدما أيده الله ببقية المعجزات، وعلى هذا جاء ذكر الآيات كلها في هذه الآية.

وقد بيَّن سبحانه أن فرعون وقومه لن ينتفعوا بها، ولن يؤمنوا بمقتضاها، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزخرف].

ومنها آيات التوحيد وآيات النبوة، ولكن فرعون لجحوده وطغيانه كذَّب بها جميعًا.

لقد أطْلع موسى ﷺ فرعون على الآيات الكونية، وهي آيات الله في الكون، الناطقة بتوحيده سبحانه وعدم الإشراك به، وأطلعه كذلك على المعجزات الحسِّية، وهي الآيات التسع التي أيده الله بها.

وهذه الآيات التسع هي: العصا، واليد، وفلْق البحر، والحجَر، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم، ونتْق الجبل، إلى جوار الآيات الأخرى المذكورة في القرآن، وكان

كلما أطلعه على معجزة من هذه المعجزات، طلب منه أن يوحِّد الله تعالى، ويرسل معه بني إسرائيل؛ ليخرُج بهم من مصر حتى يخلِّصهم من عذابه، فيعدُه فرعون، ثم يُخلف وعده، ثم يُطْلِعه على آيات أخرى، فيعده، ثم يُخْلف وعده.

ثم قال فرعون لموسى: هل يستطيع ربك أن يؤيدك بغير العصا، واليد، وغير الحجَر، وفلْق البحر، ونتْق الجبل؟ فأرسل الله عليه، وعلى قومه: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، وهي الآيات الدالة على صدق رسالته.

وهكذا أطلع موسى فرعونَ على حجج الله تعالى، وآياته الدالة على ألوهيته سبحانه وقُدرته، والدالة كذلك على صدق موسى ﷺ في رسالته، فكذب فرعون بها جميعًا، وامتنع عن قبول الحق ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ كذب الخبر، وتولَّى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلًا والباطل حقًا، وجادل بالباطل ليضل الناس بغير علم .

وهكذا: كذَّب فرعون موسى مع علمه بأنه صادق، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل]

فهذا التكذيب وهذا الإباء إنما هو استكبار وعلوٌّ؛ حتى لا يؤمن فرعون بموسى ﷺ فيسلُب منه الملْك والعظَمة والسيادة.

السحر: أضراره، وعلاجه، وحكمه

السحر: من كبائر الذنوب، ومن السبع الموبقات، وتعلُّم السحر والعمل به إن كان فيه تعظيم لغير الله تعالى، وتقرب لغيره سبحانه، كالتقرب إلى الجن والكواكب، وتعظيمها من دون الله، فإن ذلك كفر مخرج من الملة، كما قال سبحانه عن سحر هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

أي: لا تكفر بتعلُّمك للسحر والعمل به.

وعلاج السحر قبل وقوعه يكون بتحصين المسلم بالأذكار والأدعية في صباحه، ومسائه، وبعد الصلوات، فيقرأ المسلم آية الكرسي، وآخر البقرة، والمعوذتين، والأدعية والأذكار الواردة في ذلك، فإنه بمشيئة الله تعالى لا يصيبه سحر، ولا عين، ولا جن، ولا نحو ذلك.

وعلاج السحر بعد حدوثه يكون كذلك بالرقية الشرعية المرْوِية، وذلك بقراءة القرآن الكريم، وآيات التحصين، ومنها آيات السحر في سورة الأعراف [١١٧، ١١٨]، ويونس [٨١، ٨٢]، وطه [٦٩].

ويكون علاج السحر أيضًا بإبطاله إن عُرف مكانه، ودل عليه دليل بالطرق الشرعية، كأن رأى الإنسان في منامه ما يُعْلِمه بمكان السحر، أو اعترف الفاعل الذي صنعه بوجود السحر ومكانه، أو دله عليه شخص رآه أو عَلِمَه، ونحو ذلك.

والسحر قد يُرَى له تأثير وحقيقة فعلية، كما قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت القرآن الكريم حدوث التفرقة بين الرجل والمرأة بسبب السحر، ولكن هذا لا يقع ولا يكون إلا بإذن الله تعالى وإرادته.

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

هل سُحر النبي ﷺ؟

وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما: من حديث عائشة ﵂ قالت: سَحَر رسول الله ﷺ يهوديٌّ، من يهود بني زُرَيْق، يقال له: لَبِيدُ بنُ الأعصم، قالت: حتى كان رسول الله ﷺ يُخَيَّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: **«يا عائشة، أَشَعَرْتِ أن الله أفتاني فيما استفْتيتُه فيه، جاءني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رِجْلي، فقال: أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجل؟ قال: مَطْبُوب، قال: مَنْ طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بنُ الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشْط ومُشاطَة، وجُفِّ طَلْعِ نخلةٍ ذَكَرٍ، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أَرْوَان»**، قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أُناس من أصحابه، ثم قال: **«يا عائشة والله لكأنَّ ماءَها نُقَاعَةُ الحنَّاء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين»**، قالت: فقلت: يا رسول الله، أفلا أَحْرَقْتَه؟ قال: **«لا، أما أنا فقد عافاني الله، وكرهتُ أن أُثير على الناس شرًّا، فأمرْتُ بها فدُفِنَتْ»**[1].

---

(١) البخاري (١٠/ ١٩٢) برقم (٣١٧٥، ٣٢٦٨، ٥٧٦٣، ٦٠٦٣) معلقًا ومسلم (٤/ ١٧١٩) برقم (٢١٨٩) وهذا لفظه، وانظر: (٤٣، ٤٤) وابن ماجه (٣٥٤٥) والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ٢٤٧) و«المسند» (٢٤٣٠٠) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٦٩).

وفي رواية أخرى للبخاري، وغيره: حتى كان يرى أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن[١].

بدل: «حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله». والرواية الثانية توضح الرواية الأولى.

والسحر الذي أصيب به النبي ﷺ هو من قبيل الأمراض التي تعْرِض للبدن دون أن تؤثِّر على شيء من العقل، ولا يعْدُو أن يكون نوعًا من أنواع العقْد عن النساء، وهو الذي يسمونه رباطًا، فكان يخيَّل إليه ﷺ أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه فإذا همَّ بها عجز عن ذلك، وهذا غير مخلٍّ بمقام النبوة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٤].

وفي هذا الحديث الصحيح، ما يدل على أن السحر له تأثير وله حقيقة، فالسحر يؤثِّر على جسد الإنسان، وجوارحه، ونشاطه الجنسي، وظاهر حاله.

ولذا فإن أخت لبيد بن الأعصم قالت: إن كان نبيًّا فسيخبَر، أي: يخبره الله تعالى، وإلا فسيُذهله هذا السحر، حتى يذهب بعقله، وقد أخبر الله تعالى نبيه به، ودله جبريل على مكانه، وجيء به.

الرسول بشر يعتريه ما يعتري البشر بما لا يقدح في العصمة:

ولم يؤثِّر هذا السحر على عقل النبي ﷺ، ولم يقدح في مقام النبوة والرسالة، فإن الرسول ﷺ معصوم وهو يبلغ رسالة ربه.

وحادثة السحر هذه؛ لبيان أنه ﷺ بشر يعتريه ما يعتري البشر، ولكن العناية الإلهية تلْحظه وتكْلؤُه، فلم يتركه الله تعالى لمكر اليهود، وإنما عصمه، وحفظه، وأرسل له جبريل ﷺ؛ ليزيل عنه الغمة.

ليس من السحر: وقد يكون السحر ضربًا من الخيال، والوهم، والشعوذة، كما حدث من سحَرة فرعون، وما ذكَره الله عنهم من أن موسى كان يُخيَّل إليه من سحرهم أن حبالهم وعصيَّهم تسعى ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه].

---

(١) البخاري برقم (٥٧٦٣، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦) من رواية ابن عيينة ومسلم برقم (٢١٨٩) وابن حبان (٦٥٨٣، ٦٥٨٤) والبغوي في «شرح السنة» (٣٢٦٠) وعبد الرزاق (١٩٧٦٤).

ومن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ومن السحر: تسخير الجن واستخدامهم، ومنه الاستعانة ببعض الأدوية والبخور التي تؤثر على الدماغ، ومنها الطلاسم، والعزائم، والتنجيم، وضرْب الودع والرمل، وقراءة الكف والفنجان.

حكم السحر والساحر: ومن استحل السحر، أو اعتقد أنه يؤثر بنفسه فإنه يكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وذلك إذا أدى به إلى الكفر؛ كتعظيم غير الله تعالى، واعتقاد جلْب الخير، أو دفع الضر من الجن، أو الكواكب، ونحو ذلك، فتعليمه وتعلُّمه حرام إذا تضمن ما يقتضي الكفر.

والساحر المُصِرُّ على سِحْرِه يُقتل عند أكثر أهل العلم، كما ورد عن عمر، وحفصة، وجُنْدب.

وإن كان السحر لا يتضمن كفرًا فهو من السبع الموبقات، وكبائر الذنوب.

أما حل السحر عن المسحور فهو جائز إن كان بالقرآن؛ كآية الكرسي، والمعوذتين، ونحوهما مما تجوز به الرُّقية.

ومن ذلك ما ورد عن وهب بن منبه في المربوط عن أهله: أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه ثم يضربه في الماء، ويقرأ عليه آية الكرسي، ويحسو منه ثلاث حسوات، ويغتسل، فإنه يَذهبُ ما به إن شاء الله.

ويجوز حلُّه كذلك بالدلالة على مكان السحر كما فعل جبريل بسحر النبي ﷺ.

والسحر في عهد فرعون كان منتشرًا متفشيًا، وقد أيد الله تعالى موسى عليه السلام بمعجزات منها قلب العصا حية، تلْقفُ ما يأفك السحرة، وقد أيَّد الله سبحانه كل رسول بمعجزة من نوع ما نبغ فيه القوم، ومعجزة موسى، التي نحن بصدد الحديث عنها، على ضوء هذه الآيات من سورة (طه)، كانت في مقابلة هذا السحر.

قِصَّةُ السَّحَرَةِ

٥٧- ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا[1] لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾

(١) أبدل السوسي وأبو جعفر همزة (أجئتنا) الساكنة ياء وكذا حمزة وقفًا، وحققها الباقون.

زعم فرعون أن ما جاء به موسى من الآيات، سحر وتمويه، المقصود منه إخراجهم من أرضهم والاستيلاء عليها.

قال فرعون لموسى على سبيل التهديد والوعيد: هل جئتنا بهذه الآيات؛ كي تُخْرِجنا من ديارنا بسحرك هذا؟ وهذه المقالة دعوى كل حاكم طاغية، يُقابَل بها الدعاة إلى الله تعالى والمصلحون، فإذا أمروهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، وإذا دعوهم إلى طريق الحق، قالوا لهم: أنتم طُلَّاب زعامة، وطُلَّاب حُكْم وسيْطرة على البلاد، وطلاب سياسة، وهذا هو عين ما فعله فرعون مع موسى.

لم يقابل فرعون المعجزة بمثلها، وإنما انتقل من المناظرة إلى شيء آخر ينفِّر به قلوب الناس عن موسى فقد لجأ فرعون إلى مقاومة موسى وتأليب الناس عليه، حين قال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا -يعني: أرض مصر- بسحرك -أي: بقلب العصا حية- يا موسى؟!

وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس].

وَرَدُّ فرعون على موسى في هذه الآية يدل على أن أَمْرَ موسى كان قويًا، وأنه كان له أتباع كثُر من بني إسرائيل، وأن رسالته وقعتْ في قلوب الناس، فارتعدت فرائصه خوفًا مما جاء به موسى، فهو يعلم أن من كان على حق لا يُخذل، ولا يقل ناصروه، وأنه غالب على مُلكه لا محالة.

وهذه الآية تقتضي أن فرعون أُرِيَ انقلاب العصا حية، وانقلاب اليد السمراء إلى بيضاء، كالقمر، وهو الذي سماه سحرًا. قال فرعون لموسى:

٥٨- ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ(١) نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى(٢)﴾

قال فرعون: فسوف نأتيك، يا موسى، بسحر مماثل؛ لِنُعارضك بسحر يقابل سحرك، ثم طلب فرعون من موسى أن يحدِّد زمانًا ومكانًا معيَّنًا للمقابلة، يلتزم به جميع الأطراف، ولا يُخْلِفه أحد؛ حتى يظهر للناس جميعًا أنك ساحر، ولست برسول، طلب فرعون أن يكون الموعد بعد أربعين يومًا، ووافقه موسى(٣) وشدَّد على عدم خُلف الموعد من الطرفين، وأن يكون اللقاء في موعد معين معلوم عند الجميع، يستوي فيه علم موسى وعلم فرعون وعلم السحرة، ويكون اللقاء في مكان وسط بين الطرفين، وفي أرض مستوية ليس فيها انخفاض ولا ارتفاع.

٥٩ ، ٦٠- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾

قَبِل موسى تحدي فرعون، وحدَّد لفرعون يوم اللقاء والاجتماع، في يوم الزينة، وهو يوم عيد لهم، يتزينون فيه ويتجملون، ويجتمعون من كل فج وناحية في وقت الضحى، حيث يكون فراغ الناس واجتماعهم وهم تاركون أعمالهم.

ويوم الزينة قيل: هو يوم عيد النَّيروز، وكان موافقًا ليوم عاشوراء، وهو ما يسمَّى بيوم الربيع، أو شم النسيم، أو وفاء النيل، حيث يرتفع منسوب المياه في نهر النيل، وأن يحشر الناس ضحى، أي: يكون الموعد في وقت الضحى، لا في وقت الصباح الباكر، ولا في وقت الظهيرة، أثناء الحر الشديد، ولا في وقت المساء، إنما يكون في ضحوة الشمس واجتماع الناس، وكون الاجتماع في يوم الزينة في وقت الضحى منه، يحصل فيه من كثرة الاجتماع ورؤية الأشياء على حقائقها.

وفي هذا تحدٍّ من موسى إلى فرعون؛ حيث طلب أن يكون الاجتماع في يوم العيد، وقت اجتماع الناس كلهم؛ كي يشهدوا المباراة، حتى يَظْهَر الحق، وتعلو كلمة الله، ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيع أمر موسى في الأقطار.

---

(١) قرأ أبو جعفر بإسكان الفاء من (لا نخلفه) فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، ويلزم منه عدم صلة الهاء، وقرأ الباقون برفع الفاء مع الصلة في الهاء، فعل مضارع مرفوع، والجملة في محل نصب صفة لـ(موعدًا).

(٢) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ويعقوب وخلف بضم السين من (سوى)، والباقون بكسرها، وهما لغتان.

(٣) نقله ابن كثير عن وهب بن منبه عند تفسير الآية (٥/ ٣٠٠).

انصرف فرعون وحاشيته يجولون في المدائن كلها؛ لجمْع السحرة كلهم من أرجاء البلاد، قيل: كان عددهم اثنين وسبعين، مع كل منهم عصا وحبال -وهذا أدنى ما قيل في العدد- اثنين من القبط من أهل مصر، وسبعين من بني إسرائيل، وكان فرعون يَجْبُرهم على تعلُّم السحر، وتم جمْعهم من الإسكندرية والفيوم والفَرَمَا، وهي مدينة قرب العريش.

وقيل: إن عددهم بلغ المئات أو الآلاف، حتى أوصله بعضهم إلى ثمانية آلاف، وربما دخلت الإسرائيليات في هذا العدد.

جمع فرعون هذا العدد الكبير من السحرة، ثم أتى يوم اللقاء في الموعد المحدد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس].

وقد وعدهم فرعون بالعطاء الوافر والقرب منه، كما جاء في قوله تعالى عن السحرة: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء].

وجاؤوا في الزمان والمكان المحددين، كما قال تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الشعراء].

وكان الجمع حافلًا، حضره الرجال والنساء والملأ والأشراف والعوام والصغار والكبار، حضر الجميع وقالوا للناس: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] وحينئذ وعظهم موسى ليقيم عليهم الحجة.

٦١- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم[1] بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾

جلس فرعون على سرير مملكته، وكبار رجال الدولة يحيطون به عن يمينه وشماله، ووقف السحرة صفًّا واحدًا، وجاء موسى متكئًا على عصاه ومعه هارون عليهما السلام، وقال موسى لسحرة فرعون قبل اللقاء، في هذا المجتمع من الناس أمام فرعون، وأمام الملأ، وهو يريد أن ينصح السحرة، ويعظُهم أوَّلًا، فيخوفهم من الله تعالى، ويحذِّرهم عاقبة الكذب الوخيمة، قال لهم: إن أنتم سميتم آيات الله ومعجزاته سحرًا أهلككم الله

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي ورويس وخلف بضم الياء وكسر الحاء من (فيسحتكم) مضارع: أسحته، أي: استأصله، والباقون بفتح الياء والحاء مضارع سحته، أي: استأصله أيضًا، وهما لغتان.

بعذاب من عنده، فاستأصلكم وخيّب سعيكم، وخِبْتُم في دنياكم وأخراكم.

أي: لا تختلقوا على الله الكذب، فيستأصلكم بعقوبة من عنده، ويُبيدكم بسبب هذا السحر، الذي تُحِيكُونَه للناس، فتزعمون أنه حق، فالويل والهلاك لكم أن تقفوا في وجهي، وتزعموا أنّ معجزاتي نوع من السحر، وتسيروا في رِكَاب فرعون، وتطيعوا أمره.

وبعد أن وعظهم موسى ﷺ نهاهم عن الكذب، وخوَّفهم من عقاب الله تعالى، فأنذرهم عذابه، وضرب لهم مثلًا بالأمم البائدة، وهكذا قدَّم موسى للسحرة النصح والإرشاد، لعلهم يثوبوا إلى رشدهم، فقال لهم: لا تفتروا على الله كذبًا، بإشراككم بالله، والتوجه إلى غيره بالعبادة، ولا تفتروا على الله كذبًا، فتزعُمون أن المعجزة التي أتى بها موسى سحر، ولابدَّ لكم أن تنصروا الحق، وتخذلوا الباطل، وأن تُطلعوا فرعون على حقيقة الأمر، وقد أفاد فيهم وعْظُ موسى فأصبحوا من أنصاره بعد أن كانوا من خصومه، وذلك أنهم - في باديء الأمر - اتفقوا سرًّا على أن يتبنَّوْا مقالة واحدة لينجحوا في موقفهم ويتمسك الناس بدينهم، كما قال تعالى:

٦٢- ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢﴾

سمع السحرة هذه الكلمة الوعظية من موسى فوقعت في نفوسهم موقعًا، سِيَّمَا أنهم على باطل، ثم تجاذبوا أطراف الحديث وتحادثوا سرًّا، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم، واختلفوا في شأن موسى، فمنهم من خشي الانخذال، ومنهم من قال: إنه ساحر، ومنهم من قال: هذا ليس بكلام ساحر، إنه كلام نبي، ومنهم من قال: إنه جاء لتغيير عقائد الناس، واكتساب الجاه والسلطان والمنافع، ثم قالوا: إن كان ساحرًا فسوف نغلبه، وإن كان أمره من السماء فله شأن عظيم[1].

أما المقالة التي اتفق عليها السحرة سرًّا فهي كما جاء في هذه الآية:

(١) هكذا قال قتادة، كما أخرجه ابن أبي حاتم.

٦٣- ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ(١) هَٰذَٰنِ(١) لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾

وبعد أن تجاذب السحرة أطراف الحديث وأخذوا يتشاورون سرًّا، قالوا: إنَّ موسى وهارون ساحران يريدان أن يخرجاكم من بلادكم مصر، بسحرهما، ويذهبا بطريقة السحر العظيمة التي أنتم عليها؛ فالسحر هو سبب عيْشُكم وأرزاقكم، وأنتم بسببه مُعزَّزُون بين الناس، وأصحاب شرف ومكانة بهذه الطريقة، وموسى يريد أن يغلبكم، وأن ينتصر عليكم، وينتزع منكم هذه الطريقة، منهجكم القويم.

وفي هذه المقالة، حضَّ بعضهم بعضًا على الاجتهاد في مغالبة موسى وهارون، ولهذا قالوا:

٦٤- ﴿فَأَجۡمِعُواْ(٢) كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

لقد خاف السحرة من موسى وهارون، فأخذوا يبذلون جهدهم في تجميع صفوفهم، وتشجيع بعضهم لبعض؛ حتى لا يسلب منهم موسى جاههم وسلطانهم ومنافعهم، فقال بعضهم لبعض: أظهروا سحركم دفعة واحدة، متظاهرين متعاونين، وأَحْكِموا أمركم، واعزموا عليه من غير اختلاف بينكم، ثم ائتوا إلى الميدان صفًّا واحدًا؛ ليكون أهْيَبَ في صدور الناظرين، وألْقُوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبْهَروا الأبصار، وتغْلِبوا سِحْر موسى وأخيه، فهذا يوم له ما بعده.

---

(١) ١- قرأ حفص بسكون نون (إن) وألف بعد الذال في (هذان) مع تخفيف النون، فـ(إنْ) مخففة من الثقيلة مهملة، و(هذان) مبتدأ، و(لساحران) خبر، ولام (لساحران) هي الفارقة بين إنْ المخففة والنافية.
٢- وقرأ ابن كثير مثل قراءة حفص إلا أنه شدد النون من (هذانّ)؛ وذلك للتعويض عن ألف المفرد التي حذفت في التثنية، ٣- وقرأ أبو عمرو بتشديد النون، و(هذين) بالياء، على أن (إنَّ) هي المؤكدة العاملة، و(هذين) اسمها، واللام للتأكيد، و(ساحران) خبرها، ٤- وقرأ الباقون وهم: نافع وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بتشديد النون وألف بعد الذال من (هذان) على أن (إن) عاملة ناصبة، و(هذان) اسمها، وذلك على لغة من يُلزم المثنى الألف في الأحوال الثلاثة، واختاره أبو حيان، وحكى الكسائي عن بعض العرب: من يشتري مني خفان، فهذه أربع قراءات في (إن هذان).

(٢) قرأ أبو عمرو بهمزة وصل بعد الفاء مع فتح الميم من (فاجمعوا) فعل أمر، من جَمَع ضد فرَّق، وقرأ الباقون بهمزة قطع مفتوحة مع كسر الميم، فعل أمر، من أجمع أمره، بمعنى: أحكمه، وجمع يتعدى للحسي والمعنوي، تقول: جمعت القوم، وجمعت أمري، وأجمع لا يتعدى إلا للمعنوي، تقول: أجمعت أمري، ولا تقول: أجمعت القوم.

ويبدو أن السحَرة تحيَّروا في أمرهم، فاهتموا بالكيد لموسى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء].

ثم قالوا من باب الحث والتحريض: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ أي: وقد ظفر بحاجته اليوم من انتصر، وفاز وغلب صاحبه وقهَره، يقولون ذلك إشارة إلى قول السحرة لفرعون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] أي: إن غَلَبْنَا موسى، هل يكون لنا أجر مادي على هذا؟ قال لهم فرعون: نعم، لكم الهدايا، ولكم الأجر الكبير، وفوق ذلك أنتم من المقربين إليَّ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء].

وهكذا، فقد أرادوا بالفلاح: ما وَعَدَهُم به فرعون من الإنعامات، والهدايا التي وعدهم بها، مع القرب منه، وتكريمهم.

فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل.

٦٥- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾

ولما حان وقت المبارزة قال السحرة لموسى: إما أن تلقي عصاك أَوَّلًا، وإما أن نبدأ نحن فنُلقي ما معنا؟ وهو تخيير يبدو فيه التحدي والتلويح بالقوة، فقد قالوا هذا وهم معتدُّون بأنفسهم، وهم واثقون مما هم عليه، متوهمين أنهم على يقين، ثم طلب منهم موسى أن يبدؤوا هم بإلقاء ما في أيديهم:

٦٦- ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ[1] إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾

أظهر موسى عدم المبالاة بسحرهم؛ ليُبْرِزُوا ما معهم، ويستفرغوا جهدهم، ويُظهِر الله الحق ويخذل الباطل، فقال لهم بأسلوب مهذب مؤدب: بل ألقوا أنتم ما معكم أَوّلًا.

فألقوا حبالهم وعصيَّهم، فخُيل إلى موسى أن هذه الحبال والعصي من قوة سحرهم، أنها تسعى، وخُيل إلى الناس كذلك، وهي من الكثرة بحيث غطَّت الساحة.

---

(١) قرأ ابن ذكوان وروح، بتاء التأنيث في (يخيل) على أن الفعل مسند إلى ضمير يعود على العصي والحبال وهي مؤنثة، والمصدر المنسبك من (أنها تسعى) بدل اشتمال من ذلك الضمير، وقرأ الباقون بياء التذكير، على أن الفعل مسند إلى المصدر المنسبك من (أنها تسعى) وهو مذكر، أي: يخيل إليه سعيها.

قيل: إنهم طَلَوْا هذه الحبال والعصيَّ بمادة الزئبق، وجعلوا فيها عقاقير، فإذا أتى عليها حرارة الشمس اضطربت وتحركت، وخُيِّل للرائي أنها تسعى؛ بسبب مادة الزئبق التي طُلِيتْ بها هذه الحبال والعصي.

وقد بيَّن الله سبحانه أنهم لَمَّا أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وبيَّن موسى عليه السلام أن الله تعالى مُبْطِل سِحْرَهم، ومُظْهِر كيدهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ٨٠ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾ [يونس].

وأقسم السحرة بعزة فرعون أنهم سيغلبون موسى ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الشعراء].

فلما خيل إلى موسى أنها حيات تسعى توجّس في نفسه خيفة منهم بمقتضى الطبيعة البشرية:

٦٧، ٦٨- ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾

أحس موسى في نفسه بالخوف، وخشي أن يَظْهر أمر السحرة، فيَظْهر الباطل، وينْتصر على الحق، وموسى يعلم أن الله تعالى مُظهِر دينه، ولكنه خشي أن يكون هذا استدراجًا للسحرة، فيظْهَرَ الكُفْر ولو مدة قليلة، وخشي موسى أيضًا على الناس الحاضرين أن يتْبعوا السحرة، ويؤمنوا بهم من قَبْلِ أن يَرَوْا معجزته.

قال الله تعالى لموسى مُطَمْئِنًا له: لا تخف من شيء إنك أنت الأعلى، وسيظهر أمرك على هؤلاء السحرة، وعلى فرعون وجنوده، وستغلبهم، فألق ما في يمينك:

٦٩- ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ[1] مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ[2] وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾

(١) قرأ ابن ذكوان بفتح اللام وتشديد القاف ورفع الفاء من (تلقّف) مضارع تلقَّفَ يتلقَّف، على الاستئناف بمعنى: تبتلع، وقرأ حفص بإسكان اللام وتخفيف القاف وجزم الفاء، وقرأ الباقون بفتح اللام وتشديد القاف، وجزم الفاء، جوابًا للأمر في (وألقِ ما في يمينك) وكذا قراءة حفص، وشدّد البزي التاء وصلًا بخلف عنه.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف (كيد سحر) بكسر السين وإسكان الحاء وحذف الألف، على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل، أو على تقدير مضاف، أي: كيد ذي سحر، وقرأ الباقون (ساحر) بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء، اسم فاعل مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله.

وبعد أن فرغ القوم من إلقاء سِحْرهم،أوحى الله تعالى إلى موسى في اللحظة نفسها أن يبطله، فأمره أن يُلْقي ما في يده اليمنى، فألقى موسى عصاه، فإذا هي ثعبان فاغرٌ فاه، له قوائم وعنُق ورأس، أقبل نحو فرعون، ففزع من سرير مُلْكه، وارتعدت فرائصه، واستغاث بموسى أن يمنعه منه، ففعل موسى، وإذ بهذا الثعبان العظيم يلتهم، ويبتلع بسرعة وخفة فائقة، جميع العصيّ والحبال التي ألقاها القوم، ثم أخبره الله تعالى بأنَّ ما عملوه أمامك يا موسى، ما هو إلا مكْرُ ساحر، وتَخْييل سِحْر، ولا يظفر الساحر بالنجاة في الدنيا ولا الآخرة.

ثم مد موسى يده إلى العصا فرجعت كما كانت، فنظر السحرة وعلموا أن الحق ما جاء به موسى فآمنوا، بعد أن ظهرت المعجزة وبطل ما كانوا يعملون.

وقد جاء هذا المعنى موضحًا في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف].

وكلمة ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ تأتي في القرآن العظيم مصاحبة للكفر وللظلم، والإجرام والفساد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١] أي: إن هؤلاء لا يظفرون بعون الله تعالى ونصره، والساحر من هذا القبيل.

سُبْحَانَ مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ

٧٠- ﴿فَأُلْقِىَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

أدرك السحرة، حينما رأوْا معجزة موسى، أنّ ما صنعه ليس بسحر، وأنه قد جاء بأمر ليس في طَوْق البشر، ولا في قدرتهم، إنه معجزة من عند الله تعالى؛ إذ كيف أن عصًا واحدة، تلْقف هذه العصي وهذه الحبال التي تُقدَّر بالآلاف؟!

ولما ظهر الحق، وقامت الحجة عليهم، كانت النتيجة أن ألقى السحرة أنفسهم على الأرض ساجدين لله تعالى، مؤمنين به، مصدقين بنبوة موسى وهارون، قائلين: لو كان هذا سحرًا ما غَلَبَنَا موسى، فكان مِن السحرة، أن أعلنوا إيمانهم، وخروا على الأرض ساجدين؛ لأنهم يعرفون السحر وحقيقته، وما جاء به موسى ليس بسحر؛ لذا: أدركوا أن هذا من عند الله سبحانه، فخروا له سجدًا، فسبحان مقلِّب القلوب، يُمْسِي الإنسان كافرًا ويصبح مؤمنًا، والعكس صحيح؛ فإن العبد قد يَسْمع كلمة بقلب مفتوح، يُلْقِي الله في قلبه الهدى والإيمان بعد الكفر والجحود، خرَّ السحرة سجدًا و﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]، و[الأعراف: ١٢١، ١٢٢].

وتقديم هارون على موسى، أو موسى على هارون، ليس فيه تفضيل لأحدهما على الآخر، والواو لمطلق الجمع.

قال ابن عباس ﷺ: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة، وهكذا أصحاب النفوس النقية عندما يتبيَّن لها الحق تفيء إلى رشدها وتستجيب له، وتُقْلِع عن غَيِّها وضلالها، فما أعجب أمرهم!!

لقد أَلْقَوْا حبالهم وعصيهم، كُفْرًا وجحودًا برسالة موسى، ثم أَلْقَوْا رؤوسهم بعد ساعة سجودًا وشكرًا لله تعالى، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين.

قيل: إنهم لمَّا سجدوا لم يرفعوا رؤوسهم حتى أراهم الله منازلهم في الجنة التي يَصِيرُون إليها، فرفعوا رؤوسهم قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ وتحدَّوْا فرعون قائلين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

ولما رأوْا عصا موسى تبتلع حبالهم وعصيهم، وهم أهل خبرة بفنون السحر وطُرقه ووجوهه، عَلِموا علم اليقين أن ما فعله موسى معجزة وليس بسحر، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر عليه إلا من قال للشيء: كن فيكون.

فِرْعَوْنُ يَتَوَعَّدُ السَّحَرَةَ عَلَى إِيمَانِهِمْ

٧١- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ[(١)] لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾

قال فرعون للسحرة بعد أن شاهدهم ساجدين لله: صدّقْتُم بموسى، واتَّبعتموه، وأقررتم له، قبل أن تستأذنوني، وقبل أن أسمح لكم بذلك؟

ثم أراد فرعون أن يدير الدفة على السحرة، ويلفق لهم الأكاذيب، وينتقل إلى نقطة أخرى، فقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَاۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

أي: هو أُستاذكم ورئيسكم ومُعلِّمكم الذي تعلَّمتم السحر على يديه، فلذلك تابعتموه، واتفقتم معه لتذهبوا بمُلْكي، وقصْدَه من ذلك صَرْفُ الناس عن التأسي بهم، وعن الإيمان بالحق الذي آمن به السحرة، والظهور أمام الناس بمظهر الثبات والتماسك بعد أن استبدَّ به الخوف والهلع.

ولكن كيف هذا وموسى قد جاء بالأمس القريب من أرض مدين، وكان مقيمًا فيها سنوات طوالًا، وهؤلاء السحرة رجال فرعون، وليس لموسى علاقة بهم، فهو لا يعرفهم، وفرعون هو الذي جاء بهم من ضواحي البلاد، ولم يَرَوْا موسى إلا في مكان المناظرة؟!

ثم تهدد فرعون السحرة، وتوعَّدهم مُقْسِمًا أن يُقطِّع أيديهم وأرجلهم من خلاف: اليد اليمنى والرجل اليسرى، وبالعكس، وأن يعلِّقهم على جذوع النخل بربط أجسادهم عليها، وقتلهم شر قِتْلة، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وسوف ترون مَن منا أشد عذابًا وأكثر إيلامًا، أنا أمْ رب موسى؟ وأي منا أدوم على العذاب، أنا أم رب موسى الذي آمنتم وصدّقتم به؟ فهو يزعم أنه أشد عذابًا من الله وأبقى، وهذا من قلب الحقائق لترهيب الخصم.

---

(١) هذه الكلمة فيها ثلاث همزات: مفتوحة، فساكنة، والثالثة مبدلة ألفًا، ١- وقد حقق الأولى وسهل الثانية قالون والأزرق والبزي وأبو عمرو وابن ذكوان وأبو جعفر وقنبل وهشام بخلف عنه. ٢- وقرأ الأصبهاني وحفص ورويس وقنبل في وجهه الثاني بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية وألف بعدها. ٣- وقرأ شعبة وحمزة وروح وخلف العاشر وهشام في وجهه الثاني بهمزتين محققتين وألف بعدهما.

وفي كلام فرعون إشارة إلى قول موسى قبل ذلك: ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾. ولما عرف السحرة الحق، أجابوا فرعون بأنهم لن يفضلوه على ما وعدهم الله به من الأجر والثواب العظيم.

الْإِيمَانُ الصَّادِقُ يَصْنَعُ الْعَجَائِبَ

٧٢- ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾

في هذه الآية بيان أن السحرة التائبون أظهروا استخفافهم بوعيد فرعون وتعذيبه، بعد أن أصبحوا أهل إيمان ويقين؛ حيث قالوا لفرعون: لن نُفضِّلك فنُطيعك، ونتَّبع دينك على الإيمان والهدى الذي جاء به موسى، وعلى ما رأينا من المعجزات القاطعة الواضحة، الدالة على صِدْق موسى ووجوب متابعته، وطاعة ربه، ولن نفضل ربوبيتك المزعومة على ربوبية الله الذي خلقنا، فافعل بنا ما أنت فاعل، فإنَّ ما تفعله بنا، وما تملكه بالنسبة لنا، ما هو إلا عذاب وفتنة، تنتهي بانتهاء هذه الحياة ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: اصنع ما شئت، مما وعدتنا به من الصلب والقطع والعذاب، ولو كانت حياتنا هي الثمن ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، فإن ما وعدتنا به من عقاب، ينقضي ويزول، بخلاف عذاب الله تعالى لمن استمر على كُفره، فإن عذابه دائم لا يزول، وكأن هذا جوابًا لقول فرعون ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ وفيه دليل على أنه ينبغي للعاقل أن يوازن بين لذّات الدنيا ولذّات الآخرة، وبين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

أخرج عبدُ بنُ حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن عكرمة، أن سحرة فرعون كانوا تسع مئة، فقالوا لفرعون: إن يكن هذان ساحرين فإنَّا نغلبُهما؛ فإنه لا أسحَر منا، وإن كانا من رب العالمين، فإنه لا طاقة لنا برب العالمين، فلما كان من أَمْرِهم أن خَرُّوا سجدًا، وأراهم الله في سجودهم منازلهم التي إليها يصيرون في الجنة، فعندها قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ إلى ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1].

رُوِي أن السحرة ليلة موعد اللقاء في يوم الزينة طلبوا من فرعون أن يُريهم موسى وهو

---

(١) «الدر المنثور» (١٠/ ٢١٩).

نائم، فأخذهم ورأوا موسى وهو نائم، فإذا بعصاه تَحْرُسه، أي: أن موسى نائم، يغط في نومه، وعصاه تحرسه، عندئذ قال السحرة لفرعون: هذا ليس بساحر، إن الساحر إذا نام بطل سحره، ولذلك فإنهم أرادوا أن يُحْجِموا عن مقابلة موسى ومعارضته خوفًا من الفضيحة، ولكن فرعون أكرههم وأجبرهم على مقابلة موسى بالسحر، في الساحة المعدَّة لذلك، ولهذا وقع في قلوب السحرة قبل مقابلة موسى أنه ليس شخصًا عاديًّا، وأن هذه العصا ليست عصا عادية، وإنما هي مؤيَّدة بقوة إلٰهية عظمى، ليس في قدرتهم مقابلتها.

ولذلك سرعان ما آمنوا بموسى، ووقفوا من فرعون هذا الموقف القويَّ، حينما هدَّدهم بالقتل والصلب، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وأقسموا على ذلك قائلين: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ ثم استعدّوا للقاء حتفهم فداءً لهذه العقيدة، فقالوا: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: افعل ما شئت، حتى لو أزهقتَ أرواحنا، وفقدنا هذه الحياة.

ثم هل فعل بهم فرعون ما تهدَّدهم به؟ يظهر -والله أعلم- أنه لم يفعل، وإن كانت بعض الروايات تذكُر أنه قطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف وأنه نفَّذ ما قال، فأمسوا شهداء بررة؛ فهي روايات بدون سند صحيح، ثم أكّد السحرة إيمانهم بالله، وتصديقهم بمعجزة موسى ﷺ، وبغضهم لفرعون وقومه، فقالوا:

٧٣- ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾

قالت السحرة معلنين توبتهم: إنا آمنا وصدّقنا بالله ربًّا، وصدَّقنا بموسى نبيًّا؛ ليعفو الله عن ذنوبنا، ويغفرَ لنا ما أكرهتنا عليه يا فرعون، من تعلُّم السحر والعمل به، ومن معارضة موسى ومقابلة معجزته بسحرنا، فقد كان فرعون يُكرهُ بني إسرائيل على تعلُّم السحر.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بني إسرائيل، فأمَر أن يُعَلَّموا السحر بالفَرَمَا -وهي مدينة على الساحل، قُرْب العريش في مصر- وقال: علِّموهم تعليمًا لا يغلبهم أحد في الأرض.

قال ابن عباس ﷺ: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾[1].

(١) من تفسير الآية في ابن كثير (٥/ ٢٩٨) و«الدر المنثور» عن ابن أبي حاتم (١٠/ ٢٢٠).

ثم قال السحرة الذين آمنوا بالله ربًّا وبموسى نبيًّا: الله خير لنا منك يا فرعون، وخير لنا ثوابًا وجزاء، وأبقى عاقبة، وعذابًا لمن عصاه وخالف أمره.

وهذه الجملة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ في مقابلة قول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

قَاعِدَةُ الْجَزَاءِ الْأُخْرَوِيِّ

٧٤- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾

هذه الآية والآيتان بعدها؛ ليست من كلام السحرة، وإنما هي من كلام الله تعالى، مُعْتَرَضة بين قصة السحرة وقصة خروج بني إسرائيل من مصر، ساقها الله تعالى موعظة وتأييدًا لمقالة السحرة الذين آمنوا[(١)].

والآيتان فيهما قاعدة الجزاء الأخروي الذي أعده الله تعالى للمؤمن والكافر، جاء ذِكْرُهما هنا تنبيهًا على قُبْح ما فعله فرعون وهو قمة الكفر، وحُسْن ما فعله السحرة، ترغيبًا وترهيبًا للناس إلى قيام الساعة، وأنَّ مَنْ يلْقى ربه كافرًا يعذَّب عذابًا لا يؤدي به إلى الموت، فلا يُجْهز عليه فيستريح، ولا يُخفَّف عنه شيء من العذاب، بل يُعادُ جلدُه ويُجدَّد عذابه، وهذا بالنسبة لمن يموت على الكفر الأكبر، ويَلْقىٰ ربهَّ كافرا ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾. لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، فهو في عذاب مستمر، لا يُفتّر عنه ساعة، يستغيث فلا يُغاث، ويدعو فلا يجاب، بل يقال له ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]؛ وذلك لأنهم من أهل النار لا يموتون موتًا نهائيًّا

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٨٨).

فيستريحون، ولا يَحيوْن حياة ينتفعون بها ويتلذذون.

وهذا بخلاف من يدخل النار من عُصاة المؤمنين ممن عصا ربه بارتكاب الجرائم، فإنه لا يُجهز عليهم، ولا يُجدَّد عذابهم، وإنما يَخْرُجون من النار بشفاعة النبي ﷺ فيهم، بعد أن يُعذَّبوا بمقدار جُرمهم.

ب- وقد ينطبق هذا المعنى على هذه الآية فلا يكون الكلام معترضا فهذه الآية تشمل العصاة من المؤمنين الذين يعذبون في النار بقدر ذنوبهم، فيموتون موتة واحدة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون لهم، فينبُتون بعد ذلك، ويخرجون من النار ويدخلون الجنة.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيوْن، ولكن تُصيبهم النار بذنوبهم، فتُميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أُذن لهم في الشفاعة، فجيء بهم ضبائر، ضبائر، فبثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة: أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حَمِيل السيل**» فقال رجل من القوم: كأنَّ رسول الله ﷺ كان بالبادية[1].

وأهل النار في الحديث هم غير المخلدين فيها، وهم ممن يؤذن في الشفاعة لهم بعد تطهيرهم من الذنوب في النار. هذا جزاء الكافر، فما جزاء المؤمن؟ قال تعالى:

٧٥- ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ[2] مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾

أي: ومن مات على الإيمان، وتزوَّد بالعمل الصالح، وترك المنهيات، فأولئك لهم المنزلة العالية، والدرجات الرفيعة عند رب العالمين.

٧٦- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

وهؤلاء المؤمنون يكونون يوم القيامة في جنات إقامة دائمة، تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار العسل، والخمر، واللبن، والماء، ماكثين فيها بصفة دائمة، لا يخرجون

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١١) برقم (١١٠١٦، ١١٠٧٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٨٥) وابن خزيمة في التوحيد ص (٢٨٢) وعند عبد بن حميد في المنتخب (٨٦٥) والضبائر: الجماعة من الناس في تفرق، كما في «النهاية» (٣/ ٧١).

(٢) قرأ قالون وابن وردان ورويس بوجهين في (ومن يأته): الأول: اختلاس كسرة الهاء، الثاني: إشباع الكسرة، وللسوسي وجهان: إسكان الهاء، وإشباع كسرتها، والباقون بالإشباع.

منها، وهذا النعيم المقيم ثواب من الله تعالى لمن طهَّر نفسه من الدنس، والخَبث، والشرك، وعَبَدَ الله وحده فأطاعه، واجتنب معاصيه، ولم يشرك بالله أحدًا من خلقه.

وعن عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين منهما كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس**»(١).

وفي الصحيحين: من حديث سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنَّةِ لَيُرَوْن من فوقِهم كما تَرَوْن الكوكب الغابر في أفق السماء؛ لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين**»(٢).

وفي السنن: «**وإن أبا بكر وعمر مِنهم وأَنْعَمَا**»(٣).

قِصَّةُ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ

٧٧- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ(٤) أَنْ أَسْرِ(٥) بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ(٦) دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾

أخذ موسى ﷺ يدعو الناس -ومنهم فرعون وجنده- إلى دين الله تعالى، ويحاول أن يخلِّص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، حيث تمادى فرعون في الطغيان، فأمعن في إيذاء بني إسرائيل بعد حادث السحرة، فأذن الله لموسى في الخروج من مصر، فرارًا من الاضطهاد، وتخليصًا لقومه من الفتنة، وقد دبَّر الله لهم النجاة، ودبَّر لفرعون ومن معه الغرق.

---

(١) «المسند» (٥/٣١٦) برقم (٢٢٦٩٥، ٢٢٧٣٨) و«سنن الترمذي» برقم (٢٥٣١) قال محققو «المسند»: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٣/١٨٣) وغيرهم.

(٢) البخاري برقم (٦٥٥٦) عند أبي سعيد برقم (٣٢٥٦)، وانظر: مسلم برقم (٢٨٣١) واللفظ له.

(٣) أبو داود برقم (٣٩٨٧) وابن ماجه برقم (٩٦) والترمذي.

(٤) عدّ الشامي وحده (إلى موسى) آية، ولم يعدها غيره.

(٥) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بهمزة وصل تثبت في البدء وتسقط في الوصل في (أن أسر) فعل أمر من سرى، والباقون بهمزة قطع تثبت في الحالين، فعل أمر من أسرى.

(٦) قرأ حمزة (لاتخفْ) بالجزم في جواب الأمر، والباقون (لا تخاف) جملة مستأنفة.

وكان بنو إسرائيل يعبدون الله تعالى سرًّا خوفًا من فرعون، واتخذوا بيوتهم قبلة للصلاة؛ لأنهم في حالة ضعف، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس].

فأراد الله أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض، كي يعبدوا الله جهرا، فأوحى الله إلى نبيه موسى عليه السلام أن يسير بهم ليلًا، وأخبره أن فرعون سيلحق به، فخرج موسى وبنوا إسرائيل، فلما أصبح أهل مصر لم يجدوا منهم أحدا.

وهكذا: لما انتهى أمر السحرة، ظهرت دعوة موسى وقوي جانبه، وعندئذ وعده فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، ولكنه غدر ونقض عهده، وأعلم موسى أنه لن يرسلهم معه، فأيّده الله بمعجزات: الجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدَّم، وغيرها، وكلما جاءته آية يُخْلِف وعده،حتى انتهت الآيات،وعندئذ أراد الله لموسى أن يَخْرُج ببني إسرائيل من مصر هاربًا، وأن يسير بهم ليلًا متوجِّهًا إلى البحر الأحمر، ولما أشعرهم موسى بليلة الخروج استعاروا من معارفهم المصريين حُليّهم وثيابهم.

ويُروى أنهم عجنوا زادهم ليلة خروجهم، وتركوه ليختمر، فلما استعجلهم موسى جعلوه فطيرًا، فصارت هذه سُنَّة فيهم، وكان خروجهم ليلة السابع من شهر برمهات، من السنة القبطية، وقد اتخذه اليهود يومًا لرأس السنة عندهم، وخرجوا من مدينة رعمسيس.

وهكذا لما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أوحى إلى موسى أن أَخرج بني إسرائيل من مصر في أول الليل، وخُذْ بهم طريق البحر.

نزح بهم موسى عليه السلام ليلًا، وخرج برجالهم ونسائهم وأطفالهم، وبلغ تعدادهم يومئذ سبعين ألف رجل، وكانوا قد دخلوا مع أبيهم يعقوب أرض مصر في زمن سيدنا يوسف عليه السلام أسرة واحدة، وكانوا يسكنون في مكان بمصر يقال له: (جاسان) في محافظة الشرقية، واسمه االحالي (صفط الحنة) بين الزقازيق وأبي حماد، على طريق الإسماعيلية.

خرج بنو إسرائيل، ووصلوا إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، وكان خليج السويس ممتدًّا إلى البُحيْرات المُرَّة، أو ما يقرُب منها، أما مكان عبور موسى ببني إسرائيل، فكان من شمال المكان المعروف بعيون موسى، ولما علم فرعون بخروج موسى غضب غضبًا

شديدًا، ونادى في قومه، وأخذ يجمع جنوده من كل المدائن بمصر: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الشعراء].

وسار فرعون بجيش بلغ تعداده ست مئة ألف، وخرج في مركبته ومعه ست مئة مركبة مختارة، ومركبات أخرى تحمل جيشه، وعند شروق الشمس كانوا على مقربة من البحر.

وعندما رأى بنو إسرائيل فرعون خلْفهم، والبحر أمامهم، قال يوشع بن نون، لموسى: هذا فرعون وجنوده وراءنا ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

فالبحر أمامنا والعدو خلفنا، عندئذ قال موسى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فأوحى الله تعالى لموسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه، فانفلق اثني عشر طريقًا، بعدد أسباط بني إسرائيل، حيث تجمَّد الماء كالجبل الأشم، والطرُق الاثنا عشر أصبحت يابسة لا ماء فيها، ولا بلل، ولا طين، كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٦٣].

فأمر الله موسى وبني إسرائيل أن يعبُروا البحر فعبروه، وعند آخرِ فَرْدٍ منهم جاء فرعون بجنوده ليلحق بهم، وينزلَ البحر وراءهم، فالتفت موسى، وأراد أن يضرب البحر بعصاه؛ حتى لا يلحقوا بهم، فقال الله تعالى لموسى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ﴾ أي: اتركه ساكنًا على حاله ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

وقد طمْأن الله موسى بنجاته من الغرق، قبل أن يخرج ليلًا ببني إسرائيل من مصر، فأعلمه أنه سيعْبُر طريقًا جافًّا يابسًا في وسط البحر، فلا يخشى الغرق، ولا يخاف من أن يلحق به فرعون وجنوده فيدركه، ويصيبه بمكروه، فقال تعالى له: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أي: لا تخف أن يُدْرِكَك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ من الغرق في البحر.

٧٨، ٧٩- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (١) ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾

خرج موسى ببني إسرائيل من مصر، وعبر بهم البحر في طريقٍ يبَس، كما وعده ربه، وتبعه فرعون وجنده، طمعًا منه في أن يعبر البحر مثلهم، ولما نزل هو وجنوده البحر

(١) عدّ (ماغشيهم) آية، المصحف الكوفي، وتركها غيره.

غشيهم من اليمِّ ما غشيهم، فغمرهم من الماء ما لا يَعلم كُنْهه إلا الله، وغرقوا جميعًا، ونجَّى الله موسى وقومه، وهم ينظرون إلى عدوهم وقد أقر الله أعينهم بهلاكهم.

وكان من حكمة الله تعالى أن أنجى فرعون ببدنه، ولما رأى مكانه من النار، وهو يعالج سكرات الموت في أمواج البحر الهائج ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ تؤمن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]. وقد كان بعض الناس يظنون أن فرعون إله لا يموت، فأماته الله؛ ليكون عبرة وموعظة لكل جبار عنيد إلى يوم القيامة.

ومع ذلك فإن بني إسرائيل حين خرجوا من البحر بعد أن نجَّاهم الله من الغرق، ووجدوا قومًا يعبدون الأصنام، قالوا لموسى: اجعل لنا إلهًا نعبده مثل هؤلاء، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف].

وما جاء مجملًا هنا في آيتين فصَّله قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء].

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان].

لقد كان السبب في هذا الغرق، أن فرعون قاد قومه إلى الضلال بما زينه لهم من الكفر والتكذيب والغواية، ولم يسلُك بهم طريق الهداية والرشاد ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

فكان من نتيجة اتِّباعهم له أنه يتقدمهم في الدخول إلى النار يوم القيامة، ويؤمهم.

والسبب أنهم اتَّبعوا أمر فرعون، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ لَا يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود].

وقال تعالى عن مصير فرعون وجنده: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص].

وليس في هذه الآية اعتذار عن قوم فرعون، وإنما هي تُبيِّن أن ما حدث لهم كان بسبب طاعتهم لفرعون ومُمالأتهم له، وماذا عليهم لو خرجوا عليه، ولم يبالوا بوعيده كما فعل السحرة؟ ولكنهم أعانوه على الضلال، ولو أنه رأى منهم صلابة في الحق، ونُفْرة من الظلم، واستنكارًا للباطل، ما تمادى في طغيانه إلى هذا الحد، وحَسْبُنَا أن يقول الله تعالى فيه وفي قومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

بَعْضُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

٨٠- ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم(١) مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ(٢) جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾

يُذكِّر الله اليهود المعاصرين بثلاث من أنعم الله تعالى على أسلافهم: هي نعمة الإنجاء، ونعمة نزول التوراة، وهي نعمة دينية، ونعمة المن والسلوى، وهي نعمة دنيوية، أنعم الله بهذه النعم عليهم وهم في التيه، وذلك أنهم نزلوا في صحراء سيناء وفيها حر الشمس شديد، فأظلَّهم الله بالغمام.

ولما نفد زادهم، ولم يبق معهم شيء من طعام، أرسل الله لهم المن كالعسل على أوراق الشجر، وأرسل لهم الطير السماني.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء المتكلم مضمومة، من غير ألف في (أنجيناكم) هكذا (أنجيتكم)؛ لمناسبة (فيحل عليكم غضبي)، وقرأ الباقون بنون العظمة وألف بعدها، ومثلها (وواعدناكم) في هذه الآية، فتقرأ (وواعدتكم) وأيضًا: (كلوا من طيبات ما رزقناكم) [٨١].

(٢) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف الأولى من (وواعدناكم)، والباقون بإثباتها.

ولما أرادوا أن يشربوا وقد بلغ بهم العطش مبلغه، وسألوا موسى السقيا، أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانبثق منه اثنتا عشرة عينًا بعدد الأسباط، وهذه العيون قرب مدينة السويس في مصر في مكان معروف، يقال له: (عيون موسى).

وهكذا منَّ الله على بني إسرائيل، وحباهم بهذه النعم، ولم يكن حدوثها لهم عقب خروجهم من البحر، وقال لهم حين مَنَّ عليهم بها بعد ذلك: اذكروا هذه النعم، ولا تتمردوا على الله، ولا تكفروا بنعم الله عليكم، لقد أنجيناكم من عدوكم فرعون، وأغرقناه أمام أعينكم وكان يسومكم سوء العذاب.

وجعلنا موعدكم بجانب الطور الأيمن؛ لإنزال التوراة عليكم، وهذه المواعدة هي التي قال الله عنها: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة].

وقال عنها أيضًا: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قصة المواعدة جانب الطور:

إن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل من عدوهم، وعد موسى أن يأتيه عند جانب طور سيناء؛ ليكلِّمه ويناجيه وينزِّل عليه التوراة، فيها أمْرُهم ونهيُهم، وصلاحهم وسعادتهم.

فلما توجَّه موسى بقومه نحو الجبل، تعجَّل لقاء ربه وتقدّم على قومه، فكان منهم أن عبدوا العجل الذي صنعه السامري في هذه المدة، وكان موسى قد سأل ربه الرؤية، ونزول التوراة؛ لتكون نبراسًا لبني إسرائيل يهتدون بهديها.

ونزلنا عليكم في التيه ما تأكلونه مما يشبه العسل، والطير الذي يشبه السمَّاني، إلى جانب إخراج الماء لكم من الحجَر، وتظليل الغمام عليكم.

وكانت نجاة موسى وقومه من فرعون يوم عاشوراء، كما صح في الحديث عن ابن عباس ﷺ قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فسألهم، فقالوا: هذا اليوم الذي ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ: «**نحن أولى بموسى**

منكم فصوموه»(١). قال تعالى:

٨١- ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ(٢) عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ(٢) عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾

أنعم الله على بني إسرائيل بهذه النعم وغيرها، وقال لهم: كلوا من رزقنا الطيب الذي أنعمنا عليكم به، ولا تعتدوا بأن يَظْلِم بعضكم بعضًا، ولا تتجاوزوا ما أحله الله لكم، ولا تسرفوا، ولا تتعالَوْا على غيركم، وتتطاولوا عليهم؛ ولا تستعملون هذه النعمة في معاصي الله فينزل بكم غضب الله تعالى، وتحل عليكم لعنته، وتستوجبوا عقابه، ومن ينزل به غضب الله تعالى فقد خسر وهلك، وهو يشبه مَنْ سقَط في ورطة بعد النجاة منها.

فَتْحُ بَابِ الرَّجَاءِ لِلتَّائِبِينَ

٨٢- ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

ولما حذَّر الله تعالى بني إسرائيل من غضبه، ومن الطغيان في نعمه، فتح باب الرجاء للتائبين، أي: ومع طغيانكم فإن الله تعالى يفتح باب التوبة للمشرك والكافر، وللخلق جميعًا، فيغفر لمن تاب من ذنبه وكُفره، وآمن بالله، وتزوّد بالعمل الصالح، واستقام على إيمانه، فاجتنب المحرمات، وكان مستمسكًا بمنهج الله سبحانه، وقد أمر الله عباده جميعًا بالتوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

والناس بالنسبة للتوبة على أنواع:

١- فمنهم المستمر في فعل الذنب مع قدرته على إتيانه، وهذا يجب عليه الندم على ما مضى، والإقلاع عن الذنب في الحال، والعزم الأكيد على تركه في المستقبل، ورد المظالم إلى أهلها، وقضاء ما فاته من العبادات في بعض الأحيان.

٢- ومنهم من اقترف الذنب في الماضي، وأصبح غير قادر على فعله في الوقت الحاضر؛ بسبب عجْز، أو مرض، أو كِبْر، ونحو ذلك، وهذا يجب عليه الندم الشديد

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٩٣٤، ٤٦٨٠، ٤٧٣٧) و«صحيح مسلم» برقم (١١٣٠).

(٢) قرأ الكسائي بضم الحاء من (فيحل) واللام الأولى من (ومن يحلل)، والباقون بكسرها.

على ما سبق فِعْله، وعقد العزم على أنه لو كان قادرًا عليه لتركه من فوره.

٣- ومن الناس من لم يقع في الذنب أصلًا، والتوبة بالنسبة له هي: العزم على ترك الذنوب، وعدم الوقوع فيها.

ولو كان الإنسان مرتكبًا لأكثر من ذنب فإن توبته من أحدها تصح، وهي توبة مقيدة.

وإذا تاب المرء ثم عاد إلى الذنب بعد مدة، فعليه أن يجدد التوبة، ويحاول أن يتوب من قريب، وألَّا يعاود الذنب.

ولا يطمع في مغفرة الله تعالى من كان مصرًّا على المعصية، مغاضبًا لله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾ [النساء].

والله تعالى يقبل توبة الذين إذا فعلوا فاحشة من كبائر الذنوب، أو ظلموا أنفسهم بارتكاب بعض المعاصي، ذكروا الله من فورهم فاستغفروا لذنوبهم.

وهذه الآية تشبه قول الله تعالى حكاية عن حملة العرش ومن حوله وهم يستغفرون للمؤمنين قائلين: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وقد ذكرت الآية **أربعة شروط** لقبول التوبة، وهي:

١- التوبة من صغائر الذنوب وكبائرها، فإن التوبة تجب ما قبلها.

٢- الإيمان والإسلام، فإنه يهدم ما قبله.

٣- العمل الصالح، فإن الحسنات يذهبن السيئات.

٤- الاستمرار على الهداية والاستقامة، ورد البدع والضلال وأنواع الشرك.

مُوسَى ﷺ يُسْرِعُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ

٨٣- ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾

كان موسى عليه السلام قد وعد قومه أن الله تعالى سيُنزِّل عليه الألواح فيها التوراة، بعدما سأل ربه ذلك، فأمره الله تعالى أن يصوم ويتطهر ثلاثين يومًا، ويذهبَ لنزول التوراة عليه في جانب الطور الأيمن، فاختار موسى سبعين رجلًا من قومه؛ ليذهبوا معه في الموعد تحت سفح الجبل، ثم تعجَّل موسى بالذهاب شوقًا للقاء ربه، وسبقَهم قبل الموعد المحدد له، اجتهادًا ورغبة منه في سرعة تلقِّي التوراة قبل وصول النقباء من بني إسرائيل إلى جبل الطور، بقصد السبق إلى ما فيه خيره وخير أمته، وكان قد استخلف هارون على بني إسرائيل، وطلب موسى من النقباء أن يلْحقوا به إلى جبل الطور.

فلما وصل موسى قَبْلَهُم، وناجاه ربه، زاده في الأجل عشرًا، ثم أعلمه أنه لمَّا استعجل رضا ربه فُتِنَ بنو إسرائيل بالعِجْل الذي صنَعه لهم السامري، واتخذوه إلهًا في غيابه، فعاتبه الله تعالى على خروجه من بين قومه، قبل أن يوصِّيهم بالمحافظة على العهد، ويحذِّرهم من مكْر من يمكُر بهم؛ حيث كان ذلك سبب افتتان قومه بصُنْع السامري صَنمًا لهم يعبدونه حين استبطؤوا رجوع موسى عليه السلام.

وقد أجاب موسى عليه السلام بأنه قد تسرَّع في المجيء إلى الموضع الذي حدده له ربه؛ ليزداد رضى عنه، وأنه لم يتقدم عليهم إلا بوقت يسير، ومسافة قريبة، لا يُعتدُّ بها في العادة.

وهذا يشبه حين دخل أبو بكرة المسجد فوجد النبي ﷺ راكعًا فركع حيث هو، ثم تقدم إلى الصف، فقال له النبي ﷺ: **«زادك الله حرصًا ولا تعد»**[1]. **أجاب موسى ربه:**

٨٤- ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي[2] وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾

وقد اعتذر موسى عن ذلك بأنه قد عجَّل استجابة أمر الله تعالى مبالغة في إرضائه، وأن قومه سائرون خلْفه على موضع قدمه، مُوالُون له في الوصول، قال موسى: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ أي: قريبون مني، وسيلحقون بي، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام ليتم ميقات ربه أربعين ليلة.

---

(١) من حديث أبي بكرة في البخاري (٧٨٣) وأبي داود (٦٨٣) و«المسند» (٢٠٤٠٥) بإسناد صحيح، وابن حبان (٢١٩٤، ٢١٩٥) والبزار في مسنده (٣٦٥١) والنسائي في المجتبى (١١٨/٢) وفي الكبرى (٩٤٣).

(٢) قرأ رويس بكسر الهمزة وسكون الثاء من (إثري)، والباقون بفتحهما، وهما لغتان.

وقيل: في سبب زيادة هذه الأيام العشرة أن موسى وجد تغيُّرًا في رائحة فمه بسبب الصيام، فتناول شيئًا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه: لِمَ أفطرت؟ قال: كرهتُ أن أكلمك إلا وفمي طيِّب الريح، قال تعالى: أما علمت أن ريح فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك؟ ارجع فصم عشرًا.

فِتْنَةُ قَوْمِ مُوسَى بِعِبَادَتِهِمْ لِلْعِجْلِ

٨٥- ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾

قال الله تعالى لموسى: فإنا فتنَّا قومك، وابتليناهم بعد فراقك إياهم بعبادة العجل، وإن السامري قد أضلهم، فزين لهم عبادة العجل، وهي الفتنة الواردة في الآية، وهي تُشبه فتنة المسيح الدجال في خرق العادة له حين ادَّعى الربوبية. وكان موسى قد تأخر أيامًا عن موعد عودته إلى قومه، ففُتِنوا في هذه المدة بعبادة العجل الذهبي؛ حيث كانت نساء بني إسرائيل قد استعرْنَ من نساء مصر ذهبًا، وأخذْنه معهن عندما خرجن مع موسى من مصر، وكان هنالك شخص منافق يقال له: موسى السامري، وكان من قوم يعبدون البقر، وهو ينتسب لطائفة من اليهود، ويقال لمكانهم: السامرة، ولهم مذهب خاص يخالف بقية اليهود، وهم لا يعظِّمون بيت المقدس، وينكرون نبوة معظم أنبياء بني إسرائيل، ولديهم بعض الشذوذ العقَدي، والإلحاد.

وذكر بعضهم أن اسمه موسى بن ظَفَر بفتح الظاء والفاء.

وقيل: إنه كان من قبط مصر من مكان يسمَّى: (كرمان) وهو مرويٌّ عن سعيد بن جبير، وكان مقدسًا في بني إسرائيل(١).

وكان موسى السامري قد أخذ قبضة من تراب، من أثر حافر فرس جبريل، فألقى هذا التراب على الذهب، وأوقد فيه النار، وصنع منه عجلًا بشكل هندسي، يدخل فيه الريح من الخَلْف ويخرج من الجهة الأخرى، وكان له صوت كصوت خوار البقر، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

(١) يُنظَر: تحقيق ذلك للشيخ ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٧٩).

وقال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ ولكن موسى نسيه هنا، وذهب يطلبه جانب الطور، فافتتن به اليهود فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

وهكذا صنع لهم موسى السامري صنمًا على هيئة العجل المجسَّد، له أعضاء وقوائم؛ لأن الناس في مصر كانوا يعبدون عجلًا يقال له: (أبيبس) فصورة هذا المعبود معروفة لديهم، ولما زاد العجل الذهبي، على العجل الذي عرفوه، بأن له خوارًا، لوجود فتحة أمامية وفتحة خلفية رسخ في أذهانهم أنه إله حقيقي، وأنه أفضل من العجل (أبيبس) لذا قالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾[1].

رجع موسى إلى قومه وهو ممتلىء غيظًا وحنقًا وغضبًا على قومه:

٨٦- ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا[2] قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا[3] أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾

عاد موسى من موعد لقاء ربه بعدما استوفى الأربعين يومًا: ذا القعدة، وعشر ذي الحجة، رجع وهو حزين غاضب، لِما فعله قومه من عبادة العجل بعد فراقه إياهم، فوبَّخهم وأنَّبهم على قبيح صنيعهم قائلًا لهم: هل طال عليكم عهدي فاستبطأتم وعدي وهي مدة قصيرة، أم أردتم أن تفعلوا فعلًا يحل عليكم بسببه غضب من عند الله، فأخلفتم موعدي معكم، وعبدتم العجل من دون الله، وتركتم الالتزام بأوامري؟ ويحتمل أن يكون المعنى: أفطال عليكم عهد النبوة والرسالة، فاندثرت معالمهما وانمحت آثارها، لبعد العهد بها، فعبدتم غير الله؟ والجواب: أن الأمر ليس كذلك، فالنبوة بين أظهركم، والعلم قائم بينكم، فالعذر غير مقبول.

لقد وعدكم ربكم وعدًا حسنًا بأنه سيُنزل عليكم التوراة؛ لهدايتكم وإصلاحكم، فلماذا أعرضتم عن عبادته إلى عبادة غيره، ولماذا أخلفتم ما عاهدتموني عليه من الثبات في إخلاص العبادة لله وحده؟

لقد كانت عبادتهم للعجل، وتركهم السير على منهج موسى إخلافًا لما وعدوه به من التمسك بدين الله تعالى، وبسُنَّةِ موسى ﷺ، وألَّا يُخْلِفوا أمر الله أبدًا.

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١٦/ ٢٨٧).

(٢) عدّ (أسفا) آية، المدني الأول والمكي، وتركه غيرهما.

(٣) عدّ (حسنا) آية، المدني الأخير والشامي، وتركه غيرهما.

لقد اشتد غضب موسى عليه السلام، حتى أنه ألقى ألواح التوراة من يده على الأرض، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف].

وأخرج الحاكم بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يرحم الله موسى، ليس المعاين كالمخبَرِ، أخبره ربه أن قومه فُتنوا بعده، فلم يُلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح»**[1].

أجاب بنو إسرائيل موسى عليه السلام على خُلْفِهِمُ الوعد في اللحاق به، بما جاء في الآية التالية:

صِنَاعَةُ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

٨٧- ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا[2] وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ[3] أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ[4]﴾

قال بنو إسرائيل لموسى على سبيل الاعتذار: إننا لم نُخلف وعدك بإرادتنا واختيارنا، فنحن لم نتعمد ذلك، ولكن السامري هو الذي أكْرهنا وأجْبرنا حين حُمِّلنا أثقالًا من حُلي قوم فرعون، كنا قد استعرناها منهم، فخرجنا وهي معنا، وانتظرنا موسى لنراجعه فيها، فرآنا السامري فألقيناها في حفرة فيها نار بأمر السامري، ووضع السامري في الحفرة ما كان معه من تربة أخذها من تحت حافر فرس جبريل عليه السلام، وكان إذا ألقاها على شي بلا روح، صارت فيه حياة، فتنة وابتلاءً، فألقاها على العجل الذي صاغه من الذهب فتحرك العجل وصار له صوت وخوار، فنحن ما أخلفنا موعدك باختيارنا وحريتنا، وهكذا اعتذروا عن أخذهم ذهب نساء المصريين، ووقعوا في عبادة العجل، فتورَّعوا عن الحقير، وفعلوا الأمر الكبير،

---

(١) صححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٢/ ٣٨٠). وهو في صحيح ابن حبان (١٤/ ٩٧) برقم (٦٢١٤) بدون لفظ (يرحم الله موسى) ورقم (١٨٢٧) عن أنس بن مالك، وقال: إسناده صحيح.

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح الميم من (بملكنا) وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها، وقرأ الباقون بكسرها.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص وأبو جعفر ورويس بضم الحاء وكسر الميم مشددة من (حملنا) فعل ماضي مزيد بالتضعيف، وقرأ الباقون بفتح الحاء والميم مخففة، فعل ماضي ثلاثي مجرد.

(٤) عدّ لفظ (السامري) آية، المدني الأول والمكي والبصري والكوفي والشامي وتركه من ا لعدد، المدني الأخير.

وظنوا أن العجل إله الأرض والسموات، وكانوا قد رأوه تمثالًا جمادًا، ثم رأوه يتحرك.

٨٨- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ[١] فَنَسِىَ[٢]﴾

في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما فعله السامري، أي: وهكذا صنع السامري لبني إسرائيل من الذهب عجلًا جسدًا يَخُور خُوار البقر وليس فيه روح.

والضمير في ﴿فَقَالُوا۟﴾ يرجع إلى المتكلِّمين مع موسى.
أي: قال المفتونون بعبادة العجل للآخرين: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ فنسيه موسى هنا، وغفل عنه حين ذهب إلى الجبل يبحث عنه.

أخرج عبدُ بنُ حُميْد، وابنُ أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: إن بني إسرائيل استعاروا حُليًّا من القبط، فخرجوا به معهم، فقال لهم هارون: قد ذهب موسى إلى السماء، اجْمَعُوا هذا الحُلِيّ حتى يجيء موسى فيقضي فيه ما قضى، فلما ألقى السامريُّ القبضة، تحوَّل عجلًا جسدًا له خوار، فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ قال: إن موسى ذهب يطلب ربه فضلَّ، ولم يعلم مكانه، وهو هذا[٣].

وكان السامري قد قال لبني إسرائيل لما أبطأ موسى في العودة إليهم: إنما احتُبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي الذي أخذتموه من نساء المصريين قبل خروجكم من مصر، فجمعوه وأعطوه له، فرمى به في النار، وصاغ لهم منه عجلًا، وألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل ﷺ فأخذ يخور، وكان السامري قد أُلقي في رُوعه أن هذه القبضة لا تُلْقَى على شيء ويقال: كن كذا، إلا كان، وكانت هذه القبضة في يده مُذ رأى جبريل على فرسه في البحر وعرفه[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: إن هارون مرَّ بالسامري وهو ينْحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ قال: أصنع ما يضر ولا ينفع، فقال هارون: اللهم أعطه ما

(١) عد المدني الأول والمكي (وإله موسى) آية، وتركه غيرهما.
(٢) أسقط المدني الأول والمكي (فنسى) من العدد وعدها غيرهما.
(٣) «الدر المنثور» (١٠/ ٢٣٠).
(٤) يُنظَر: ابن جرير (١/ ٦٦٩).

سأل، على ما في نفسه، ومضى هارون، فقال السامري: اللهم إني أسألك أن يخور؛ فَخَار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم(١).

فخوار العجل فتنة، اختبر الله به بني إسرائيل؛ ليُظهر من يبقى منهم على إيمانه ممن يكفر، وهو أمر خارق للعادة، يشبه فتنة إجراء بعض الخوارق على يد المسيح الدجال فتنة للناس؛ ليَظْهَر مَنْ يبقى على إيمانه ممن يُفتن به.

فالحاصل أن الله تعالى لم يخلق في هذا العجل روح ولا حياة، وإن هذا الصوت كان من المنافذ التي جعلها السامري في صناعة العجل، وهناك آثار كثيرة تشهد للقول الأول. قال تعالى:

٨٩- ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ(٢) قَوْلًا(٣) وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾

أفلا يرى الذين عبدوا العجل، وتبيَّن لهم أن العجل الذي عبدوه لا يملك أن يكلمهم ابتداء، ولا يردُّ عليهم جوابًا، ولا يقدر على دفع ضرٍّ عنهم، ولا جَلْب نفع لهم، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وفي هذا توبيخ لهم على عبادتهم للعجل، وأنهم قد بلَغوا من الغباوة حدًّا كبيرًا.

هَارُونُ يَنْهَى قَوْمَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْل وَهُمْ يُصِرُّونَ عَلَى عِبَادَتِهِ

٩٠- ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾

كان موسى قد استخلف هارون على قومه عندما ذهب لمقابلة ربه، وقد منعهم هارون ﷺ من عبادة العجل، ونهاهم عنها، وأخبرهم أنه فتنة، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، ولكنه خاف أن يفرِّق بينهم إذا قسَرَهُم على ذلك، وتحدُث الفتنة بتمزيق وِحْدتهم، فقد تبعه فريق منهم، وتبع الفريق الآخر، موسى السامري، فانتظَر هارون حتى يأتي موسى ﷺ.

فلما جاء موسى غضبانَ، أخذ بلحية أخيه يجرُّه إليه، فأخبره هارون أنه قد نصحهم

---

(١) ابن أبي حاتم برقم (٨٩٩١).

(٢) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (إليهم)، والباقون بكسرها.

(٣) عد (قولا) آية، المدني الأخير وحده، وتركه غيره.

وذكَّرهم ونبَّههم إلى أن ما فعله السامري فتنة وابتلاء لهم، فقال لهم: يا قوم، إنما فُتنتم بهذا العمل، واختُبرتم بهذا العجل؛ ليظهَر المؤمن منكم والكافر، وإن ضلالكم وكُفركم بسبب عبادتكم له ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا رب غيره، ولا معبود سواه، فهو خالقكم ورازقكم، وإنكم قد عصيتم الرحمن فاتبعوني فيما دعوتكم إليه، وأطيعوا أمري في اتباع شرع الله سبحانه.

وهكذا، فإن هارون ﷺ بيَّن لهم أن عبادة العجل فتنة، فزجرَهم عن عبادته، ثم دعاهم إلى معرفة ربهم وخالقهم، وأتبع ذلك بدعوتهم إلى اتباع الرسول، وأخيرًا دعاهم إلى العمل بشريعته، فهذه أربع مراتب، فما كان منهم إلا الاستمرار والتصميم على عبادة العجل.

وقد سلك هارون في موعظته لبني إسرائيل مسلكًا حسنًا:

١- حيث زجرهم أوَّلًا عن عبادة العجل في قوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾.

٢- ثم دعاهم إلى معرفة الله في قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

٣- ثم دعاهم إلى معرفة النبوة في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾.

٤- ثم دعاهم إلى الأخذ بشريعته في قوله: ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

وهذا ترتيب جيد؛ لأنه لابد أوَّلًا من إماطة الأذى عن الطريق بإزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى؛ فإنها الأصل، ثم معرفة النبوة، ثم الأخذ بالشريعة، والعمل بما فيها.

وخصَّ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالذكر؛ لينبههم أنهم إذا تابوا قَبِلَ الله توبتهم، ولكنهم قابلوا هذا كله بالإصرار والجحود، وقالوا: لن نقبل قولك، وسنظل ملازمين لعبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى، فاعتزلهم هارون.

٩١- ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾

قال عُبَّادُ العجل منهم: لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى، فننظر في الأمر.

هذا وقد تفرق بنو إسرائيل بالنسبة لهذا العجل **فرقًا أربعًا**:

١- منهم فرقة صدَّقت قول السامري، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى ضل الطريق.

٢- وقالت فرقة: لا نصدِّق أن هذا العجل هو ربنا، ولا نكذِّب، حتى يرجع موسى

ويقرر رأيه فيه.

٣- وقالت فرقة: هذا من عمل الشيطان لا نؤمن به ولا نصدِّقه.

٤- وصدَّق قومٌ السامري فيما قال، وقالوا: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يومًا ثم أخلفنا، فخالفوا هارون، وحاربوه، وأصرُّوا على شركهم.

حِوَارٌ عَنِيفٌ بَيْنَ مُوسَى وَهَارُون

٩٢، ٩٣- ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟[(١)] ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ[(٢)] أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾

انتقل موسى من حوار قومه إلى حوار أخيه، فتوجه إليه باللوم والعتاب على ما حدث، فقال: يا هارون، أي شيء منعك حين رأيتهم ضلوا عن دينهم بعبادتهم العجل أن تقاومهم، وتُنْكر عليهم؟ وما الذي منعك ألا تتبعني، فتلحق بي وتتركهم؟ ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ فيما أمرتك به من خلافتي في غيبتي والإصلاح من بعدي في شأنهم حين قلت لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. فَلِمَ تركت قتالهم وتأديبهم؟

وكان موسى ﷺ يريد من هارون ﷺ موقفًا يتّسم بالحزم والشدة حتى ولو أدى الأمر لقتالهم، فأقبل موسى على أخيه يلومه ويعنفه ويهزه هزًّا عنيفًا.

٩٤- ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ[(٣)] لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ[(٤)] إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾

أخذ موسى بلحية هارون ورأسه معًا، وأخذ يجرُّه إليه وهو يعنِّفه ويؤنِّبه على عبادة قومه للعجل، فردَّ هارون على موسى بردٍّ فيه رِفْق واستعطاف، حيث دعاه بأمه؛ لأنه أشفق، وأشدّ استرحامًا، فأراد أن يحرك عاطفة الرحم في قلبه، فقال: يا بن أمي لا تُمْسِك بلحيتي، ولا تُمْسِك بشعر رأسي، إني خفت -إن تركْتُهم ولحقتُ بك- أن تظن أني فرقْتُ

---

(١) عدّ الكوفي (ضلوا) آية، ولم يعدها غيره.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا وحذفها وقفًا من (ألا تتبعن)، وقرأ يعقوب بإثباتها وصلا ووقفا، وقرأ أبو جعفر بفتح الياء حال وصلها بما بعدها وحذفها وقفًا، والباقون بالحذف في الحالين.

(٣) قرأ ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (يا بن أم)، والباقون بفتحها، وهما لغتان.

(٤) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (ولا برأسي إني)، والباقون بإسكانها.

بين بني إسرائيل، وتقول: إنك لم تحفظ وصيتي بحسن رعايتك لهم، والمحافظة على وحدتهم، فحرصت على حفظ الدماء وألا يقاتل بعضهم بعضًا، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ولذا أبقيتُ على وحدتهم حتى ترجع إليهم فتعالج الأمر بنفسك.

واعتذار هارون، بالمحافظة على وحدة الأمة وعدم تفرقها، كان اجتهادًا منه في سياسة الأمة، إذا تعارضت المحافظة على الوحدة الوطنية بالمحافظة على العقيدة، وقد رجَّح هارون المحافظة على وحدة القوم؛ لأن فيها حفظ الأنفس والأموال والأخوة، ورأى أن حفظ العقيدة سيُستدرك برجوع موسى، وإبطال عبادة العجل سيتحقق كذلك برجوع موسى، وحِفْظ العقيدة رأس الإصلاح الاجتماعي، وحرمة الشريعة بحفظ أصولها وعدم التساهل فيها، وبقاء نفوذها في الأمة والعمل بها.

وقد ندم موسى على ما صنع بأخيه وهو غير مستحق لذلك ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

الْحِوَارُ بَيْنَ مُوسَى وَالسَّامِرِيّ

أقبل موسى ﷺ على موسى السامري يحاوره:

٩٥- ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥﴾

أي توجه موسى ﷺ للسامري بالحوار، قائلًا له: فما شأنك يا سامري حيث فعلت ما فعلت؟ وما الذي دفعك إلى ما فعلت؟ ولم يُغْلظ موسى في القول للسامري، كما فعل مع هارون؛ لأنه كان جاهلًا، فلم يكن لضلاله عجَب، فرد عليه السامري:

٩٦- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ[1] بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦﴾

قال السامري لموسى: تفطَّنتُ إلى ما لم يتفطَّن إليه القوم، ورأيت ما لم يَروْه، فقد

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب في (تبصروا) والمخاطب موسى، والباقون بياء الغيب، على إسناد الفعل إلى بني إسرائيل.

رأيت جبريل عليه السلام حين كان على فرسه وقت خروج بني إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وجنوده، فرأيت حافر الفرس حين وَطئ الأرض، فإذا هو مُخْضَرٌّ بالنبات، فعلمتُ أن أثر جبريل إذا أُلقي في جماد صار حيًّا، فأخذتُ بكَفَّيْ ترابًا من أثر حافر فرس جبريل، فألقيتُه على الذهب الذي صنعتُ منه العجل، فكان عجلًا حيًّا، له جسد وله صوت، كصوت البقر[1] ابتلاءً وفتنة للناس، وهكذا حسَّنتْ لي نفسي الأمَّارة بالسوء هذا الصنيع؛ لما عندي من عِلْمٍ بصناعة التماثيل والصور ومختلف الحيل.

أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس جبرائيل، نبذه السامري على حِلْيةِ بني إسرائيل المستعار من نسوة مصر، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار، خفيف الريح فيه خوار. والعجل: ولد البقرة.

وذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى معنى آخر للآية، وهو: أن السامري قال لموسى: كنت قد أخذتُ جانبًا من دينك وعلمك، ثم تبيَّن لي أنك على ضلال، فنبذتُ ما أخذتُه عنك، وحسَّنتْ لي نفسي أن أصنع للناس عجلًا لكي يعبدوه؛ لأني أرى أن عبادة العجل حق، فهو يقول: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي: عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق، وأن المراد بالرسول في الآية: هو موسى، وليس جبريل، **والقبضة**: هي العلم والدين. وهو قول خالف به المفسرين[2].

عُقُوبَةُ السَّامِرِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَنِهَايَةُ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

٩٧- ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ[3] وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ[4] ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) وبهذا قال ابن عباس وقتادة ومجاهد وبعض السلف، ومعنى الآية يتضمنها ولم يرد هذا في سُنَّة صحيحة.

(٢) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٦/ ٧٠).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب، بكسر اللام من (تخلفه) مضارع مبني للمعلوم، متعدٍ لمفعولين، وقرأ الباقون بفتح اللام، مبني للمجهول، والمعنى: لن يخلفك الله موعدًا.

(٤) قرأ ابن وردان بفتح النون وإسكان الحاء وضم الراء مخففة هكذا (لَنَحْرُقنه) مضارع حرق، وقرأ ابن جماز مثله إلا أنه كسر الراء (لَنَحْرِقنه). والباقون (لَنُحَرِّقنه) بضم النون وفتح الحاء وكسر الراء مشددة.

اكتفى موسى ﷺ بإخراج السامري من بين بني إسرائيل، وإخراجه طريدًا ونفيه من البلاد، بحيث لا يجد سبيلًا إلى أن يخبر أحدًا عن أحواله، ولا يجد من يخبره عن حاله، كمن هو في سجن انفرادي في معزل عن الناس، وهذه عقوبته في الدنيا، فضلًا عن العقوبة الكبرى في الآخرة.

قال موسى للسامري: اذهب فإنك ستعيش وحيدًا منبوذًا في الحياة، تقول لكل أحد: لا تقترب مني ولا أقترب منك، لا أمس ولا أُلمس، وسوف تلقى عقاب الله لك في الآخرة، فلن يخلفك وعده.

فمعنى ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي: لا يمسَّك أحد، ولا تمس أحدًا، وتكون في عزلة عن الناس، هذا في الدنيا، عقوبة لك فيها، ولك موعد صادق في الآخرة تُعذَّب فيه أبد الآباد ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾.

وبهذا يكون السامري قد انخلع من الأمة؛ إما لأنه لم يكن منهم، وإما لأن الله تعالى عَلِمَ أنه لا يُرجى صلاحه، وقد سلبه الله الأُنس الذي يكون بين الناس، فأصبح في عزلة تامة، كصاحب المرض الوبائي المعْدي، لا يقترب من أحد ولا يقترب منه أحد.

أمَّا العجل الذي عبدتَه من دون الله فلَنحْرقنَّه بالنار، ثم نُذَرِّيه في الهواء، فحرَّقه موسى وذرَّاه في اليم ونسفه نسفًا، ولم يدفع الضُّر عن نفسه، وما أشبه هذا بما فعله إبراهيم ﷺ حين كسر الأصنام؛ ففي هذا قطع لجذور الشرك والوثنية.

قيل: إن موسى بَرَدَ العجل حتى صار غبارًا، ثم ذرَّاه في البحر، وأمر بني إسرائيل أن يشرَبُوا من الماء، فكل من شرب منه أُشرب قلبه حب العجل، وخرج على شاربه من الذهب فضيحة له[1]، ولو كان العجل إلٰهًا لمنع نفسه من الأذى والإحراق، وقد أحرقه موسى وسحقه وذرّاه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوب بني إسرائيل من حبهم له، وقد أهلكه موسى ﷺ وهم ينظرون، حتى يقطعوا الطمع في إعادته، ويتبيّن لهم بطلان ما قاله موسى السامري.

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٦٢).

التَّعْقِيبُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ

٩٨- ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

إنما معبودكم -أيها الناس- هو الله وحده، خالقكم ورازقكم ومدبر أمركم، فلا معبود بحق إلا هو، وقد أحاط علمه بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وفي الآية انتقال من خطاب السامري إلى خطاب الأمة؛ لتصحيح العقيدة، وبيان الخطأ في الشرك بالله تعالى، وعبادة غيره. قال تعالى:

٩٩- ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾

وفي نهاية قصة موسى عليه السلام من سورة (طه) يُعقِّب ربنا سبحانه بأنه: كما قصصنا عليك -يا محمد- من أنباء موسى وفرعون وقومهما، نقصُّ عليك من أنباء الأمم السابقة عن طريق الوحي، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ﴾ [يوسف: ١٠٢].

وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ﴾ [هود: ٤٩].

وقد أنزلنا عليك -يا محمد- هذا القرآن المشتمل على هذه الأخبار؛ ليكون ذكرى لمن يتذكر، وعبرة لمن يعتبر، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠]. وفي هذا القرآن ذكر لك ولقومك.

وإذا كان القرآن ذِكْرًا للرسول ولأمته، فيجب قبوله بالتسليم والقبول والانقياد له، والاهتداء بهديه، والإقبال عليه بالتعلم والتعليم، أما مقابلته بالإنكار أو الإعراض فإنه كفر مستحق للعقوبة؛ كما قال تعالى:

١٠٠، ١٠١- ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾

في هذا إخبار من الله تعالى عن سوء عاقبة من يُعرِض عن القرآن، ويكذِّب ما جاء فيه، ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إثمًا كبيرًا، ووزرًا من الأوزار العظيمة، والذنوب الكبيرة يخلَّد به يوم القيامة في نار جهنم، وبئس هذا الحمل الثقيل الذي يحمله الإنسان يوم القيامة من الآثام والخطايا؛ حيث أوردهم النار.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم

بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣]. ويُشبَّه الوزر بالحمل لثقله.

مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

١٠٢، ١٠٣- ﴿يَوْمَ يُنفَخُ[1] فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾

وما دام الحديث عن يوم القيامة، فإن من المناسب أن يذكُر الله سبحانه بعض مشاهد القيامة في نهاية هذه السورة؛ ليبيِّن جلَّ شأنه مصير المؤمنين، ومصير الظالمين المكذبين، ويبدأ ذلك بالنفخ في الصور.

والصور: هو القرن، أو البوق، والنافخ هو إسرافيل، ينفُخ في الصور مرتين: مرة يُصعق فيها الخلائق جميعًا فيموتون، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾. والنفخة الثانية حين يقوم الخلائق من قبورهم للبعث والنشور، والحساب والجزاء، وبين النفختين أربعون عامًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه، وانتظر أن يؤذن له»**؟ فقالوا: يا رسول الله، كيف نقول؟ قال: **«قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»**[2].

أي: كيف أتلذذ وأتمتع بما في الدنيا من النعيم، وكيف أنعم وصاحب القرن وهو

---

(١) قرأ أبو عمرو (نَنْفُخ) بنونين: الأولى مفتوحة وضم الفاء، مبني للمعلوم، مسند إلى ضمير العظمة، وهو عائد على الله تعالى في قوله: (إنما إلهكم الله)، وقرأ الباقون بياء مضمومة وفاء مفتوحة (يُنْفَخ) مبني للمجهول، نائب فاعله الجار والمجرور بعده.

(٢) «سنن النسائي الكبرى» (١١٠١٦) وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٩٦) والطحاوي في «مشكل الآثار» (٥٣٤٤) و«تفسير الطبري» (١١/ ٤٦٣) والحديث عن ابن عباس في المسند (٣٠٠٨) قال محققوه: وفيه عطية العوفي، فهو حسن لغيره، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٥٢) والطبراني (١٢٦٧٠) والحاكم (٤/ ٥٥٩) وابن حبان بإسناد صحيح (٨٢٣).

إسرافيل، قد وضع فمه في الصور، واستعد للنفخة، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟! أي: أنَّ النفخ في الصور أمر حاصل وشيك، والمجرمون يُحشرون ويُجمعون في هذا اليوم سود الوجوه، زُرق العيون، قد تغيرت ألوانهم وعيونهم من شدة الأهوال والأحداث، فيكونون في بعض الحالات عُميًا، وفي بعضها زُرقًا، وهم الذين ماتوا على الكفر والشرك.

أي: أن المجرمين يُحشرون يوم القيامة سود الوجوه حين يخرجون من القبور، فيتحدثون ويتهامسون سرًّا، ويتحاورُون فيما بينهم، يقول بعضهم لبعض وهم يتحدثون عن المدة التي قضوْها في الدنيا، أو في القبور، فيقولون: ما لبثتم في الحياة الدنيا إلا عشرة أيام، أي: أننا عشنا في الدنيا مدة قصيرة جدًّا، فالموت أنساهم مدة الحياة ومدة البرزخ، كأنهم ما لبثوا في الدنيا ولا في القبور شيئا يذكر، وهم يندمون على ما قصَّرُوا في حق الله تعالى حين يروْن عِظَم الموقف فيلُوم بعضهم بعضًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات].

وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون].

وعن أهل الكهف يقول تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ﴾ [الكهف: ١٩].

وهكذا: فإن المتقين يحشرون إلى الرحمن وفدا، والمجرمون يحشرون زُرْق الألوان، من الخوف والقلق، وهم يتناجون فيما بينهم عن قصر عمر الدنيا فبعضهم يقول: مدتها عشرة أيام، وبعضهم يقول: يوما، وبعضهم يقولِ: ساعة من نهار، وبعضهم يقول: عشية أو ضحاها وهكذا. قال تعالى:

١٠٤- ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

يقول سبحانه: نحن أعلم بما يتخافتون به فيما بينهم، فربُّ العالمين يسمعهم، ويعرف أحوالهم، ولا يخفى عليه شيء من سرهم ونجواهم، إذ يقول أعقل القوم، وأصوبهم

رأيًا، وأعْدَلُهم طريقة: ما لبثتم في الدنيا، أو في قبوركم إلا يومًا واحدًا؛ وذلك لِقِصَرِ مدة الدنيا في أعينهم يوم القيامة.

وسواء استقلُّوا هذه المدة التي مكثوها في الدنيا، أو في قبورهم، أو لم يستقلّوها، فلو أن مدة الدنيا كانت عشرة أيام، أو يومًا واحدًا، أو كانت ألف عام، أو أكثر أو أقل، وكانت كلها مليئة بالسعادة، فإنها لا تُساوي شيئًا يذكر في مقابل نفحة واحدة من عذاب الله يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء].

حيث يذهب مع هذه النفحة من العذاب، نعيم الدنيا ومتاعها كله، كأنه لم يذق نعيما قط، وكذلك الفقير الصالح حين يتذوق شيئًا من نعيم الجنة، فكأنه يومئذ لم ير بؤسًا قَطُّ في دنياه.

مِنْ مَشَاهِدِ الْقِيَامَةِ: نَسْفُ الْجِبَالِ

١٠٥-١٠٧- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا [١] ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾

في يوم القيامة أهوال وزلازل جسام، ومن ذلك أن الجبال الرواسي تُقلَع وتُزال عن أماكنها، فتكون كالعهن المنفوش، وتكون كالرمل كثيبًا مهيلًا، ثم تدك فتصير هباء منبثا، ثم تتلاشى وتضمحل فتسوي بالأرض، وتُجعل الأرض قاعًا صفصفًا مستويًا، لا ترى منها ارتفاعًا ولا انخفاضًا ولا أودية ولا بروزًا، ويمدها الله مد الأديم فتتسع للخلائق كلهم، ويكونون في موقف واحد، يُسمعهم الداعي وينفُذُهم البصر[٢].

سأل رجلٌ من قريش رسولَ الله ﷺ عن الجبال: أين تكون هذه الجبال يوم القيامة وما مصيرها؟ وسأل رجل آخر من ثقيف عن: حال الجبال التي يسكنون بينها في الطائف، أين تذهب يوم القيامة[٣]؟ وكلاهما سؤال تعنت واستهزاء، وليس سؤال استرشاد واستهداء، فنزلت هذه الآية تبيِّن أن الله تعالى يُزيلُها ويقْتلعها من أماكنها، ويرسل عليها الريح،

(١) عدّ (قاعا صفصفًا) آية، المصحف البصري والشامي والكوفي، وتركها غيرهم من العدد، وهم الحجازيون.

(٢) ينظر: تفسير ابن سعدي للآية.

(٣) «تفسير الطبري» (١١/ ٤٦٣).

فتذروها في الهواء، وتصير كالعهن المنفوش، أو هباء منثورًا، كما قال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة].

وعندما تُزال الجبال عن أماكنها، تبقى الأرض مستوية بلا ارتفاع ولا انخفاض؛ أي: أن الله تعالى يترك أماكن الجبال خاوية، أرضًا مستوية ملساء، لا نبات فيها ولا شجر، وهذه الجبال لا يرى الناظر إليها يوم القيامة ميلًا ولا انحرافًا، فهي أرض مستوية وغير معوجة؛ إذ ليس فيها مرتفع ولا منخفض، وليس فيها نبات، ولا عقارات، ولا مبانٍ، ولا غيرها.

فالقاع: هو الأرض السهلة المكشوفة ليس فيها نبات ولا ماء.

والصفصف: هو الأرض المستوية الملساء.

والعِوَج بكسر العين يكون في المعاني، وليس في الأعيان، أي: أن العوج المنفي عن الأرض ليس بالقياس الهندسي، وإنما هو في عين الرائي.

أما **الأمْتُ**: فهي الأرض التي ليس فيها نُتوء بعد اقتلاع الجبال منها.

اتِّبَاعُ الدَّاعِي إِلَى سَاحَةِ الْعَرْضِ

١٠٨- ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

ويوم تُنسف الجبال، يتْبع الخلق صوت الداعي إلى ساحة العرض يوم الحشر، يوم يقوم الناس من القبور، ويسمعون صوت إسرافيل، وهو يناديهم من فوق صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والجلود المتمزقة، واللحوم المتفرقة، هلموا إلى عرش الرحمن؛ فيقومون من قبورهم، لا يخطئون الطريق، ولا يتركون إجابة الداعي، ولا يزيغون عنه، ولا ينحرفون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾ [ق].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم]. وقال ﷻ: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٨].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر].

أي: أنه في ذلك اليوم، يتّبع الناس صوت الداعي إلى موقف القيامة، لا محيد عن دعوة الداعي؛ لأنها دعوة حق وصدق لجميع الخلق، وعندئذ تسكن الأصوات خضوعًا وهيبة للرحمن، فلا تسمع إلا صوتًا خفيًّا كوطء الأقدام، وهمس الشفاه، يتملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارًا لحكم الرحمن فيهم، فترى الوجوه منكسرة ذليلة، الكل سواء: الثري والفقير، الحاكم والمحكوم، الرجل والمرأة، الملوك والسوقة، الكل ساكت منصت، أبصارهم خاشعة، ورقابهم خاضعة، جاثمين على ركبهم، خاضعة وجوههم لا يدرون ماذا يُفعل بهم.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝١٠٥﴾ [هود].

والمسؤولية يومئذ مسؤولية فردية ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس]. عن ابنه، وأخيه، وأبيه، وأهله، وعشيرته، قد اشتغل كل بنفسه، وعندئذ يحكم فيهم رب العالمين، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان، والكل يؤمل في عفو الله وإحسانه وصفحه وغفرانه، فالله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ولله تعالى مئة رحمة، أنزل لعباده منها رحمة واحدة، يتراحمون بها فيما بينهم، حتى إن البهيمة لترفع حافرها عن ولدها مخافة أن تطأه، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين فرحم بها العباد:

شُرُوطُ الشَّفَاعَةِ

١٠٩- ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ۝١٠٩﴾

وفي ذلك اليوم، لا تنفع الشفاعة أحدًا من الخلق، إلا إذا أذن الله للشافع أن يشفع، وهذا مقام الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، ورضي ربنا عن المشفوع له، وهو من قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أي: ولا تكون هذه الشفاعة إلا للمؤمن المخلص ممن رضي الله قوله وفعله.

فالشفاعة لها شرطان: شرط يتعلق بالشافع وهو الإذن له بالشفاعة، وشرط يتعلق بالمشفوع له، وهو الرضى عنه بأن يكون أهلًا للشفاعة.

وعن الشرط الأول يقول سبحانه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وعن الشرط الثاني يقول تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ويجمع الشرطين قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾﴾ [النجم].

في صحيح البخاري وغيره: عن أنس ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة شُفِّعْتُ، فقلت: يارب، أدخِل الجنة من كان في قلبه خردلة، فيدخلون، ثم أقول: أدخل الجنة من كان في قلبه أدنى شيء**» قال أنس: كأني أنظر إلى أصابع رسول الله ﷺ[1].

وفي حديث أنس أيضًا أن النبي ﷺ قال: «**يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظَمتي لأُخرِجنَّ منها من قال: لا إله إلا الله**»[2]. قال تعالى:

١١٠- ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ[3] وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

الضمير في الآية يعود على المتبعين للداعي، أي: أن الله تعالى يعلم ما سيكون في يوم القيامة، وهو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم، ويعلم ما مضى من أحوالهم في الدنيا، وهو معنى ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ويعلم ما خفي وما ظهر من شؤون خلقه، فلا تخفى عليه خافية في أمور الدنيا ولا في أمور الآخرة، أما الخلائق فإنهم لا يحيطون علمًا بخالقهم.

فِي يَوْمِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ يُذَلُّ الْكَافِرُ وَيُعَزُّ الْمُؤْمِنُ

١١١- ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾

وفي هذا الموقف العظيم تخضع الوجوه وتَذِل لرب العالمين، فتذعن وتستسلم لخالقها

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٥٠٩) وأخرجه مسلم (١٩٣) مطولًا.

(٢) من حديث طويل في «صحيح البخاري» برقم (٧٥١٠) وأخرجه مسلم (١٩٣).

(٣) قرأ يعقوب بضم الهاء من (أيديهم)، والباقون بكسرها.

وبارئها، سِيَّمَا وجوه الظلمة والمشركين والمكذبين، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝﴾ [الغاشية].

وقال أيضًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝﴾ [عبس].

لقد ذلَّت الوجوه في يوم الحشر والنشر، وخشعت الأصوات، وخضعت الجبابرة للحي الذي لا يموت، وهو سبحانه القيوم، أي: القائم على تدبير شؤون خلقه.

وقد خاب وخسر في هذا اليوم مَنْ تحمَّل ظلمًا من دنياه لآخرته، وفي مقدمة هذا الظلم من أشرك بالله أحدًا من خلقه، ولم يُقدِّم لنفسه عملًا صالحًا ينفعه في هذا اليوم العسير، ومن ذلك ظلم العباد بعضهم لبعض، ومنه الحقوق والديون.

وفي حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»[1].

ويوم القيامة، يوم يُقْتَصُّ فيه من الظالم للمظلوم، حتى يُقْتَصَّ من الشاة القرناء للشاة الجمَّاء وهي التي لا قرن لها.

وخيبة المشرك دائمة ملازمة له، وخيبة العاصي مؤقتة حتى يُعاقَب بقدر معصيته. قال تعالى:

١١٢- ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ[2] ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ۝﴾

أما من جاء يوم القيامة مؤمنًا، وقد قدَّم في الدنيا الأعمال الصالحة، فإنه يأتي يوم القيامة آمنًا مطمئنًا لا يخاف زيادة على سيئاته، ولا نقصًا من حسناته.

قيل في الفرق بين الظلم والهضم: إن الظلم قد يكون بمنع الحق كله، أما الهضم فيكون بمنع بعض الحق، فكل هضم ظلم، وليس كل ظلم هضمًا.

وقد بيَّن ﷻ أنه لا يظلم الناس شيئًا في مواطن كثيرة من كتابه، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٨).

(٢) قرأ ابن كثير (فلا يخف) بحذف الألف بعد الخاء وجزم الفاء، على أن لا ناهية، والباقون بألف بعد الخاء وضم الفاء، على أن لا نافية، والفعل بعدها مرفوع؛ لتجرده من الناصب والجازم، وجملة الفعل والفاعل خبر لمبتدأ محذوف تقديره: فهو لا يخاف.

ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

وقد جاء في هذه الآية والتي قبلها أن الناس في يوم الحشر على قسمين: قسم ظالم بكفره، ممن حمل ظلما، وهذا معذب في نار جهنم، وقسم مؤمن قد عمل الصالحات، وهذا القسم لا يزاد في سيئاته ولا ينقص من حسناته، بل تضاعف له الحسنات ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]

الْقُرْآنُ كِتَابُ هِدَايَةٍ لِلْبَشَرِ

١١٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾

وبمثل هذه الآيات التي تصور مشاهد القيامة، وتذكُر الأحكام والآداب والقصص، وتُرَغِّب أهل الإيمان في العمل الصالح، وتحذِّر أهل الكفر من الاستمرار على كفرهم، كما تحذر أهل المعاصي من البقاء على معاصيهم.

بمثل ذلك أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﷺ بلسان عربي مبين ليفهموه ويتدبروه ويعملوا بما فيه، وقد صرَّف الله فيه من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، والبشرى والإنذار.

فقد فصَّلْنا فيه أنواعًا من العذاب، لعل الخلق يتقون ربهم ويخافون يوم لقائه.

وذكرنا فيه أسماء الله تعالى وصفاته الدالة على عدله ورضاه وغضبه.

وضربنا فيه الأمثلة بما حل بالأمم المكذبة لرسل الله، حتى تعتبر الأمم اللاحقة، وذكرنا أهوال يوم القيامة، وجهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون فيتركون الذنوب والمعاصي.

ولعل هذا القرآن يُحدِثُ في نفوسهم تذكرة، فيتعظوا ويعتبروا، ويعلموا أنه خارج عن طوق البشر، فيمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

وفي الآية تحذير من أمر الله تعالى وعقابه ووقائعه بالأمم.

مِنْ قَوَاعِدِ التَّلَقِّي وَالتَّرْتِيلِ

١١٤- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ[1] إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

اشتملت هذه الآية على **فقرات ثلاث**، كلها متصلة بالقرآن، المذكور في الآية السابقة:

أُولاها: ثناءٌ على الله تعالى منزِّل هذا الكتاب؛ لتعليم العباد كيفية شُكْره تعالى، والثناء عليه.

والمعنى: تعالى الله وتمجَّد، وتعاظم وارتفع، وتقدس عن كل نقص؛ فهو الذي عنت الوجوه لخشيته، وخضعت له رقاب الجبابرة والعظماء، وهو الملك الذي قهر سلطانه كل طاغية وجبار، المتصرف في كل شيء، فهو الحق، ووعده حق، ووعيده حق، وكل ما يصدُر عنه حق، وهو مالك يوم القيامة، ومالك الدنيا والدين، فهو ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ ملكه دائم وثابت، لا يتحول ولا ينقص، ولا يزول ولا يفنى.

ففي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**»؟[2] **وهذا معنى**: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾.

وثانيتُها: أن الرسول ﷺ كان يتعجَّل نزول الوحي، ويتلقف الآيات التي ينزل بها جبريل، ويسارعه في تلقي الآيات قبل أن يفرغ منها، ويُمْليها على الكتبة، فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

ويبيِّن الله ﷻ كيف أن النبي ﷺ كان يتلقف الوحي من جبريل ﷺ على وجه السرعة، من باب الحرص، فطمْأنه الله تعالى على تمام نزوله وجمْعه له في صدره في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ عليك بقراءة جبريل ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة ١٧، ١٨] أي: اقرأه كما قرأه لك، بالتلقي عليه.

كما ثبت في الصحيح عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفتيه فأنزل الله هذه الآية[3].

---

(١) قرأ يعقوب بنون مفتوحة وضاد مكسورة وياء مفتوحة من (نَقضِيَ) ونصب (وحيه) بعدها، فعل مضارع منصوب بأن، ووحيه مفعول به، وقرأ الباقون بالبناء للمجهول في (يُقضَى) ورفع (وحيُه) نائب فاعل.

(٢) أخرجه البخاري ك (٩) ب (٩٢) قبل الحديث رقم (٧٤٨١).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٥) ومسلم (٤٤٨).

أي: أن النبي ﷺ كان كلما قرأ جبريل آية، قرأها معه، من شدة حرصه على تلقي الوحي، فأرشده الله تعالى إلى ما هو أسهل وأخف عليه بأن يُنصت إلى قراءة جبريل حتى ينتهي، ثم يقرأ بعد ذلك، فإن الله تعالى يَسَّر له حفظه، وكان النبي ﷺ إذا تكلم جبريل يخاف أن ينسى أوله، ويأمر بكتابته، وربما أسرع في اتخاذ الحكم، فقد اشتكت له امرأة لَطْمَ زوجِها لها، فقال: بينكما القصاص ثم نزلت ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[١] [النساء: ٣٤].

ويؤخذ من هذا: الأدب في تلقى العلم، وأن المتعلم ينبغي له أن ينتظر حتى يفرغ المعلم من كلامه، فإذا فرغ منه سأله، ولا يقطع بسؤاله كلام المعلم، وينبغي على المسؤول أن يستوعب سؤال السائل، ويعرف مقصوده قبل الجواب حتى يصيب الحقيقة.

وثالثُها: في الآية ما يشير إلى أن الباعث على استعجال النبي ﷺ في تلقي الوحي، أمر محمود، وهو الرغبة في طلب العلم، فأتْبعَ سبحانه النهي عن التعجل في متابعة جبريل، بأن أَذِن له في سؤال الزيادة من العلم، والقرآن رأس العلم وأساسه، فأمر الله نبيه أن يدعو ربه بالتزوُّد من العلم في نهاية الآية.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علمًا، والحمد لله على كل حال**»[٢].

وهكذا نصح الله رسوله أن يدعو ربه بأن ينفعه بما علَّمه، وأن يزيده من علمه.

نِسْيَانُ آدَمَ أَمْرٌ مُرَادٌ للهِ تَعَالَى

١١٥- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾

لما عهد الله تعالى إلى نبيه محمدا ﷺ ألا يَعْجَلَ بالقرآن قبل فراغ جبريل منه، أتبع ذلك ببيان أن الله تعالى قد عهد قبله إلى أبيه آدم ألَّا يأكل من الشجرة فنسي وعوقب؛ ليكون ذلك أشد في التحذير، وأبلغ في العهد بالنسبة إلى محمد ﷺ، والعهد بالنسبة له

(١) يُنظَر: ابن جرير (٦/ ٦٨٨) وابن أبي حاتم (٣/ ٩٤٠) برقم (٥٢٤٦).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٥) (١٣٣٢/ ٣) والترمذي برقم (٣٥٩٩) وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٨٤٥) بدون: والحمد لله.

ﷺ بمعنى: الوصية(١).

أي ولقد وصينا آدم وأمرناه وعهدنا إليه عهدًا، فوطَّن نفسه على القيام به، إلا أنه نسي، فذهب عزمه، وعوقب على ذلك، فصار عبرة لذريته، وصارت طبيعتهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم، وبادر بالتوبة فأقر واعترف، فغفر الله له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ونسيان آدم للعهد له معنيان:

أحدهما: بمعنى الترك، أي: ترك آدم الأمر والعهد، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]. وهذا قول مجاهد وغيره.

وثانيهما: بمعنى السهو والنسيان، وهو قول ابن عباس.

وعلى هذا فيحتمل أن النسيان كان مؤاخذًا عليه في عهد آدم، وقد رفعه الله عن هذه الأمة(٢).

وهذا المعنى هو المتبادر للذهن، ولعله المقصود في الآية، فقد أمر الله ﷻ آدم أن يأكل من ثمار الجنة، وأوصاه بألَّا يقرب شجرة معينة، وحذَّره من إغواء الشيطان له، وعهد إليه بذلك، ولكن آدم نسي عهد ربه، ووسوس له الشيطان فأطاعه، وما سُمِّيَ الإنسان إنسانًا إلا لأنه ينسى، كأن الله تعالى يقول: بنو آدم يُذنبون ويُفرِّطون، وقد أخذنا العهد على أبيهم آدم ألا يقرب شجرة معينة ﴿فَنَسِيَ﴾، وأكل من تلك الشجرة، ولم نجد له تصميمًا وعزمًا قويًا على مخالفة النهي، ولم يوطِّن نفسه على أن يأكل من الشجرة، ويخالف العهد، وكان هذا قبل أن يوحى إلى آدم، وقبل أن يكون نبيًّا يُعْهد له بدعوة أبنائه وأهل بيته.

طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ آدَمَ وَإِبْلِيسَ

١١٦- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ(٣) اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾

يذكر الله سبحانه طرفًا من قصة آدم وإبليس، وهي القصة التي ذُكرت في القرآن سبع

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٦٦).

(٢) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٢٥١).

(٣) قرأ ابن جماز بضم تاء (للملائكة اسجدوا) وصلًا، وقرأ ابن وردان بضم التاء، وبإشمام كسرتها الضم، وقرأ الباقون بالكسر.

مرات بأسلوب متنوع، تعليمًا لبني آدم؛ ليتخذوا الشيطان عدّوا لهم، وليحْذَروا منه ومن سطوته؛ حتى لا يفعل بهم كما فعل بآدم، فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام، فأطاعوا وسجدوا، وكان إبليس حاضرًا مع الملائكة يعبد الله معهم في الجنة، فامتنع من السجود؛ قائلا: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] لأنه كان من الجن ولم يكن من الملائكة، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [ص]. ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وبهذا حقّت عليه اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى.

وكان هذا الأمر بالسجود بعد أن أكمل الله خلق آدم بيده وعلّمه الأسماء وفضّله وكرمه، ولما امتنع إبليس من السجود لآدم، ظهرت عداوته لآدم وذريته، وظهر الحسد والحقد الذي أضمره في نفسه له، ولذا حذر الله آدم وذريته من عداوة إبليس.

تَحْذِيرُ الإِنْسَانِ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ

١١٧- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾

حذَّر الله سبحانه آدم، وبيَّن له أن الشيطان عدو له ولزوجه، ولبني آدم جميعًا، فليحذر طاعته بمعصية الله، فإياك أن يتسبب في إخراجك من الجنة، فتشقى أنت وزوجك، ولقد شقيا في الدنيا بعد الخروج من الجنة بالكدح والتعب، والبحث عن الرزق.

والأحاديث الصحيحة تشير إلى أن قصة أكل آدم من الشجرة أَمْرٌ مُرَادٌ لله تعالى؛ لعمارة الأرض، والتحذير من طاعة الشيطان.

أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«حاجَّ موسى آدمَ، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال: قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني، أو قدَّره عليَّ قبل أن يخلُقني»**؟ قال رسول الله ﷺ: **«فحجَّ آدمُ موسى»**[1].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٣٨) وغيره و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٥٢).

تَأمِينُ المَأكَلِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَالمَسْكَنِ لِلإنْسَانِ

١١٨، ١١٩- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ[1] لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾

ثم بيَّن الله تعالى لآدم، أنه كفَل له في الجنة أشياء ضرورية لابد منها للإنسان؛ لأنها أصول حياته، وهي: المأكل، والمشرب، والمسكن، والملبس؛ فالإنسان يسعى في هذه الحياة لهذه الضرورات الأربع، وقد ضمِن اللهُ تعالى لآدم في الجنة أن يأكل فيها فلا يجوع، وأن يلبس فلا يعْرى، بلا كدٍّ ولا تعبٍ، وقرن بينهما في الآية لأن الجوع عُرْي الباطن، وعدم اللباس عُرْي الظاهر.

ولك -يا آدم- ألا تعطش في الجنة وهي دار السرور والحبور، فلا يصيبك فيها حر الشمس ولا العطش، وفي العطش ألم الباطن، وفي حر الشمس ألم الظاهر، ولذا قرنَتْ بينهما الآية، وهذه الأمور الأربعة مقومات الحياة فوق الأرض، واستدلَّ بها بعض من يرى أن جنة آدم كانت في الأرض، وليست جنة الآخرة؛ ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وهكذا ضمن الله للإنسان في الجنة: استمرار الطعام والشراب والكسوة والماء وعدم التعب والنصب، وهذه الأربعة هي مقومات الحياة الدنيا الضرورية.

مِنْ آثَارِ المَعَاصِي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

١٢٠- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾

فلما رأى الشيطان هذا التكريم قال لأدم مُوسْوِسًا: هل أرشدك إلى شجرة من أكل منها صار من الخالدين، وكان الله قد نهى آدم عن الأكل من هذه الشجرة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

والمعنى: فحَّدث إبليس آدم خفية؛ ليثنيه عن هذه النصائح، وقال له: إن الأكل من هذه الشجرة يجعلك خالدًا فلا تموت أبدًا، ويجعل لك مُلْكًا لا ينقضي ولا ينقطع، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) قرأ نافع وشعبة بكسر همزة (وإنك لا تظمأ) عطفًا على (إن لك) وهو من عطف الجمل، وقرأ الباقون بفتح الهمزة عطفًا على المصدر المنسبك من أن وما بعدها في (أن لا تجوع) وهو من عطف المفردات، أي: إن في ذلك عدم الجوع وعدم العرى وعدم الظمأ.

وناداه باسمه؛ ليكون أكثر إقبالًا عليه، وأمكن في الاستماع إليه.

فاغتر آدم بنصائح إبليس ، وأكل هو وزوجه من الشجرة؛ فسقطت كسوتهما وظهرت عورتهما بعد أن كانا مستورين، فأصابهما من الخجل ما أصابهما وأخذ يستُرانهما بأوراق الشجر.

١٢١- ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾

فلما أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وكان ذلك نتيجة إغواء الشيطان ووسوسته، بدت لهما سوآتهما، وانكشفت لهما عوراتهما، وكانت قبل ذلك مستورة لا يريانها، فكان آدم لا يرى عورة حواء، وكانت حواء لا ترى عورة آدم، فترتب على هذه المعصية رؤية السوْءة، وسُميت العورة؛ سوءة؛ لأن انكشافها يسوء صاحبها، ويُحزنُه، وينفِّر الناس منه.

وكان إبليس قد أقسم أنه لهما من الناصحين، فأخذا يلْصِقان عليهما من أوراق أشجار الجنة؛ ليستُرا ما انكشف من عوراتهما.

قال سبحانه: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ أي: خالف أمر ربه، وضل الطريق، وأخطأ حين أكل من الشجرة التي نُهيَ عن الاقتراب منها، وكان هذا قبل أن يجعله الله نبيًّا، والذي أغوى آدم في الأكل من الشجرة، هو إبليس، وليست حواء، ثم اصطفاه ربه وقرَّبه، وتاب عليه.

وليس في الآية دليل على وقوع المعصية من آدم؛ لأن هذه القصة لم تقع في دار التكليف، بل وقعت في عالم آخر.

تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى آدَمَ

١٢٢- ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾

في هذه الآية بيان لفضل الله تعالى على آدم حيث قَبِل توبته، ورزقه المداومة عليها، وهداه إلى الثبات والاستمرار على الطاعة، وبعد الأكل من الشجرة اصطفاه ربه، واختاره وقربه إليه وجعله نبيًّا.

وكان آدم قد اعترف هو وحواء بخطئهما ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ [الأعراف].

وهذه الكلمات هي التي أوحى الله تعالى بها إلى آدم؛ لقبول توبته، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة].

وقد حذر الله بني آدم ألا يقعوا فيما وقع فيه آدم بطاعته في المعصية، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف]

هُبُوطُ آدَمَ وَحَوَّاءَ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ

١٢٣- ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ[1] فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾

ونتج عن معصية آدم، أن ربه أخرجه من الجنة هو وحواء وإبليس ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢاۖ﴾ وفي آية أخرى: ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أي: ومعكما إبليس؛ فأنتما وهو أعداء ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ﴾ وذرية بني آدم بعضهم لبعض عدو؛ بسبب الكسب والمعاش، واختلاف الطبائع والرغبات، والتخاصم والتنازع على حطام الدنيا.

جنة الدنيا وجنة الآخرة:

هذا، والجنة تأتي في القرآن بمعنى: البستان العظيم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

وقال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾ [الكهف: ٣٢].

وقال: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

والجنة في هذه الآيات بمعنى: البستان، والحديقة من بساتين الدنيا.

وتأتي الجنة، ويراد بها الجنة الأخروية:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ [الذاريات].

(١) لم يعد (مني هدي) آية، الكوفي والحمصى، وعدها آية غيرهما.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر].

وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١].

في أي الجنتين كان آدم: ولعل المراد: أن الله تعالى خلق آدم على الأرض في بستان عظيم؛ إذ القول بغير ذلك يثير إشكالات كثيرة، منها:

١- أن الله تعالى قال عن الجنة: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد اشتهى آدم وحواء الأكل من شجرة معينة، فكيف يُمنعان منها؟

٢- أن الله تعالى قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ولم يقل جاعل في السماء.

٣- أن الله تعالى حرَّم دخول الجنة على الكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فكيف يدخلها إبليس؟

٤- أن الله تعالى حرم نعيم الجنة من الأنهار، والمياه ، والأرزاق، على الكافرين، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]. فكيف يتنعم فيها إبليس؟

٥- أن نعيم الجنة لا يحول ولا يزول، فالمؤمنون خالدون فيها أبدًا، في جنات عدن، وإقامة دائمة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٨].

«يا أهل الجنة خلود بلا موت»(١).

فكيف يُنَعَّم فيها آدم وحواء وإبليس بعض الوقت، ثم يزول عنهم هذا النعيم؟!

٦- أن الجنة ليس فيها تكليف، ولا أوامر، ولا نواهٍ، والله تعالى نهى آدم وحواء،

---

(١) من حديث أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد في «المسند» (٥٩٩٣، ٨٥٣٥، ١١٠٦٦) وهو حديث صحيح بإسناد قوي ورجال ثقات وأخرجه البخاري (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠) وابن حبان (٧٤٧٤) والبغوي في شرح السنة (٤٣٦٧) والطبراني في الكبير (١٣٣٣٧).

فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩].

وهذا التكليف لا يكون في الجنة الأخروية.

أما الهبوط فيراد به في القرآن: الانتقال من مكان إلى مكان، كما قال تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] أي: انزلوا مدينة من المدن.

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

ولعل هذا هو المراد في قوله تعالى لآدم وحواء: ﴿ٱهْبِطَا﴾ [طه: ١٢٣].

أو ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: ٢٤]. أي انزلوا وارتحلوا .

منهج الله في أرضه لآدم بعد هبوطه إلى الأرض:

وبعد أن هبط آدم وزوجه إلى الأرض أخبر الله سبحانه أنه سيرسل للبشر رسلًا، وسيُنزل عليهم كُتبًا، فيها بيان الحق من الباطل، والهدي من الضلال، فقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: عن طريق الرسل والكتب، فإن من آمن بهما، وعمل بما جاءت به الرسل، فإنه في الدنيا لا يضل، وفي الآخرة لا يشقى، بل يَرشُد ويهتدي في دنياه، ولا يشقى في الآخرة بعقاب الله سبحانه ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]

قال ابن عباس ﷺ: ضمن الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألَّا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة[١].

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة].

وقد بدأت الآية بضمير التثنية عن آدم وحواء في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا﴾

ثم انتقلت إلى ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾.

---

(١) «تفسير القرطبي» (١١/٢٥٨) وقد أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (١٦٦٣) وحسنه المحقق، وصححه الحاكم بموافقة الذهبي في «المستدرك» (٢/٣٨١) وأخرجه أبو الفضل الرازي في «فضائل القرآن» برقم (٨٤).

قال الزمخشري: لما كان آدم وحواء هما أصل البشر، جُعِلا كأنهما البشر في أنفسهما، فخُوطِبا مخاطبة البشر[١]. قال تعالى:

١٢٤- ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا[٢] وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾

ومن تولى عن ذكري الذي أُذَكِّرُه به،فأنكره أو كفر به،ولم يتبع هدايَ فإن له في الحياة الدنيا عيشة شاقة ضيِّقة، وإن كان من أهل الغنى والجاه،وله معيشة ضنكًا في قبره،ومعيشة ضنكًا يوم لقاء ربه:

ومَنْ أعرض عن أمر الله تعالى وتناساه ولم يعمل به، فإن له كذلك في الدنيا معيشة قاسية، ولو كان عنده مال قارون، وزوجات الدنيا، وبنين شهودا، وجاهًا عريضًا، ومع هذا فلا يطمئن له بال، ولا ينشرح له صدر، بل يظل صدره ضيِّقًا وإن كان متنعمًا في الظاهر.

وجاء في الأثر: إن هذه المعيشة الضنك هي قمة الكرب والعياذ بالله.

قال ابن عباس ﷺ: من قرأ القرآن واتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب.

وقال أبو سعيد الخدري في المعيشة الضنك: هي عذاب القبر والعياذ بالله، فإنه يُضغط في القبر حتى تختلف ضلوعه، ولا يزال في عذاب حتى يُبعث.

أخرج ابن حبان عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ في قوله جلَّ وعلا: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «**عذاب القبر**»[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، والبيهقي في كتاب «عذاب القبر» عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إذا حدثتكم بحديث، أنبئكم بصدق ذلك من كتاب الله: إن المؤمن إذا وُضِع في قبره أُجْلِسَ فيه، فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيُثَبِّتُه الله، فيقول:

---

(١) «تفسير الكشاف» (٣/ ٩٣).

(٢) عدّ الحمص (ضنكا) آية، وتركها غيره.

(٣) «صحيح ابن حبان» برقم (٣١١٩) الإحسان، وحسنه المحقق، و«المستدرك» (١/ ٣٨١) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: إسناده جيد (٥/ ٣٢٤).

ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ؛ فيُوسَّع له في قبره، ويُروَّح له فيه، ثم قرأ عبد الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فإذا مات الكافر، أُجْلِسَ في قبره، فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيقول: لا أدري؛ فيُضيَّق عليه قبره، ويُعذَّب فيه، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1].

ومن أدلة عذاب القبر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]..

وقوله ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

وقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فهذه أربع آيات يستدل بها على عذاب القبر، والأحاديث في ذلك كثيرة.

والشقاء: شقاء الآخرة؛ لأنه إذا سَلِمَ من الضلال في الدنيا سَلِمَ من الشقاء في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ البصر، أو أعمى الحجة. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]

والعمى عنوان على غضب الله تعالى وإقصائه من رحمته، وفي مقابله من كان مؤمنًا عاملًا للصالحات، فإنه يحيا حياة طيبة يسعد بها في دنياه وأخراه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤].

وهكذا فإن الله تعالى وضع للعبد قانون الجزاء في الدنيا وكشف له عن مصيره في أخراه.

١٢٥- ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ[2] أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾

---

(١) الطبراني برقم (٩١٤٥) والبيهقي برقم (٩) قال الهيثمي: إسناده حسن، «مجمع الزوائد» (٣/ ٥٤).
وانظر حديث أنس في المسند (١٣٤٤٦، ١٣٤٤٧) حديث صحيح وإسناده قوي، وقد أخرجه أبو داود (٣٢٣١ن ٤٧٥١) ومسلم (٢٨٧٠، ٧٢) وعبد الله بن أحمد في السنة (١٤٢٨، ١٤٢٧).

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة وصلًا من (لم حشرتني أعمى)، والباقون بإسكانها.

أي: قال المُعْرِض عن ذكر الله تعالى وطاعته يوم القيامة: يا رب، لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت في دنياي بصيرًا؟ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة؟

١٢٦- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾

قال سبحانه: حشرتك أعمى؛ لأنك أتتك آياتنا البينات والمعجزات المشاهدة، فأعرضْتَ عنها، وتعاميتَ عنها، وتركْتها ولم تؤمن بها، وكما تركتَ العمل بها في الدنيا فإنك اليوم تُترَك في النار جزاء وفاقًا، فالجزاء من جنس العمل، وكما عَمِيتَ في الدنيا عن ذكر ربك، تُحشر إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وهذا من المعيشة الضنك في الآخرة.

وهذه الآية لا تشمل من نسي القرآن بعد حفظه، وإنما المراد: من لم يعمل بما في كتاب الله تعالى، فأعرض عنه ولم يؤمن به، وفيها دليل على أن الله تعالى حذَّر الإنسان في الدنيا من الضلال والشرك، وأن ذلك مستقر في فطرة الناس، وأن مخالفته موجبة للعقوبة في الآخرة.

١٢٧- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

وهكذا نعاقب من أسرف على نفسه بالمعاصي، ولم يؤمن بآيات الله، فعاقبَهُ ربه بعقوبات في الدنيا، وهذا جزاء من أسرف على نفسه بالشهوات والمعاصي، ولم ينتفع بهدْي القرآن ومواعظه، فالله لم يظلمه، ولم يضع العقوبة في غير موضعها، وإنما السبب هو الإسراف وعدم الإيمان.

أما عذاب الآخرة لهم، فهو أثبت وأدوم؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: أكثر وأشد ألمًا لمن ماتوا على الكفر والشرك ممن أسرف على نفسه بالطغيان والمعاصي، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]. وقال سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وُجُوبُ الاعْتِبَارِ بِهَلَاكِ الْعُصَاةِ

١٢٨- ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾

وبعد أن وضع الله لخلقه قانون الجزاء، بعدم شقاء من اتبع هداه، والمعيشة الضنك

لمن أعرض وكذب، بعد ذلك لفت سبحانه الأنظار إلى عقاب من كذب المرسلين، حتى لا يصيبنا ما أصابهم.

والآيات الثماني الأخيرة من سورة طه يبيِّن الله ﷻ فيها عاقبة من كذَّب بخاتم المرسلين في كل زمان ومكان، من كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من اليهود، والنصارى، والعلمانيين، والشيوعيين، والملحدين، والسيخ، والبوذيين، وغيرهم من سائر الملل والنحل، من عهد النبوة وإلى أن تقوم الساعة.

والله تعالى يقول لهؤلاء جميعًا: ألم تقرؤوا التاريخ؟ ألم تَعْرِفوا ما حلَّ بالأمم التي كذبت رسل الله؟ ألم تعرفوا ما حل بقوم عاد في جنوب الجزيرة؟ وقوم ثمود في شمالها؟ وقوم لوط في مكان البحر الميت في الأردن؟ وقوم مدين عند سيناء؟ وفرعون وقومه الذين أغرقهم الله في البحر الأحمر؟ وغير هؤلاء وأولئك

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]. ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]

ويقول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ﴾ [الصافات] أي: تمرون على هذه الديار، وتعرفون أخبارها وأماكنها، كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة].

ألا يكفي أن تعرفوا هذه الأخبار وما حلَّ بهذه الأمم، فيكون ذلك دليل هداية لكم؛ لتؤمنوا بخاتم النبيين محمد ﷺ؟

ألم يتبيَّن للكفار المعاندين ما حدث لكثير من الأمم التي مضت، وهم يَرَوْن أماكنهم التي أُهلكوا فيها، ممن خَسَفَ الله بهم الأرض، أو أتتهم الصاعقة، أو الرجفة، أو الصيحة، أو قُلبتْ بهم الأرض، أعلاها سافلها؟ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

ففي هذا عظة لذوي العقول، ممن تفيد فيهم الموعظة والذكرى.

أمَّا من لا عقول لهم فقد وصفهم الله تعالى بأنهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ وعليهم أن يسيروا في الأرض ويطَّلعوا على أخبار الأمم وأحوال المكذبين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. إن في تلك الأمم التي أهلكها الله تعالى، وفي آثار عذابهم، لعبرًا وعظات لأهل العقول الواعية.

وفي الآية توبيخ وتقريع لكل من لم يؤمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وفي معرفة أسباب إهلاك الأمم المكذبة لرسل الله آيات وعبر تأخذ بيد العاقل إلى طريق الهداية والنجاة.

عَذَابُ الْإِبَادَةِ لَا يُنَاسِبُ آخِرَ الْأُمَمِ

١٢٩- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾

وقد اقتضت حكمة الله ﷻ ألا يعذب بالإبادة والاستئصال أمة محمد ﷺ، كرامة للنبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]. لأنها الأمة الأخيرة التي أراد الله لها البقاء إلى قيام الساعة، ورسولها آخر الرسل، وشريعتها قائمة إلى يوم القيامة، ولولا ذلك لأهلكهم الله كما فعل بقوم عاد وثمود.

أي: ولولا وعد الله جلَّ شأنه، ألَّا يستأصل هذه الأمة بعذاب عام، ولو لا أن حكمته تعالى قد اقتضت ألا يستأصلهم بعذاب عاجل في الدنيا؛ لأهلكهم الله واستأصلهم؛ لأنهم مستحقون لذلك، ولكنه سبحانه يؤخرهم حتى يأتي الأجل المضروب، والموعد المحدد في الآخرة.

والمعنى: ولولا وعد الله تعالى وقضاؤه بتأخير العذاب المدمر لهذه الأمة، إلى أجل مسمى هو يوم القيامة، لفاجأهم الهلاك وكان ملازمًا لهم في هذه الحياة كالأمم السابقة.

قال الفراء: في الآية تقديم وتأخير، والمعنى: ولولا كلمةٌ وأجلٌ مسمى، لكان العذاب لازمًا لهم، وإنما أخره؛ لتعتدل رؤوس الآي[1].

---

(١) «زاد المسير» (٥/ ٣٣٣).

والكلمة: هي قضاء الله تعالى، ووعده السابق بتأخير العذاب عن المكذبين بدعوة محمد ﷺ ممن استبعدوا نزول العذاب بهم، وقالوا: متى هذا الوعد؟

والأجل المسمى: هو يوم القيامة حيث يحل العذاب بكل من مات على الكفر، ولولا ذلك لكان العذاب ملازمًا لهم لا ينفك عنهم.

وجاء اسم اللزام لنوع من العذاب، توعَّد الله به مَنْ كذَّب محمدًا ﷺ.

ففي صحيح البخاري وغيره: عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: خمس قد مضين: الدخان، والقمر، والرُّومُ، والبطشة، واللزام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[1].

وفي حديث النبي ﷺ الذي رواه ابن مسعود ﷺ: «... **وقد مضت الدخان والبطشة واللزوم وآية الرُّوم**»[2].

فتأخير العذاب المدمِّر إلى أجل مسمى هو يوم القيامة، وقد يكون هذا الأجل في الدنيا، كما حدث في يوم بدر لكفار قريش.

وقد صحَّ عن مجاهد في الطبري أن الأجل المسمى - المذكور في الآية - يكون في الدنيا.

قلت: ولعل هذا الأجل يكون إلى الدار الآخرة وهو الأصح؛ لأن الآية عامة.

ثَلَاثَةُ تَوْجِيهَاتٍ رَبَّانِيَّةٍ:

التَّوْجِيهُ الْأَوَّلُ: الصَّبْرُ عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ مُسْتَعِينًا بِالِاتِّصَالِ بِاللَّهِ

١٣٠- ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ[3] ﴿١٣٠﴾﴾

وما دام الأمر كذلك، بإمهال الله تعالى للمكذبين وتأخير العذاب عنهم، فما عليك يا رسول الله، وما عليك يا من تدعو إلى الله في كل زمان ومكان، بعد أن تبذل الجهد في

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧، ٤٧٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٠٠٧) من حديث طويل، وانظر: (١٠٢٠، ٤٦٩٣) ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) قرأ شعبة والكسائي بضم التاء من (تُرضى) فعل مضارع مبني للمجهول، من أرضى، ونائب الفاعل ضمير المخاطب، وقرأ الباقون بفتح التاء مضارع مبني للمعلوم، من رضي الثلاثي، والفاعل ضمير المخاطب.

الدعوة إلى الله تعالى، إلا أن تصبر على ما يقوله المكذبون من أوصاف وأباطيل، وتتحمل الأذى بالقول أو الفعل في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه.

والأمر بالصبر على أذى المشركين، جاء في الآيات التي نزلت بمكة قبل أن يؤمر الرسول ﷺ بالقتال، أى قبل أن تكون للإسلام دولة وقوة وشوكة، وبعد أن أقيمت دولة الإسلام، أمر الله رسوله بقتال من حارب الإسلام، ووقف في وجه الدعوة.

فاستعن بالصبر على أمور أخرى كثيرة، وأول هذه الأمور: أن تُكثِر من الصلاة والتسبيح، وأن تكون موصولًا بالله ﷻ آناء الليل وأطراف النهار، مجددًا صِلَتك به تعالى، قبل طلوع الشمس في صلاة الفجر، وقبل غروبها في صلاة العصر، ومن آناء الليل سبِّحه في صلاة العشاء، وسبِّحه في أطراف النهار: الطرف الأول، صلاة الظهر والطرف الثاني صلاة المغرب، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقد رتَّب الله جل شأنه على التسبيح المقرون بحمده، أن ينال العبد الثواب من الله تعالى، فترضى به نفسه، أى تنال ما يرضيك عند الله بمعنى: لعلك تُعطَى ما يرضيك -أيها المسلم- فيكون التسبيح بحمد الله تعالى سببًا لإثابتك على هذه الأعمال بما ترضى به، ويكون سببًا في أمْنِك وطُمأنينتك ورضاك، ويكون أيضًا سببًا لرضى رب العالمين عليك.

١- في الحديث القدسي: إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: **«يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول ﷻ: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعْطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خلقك، فيقول سبحانه: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يارب، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: (أُحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا»**[1].

٢- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي بكر بن عمارة بن رُؤَيْبة عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«لا يلج النار من صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها»** يعني: صلاتي الفجر والعصر، فقال رجل من أهل البصرة: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال:

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٤٩) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ومسلم (٢٨٢٩).

نعم، قال الرجل: وأنا أشهد أني سمعتُه أذناي، ووعاه قلبي[١].

وفي ذلك دليل على وجوب المحافظة على صلاة الصبح وصلاة العصر.

٣- وفي الصحيحين وغيرهما: عن جرير بن عبد الله البَجَلي ﷺ قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**» ثم قرأ الآية ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[٢].

٤- فالمحافظة على صلاتي الفجر والعصر على وجه الخصوص، سبب للنظر إلى وجه الله الكريم يوم لقائه، كما جاء في حديث صهيب ﷺ أنه يقال: «**يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنْجِزَكُمُوه، فيقولون: وما هو؟ ألم يبيِّض وجوهنا، ويثقِّل موازيننا، ويُزَحْزِحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيرًا من النظر إليه، وهي الزيادة**»[٣].

أي: الزيادة الواردة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

التَّوْجِيهُ الثَّانِي: عَدَمُ التَّطَلُّعِ إِلَى مَا عِنْدَ الآخَرِينَ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا

١٣١- ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ[٤] ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا[٥] لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾

أما التوجيه الثاني لرسول الله ﷺ ولكل مسلم، فهو أن يستعين بالصبر على عدم النظر

---

(١) «المسند» (٤/ ١٣٦) برقم (١٧٢٢٢، ١٧٢٢٣، ١٨٢٩٧) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات، (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٦٣٤) من حديث عمارة بن رُؤيبة وهذا لفظه، وابن أبي شيبة (٢/ ٣٨٦) وأبو داود (٤٢٧) والنسائي (٤٧٠)، وابن حبان (١٧٤٠) والبغوي في شرح السنة (٣٨٣).

(٢) البخاري برقم (٥٥٤، ٥٧٣) ومسلم برقم (٦٣٣) وأبو داود (٤٧٢٩) والترمذي (٢٥٥١) والنسائي في «الكبرى» (٧٧٦٢) وابن ماجه (١٧٧) وابن خزيمة (١١/ ٢٣٨) وابن حبان (٧٤٤٢) و«المسند» (١٩١٩٠)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٣) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٨١).

(٤) قرأ يعقوب بفتح هاء (زهرة) والباقون بإسكانها، وهما لغتان.

(٥) لم يعد (الحياة الدنيا) آية، الكوفي والحمصي، وعدها غيرهما.

إلى ما متّع الله به بعض الناس من أنواع المتع، فإنها ظل زائل، وقد متّعهم الله بها ليبتليهم، وذلك أن الله تعالى بعدما وبّخ المكذبين بخاتم المرسلين ﷺ على عدم الاعتبار بما حل بالأمم السابقة التي كذبتْ رسل الله، ثم توعَّدهم بالعذاب المؤجل.

بعد ذلك أمرنبيه في هذه الآية،باحتقار شأن الأثرياء منهم،فهو متاع مؤقت وظل زائل.

فاصبر على أذاهم، ولا تتطلع إلى ما في أيديهم من مال ومتاع، وفي هذا نهي عن الإعجاب بالدنيا وزينتها، وعدم الاغترار بها.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال أيضًا: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾ [آل عمران]. ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[النساء: ٧٧].﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[النحل:٩٦].

فقد يكون العطاء والمتاع استدراجًا لهم لموافقة سجاياهم، حتى تقوم الحجة عليهم، ويستوجبوا عقاب الله تعالى، بالإضافة إلى أنّ متاعهم مقصور على الدنيا، ومنهم من يبرُّ والديه ويقوم بخدمات إنسانية، فيكون قد أخذ ثوابه في الدنيا بما أوتي فيها من مال ومتاع.

ومعنى الآية: لا تتطلع لما في أيدي غيرك من النساء والمال والمتاع؛ فإن ذلك زينة الدنيا بالنسبة للكافر والعاصي، وفتنة له، وهي ظل زائل فيها ابتلاء واختبار ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧،٨]

والإسلام يأمر بطلب الرزق وبذل الجهد فيه، ولا يرضى بالكسل، وإنما يأمر ببذل السبب، وسلوك الطرق المشروعة، وما يرزقك الله به بعد ذلك، عليك أن ترضى به، ولا تتطلع لما هو أعلى منك في الرزق؛ فالمؤمن ينبغي عليه أن ينظر لمن هو دونه في الرزق، فهو أجدر ألا يزدري نعمة الله عليه، وألا يحتقر نفسه، وعليه لا يحسد غيره، والغِنَى غنى النفس، فكم من فقير مُعْدِم وهو عزيز في نفسه كريم على الناس، وكم من غني فقير النفس وهو ذليل عند الناس.

وهذه جملة من الأحاديث في معنى الآية:

١- دخل عمر ﷺ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير في الفترة التي اعتزل فيها نساءه، فدمعتْ عينا عمر ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: «**ما يبكيك يا عمر**»؟ قال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**»[١]. فقد عجَّل الله لهم أرزاقهم ومتَّعهم في الدنيا.

٢- والنبي ﷺ قد راودتْه جبال مكة أن تكون له ذهبًا وفضة، وتسير معه أينما سار، فأرسل له الله تعالى الملَك الموكَّل بالجبال ليأمره بذلك إن أراد، فقال ﷺ:
«**أجوع مرة فأشعر بأني محتاج إلى ربي فأسأله، وأشبع مرة فأشكر نعم الله وفضله عليَّ**».

وكان من دعاء الرسول ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا**»[٢].

بحيث لا يحتاج الإنسان إلى غيره، ولا يطغى بكثرة ماله:

٣- وفي حديث أبي سعيد الخدري ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أخشى عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من بركات الأرض، ثم ذكر زهرة الدنيا**»[٣] الحديث.

٤- وعن زيد بن ثابت ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كانت الدنيا همه فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرة نيَّته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة**»[٤].

٥- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي**

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

(٢) عن أبي هريرة في صحيح ابن حبان (١٤/ ٢٥٤) برقم (٦٣٤٣) وهو في صحيح البخاري (٦٤٦٠) بلفظ (اللهمَّ ارزق آل محمد قوتا) عن أبي هريرة وفي صحيح مسلم (١٠٥٥).

(٣) يُنظَر: البخاري برقم (٢٨٤٢) ومسلم برقم (١٠٥٢). من حديث طويل.

(٤) ابن ماجه برقم (٤١٠٥) وقال البوصيري في الزوائد: (٣/ ٢٧١) هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات. وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٣٩٣) برقم (٣٣١٣) وعزاه الهيثمي إلى الطبراني في «الأوسط»، وقال: ورجاله وُثِّقوا، «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٤٧) ورواه ابن حبان وأبو داود الطيالسي، وهو في السلسلة الصحيحة (٩٥٠).

أملأ صدرك غنى، وأَسُدَّ فقرك، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلًا، ولم أَسُدَّ فقرك»[١].

٦- وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من جعل الهموم همًّا واحدًا، همَّ المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبالِ الله في أيِّ أوديته هلك»**[٢].

فلا تتطلع -أيها المسلم- إلى أرزاق الناس، هذا يركب سيارة كذا، وهذا يسكن فيلا كذا، وهذا يلبس كذا، وهذا متزوج كذا، لا تتطلع إلى هذا ولا ذاك، واقنع بما أعطاك الله تعالى.

٧- لم يجد النبي ﷺ ذات يوم شيئًا يقدمه لضيفه، فأرسل (أبا رافع) ليهودي كان جارًا له، يطلب منه أنْ يقرضه شيئًا من دقيق إلى هلال رجب؛ لِيُكْرِم به ضيفه، فأبى أن يعطيه إلا برَهْن، فقال ﷺ لمَّا بلغه ذلك: **«والله إني لأمين في السماء، أمين في الأرض»** فأرسل النبي ﷺ له درعه الحديد، فأنزل الله هذه الآية تعزية لرسول الله ﷺ [٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف] أي: ليكون هذا الابتلاء سببًا للعذاب أو للتنعيم.

والله سبحانه قد يزيد للعبد في الرزق استدراجًا له؛ لِيُظْهِر في الوجود هل يكون من الشاكرين أم لا؟ وما عند الله خير وأبقى، فثواب الله دائم لا ينقطع، وما عنده خير مما في الدنيا، وما يعطيك إياه في الآخرة هو خير لك وأبقى، فهو دائم لا ينقطع، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى].
فعلى المرء أن يوازن بين ما يبقى وما يغنى.

كان بعض السلف ومنهم عروة بن الزبير إذا دخل على السلاطين يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢٤٦٦) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤١٠٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، و صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٥) والسلسلة الصحيحة (١٣٥٩).

(٢) «سنن ابن ماجه» برقم (٤١٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣١٤) ومشكاة المصابيح (٢٦٣) والتعليق الرغيب (٤/ ٨٣).

(٣) يُنظَر: الطبري (١٦/ ٢٣٥) و«الدر المنثور» (٤/ ٣١٢) والسيوطي (١٨٢) و«زاد المسير» (٣٣٥) والقرطبي (١١/ ٢٦٢) والواحدي (٢٥٦) وقد أخرجه ابن أبي شيبة وابن راهويه وأبو يعلى، وهو في البزار (٣٨٦٣) وعند أبي نعيم في «المعرفة» (٨٦٥) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٤٩).

ثم يذهب إلى أهل بيته، ويقول لهم: الصلاة الصلاة، يرحمكم الله.

٨- قالت عائشة ﵂: والله يابن أختي إنا كنا لننظر الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين ما يوقد في أبيات رسول الله نار، وإن أبياته آنذاك لتسع[1] أي: ليس هناك من طبيخ ولا إدام، قال ابن الزبير: فماذا كان طعامكم يا خالة؟ قالت: الأسودين: الماء، والتمر.

٩- ومن آثار العمل بهذه الآية، ما جاء في صحيح البخاري وغيره أن فاطمة ﵂ بلغها أن سَبْيًا جيء به إلى النبي ﷺ فأتت تشتكي إليه ما تلْقى من الرَّحى، تسأله خادمًا من السبْي، فلم تجده، فأخبرت عائشة بذلك رسول الله ﷺ فجاءها النبي ﷺ وقد أخذتْ هي وعليٌّ مضجعهما، فجلس في جانب الفراش، وقال لها ولعلي: **«ألا أُخبركما بخير لكما مما سألتما؟ تسبِّحان وتحْمدان وتكبِّران دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، فذلك خير لكما من خادم»** قالت فاطمة: فلم أجد بعد ذلك ما كنتُ أجد من مشقة وتعب.

وقد ذكرت الآية أن علاج تكذيب المكذبين، وعنادِ المعاندين، وإيلام المخالفين، يكون بالصبر والاحتساب، وأن علاج التعب الجسمي والألم البدني يكون بكثرة التسبيح والاستغفار، ويكون بالتكبير والصلاة؛ فإن هذه العبادات علاج قوي للروح، ولها تأثير بالغ عليها، فإذا قويت الروح انعدم الإحساس بألم البدن، وإلا فما علاقة التعب الجسماني بالتسبيح والتحميد والتكبير الذي أمر به الرسول ﷺ فاطمة ﵂ وهي تشتكي له ألم طحن الحبوب بالرحى، ونقْل الماء من مكان إلى مكان، ما لم يكن هذا التسبيح غذاء للروح، وإذا قويت الروح لا يشعر الجسد بالتعب.

والآية لا تأمر بالكسل وعدم العمل، إنما تنهى عن التطلع لما في أيدي الناس من حُطام الدنيا، وأن يرضى الإنسان برزقه، ولا يحزن على ما فاته، ولا يجعل الدنيا أكبر همه، ويستعين بالعبادة على طلب الرزق:

١- كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ

(١) الحديث في «صحيح البخاري» (٢٥٦٧، ٦٤٥٩) وفي «صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

نَطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

٤- وقال أيضًا: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

التَّوْجِيهُ الثَّالِثُ: الاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ عَلَى تَعْوِيدِ أَهْلِ بَيْتِهِ الصَّلَاةَ

١٣٢- ﴿وَأْمُرْ[1] أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

هذا توجيه لكل مسلم، فالمهمة الأولى للمسلم، أن يجعل بيته بيتًا مسلمًا، زوجته أو زوجاته وأولادَه وأهلَ بيته جميعًا، يأمرهم بالصلاة؛ ليقيهم عذاب النار، وتكون صلتهم بالله تعالى قوية، يقول سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

لا يكفي أن تصلي وحدك وتترك ولدك في البيت يلعب، أو في الشارع يلهو، أو يتفرج على مباراة أو تلفاز، أو يكون نائمًا، أو يذاكر دروسه، ونحو ذلك، الولد المميز مسؤولية، لابدأن تحرص عليها -أيها المسلم- وتغرس في ولدك حب الصلاة والعبادة، وتوقظه فجرًا، وتأتي به إلى المسجد، ما دام قد بلغ الْحُلُم، وتأمر أهلك في بيتك بالصلاة، وتصبر عليها، وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر، أو أصابته فاقة أو خصاصة، فزع إلى الصلاة، ودعا أهله إليها.

وقد أمر الله رسوله بما هو أعظم مما يأمر به أهله، وهو أن يصطبر على الصلاة.

والاصطبار: هو حبس النفس على الطاعة. ومعنى ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: بالغ في الصبر وتحمُّل الأذى، وجاهد نفسك في المواظبة عليها سيما صلاة الفجر فإن من ضيع الصلاة كان لما سواها أضيع.

وإذا قابل بعض الناس مشقة في تعليم أهل بيوتهم الصلاة، فعليهم أن يتحلَّوْا بالصبر، والاستمرار معهم دون يأس، ولتكن صلاتهم خشوعًا، مع المحافظة على ركوعها وسجودها.

---

(١) قرأ ورش وأبو عمرو بخلفه بإبدال همزة (وأمر) ألفًا، وكذا حمزة وقفًا، والباقون بتحقيقها في الحالين.

أخرج ابن عساكر وغيره، عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: لما نزلت ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ كان النبي ﷺ يجيء إلى باب عليٍّ صلاة الغداة، ثمانية أشهر، يقول: «**الصلاة رحمكم الله** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾»[1] [الأحزاب: ٣٣].

ثم قال تعالى: ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك أن ترزق نفسك، ولا أن ترزق ولدك، فقد تكَفَّل الله برزقك ورزق ولدك، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ فلا تجعل طلب الرزق والمعيشة سببًا للتقصير في العبادة، أو في أداء حق الله تعالى.

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فرزق الله جل شأنه يأتي للخلق جميعًا: للمؤمن والكافر، وللصالح والفاسد، ولكن العاقبة المحمودة يوم لقاء رب العالمين، هي لعباده المتقين.

الْقُرْآنُ هُوَ الْمُعْجِزَةُ الْكُبْرَى، وَالنَّارُ مَوْعِدُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ

١٣٣- ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم[2] بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾

وقال المكذبون: هلا يأتينا محمد بمعجزة تدل على صدقه وفي هذا تنويه بشأن لقرآن العظيم، وبيانُ أنه أعظم المعجزات، وفي هذا ردٌّ على ما يطلبه الكفار من الرسول ﷺ من الآيات الخارقة، كعصا موسى، أو ناقة صالح، وكعلاج الأكمه والأبرص، قال تعالى في الرد عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والمراد بالبينة في الآية: محمد ﷺ وكتابه القرآن، أى أولم يكفهم هذا القرآن وقد وعد الله به أهل الكتب السالفة في كتبهم، وهم يعرفون أن محمدًا رسول الله، أكثر من معرفتهم لأبنائهم ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

---

(١) ابن عساكر (٤٢/ ١٣٦).

(٢) قرأ ابن كثير وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف وابن وردان بخلف عنه بالياء في (تأتهم) على التذكير، والباقون بتاء التأنيث، ومعهم ابن وردان في وجهه الآخر، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث غير حقيقي.

وقد بيَّن سبحانه أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين معًا، لن يفارقوا ما هم عليه من ديانة حتى تأتيهم البينة، وهي رسول الله ﷺ يقرأ هذا القرآن: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ②﴾ [البينة].

وهذه البينة يَرُدُّ الله تعالى بها على من يتعللون لعدم إيمانهم يوم القيامة بعدم إرسال الرسول، أو إنزال الكتاب عليهم، فيقول سبحانه: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: ١٥٧]. ومن لم يؤمن بخاتم الرسل من جميع البشر فالنار موعده.

في الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما من الأنبياء نبي إلا أُعطي ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[1].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي، ولا نصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»**[2].

وفي الآية ردٌّ على من لم يَكْتفِ بمعجزات محمد ﷺ وكتابه، ويطلب أدلة أخرى على رسالته ﷺ، ولم يؤمن بأن هذا القرآن قد سبق التبشير به في الكتب السابقة، وأنه أعظم المعجزات القائمة إلى يوم القيامة على تعاقب الأجيال، واختلاف ألوان الناس وألسنتهم.

أو لم يكف المكذبين بك -يا محمد- هذا القرآن المصدق لما في الكتب السابقة، وهو مشتمل على أخبار الأمم الماضية، وفيه بيان ما حلَّ بهذه الأمم، وفيه من أمور الغيب والتشريع والهدايات والحِكَم والمواعظ والآداب، ما يزيد على ما في الكتب السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] أي: مشتملًا على ما في الكتب السابقة وزيادة.

وهذا القرآن معجز، وهو قائم بين أيديهم إلى قيام الساعة ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٥٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣).

ﭐلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١].

و﴿ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي كتب الأنبياء السابقين، كالتوراة والإنجيل، وقد بيَّنها الله تعالى في قوله: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى]. وقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم]. وفي هذه الكتب، التصريح ببعثة محمد ﷺ، والتبصير به، ولكنهم لا يؤمنون بها عنادًا وجحودًا واستكبارًا.

أما الآيات الخارقة التي أشارت إليها الآية فقد جاء ذكرها في مواطن كثيرة من كتاب الله عز وجل، منها قوله ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء وبين سبحانه السبب في عدم إجابتهم لما طلبوا في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقوله ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠]

قال تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: ٥١]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس]

قَطْعُ أَعْذَارِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

١٣٤- ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤﴾

في هذه الآية قطع لأعذار كل من كذَّب برسالة محمد ﷺ، وبيان أن الله تعالى لو أهلكهم قبل أن يرسل إليهم محمدًا ﷺ لقامت لهم الحجة يوم القيامة.

أي: ولو أنا أهلكنا المكذبين بخاتم النبيين بعذاب نزل عليهم قبل أن يرسل الله إليهم رسولًا، لقالوا على سبيل الاعتذار يوم القيامة: ربنا، لماذا لم ترسل إلينا رسولًا، أو كتابًا فنؤمن به ونتبعه؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾ [القصص].

وقد أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ

﴾ [النساء: ١٦٥] وقد أرسلهم الله تعالى لإيقاظ العقول والفطر؛ لأن الله تعالى لا يؤاخذ أهل الفترة حتى يبعث إليهم رسولًا، وإن قريشًا قبل بعثة محمد ﷺ كانوا أهل فترة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

خِتَامُ السُّورَةِ

١٣٥- ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ[1] السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

هذا أمر من الله تعالى لنبيه محمدا ﷺ أن يقول لمن يقترحون عليه معجزات أخرى غير القرآن عنادًا وتعنتًا؛ ومن يتربصون به ريب المنون وأن يحل أجله، انتظروا وتربصوا، فأنا متربص ومنتظر معكم، وكانوا يتربصون برسول الله الموت، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور].

والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

و الحُسْنيان: الشهادة، أو الجنة والنصر، فكل مِنَّا ينتظر دوائر الزمان، لمن يكون النصر والفلاح؟ فانتظروا، فستعلمون يوم القيامة في الموقف العظيم مَنْ هو المهتدي منا للحق، نحن أم أنتم؟ ومَنْ مِنا على الهدى، ومن منا على الضلال؟

قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

وقال سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة].

وفي النهاية ستعلمون من أصحاب الصراط السوي فاهتدى واستقام بسلوكه، أنحن أم أنتم فالمهتدي هو الفائز الناجي، والضال هو الخاسر الهالك، نعوذ بالله من الضلال والخسران.

تم تفسير (سورة طه) ولله الحمد والمنة.

---

(١) قرأ رويس وقنبل بخلف عنه بالسين في (الصراط) على الأصل، وهي لغة عامة العرب، وقرأ حمزة بخلف عن خلاد بإشمام الصاد صوت الزاي، وهي لغة قيس، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة، وهو الوجه الثاني لخلاد وقنبل، وهي لغة قريش.

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة